

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

ذكر الإخبار عن الأحداث التي كانت فيها

فما كان فيها من ذلك إغارة لإسرخان الخوارزمي في جمع من الترك على المسلمين بناحية إرمينية وسببه من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيراً ، ودخلهم تفليس ، وقتلهم حرب بن عبد الله الراوندي الذي تنسب إليه الحرية ببغداد . وكان حرب هذا - فيما ذكر - مقيماً بالموصل في ألفين من الجند ، لمكان الخوارج الذين بالجزيرة . وكان أبو جعفر حين بلغه تحزب^(١) الترك فيما هناك وجهه إليهم لحربهم جبرئيل بن يحيى ، وكتب إلى حرب يأمره بالمسير معه ؛ فسار معه حرب ، فقتل حزب وهزم جبرئيل ، وأصيب من المسلمين من ذكرت .

* * *

[ذكر الخبر عن مهلك عبد الله بن علي بن عباس]

وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي بن عباس . واختلفوا في سبب هلاكه ، فقال بعضهم ما ذكره علي بن محمد النوفلي عن أبيه أن أبا جعفر حج سنة سبع وأربعين ومائة بعد تقدمته^(٢) المهدي على عيسى بن موسى بأشهر ، وقد كان عزل عيسى بن موسى عن الكوفة وأرضها ، وولّى مكانه محمد بن سليمان ابن علي ، وأوفده إلى مدينة السلام ، فدعا به ، فدفع إليه عبد الله بن علي سرّاً في جوف الليل ، ثم قال له : يا عيسى ؛ إن هذا أراد^(٣) أن يزيل النعمة عنك ، وأنت وليّ عهدي بعد المهدي ، والخلافة صائرة إليك ؛ فخذها إليك فاضرب عنقه ، وإياك أن تحور^(٤) أو تضعف ، فتقض عليّ أمرى الذي دبرت .

(٢) ج : « تقدمه » .

(٤) ج : « تحور » .

(١) ج : « تحرك » .

(٣) ج : « يريد » .

ثم مضى أوجهه ، وكتب إليه من طريقه ثلاث مرات يسأله : ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه فيه ؟ فكتب إليه : قد أنفذت ما أمرت به ؛ فلم يشك أبو جعفر في أنه قد فعل ما أمره به ، وأنه قد قتل عبد الله بن عليّ ؛ وكان عيسى حين دفعه إليه ستره^(١) ؛ ودعا كاتبه يونس بن فروة ، فقال له : إن هذا الرجل دفع إلى عمّه ، وأمرني فيه بكذا وكذا . فقال له : أراد أن يقتلك ويقتله ، أمرك بقتله سرّاً ، ثم يدعيه عليك علانية ثم يُقيدك به . قال : فما الرأي ؟ قال : الرأي أن تستره في منزلك ، فلا تطلع على أمره أحداً ، فإن طلبه منك علانيةً دفعته إليه علانيةً ، ولا تدفعه إليه سرّاً أبداً ؛ فإنه وإن كان أسرّه إليك ؛ فإن أمره سيظهر . ففعل ذلك عيسى .

وقدم المنصور ودسّ إلى محبته من يحركهم على مسألته هبة عبد الله بن عليّ لهم ، ويطعمهم في أنه سيفعل . فجاءوا إليه وكلموه ورققوه ، وذكروا له الرحيم ، وأظهروا له رقة ، فقال : نعم ، عليّ بعيسى بن موسى ؛ فأتاه فقال له : يا عيسى ؛ قد علمت أني دفعت إليك عمّي وعمك عبد الله بن عليّ قبل خروجي إلى الحجّ ، وأمرتُك أن يكون في منزلك ، قال : قد فعلت ذلك يا أمير المؤمنين ، قال : فقد كلمني محبته في ، فرأيت^(٢) الصّبح عنه وتخليّة سبيله ؛ فأتنا به . فقال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ! قال : ما أمرتُك بقتله ، إنما أمرتُك بحبسه في منزلك . قال : قد أمرتني بقتله ، قال له المنصور : كذبت ، ما أمرتُك بقتله . ثم قال لمحبته : إن هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم ، وادّعى أني أمرته بذلك ، وقد كذب ، قالوا : فادفعه إلينا نقتله به ، قال : شأنكم به ، فأخرجوه إلى الرّحبة ، واجتمع الناس ، وشهر الأمر ، فقام أحدهم فشهر سيفه ، وتقدّم إلى عيسى ليضربه ، فقال له عيسى : أفاعل أنت ؟ قال : إى والله ، قال : لا تعجلوا ، ردوني إلى أمير المؤمنين ، فردّوه إليه ، فقال : إنما أردت بقتله أن تقتلني ؛ هذا عمّك حيّ سوى ، إن أمرتني بدفعه إليك دفعته . قال : اتنا به ، فأتاه به ، فقال له عيسى : دبّرت عليّ أمراً فخشيته ؛ فكان كما خشيت ؛ شأنك وعمّك . قال : يدخل حتى

٣٣٠/٣

أرى رأيي. ثم انصرفوا، ثم أمر به فجعل في بيت أساسه ملح، وأجرى في أساسه الماء، فسقط عليه فوات؛ فكان من أمره ما كان. وتوفى عبد الله بن علي في هذه السنة ودفن في مقابر باب الشام؛ فكان أول من دفن فيها. وذكر عن إبراهيم بن عيسى بن المنصور بن بريقه أنه قال: كانت وفاة عبد الله بن علي في الحبس سنة سبع وأربعين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة.

٣٣١/٣

قال إبراهيم بن عيسى: لما توفى عبد الله بن علي ركب المنصور يوماً ومعه عبد الله بن عياش، فقال له وهو يجاريه: أتعرف ثلاثة خلفاء، أسماؤهم على العين مبدؤها، قتلوا ثلاثة خوارج مبدأ أسمائهم العين؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامة؛ إن علياً قتل عثمان - وكذبوا - وعبد الملك بن مروان قتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعبد الله بن الزبير وعمر بن سعيد وعبد الله بن علي سقط عليه البيت، فقال له المنصور: فسقط على عبد الله بن علي البيت، فأنا ما ذنبي؟ قال: ما قلت إن لك ذنباً.

* * *

[ذكر خبر البيعة للمهدي وخلع عيسى بن موسى]

وفي هذه السنة خلع المنصور عيسى بن موسى وبايع لابنه المهدي، وجعله ولي عهد من بعده. وقال بعضهم: ثم من بعده عيسى بن موسى.

* ذكر الخبر عن سبب خلعه إياه وكيف كان الأمر في ذلك :

اختلف في الذي وصل به أبو جعفر إلى خلعه، فقال بعضهم: السبب الذي وصل به أبو جعفر إلى ذلك هو أن أبا جعفر أقر عيسى بن موسى بعد وفاة أبي العباس على ما كان أبو العباس ولاه من ولاية الكوفة وسوادها، وكان له مكرماً مجلاً، وكان إذا دخل عليه^(١) أجلسه عن يمينه، وأجلس المهدي عن يساره؛ فكان ذلك فعله به؛ حتى عزم المنصور على تقديم المهدي في الخلافة عليه. وكان أبو العباس جعل الأمر من بعده لأبي جعفر، ثم من بعد

٣٣٢/٣

(١) ب، هـ: «إليه».

أبى جعفر لعيسى بن موسى ؛ فلما عزم المنصور على ذلك كلم عيسى بن موسى فى تقديم ابنه عليه برفيق من الكلام ، فقال عيسى : يا أمير المؤمنين ؛ فكيف بالآيمان والمواثيق التى على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الآيمان ! ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين . فلما رأى أبو جعفر امتناعه ، تغير لونه وباعده بعض المباحدة ، وأمر بالإذن للمهدى قبله ؛ فكان يدخل فيجلس عن يمين المنصور فى مجلس عيسى ، ثم يؤذن لعيسى فيدخل فيجلس دون مجلس المهدى عن يمين المنصور أيضاً ، ولا يجلس عن يساره فى المجلس الذى كان يجلس فيه المهدى ، فيغتاظ من ذلك المنصور ، ويبلغ منه ، فيأمر بالإذن للمهدى ثم يأمر بعده بالإذن لعيسى بن على ، فيلبث هنيهة ، ثم عبد الصمد بن على ، ثم يلبث هنيهة ، ثم عيسى بن موسى . فإذا كان بعد ذلك قدم فى الإذن للمهدى على كل حال ، ثم يخلط فى الآخرين ، فيقدم بعض من أخر ويؤخر بعض من قدم ويؤهم عيسى ابن موسى أنه إنما يبدأ بهم لحاجة تعرض ولما كرتهم بالشئ^(١) من أمره ؛ ثم يؤذن لعيسى بن موسى من بعدهم ؛ وهو فى ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئاً ، ولا يستعجب^(٢) . ثم صار إلى أغلظ من ذلك ؛ فكان يكون فى المجلس معه بعض ولده ، فيسمع الحفر فى أصل الحائط فيخاف أن يختر عليه الحائط ، ويتثر عليه التراب ، وينظر إلى الخشبة من سقف المجلس قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه ، فيأمر من معه من ولده بالتحويل ، ويقوم هو فيصلئ ، ثم يأتيه الإذن فيقوم فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفذه ؛ فإذا رآه المنصور قال له : يا عيسى ، ما يدخل على أحد بمثل^(٣) هيتك من كثرة الغبار عليك والتراب ! أفكل^(٤) هذا من الشارع ؟ فيقول : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ وإنما يكلمه المنصور بذلك ليستطمعه^(٥) أن يشكو إليه شيئاً فلا يشكو ؛ وكان المنصور قد أرسل إليه فى الأمر الذى

٣٣٣/٣

(١) ج : « الشئ » . (٢) ج : « يستغيث » . (٣) ج « مثل » .

(٤) ج ، ه : « فكل » . (٥) ج : « يستطمعه » .

أراد منه عيسى بن عليّ ، فكان عيسى بن موسى لا يحمّد منه مدخله فيه ؛ كأنه كان يغري به . ف قيل : إنه دسّ لعيسى بن موسى بعض ما يتلفه ؛ فنهض من المجلس ، فقال له المنصور : إلى أين يا أبا موسى ؟ قال : أجد غمزاً يا أمير المؤمنين ، قال : ففي الدار إذاً ! قال : الذي أجده أشدّ مما أقيم معه في الدار ، قال : فإلى أين ؟ قال : إلى المنزل ؛ ونهض فصار إلى حرّاقته ، ونهض المنصور في أثره إلى الحرّاقة متفرّعاً له ، فاستأذنه عيسى في المسير إلى الكوفة ، فقال : بل تقيم فتعالجها هنا ، فأبى وألح عليه ، فأذن له . وكان الذي جرّاه على ذلك طبيبه بختيشوع أبو جبرئيل ، قال : إني والله ما أجتري على معالجتك بالحضرة ، وما آمن على نفسي . فأذن له المنصور ، وقال له : أنا على الحجّ في سنتي هذه ، فأنا مقيم عليك بالكوفة حتى تفيق إن شاء الله .

وتقارب وقتُ الحجّ ، فشخص المنصور حتى صار بظهر الكوفة في موضع يدعى الرصافة ، فأقام بها أياماً ، فأجرى هناك الخيل ، وعاد عيسى غير مرة ، ثم رجع إلى مدينة السلام ولم يحجّ ، واعتلّ بقلّة الماء في الطريق . وبلغت العلّة من عيسى بن موسى كلّ مبلغ ؛ حتى تمتعت شعره ، ثم أفاق من علته تلك ، فقال فيه يحيى بن زياد بن أبي حزابة البرجُميّ أبو زياد :

أفَلَتَ من شُرْبَةِ الطَّيِّبِ كما	أفَلَتَ ظَبْيُ الصَّرِيمِ من قُتْرِهِ
من قَانِصٍ يُنْفِذُ الْفَرِيصَ إذا	رَكِبَ سَهْمَ الْحُتُوفِ في وَتْرِهِ
دافعَ عنكَ المَلِكُ صَوْلَةً لِي	ثَبِيرُ يَدِ الْأَسَدِ في ذَرَى خَمْرِهِ ^(١)
حتى أَتَانَا وفيهِ دَاخِلَةٌ	تُعرفُ في سَمْعِهِ وفي بَصَرِهِ
أَزْعَرَ قد طَارَ عن مَفَارِقِهِ	وَحَفُّ أَثِيثِ النَّبَاتِ من شَعْرِهِ

وذكر أن عيسى بن عليّ كان يقول للمنصور : إن عيسى بن موسى إنما يمتنع من البيعة للمهديّ لأنه يرتص هذا الأمر لابنه موسى ، فموسى

الذى يمنعه . فقال المنصور لعيسى بن عليّ : كلّم موسى بن عيسى وخوفه على أبيه وعلى ابنه ؛ فكلّم عيسى بن عليّ موسى في ذلك ، فأبأسه ، فتهدده وحذّره غضب المنصور . فلما وجل موسى وأشفق وخاف أن يقع به المكروه ، أتى العباس بن محمد ، فقال : أيّ عمّ ، إني مكلّمك بكلام ، لا والله ما سمعه مني أحد قطّ ، ولا يسمعه أحد^(١) أبداً ؛ وإنما أخرجني مني إليك موضع الثقة بك والطمأنينة إليك ؛ وهو أمانة عندك ؛ فإنما هي نفسي أنثّلها^(٢) في يدك . قال : قل يا ابن أخي ؛ فلك عندى ما تحبّه ، قال : أرى ما يُسام أبى من إخراج هذا الأمر من عنقه وتصديره للمهديّ ؛ فهو يؤدّي بصنوف الأذى والمكروه ، فيتهدّد مرة ويؤخّر إذنه مرة ، وتهدّم عليه الحيطان مرّة ، وتدسّ إليه الختوف مرّة . فأبى لا يعطى على هذا شيئاً ؛ لا يكون ذلك أبداً ؛ ولكنّ هاهنا وجهاً ، فلعله يعطى عليه إن أعطى وإلاّ فلا ، قال : فما هو يا ابن أخي ؟ فإنك قد أصبت ووقفت^(٣) ، قال : يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له : يا عيسى ، إني أعلم أنك لست تضمنّ بهذا الأمر على المهديّ لنفسك ؛ لتعالى سنك وقرب أجلك ؛ فإنك تعلم أنه لا مدّة لك تطول فيه ؛ وإنما تضمنّ به لمكان ابنك موسى ؛ أفترانى أدعُ ابنك يبقّى بعدك ويبقى ابنيّ معه فيلى عليه ! كلاّ والله لا يكون ذلك أبداً ؛ ولأبنيّ^(٤) على ابنك وأنت تنظر حتى تباأس منه ، وآمن أن يلبى على ابنيّ . أترى ابنك آثر عندى من ابنيّ ! ثم يأمر بى ؛ فإذا خنّقت وإما شُهر على سيف . فإن أجاب إلى شيء فعسى أن يفعل بهذا السبب ؛ فأما بغيره فلا . فقال العباس : جزاك الله يا ابن أخي خيراً ، فقد فديت أباك بنفسك ، وآثرت بقاءه على حظك ، نعم الرأى رأيت ، ونعم المسلك سلكت !

ثم أتى أبا جعفر فأخبره الخبر ، فجزى المنصور موسى خيراً ؛ وقال : قد أحسن وأجمل ، وسأفعل ما أشار به إن شاء الله ، فلما اجتمعوا وعيسى ابن عليّ حاضر ، أقبل المنصور على عيسى بن موسى ، فقال : يا عيسى ؛ إني

(١) ج : « ولا أسمه أحداً » . (٢) ج : « أبلاها » .

(٣) كذا في ب هـ ، وهو الصواب ، وفي ط : « ورققت » ، وفي ج : « ورققت » .

(٤) ب : « لأبني » .

لا أجهل مذهبك الذى تضمه ، ولا مداك الذى تجرى إليه فى الأمر الذى سألتك ، إنما تريد هذا الأمر لابنك هذا المشئوم عليك وعلى نفسه ؛ فقال عيسى بن على : يا أمير المؤمنين ، غمزنى البؤل ، قال : فندعو^(١) لك بإناء تبول فيه ، قال : أفى مجلسك يا أمير المؤمنين ! ذاك ما لا يكون ، ولكن أقرب البلايع منى أدل^(٢) عليها^(٣) . فأتيتها . فأمر من يدله ، فانطلق . فقال عيسى ابن موسى لابنه موسى : قم مع عمك ، فاجمع عليه ثيابه من ورائه ، وأعطه منديلا إن كان معك ينشّف به ، فلما جلس عيسى يبول جمع موسى عليه ثيابه من ورائه وهو لا يراه ، فقال : من هذا ؟ فقال : موسى بن عيسى ، فقال : بأبى أنت وبأبى أبّ ولدك ! والله إنى لأعلم أنه لا خير فى هذا الأمر بعدكما ، وإنكما لأحقّ به ؛ ولكن المرء مغرّى بما تعجّل ، فقال موسى فى نفسه : أمكننى والله هذا من مقاتله ؛ وهو الذى يغرى بأبى ، والله لأقتلنه بما قال لى ، ثم لا أبالى أن يقتلنى أمير المؤمنين بعده ، بل يكون فى قتله عزاء لأبى وسلوّ عنى إن قتلت . فلما رجعا إلى موضعهما قال موسى : يا أمير المؤمنين ، أذكر لأبى أمراً ؟ فسرّه ذلك ، وظنّ أنه يريد أن يذاكره بعض أمرهم ، فقال : قم ، فقام إليه ، فقال : يا أبت^(٣) ؛ إن عيسى بن على قد قتلك وإياى قتلات بما يُبلغ عنا ، وقد أمكننى من مقاتله ، قال : وكيف ؟ قال : قال لى كيت وكيت ، فأخبر أمير المؤمنين فيقتله ؛ فتكون قد شفيت نفسك وقتلته قبل أن يقتلك وإياى ثم لا نبالى ما كان بعد . فقال : أف لهذا رأياً ومذهباً ! ائتمنك عمك على مقالة أراد أن يسرك بها ، فجعلتها سبباً لمكروهه وتلفه ! لا يسمعن هذا منك أحد ، وعدّ إلى مجلسك . فقام فعاد ، وانتظر أبو جعفر أن يرى لقيامه إلى أبيه وكلامه أثراً فلم يره ، فعاد إلى وعيده الأوّل وتهدده ، فقال : أما والله لأعجلنّ لك فيه ما يسوءك ويؤنسك من بقائه بعدك ، أيا ربيع ، قم إلى موسى فاخفته بحائله ، فقام الربيع فضمّ حائله عليه ، فجعل يخنقه بها خنقاً رويداً ، وموسى يصيح : الله الله يا أمير المؤمنين فى دى ! فإنى لبعيد مما تظنّ بى ، وما يبالى عيسى أن تقتلنى وله بضعة عشر نفراً ذكراً -

٣٣٧/٣

(١) ج : « فندعو » . (٢) ب : « عليه » . (٣) ب : « يا أبه » .

كلهم عنده مثلى - أو يتقدمنى ؛ وهو يقول : أشدُّ يا ربيع ، اثت على نفسه ،
والربيع يوهم أنه يريد تلفه ، وهو يراخى خناقه ، وموسى يصيح ، فلما رأى
ذلك عيسى قال : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الأمر يبلغ منك هذا كله
فر بالكف عنه ؛ فإنى لم أكن لأرجع إلى أهلى ؛ وقد قتل بسبب هذا الأمر
عبدٌ من عبيدى ، فكيف بابنى ! فيها أنا أشهدك أن نسأى طوالق وماليكى
أحرار ، وما أملك فى سبيل الله ، تصرف ذلك فىمن رأيت يا أمير المؤمنين ؛
وهذه يدى بالبيعة للمهدى . فأخذ بيعته له على ما أحب ثم قال : يا أبا موسى ؛
إنك قد قضيت حاجتى هذه كارهاً ، ولى حاجة أحب أن تقضىها طائعا ،
فتغسل بها ما فى نفسى من الحاجة الأولى ، قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟
قال : تجعل هذا الأمر من بعد المهدى لك ، قال : ما كنت لأدخل فيها
بعد إذ خرجت منها . فلم يدعه هو ومن حضره من أهل بيته حتى قال : يا أمير
المؤمنين ؛ أنت أعلم . فقال بعض أهل الكوفة - ومرّ عليه عيسى فى موكبه : هذا
هذا الذى كان غداً ، فصار بعد غدٍ .

٣٣٨/٣

وهذه القصة - فيما قيل - منسوبة إلى آل عيسى أنهم يقولونها .

* * *

وأما الذى يحكى عن غيرهم فى ذلك ؛ فهو أن المنصور أراد البيعة
للمهدى ، فكاتب الجنند فى ذلك ، فكانوا إذا رأوا عيسى راكباً أسمعه ما كره ،
فشكا ذلك إلى المنصور ، فقال للجنند : لا تؤذوا ابن أخى ؛ فإنه جليدة بين
عينى ، ولو كنت تقدمت إليكم لضربت أعناقكم ؛ فكانوا يكفون ثم يعودون ؛
فكث بذلك زماناً ، ثم كتب إلى عيسى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى
عيسى بن موسى . سلامٌ عليك ؛ فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو .
أما بعد ؛ فالحمد لله ذى المن القديم ، والفضل العظيم ، والبلاء الحسن الجميل ،
الذى ابتداء الخلق بعلمه ، وأنفذ القضاء بأمره ؛ فلا يبلغ مخلوق كنه حقه ،
ولا يتال فى عظمتة كنهه ذكره ، يدبر ما أراد من الأمور بقدرته ، ويصدها عن
مشيئته ؛ لا قاضى فيها غيره ، ولا نفاذ لها إلا به ، يجريها على أذلالها ؛ لا يستأمر

٣٣٩/٣

فيها وزيراً^(١) ، ولا يشاور فيها معيناً^(٢) ، ولا يلتبس عليه شيء أرادته ، يمضي قضاؤه فيما أحبّ العباد وكرهوا^(٣) ؛ لا يستطيعون منه امتناعاً ، ولا عن أنفسهم دفاعاً ، ربّ الأرض ومنّ عليها ، له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين .

ثم إنك قد علمت الحال التي كنا عليها في ولاية الظلمة ، كيف كانت قوتنا وحيلتنا ، لما اجترأ عليه أهل بيت اللعنة فيما أحببنا وكرهنا ، فصبرنا أنفسنا على ما دعونا إليه من تسليم الأمور إلى^(٤) من أسندوها إليه ، واجتمع رأيهم عليه ، نسام الخسف ، ونوطاً بالعسف ، لاندفع ظلماً ، ولا نمنع ضيماً^(٥) ، ولا نعطي حقاً ، ولا ننكر منكراً ، ولا نستطيع لها ولا لأنفسنا نفعاً ؛ حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وانتهى الأمر إلى مدته ، وأذن الله في هلاك^(٦) عدوه ، وارتاح بالرحمة لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فابتعث الله لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهدون عدوهم ، ويدعون إلى حبهم ، وينصرون دولتهم ؛ من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواء مؤتلفة ، فجمعهم الله على طاعتنا ، وألف بين قلوبهم بمودتنا على نصرتنا ، وأعزهم بنصرنا ، لم نلق منهم رجلاً ، ولم نشهر معهم إلا ما قذف الله في قلوبهم ؛ حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ، ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة ، يلقون الظفر ، ويعودون^(٧) بالنصر ، وينصرون بالرب ، لا يلقون أحداً إلا هزموه ، ولا واثراً^(٨) إلا قتلوه ؛ حتى بلغ الله بنا^(٩) بذلك أقصى مدانا وغاية منانا ومنتهى آمالنا وإظهار حقنا ، وإهلاك^(١٠) عدونا ؛ كرامة من الله جلّ وعزّ لنا ، وفضلاً^(١١) منه علينا ، بغير حول منا ولا قوة ، ثم لم نزل من ذلك^(١٢) في نعمة الله وفضله علينا ، حتى نشأ^(١٣) هذا الغلام ، فقذف الله له في قلوب أنصار الدين^(١٤) الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أول أمرنا ، وأشرب قلوبهم مودته ، وقسم في صدورهم محبته ، فصاروا

٣٤٠/٣

(١) ج : « خلقه » .	(٢) ج : « أحداً في أمره » .
(٣) ج : « أو كرهوا » .	(٤) ج : « لإلّاين » .
(٥) ج : « ظلماً » .	(٦) ج : « إهلاك » .
(٧) ج : « يفوزون » .	(٨) ج : « وافداً » .
(٩) ب : « لنا » .	(١٠) ج : « وهلاك » .
(١١) ج : « من به » .	(١٢) ب : « من » .
(١٣) ج : « شب » .	(١٤) ب : « أصحاب الدين » .

لا يذكرون إلا فضله ، ولا ينوّهون إلا باسمه ، ولا يعرفون إلا حقه ، فلمّا رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودّته ، وأجرى على ألسنتهم من ذكره ، ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ، ودعاء العامة إلى طاعته ، أيقنت نفس أمير المؤمنين أنّ ذلك أمرتولاه الله وصنّعه ؛ لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة ؛ للذى رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة ، وتتابع العامة ؛ حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهديّ بحق الأبوة ، لأفضت الأمور إليه . وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامة ، ولا يجد مناصاً^(١) عن خلاص ما دعوا إليه ، وكان أشدّ الناس على أمير المؤمنين في ذلك الأقرب فالأقرب من خاصّته وثقاته من حرسه وشرطه ؛ فلم يجد أمير المؤمنين بداً من استصلاحهم^(٢) ومتابعتهم ؛ وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحقّ من سارع إلى ذلك وحرص^(٣) عليه ، ورغب فيه وعرف فضله ، ورجأ بركته ، وصدق الرواية فيه ، وحمد الله إذ جعل في ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله ؛ إذ قال العبد الصالح : ﴿ فَهَسَبَ لِي مِّنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾^(٤) فوهب الله لأمر المؤمنين ولياً ، ثم جعله تقيّاً مباركاً مهديّاً^(٥) ، ولنبيّ صلى الله عليه وسلم سميّاً ، وسلب من انتحل هذا الاسم ، ودعا إلى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية ، وافتن بها أهل تلك الشقوة ، فانتزع ذلك منهم ، وجعل دائرة السوء عليهم ، وأقرّ الحق قراره ، وأعلن للمهديّ مناره ، وللدين أنصاره ، فأحبّ أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأى رعيّته ؛ وكنت في نفسه بمنزلة ولده ، يحبّ من سترك ورشدك وزينتك ما يحبّ لنفسه وولده ، ويرى لك^(٦) إذا بلغك من حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم أنك أسرع^(٧) إلى ما أحبّوا ممّا عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وإنّ ما كان

٣٤١/٣

(٢) ج : « استصلاحهم » .

(٤) سورة مريم ٥ ، ٦ .

(٦) ب : « ذلك » .

(١) ج : « ملاصاً » .

(٣) ج : « وحرص » .

(٥) ب : « مهديّاً » .

(٧) بعدها في ب : « الناس » .

عليه من فضل عرفوه للمهدي ، أو أمّلوه فيه ، كنت أحظي الناس بذلك ، وأسرهم به لمكانه وقربته ؛ فاقبل نصيح أمير المؤمنين لك ، تصلح وترشد . والسلام عليك ورحمة الله .

فكتب إليه عيسى بن موسى جوابها :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى . سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ؛ فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق وركوب الإثم في قطيعة^(١) الرحيم ، ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبّله ، وتفرّق بين ما ألفت الله جمعه^(٢) ، وتجمع بين ما فرق الله أمره ، مكابرة^(٣) لله في سمائه ، وحولاً على الله في قضائه ، ومتابعة للشيطان في هواه ؛ ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره عن شيء خدعه ، ومن توكل على الله منعه ، ومن تواضع لله رفعه . إن الذي أسس عليه البناء ، وخط عليه الخداء من الخليفة الماضي عهد لي من الله ، وأمر نحن فيه سواء ؛ ليس لأحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد ؛ فإن وجب وفاء فيه فما الأول بأحقّ به من الآخر ، وإن حلّ من الآخر شيء فما حرّم ذلك من الأول ؛ بل الأول الذي تلاخبره وعرف أثره ، وكشف عما ظن به وأمل فيه أسرع ؛ وكان الحقّ أولى بالذي أراد أن يصنع أولاً ، فلا يدعوك إلى الأمن من البلاء اغتراراً بالله ، وترخيص للناس في ترك الوفاء ؛ فإن من أجابك إلى ترك شيء وجب لي واستحلّ ذلك مني ، لم يحرج إذا أمكنته الفرصة وأفتنته الرخصة أن يكون لي مثل ذاك منك أسرع ، ويكون بالذي أسست من ذلك أبجع . فاقبل العاقبة وارض من الله بما صنع ، وخذ ما أوتيت بقوة ، وكن من الشاكرين . فإن الله جلّ وعزّ زائد^(٤) من شكره ، وعنداً منه حقاً لا خلف فيه^(٥) ؛ فمن راقب الله حفظه ، ومن أضمر خلافه خذله ؛ والله يعلم خائنة الأعين وما

(٢) ب : « وجمعه » .

(٤) ط : « زائداً » ، وهو خطأ .

(١) ب : « وقطيعة » .

(٣) ج : « مكابدة » .

(٥) ج : « له » .

تخلى الصدور . ولسنا مع ذلك نأمن من حوادث الأمور وبَغْتَنَاتِ (١) الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتي ؛ فإن تعجلت بي أمرٌ كنت قد كُفِيتْ مؤونة با اغتممت له ، وسرت قُبُح ما أردت إظهاره ؛ وإن بقيت بعدك لم تكن أغرت صدرى ، وقطعت رحمى ؛ ولا أظهرت أعدائى فى اتباع أثرك ، وقبل أدبك ، وعمل بمثالك (٢) .

وذكرت أن الأمور كلها بيد الله ؛ هو مدبرها ومقدرها (٣) ومصدرها عن مشيئته ؛ فقد صدقت ؛ إن الأمور بيد الله ، وقد حق على من عترف ذلك ووصفه العمل به والانتهاؤ إليه . واعلم أننا لسنا جرنأ إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دفعنا (٤) عنها ضرراً ، ولا نلنا الذى عرفته (٥) بحولنا ولا قوتنا ؛ ولو وكِلنا فى ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا لضعفت قوتنا ، وعجزت قدرتنا فى طلب ما بلغ الله بنا ؛ ولكن الله إذا أراد عزماً لإنفاذ أمره ، وإنجاز وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عقده ؛ أحكم لإبرامه ، وأبرم لإحكامه ، ونور لإعلانه (٦) ، وثبت أركانه ؛ حين أسس بنيانه ؛ فلا يستطيع العباد تأخير ما عجل ، ولا تعجيل ما أخر ؛ غير أن الشيطان عدوٌ مُضِلٌ مُبِينٌ ؛ قد حذر الله طاعته ، وبين عداوته ، يزرع بين ولاة الحق وأهل طاعته ، ليفرق جمعهم ، ويشتت شملهم (٧) ، ويوقع العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومضايق البلايا ؛ وقد قال الله عز وجل فى كتابه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٨) . ووصف الذين اتقوا فقال : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٩) ؛ فأعِذ (١٠) أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيته وضمير سريره

٣٤٤/٣

(٢) ب : « وعمل مثالك » .

(٤) ب : « ندفع » ، ج : « دفعنا » .

(٦) ج : « أعلامه » .

(٨) سورة الحج ٥٢

(١٠) ب : « وأعِذ » .

(١) ج : « نقات » .

(٣) ج : « وموردها » .

(٥) ج : « نحن فيه » .

(٧) ج : « أبرم » .

(٩) سورة الأعراف ٢٠١

خلاف ما زين الله به جلّ وعزّ مَنْ كان قبله ؛ فإنه قد سألتهم أبناؤهم ، ونازعتهم أهواؤهم ، إلى مثل الذى همّ به أمير المؤمنين ؛ فأثروا الحقّ على ما سواه ، وعرفوا ^(١) أن الله لا غالب لقضائه ؛ ولا مانع لعظائه ؛ ولم يأمنوا مع ذلك تغيير النعم وتعجيل النقم ؛ فأثروا الآجلة ، وقبلوا العاقبة ، وكرهوا التغيير ، وخافوا التبديل ؛ فأظهروا الجميل ؛ فتمّم الله لهم أمورهم ، وكفاهم ما أهمّهم ، ومنع سلطانهم ، وأعزّ أنصارهم ، وكرّم أعوانهم ، وشرّف بنيانهم ؛ فتمّت النعم ، وتظاهرت المنن ، فاستوجبوا الشكر ، فتمّ أمر الله وهم كارهون . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله .

فلما بلغ أبا جعفر المنصور كتابه أمسك عنه ، وغضب غضباً شديداً ، وعاد الجند لأشدّ ما كانوا يصنعون ؛ منهم أسد بن المرزبان وعقبة بن سلم ونصر بن حرب بن عبد الله ؛ فى جماعة ؛ فكانوا يأتون باب عيسى ، فيمنعون مَنْ يدخل إليه ؛ فإذا ركب مشواً خلفه ^(٢) وقالوا : أنت البقرة التى قال الله : ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٣) ، فعاد فشكاهم ، فقال له المنصور : يا بن أخى ، أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى ؛ قد أشربوا حبّ هذا الفتى ؛ فلو قد تمّت بين يديك فيكون بينى وبينك لكفؤا . فأجاب عيسى إلى أن يفعل .

وذُكر عن إسحاق الموصلى ، عن الربيع ، أن المنصور لما رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه الذى ذكرنا ، وقع فى كتابه : « اسأل عنها تنل منها عروضا فى الدنيا ، وتأمين تبعتها فى الآخرة » .

وقد ذكر فى وجهه ^(٤) خلع المنصور عيسى بن موسى قول غير هذين القولين ؛ وذلك ما ذكره أبو محمد المعروف بالأسوارى بن عيسى الكاتب ، قال : أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، ويقدم المهدي عليه ، فأبى أن يجيبه إلى ذلك ، وأعيا الأمر أبا جعفر فيه ؛ فبعث إلى خالد بن برمك ، فقال له : كلّمه ياخالد ؛ فقد ترى امتناعه من البيعة

(١) هـ : « وعلموا » . (٢) ب ، هـ : « حوله » . (٣) سورة البقرة ٧١ (٤) ج : « أمر » .

للمهديّ ؛ وما قد تقدّمنا به في أمره ؛ فهل عندك حيلة فيه ، فقد أعيتنا وجوه الحيل ، وضلّ عنا الرأى ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ تضم إلى ثلاثين رجلاً من كبار الشيعة ، ممن تختاره . قال : فركب خالد بن برمك ، وركبوا معه ، فساروا^(١) إلى عيسى بن موسى ، فأبلغوه رسالة أبي جعفر المنصور ، فقال : ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله عزّ وجلّ الأمر لي ؛ فأداره خالد بكلّ وجه من وجوه الحذر والطمع ، فأبى عليه ؛ فخرج خالد عنه وخرجت الشيعة بعده ، فقال لهم خالد : ما عندكم في أمره ؟ قالوا : نبليخ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منّا ومنه ؛ قال : لا ، ولكننا نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ، ونشهد عليه إن أنكره ، قالوا له : افعل ، فإننا نفعل ، فقال لهم : هذا هو الصواب ، وأبليخ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد .

٣٤٦/٣

قال : فساروا إلى أبي جعفر وخالد معهم ، فأعلموه أنه قد أجاب ، فأخرج التوقيع بالبيعة للمهديّ ، وكتب بذلك إلى الآفاق ؛ قال : وأتى عيسى ابن موسى لما بلغه الخبر أبا جعفر منكرّاً ليما ادّعى عليه من الإجابة إلى تقديم المهديّ على نفسه ، وذكره الله فيما قد همّ به . فدعاهم أبو جعفر ، فسألهم فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب ؛ وليس له أن يرجع ؛ فأمضى أبو جعفر الأمر ، وشكر لخالد ما كان منه ؛ وكان المهديّ يعرف ذلك له ، ويصف جزالة الرأى منه فيه .

وذُكر عن عليّ بن محمد بن سليمان ، قال : حدثني أبي ، عن عبد الله بن أبي سليم مولّي عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : إني لأسيرُ مع سليمان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، وقد عزم أبو جعفر على أن يقدم المهديّ على عيسى بن موسى في البيعة ، فإذا نحن بأبي نُخَيْلَة الشاعر ، ومعه ابنه وعبداه^(٢) ؛ وكلّ واحد منهما يحمل شيئاً من متاع ، فوقف عليهم سليمان بن عبد الله ، فقال : أبا نُخَيْلَة ، ما هذا الذي أرى ؟ وما هذه الحال التي أنت فيها ؟ قال : كنتُ نازلاً على القعقاع^(٣) — وهو رجل من آل زرارة ، وكان يتولى

٣٤٧/٣

(١) ب : « فسار » . (٢) الأغاني : « ومعه ابنان له وعبد » .

(٣) الأغاني : « القعقاع بن معبد ، أحد ولد معبد بن زرارة » .

لعيسى بن موسى الشرطه - فقال لى : اخرج عنى ؛ فإن هذا الرجل قد اصطنعنى ؛ وقد بلغنى أنك قلت شعراً فى هذه البسيعة للمهدى ، فأخاف إن يبلغه ذلك أن يلزمنى لائمة لنزولك على ، فأزعجنى حتى خرجت . قال : فقال لى : يا عبد الله ؛ انطلق بأبى نُخَيْلَةَ فبؤته فى منزلى موضعاً صالحاً ، واستوص به وبعن معه خيراً . ثم خبر سليمان بن عبد الله أبا جعفر بشعر أبى نُخَيْلَةَ الذى يقول فيه :

عيسى فزحلفها إلى محمدٍ حتى تودى من يد إلى يد^(١)
فيكم وتغننى وهى فى تزويدٍ فقد رصينا بالغلام الأمرد

قال : فلما كان فى اليوم الذى بايع فيه أبو جعفر لابنه المهدى وقدّمه على عيسى ، دعا بأبى نُخَيْلَةَ ، فأمره فأنشد الشعر ؛ فكلّمه سليمان بن عبد الله ، وأشار عليه فى كلامه أن يسجل له العطية ، وقال : إنه شئ يبق لك فى الكتب ، ويتحدث الناس به على الدّهر ، ويخلد على الأيام ؛ ولم يزل به حتى أمر له بعشرة آلاف درهم^(٢) .

وذكر عن حيّان بن عبد الله بن حَبْران الحمّانى ، قال : حدثنى أبونُخَيْلَةَ ، قال : قدمت على أبى جعفر ، فأقمت ببابه شهراً^(٣) لا أصل إليه ، حتى قال لى ذات يوم عبد الله بن الربيع الحارثى : يا أبا نُخَيْلَةَ ، إن أمير المؤمنين يرشّح ابنه للخلافة والعهد ، وهو على تقدّمته بين يدى عيسى بن موسى ، فلو قلت شيئاً تحشّه على ذلك ، وتذكر فضل المهدى ، كنت بالحرى أن تصيب منه خيراً ومن ابنه ، فقلت :

(١) موضوعهما فى الأغاني :

لَيْسَ وَلِىَّ عَهْدِنَا بِالْأَسْعَدِ عيسى فزحلفها إلى محمدٍ
من عند عيسى معهداً عن معهد حتّى تودى من يد إلى يد

وفى اللسان : « ويقال : زحلف الله عنا شرك ، أى نحى الله عنا شرك » ، واستشهد بالرجز .
(٢) الخبر فى الأغاني ١٨ : ١٥٠ ، ١٥١ (سامى) ، مع اختلاف فى الرواية .

(٣) ج : « أشهر » .

دُونَكَ عَبْدَ اللَّهِ أَهْلَ ذَاكَ خلافةَ اللَّهِ الَّتِي أَعْطَاكَ^(١)
 أَصْفَاكَ أَصْفَاكَ بِهَا أَصْفَاكَ فَقَدْ نَظَرْنَا زَمَنًا أَبَاكَ
 ثُمَّ نَظَرْنَاكَ لَهَا إِيَّاكَ وَنَحْنُ فِيهِمْ وَالْهَوَى هَوَاكَ
 نَعَمْ ، فَتَسْتَذِرِي إِلَى ذَرَاكَ أَسْنَدُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَصَاكَ
 فَايْبُكَ مَا اسْتَرْعَيْتَهُ كَفَاكَ فَاحْفَظْ النَّاسَ لَهَا أَذْنَاكَ
 فَقَدْ جَعَلْتُ الرَّجُلَ وَالْأَوْرَاكَ وَحِكْمَتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَحَاكَ
 وَدُرْتُ فِي هَذَا وَذَا وَذَاكَ وَكُلُّ قَوْلٍ قُلْتُ فِي سَوَاكَ
 * زُورٌ وَقَدْ كَفَّرَ هَذَا ذَاكَ *

وَقُلْتُ أَيْضًا كَلِمَتِي الَّتِي أَقُولُ فِيهَا :

إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَاغْمِذِي سِيرِي إِلَى بَحْرِ الْبُحُورِ الْمُزْبِدِ^(٢)
 أَنْتِ الَّتِي يَا بَنَ سَمِيَّ أَحْمَدِ وَيَا بَنَ بَيْتِ الْعَرَبِ الْمُشِيدِ
 بَلْ يَا أَمِينَ الْوَاحِدِ الْمُؤَبِّدِ^(٣) إِنْ الَّذِي وَلَاكَ رَبُّ الْمَسْجِدِ
 أَمْسَى وَلِيُّ عَهْدِهَا بِالْأَسْعَدِ عَيْسَى فَرَحْلَفَهَا إِلَى مُحَمَّدِ
 مِنْ قَبْلِ عَيْسَى مَعْهَدًا عَنْ مَعْهَدِ حَتَّى تَوَدَّى مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ
 فِيكُمْ وَتَغْنَى وَهِيَ فِي تَزْيِيدِ فَقَدْ رَضِينَا بِالْغَلَامِ الْأَمْرِدِ
 بَلْ قَدْ فَرَعْنَا غَيْرَ أَنْ لَمْ نَشْهَدْ^(٤) وَغَيْرَ أَنَّ الْعَقْدَ لَمْ يُؤَكِّدِ^(٥)
 فَلَوْ سَمِعْنَا قَوْلَكَ^(٦) أَمْدُدْ أَمْدِدِ كَانَتْ لَنَا كَدْعَقَةِ الْوَرْدِ الصَّدِيدِ^(٧)

٣٤٩/٣

(١) انظر الأغاني ١٨ : ١٥٢ .

(٢) الأغاني ١٨ : ١٥١ ، وفي ج : « فاغتمدي » ، وقيل في الأغاني :

* إِلَى الَّذِي يَنْدَى وَلَا يَنْدَى نَدِ *

(٤) ج : « فرعنا » .

(٣) ج : « المؤبد » .

(٦) الأغاني : « قولك » .

(٥) ب : « العهد » .

(٧) كذا في الأغاني ، وفي ط : « لجة » .

فبادر الببيعة ورَد الحُشدِ تبينُ من يومك هذا أو غَدِ^(١)
فهو الذي تمَّ فما من عُنْدِ وزاد ما شئتَ فزِدْهُ يَزِدِ^(٢)
ورَدِّه منك رِداءً يَرْتَدِ فهو رداءُ السابقِ المُقلِّدِ
قد كان يُروى أنها كَأَنَّ قَدِ عادت ولو قد فعلتَ لم تَرُدِّ^(٣)
فهي تَرَامِي فذَفْدًا عن فَدْفِدِ حيناً ، فلو قد حان ورْدُ الورْدِ
وحان تحويلُ الغوى المُفسِدِ قال لها الله هَلُمِّي وارْشُدِي
فأَصْبَحَتْ نازلةً بالمعهدِ والمختِدِ المحتدِ خيرِ المحتدِ
لم يَرْمِ تَذْمَارَ النفوسِ الحُسدِ بمثلِ قَرَمٍ ثابتٍ مُوَيِّدِ
لما انتَحَوْا قَدْحاً يَزِنْدُ مُضْلِدِ بُلُوَابِمْشُزُورِ القوي المُستَحْصِدِ
يَزْدَادُ إيقاظاً على التَّهْدِيدِ فَدَاوِلُوا بالليلِ والتَّعَبِيدِ
* صَمَصَامَةٌ تَأْكُلُ كُلَّ مِبْرَدِ *

قال : فرويت وصارت في أفواه الخدم ، وبلغت أبا جعفر ، فسأل عن قائلها ، فأخبر أنها لرجل من بني سَعْد بن زيد مناة ، فأعجبه ، فدعاني فأدخلت عليه ؛ وإن عيسى بن موسى لعنُ يمينه ، والناس عنده ، ورعوس القواد والجند ، فلما كنتُ بحيثُ يراني ، ناديت : يا أمير المؤمنين ، أدنني منك حتى أفهمك وتسمع مقالتي^(٤) فأومأ بيده ، فأدْنَيْتُ حتى كنتُ قريباً منه ، فلما صرتُ بين يديه قلتُ - ورفعتُ صوتي - أنشده مِن هذا الموضع ، ثم رجعتُ إلى أول

(١) الأغاني :

فنادِ للببيعة جمعاً نحشِدِ في يومنا الحاضرِ هذا أو غَدِ

(٢) الأغاني :

* واصنَعْ كما شئتَ وزِدْهُ يَزِدِ *

(٣) الأغاني : « ولو قد فقلت » .

(٤) ج : « كلامي » .

الأرجوزة ؛ فأنشدتها من أولها إلى هذا الموضع أيضًا ، فأعدت عليه حتى أتيت على آخرها ، والناس منصتون ، وهو يتسار بما أنشده ، مستمعاً له ؛ فلما خرجنا من عنده إذا رجلٌ واضعٌ يده على منكبي ، فالتفت فإذا عقاب بن شبة يقول : أما أنت فقد سررت أمير المؤمنين ؛ فإن التأم الأمر على ما تحبّ وقلت ، فلعمري لتصيبنّ منه خيراً . وإن يك غير ذلك ، فابتغ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء . قال : فكتب له المنصور بصلية إلى الرّى ، فوجه عيسى في طلبه ، فلحق في طريقه ، فذبح وسلخ وجهه .

وقيل : قتل بعد ما انصرف من الرّى ؛ وقد أخذ الجائزة^(١) .

وذكر عن الوليد بن محمد العنبري أن سبب إجابة عيسى أبا جعفر إلى تقديم المهدي عليه كان أن سلم بن قتيبة قال له : أيها الرجل بايع ، وقدّمه على نفسك ، فإنك لن^(٢) تخرج من الأمر ؛ قد جعل لك الأمر من بعده وترضى أمير المؤمنين . قال : أو ترى ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فإنّي أفعل ؛ فأتى سلم المنصور فأعلمه إجابة عيسى ، فسُرّ بذلك وعظم قدّر سلم عنده . وبايع الناس للمهدي ولعيسى بن موسى من بعده . وخطب المنصور خطبته التي كان فيها تقديم المهدي على عيسى ، وخطب عيسى بعد ذلك فقدّم المهدي على نفسه ، ووفى له المنصور بما كان ضمن له .

٣٥١/٣

وقد ذكر عن بعض صحابة^(٣) أبي جعفر أنه قال : تذاكرنا أمر أبي جعفر المنصور وأمر عيسى بن موسى في البتيعة وخلّعه إياها من عنقه وتقديمه المهدي ، فقال لي رجل من القواد سماه : والله الذي لا إله غيره ؛ ما كان خلّعه إياها منه إلا برضاً من عيسى وركون منه إلى الدّراهم ، وقلة علمه بقدر الخلافة ، وطلباً للخروج منها ؛ أتى يوم خرج لاخلع فخلع نفسه ؛ وإنّي لفي مقصورة مدينة السّلام ؛ إذ خرج علينا أبو عبيد الله كاتب المهدي ، في جماعة من أهل خراسان ، فتكلم عيسى ، فقال : إنّي قد سلّمت ولاية العهد

(٢) ج : « لم » .

(١) الأغاني ١٨ : ١٥١ (سأى) .

(٣) ج : « أصحاب » .

لمحمد بن أمير المؤمنين ، وقدّمته على نفسه ، فقال أبو عبيد الله : ليس هكذا أعزّ الله الأمير ؛ ولكن قلّ ذلك بحقه وصدق به ؛ وأخبر بما رغبت فيه ؛ فأعطيت ، قال : نعم ، قد بعث نصيبي من تقدمه ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهديّ بعشرة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف بين ولدي فلان وفلان وفلان - سمّاهم - وسبعمائة ألف لفلانة امرأة من نِسائه - سمّاهم - بطيب نفس مني وحبّ ، لتصييرها إليه ، لأنه أولى بها وأحقّ ، وأقوى عليها وعلى القيام بها ؛ وليس لي فيها حقّ لتقدمته ، قليل ولا كثير ؛ فما ادّعيته بعد يومى هذا فأنا فيه مُبْطِلٌ لا حقّ لي فيه ولا دعوى ولا طلبه . قال : والله وهو في ذلك ؛ ربما نسي (١) الشيء بعد الشيء فيوقفه عليه أبو عبيد الله ؛ حتى فرغ ، حبّاً للاستيثاق منه . وختم الكتاب وشهد عليه الشهود وأنا حاضر ؛ حتى وضع عليه عيسى خطّه وخاتمته ، والقوم جميعاً ؛ ثم دخلوا من باب المقصورة إلى القصر .

قال : وكسا أمير المؤمنين عيسى وابنه موسى وغيره من ولده كسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيّف ومائتي ألف درهم .

وكانت ولاية عيسى بن موسى الكوفة وسوادها وما حولها ثلاث عشرة سنة ؛ حتى عزله المنصور ، واستعمل محمد بن سليمان بن عليّ حين امتنع من تقديم المهديّ على نفسه .

وقيل : إنّ المنصور إنما ولّى محمد بن سليمان الكوفة حين ولّاه إياها ليستخفّ بعيسى ؛ فلم يفعل ذلك محمد ، ولم يزل معظماً له مبعجلاً .

* * *

وفي هذه السنة ولّى أبو جعفر محمد بن أبي العباس - ابن أخيه - البصرة فاستغنى منها فأعفاه ، فانصرف عنها إلى مدينة السلام ، فمات بها ، فصرخت امرأته البغوم بنت عليّ بن الربيع : واقتيلاه ! فضر بها رجل من الحرس بجلويز على عجزيتها ، فتعاوره خدمٌ لمحمد بن أبي العباس فقتلوه ؛ فطُلّ دمه .

وكان محمد بن أبي العباس حين شخص عن البصرة استخلف بها عُقبة

ابن سلم ، فأقره عليها أبو جعفر إلى سنة إحدى وخمسين ومائة .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة المنصور .

٢٥٢/٣

وكان عامله فيها على مكة والطائف عمّه عبد الصمد بن عليّ . وعلى المدينة جعفر بن سليمان . وعلى الكوفة وأرضها محمد بن سليمان . وعلى البصرة عُبَيْدُ ابن سلم . وعلى قضائها سوار بن عبد الله . وعلى مصر يزيد بن حاتم .

تم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمّا كان فيها من ذلك توجيه المنصور حميد بن قحطبة إلى إرمينية
لحرب الترك الذين قتلوا حرب بن عبد الله ، وعاثوا بتفليس ، فصار حميد
إلى إرمينية ، فوجدهم قد ارتحلوا ، فانصرف ولم يلق منهم أحداً .

* * *

وفي هذه السنة عسكر صالح بن علي بدابق - فيما ذكر - ولم يغزُ .
وحج بالنّاس فيها جعفر بن أبي جعفر المنصور .

* * *

وكانت ولاية الأمصار في هذه السنة ولاتها في السنة التي قبلها .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمّا كان فيها من ذلك غزوة العباس بن محمد الصائفة أرض الروم ،
ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث ، فهلك محمد بن الأشعث في
الطريق .

وفي هذه السنة استتم المنصور بناء سور مدينة بغداد ، وفرغ من خندقها
وجميع أمورها .

* * *

وفيهما شخص إلى حديثة^(١) الموصل ، ثم انصرف إلى مدينة السلام .

٣٥٤/٣

* * *

وحجّ في هذه السنة بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله
ابن عباس .

وفي هذه السنة عزّل عبد الصمد بن عليّ عن مكة ، وليّها محمد بن
إبراهيم .

* * *

وكانت عمال الأمصار في هذه السنة العمال الذين كانوا عمالها في سنة
سبع وأربعين ومائة وستة ثمان وأربعين ومائة ؛ غير مكة والطائف ؛ فإنّ واليهما كان
في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس .

ثم دخلت سنة خمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خروج أستاذ سيس]

فما كان فيها من ذلك خروج أستاذ سيس في أهل هرة وباذغيس وسجستان وغيرها من عامة خراسان، وساروا حتى التقوا هم وأهل مرو والروذ، فخرج إليهم الأجنم المروزي في أهل مرو الروذ، فقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتل الأجنم، وكثر القتل في أهل مرو الروذ، وهزم عدة من القواد؛ منهم معاذ بن مسلم بن معاذ وجبرئيل بن يحيى وحماد بن عمرو وأبو النجف السجستاني وداود بن كراز؛ فوجّه المنصور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي؛ فولاه المهدي محاربة أستاذ سيس، وضم القواد إليه.

٣٠٠/٣

فذكر أن معاوية بن عبيد الله وزير المهدي كان يوهن أمر خازم، والمهدي يومئذ بنيسابور، وكان معاوية يخرج الكتب إلى خازم بن خزيمة وإلى غيره من القواد بالأمر والنهي، فاعتل خازم وهو في عسكره، فشرب الدواء ثم ركب البريد، حتى قدم على المهدي بنيسابور، فسلم عليه واستخلاه — وبحضرة أبو عبيد الله — فقال المهدي: لا عيّن عليك من أبي عبيد الله، فقل ما بدا لك؛ فأبى خازم أن يخبره أو يكلمه، حتى قام أبو عبيد الله، فلما خلا به شكاه إليه أمر معاوية بن عبيد الله، وأخبره بعصبيته وتحامله؛ وما كان يرد من كُتبه عليه وعلى من قبله من القواد، وما صاروا إليه بذلك من الفساد والتأمر في أنفسهم، والاستبداد بآرائهم، وقلة السمع والطاعة. وأن أمر الحرب لا يستقيم إلا برأس؛ وألا يكون في عسكره لواء يخفي على رأس أحد إلا لوائه أو لواء هو عقده، وأعلمه أنه غير راجع إلى قتال أستاذ سيس ومن معه إلا بتفويض الأمر إليه وإعفائه من معاوية بن عبيد الله؛ وأن يأذن

له في حَلِّ ألوية القَوَاد الذين معه ، وأن يكتب إليهم بالسمع له والطاعة .
فأجابه المهديّ إلى كلِّ ما سأل .

فانصرف خازم إلى عسكره ، فعمل برأيه ، وحلَّ لواء مَن رأى حلَّ
لوائه من القَوَاد ، وعقد لواء لمن أراد ، وضمَّ إليه مَن كان انهزم من الجنود ،
فجعلهم حشواً يكثر بهم ^(١) مَن معه في أخريات الناس ، ولم يقدِّمهم لما
في قلوب المغلوبين من رَوْعة الهزيمة ؛ وكان من ضمِّ ^(٢) إليه من هذه الطبقة
اثنين وعشرين ألفاً ، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجُنْد ، فضمهم إلى
اثنى عشر ألفاً كانوا معه متخيرين ؛ وكان بكَّارُ بن مسلم ^(٣) العُقَيْلِيّ
فيمن انتخب ، ثم تعبأ للقتال وخندق . واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على
ميمنته ، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته ؛ وكان بكَّار بن مسلم العقيليّ
على مقدِّمته وتُرارخدا على ساقته ؛ وكان من أبناء ملوك أعاجم خُرَاسان ؛
وكان لوائه مع الزُّبُرْقَان وعلمه مع مولاه بسَّام ، فكربهم وراوغهم في تنقله
من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم ؛ وكان أكثرهم رجالة ،
ثم سار خازم إلى موضع فنزله ، وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ما أراد ،
وأدخل فيها جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب ، وجعل على كلِّ باب
منها من أصحابه الذين انتخب ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب
مقدِّمته ألفين ؛ تكملة الثمانية عشر ألفاً . وأقبل الآخرون ومعهم المروز ^(٤)
والقُوس والزُّبُل ، يريدون دفن الخندق ودخولَه ، فأتوا الخندق من الباب
الذي كان عليه بكار بن مسلم ، فشدوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار
نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق .

فلما رأى ذلك بكَّار رمى بنفسه ^(٥) ، فترجَّل على باب الخندق ثم نادى
أصحابه : يا بني الفواجر ، مَن قبلي يؤيُّ المسلمون ! فترجَّل مَن معه من
عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلاً ، فنعوا بابهم حتى أجلا القوم عنه ،
وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذيس من أهل
سجستان ، يقال له الحريش ؛ وهو الذي كان يدبِّر أمرهم ؛ فلما رآه خازم

(١) ج : « بكثرهم » . (٢) ج : « انضم » . (٣) ابن الأثير : « سلم » .
(٤) كذا في هـ ؛ وفي ط : « المروز » . (٥) ب : « نفسه » .

مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة — أن اخرج من بابك الذي أنت عليه ؛ فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم . وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم ابن قتيبة من طَخَارِسْتَان . وبعث خازم إلى بكار بن مسلم : إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك ، فكبروا وقولوا : قد جاء أهل طَخَارِسْتَان . ففعل ذلك أهلُ الهيثم ، وخرج خازم في القلب على الحريش السجستاني ، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً ، وضرب بعضهم لبعض ؛ فبينما هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه ، فتنادوا^(١) فيما بينهم ، وجاء أهل طَخَارِسْتَان ، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام ، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شدة عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيهم أصحابُ الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنشاب ، وخرج عليهم^(٢) نهار بن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة ، وبكار^(٣) بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم^(٤) ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف ، فقتلهم المسلمون وأكثروا ؛ فكان من قتل منهم في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً ، وأسروا أربعة عشر ألفاً ، ولحق أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة ، فقدم خازم الأربعة عشر ألف أسير ؛ فضرب أعناقهم ، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الحبس الذي كان لحاً إليه ، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما ؛ فأنزلهم خازم ناحيةً ، وقال : كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم . فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون ، ولم يرضوا إلا بذلك ، فرضى بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل ؛ فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يؤثق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد ، وأن يُعتق الباقيون وهم ثلاثون ألفاً ، فأنفذ ذلك خازم من حكم أبي عون ، وكسا كل رجل منهم ثوبين ؛ وكتب

٣٥٨/٣

(١) ب : « فنادوا » .

(٢) ب : « إليهم » .

(٣) ب : « وكان بكار » .

(٤) ج : « ناحيته » .

خازم بما فتح الله عليه ، وأهلك عدوه إلى المهديّ ، فكتب بذلك المهديّ إلى أمير المؤمنين المنصور .

وأما محمد بن عمر ، فإنه ذكر أن خروج أستاذسيس والحريش كان في سنة خمسين ومائة ، وأن أستاذسيس هُزم في سنة إحدى وخمسين ومائة .

* * *

وفي هذه السنة عزل المنصورُ جعفر بن سليمان عن المدينة ، وولاه الحسن ابن يزيد بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه .

وفيهما توفّي جعفر بن أبي جعفر المنصور ، الأكبرُ بمدينة السلام ، وصلى عليه أبوه المنصور ، وُدفن ليلاً في مقابر قريش ؛ ولم تكن للناس في هذه السنة صائفة ؛ قيل إن أبا جعفر كان ولّى الصائفة في هذه السنة أسيداً ، فلم يدخل بالناس أرض العدو ، ونزل مرج دابق .

٣٥٩/٣

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس . وكان العامل على مكة والطائف في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس — وقيل كان العامل على مكة والطائف في هذه السنة محمد ابن إبراهيم بن محمد — وعلى المدينة الحسن بن زيد العلويّ ، وعلى الكوفة محمد ابن سليمان بن عليّ ، وعلى البصرة عُمّبة بن سلم ، وعلى قضائها سوار ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من إغارة الكُرك في البحر على جُدة ؛ ذكر ذلك محمد بن عمر .

وفيهما ولّى عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة إفريقية ، وعزّل عن السند وولّى موضعه هشام بن عمرو التغلبي .

* * *

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وتوليته إياه إفريقية واستعماله على السند هشام بن عمرو

وكان سبب ذلك - فيما ذكر على بن محمد بن سليمان بن عليّ العباسي^{٣٦٠/٣} عن أبيه - أن المنصور ولّى عمر بن حفص الصفريّ الذي يقال له هزارمرّد السند - فأقام بها حتى خرج محمد بن عبد الله بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، فوجه محمد بن عبد الله [إليه] ^(١) ابنه عبد الله بن محمد الذي يقال له الأشتر ، في نفر من الزيدية ^(٢) إلى البصرة ، وأمرهم أن يشتروا مهارة - خيل عتاق بها - ويمضوا بها معهم إلى السند ، ليكون سبباً له إلى الوصول إلى عمر بن حفص ؛ وإنما فعل ذلك به لأنّه كان فيمن بايعه من قوّاد أبي جعفر ، وكان له ميل إلى آل أبي طالب ، فقدّموا البصرة على إبراهيم بن عبد الله ، فاشترّوا منها مهارة - وليس في بلاد السند والهند شيء أنفق من الخيل العتاق - ومضوا في البحر حتى صاروا إلى السند ، ثم صاروا إلى عمر بن حفص ، فقالوا : نحن قوم نخّاسون ، ومعنا خيل عتاق ، فأمرهم أن يعرضوا ^(٣) خيلهم ، فعرضوها عليه ؛ فلما صاروا إليه ، قال له بعضهم : أدنني منك أذكر لك شيئاً ، فأدناه منه ، وقال ^(٤) له : إنّنا جئناك بما هو خير لك من الخيل ، وما لك فيه

(٢) ب : « الزيدية » ، ج : « الرزديّة » .

(١) من ب .

(٤) ب : « فقالوا » .

(٣) ج : « يحضروا » .

خير ^(١) الدنيا والآخرة ، فأعطينا الأمان على خلتين : إما أنك قبلت ما أتيناك به ، وإما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج من بلادك راجعين . فأعطاهم الأمان ، فقالوا : ما للخيل أتيناك ؛ ولكن هذا ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، أرسله أبوه إليك ، وقد خرج بالمدينة ، ودعا لنفسه بالخِلافة ، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة وغلب عليها ، فقال : بالرَّحْب والسَّعة ، ثم بايعهم له ، وأمر به فتوارى عنده ، ودعا أهل بيته وقواده وكبراء ^(٢) أهل البلد للبيعة ، فأجابوه ، فقطع الأعلام البيض والأقبية البيض والقلائس البيض ، وهياً لبسته ^(٣) من البياض يصعد فيها إلى المنبر ، ونهياً لذلك يوم خميس ؛ فلما كان يوم الأربعاء إذا حرّاقة ^(٤) قد وافت من البصرة ، فيها رسول الخليفة بنت المَعَارِك - امرأة عمر بن حفص - بكتاب إليه تخبره بقتل محمد بن عبد الله ، فدخل على عبد الله فأخبره الخبر ، وعزّاه ، ثم قال له : إنني كنت بايعت لأبيك ، وقد جاء من الأمر ما ترى . فقال له : إن أمرى قد شهير ، ومكانى قد عُرِف ، ودمى فى عنقك ؛ فانظر لنفسك أو دَعُ . قال : قد رأيت رأياً ؛ ها هنا ملك من ملوك السند ، عظيم المملكة وكثير التبّع ؛ وهو على شركه أشدّ الناس تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو رجلٌ وفٍ ، فأرسل إليه ، فاعقِد بينك وبينه عقداً ، وأوجّهك إليه تكون عنده ؛ فليست ترام معه . قال : افعل ما شئت ؛ ففعل ذلك ؛ فصار إليه ، فأظهر إكرامه وبرّه برّاً كثيراً ، وتسالت إليه الزيدية حتى صار إليه منهم أربعمائة إنسان من أهل البصائر ؛ فكان يركب فيهم فيصيد ^(٥) ويتنزّه في هيئة الملوك وآلاتهم ، فلما قتل محمد وإبراهيم انتهى خبرُ عبد الله الأشتر إلى المنصور ؛ فبلغ ذلك منه ، فكتب إلى عمر بن حفص يخبره بما بلغه ، فجمع عمر بن حفص قرابته ، فقرأ عليهم كتاب المنصور يخبرهم أنه إن أقرّ بالقصة لم ينظره المنصور أن يعزله ، وإن صار إليه قتله ، وإن امتنع حاربه . فقال له رجل من أهل بيته : ألقى الذّنب على ، واكتب

٣٦١/٣

(١) ج : « من الدنيا » . (٢) ب : « وكبر » .
 (٣) ب : « لبسه » . (٤) الحراقة : ضرب من السفن فيها مراى نيران ، يرى بها العدو من البحر . وفى ب : « جدافة » (٥) ابن الأثير : « فيصيد » .

٣٦٢/٣

إليه بخبري ، وخذني الساعة فقيّدني واحبسني ؛ فإنه سيكتب : احمله إلى ؛
 فاحملني إليه ، فلم يكن ليقدّم^(١) على لموضعك في السند ، وحال أهل بيتك
 بالبصرة . قال : إني أخاف عليك خلاف ما تظن ، قال : إن قُتِلت أنا
 فنفسى فداؤك^(٢) فأني سخي بها فداء لنفسك ؛ فإن حييت فن الله . فأمر
 به فقيّد وحبس ، وكتب إلى المنصور يخبر بذلك ؛ فكتب إليه المنصور
 يأمره بحمله إليه ؛ فلما صار إليه قدمه فضرب عنقه ، ثم مكث يروى من
 يولّي السند ! فأقبل يقول : فلان فلان ؛ ثم يعرض عنه ؛ فبينما هو يوماً يسير
 ومعه هشام بن عمرو التغلبي ، والمنصور ينظر إليه في موكب ، إذ انصرف إلى
 منزله ، فلما ألقى ثوبه دخل الربيع فأذنه بهشام . فقال : أو لم يكن معي آنفاً !
 قال : ذكر أن له حاجة عرضت مهمة . فدعا بكرسي فقعده عليه ، ثم أذن
 له ، فلما مشى بين يديه قال : يا أمير المؤمنين ؛ إني انصرفت إلى منزلي من
 الموكب ، فلقيتني أختي فلانة بنت عمرو ، فرأيت من جمالها وعقلها ودينها
 ما رصيتها لأمر المؤمنين ، فجنّت لأعرضها عليه ؛ فأطرق المنصور ، وجعل
 ينكس الأرض بخيزرانة في يده ، وقال : اخرج يأتك أمرى ؛ فلما ولّى
 قال : يا ربيع ؛ لولا بيت قاله جرير في بني تغلب لتزوجت أخته وهو
 قوله :

لَا تَطْلُبْنَ خُثُولَةً فِي تَغْلِبٍ فَالزَّنجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوالاً^(٣)

٣٦٣/٣

فأخاف أن تلد لي ولداً ، فيعيّر بهذا البيت ؛ ولكن اخرج إليه ، فقل
 له : يقول لك أمير المؤمنين : لو كانت لك حاجة إلى لم أعدل عنها غير
 التزويج ؛ ولو كانت لي حاجة إلى التزويج لقبلي^(٤) ما أتيته به ؛ فجزاك
 الله عمّا عَمَدت له خيراً ، وقد عوّضتك من ذلك ولاية السند . وأمره أن يكتب
 ذلك الملك ؛ فإن أطاعه وسلم^(٥) إليه عبد الله بن محمد ، وإلا حاربه . وكتب
 إلى عمر بن حفص بولايته إفريقية . فخرج هشام بن عمرو التغلبي إلى السند

(٢) ج : « فدى لك » .

(٤) ج : « لفعلت » .

(١) ب : « يقدم » .

(٣) ديوانه ٤٥٣ .

(٥) ج : « وأسلم » .

فوليها ، وأقبل عمر بن حفص يخوضُ البلاد حتى صار إلى إفريقية ، فلما صار هشام بن عمرو إلى السند كره أخذ عبد الله ، وأقبل يُرى الناس أنه يكتب الملك ويرفُق به ، فاتصلت الأخبار بأبي جعفر بذلك ؛ فجعل يكتب إليه يستحثه ، فبينما هو كذلك إذ خرجت خارجة ببعض بلاد السند ، فوجّه إليهم أخاه سَفَنَجَا ، فخرج يجرّ الجيش وطريقه بجَنَابَاتِ ذلك الملك ؛ فبينما هو يسير إذا هو بوهج قد ارتفع من موكب ، فظنّ أنه مقدّمة للعدوّ الذي يقصد ، فوجّه طلائعَه فرجعت ، فقالت : ليس هذا عدوّك الذي تريد ؛ ولكن هذا عبد الله بن محمد الأشتر العلويّ ركب متنزّهاً ، يسير على شاطئِ مهران ، ففضى يريده ، فقال له نُصّاحه : هذا ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن أخاك تركه متعمداً ، مخافة أن يبهو بدمه ، ولم يقصدك ، إنما خرج متنزّهاً ، وخرجتَ تريد غيره . فأعرض عنه ، وقال : ما كنتُ لأدعَ أحداً يحوزُه ، ولا أدعَ أحداً يحطّي بالتقرّب إلى المنصور بأخذه وقتله . وكان في عشرة ، فقصّد قصده ، وذمّر أصحابه ، فحمل عليه ، فقاتله عبدُ الله وقاتل أصحابُه بين يديه حتى قُتِل وقُتِلوا جميعاً ، فلم يُنلِ منهم مخبّر ، وسقط بين القتلى ، فلم يشعر به . وقيل : إن أصحابه قذفوه ^(١) في مهران لما قُتِل ، لئلا يؤخذ رأسه ؛ فكتب هشام بن عمرو بذلك كتاباً ففتح إلى المنصور ، يخبره أنه قصده قصداً . فكتب إليه المنصور يحمد أمره ، ويأمره بمحاربة الملك الذي آواه ؛ وذلك أن عبد الله كان اتخذ ^(٢) جوارى ، وهو بحضرة ذلك الملك ، فأولد منهنّ واحدة محمد بن عبد الله — وهو أبو الحسن محمد العلويّ الذي يقال له ابن الأشتر — فحاربه حتى ظفر به ، وغلب على مملكته وقتله ، ووجّهه بأُمّ ولد عبد الله وابنه إلى المنصور ، فكتب المنصور إلى واليه بالمدينة ، يخبره بصحّة نسب الغلام ، وبعث به إليه ، وأمره أن يجمع آل أبي طالب ، وأن يقرأ عليهم كتابَه بصحّة نسب الغلام ، ويسلمه إلى أقربائه .

٣٦٤/٣

* * *

وفي هذه السنة قدم على المنصور ابنُه المهديّ من خُرّاسان ، وذلك في

(٢) ب : « أخذ » .

(١) ج : « قذفوا به » .

شوال منها — فوفد إليه للقائه وتهنئة المنصور بمقدمه عامّة أهل بيته، من كان منهم بالشّام والكوفة والبصرة وغيرها، فأجازهم وكساهم وحملهم، وفعل مثل ذلك بهم المنصور، وجعل لابنه المهديّ صحابةً منهم، وأجرى لكلّ^(١) رجل منهم خمسمائة درهم.

* * *

[ذكر خبر بناء المنصور الرّصافة]

وفي هذه السنة ابتدأ المنصور ببناء الرّصافة في الجانب الشرقيّ من مدينة السلام لابنه محمد المهديّ.

* ذكر الخبر عن سبب بنائه ذلك له :

ذكر عن أحمد بن محمد الشّروى، عن أبيه، أنّ المهديّ لما قدم من خراسان أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقيّ، وبنّى له الرّصافة، وعمل لها سوراً وخندقاً وميّداناً وبستاناً، وأجرى له الماء، فكان يجري الماء من نهر المهديّ إلى الرّصافة.

وأما خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن خازم، فإنه ذكر أنّ محمد ابن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدثه، أن أباه حدثه، أنّ الرّاونديّة لما شَغَبُوا على أبي جعفر وحاربوه على باب الذّهب، دخل عليه قُشَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس — وهو يومئذ شيخ كبير مُقدّم عند القوم — فقال له أبو جعفر: أما ترى ما نحن فيه من التّباث الجُنْد علينا! قد خفتُ أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، عندى في هذا رأى إن أنا أظهرته لك ففسد، وإن تركتني أمضيته، صلّحت لك خلافتك، وهابك جندك. فقال له: أفتُضَيّ في خلافتي أمراً لا تعلمنى ما هو! فقال له: إن كنتُ عندك متّهماً على دولتك فلا تشاورني، وإن كنتُ مأموناً عليها فدعني أمضي رأيي. فقال له: فأمضه. قال: فانصرف قُشَم إلى منزله، فدعا غلاماً له فقال له:

(١) ج: «على كل».

٣٦٦/٣

إذا كان غداً فتقدمني^(١) ، فاجلس في دار أمير المؤمنين ؛ فإذا رأيته قد دخلت وتوسط أصحاب المراتب ، فخذ بعنان بغلي ، فاستوقفني واستحلفني بحق رسول الله^(٢) ، وحق العباس وحق أمير المؤمنين لما^(٣) وقفت لك ، وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ؛ فإني سأنتهرُك ، وأغلظ لك القول ، فلا يهولنك ذلك مني ، وعادوني بالمسألة فلأنني سأستيمك ، فلا يروعنك^(٤) ذلك ، وعادوني بالقول والمسألة ، فإني سأضربك بسوطي ، فلا يشق ذلك عليك ، فقل لي : أي الحيين أشرف ؟ اليمن أم مضر ؟ فإذا أجبتك فخل عنان بغلي وأنت حرّ.

قال : فغداً الغلامُ ، فجلس حيث أمره من دار الخليفة ، فلماء جاء الشيخ فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل للمولى ما كان قاله له ، ثم قال له : قل ، فقال : أي الحيين أشرف ؟ اليمن أم مضر ؟ قال : فقال قُشَم : مضر كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله عز وجل ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله . قال : فامتعضت اليمن إذ لم يذكر لها شيء من شرفها ؛ فقال له قائد من قواد اليمن : ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرفة ولا فضيلة لليمن ، ثم قال لغلامه : قم فخذ بعنان بغلة الشيخ ، فاكبها كبحاً عفيفاً تطأ من به منه ، قال : ففعل الغلام ما أمره به مولاه حتى كاد أن يقعها على عراقيبها ، فامتعضت من ذلك مضر ، فقالت : أيفعل هذا بشيخنا ! فأمر رجل منهم غلامه ، فقال : اقطع يد العبد ، فقام إلى غلام اليافئ فقطع يده ، فنفر الحيان ، وصرف قُشَم بغلته ، فدخل على أبي جعفر ، واقترب الخند ، فصارت مضر فرقة ، واليمن فرقة ، والحُرَّاسانية فرقة ، وربيعة فرقة ، فقال قُشَم لأبي جعفر : قد فرقت بين جندك ، وجعلتهم أحزاباً كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثاً ، فضره بالحزب الآخر ، وقد بقي عليك في التدبير بقية ، قال : ما هي ؟ قال : اعبر بابنك فأنزله^(٥) في ذلك الجانب قصراً ، وحوله وحول [معلك]^(٦) من جيشك معه قوماً

٣٦٧/٣

(٢) ب : « وحلفني برسول الله » .

(١) ب : « فقدمني » .

(٤) ج : « فلا يروعك » .

(٣) ابن الأثير : « لإلما » .

(٦) من ج .

(٥) ج : « فابن له » .

فيصير ذلك بلداً ؛ وهذا بلداً ، فإن فسد عليك أهلُ هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسدت عليك مُضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مُضر وغيرها .

قال : فقبل أمره ورأيه ، فاستوى له مُلكه ؛ وكان ذلك سببَ البناء في الجانب الشرقي وفي الرصافة وأقطاع القواد هناك .

قال : وتولى صالح صاحب المصلّى القطائع في الجانب الشرقي . ففعل كفعل أبي العباس الطوسي في فضول القطائع في الجانب الغربي . فله بيباب الجسر وسوق يحيى ومسجد خُضَيْر وفي الرصافة وطريق الزواريق على دجلة مواضع بناء ، بما استوهب من فضل الإقطاع عن أهله ، وصالح رجل من أهل خراسان .

* * *

وفي هذه السنة جدد المنصور البيعة لنفسه ولابنه محمد المهدي من بعده . ولعيسى بن موسى من بعد المهدي على أهل بيته في مجلسه في يوم الجمعة ؛ وقد عثمهم بالإذن فيه ؛ فكان كلُّ من بايعه منهم يقبل يده ويد المهدي ، ثم مسح على يد عيسى بن موسى ولا يقبل يده .

* * *

وغزا الصائفة في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

* * *

[أمر عقبة بن سلم]

وفيها شخص عَقْبَةُ بن سلم من البصرة واستخلف عليها ابنه نافع بن عقبة إلى البَحْرَيْن ، فقتل سليمان بن حكيم العبدى وسبى أهل البحرين ، وبعث ببعض من سبى منهم وأسارى منهم إلى أبي جعفر ، فقتل منهم عِدَّة ووهب بقيتهم للمهدي ، فنّ عليهم وأعتقهم ؛ وكسا كلَّ إنسان منهم ثوبين من ثياب مَرَو .

ثم عزل عَقْبَةُ بن سلم عن البصرة؛ فذُكِرَ عن إفريك - جارية أسد بن المرزبان - أنها قالت: بعث المنصور أسد بن المرزبان إلى عَقْبَةَ بن سلم إلى البَحرَيْن حين قتل منهم مَن قتل، ينظر في أمره، فبايله ولم يستقص عليه، وورى عنه؛ فبلغ ذلك أبا جعفر، وبلغه أنه أخذ منه مالا، فبعث إليه أبا سويد الخراساني - وكان صديق أسد - وأخاه، فلما رآه مقبلا على البريد فرح، وكان ناحية من عسكر عَقْبَةَ، فتطاول له، وقال: صديقي. فوقف عليه فوثب ليقوم إليه، فقال له أبو سويد « بنشين بنشين »، فجلس فقال له: أنت سامع مطيع؟ قال: نعم، قال: مُدَّ يدك، فدَّ يده فضربها فأطنَّها، ثم مدَّ رجله، ثم مدَّ يده ثم رجله حتى قطع الأربيع، ثم قال: مُدَّ عنقك فدَّ فضرب عنقه. قالت إفريك: فأخذتُ رأسه فوضعتُه في حِجْرِي، فأخذه مني فحمله إلى المنصور. فما أكلتُ إفريك لحماً حتى ماتت.

* * *

وزعم الواقدي أن أبا جعفر ولَّى معن بن زائدة في هذه السنة سِجِسْتَانَ .
وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله ابن عباس .

وكان العامل على مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن ابن زيد، وعلى الكوفة محمد بن سليمان بن عليّ، وعلى البصرة جابر بن توبة الكلابي، وعلى قضائها سَوَّار بن عبد الله، وعلى مِصْرَ يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من قتل الخوارج فيها معن بن زائدة الشيباني ببسنت
سجستان .

وفيهما غزا حميد بن قحطبة كابل ، وكان المنصور ولّاه خراسان في
سنة ثنتين وخمسين ومائة .

وغزا - فيما ذكر - الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم ولم يدرب^(١) .

وقيل إن الذي غزا الصائفة في هذه السنة محمد بن إبراهيم .

وفيهما عزل المنصور جابر بن توبة عن البصرة ، ولّاه يزيد بن منصور .

وفيهما قتل أبو جعفر هاشم بن الأشناخنج ، وكان عصي وخالف في
إفريقية ، فحمل إليه هو وابن خالد المرور وذى ، فقتل ابن الأشناخنج
بالقادسية ، وهو متوجه إلى مكة .

* * *

وحج بالناس في هذه السنة المنصور ؛ فذكر أنه شخص من مدينة السلام
في شهر رمضان ، ولا يعلم بشخصه محمد بن سليمان ، وهو عامله على الكوفة
يومئذ ، ولا عيسى بن موسى ولا غيرهما من أهل الكوفة حتى قرب منها .

٣٧٠/٣

وفيهما عزل يزيد بن حاتم عن مصر ووليها محمد بن سعيد .

* * *

وكان عمال الأمصار في هذه السنة هم العمال في السنة الحالية^(٢) إلا
البصرة فإن عاملها في هذه السنة كان يزيد بن منصور ، وإلا مصر فإن
عاملها كان في هذه السنة محمد بن سعيد .

(١) الدرب : كل مدخل إلى بلاد الروم ؛ وأدرب القوم : إذا دخلوا أرض العدو من بلاد
الروم . (٢) ج : « الماضية » .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك تجهيز المنصور جيشاً في البحر لحرب الكرك^(١) ، بعد مقدمه البصرة ، منصرفاً من مكة إليها بعد فراغه من حجة ، وكانت الكرك أغارت على جذّة ، فلما قدم المنصور البصرة في هذه السنة جهز منها جيشاً لحربهم ، فنزل الجسر الأكبر حين قدمها — فيما ذكر . وقدّمته هذه البصرة القدمة الآخرة .

وقيل إنه إنما قدمها القدمة الآخرة في سنة خمس وخمسين ومائة ، وكانت قدمته الأولى في سنة خمس وأربعين ومائة ، وأقام بها أربعين يوماً ، وبنى بها قصرًا ثم انصرف منها إلى مدينة السلام .

* * *

وفيها غضب المنصور على أبي أيوب المورياني ، فحبسه وأخاه وبنى أخيه : سعيداً وسعوداً ومُخلدًا ومحمدًا ، وطالبهم . وكانت منازلهم المناذر ، وكان سبب غضبه عليه — فيما قيل — سَعَى أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب إليه .

* * *

وفي هذه السنة قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية ، قتله أبو حاتم الإباضي وأبو عاد ومن كان معهما من البربر ، وكانوا — فيما ذكر — ثلثمائة ألف وخمسين ألفاً ، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً ، ومعهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً ، وكان يسلم عليه قبل ذلك بالخلافة أربعين يوماً . وفيها حُمِلَ عباد مولى المنصور وهرثمة بن أعين ويوسف بن علوان من خراسان في سلاسل ، لتعصّبهم لعيسى بن موسى .

وفيها أخذ المنصور الناس بليس القلانس الطّوال المفرطة الطول ، وكانوا — فيما ذكر — يجتالون لها بالقصب من داخل ، فقال أبو دلامة :

وكنا نُرجى من إمامٍ زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى في القلائس
 تراها على هامِ الرجال كأنها دنانِ يهودٍ جُلَّتْ بالبرانس
 وفيها توفى عبيد بن بنت أبي ليلي قاضي الكوفة ، فاستقضى مكانه شريك
 ابن عبد الله النخعي .

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحَجُورى ، فصار إلى حصن من
 حصون الروم ليلاً ، وأهله نيام ، فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة ، ثم
 صار إلى اللاذقية المحترقة ، ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من السبى
 سوى الرجال البالغين .

وفيها ولّى المنصور بكّار بن مسلم العُقيليّ على إرمينية .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن أبي جعفر المهديّ .

وكان على مكة والطائف يومئذ محمد بن إبراهيم ، وعلى المدينة الحسن بن
 زيد بن الحسن ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرة يزيد بن منصور ،
 وعلى قضائها سوار ، وعلى مصر محمد بن سعيد .

وذكر الواقديّ أن يزيد بن منصور كان في هذه السنة والى اليمن من قبل
 أبي جعفر المنصور .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك خروج المنصور إلى الشام ومسيره إلى بيت المقدس وتوجيهه يزيد بن حاتم إلى إفريقية في خمسين ألفاً - فيما ذكر - لحرب الخوارج الذين كانوا بها ، الذين قتلوا عامله عمر بن حفص . وذكر أنه أنفق على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف درهم .

وفي هذه السنة عزم المنصور - فيما ذكر - على بناء مدينة الرافقة ، فذكر عن محمد بن جابر ، عن أبيه أن أبا جعفر لما أراد بناءها ، امتنع أهل الرقة ، وأرادوا محاربتة ، وقالوا : تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعاشنا^(١) ، وتضيق منازلنا ؛ فهم بمحاربتهم ، وبعث إلى راهب في الصومعة هنالك ، فقال له : هل لك علم بأن إنساناً يبني ها هنا مدينة ؟ فقال : بلغني أن رجلاً يقال له مقلاص يبنيها ، فقال : أنا والله مقلاص .

وذكر محمد بن عمر أن صاعقة سقطت في هذه السنة في المسجد الحرام فقتلت خمسة نفر .

وفيها هلك أبو أيوب المورياني وأخوه خالد ، وأمر المنصور موسى بن دينار حاجب أبي العباس الطوسي بقطع أيدي بني أخى أبي أيوب وأرجلهم وضرب أعناقهم ؛ وكتب بذلك إلى المهدي ، ففعل ذلك موسى وأنفذ فيهم ما أمره به . وفيها ولي عبد الملك بن ظبـيان النميري على البصرة .

وغزا الصائفة في هذه السنة زفر بن عاصم الهلالي فبلغ الفرات .

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن إبراهيم ، وهو عامل أبي جعفر على مكة والطائف .

٣٧٢/٣

(١) ط : « بمعاشنا » . وهو خطأ .

وكان على المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى
البصرة عبد الملك بن أيوب بن ظبيان . وعلى قضائها سوار بن عبد الله
وعلى السند هشام بن عمرو ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد
ابن سعيد .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك افتتاح يزيد بن حاتم لإفريقية وقتله أبا عاد وأبا حاتم ومن كان معهما ، واستقامت بلاد المغرب ، ودخل يزيد بن حاتم القيروان . وفيها وجه المنصور ابنه المهدي لبناء مدينة الرافقة ، فخصص إليها ، فبناها على بناء مدينته ببغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وسور سورها وخندقها ، ثم انصرف إلى مدينته .

وفيها - فيما ذكر محمد بن عمر - خندق أبو جعفر على الكوفة والبصرة ، وضرب عليهما سوراً ، وجعل ما أنفق على سور ذلك وخندقه من أموال أهله .

وعزل فيها المنصور عبد الملك بن أيوب بن ظبيان عن البصرة ، واستعمل عليها الهيثم بن معاوية العتكي ، وضم إليه سعيد بن دعلج ، وأمره ببناء سور لها يطيّف بها ، وخندق عليها من دون السور من أموال أهلها ، ففعل ذلك .

٣٧٤/٣

وذكر أن المنصور لما أراد الأمر ببناء سور الكوفة وحفر خندق لها ، أمر بقسمة خمسة دراهم ، على أهل الكوفة ، وأراد بذلك علم عددهم ؛ فلما عرف عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً من كل إنسان ، فجبوا ، ثم أمر بانفاق ذلك على سور الكوفة وحفر الخنادق لها ، فقال شاعرهم :

بِالْقَوِي مَالَقِينَا * مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

قَسَمَ الْخَمْسَةَ فِينَا * وَجَبَانَا الْأَرْبَعِينَ

وفيها طلب صاحب الروم الصلح إلى المنصور ؛ على أن يؤدّى إليه الجزية . وغزا الصائفة في هذه السنة يزيد بن أسيد السلميّ .

وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة ، وغرّمه مالا ،

وغيض عليه وجبسه ، فذكر عن بعض بني هاشم ، أنه قال : كان المنصور ولّى العباس بن محمد الجزيرة بعد يزيد بن أسيد ، ثم غضب عليه فلم يزل ساخطاً عليه حتى غضب على بعض عمومته من ولد علي بن عبد الله بن عباس أما إسماعيل بن علي أو غيره فاعتوره أهله وعمومته ونسأؤهم يكلمونه ^(١) فيه ، وضيّقوا عليه فرضي عنه ، فقال عيسى بن موسى : يا أمير المؤمنين ؛ إن آل علي بن عبد الله — وإن كانت نعمك عليهم سابعة — فإنهم يرجعون إلى الحسد لنا ^(٢) ؛ فن ذلك أنك غضبت على إسماعيل بن علي منذ أيام ، فضيّقوا عليك ^(٣) . وأنت غضبان على العباس بن محمد ، منذ كذا وكذا ؛ فما رأيت أحداً منهم ككلمك فيه . قال : فدعا العباس فرضي عنه .

٣٧٥/٣

قال : وقد كان يزيد بن أسيد عند عزل العباس إياه عن الجزيرة ، شكاً إلى أبي جعفر العباس ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أخاك أساء عزلي ، وشم عِرْضي ، فقال له المنصور : اجمع بين إحساني اليك وإساءة أخى يعتدلاً ، فقال يزيد بن أسيد : يا أمير المؤمنين ؛ إذا كان إحسانكم جزاء بإساءتكم ، كانت طاعتنا تفضلاً منا عليكم .

وفيها استعمل المنصور على حرب الجزيرة وخراجها موسى بن كعب .

* * *

وفي هذه السنة عزل المنصور عن الكوفة محمد بن سليمان بن علي ، في قول بعضهم ، واستعمل مكانه عمرو بن زهير أخا المسيّب بن زهير .

وأما عمر بن شبة فإنه زعم أنه عزل محمد بن سليمان عن الكوفة في سنة ثلاث وخمسين ومائة ، وولّاها عمرو بن زهير الضبّي أخا المسيّب بن زهير في هذه السنة . قال : وهو حضر الخندق بالكوفة .

* * *

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور محمد بن سليمان بن علي
ذكر أن محمد بن سليمان أتى في عمله على الكوفة بعبد الكريم بن أبي العوجاء

(١) ب : « يطلبونه » . (٢) ب : « لهم » .

(٣) بعدها في ابن الأثير : « حتى رضيت عنه » .

— وكان خال معن بن زائدة — فأمر بحبسه . قال أبو زيد : فحدثني قُشَم بن جعفر والحسين بن أيوب وغيرهما أن شفعااه كَشَرُوا بمدينة السلام ، ثم ألْحُوا على أبي جعفر ، فلم يتكلم فيه إلا ظَنَيْن ، فأمر بالكتاب إلى محمد بالكف عنه إلى أن يَأْتِيَهُ رأْيُهُ ، فكلَّم ابنُ أبي العوجاء أبا الجَبَّار — وكان منقطعاً إلى أبي جعفر ومحمد ثم إلى أبنائهما بعدهما — فقال له : إنْ أُخْرِجَني الأمير ثلاثة أيام فله مائة ألف ، ولك أنت كذا وكذا ، فأعلم أبو الجبار محمداً ، فقال : أذكرتنيه والله وقد كنت نسيته ؛ فإذا انصرفت من الجمعة فأذكرنيه . فلما انصرف أذكره ، فدعا به وأمر بضرب عنقه ، فلما أيقن أنه مقتول ، قال : أما والله لئن قتلتموني لقد وضعتُ أربعة آلاف حديثٍ أحرم فيها الحلال ، وأحِلَّ فيها الحرام ؛ والله لقد فطرتكم في يوم صومكم ، وصومتكم في يوم فطركم ، فضرُبت عنقه .

٣٧٦/٣

وورد على محمد رسول أبي جعفر بكتابه : إياك أن تحدث في أمر ابن أبي العوجاء شيئاً ، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتُ... يتهدده. فقال محمد للرسول : هذا رأس ابن أبي العوجاء وهذا بدنه مصلوباً بالكُنَاسَة ، فأخبر أمير المؤمنين بما أعلمتك ؛ فلما بلغ الرسولُ أبا جعفر رسالته ، تغيط عليه وأمر بالكتاب بعزله وقال : والله لهُممتُ^(١) أن أقيده به ، ثم أرسل إلى عيسى بن علي فأتاه ، فقال : هذا عملاك أنت ! أشرت بتولية هذا الغلام ، فوليتُه غلاماً جاهلاً لا علم له بما يأتي ؛ يُقدَّم على رجل يقتله من غير أن يطَّلَعَ رأيي فيه ، ولا ينتظر أمري ! وقد كتبت بعزله ؛ وبالله لأفعلن به ولأفعلن... يتهدده ، فسكت عنه عيسى حتى سكن غضبه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن محمداً إنما قتل هذا الرجل على الزندقة ، فإن كان قتله صواباً فهو لك ، وإن كان خطأ فهو على محمد ، والله يا أمير المؤمنين لئن عزلته على تفتية ما صنع ليذهبن بالشاء والذكر ، ولترجعن القالة من العامة عليك . فأمر بالكتب فزُفَّت وأقِرَّ^(٢) على عمله . وقال بعضهم : إنما عزل المنصور محمد بن سليمان عن الكوفة لأمر قبيحة

٣٧٧/٣

(١) ج : « لقد هممت » .

(٢) ج . « وأقره » .

بلغته عنه ، اتهمه فيها ؛ وكان الذي أنهى ذلك إليه المساور بن سوار الجرمي صاحب شرطه ، وفي مساور يقول حماد^(١) .

لحسبك من عجيب الدهر أني^(٢) أخاف وأتقى سلطان جرم .

* * *

وفي هذه السنة أيضًا عزل المنصور الحسن بن زيد عن المدينة ، واستعمل عليها عبد الصّمد بن عليّ ، وجعل معه فُلسيّح بن سليمان مشرفًا عليه .
وكان على مكة والطائف محمد بن إبراهيم بن محمد ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير ، وعلى البصرة الميثم بن معاوية ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد بن سعيد .

(١) هو حماد عجرد ؛ وانظر أخباره في الأغاني ٤ : ٣٢١ - ٣٨١ .

(٢) ب : « بحسبك » .

تم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

* * *

[ذكر الخبر عن مقتل عمرو بن شداد]

فمن ذلك ما كان من ظَفَر الهيثم بن معاوية عامل أبي جعفر على البصرة بعمر بن شداد عامل إبراهيم بن عبد الله على فارس ، فقتل بالبصرة وصُلب .
* ذكر الخبر عن سبب الظفر به :

ذكر عمر أن محمد بن معروف حدثه ، قال : أخبرني أبي ، قال : ضرب عمرو بن شداد خادماً له ، فأتى عامل البصرة - إما ابن دعلج ، وإما الهيثم ابن معاوية - فدلّه عليه ، فأخذه فقتله وصلّبه في المربد في موضع دار إسحاق ابن سليمان . وكان عمرو مولّى لبني جُمح ، فقال بعضهم : ظفر به الهيثم ابن معاوية وخرج يريد مدينة السلام ، فنزل بقصر له على شاطئ نهر يعرف بنهر معقل ، فأقبل يريد من عند أبي جعفر ، ومعه كتاب إلى الهيثم بن معاوية بدفع عمرو بن شداد إليه ، فدفعه الهيثم إليه ، فأقدمه البصرة ، ثم أتى به ناحية الرّحبة ، فخلّاه يسأله ، فلم يظفر منه بشيء ، يجبّ علمه ، فقطع يديه ورجليه ، وضرب عنقه وصلّبه في مربد البصرة .

٣٧٨/٣

* * *

وفي هذه السنة عزل المنصور الهيثم بن معاوية عن البصرة وأعمالها ، واستعمل سوار بن عبد الله القاضي على الصلاة ، وجمع له القضاء والصلاة . وولّى المنصور سعيد بن دعلج شُرط البصرة وأحداثها .

وفيهما توفّي الهيثم بن معاوية بعد ما عزل عن البصرة فجأة بمدينة السلام ، وهو على بطن جارية له ، فصلّى عليه المنصور ، ودفن في مقابر بني هاشم .
وفي هذه السنة غزا الصائفة زُفر بن عاصم الهلالي .

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن محمد بن عليّ .

* * *

وكان العامل على مكة محمد بن إبراهيم ، وكان مقيماً بمدينة السلام ، وابنه إبراهيم بن محمد خليفته بمكة ؛ وكان إليه مع مكة الطائف . وعلى الكوفة عمرو بن زهير ، وعلى الأحداث والجوالي والشرط وصدقات أرض العرب بالبصرة سعيد بن دعلج ، وعلى الصلاة بها والقضاء سوار بن عبد الله ، وعلى كُور دجلة والأهواز وفارس عُمار بن حمزة ، وعلى كيرمان والسند هشام بن عمرو ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد بن سعيد .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك ابتداء المنصور قصره الذى على شاطئ دجلة ؛
الذى يدعى الخلد ، وقسم بناءه على مولاه الربيع وأبان بن صدقة .

وفيهما قُتل يحيى أبو زكرياء المحتسب ؛ وقد ذكرنا قبلُ سبب قتله إياه .

وفيهما حوّل المنصور الأسواق من مدينة السلام إلى باب الكرخ وغيره
من المواضع ، وقد مضى أيضاً ذكرنا سبب ذلك قبل .

وفيهما ولّى المنصور جعفر بن سليمان على البحرين ، فلم يتمّ ولايته ، ووجه
مكانه أميراً عليها سعيد بن دعلج ؛ فبعث سعيد ابنه تيمماً عليها .

وفيهما عرض المنصور جنده فى السلاح والخيل على عينه فى مجلس اتّخذه
على شطّ دجلة دون قطربل ، وأمر أهل بيته وقرباته وصحابه يومئذ بلبس
السلاح ، وخرج وهو لابس درعاً وقلنسوة تحت البيضة سوداء لاطئة
مضربة^(١) .

وفيهما توفى عامر بن إسماعيل المسلى ، بمدينة السلام ، فصلّى عليه المنصور ،
ودُفِن فى مقابر بنى هاشم .

٣٨٠/٣

وفيهما توفى سوار بن عبد الله وصلّى عليه ابنُ دعلج ، واستعمل المنصور
مكانه عميد الله بن الحسن بن الحصين العنبرى .

وفيهما عقد المنصور الجسر عند باب الشعير ، وجرى ذلك على يد حميد
القاسم الصيرفى ، بأمر الربيع الحاجب .

وفيهما عزّل محمد بن سعيد الكاتب عن مصر ، واستعمل عليها مطر
مولى أبى جعفر المنصور .

(١) كذا فى ب ه ؛ وهو الصواب ؛ وفى ط : « مصرية » .

وفيها ولّى معبد بن الخليل السُّنْد ، وعُزِّل عنها هشام بن عمرو ، ومعبد يومئذ بخُرَّاسان ؛ كتب إليه بولايته .

وغزا الصائفة فيها يزيد بن أسيد السُّلَمي ، ووجه سناناً مولى البطال إلى بعض الحصون ، فسبي وغنم .

وقال محمد بن عمر : الذي غزا الصائفة في هذه السنة زُفر بن عاصم .
وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ بن عبد الله ابن عباس .

قال محمد بن عمر : كان على المدينة - يعني إبراهيم هذا .

وقال غيره : كان على المدينة في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ ، وكان على مكة والطائف محمد بن إبراهيم ، وعلى الأهواز وفارس عُمارة بن حمزة ، وعلى كَرْمَان والسُّنْد معبد بن الخليل ، وعلى مصر مطر مولى المنصور .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

٣٨١/٣

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن تولية خالد بن برمك الموصل]

فما كان فيها من ذلك توجيه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره إياه بعزل موسى بن كعب عن الموصل وتولية يحيى بن خالد بن برمك عليها . وكان سبب ذلك - فيما ذكر الحسن بن وهب بن سعيد عن صالح بن عطية - قال : كان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف ، ونذر دمه فيها ، وأجله^(١) ثلاثة أيام بها ، فقال خالد لابنه يحيى : يا بني ، إني قد أوديت وطولبت بما ليس عندي ، وإنما يراد بذلك دمي ؛ فانصرف إلى حرمتك وأهلك ، فما كنت فاعلا بهم بعد موتى فافعله . ثم قال له : يا بني ، لا يمنعك ذلك من أن تلقى إخواننا ، وأن تمر بعُمارة بن حمزة وصالح صاحب المصالي ومبارك التركي فتعلمهم حالنا .

قال : فذكر صالح بن عطية أن يحيى حدثه ، قال : أتيتهم فنفهم من تجهمني وبعث بالمال سرا إلى^(٢) ، ومنهم من لم يأذن لي ، وبعث بالمال في أثرى . قال : واستأذنت على عُمارة بن حمزة ، فدخلت عليه وهو في صحن داره ، مقابل بوجهه الحائط ؛ فما انصرف إلى بوجهه ، فسلمت عليه ، فرد علي ردّا ضعيفاً ، وقال : يا بني ؛ كيف أبوك ؟ قلت : بخير ، يقرأ عليك السلام ويعلمك ما قد لزمه من هذا الغرم ، ويستسلفك مائة ألف درهم . قال : فما ردّ علي قليلا ولا كثيراً ، قال : فضاقت بي موضعي ، ومادت بي الأرض . قال : ثم كلمته فيما أتيت له . قال : فقال : إن أمكنني شيء فسيأتيك ، قال يحيى : فانصرفت وأنا أقول في نفسي : لعن الله كل شيء يأتي

٣٨٢/٣

(٢) ج : « على » .

(١) ب : « وأجله » .

من نيهك وعجبك وكبرك ! وصرت إلى أبي ، فأخبرته ^(١) الخبر ، ثم قلت له : وأراك تثق من عُمارة بن حمزة بما لا يوثق به ! قال : فوالله إني لكذلك ؛ إذ طلع رسولُ عُمارة بن حمزة بالمائة ألف . قال : فجمعنا في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف ، وبقيت ثلثمائة ألف بوجودها يتم ما سعيينا له ^(٢) ، وبتعذرها يبطل . قال : فوالله إني لعلى الجسر ببغداد ماراً مهموماً مغموماً ؛ إذ وثب إلى زاجر ، فقال : فرخ الطائر أخبرك ! قال : فطويته مشغول القلب عنه ، فلحقني وتعلقت بلبجاي ، وقال لي : أنت والله مهموم ، والله ليُفْرِجَن الله همك ، ولتمرنَ غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك . قال : فأقبلتُ أعجب من قوله . قال : فقال لي : إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم ؟ قلت : نعم — ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم ، لبعد ذلك عندي من أن يكون — قال : ومضيتُ . وورد على المنصور انتقاضُ الموصل وانتشارُ الأكراد بها ، فقال : مَنْ لها ؟ فقال له المسيّب بن زهير — وكان صديقاً لخالد بن برمك : عندي يا أمير المؤمنين رأي ، أرى أنك لا تنتصح ^(٣) ؛ وأنتك ستلقاني بالرد ، ولكني لا أدع نصحتك فيه والمشورة عليك به ، قال : قل ، فلا أستغشك ، قلت : يا أمير المؤمنين ما رميتها بمثل خالد ، قال : ويحك ! فيصلح لنا بعد ما أتينا إليه ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ إنما قومته بذلك وأنا الضامن عليه ، قال : فهو لها والله ، فليحضرنى غداً . فأحضر ، فصفح له عن الثلثمائة ألف الباقية ، وعقد له .

٣٨٣/٣

قال يحيى : ثم مررتُ بالزاجر ، فلما رآني قال : أنا هاهنا أنتظرك منذ غدوة ، قلت : امض معي ، فضى معي ، فدفعني إليه الخمسة الآلاف . قال : وقال لي أبي : أي بُني ؛ إن عُمارة تلزمه حقوق ، وتنوبه نوائب فأتيه ، فأقرته ^(٤) السلام ، وقل له : إن الله قد وهب لنا رأي أمير المؤمنين ، وصفح لنا عما بقى علينا ، ولاتني ^(٥) الموصل ؛ وقد أمر برد ما استسلفت ^(٦) منك . قال : فأتيته فوجدته على مثل الحال التي لقيته عليه ، فسلمت فما رد

(٢) ب : « عليه » .
(٤) ط : « فأقره » وهو خطأ .
(٦) ج : « استسلفت » .

(١) ج : « فأعلمته » .
(٣) ج : « تنتصح » .
(٥) ج : « ووقد ولاني » .

السلام علىّ ، ولا زادني على أن قال : كيف أبوك ؟ قلت : بخير ، يقول كذا وكذا ، قال : فاستوى جالساً ، ثم قال لي : ما كنتُ إلا قسطاراً^(١) لأبيك ؛ يأخذ مني إذا شاء ، ويردّ إذا شاء ! قم غني لا قمت ! قال : فرجعتُ إلى أبي فأعلمته ، فقال لي أبي : يا بني ، هو عُمارَة ومَنْ لا يعترض عليه ! قال : فلم يزل خالد على الموصل إلى أن توفّي المنصور ويحيى على أذربيجان ، فذكر عن أحمد بن محمد بن سوار الموصلي أنه قال : ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشدّ عقوبته ، ولا نرى منه جبّريّة ؛ ولكن هيبة كانت له في صدورنا .

وذكر أحمد بن معاوية بن بكّر الباهليّ ، عن أبيه ، قال : كان أبو جعفر غضب على موسى بن كعب - وكان عامله على الجزيرة والموصل - فوجه المهدى إلى الرقة لبناء الرافقة ، وأظهر أنه يريد بيت المقدس ، وأمره بالمرور والمضى على الموصل ، فإذا صار بالبلد أخذ موسى بن كعب فقيده ، وولّى خالد بن برمك الموصل مكانه ، ففعل المهدى ذلك ، وخلف خالداً على الموصل ، وشخص معه أخو خالد : الحسن وسليمان ابنا برمك ، وقد كان المنصور دعا قبل ذلك يحيى بن خالد ، فقال له : قد أردت لك أمر مهم من الأمور ، واخترتك لثغر من الثغور ؛ فكن على أهبة ؛ ولا يعلم بذلك أحد حتى أَدْعُو بك . فكنتم أباه الخبر ؛ وحضر الباب فيمن حضر ؛ فخرج الربيع ، فقال : يحيى بن خالد ! فقام فأخذ بيده ، فأدخله على المنصور ، فخرج على الناس وأبوه حاضر واللواء بين يديه على أذربيجان ، فأمر الناس بالمضى معه ، ففضوا في موكبه ، وهنئوه وهنئوا أباه خالداً بولايته ، فاتصل عملهما .

وقال أحمد بن معاوية : كان المنصور معجباً بيحيى ، وكان يقول : ولد الناس ابناً وولد خالد^(٢) أباً .

* * *

وفي هذه السنة نزل المنصور قصره الذي يعرف بالخلند .
وفيها سخط المنصور على المسيّب بن زهير وعزّاه عن الشرطة ، وأمر
(١) القسطار : منتقد الدراهم . (٢) ط : « يحيى ، وهو خطأ صوابه من ه .

بحبسه وتقييده ، وكان سبب ذلك أنه قتل أبان بن بشير الكاتب بالسياط ،
لأمرٍ كان وجده عليه فيما كان من شركته لأخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة
وخارجها ، وولّى مكان المسيّب الحكم بن يوسف صاحب الحرب ، ثم كَلَّمَ المهديّ
أباه في المسيّب ، فرضى عنه بعد حبسه إِيَّاه أياماً ، وأعاد إليه ما كان يلي
من شرطه .

وفيها وجّه المنصور نصر بن حرب التميميّ والياً على ثغر فارس .

وفيها سقط المنصور عن دابّته بجَرْجَرَايا ، فانشَجَّ ما بين حاجبيه ؛
وذلك أنه كان خرج لما وجّه ابنه المهديّ إلى الرّقة مشيّعاً له ، حتى بلغ موضعاً
يقال له جُبّ سُمّاقا ، ثم عدل إلى حَوَلَايا ، ثم أخذ على النّهروانات فأنهى
— فيما ذكر — إلى بَشَق^(١) من النّهروانات يصبّ إلى نهر دِيَالِي ، فأقام
على سَكْرِهِ^(٢) ثمانية عشر يوماً ، فأعياه ، ففضى إلى جَرْجَرَايا ، فخرج منها للنظر
إلى ضيّعة كانت لعيسى بن عليّ هناك ، فصُرّع من يومه ذلك عن بردون له
دِينِج^(٣) ، فشَجَّ في وجهه ، وقدم عليه وهو بجَرْجَرَايا أسارى من ناحية عُمان
من الهند ، بعث بهم إليه تسنيم بن الحواري مع ابنه محمد ، فهم بضرب
أعناقهم ، فساء لهم فأخبروه بما التبس به أمرهم عليه ؛ فأمسك عن قتلهم
وقسمهم بين قوّاده ونوّابه .

وفيها انصرف المهديّ إلى مدينة السلام من الرّقة فدخلها في شهر
رمضان .

وفيها أمر المنصور بمَرَمّة القصر الأبيض ، الذي كان كسرى بناه ،
وأمر أن يغرم كلّ مَنْ وُجد في داره شيء من الآجر الخسروانيّ ، مما نقضه
من بناء الأكاسرة ، وقال : هذا فيء المسلمين ، فلم يتم ذلك ولا ما أمر به
من مَرَمّة القصر .

وفيها غزّا الصّائفة معيوف بن يحيى من دَرُب الحدّث ، فلقى العدو
فاقتلوا ثم تحاجزوا .

(١) بَشَق النهر : كسر شطه لينبثق الماء ، واسم الموضع البَشَق ، بفتح وبكسر . وفي ج :
« شق » . (٢) سَكْر النهر : سدّ فاه . (٣) في اللسان : الدّجج ، لا أعرف
معناه ها هنا ، إلا أن الدِينِج معرب ديزه ، وفي لؤن بين لؤنين غير خالص .

[ذكر الخبر عن حبس ابن جريج وعباد بن كثير والثوري]

وفي هذه السنة حبس محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ ، وهو أمير مكة - فيما ذكر - بأمر المنصور إياه بحبسهم : ابن جريج وعباد بن كثير والثوري ، ثم أطلقهم من الحبس بغير إذن أبي جعفر ، فغضب عليه أبو جعفر .

٣٨٦/٣

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن عمران مولى محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدثه عن أبيه ، قال : كتب المنصور إلى محمد ابن إبراهيم - وهو أمير على مكة - يأمره بحبس رجل من آل عليّ بن أبي طالب كان بمكة ، ويحبس ابن جريج وعباد بن كثير والثوري ، قال : فحبسهم ؛ فكان له ستمار يسامرونه بالليل ؛ فلما كان وقت سمره جلس وأكب على الأرض ينظر إليها ، ولم ينطق بحرف حتى تفرقوا . قال : فدنوت منه فقلت له : قد رأيت ما بك ، فما لك ؟ قال : عمدت إلى ذى رحيم فحبسته ، وإلى عيون من عيون الناس فحبستهم ، فيقدم أمير المؤمنين ولا أدرى ما يكون ؛ ففعله أن يأمر بهم فيقتلوا ، فيشتد سلطاناه وأهلك ديني ؛ قال : فقلت له : فتصنع ماذا ؟ قال : أوتر الله ، وأطلق القوم ؛ اذهب إلى إيلي فخذ راحلة منها ، وخذ خمسين ديناراً فأت بها الطالبي وأقرئه السلام ، وقل له : إن ابن عمك يسألك أن تحمله من ترويعه إياك ، وتركب هذه الراحلة ، وتأخذ هذه النفقة . قال : فلما أحسن بي جعل يتعوذ بالله من شرّي ، فلما أبلغته قال : هو في حل ولا حاجة لي إلى الراحلة ولا إلى النفقة . قال : قلت : إن أطيب لنفسه أن تأخذ ، ففعل . قال : ثم جئت إلى ابن جريج وإلى سفيان بن سعيد وعباد بن كثير فأبلغتهم ما قال ، قالوا : هو في حل ، قال : فقلت لهم : يقول لكم : لا يظهرون أحد منكم ما دام المنصور مقيماً . قال : فلما قرب المنصور وجهني محمد بن إبراهيم بالطاف ، فلما أخبر المنصور أن رسول محمد بن إبراهيم قدم ، أمر بالإبل فضربت وجوها .

٣٨٧/٣

قال : فلما صار إلى بئر ميمون لقيه محمد بن إبراهيم ، فلما أخبر بذلك أمر بدوابه فضربت وجوها ، فعدل محمد ، فكان يسير في ناحية . قال :

وعَدِلَ بأبي جعفر عن الطريق في الشَّقِّ الأيسر فأنبِخَ به ، ومحمد واقف قُبُلَاتِهِ ،
ومعه طبيب له ؛ فلما ركب أبو جعفر وسار ، وعديله الرَّبِيعُ أمرَ محمد الطبيب
ففضى إلى موضع مناخ أبي جعفر ، فرأى نَجْوَهُ ، فقال لمحمد : رأيتُ نَجْوَ
رجل لا تطول به الحياة ؛ فلما دخل مكة لم يلبث أن مات وسليم محمد .

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة أبي جعفر المنصور]

وفيها شخص أبو جعفر من مدينة السلام ، متوجهاً إلى مكة ؛ وذلك في
شَوَّال ، فنزل - فيما ذكر - عند قصر عبدِ وَهْبٍ ، فانقضَّ في مقامه هنالك
كوكب ، لثلاث بقين من شَوَّال بعد إضاءة الفجر ، فبقى أثره بَيْتاً إلى
طلوع الشمس ، ثم مضى إلى الكوفة ، فنزل الرُّصَافَةَ ، ثم أهلَّ منها بالحجِّ
والعُمرة ، وساق معه الهدْيَ وأشعره وقلَّده ؛ لأيام خلت من ذى القعدة .
فلما سار منازل من الكوفة عرضَ له وجعه الذي توفِّيَ منه .

واختلف في سبب الوجع الذي كانت منه وفاته ؛ فذكر عن علي بن
محمد بن سليمان التوفِّيَ ، عن أبيه ، أنه كان يقول : كان المنصور لا يستمرئ
طعامه ؛ ويشكو من ذلك إلى المتطبِّبين ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات (١) ؛
فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يُقْلَ من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنات
تُهْضِم في الحال ، وتُحْدِث من العلة ما هو أشدَّ منه عليه ؛ حتى قدم عليه
طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره ؛ فكان يتخذ له سَقُوفاً
جَوَارشناً يابساً ، فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيهضم طعامه
فأحمدته . قال : فقال لي أبي : قال لي كثير من متطبِّبي العراق : لا يموت
والله أبو جعفر أبداً إلا بالْبَطْنِ ، قال : قلت له : وما علمك ؟ قال : هو
يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه ؛ ويخلق من زئبر مَسْعِدَتِهِ في كلِّ يوم
شيئاً ، وشحم مصاريته ، فيموت ببطنه . وقال لي : اضربْ لذلك مثلاً ،

(١) في اللسان : « الجوارشن : نوع من الأدوية المركبة ، يقوى المعدة ، ويهضم الطعام ، قال :
وليست اللفظة بعربية » .

أرأيت لو أنك وضعت جرّاً على مَرَفَع ، ووضعت تحتها آجرة جديدة فقطرت ، أما كان قَطْرُهَا يثقب الآجرة على طول الدهر ! أو ما علمت أن لكل قطرة خدّاً ! قال : فأت والله أبو جعفر - كما قال - بالبطن (١) .

وقال بعضهم : كان بدءُ وجعه الذي مات فيه من حرِّ أصابه من ركوبه في الهواجر ، وكان رجلاً محروراً على سنّه ، يغلب عليه المزار الأحمَر ، ثم هاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستّان ابن عامر ، فاشتدّ به ، فرحل عنه فقصر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتفع ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم صار منها إلى بئر ميمون ، وهو يسأل عن دخوله الحرم ، ويوصي الربيع بما يريد أن يوصيه ، وتوفّي بها في السحرّ أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة ، ولم يحضره عند وفاته إلا خدّمه والربيع مولاه ؛ فكتم الربيع موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه والصّراخ ، ثم أصبح فحضر أهل بيته كما كانوا يحضرون ، وجلسوا مجالسهم ؛ فكان أول من دعى به عيسى بن عليّ ، فكث ساعة ، ثم أذن لعيسى بن موسى - وقد كان فيما خلا يقدّم في الإذن على عيسى بن عليّ ، فكان ذلك مما ارتيب به - ثم أذن للأكابر وذوي الأسنان من أهل البيت ، ثم لعامتهم ؛ فأخذ الربيع بيعتهم لأمر المؤمنين المهديّ ولعيسى بن موسى من بعده ، على يد موسى بن المهديّ حتى فرغ من بيعته بنى هاشم ؛ ثم دعا بالقواد فبايعوا ولم ينكل منهم عن ذلك رجل إلا على ابن عيسى بن ماهان ؛ فإنه أبى عند ذكر عيسى بن موسى أن يبايع له ، فلطمه محمد بن سليمان ، وقال : ومن هذا العليج ! وأمّصه (٢) ، وهم بضرب عنقه ، فبايع ، وتتابع الناس بالبيعة . وكان المسيب بن زهير أول من استثنى في البيعة ، وقال : عيسى بن موسى : إن كان كذلك . فأمّصوه .

وخرج موسى بن المهديّ إلى مجلس العامة ، فبايع من بقي من القواد والوجوه ، وتوجّه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايع أهلها بها ؛

(١) ب : « بالبطنة » .

(٢) يقال : أمّص فلان فلاناً إذا شتمه بالمصان ، والمصان : شتم للرجل يعبر برضع الغنم من أخلافها .

٣٩٠/٣

وكان العباس يومئذ المتكلم ، فبايع الناس للمهدى بين الركن والمقام ، وتفرق
عِدَّة من أهل بيت المهدي في نواحي مكة والعسكر فبايعه الناس ، وأخذ في
جهاز المنصور وغسله وكفنه ، وتولّى ذلك من أهل بيته العباس بن محمد والربيع
والريان وعدّة من خدّمه ومواليه ، ففرغ من جهازه مع صلاة العصر ، وغطّى
من وجهه وجميع جسده بأكفانه إلى قُصاص شعره ، وأبدى رأسه مكشوفًا من
أجل الإحرام ، وخرج به أهل بيته والأخص من مواليه ، وصلى عليه — فيما
زعم الواقدي — عيسى بن موسى في شعب الحوز^(١) .

وقيل : إن الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ . وقيل : إن
المنصور كان أوصى بذلك ؛ وذلك أنه كان خليفته على الصلاة بمدينة السلام .

وذكر عليّ بن محمد النوفليّ ، عن أبيه ، أن إبراهيم بن يحيى صلى عليه في
المضارب قبل أن يُحمل ؛ لأن الربيع قال : لا يصلى عليه أحد يطمع في الخلافة ،
فقدّموا إبراهيم بن يحيى — وهو يومئذ غلام حَدَث — ودفن في المقبرة التي
عند ثَنِيَّة المدنيين^(٢) التي تسمّى كذا ، وتسمّى ثَنِيَّة المعلّاة ؛ لأنها بأعلى
مكة ، ونزل في قبره^(٣) عيسى بن عليّ والعباس بن محمد وعيسى بن موسى ،
والربيع والريان ومولّياه ، ويقطين بن موسى .

* * *

واختلف في مبلغ سنة يوم توفّي ، فقال بعضهم : كان يوم توفّي ابن أربع
وستين سنة .

وقال بعضهم : كان يومئذ ابن خمس وستين سنة .

وقال بعضهم : كان يوم توفّي ابن ثلاث وستين سنة .

وقال هشام بن الكلبيّ : هلك المنصور وهو ابن ثمان وستين سنة .

(١) ب : « الحوز » ، ج : « الحوز » . (٢) ب : « المدينتين » .

(٣) ب : « مقبره » .

وقال هشام : ملك المنصور اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً .
واختلف عن أبي معشر في ذلك ، فحدثني أحمد بن ثابت الرازي عمن
ذكره ، عن إسحاق بن عيسى عنه أنه قال : توفي أبو جعفر قبل يوم التروية
بيوم يوم السبت ، فكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا ثلاثة أيام .
وروى عن ابن بكّار عنه أنه قال : إلا سبع ليال .
وقال الواقدي : كانت ولاية أبي جعفر اثنتين وعشرين سنة إلا ستة أيام .
وقال عمر بن شبة : كانت خلافته اثنتين وعشرين سنة غير يومين .
وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي .
وفي هذه السنة هلك طاغية الروم .

* * *

ذكر الخبر عن صفة أبي جعفر المنصور
ذكر أنه كان أسمر طويلاً ، نحيفاً . خفيف العارضين .
وكان ولید بالحمة .

* * *

ذكر الخبر عن بعض سيره

ذكر عن صالح بن الوجيه ، عن أبيه ، قال : بلغ المنصور أن عيسى
ابن موسى قتل رجلاً من ولد نصر بن سيار ، كان مستخفياً بالكوفة ، فدُلَّ
عليه ، فضرب عنقه . فأنكر ذلك وأعظمه ، وهمّ في عيسى بأمر كان فيه
هلاكه ، ثم قطعه عن ذلك جهل عيسى بما فعل . فكتب إليه :

أما بعد ، فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخّرْك عقوبة قتل ابن
نصر بن سيار واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال في مثله ، فأمسك عمن
ولاك أمير المؤمنين أمره ؛ من عرّبي وأعجمي ، وأحمر وأسود ، ولا تستبدن
على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قبلكه تباعة^(١) ، فإنه لا يرى أن يأخذ

أحداً بظنّة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحدّث كان منه في حرب أعقبه الله منها سلماً ستر به عن ذى غلّة ، وحجز به عن محنة ما في الصدور ؛ وليس ييأس أمير المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر ؛ كما أنه لا يأمن لإدبار مقبل . إن شاء الله والسلام .

وذكر عن عباس بن الفضل ، قال : حدثني يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع ، قال : لم يُرَ في دار المنصور لهُو قطّ ، ولا شيء يشبه اللهُو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً ، فإنّا رأينا ابننا له يقال له عبد العزيز أخا سليمان وعيسى ابني أبي جعفر من الطلحيّة ، توفّي وهو حدّث ، قد خرج على الناس متنكباً قوساً ، متعمّماً بعمامة ، متردياً ببرد ، في هيئة غلام أعرابي ، راكباً على قعود بين الجوالقين ، فيهما مقلّ ونعال ومساويك وما يهديه الأعراب ؛ فعجب الناس من ذلك وأنكروه . قال : فضى الغلام حتى عبّر الجسر ، وأتى المهديّ بالرّصافة فأهدى إليه ذلك ، فقيل المهديّ ما في الجوالق وملاهما دراهم ؛ فانصرف بين الجوالقين ؛ فعلم أنه ضرب من عبث الملوك .

وذكر عن حماد التركيّ ، قال : كنت واقفاً على رأس المنصور ، فسمع جلبة في الدار ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر ، فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين ^(١) الجوارى ، وهو يضرب لهنّ بالطنبور ، وهنّ يضحكن ، فجئت فأخبرته ، فقال : وأيّ شيء الطنبور ؟ فقلت : خشبة من حالها وأمرها ... ووصفتها له ؛ فقال لي : أصبت صفته ، فما يدريك أنت ما الطنبور ! قلت : رأيته بخراسان ، قال : نعم هناك ، ثم قال : هات نعلي ، فأتيته بها فقام يمشي رويداً حتى أشرف عليهم فرآهم ، فلما بصروا به تفرّقوا ، فقال : خذوه ، فأخذ ، فقال : اضرب به رأسه ، فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرتّه ، ثم قال : أخرجّه من قصرى ، واذهب به إلى حمران بالكركخ ، وقل له يبيعه .

وذكر العباس بن الفضل عن سلام الأبرش ، قال : كنت وأنا وصيف وغلّام آخر نخدم المنصور داخلًا في منزله ؛ وكانت له حجرة فيها بيت وفسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه ، وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج

(١) ج وابن الأثير : « حوله » .

إلى الناس ، وأشدّ احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ؛ فإذا لبس ثيابه تغيّر لونه وتربّد وجهه ، واحمرّت عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون ، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك ؛ فنستقبله في ممشاه ، فربّما عاتبناه .

وقال لي يوماً : يا بنيّ إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي ؛ فلا يدنُون مني أحد منكم مخافة أن أعره بشيء .

وذكر أبو الهيثم خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم ، قال : حدثني عبد الله بن محمد — يلقب بمنقار من أهل خراسان وكان من عمال الرشيد — قال : حدثني معن بن زائدة ، قال : كنّا في الصحابة سبعمئة رجل ؛ فكنا ندخل على المنصور في كلّ يوم ، قال : فقلت للربيع : اجعلني في آخر مَنْ يدخل ، فقال لي : لست بأشرفهم فتكون في أوّلهم ، ولا بأخسّهم نسباً فتكون في آخرهم ؛ وإن مرتبتك لشبهه نسبك . قال : فدخلتُ على المنصور ذات يوم وعلى درّاعة فضفاضة وسيف حنّيّ ، أقرع بنعله الأرض ، وعمامة قد سدلتها من خلفي وقدّأني . قال : فسلمت عليه وخرجت ، فلمّا صرت عند السّتر صاح بي : يا معن ، صيحة أنكرتها ! فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : إلىّ ، فدنوت منه ، فإذا به قد نزل عن عرشه إلى الأرض . وجثا على ركبتيه ، واستلّ عموداً من بين فراشيني ، واستحال لونه ودّرّت أوداجه ، فقال : إنك لصاحب يوم واسط ؛ لا نجوتُ إن نجوتُ مني . قال : قلت يا أمير المؤمنين ، تلك نصرتي لباطلهم ، فكيف نصرتي لحقك ! قال : فقال لي : كيف قلت ؟ فأعدتُ عليه القول ، فما زال يستعديني حتى ردّ العمود في مستقرّه ، واستوى متربّعاً ، وأسفرّ لونه ، فقال : يا معن ، إنّ لي باليمن هنات ، قلت : يا أمير المؤمنين ليس لمكتوم رأي ، قال : فقال : أنت صاحب ، فجلست ، وأمر الربيع بإخراج كلّ مَنْ كان في القصر فخرج ، فقال لي : إن صاحب اليمن قد همّ بمعصيتي ، وإنّي أريد أن آخذه أسيراً ولا يفوتني شيء من ماله . فما ترى ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، وكنتي اليمن ، وأظهر أنك ضممتني إليه . ومرّ الربيع يُزيح عليّ في كلّ ما أحتاج إليه ، ويخرجني من يومئذ لئلا ينتشر الخبر . قال : فاستلّ عهداً من بين

٣٩٥/٣

فراشين ، فوقَّع فيه اسمي وناولنيه ، ثم دعا الربيع ، فقال : يا ربيع ، إنا قد
ضممنا معنًا إلى صاحب اليمن ، فأزح عِلَّتَه فيما يحتاج إليه من الكراع
والسلاح ، ولا يُسمى ^(١) إلا وهو راحل . ثم قال : ودعني ، فودعته وخرجتُ
إلى الدَّهْلِيز ، فلقيني أبو الوالي ، فقال : يا معن ، أعزَّزْ عليَّ أن تضمَّ إلى ابن
أخيك ! قال : فقلت : إنه لا غضاضة على الرجل أن يضمَّه ^(٢) سلطانه
إلى ابن أخيه ، فخرجت إلى اليمن فأتيت الرجل ، فأخذته أسيرًا ، وقرأت
عليه العهد ، وقعدت في مجلسه .

وذكر حماد بن أحمد البائي ، قال : حدثني محمد بن عمر البائي
أبو الرُّدَيْنِي ، قال : أراد معن بن زائدة أن يوفد إلى المنصور قوماً يسلمون
سخيمته ، ويستعطفون قلبه عليه ، وقال : قد أفنيت عمري في طاعته ،
وأتعبت نفسي وأفنيت رجالي في حرب اليمن ، ثم يسخط عليَّ أن أنفقتُ المال
في طاعته ! فانتخب جماعة من عشيرته من أفناء ربيعة ؛ فكان فيمن اختار
مُجَاعَةَ بن الأزهر ، فجعل يدعو الرجال واحداً واحداً ، ويقول : ماذا أنت
قائل لأمر المؤمنين إذا وجهتُك إليه ؟ فيقول : أقول وأقول ، حتى جاءه مُجَاعَةُ
ابن الأزهر ، فقال : أعزَّ الله الأمير ! تسألني عن مخاطبة رجل بالعراق وأنا
باليمن ! أقصد لحاجتك ؛ حتى أتأتني لها كما يمكن وينبغي ، فقال : أنت
صاحبي ، ثم التفت إلى عبد الرحمن بن عتيق المزني ، فقال له : شدَّ عليَّ
عَضْدُ ابن عمك وقدَّمه أمامك ؛ فإن سها عن شيء فتلافه . واختار من
أصحابه ثمانية نفر ^(٣) معهما حتى تمَّوا عشرة ، وودَّعهم ومضوا حتى صاروا
إلى أبي جعفر ، فلما صاروا بين يديه تقدَّموا ، فابتدأ مُجَاعَةُ بن الأزهر بحمد الله
والثناء عليه والشكر ، حتى ظنَّ القوم أنه إنما قصد لهذا ، ثم كرَّ على ذكر النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكيف اختاره الله من بطون العرب ، ونشر من فضله ؛ حتى
تعجَّب القوم ، ثم كرَّ على ذكر أمير المؤمنين المنصور ، وما شرفه الله به ،
وما قلَّده ، ثم كرَّ على حاجته في ذكر صاحبه . فلما انتهى ^(٤) كلامه ، قال

٣٩٦/٣

(٢) ب : « يضم » .

(٤) ج : « انقضى » .

(١) ب : « ولا تمشي » .

(٣) ب : « من قومه نفرا » .

المنصور: أمّا ما وصفت من حمد الله، فالله أجلّ وأكبر من أن تبلغه الصفات،
وأما ما ذكرت من النبي صلى الله عليه وسلم فقد فضّله الله بأكثر مما قالت، وأما
ما وصفت به أمير المؤمنين؛ فإنه فضّله الله بذلك، وهو معينه على طاعته
إن شاء الله، وأما ما ذكرت من صاحبك فكذّبت ولؤمت، اخرج فلا يُقبل
ما ذكرت. قال: صدق أمير المؤمنين، والله ما كذبت في صاحبي. فأخرجوا
فلما صاروا إلى آخر الإيوان أمر بردّه مع أصحابه، فقال: ما ذكرت؟
فكرّ عليه الكلام؛ حتى كأنه كان في صحيفة يقرؤه، فقال له مثل القول
الأوّل، فأخرجوا حتى برزوا جميعاً، وأمر بهم فوقوا، ثم التفت إلى من
حضر من مضر، فقال: هل تعرفون فيكم مثل هذا؟ والله لقد تكلمتم حتى
حسدته، وما معنى أن أتمّ على ردّه إلا أن يقال: تعصّب عليه لأنه ربّعي،
وما رأيت كالיום رجلاً أربط جأشاً، ولا أظهر بياناً؛ ردّه يا غلام. فلما
صار بين يديه أعاد السّلام، وأعاد أصحابه، فقال له المنصور: اقصد
لحاجتك وحاجة صاحبك. قال: يا أمير المؤمنين، معن بن زائدة عبّدتك
وسيفك وسهمك، رميت به عدوك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهل ما حزن،
وذلّ ما صعب، واستوى ما كان معوجاً من اليمن، فأصبحوا من خول
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه! فإن كان في نفس أمير المؤمنين هتّة من ساعٍ
أو واشٍ أو حاسد فأمر المؤمنين أولى بالفضل^(١) على عبده، ومن أفنى عمره
في طاعته. فقبل وفادتهم، وقبل العذر من معن؛ وأمر بصرفهم إليه؛ فلما صاروا
إلى معن قرأ الكتاب بالرضا قبل ما بين عينيه، وشكر أصحابه، وخلع عليهم
وأجازهم على إقدامهم، وأمرهم بالرحيل إلى منصور، فقال مُجَاعَة:

٣٩٧/٣

آليتُ في مجلسٍ من وائلٍ قَسَمًا ألا أبيعك يا معنُ بأطماعِ
يامعنُ إنك قد أوليتني نِعَمًا عمتُ لُجَيْمًا وخصّتُ آلَ مُجَاعِ
فلا أزالُ إليك الدهرَ مُنْقَطِعًا حتى يُشيدَ^(٢) بهلكي هتفةُ الناعي

قال: وكانت نِعَمٌ معن على مُجَاعَة، أنه سأله ثلاث حوائج؛ منها أنه
كان يتعشّق امرأة من أهل بيته، سيدة يقال لها زهراء لم يتزوجها أحد بعد؛

وكانت إذا ذُكر لها قالت : بأى شيء يتزوجنى ؟ أجبته الصوف ، أم بكسائه !
فلما رجع إلى معن كان أول شيء سأله أن يزوجه بها ، وكان أبوها في
جيش معن ، فقال : أريد زهراء ، وأبوها في عسكرك أيها الأمير ، فزوجه
إياها على عشرة آلاف درهم وأمهرها من عنده . فقال له معن : حاجتك
الثانية ، قال : الحائط الذى فيه منزلى بحجر وصاحبه في عسكر الأمير ،
فاشتراه منه وصيره له ؛ وقال : حاجتك الثالثة ؟ قال : تهب لى مالاً .
قال : فأمر له بثلاثين ألف درهم ، تمام مائة ألف درهم ، وصرفه إلى منزله .

٣٩٨/٣

وذكر عن محمد بن سالم الخوارزمي - وكان أبوه من قواد خراسان -
قال : سمعت أبا الفرج خال عبد الله بن جبلة الطالقاني يقول : سمعت أبا جعفر
يقول : ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى
أعف منهم ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك ،
ولا يصلح الملك إلا بهم ؛ كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، إن
نقصت واحدة وهى ؛ أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر
صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي
ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع - ثم عض على أصبعه السبابة
ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه - قيل له : ومن هويا أمير المؤمنين ؟
قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصلحة .

وقيل : إن المنصور دعا بعامل من عماله قد كسر خراجه ، فقال له :
أد ما عليك ، قال : والله ما أملك شيئاً ، ونادى المنادى : أشهد أن لا إله
إلا الله ، قال : يا أمير المؤمنين ، هب ما على الله ولشهادة أن لا إله إلا الله ،
فخلت سبيله .

قال : وولّى المنصور رجلاً من أهل الشام شيئاً من الخراج ^(١) ، فأوصاه
وتقدّم إليه ، فقال : ما أعرفتنى بما في نفسك ! الساعة يا أخا أهل الشام !
تخرج من عندى الساعة ، فتقول : الزم الصلحة ؛ يلزمك العمل .

قال : وولّى رجلاً من أهل العراق شيئاً من خراج السواد ، فأوصاه ، وتقدّم إليه ، فقال : ما أعرفني بما في نفسك ! تخرج الساعة فتقول : من عال بعدها فلا اجتبر^(١) . اخرج عني وامض إلى عملاك ؛ فوالله لئن تعرّضتَ لذلك لأبلغن من عقوبتك ما تستحقّه . قال : فولّى جميعاً وصحّحاً وناصحاً .

ذكر الصبّاح بن عبد الملك الشيبانيّ ، عن إسحاق بن موسى بن عيسى ؛ أنّ المنصور ولّى رجلاً من العرب حضرموت ، فكتب إليه وإلى البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد بيزاة وكلاب قد أعدّها ، فزله وكتب إليه : ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ! ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ؛ سلّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وذكر الربيع أنه قال : أدخل على المنصور سهيل بن سالم البصريّ ، وقد ولّى عملاً فعزل ، فأمر بحبسه واستئذائه ، فقال سهيل : عبدك يا أمير المؤمنين ، قال : بش العبد أنت ! قال : لكنك يا أمير المؤمنين نعيم المولى ! قال : أمّا لك فلا .

قال : وذكر عن الفضل بن الربيع عن أبيه ، أنه قال : بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه ؛ إذ أتى بخارجي قد هزم له جيوشاً ، فأقامه ليضرب عنقه ، ثم اقتحمته عينه ، فقال : يابن الفاعلة ، مثلك يهزم الجيوش ! فقال له الخارجيّ : ويليك وسوءة لك ! بيني وبينك أمس السيف والقتل ، واليوم القذف والسب ! وما كان يؤمنك أن أردّ عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقبلها أبداً ! قال : فاستحيا منه المنصور وأطلقه ، فما رأى له وجهاً حولاً .

ذكر عبد الله بن عمرو الملحّي أن هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي ، قال : حدثني عبد الله بن محمد بن أبي أيوب المكيّ ، عن أبيه ، قال : حدثني ثُمارة بن حمزة ، قال : كنت عند المنصور ، فانصرفت من عنده في وقت انتصاف النهار ، وبعد أن بايع الناس للمهديّ ، فجاءني المهديّ

في وقت انصرافي ، فقال لي : قد بلغني أن أبي قد عزم أن يبايع لجعفر أخى ، وأعطى الله عهداً لئن فعل لأقتلته ، فضيت من فوري إلى أمير المؤمنين ، فقلت : هذا أمر لا يؤخر ، فقال الحاجب : الساعة خرجت ! قلت : أمر حدث ، فأذن لي ، فدخلت إليه ، فقال لي : هيه يا عمارة ! ما جاء بك ؟ قلت : أمر حدث يا أمير المؤمنين أريد أن أذكره ، قال : فأنا أخبرك به قبل أن تخبرني ، جاءك المهدي فقال : كيت وكيت ، قلت : والله يا أمير المؤمنين لكأنك حاضر^(١) ، قال : قل له : نحن أشفق عليه من أن نعرضه لك .

وذكر عن أحمد بن يوسف بن القاسم ، قال : سمعت إبراهيم بن صالح ، يقول : كنا في مجلس ننتظر الإذن فيه على المنصور ، فتذاكرنا الحجاج ، فمنا من حمده ومنا من ذمه ، فكان ممن حمده معن بن زائدة ، وممن ذمه الحسن بن زيد ، ثم أذن لنا فدخلنا على المنصور ، فأنبرى الحسن بن زيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما كنت أحسبني أبقى حتى يذكر الحجاج في دارك وعلى بساطك ، فيشئ عليه . فقال أبو جعفر : وما استكرت من ذلك ! رجل استكفاه قوم فكفاهم ؛ والله لوددت أنى وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمرى ، وأنزله أحد الحرمين . قال : فقال له معن : يا أمير المؤمنين ، إن لك مثل الحجاج عدة لو استكفيتهم كفوك ، قال : ومن هم ؟ كأنك تريد نفسك ! قال : وإن أردتها فلم أبعد من ذلك ، قال : كلا لست بكذاك ؛ إن الحجاج ائتمنه قوم فأدّى إليهم الأمانة ، وإنّا ائتمناك فختنتنا !

ذكر الهيثم بن عدى ، عن أبي بكر الهذلي ، قال : سرت مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة ، وسأيرته يوماً ، فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تذهب في الأرض ، وعليه جبّة خز ، وعمامة عدنية ، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض ، سرى الهيئة ، فلما رآه أمرنى فدعوته ، فجاء فسأله عن نسبه وبلاده وبادية قومه وعن ولادة الصدقة ، فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه ، فقال : أنشدنى ، فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم ؛ وحدته حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العنبري ، وهو قوله :

إِنَّ قَنَايَ لَنَبْعُ لَا يُوَيْسُهَا غَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا دُھْنٌ وَلَا نَارُ
مَتَى أَجِرْ خَائِفًا تَأْمَنُ مَسَارِحُهُ وَإِنْ أَخِفْ آمِنًا تَقْلُقْ بِهِ الدَّارُ
إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا أَوْرَدْتُهَا صَدَرَتْ إِنَّ الْأُمُورَ لَهَا وَرْدٌ وَإِصْدَارُ

فقال : ويحك ! وما ^(١) كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر ؟ قال :
كان أنقل العرب ^(٢) على عدوه وطأة وأدركهم بثأر ، وأيمنهم نقيبة ، وأعساهم ^(٣)
قناة لمن رام هضمه ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ؛ اجتمعت
العرب بعكاظ فكلتهم أقر له بهذه الخلال ؛ غير أن امرأ أراد أن يقصّر به ،
فقال : والله ما أنت ببعيد النجعة ، ولا قاصد الرمية ، فدعاه ذلك إلى أن جعل
على نفسه ألا يأكل إلا لحم قسنص يقتنصه ، ولا يتزع كل عام عن غزوة
يسعد فيها أثره ، قال : يا أخا بني تميم ؛ لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك
ولكني أحق ببيتيه منه ؛ أنا الذي وصف لا هو .

٤٠٢/٣

وذكر أحمد بن خالد الفقيمي أن عدّة من بني هاشم حدثوه أن
المنصور كان شغلته في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور
والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصالحة معاش الرعية لطرح
عالتهم والتلطّف لسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته
إلا من أحب أن يسامره ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب
الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور ستماره من ذلك فيما أرب ؛ فإذا مضى
ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف ستماره ، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه ،
فأسبغ وضوءه ، وصطف في محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي
بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه .

قال إسحاق : حدثت عن عبد الله بن الربيع ، قال : قال أبو جعفر
إسماعيل بن عبد الله : صف لي الناس ، فقال : أهل الحجاز مبتدأ الإسلام

(٢) ج : « الناس » .

(١) ج : « ومن » .

(٣) ج : « وأعساه » ، وعسى الشيء ، أى اشتد وصلب .

٤٠٣/٣

وبقية العرب ، وأهل العراق ركن الإسلام ومقاتلة عن الدين ، وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة ، وأهل خراسان فرسان الهيجاء وأعنة الرجال ، والترك منابت الصخور وأبناء المغازي ، وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عما يليهم ، والروم أهل كتاب وتدين نحاتهم الله من القرب إلى البعد ، والأنباط كان ملئكم قديماً فهم لكل قوم عبيد . قال : فأى الولاة أفضل ؟ قال : الباذل للعتاء ، والمعرض عن السيئة . قال : فأيتهم أخرج ؟ قال : أنهكهم ^(١) للرعية ، وأتعبهم لها بالخرق والعقوبة . قال : فالطاعة على الخوف أبلغ في حاجة الملك أم الطاعة على المحبة ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، الطاعة عند الخوف تُسرِّ الغدر وتبالغ عند المعايعة ، والطاعة على المحبة تضرر الاجتهاد وتبالغ عند الغفلة . قال : فأى الناس أولاهم بالطاعة ؟ قال : أولاهم بالمضرة والمنفعة . قال : ما علامة ذلك ؟ قال : سرعة الإجابة وبذل النفس . قال : فمن ينبغي للملك أن يتخذه وزيراً ؟ قال : أسلمهم قلباً ، وأبعدهم من الهوى .

وذكر عن أبي عبيد الله الكاتب ، قال : سمعت المنصور يقول للمهدي حين عهد له بولاية العهد : يا أبا عبد الله ، استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ^(٢) والنصر بالتواضع ؛ ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله .

وذكر الزبير بن بكار ، قال : حدثني مبارك الطبري ، قال : سمعت أبا عبيد الله يقول : سمعت المنصور يقول للمهدي : لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ؛ فإن فكر العاقل مرآته ، تريبه حسنه وسيئته .

وذكر الزبير أيضاً ، عن مصعب بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : سمعت أبا جعفر المنصور يقول للمهدي : يا أبا عبد الله ؛ لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال ، ولا تقدّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار .

٤٠٤/٣

وأقْدُرُ الناسَ على العفو أقْدِرهم على العقوبة ، وأعجزُ الناسَ مَنْ ظلمَ مَنْ هو دونه . واعتبرَ عملَ صاحبك وعلمَه باختباره ^(١) .

وعن المبارك الطبري أنه سمع أبا عبيد الله يقول : سمعتُ المنصور يقول للمهديّ : يا أبا عبد الله ، لا تجلس مجلساً إلا ومعك من أهل العلم مَنْ يحدثك ؛ فإن محمد بن شهاب الزهري قال : الحديث ذكّر ولا يحبه إلا ذكّور الرجال ، ولا يُبغضه إلا مؤنثهم ؛ وصدّقَ أخو زُهرة !

وذكر عن عليّ بن مجاهد بن محمد بن عليّ ، أن المنصور قال للمهديّ : يا أبا عبد الله ، مَنْ أحبَّ الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض أحدُ الحمد إلا استدم ، وما استدم إلا كره .

وقال المبارك الطبري : سمعت أبا عبيد الله يقول : قال المنصور للمهديّ : يا أبا عبد الله ، ليس العاقلُ الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ؛ ولكنه الذئبيّ يحتال للأمر الذي غشيته حتى لا يقع فيه .

وذكر الفقيميّ ، عن عتبة بن هارون ، قال : قال أبو جعفر يوماً للمهديّ : كم راية ^(٢) عندك ؟ قال : لا أدري ، قال : هذا والله التّضييع ؛ أنت لأمر الخلافة أشدُّ تضييعاً ؛ ولكن قد جمعتُ لك ما لا يضرّك معه ما ضيَّعتَ ؛ فاتق الله فيما خوّلك .

وذكر عليّ بن محمد عن حفص بن عمر بن حماد ، عن خالصة ، قالت : دخلتُ على المنصور ؛ فإذا هو يتشكّى ^(٣) وجع ضرسه ؛ فلما سمع حسّتي ، قال : ادخلي ؛ فلما دخلت إذا هو واضع يده على صُدغيه ، فسكت ساعة ثم قال لي : يا خالصة ، كم عندك من المال ؟ قلت : ألف درهم ، قال : ضعي يدك على رأسي واحلّقي ، قلت : عندي عشرة آلاف دينار ؛ قال : احمليني إلى ، فرجعت فدخلت على المهديّ والخيزران فأخبرتاهما ؛ فركلني المهديّ برجله ، وقال لي : ما ذهب بك إليه ! ما به من وجع ؛ ولكنني سألتُه أُمس مالا فمأرض ، احملني إليه ما قلت ؛ ففعلتُ ، فلما أتاه المهديّ ، قال :

٤٠٥/٣

(١) ج وابن الأثير : « باختباره » . (٢) ج : « دابة » . (٣) ج : « يشتكى » .

يا أبا عبد الله ؛ تشكو الحاجة وهذا عند خالصة !

وقال عليّ بن محمد : قال واضح مولى أبي جعفر ، قال : قال أبو جعفر يوماً : انظر ما عندك من الثياب الخلقان فاجمعها ، فإذا علمت بمجيء أبي عبد الله فجنني بها قبل أن يدخل ؛ وليكن معها رقاع . ففعلت ، ودخل عليه المهديّ وهو يقدر الرقاع ، فضحك وقال : يا أمير المؤمنين ، من هاهنا يقول الناس : نظروا في الدينار والدرهم وما دون ذلك — ولم يقل : دائق — فقال المنصور : إنه لا جديد لمن لا يصلح خلقه ، هذا الشتاء قد حضر ، ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد . قال : فقال المهديّ : فعلى كسوة أمير المؤمنين وعياله وولده ، فقال له : دونك فافعل .

٤٠٦/٣ وذكر عليّ بن مرثد أبو دعامة الشاعر ، أن أشجع بن عمرو السلميّ حدثه عن المؤمل بن أميّل — وذكره أيضاً عبد الله بن الحسن الخوارزمي أن أبا دعامة حدثه أن المؤمل بن أميّل حدثه — قال : قدمت على المهديّ — قال ابن مرثد في خبره : وهو ولي عهد ، وقال الخوارزمي : قدمت عليه الرثي وهو ولي عهد — فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها ؛ فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن المهديّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه المنصور يعذله ويلومه ، ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم . قال أبو دعامة : فكتب إلى كاتب المهديّ أن يوجه إليه بالشاعر ، فطلب فلم يُقدّر عليه ، فكتب إليه أنه قد توجه إلى مدينة السلام ، فوجه المنصور قائداً من قواده ، فأجلسه على جسر النهر وان ، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً ممن يمرّ به ؛ حتى يظفر بالمؤمل ؛ فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميّل ، من زوّار الأمير المهديّ ، قال : إياك طلبت . قال المؤمل : فكاد قلبي ينصدع خوفاً من أبي جعفر ، فقبض عليّ ثم أتى بي باب المقصورة ، وأسلمني إلى الربيع ، فدخل إليه الربيع ، فقال : هذا الشاعر قد ظفرنا به ، فقال : أدخلوه عليّ ، فأدخلت عليه ، فسلمت فردّ عليّ السلام ، فقلت : ليس ها هنا إلا خير ، قال : أنت المؤمل بن أميّل ؟

قلت : نعم أصلح الله أمير المؤمنين ! قال : هيه ! أتيت غلاماً غيراً فخدعته !
قال : فقلت : نعم أصلح الله أمير المؤمنين ؛ أتيت غلاماً غيراً كريماً فخدعته
فانخدع ، قال : فكان ذلك أعجبه ، فقال : أنشدني ما قلت فيه ، فأشدته :

٤٠٧/٣

هو المهدى إلا أن فيه مشابهة صورة القمر المنير
تشابهة ذا وذا فهما إذا ما أنارا مُشكِلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل^(١) وهذا في النهار سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا على ذا بالناير والسرير
وبالمُلك العزيز فذا أمير وما ذا بالأمر ولا الوزير
ونقص الشهر يُخمدُ ذا ، وهذا منير عند نقصان الشهور
فيا بن خليفة الله المصطفى به تعلقو مُفاخرة الفخور
لئن فُتَّ المُلوك وقد توافوا إليك من السهولة والوعور
لقد سبقَ الملوك أبوك حتى بقوا من بين كابٍ أو حسير
وجئتَ وراءه تجرى حثيثاً وما بك حينَ تجرى من فتور
فقال الناس : ما هذان إلا بمنزلة الخلق من الجدير^(٢)
لئن سبقَ الكبيرُ فآهلُ سبقٍ له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مدى كبيرٍ لقد خُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنت ؛ ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم .
وقال لي : أين المال ؟ قلت : ها هو ذا ، قال : يا ربيع انزل معه فأعطه أربعة
آلاف درهم ؛ وخذ منه الباقي . قال ؛ فخرج الربيع فحط ثقلتي ، ووزن
لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي . قال : فلما صارت الخلافة إلى المهدى ،
ولّى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرُصافة فإذا ملأ كساءه رقاعاً
رفعها إلى المهدى ، فرفعتُ إليه يوماً رقعة أذكره قصتي ، فلما دخل بها ابن

٤٠٨/٣

(١) الزجاجي : « سراج نار » . (٢) أي هما سيان ، والخليق والجدير بمعنى واحد .

ثوبان ، جعل المهديّ ينظر في الرقاع ؛ حتى إذا نظر في رقعتي ضحك ، فقال له ابن ثوبان : أصلح الله أمير المؤمنين ! ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال : هذه رقعة أعرف سببها ، ردّها وإليه العشرين الألف درهم ، فردت إليّ وانصرفت^(١) .

وذكر واضح مولى المنصور ، قال : إني لواقفٌ على رأس أبي جعفر يوماً إذ دخل عليه المهديّ ، وعليه قَبَاءٌ أسود جديد ، فسلم وجلس ، ثم قام منصرفاً وأتبعه أبو جعفر بصره لحبّه له وإعجابه به ؛ فلما توسّط الرّواق عثر بسيفه فتخرق سواده ، فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به ، فقال أبو جعفر : ردّها وأبأ عبد الله ؛ فرددناه إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، استقلالاً للمواهب ، أم بطراً للنعمة ، أم قلة علم بموضع المصيبة ! كأنك جاهل بما لك وعليك ! وهذا الذي أنت فيه عطاء من الله ، إن شكرته عليه زادك ، فإن عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك . فقال المهديّ : لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين وإرشادك ؛ والحمد لله على نعمه ، وأسأل الله الشكر على مواهبه ، والخلّاف الجميل برحمته . ثم انصرف .

قال العباس بن الوليد بن مزيد : قال : سمعت ناعم بن مزيد ، يذكر عن الوضين بن عطاء ، قال : استزارني أبو جعفر — وكانت بيني وبينه خلافة^(٢) قبل الخلافة — فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوماً ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، ما مالُك^(٣) ؟ قلت : الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين ، قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ ، قال : فقال لي : أربع في بيتك ؟ قلت : نعم ، قال : فوالله لردّد عليّ حتى ظننت أنه سيمولني^(٤) ، قال : ثم رفع رأسه إليّ ، فقال : أنت أيسر العرب ، أربعة مغازل يدرن في بيتك .

(١) الخبر في الأغاني ١٩ : ١٤٧ - ١٥٠ (سأسي) ، وتاريخ بغداد ١٣ : ١٧٧ - ١٨٠

وأمالى الزجاجي ٩٤ - ٩٦ . (٢) ج : « حالة » ، ابن الأثير : « خلة » .

(٣) ج ، وابن الأثير : « مالك » . (٤) ابن الأثير : « سيعيني » .

وذكر بشر المنجّم ، قال : دعاني أبو جعفر يوماً عند المغرب ، فبعثني في بعض الأمر ، فلما رجعت رفع ناحية مصلاًه ، فإذا دينار ، فقال لي : خذ هذا واحتفظ به ، قال : فهو عندي إلى الساعة .

وذكر أبو الجهم بن عطية ، قال : حدثني أبو مقاتل الخراساني ، ورفع غلام له إلى أبي جعفر أن له عشرة آلاف درهم ؛ فأخذها منه ، وقال : هذا مالي ، قال : ومن أين يكون مالك ! فوالله ما وليت لك عملاً قط ، ولا بيني وبينك رحيم ولا قرابة ، قال : بلتي ، كنت تزوجت مولاة لعُيينة بن موسى ابن كعب فورتشك مالا ؛ وكان ذلك قد عصي وأخذ مالي وهو والي على السند ؛ فهذا المال من ذلك المال !

وذكر مصعب بن سلام ، عن أبي حارثة النهدي صاحب بيت المال ، قال : ولّي أبو جعفر رجلاً باروساً ؛ فلما انصرف أراد أن يتعلّل عليه ، لثلاً يعطيه شيئاً ، فقال له : أشركتُك في أمانتي ، ووليتك شيئاً من فيء المسلمين فخنّته ! فقال : أعيزك بالله يا أمير المؤمنين ، ما صحبني من ذلك شيء إلاّ درهم ، منه مثقال صررته في كمي ، إذا خرجت من عندك اكتريت به بغلاً إلى عيالي ، فأدخل بيتي ليس معي شيء من مال الله ولا مالك . فقال : ما أظنك إلاّ صادقاً ؛ هلمّ درهمنا^(١) . فأخذه منه فوضعه تحت لِبده ؟ فقال : ما مثلي ومثلُك إلاّ مثل مجير أم عامر ، قال : وما مجير أم عامر ؛ فذكر قصة الضبع ومجيرها ، قال : وإنما غالظه أبو جعفر لثلاً يعطيه شيئاً .

٤١٠/٣

وذكر عن هشام بن محمد أن قُشَم بن العباس دخل على أبي جعفر ، فكلمه في حاجة ، فقال له أبو جعفر : دعني من حاجتك هذه ، أخبرني لم سميت قُشَم^(٢) ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أدري ، قال : القُشَم الذي يأكل ويَزِل ، أما سمعت قول الشاعر :

وللكُبراء أكلٌ كيف شاءوا وللصُغراء أكلٌ واقتِشامُ

(١) ب : « درهمك » .

(٢) ط : « قشماً » ؛ وهو ممنوع من الصرف .

وذكر عن إبراهيم بن عيسى أن المنصور وهب لمحمد بن سليمان عشرين ألف درهم وبلغعفر أخيه عشرة آلاف درهم ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، تفضله عليّ وأنا أسنّ منه ! قال : وأنت مثله ! إنا لا نلتفت إلى ناحية إلّا وجدنا من أثر محمد فيها شيئاً ، وفي منزلنا من هداياه بقيّة ؛ وأنت لم تفعل من هذا شيئاً .

وذكر عن سودة بن عمرو السلمي ، عن عبد الملك بن عطاء - وكان في صحابة المنصور - قال : سمعتُ ابنَ هُبَيْرَة وهو يقول في مجلسه : ما رأيتُ رجلاً قطّ في حرب ، ولا سمعتُ به في سلّم ، أمكّر ولا أبدع ، ولا أشدّ تيقظاً من المنصور ، لقد حصرنى في مدينتي تسعة أشهر ، ومعى فرسان العرب ، فجهدنا كلّ الجهد أن ننال من عسكره شيئاً نكسره به ؛ فما تهيتاً ، ولقد حصرنى وما في رأسي بيضاء ؛ فخرجت إليه وما في رأسي سوداء ؛ وإنه لكما قال الأعشى :

يَقُومُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَوْمِهِ فَيَغْضُو إِذَا شَاءَ أَوْ يَنْتَقِمُ
أَخُو الْحَرْبِ لَا ضَرْعٌ وَاهِنٌ وَلَمْ يَنْتَعِلْ بِنَعَالِ خَدِمٍ

وذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلاً على رجل يقال له أزهر السّمان - وليس بالحدّث - وذلك قبل خلافته ؛ فلما وليّ الخلافة صار إليه إلى مدينة السلام ، فأدخل عليه ، فقال : حاجتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، عليّ دين أربعة آلاف درهم ، ودارى مستهدمة ، وابني محمد يريد البناء بأهله ؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم ، ثم قال : يا أزهر ؛ لا تأتينا طالب حاجة ؛ قال : أفعل . فلما كان بعد قليل عاد ، فقال : يا أزهر ، ما جاء بك ؟ قال : جئت مسلماً يا أمير المؤمنين ؛ قال : إنه ليقع في نفسي أشياء ؛ منها أنك أتيتنا لِمَا أتيتنا له في المرّة الأولى ؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم أخرى ، ثم قال : يا أزهر ، لا تأتينا طالب حاجة ولا مسلماً ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ثم لم يلبث أن عاد ، فقال : يا أزهر ، ما جاء بك ؟ قال :

دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك ، قال : لا ترده ، فإنه غير مستجاب ؛ لأنني قد دعوت الله به أن يريني من خلقتك^(١) فلم يفعل ، وصرفه ولم يعطه شيئاً .

وذكر الهيثم بن عدى أن ابن عيَّاش حدثه أن ابن هبيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط ، والمنصور بإذائه : إني خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة ، فقد بلغني تجبينك إياي ؛ فكتب إليه : يا ابن هبيرة ، إنك امرؤ متعدّ طورك ، جارٍ في عنان غيِّك ، يعدك الله ما هو مصدّقه ، ويمنّيك الشيطان ما هو مكذّبه ، ويقرب ما الله مباعده ؛ فرويداً يتمّ الكتاب أجله ؛ وقد ضربت مثلي ومثلك ؛ بلغني أن أسداً لقي خنزيراً ، فقال له الخنزير : قاتلني ، فقال الأسد : إنما أنت خنزير ولست لي بكفء ولا نظير ، ومضى فعلت الذي دعوتني إليه فقتلتك ، قيل لي : قتلت خنزيراً ؛ فلم أعتقد بذلك فخراً ولا ذكراً ، وإن نالني منك شيء كان سبّة على ، فقال : إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع فأعلمتها أنك نكلت^(٢) عني وجبنت عن قتالي ، فقال الأسد : احتمال عار كذبك أيسر على من لطح شاربي^(٣) بدمك .

وذكر عن محمد بن رباح الجوهري ، قال : ذكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة - رصافة هشام - يسأله عن ذلك الحرب ، فقدم عليه فقال : أنت صاحب هشام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا ؟ قال : إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا ، ثم أتبع بأن قال : فعل كذا رضى الله عنه ؛ فأحفظ ذلك المنصور ، فقال : قم عليك غضب الله ! تطأ بساطي وترحم على عدوي ! فقام الشيخ ، وهو يقول : إن لعدوك قلادة في عنق ومنة في رقبتي لا يترعها عني إلا غاسلي ؛ فأمر المنصور برده ، وقال : اقم ، هيه ! كيف قلت ؟ فقلت : إنه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا أعجمي منذ رأيتُه ، أفلا

(٢) ابن الأثير : « تكلب » .

(١) ب : « خلقتك » .

(٣) ابن الأثير : « شرابي » .

٤١٣/٣ يجب على أن أذكره بخير وأتبعه بشئائي ! فقال : بلى ، لله أم نهضت عنك ، وليلة أدتلك ، أشهد أنك نهضت حرّة وغراس كريم ؛ ثم استمع منه وأمر له ببرّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما آخذته لحاجة ، وما هو إلا أنى أتشرّف بجيائك ، وأتبعجّ بصيلتك . فأخذ الصلّة وخرج ، فقال المنصور : عند مثل هذا تحسن الصبيحة ، ويؤوضع المعروف ، ويجاد بالمصون ، وأين في عسكرنا مثله !

وذكر عن حفص بن غياث ، عن ابن عيّاش ، قال : كان أهل الكوفة لا تزال الجماعة منهم قد طعنوا على عاملهم ، وتظلموا على أميرهم ، وتكلموا كلاماً فيه طعن على سلطانهم ؛ فرفع ذلك في الخبر ، فقال للربيع : اخرج إلى منّ بالباب من أهل الكوفة ، فقل لهم : إن أمير المؤمنين يقول لكم لن اجتمع اثنان منكم في موضع لأحلّقن رؤوسهما ولحاهما ، ولأضربن ظهورهما ، فالزموا منازلكم ؛ وابقوا على أنفسكم . فخرج إليهم الربيع بهذه الرسالة فقال له ابن عيّاش : يا شبه عيسى بن مريم ، أبلغ أمير المؤمنين عنا كما أبلغتنا ^(١) عنه ، فقل له : والله يا أمير المؤمنين ما لنا بالضرب طاقة ، فأمرنا حلق اللّحي فإذا شئت — وكان ابن عيّاش منتوفاً — فأبلغه ، فضحك ، وقال : قاتله الله ما أدهاه وأخبثه !

وقال موسى بن صالح : حدثني محمد بن عقبة الصيداوى عن نصر بن حرب — وكان في حرس أبي جعفر — قال : رفع إلى رجل قد جرى به من بعض الآفاق ، قد سعى في فساد الدولة ، فأدخلته على أبي جعفر ، فلما رآه قال : أصبغ ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ويلك ! أما أعنتك وأحسنّت إليك ! قال : بلى ، قال : فسعيت في نقض دولتي وإفساد ملكي ! قال : ٤١٤/٣ أخطأت وأمير المؤمنين أولى بالعفو . قال : فدعا أبو جعفر عُمارة — وكان حاضراً — فقال : يا عُمارة ؛ هذا أصبغ ، فجعل يتشبّت في وجهي ، وكان في عينيه سوءاً ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : على بكيس عطائي ، فأتي بكيس فيه خمسمائة درهم ، فقال : خذها فإنها وضّح ، ويلك ، وعليك

بعملك - وأشار بيده يجرّكها - قال عُمارَة : فقلت لأصْبِغ : ما كان عَنّي أمير المؤمنين ؟ قال : كنتُ وأنا غلامُ أعملُ الحِبال ، فكان يأكل من كسبي . قال نصر : ثم أتى به ثانية ، فأدخلته كما أدخلته قبلُ ، فلما وقف بين يديه أحدُ النظر إليه ، ثم قال : أصْبِغ ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فقَصَّ عليه ما فعل به ، وذكره إياه ، فأقرّ به ، وقال : الحق يا أمير المؤمنين ؛ فقدمه فضرب عنقه .

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، قال : حدثني أبي ، قال : كان خِضاب المنصور زعفرانيّاً ، وذلك أن شعره كان ليساً لا يقبل الخضاب ، وكانت لحيته رقيقة ؛ فكنت أراه على المنبر يخطُب ويبكى فيسرع الدمع على لحيته حتى تكفّ لقلة الشعر وليّنه .

وذكر إبراهيم بن عبد السلام ، ابن أخى السندى بن شاهك السندى ، قال : ظفر المنصور برجل من كبراء بني أمية ، فقال : إني أسألك عن أشياء فاصدُقني ولك الأمان ، قال : نعم ، فقال له المنصور : من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم ؟ قال : من تضييع الأخبار ، قال : فأى الأموال وجدوها أنفع ؟ قال : الجوهر ، قال فعند من وجدوا الوفاء ؟ قال : عند موالِيهم ، قال : فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضعُ من أقدارهم ، فاستعان بمواليه .

وذكر عليّ بن محمد الهاشمي أن أباه محمد بن سليمان حدثه ، قال : بلغني أن المنصور أخذ الدّواء في يوم شاتٍ شديد البرد ، فأتيته أسأله عن موافقة الدّواء له ، فأدخلت مدخلا من القَصْرِ لم أدخله قطّ ، ثم صرتُ إلى حُجيرة صغيرة ، وفيها بيتٌ واحد ورواق بين يديه في عَرْض البيت وعَرْض الصحن ، على أسطوانة ساجٍ ، وقد سدل على وجه الرواق بوارى^(١) كما يصنع بالمساجد ، فدخلت فإذا في البيت مِسْحَاحٌ ليس فيه شيء غيره إلا فراشه ومرافقه ودثاره ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا بيت أربأ بك عنه ، فقال : يا عمّ ، هذا

١٥/٣

(١) البوارى : جمع بارية ؛ وهى الحصير المنسوج .

بيت مبيتي ، قلت : ليس هنا غير هذا الذي أرى ، قال : ما هو إلا ما ترى .

قال : وسمعتة يقول عمن حدثته ، عن جعفر بن محمد ، قال : قيل إن أبا جعفر يُعرف بلباس جبّة هَرَوِيَّة مرقوعة ؛ وأنه يرقع قميصه ، فقال جعفر : الحمد لله الذي لطف له حتى ابتلاه بفقر نفسه — أو قال : بالفقر في ملكه .

قال : وحدثني أبي ، قال : كان المنصور لا يولّي أحداً ثم يعزله إلا ألقاه في دار خالد البطين — وكان منزل خالد على شاطئ دجلة ، ملاصقاً لدار صالح المسكين — فيستخرج من المعزول مالاً ، فإخذ من شيء أمر به فعزّل ، وكُتِبَ عليه اسم من أخذ منه ، وعزل في بيت مال ، وسماه بيت مال المظالم ، فكثّر ما في ذلك البيت من المال والمتاع . ثم قال للمهدي : إني قد هيأت لك شيئاً تُرضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً ، فإذا أنا بمت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سميتها المظالم ، فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فإنك تستحمد إليهم وإلى العامة ؛ ففعل ذلك المهدي لما ولي .

٤١٦/٣

قال عليّ بن محمد : فكان المنصور ولّي محمد بن عبيد الله بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث البلقاء ، ثم عزله ، وأمر أن يُحمّل إليه مع مال وجِدَ عنده ، فحمّل إليه على البريد ، وألفي معه ألفا دينار ، فحملت مع ثقله على البريد — وكان مصلي سوسنجرّد ومضربة ومرفقة وسادتين وطستاً وإبريقاً وأشناندانة نحاس — فوجد ذلك مجموعاً كهيشته ؛ إلا أن المتاع قد تأكّل ، فأخذ ألفي الدينار ، واستحيا أن يخرج ذلك المتاع ، وقال : لأعرفه ، فتركه ، ثم ولّاه المهديّ بعد ذلك اليمن ، وولّي الرشيد ابنه الملقب ربوا المدينة .

وذكر أحمد بن الهيثم بن جعفر بن سليمان بن عليّ ، قال : حدثني صباح ابن خاقان ، قال : كنت عند المنصور حين أتى برأس إبراهيم بن عبد الله ابن حسن ، فوضع بين يديه في ترس ، فأكبّ عليه بعض السيّافة ، فبصق في وجهه ، فنظر إليه أبو جعفر نظراً شديداً ، وقال لي : دقّ أنفه ، قال : فضربت أنفه بالعمود ضربة لو طُلب له أنف بألف دينار ما وجد ، وأخذته

٤١٧/٣

أعمدة الحرس ، فما زال يُهشم بها حتى خميد ، ثم جرَّ برجله .

قال الأصمعيّ : حدثني جعفر بن سليمان ، قال : قدِم أشعب أيام أبي جعفر بغداد ، فأطاف به فتيان بني هاشم فغنّاهم ، فإذا ألحانه طربةٌ وحلقه على حاله ، فقال له جعفر : لمن هذا الشعر ؟

لِمَنْ طَلَلُ بِذَاتِ الْجَيِّ شِ أَمْسَى دَارِسًا خَلَقًا^(١)
عَلَوْنَ بظَاهِرِ الْبَيْدَا ۖ فَالْمَحْزُونُ قَدْ قَلِقَا

فقال : أخذت الغناء من معبد ؛ ولقد كنت آخذ عنه اللحن ، فإذا سئل عنه قال : عليكم بأشعب ؛ فإنه أحسن تأدية له منّي .

قال الأصمعيّ : وقال جعفر بن سليمان : قال أشعب لابنه عبيدة : إني أراي سأخرجك من منزلي وأنتني منك ، قال : ولِمَ يا أبة ؟ قال : لأنّي أكسب خلق الله لرغيف ، وأنت ابني قد بلغت هذا المبلغ من السن ، وأنت في عيالي ما تكسب شيئاً ، قال : بلى والله ، إني لأكسب ؛ ولكن مثل الموزة لا تحمل حتى تموت أمها .

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان الهاشمي ؛ أن أباه محمداً حدثه أن الأكاسرة كان يُطَيّن لها في الصيف سقف بيت في كل يوم ، فتكون قائلة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طُوالاً غلاظاً ، فترصف حول البيت ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين أضعافها ؛ وكانت بنو أمية تفعل ذلك ؛ وكان أوّل من اتخذ الخيش المنصور .

٤١٨/٣

وذكر بعضهم : أن المنصور كان يطَيّن له في أول خلافته بيت في الصيف يَقيّل فيه ؛ فاتخذ له أبو أيوب الخوزي ثياباً كثيفة تبل وتوضع على سبابك ، فيجد بردها ، فاستظرفها ، وقال : ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل ؛ وكانت أبرد ، فاتخذ

(١) الأغاني ٤ : ٣٩ (سامي) ، ونسبهما مع ثالث إلى الأحوص . وفي ياقوت ٢ : ١٩٣ ، ونسبهما مع بيتين آخرين إلى جعفر بن الزبير بن العوام .

له الحيش، فكان ينصب على قبة، ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائع، واتخذها الناس.

وقال علي بن محمد عن أبيه: إن رجلاً من الراوندية كان يقال له الأبلق، وكان أبرصاً، فتكلم بالغلو، ودعا بالراوندية إليه، فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة، في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلوا الحرمات؛ فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته؛ فبلغ ذلك أسد بن عبد الله، فقتلهم وصلبهم، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء، فألقوا أنفسهم، كأنهم يطيطون، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت! قال: فحكي لنا عن بعض مشيختنا أنه نظر يقولون وهم يقاتلون: أنت أنت. قال: فحكي لنا عن بعض مشيختنا أنه نظر إلى جماعة الراوندية يرمون أنفسهم من الخضراء كأنهم يطيطون، فلا يبلغ أحدهم الأرض إلا وقد تفتت، وخرجت روحه.

قال أحمد بن ثابت مولى محمد بن سليمان بن علي عن أبيه: إن عبد الله ابن علي، لما توارى من المنصور بالبصرة عند سليمان بن علي أشرف يوماً ومعه بعض مواله ومولى لسليمان بن علي، فنظر إلى رجل له جسمال وكمال، يمشي التسخاجي، ويحرق أثوابه من الخيلاء، فالتفت إلى مولى لسليمان بن علي، فقال: من هذا؟ قال له: فلان ابن فلان الأموي، فاستشاط غضباً وصفق بيديه عجباً، وقال: إن طريقنا لنسبك^(١) بعد، يا فلان - لمولى له - انزل فأنتي برأسه، وتمثل قول سديف:

علام، وفيم نترك عبد شمس لها في كل راعية ثغاء!
فما بالرئيس في حران منها ولو قتلت بأجمعها وفاء

(١) النبكة: أكمة محددة الرأس؛ وربما كانت حمراء؛ ولا تخلو من الحجارة.

وذكر على بن محمد المدائني أنه قدم على أبي جعفر المنصور - بعد انهزام عبد الله بن علي وظفر المنصور به ، وحبسه إياه ببغداد - وفد من أهل الشام فيهم الحارث بن عبد الرحمن ، فقام عِدَّة منهم فتكلموا ، ثم قام الحارث ابن عبد الرحمن ، فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنا لسنا وفدٌ مباهاة ، ولكننا وفد توبة ؛ وإنا ابتلينا بفتنة استغفرت كريمنا ، واستخففت حليمنا ، فنحن بما قدّمنا معترفون ، ومما سلف منا معترفون ، فإن تعاقبنا فيما أجرمنا ، وإن تعف عنا فبفضلك علينا ؛ فاصفح عنا إذ ملكت ، وامنن إذ قدّرت ، وأحسن إذ ظفرت ، فطالما أحسنت ! قال أبو جعفر : قد فعلت .

٤٢٠/٣

وذكر عن الهيثم بن عدى عن زيد مولى عيسى بن نهيك ، قال : دعاني المنصور بعد موت مولاى ، فقال : يا زيد ، قلت : لسيك يا أمير المؤمنين ؛ قال : كم خلف أبو زيد من المال ؟ قلت : ألف دينار أو نحوها ، قال : فأين هي ؟ قلت : أنفقتها الحرّة في مآتمه . قال : فاستعظم ذلك ، وقال : أنفقت الحرّة في مآتمه ألف دينار ! ما أعجب هذا ! ثم قال : كم خلف من البنات ؟ قلت : ستاً ، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه ، وقال : اغدُ إلى باب المهديّ ، فغدوت فقيل لى : أملك بغال ؟ فقلت : لم أوامر بذلك ولا بغيره ؛ ولا أدرى لم دعيت ! قال : فأعطيت ثمانين ومائة ألف دينار ، وأميرت أن أدفع إلى كل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار . ثم دعاني المنصور ، فقال : أقبضت ما أمرنا به لبنات أبي زيد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : اغد على بكفائهن حتى أزواجهنّ منهم ؛ قال : فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكيّ وثلاثة من آل نهيك من بنى عمهنّ ، فزوج كل واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم ، وأمر أن تحمّل إليهنّ صدقاتهنّ من ماله ، وأمرنى أن أشتري بما أمر به لهنّ ضياعاً ، يكون معاشهنّ منها ، ففعلت ذلك .

وقال الهيثم : فرق أبو جعفر على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشرة آلاف درهم ، وأمر للرجل من أعمامه بألف ألف ، ولا نعرف خليفة قبله ولا بعده وصلّ بها أحداً من الناس .

٤٢١/٣

وقال العباس بن الفضل : أمر المنصور لعمومته : سليمان ، وعيسى ،

وصالح ، وإسماعيل ؛ بنى على بن عبد الله بن عباس ، لكل رجل منهم بألف ألف معونة له من بيت المال . وكان أول خليفة أعطى ألف ألف من بيت المال ؛ فكانت تجرى في الدواوين .

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال : حدثني الفضل بن الربيع ، عن أبيه ، قال : جلس أبو جعفر المنصور للمدنيين مجلساً عاماً ببغداد - وكان وفد إليه منهم جماعة - فقال : لينتسب كل من دخل على منكم ، فدخل عليه فيمن دخل شاب من ولد عمرو بن حزم ، فانتسب ثم قال : يا أمير المؤمنين ، قال الأحوص فينا شعراً ، معنا ^(١) أموالنا من أجله منذ ستين سنة ، فقال أبو جعفر : فأنشدني ، فأنشده :

لَا تَأْوِينَ لِحَزْمِي رَأَيْتَ بِهِ فَقَرَأُوا وَإِنْ أَلْقَى الْحَزْمِيُّ فِي النَّارِ ^(٢)
النَّاسِ سِينَ بِمَرَوَانٍ بَدَى خُشْبٍ وَالِدَاخِلِينَ عَلَى عُثْمَانَ فِي الدَّارِ

قال : والشعر في المدح للوليد بن عبد الملك ؛ فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذا الموضع قال الوليد : أذكرتني ذنب آل حزم ، فأمر باستصفاء أموالهم . فقال أبو جعفر : أعيد على الشعر ، فأعاده ثلاثاً ، فقال له أبو جعفر : لا جرم ، إنك تحتطي بهذا الشعر كما حرمت به ، ثم قال لأبي أيوب : هات عشرة آلاف درهم فادفعها إليه لغنائه إلينا ، ثم أمر أن يكتب إلى عماله أن ترد ضياع آل حزم عليهم ، وَيُعْطَوْا غَلَاتِهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ ضِيَاعِ بَنِي أُمِيَّةٍ ، وتقسّم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ ، ومن مات منهم وفر على ورثته . قال : فانصرف القتي بما لم ينصرف به أحد من الناس .

٤٢٢/٣

وحدثني جعفر بن أحمد بن يحيى ، قال : حدثني أحمد بن أسد ، قال : أبطأ المنصور عن الخروج إلى الناس والركوب ، فقال الناس : هو عليل ، وكثروا ، فدخل عليه الربيع ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لأمر المؤمنين طول البقاء ، والناس يقولون ، قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون : عليل ؛ فأطرق قليلاً ثم قال : يا ربيع ، ما لنا وللعامة ! إنما تحتاج العامة إلى ثلاث خلال ، فإذا

فُعل ذلك بها فما حاجتهم! إذا أقيم لهم مَنْ ينظر في أحكامهم فينصف بعضهم من بعض ، ويؤمن سبلهم حتى لا يخافوا في ليلهم ولا نهارهم ، ويسد ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوهم ؛ وقد فعلنا ذلك بهم . ثم مكث أياماً ، وقال : يا ربيع ، اضرب الطبل ، فركب حتى رآه العامة .

وذكر علي بن محمد ، قال : حدثني أبي ، قال : وجه أبو جعفر مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمُجَّان ، فكان فيهم حماد عَجْرَد ، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المحبُّون ؛ وإنما أراد بذلك أن يبغضه إلى الناس ، فأظهر محمد أنه يعشق زينب بنت سليمان بن علي ، فكان يركب إلى المربد ، فيتصدى لها ؛ يطمع أن تكون في بعض المناظر تنظر إليه ؛ فقال محمد لحمَّاد : قل لي فيها شعراً ، فقال فيها أبياتاً ، يقول فيها :

يا ساكنَ المِربَدِ قد هِجَّتْ لي شوقاً فما أنفكُ بالمِربَدِ^(١)

قال : فحدثني أبي قال : كان المنصور نازلاً على أبي ستين ، فعرفت الخصيب المتطبِّب لكثرة إتيانه إياه ؛ وكان الخصيب يُظهر النصرانية وهو زنديق معطل لا يبالي مَنْ قتل ، فأرسل إليه المنصور رسولاً يأمره أن يتوخى قتل محمد بن أبي العباس ، فاتخذ سمّاً قاتلاً ، ثم انتظر عدّة تحدث بمحمد ، فوجد حرارة ، فقال له الخصيب : خذ شربة دواء ، فقال : هيئتها لي ، فهيأها ، وجعل فيها ذلك السمّ ثم سقاه إياها ، فمات منها . فكتبت بذلك أمّ محمد بن أبي العباس إلى المنصور تعلمه أن الخصيب قتل ابنها . فكتب المنصور يأمر بحمله إليه ؛ فلما صار إليه ضربه ثلاثين سوطاً ضرباً خفيفاً ، وحبسه أياماً ، ثم وهب له ثلثمائة درهم ، وخلّاه .

قال : وسمعتُ أبي يقول : كان المنصور شرّط لأمّ موسى الحميرية ألاّ يتزوَّج عليها ولا يتسرّى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكّده وأشهدت عليه شهوداً ، فعزب بها عشرين في سلطانه ؛ فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق

(١) الأغاني ١٤ : ٣٧٤ ، من أبيات ، وروايته : « يا قمر المربد » .

فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة ؛ فكانت أم موسى إذا علمت مكانه بادرته ، فأرسلت إليه بجال جزيل ، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة ، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ؛ فأتته وفاتها بحلوان ، فأهديت له في تلك الليلة مائة بكّر ؛ وكانت أم موسى ولدت له جعفرًا والمهدى .

وذكر عن عليّ بن الجعد أنه قال : لما قدم بخثيشوع الأكبر على المنصور من السوس ، ودخل عليه في قصره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتغدى به ، فلما وضعت المائدة بين يديه ، قال : شراب ، فقليل له : إن الشراب لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين ، فقال : لا آكل طعاماً ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك ، فقال : دعوه ، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب ، فقليل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشى وشرب ماء دجلة ، فلما كان من الغد نظر إلى مائه ، فقال : ما كنت أحسب شيئاً يجزى من الشراب ، فهذا ماء دجلة يجزى من الشراب .

وذكر عن يحيى بن الحسن أن أباه حدثه ، قال : كتب المنصور إلى عامله بالمدينة أن بيع ثمار الضياع ولا تبعها إلا ممن نغلبه ولا يغلبنا ؛ وإنما يغلبنا المفلس الذى لا مال له ، ولا رأى لنا فى عذابه ، فيذهب بما لنا قبلة ولو أعطاك جزيلا ، وبعثها من الممكن بدون ذلك ممن ينصفك ويوفيك .

وذكر أبو بكر الهذلي أن أبا جعفر كان يقول : ليس بإنسان من أسدى إليه معروف فنسيه دون الموت .

وقال الفضل بن الربيع : سمعت المنصور يقول : كانت العرب تقول : الغوى القادح خير من الرى القاضح .

وذكر عن أبان بن يزيد العنبري أن الهيثم القارئ البصري قرأ عند المنصور ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾... (١) ، إلى آخر الآية ، فقال له المنصور ، وجعل يدعو : اللهم جنبني وبنى التبذير فيما أنعمت به علينا من عطيتك .

قال : وقرأ الهيثم عنده : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ فقال للناس : لولا أن الأموال حصن السلطان ودعامة للدين والدنيا وعزهما وزينتهما ما بت ليلة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً ، لما أجد لبذل المال من اللذاذة ؛ ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة .

ودخل على المنصور رجل من أهل العلم ، فازدراه واقتحمته عينه ، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده ، فقال له : أننى لك هذا العلم ! قال : لم أبخل بعلمي علمته ، ولم أستح من علم أتعلّمه . قال : فن هناك !

قال : وكان المنصور كثيراً ما يقول : من فعل بغير تدبير ، وقال عن غير تقدير ، لم يعلم من الناس هازئاً أو لاحقاً .

وذكر عن قحطبة ، قال : سمعت المنصور يقول : الملوك تحتل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثاً : إفشاء السر ، والتعرض للحُرمة ، والقدرح في الملك .

وذكر على بن محمد أن المنصور كان يقول : سرّك من دمك ، فانظر من تملكه .

وذكر الزبير بن بكار ، عن عمر ، قال : لما حمّل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى إلى المنصور بعد خروجه عليه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، قتيلة كريمة ! قال : تركتها وراءك يابن اللّخناء !

وذكر عن عمر بن شبة ، أن قحطبة بن غُدانة الجشمي - وكان من الصحابة - قال : سمعت أبا جعفر المنصور يخطب بمدينة السلام سنة اثنتين وخمسين ومائة ، فقال : يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يد خاطئة ، وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم ؛ ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأنيت حتى أدفعه إليه .

وذكر إسحاق الموصلي ، عن النضر بن حديد ، قال : حدثني بعض

الصحابه أن المنصور كان يقول : عقوبة الحليم التعريض ، وعقوبة السفیه التصريح .
٤٢٦/٣

وذكر أحمد بن خالد ، قال : حدثني يحيى بن أبى نصر القرشى ، أن أباناً القارئ قرأ عند المنصور : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ... ﴾ ^(١) ، الآية فقال المنصور : ما أحسن ما أدبنا ربنا !

قال : وقال المنصور : مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صُنِعَ إِلَيْهِ فَقَدْ كَافَأَ ، وَمَنْ أضعف فقد شكر ، ومن شكر كان كريماً ، ومن علم أنه إنما صنع إلى نفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم ، ولم يستزدهم من مودتهم ، فلا تلتمس من غيرك شكر ما آتيت به إلى نفسك ، ووقيت به عرضك . واعلم أن طالب الحاجة إليك لم يكرم وجهه عن وجهك ، فأكرم وجهك عن رده .

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن عبد الوهاب المهلبى ، حدثه ، قال : سمعت إسحاق بن عيسى يقول : لم يكن أحدٌ من بنى العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير أبى جعفر وداود بن على والعباس بن محمد .

وذكر عن أحمد بن خالد ، قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم الفهرى ، قال : خطب المنصور ببغداد في يوم عرفة - وقال قوم : بل خطب في أيام منى - فقال في خطبته : أيها الناس ؛ إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيثيه ؛ أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطي به بإذنه ؛ قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطيאתكم وقسم فيثكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ؛ فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ؛ إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ ^(٢) أن يوفقني للصواب ويسدّ دنى للرشاد ، ويلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، ويفتحني لأعطيאתكم

وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب .

وذكر عن داود بن رشيد عن أبيه ، أن المنصور خطب فقال : الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . فاعترضه معترض عن يمينه ، فقال : أيها الإنسان ، أذكرك من ذكرت به . . . فقطع الخطبة ثم قال : سمعاً سمعاً ؛ لمن حفظ عن الله وذكّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذأ وما أنا من المهتدين . وأنت أيها القائل ؛ فوالله ما أردت بها وجه الله (١) ؛ ولكنتك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها ! ويلك لو هممت ! فاهتبلها إذ غفرت . وإياك وإياكم معشر الناس أختها ؛ فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ؛ فردوا الأمر إلى أهله ، تورّدوه مواردّه ، وتصدروه مصادره . . . ثم عاد في خطبته ، فكانه يقرؤها من كفه ، فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وذكر عن أبي توبة الربيع بن نافع ، عن ابن أبي الجوزاء ، أنه قال : قمت إلى أبي جعفر وهو يخطب ببغداد في مسجد المدينة على المنبر فقرأت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) ، فأخذت فأدخلت عليه ، فقال : من أنت ويلك ! إنما أردت أن أقتلك ، فاخرج عني فلا أراك . قال : فخرجت من عنده سليماً . ٤٢٨/٣

وقال عيسى بن عبد الله بن حميد : حدثني إبراهيم بن عيسى ، قال : خطب أبو جعفر المنصور في هذا المسجد - يعني به مسجد المدينة ببغداد - فلما بلغ : اتقوا الله حق تقاته ، قام إليه رجل ، فقال : وأنت يا عبد الله ، فاتق الله حق تقاته . . . فقطع أبو جعفر الخطبة ، وقال : سمعاً سمعاً ، لمن ذكر بالله ؛ هات يا عبد الله ، فما تقي الله ؟ فانقطع الرجل فلم يقل شيئاً ، فقال أبو جعفر : الله الله أيها الناس في أنفسكم ، لا تحملونا من أموركم (٣) ما لا طاقة لكم به ،

(١) ابن الأثير : « ما أردت بهذا القول وجه الله »

(٢) ب : « أنفسكم » .

(٣) سورة الصف ٢ .

لا يقوم رجل هذا المقام إلا أوجعت ظهره ، وأطالت حبسه . ثم قال : خذه إليك يا ربيع ، قال : فوثقنا له بالنجاة— وكانت العلامة فيه إذا أراد بالرجل مكروهاً قال : خذه إليك يا مسيب— قال : ثم رجع في خطبته من الموضع الذي كان قطعه ، فاستحسن الناس ذلك منه ، فلما فرغ من الصلاة دخل القصر ؛ وجعل عيسى بن موسى يمشى على هيئته^(١) خلفه ، فأحس به أبو جعفر ، فقال : أبو موسى ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال : كأنك خفتني على هذا الرجل ! قال : والله لقد سبق إلى قلبي بعض ذلك ؛ إلا أن أمير المؤمنين أكثر علماً ، وأعلى نظراً من أن يأتي في أمره إلا الحق ، فقال : لا تخفى عليه . فلما جلس قال : على بالرجل ، فأتى به ؛ فقال : يا هذا ؛ إنك لما رأيتني على المنبر ، قلت ؛ هذا الطاغية لا يسعني إلا أن أكلّمه ، ولو شغلت نفسك بغير هذا لكان أمثل لك ؛ فاشغلها بظماء الهواجر ، وقيام الليل ، وتغيير قدميك في سبيل الله ؛ أنطه^(٢) يا ربيع أربعمائة درهم ، واذهب فلا تعد .

وذكر عن عبد الله بن صاعد ، مولى أمير المؤمنين أنه قال : حجّ المنصور بعد بناء بغداد ، فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾^(٣) ، أمرٌ مبشّر ، وقول عدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفلج حجته ، وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة عَرَضاً^(٤) ، والبهائم إرثاً ، وجعلوا القرآن عَضِينَ^(٥) ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكهم رى من بثر معطلة وقصير مشيد ؛ أهملهم^(٦) الله حتى بدّوا السنة ، واضطهدوا العترة^(٧) ، وعندوا واعتدوا ، واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ؛ ثم أخذهم ؛ فهل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً !

وذكر الهيثم بن عدي ، عن ابن عياش ، قال : إن الأحداث لما تتابعت

(١) ط : « هيئته » وما أنبته من ب . (٢) م : « أعطه » ، وهما بمعنى .
(٣) سورة الأنبياء ١٠٥ . (٤) ابن الأثير : « غرضاً » .
(٥) عَضِينَ ؛ أى فرقاً . (٦) س : « أهملهم » .
(٧) ابن الأثير : « وأهملوا العبرة » .

على أبي جعفر ، تمثل :

تفرقت الطَّبَّاءُ على خِداشٍ فما يَذْرى خِداشٌ ما يَصِيدُ^(١)

قال : ثم أمر بإحضار القوَّاد والموالى والصحابة وأهل بيته ، وأمر حمَّادا التركي بإسراج الخليل وسليمان بن مجالد بالتقدّم والمسيَّب بن زهير بأخذ الأبواب ، ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر . قال : فأزِمَ عليه طويلا لا ينطق . قال رجل لشبيب بن شيبه : ما لأمير المؤمنين لا يتكلم ! فإنه والله ممن يهون عليه صِعب القول ، فما باله ! قال : فافترع الخطبة ، ثم قال :

٣٠/٣

مالى أَكْفِكِفُ عن سَعْدٍ وَيَشْتَمِنِي ولو شتمتُ بنى سَعْدٍ لقد سَكَنُوا^(٢)
جهلا على وَجُبْنَا عن عَدُوِّهِمْ لبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
ثم جلس وقال :

فَأَلْقَيْتُ عن رَأْسِي القِنَاعَ ولم أَكُنْ لَأَكْشِفُهُ إِلَّا لِأَخْذِي العِظَائِمِ
والله لقد عجزوا عن أمرٍ قمنا به ، فما شكروا الكافي ؛ ولقد مهتدوا فاستوعروا
وغمطوا الحقَّ وغمصوا ، فإذا حاولوا ! أشرب رنقا على غَصَصٍ ، أم أقيم
على ضيمٍ ومضَضٍ ! والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسى ؛ والله لئن لم يقبلوا الحقَّ
ليطلبُنَّه ثم لا يجدونه عندي ؛ والسعيد مَنْ وُعطَ بغيره . قدَّم يا غلام ، ثم
ركب

وذكر الفقيمي أن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن مولى محمد بن عليّ
حدثه ، أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن وإخوته والنَّصر الذين كانوا معه
من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبيّ صلى
الله عليه وسلم ، ثم قال :

يا أهلَ خُرَّاسان ، أنتم شيعتُنَا وأنصارُنَا وأهلُ دولتِنَا ، ولو بايعتم غيرنا
لم تبايعوا مَنْ هو خيرُ منا ، وإنَّ أهلَ بيتي هؤلاء من ولد عليّ بن أبي طالب

(١) الأغاني ١٢ : ٢٢٩ . (٢) من قصيدة لقنعب بن أم صاحب في مختارات
ابن الشجري ٦ - ٨ . وفيها : « مالى أكفكف عن وهب » .

تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ؛
 ٤٣١/٣ فقام فيها عليّ بن أبي طالب فتلطّخ وحكّم عليه الحكمين ؛ فافترقت عنه
 الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته
 وثقاته فقتلوه ، ثمّ قام من بعده الحسن بن عليّ ؛ فوالله ما كان فيها برجل ؛
 قد عرضت عليه الأموال ، فقبلها ، فدرس إليه معاوية ؛ إني أجعلك وليّ عهدي
 من بعدى ، فخذعه فانسلخ له مما ^(١) كان فيه ، وسلّمه إليه ، فأقبل على النساء
 يتروّج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ؛ فلم يزل على ذلك حتى مات علي
 فإِراشه ، ثمّ قام من بعده الحسين بن عليّ ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة ؛
 أهل الشقاق والنفاق والإغراق ^(٢) في الفتن ، أهل هذه المدّة السوداء — وأشار
 إلى الكوفة — فوالله ما هي بحرب فأحاربها ، ولا سلم فأسلمها ، فرّق الله بيني وبينها ،
 فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثمّ قام من بعده زيد بن عليّ ، فخذعه أهل الكوفة
 وغرّوه ؛ فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه ؛ وقد كان أتى محمد بن عليّ ، فناشدته
 في الخروج وسأله ألاّ يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض
 علمنا ، أن بعض أهل بيتنا ^(٣) يُصلّب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك
 المصلوب ؛ وناشدته عمي داود بن عليّ وحذّره غدر أهل الكوفة فلم يقبل ؛
 وأتمّ على خروجه ، فقتل وصُلب بالكُناسة ، ثم وثب علينا بنو أميّة ، فأماتوا
 شرفنا ، وأذهبوا عزّنا ؛ والله ما كانت لهم عندنا تيرة يطلبونها ؛ وما كان لهم
 ذلك كله إلاّ فيهم وبسبب خروجهم عليهم ؛ فنفّونا من البلاد ، فصرّنا مرة
 بالطائف ، ومرة بالشّام ، ومرة بالشّيرة ؛ حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ،
 ٤٣٢/٣ فأحيا شرفنا ، وعزّنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقّكم أهل الباطل ، وأظهر
 حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرّ الحق مقرّه ،
 وأظهر مناره ، وأعزّ أنصاره ، وقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
 العالمين . فلما استقرّت الأمور فينا على قرارها ؛ من فضل الله فيها وحكمه
 العادل لنا ، وثبوا علينا ، ظالماً وحسداً منهم لنا ، وبغيّاً لما فضلنا الله به عليهم ،
 وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

(٢) ب : « والإغراق » .

(١) س : « منها وما » .

(٣) س : « بيت نبينا » .

جَهْلًا عَلَى وَجْبِنَا عَنْ عَدُوِّهِمْ لِبَيْسَتِ الْخَلَتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم ، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يا فلان قم يا فلان ، فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ؛ فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسُّوا إليهم تلك الأموال ؛ فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة ، استحالت بها دماءهم وأموالهم وحلَّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على ؛ فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ (١) .

٤٣٣/٣

قال : وخطب المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم ، فقال : أيُّها الناس ؛ لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسرُّوا غش الأئمة ، فإنه لم يُسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثاره ، وأفلتت لسانه ، وأبداها الله لإمامه ؛ بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم . إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزأناه حبي هذا الغمد . وإن أبا مسلم بايعتنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا ؛ ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

وذكر إسحق بن إبراهيم الموصلي أن الفضل بن الربيع أخبره عن أبيه ، قال : قال المنصور : قال أبي : سمعت أبي ؛ علي بن عبد الله يقول : سادة الدنيا الأسخياء ، وسادة الآخرة الأنبياء .

وذكر عن إبراهيم بن عيسى ، أن المنصور غضب على محمد بن جُمَيْل الكاتب - وأصله من الرُبْدَة - فأمر ببطحه (٢) ، فقام بحجته ، فأمر بإقامته ،

(٢) بطحه : ألقاه على وجهه .

(١) سورة سبأ ٥٤ .

ونظر إلى سراويله ، فإذا هو كستان ، فأمر ببطحه وضربه خمس عشرة درة ، وقال : لا تلبس سراويل كستان فإنه من السرف .

وذكر محمد بن إسماعيل الهاشمي ، أن الحسن بن إبراهيم حدثه ، عن أستاذه ، أن أبا جعفر لما قتل محمد بن عبد الله بالمدينة وأخاه إبراهيم بيأخمرى وخرج إبراهيم بن حسن بن حسن بمصر فحميل إليه ، كتب إلى بني علي بن أبي طالب بالمدينة كتاباً يذكر لهم فيه ^(١) إبراهيم بن الحسن بن الحسن وخروجه بمصر ، وأنه لم يفعل ذلك إلا عن رأيهم ، وأنهم يدأبون في طلب السلطان ، ويلتمسون بذلك القطيعة والعقوق ، وقد عجزوا عن عداوة بني أمية لما نازعهم السلطان ، وضعفوا عن طلب ثأرهم ؛ حتى وثب بنو أبيه غضباً لهم على بني أمية ، فطلبوا بثأرهم ، فأدركوا بدمائهم ، وانتزعوا السلطان عن أيديهم ، وتمثل في الكتاب بشعر سبيع بن ربيعة بن معاوية اليربوعي :

فلولا دفاعي عنكم إذ عجزتم	وبالله أحمي عنكم وأدافع
لضاعت أمور منكم لا أرى لها	كفاة وما لا يحفظ الله ضائع
فسموا الناس طمطح الناس عنكم	ومن ذا الذي تحبني عليه الأصابع!
وما زال منا قد علمتم عليكم	على الدهر إفضال يرى ومنافع
وما زال منكم أهل غدير وجفوة	وبالله معتز وللرحم قاطع
وإن نحن غبنا عنكم وشهدتم	وقائع منكم ثم فيها مقانيع
وإننا لنرعاكم وترعون شأنكم	كذاك الأمور خافضات روافع
وهل تغلون أقدام قوم صدورهم	وهل تغلون فوق السنام الأكارع!
ودب رجال للرياسة منكم	كما درجت تحت الغدير الضفادع؟

وذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، قال : كان أرزاق الكتاب والعمال أيام أبي جعفر ثلثمائة درهم ؛ فلما كانت كذلك لم تزل ^(٢) على حالها إلى أيام المأمون ، فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل ، فأما

(٢) س : « ولم يزل كذلك » .

(١) س : « فعل » .

في أيام بنى أمية وبنى العباس فلم تنزل الأرزاق من الثلاثمائة إلى ما دونها ، كان الحجاج يُجَرى على يزيد بن أبي مسلم ثلثمائة درهم في الشهر .

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى ، أن ولاية البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحب والأذم ، وبسعر كل مأكول ، وبكل ما يقضى به القاضى في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث ، وكانوا إذا صلّوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلّوا الغداة ؛ فإذا وردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك ، وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره ؛ فإذا ورد الجواب بالعلة تلتطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله ؛ وإن شك في شيء مما قضى به القاضى كتب إليه بذلك ؛ وسأل من بحضرته عن عمله ؛ فإن أنكر شيئا عمل به كتب إليه يوبّخه ويلومه .

وذكر إسحاق الموصلى أن الصباح بن خاقان التميمي ، قال : حدثني رجل من أهلى ، عن أبيه ، قال : ذكر الوليد عند المنصور أيام نزوله بغداد وفروغه من المدينة ، وفراغه من محمد وإبراهيم ابني عبد الله ، فقالوا : لعن الله الملحد الكافر - قال : وفي المجلس أبو بكر الهذلي وابن عياش المنتوف والشرقي ابن القطامي ، وكل هؤلاء من الصحابة - فقال أبو بكر الهذلي : حدثني ابن عم للفردق ، عن الفردق ، قال : حضرت الوليد بن يزيد وعنده ندامؤه وقد اصطبغ ، فقال لابن عائشة : تغنّ بشعر ابن الزبعرى :

٤٣٦/٣

لَيْتَ أَشْيَاخِي بَبْدَرٍ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(١)
وَقَتَلْنَا الضُّعْفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ^(٢) وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

فقال ابن عائشة : لا أغنني هذا يا أمير المؤمنين ؛ فقال : غنّه وإلا جدعت له واتيک ، قال : فغنّاه ، فقال : أحسنت والله ! إنه لعلى دين ابن الزبعرى يوم قال هذا الشعر . قال : فلعنه المنصور ولعنه جلساؤه ؛ وقال :

(٢) س : « وقتلنا الصيد » .

(١) من أبيات له في ابن هشام ٣ : ٩٧ .

الحمد لله على نعمته وتوجيهه .

وذكر عن أبي بكر الهذلي ، قال : كتب صاحب إرمينية إلى المنصور :
إن الجند قد شغبوا عليه ، وكسروا أقفال بيت المال ، وأخذوا ما فيه ، فوقع
في كتابه : اعتزل عملنا مذموماً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينتهبوا .

وقال إسحاق الموصلي ، عن أبيه : خرج بعض أهل العبث على أبي جعفر
بفلسطين ، فكتب إلى العامل هناك : دمه في دمك إلا توجهه إلى ؛ فجعد
في طلبه ، فظفر به فأشخص ، فأمر بإدخاله عليه ، فلمّا مثل بين يديه ،
قال له أبو جعفر : أنت المتوثّب على عمّالي ! لأنّثنّ من لحملك أكثر مما يبقی
منه على عظمك ، فقال له — وقد كان شيخاً كبير السن — بصوت ضعيف
ضئيل غير مستعلٍ :

أَتَرَوْضُ عِرْسَكَ بَعْدَ مَا هَرِمْتُ وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرِمِ .

قال : فلم تبين للمنصور مقالته ، فقال : يا ربيع ، ما يقول ؟ فقال :
يقول :

الْعَبْدُ عَبْدُكُمْ وَالْمَالُ مَا لَكُمْ فَهَلْ عَذَابُكَ غِنَى الْيَوْمَ مُنْصَرِفٌ !

قال : يا ربيع ، قد عفوت عنه ؛ فخلّ سبيله ، واحتفظ به ، وأحسن ولايته .
قال : ورفع رجل إلى المنصور يشكو عامله أنه أخذ حداً من ضيعته ،
فأضافه إلى ماله ، فوقع إلى عامله في رقعة المتظلم : إن آثرت العدل صحبتك
السلامة ، فأ نصف هذا المتظلم من هذه الظلامة .

قال : ورفع رجل من العامة إليه رقعة في بناء مسجد في محله ، فوقع في
رقعته : من أشرط الساعة كثرة المساجد ، فزد في خطاك تزد من الثواب .

قال : وتظلم رجل من أهل السواد من بعض العمال ، في رقعة رفعها إلى
المنصور ، فوقع فيها : إن كنت صادقاً فجيء به ملبياً فقد أذنّا لك في ذلك .

وذكر عمر بن شبة أن أبا الهذيل العلاف حدثه ، أن أبا جعفر قال : بلغني أن السيد بن محمد مات بالكرخ - أو قال : بواسط - ولم يدفنه ، ولئن حق ذلك عندي لأحرقنها . وقيل : إن الصحيح أنه مات في زمان المهدي بكرخ بغداد ، وأنهم تحامسوا أن يدفنه ، وأنه بعث بالربيع حتى ولى أمره ، وأمره إن كانوا امتنعوا أن يحرق عليهم منازلهم ، فدفع ربيع عنهم .

وقال المدائني : لما فرغ المنصور من محمد وإبراهيم وعبد الله بن علي وعبد الجبار بن عبد الرحمن ، وصار ببغداد ، واستقامت له الأمور ، كان يتمثل هذا البيت :

تبیت من البلوی علی حدّ مُرهَفٍ مراراً ويكفي الله ما أنت خائفٌ ٤٣٨/٣
قال : وأنشدني عبد الله بن الربيع ، قال : أنشدني المنصور بعد قتل هؤلاء :

وربّ أمورٍ لا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وللقلب من مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبٌ^(١)

وقال الهيثم بن عدّي : لما بلغ المنصور تفرّق ولد عبد الله بن حسن في البلاد هرباً من عقابه ، تمثّل :

إِنَّ قَنَايَ لَنْبَعٍ لَا يُؤَيِّسُهَا غَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا دُھَنُ وَلَا نَارُ
مَنْ أَجِرٌ خَائِفًا تَأْمَنُ مَسَارِحُهُ وَإِنْ أَخِيفَ آمِنًا تَقْلَقُ بِهِ الدَّارُ
سِيرُوا إِلَيَّ وَغُضُّوا بَعْضَ أَغْيُنِكُمْ إِنِّي لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ جَارِهِ جَارُ

وذكر علي بن محمد عن واضح مولى أبي جعفر ، قال : أمرني أبو جعفر أن أشتري له ثوبين ليتين ، فاشتريتهما له بعشرين ومائة درهم ، فأتيته بهما ، فقال : بكم ؟ فقلت : بثمانين درهماً ، قال : صالحان ، استحيطه ، فإن المتاع إذا أدخل علينا ثم ردّ على صاحبه كسره ذلك . فأخذت الثوبين من صاحبهما ، فلما كان من الغد حملتهما إليه معي ، فقال : ما صنعت ؟ قلت : رددتهما

عليه فحطني عشرين درهما، قال : أحسنت ؛ اقطع أحدهما قميصاً، واجعل الآخر رداء لي . ففعلتُ ، فلبس القميص خمسة عشر يوماً لم يلبس غيره .

وذكر مولّي لعبد الصمد بن عليّ ، قال : سمعتُ عبد الصمد يقول : إن المنصور كان يأمر أهل بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشي والطيب ؛ فإن رأى أحداً منهم قد أدخل بذلك أو أقل منه ، قال : يا فلان ، ما أرى وبيص^(١) الغالية في لحيتك ؛ وإنّي لأراها تلمع في لحية فلان ؛ فيشحذهم بذلك على الإكثار من الطيب ليتزين بهيئتهم وطيب أرواحهم عند الرعيّة ، ويزينتهم بذلك عندهم ؛ وإن رأى على أحد منهم شيئاً طاهراً عضّه بلسانه .

٢٩٩/٣

وذكر عن أحمد بن خالد ، قال : كان المنصور يسأل مالك بن أدهم كثيراً عن حديث عجلان بن سهيل ، أخى حوثة بن سهيل ، قال : كنّا جلوساً مع عجلان ، إذ مرّ بنا هشام بن عبد الملك ، فقال رجل من القوم : قد مرّ الأحول ، قال : ممّن تغنى ؟ قال : هشاماً ، قال : تسمّى أمير المؤمنين بالنسب^(٢) ! والله لولا رحمك لضربت عنقك ، فقال المنصور : هذا والله الذي ينفع مع مثله الحياء والممات .

وقال أحمد بن خالد : قال إبراهيم بن عيسى : كان للمنصور خادم أصفر إلى الأدمة^(٣) ، ماهر لا بأس به ، فقال له المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عربّي يا أمير المؤمنين ، قال : ومن أيّ العرب أنت ؟ قال : من خولان ، سبيت من اليمن ، فأخذني عدوّ لنا ، فجبّني فاسترققت ، فصرت إلى بعض بني أميّة ، ثم صرت إليك . قال : أمّا إنك نعم الغلام ؛ ولكن لا يدخل قصرى عربّي يخدم حرّى ؛ أخرج عافاك الله ؛ فاذهب حيث شئت !

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر - وكان من الصحابة - أن المنصور ضمّ رجلاً من أهل الكوفة ، يقال له الفطيل بن عمران ، إلى ابنه جعفر ، وجعله كاتبه ، وولاه أمره ، فكان منه بمنزلة أبي عبيد الله

(١) الوبص : اللعاب . (٢) النبز ، بالتحريك : اللقب ، وقد يور به .

(٣) الأدمة : السمرة .

من المهديّ ، وقد كان أبو جعفر أراد أن يبايع لجعفر بعد المهديّ ، فنصبت أم عبيد الله حاضنة جعفر للفضيل بن عمران ، فسعت به إلى المنصور ، وأومات إلى أنه يعيث بجعفر . قال : فبعث المنصور الريّان مولاه وهارون بن غزوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفضيل - وهو مع جعفر بحديثة الموصل - وقال : إذا رأيتم فضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه ، وكتب لهما كتاباً منشوراً ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به ، وقال : لا تدفعا الكتاب إلى جعفر حتى تفرّغا من قتله . قال : فخرجنا حتى قدما على جعفر ، وقعدا على بابيه ينتظران الإذن ؛ فخرج عليهما فضيل ، فأخذه وأخرجنا كتاب المنصور ، فلم يعرض لهما أحداً ؛ فضربا عنقه مكانه ، ولم يعلم جعفر حتى فرغا منه - وكان الفضيل رجلاً عفيفاً ديناً - فقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رمى به ، وقد عجّلت عليه . فوجّه رسولا ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فقدم الرسول قبل أن يحفّ دمه .

فذكر معاوية بن بكر عن سويد مولى جعفر ، أن جعفر أُرسل إليه ، فقال : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرّم ولا جناية ! قال سويد : فقلت : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ؛ وهو أعلم بما يصنع ؛ فقال : يا ماصّ بظُر أمّة ، أكلمك بكلام الخاصة وتكلمني بكلام العامة ! خذوا برجله فألقيه في دجلة . قال فأخذت ، فقلت : أكلمك ، فقال : دعوه ، فقلت : أبوك إنما يُسأل عن فضيل ، ومتى يُسأل عنه ، وقد قتل عمّه عبد الله بن عبد الله بن عليّ ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلماً ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعدّ ! هو قبل أن يُسأل عن فضيل جرّذانة تجبّ خصي فرعون^(١) قال : فضحك ، وقال : دعوه إلى لعنة الله .

وقال قعنب بن محرز : أخبرنا محمد بن عائد مولى عثمان بن عفان أن حفصاً الأمويّ الشاعر ، كان يقال له حفص بن أبي جُسمعة ، مولى عبّاد بن زياد ، وكان المنصور صيّرهُ مؤدباً للمهديّ في مجالسه ، وكان مداحاً لبني أمية في أيام بني أمية وأيام المنصور ، فلم ينكر عليه ذلك المنصور ، ولم يزل مع المهديّ

أيام ولايته العهد : ومات قبل أن يلي المهدي الخلافة . قال : وكان مما مدح به بنى أمية قوله :

أَيْنَ رَوْقًا عَبْدَ شَمْسٍ أَيْنَ هُمْ أَيْنَ أَهْلُ الْبَاعِ مِنْهُمْ وَالْحَسْبُ !
 لَمْ تَكُنْ أَيْدٍ لَهُمْ عِنْدَكُمْ مَا فَعَلْتُمْ آلَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ !
 أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْهُمْ أُولُو جُثَّتْ تَلْمَعُ مِنْ فَوْقِ الْخَشْبِ
 إِنْ تَجِدُوا الْأَصْلَ مِنْهُمْ سَفْهًا يَا الْقَوْمُ لِلزَّمَانِ الْمُنْقَلِبِ !
 إِنْ فَاحِلَبُوا مَا شِئْتُمْ فِي صَخْنِكُمْ فَسْتَسْقُونَ صَرَى ذَاكَ الْحَلْبِ
 وقيل : إِنْ حَفَصُوا الْأُمُومَى دَخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ ، فَكَلَّمَهُ فَاسْتَخْبَرَهُ ، فَقَالَ :
 له : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : مُوَلَّاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : مُوَلَّى لِي مِثْلَكَ لَا أَعْرِفُهُ !
 قَالَ : مُوَلَّى خَادِمٍ لَكَ عَبْدُ مَنْأَفٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَعَلِمَ
 أَنَّهُ مُوَلَّى لِبَنِي أُمِيَّةَ ، فَضَمَّهُ إِلَى الْمَهْدِيِّ ، وَقَالَ لَهُ : احْتَفِظْ بِهِ .

• • •

وبما رُئي به قول سلم الخاسر :

عَجِبًا لِلَّذِي نَعَى النَّاعِيَانِ كَيْفَ فَاهَتْ بِمَوْتِهِ الشَّفَتَانِ !
 مَلِكٌ إِنْ غَدَا عَلَى الدَّهْرِ يَوْمًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ سَاقِطًا لِلْجِرَانِ
 لَيْتَ كَفًّا حَشَتْ عَلَيْهِ تَرَابًا لَمْ تَعُدْ فِي يَمِينِهَا بَبْنَانِ
 حِينَ دَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ عَلَى الْعَسَةِ فِي وَأَغْضَى مِنْ خَوْفِهِ الثَّقَلَانِ
 أَيْنَ رَبُّ الزُّورَاءِ قَدْ قَلَدَتْهُ الْإِ مَلِكٌ ، عَشْرُونَ حِجَّةً وَاثْنَتَانِ
 إِنَّمَا الْمَرْءُ كَالزَّنَادِ إِذَا مَا أَخَذَتْهُ قَوَادِحُ النَّيِّرَانِ
 لَيْسَ يَثْنَى هَوَاهُ زَجْرٌ وَلَا يَفُ دَحُ فِي حَبْلِهِ ذَوُو الْأَذْهَانِ
 قَلَدَتْهُ أَعْنَةُ الْمُلِكِ حَتَّى قَادَ أَعْدَاءَهُ بِغَيْرِ عِنَانِ
 يُكْسِرُ الطَّرْفُ دُونَهُ وَتَرَى الْأَيْ لَدَى مِنْ خَوْفِهِ عَلَى الْأَذْقَانِ
 ضَمَّ أَطْرَافَ مُلْكِهِ ثُمَّ أَصْحَى خَلَفَ أَقْصَاهُمْ وَدُونَ الدَّانِي
 هَاشِمِي التَّشْمِيرِ لَا يَحْمِلُ الثَّقُ لَ عَلَى غَارِبِ الشَّرُودِ الْهَدَانِ

ذو أناءٍ ينسى لها الخائفُ الخَوْ فَوَعِزْمٍ يُلَوِي بِكُلِّ جَنَانٍ
 ذَهَبَتْ دُونَهُ النُّفُوسُ حِذَارًا غَيْرَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَبْدَانِ

* * *

ذكر أسماء ولده ونسائه

فن ولده المهديّ - واسمه محمد - وجعفر الأكبر ، وأمهما أروى بنت منصور
 أخت يزيد بن منصور الحميريّ ؛ وكانت تكنى أم موسى ؛ وهلاك جعفر
 هذا قبل المنصور .

وسليمان وعيسى ويعقوب ؛ وأمهم فاطمة بنت محمد ، من ولد طلحة بن
 عبيد الله .

وجعفر الأصغر ، أمّه أمّ ولد كردية ، كان المنصور اشتراها فترّاها ،
 وكان يقال لابنها : ابن الكردية .

وصالح المسكين ، أمّه أم ولد رومية ، يقال لها قالى الفرّاشة .

والقاسم ، مات قبل المنصور ، وهو ابن عشر سنين ، وأمّه أم ولد تعرف
 بأم القاسم ، ولها بباب الشام بستان يعرف إلى اليوم ببستان أمّ القاسم .

والعالية ، أمّها امرأة من بنى أميّة ، زوجها المنصور من إسحاق بن سليمان
 ابن عليّ بن عبد الله بن العباس . وذكر عن إسحاق بن سليمان أنه قال :
 قال لي أبي : زوجتُك يا بنيّ أشرف الناس ؛ العالية بنت أمير المؤمنين .
 قال : فقلت : يا أباه ، من أكفأنا ؟ قال : أعداؤنا من بنى أميّة .

٤٤٣/٣

* * *

ذكر الخبر عن وصاياه

ذكر عن الهيثم بن عدىّ أن المنصور أوصى المهديّ في هذه السنة لما شخص
 متوجّهاً إلى مكة في شوال ، وقد نزل قصر عبّديّه ، وأقام بهذا القصر أياماً
 والمهديّ معه يوصيه ، وكان انقضّ في مقامه بقصر عبّديّه كوكبٌ ، لثلاثٍ

بقين من شوال بعد إضاءة الفجر ، وبقي أثره ببينا إلى طلوع الشمس ، فأوصاه بالمال والسلطان ؛ يفعل^(١) ذلك كل يوم من أيام مقامه بالغداة والعشي ، لا يفتر عن ذلك ، ولا يفترقان إلا تحريكا . فلما كان اليوم الذي أراد أن يرتحل فيه ، دعا المهدي ، فقال له : إني لم أدع شيئا إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بخصال^(٢) والله ما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سقطة فيه دفاتر علمه ، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحدا ، يصير مفتاحه في كم قميصه . قال : وكان حماد التركي يقدم إليه ذلك السقطة إذا دعا به ، فإذا غاب حماد أو خرج كان الذي يليه سلمة الخادم - فقال للمهدي : انظر هذا السقطة فاحتفظ به ؛ فإن فيه علم آبائك ، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فإن أحزنك^(٣) أمر فانظر في الدفتر الأكبر ؛ فإن أصبت فيه ما تريد ، وإلا فالثاني والثالث ؛ حتى بلغ سبعة ؛ فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ؛ فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة ؛ فإنك أن تستبدل بها ؛ فإنها بيتك^(٤) وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسرت عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ؛ فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ؛ أن تظهر كرامتهم وتقدمهم^(٥) وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ؛ فإن عزك عزهم وذكركم لك ، وما أظنك تفعل . وانظر مواليتك ، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ؛ أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ، وما أظنك تفعل . وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل . وإياك أن

٤٤٤/٣

(٢) ب : « بخلال » .

(٤) ب : « مدينتك » .

(١) س : « ففعل » .

(٣) ب : « حزنك » .

(٥) س : « وتقدمهم » .

تستعين برجل من بنى سليم ، وأظنك ستفعل . وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل .

وقال غير الهيثم : إن المنصور دعا المهديّ عند مسيره إلى مكة ، فقال : يا أبا عبد الله ، إني سائر وإني غير راجع ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ! فاسأل الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيتي محتوماً ، فإذا بلغك أني قد مت ، وصار الأمر إليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمّمته ، قال : هو على يا أمير المؤمنين ، قال : فإنه ثلثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلّها من بيت مال المسلمين ، فاضمنها عني ، وما يفضي إليك من الأمر أعظم منها . قال : أفعل ، هو على . قال : وهذا القصر ليس هو لك ، هو لي ، وقصرى بنيته بمالي ، فأحب أن تصير نصيبك منه لإخوتك الأصغار . قال : نعم ، قال : ورقبتي الخاصة هم لك ، فاجعلهم لهم ، فإنك تصير إلى ما يغنيك عنهم ، وبهم إلى ذلك أعظم الحاجة . قال : أفعل ، قال : أمّا الضياع ، فلست أكلّفك فيها هذا ، ولو فعلت كان أحبّ إليّ ، قال : أفعل ، قال : سلّم إليهم ما سألتك من هذا ، وأنت معهم في الضياع . قال : والمتاع والثياب ، سلّمه لهم ، قال : أفعل . قال : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنع ! اتق الله فيما خولك وفيما خلّفتك عليه .

٤٥/٣

ومضى إلى الكوفة ، فنزل الرضافة ، ثم خرج منها مهلاً بالعمرة والحج ، قد ساق هديّه من البدن ، وأشعر وقلّد ؛ وذلك لأيام خلّت من ذى القعدة .

وذكر أبو يعقوب بن سليمان ، قال : حدثني جَمرة العطّارة — عطّارة أبي جعفر — قالت : لما عزم المنصور على الحج دعا ريّطة بنت أبي العباس امرأة المهديّ — وكان المهديّ بالريّ قبل شخوص أبي جعفر — فأوصاها بما أراد ، وعهد إليها ، ودفع إليها^(١) مفاتيح الخزان ، وتقدّم إليها وأحلفها ، ووكد الأيمان ألاّ تفتح بعض تلك الخزائن ، ولا تطلع عليها أحداً إلاّ المهديّ ؛ ولا هي ؛ إلاّ أن يصحّ عندها موته ، فإذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهديّ وليس معها

٤٦/٣

ثالث ؛ حتى يفتح^(١) الخزانة . فلما قدم المهديّ من الرّى إلى مدينة السلام ، دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرته عن المنصور أنه تقدّم إليها فيه ألاّ يفتحه ولا يُطلع عليه أحداً حتى يصبح عندها موته . فلما انتهى إلى المهديّ موت المنصور وولى الخلافة ، فتح الباب ومعه ريّطة ؛ فإذا أزج^(٢) كبير فيه جماعة من قتلاء الطالبين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ؛ وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدّة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهديّ ارتاع لما رأى ، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدُفِنوا فيها ، وعَمِلَ عليهم دكان .

وذكر عن إسحاق بن عيسى بن عليّ ، عن أبيه ، قال : سمعتُ المنصور وهو متوجّه إلى مكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو يقول للمهديّ عند وداعه إياه : يا أبا عبد الله ؛ إنى ولدت في ذى الحجة ، ووليت في ذى الحجة ، وقد هجس في نفسي أنى أموت في ذى الحجة من هذه السنة ؛ وإنما حدثني على الحجّ ذلك ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ؛ يجعل لك فيما كبرك وحزرك مخرجاً — أو قال : فخرجاً ومخرجاً — ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب . احفظ يا بنى محمدأ صلى الله عليه وسلم في أمته يحفظ الله عليك أمورك . وإياك والدّم الحرام ، فإنه حوّب عند الله عظيم ، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم . والزم الحلال ؛ فإنّ ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل . وأقم الحدود ولا تعتدّ فيها فتبور ؛ فإن الله لو علم أنّ شيئاً أصلح لدينه وأزجر من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه . واعلم أنّ من شدّة غضب الله لسلطانه ، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخّر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾^(٣) الآية . فالسلطان يا بنى حبّل الله المتين ، وعسوته الوثقي ، ودين الله القويم ، فاحفظه وحطّه وحصّنه ، وذُبْ عنه ، وأوقع بالملاحدين فيه ، واقمّع المارقين منه ، الخارجين عنه بالعقاب لهم والمشكلات بهم ؛ ولا تجاوز ما أمر

(٢) الأزج : ضرب من الأبنية .

(١) ب : « ففتحت » .

(٣) سورة المائدة ٣٣ .

الله به في محكم القرآن . واحكم بالعدل ولا تُشْطِطْ ؛ فإن ذلك أقطعُ للشَّغَبِ ، وأحسم للعدوِّ ، وأنجع في الدواء . وعفَ عن النِّيءِ ، فليُسِّمْ بك إليه حاجة مع ما أحلَّفه لك ، وافتتح عملك بصلية الرَّحيم وبرِّ القرابة . وإياك والأثرة^(١) والتبذير لأموال الرعية . واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمن السبل ، وخصَّ الواسطة ، ووسَّع المعاش ، وسكَّن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرَف^(٢) المكارة عنهم ، وأعدَّ الأموال واخزنها . وإيَّاكَ والتبذير ؛ فإنَّ النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ؛ وهي من شيم الزَّمان . وأعدَّ الرجال والكُرَاع والجند ما استطعت . وإيَّاكَ وتأخيرَ عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك^(٣) عليك الأمور وتضيق . جيد^(٤) في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً ، واجتهد وشمِّرْ فيها ، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل . وباشِرْ الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل ، واستعمل حسنَ الظنِّ بربك ، وأسئُ الظنِّ بعمَّالك وكتائبك^(٥) . وخذ نفسك بالتيقُّظ ، وتفقدَ مَنْ يبيت على بابك ، وسهِّلْ لذنِّكَ للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكلْ بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تمَّ فإنَّ أباك لم ينمَّ منذ ولىَّ الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلاَّ وقبله مستيقظ . هذه وصيتي إليك ، والله خليفتي عليك .

٤٨/٣

قال : ثم ودَّعه وبكى كل واحد منهما إلى صاحبه .

وذكر عمر بن شبة عن سعيد بن هريم ، قال : لما حجَّ المنصور في السنة التي توفيت فيها شيعة المهدي ، فقال : يا بني ، إني قد جمعتُ لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعتُ لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلاً ؛ ولست أخاف عليك إلاَّ أحدَ رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ؛ فأما عيسى بن موسى

(٢) ابن الأثير : « وادفع » .

(١) ابن الأثير : « الأثرة » .

(٤) ابن الأثير : « خذ » .

(٣) س : « فتدارك » .

(٥) س : « ورجال كفايتك » .

فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته ، والله لو لم يكن إلا أن يقول قولاً لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك . وأما عيسى بن زيد فأنفق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ، ثم لا ألوئك .

٤٤٩/٣

وذكر عيسى بن محمد أن موسى بن هارون حدثه ، قال : لما دخل المنصور آخر منزل نزلته من طريق مكة ، نظر في صدر البيت الذى نزل فيه ، فإذا فيه مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم .

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك ، وأمر الله لا بد واقسأ
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من حر المنيّة مانع !

قال : فدعا بالمتولّى لإصلاح المنازل ، فقال له : ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدعّار ! قال : يا أمير المؤمنين ، والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها ، فقال : اقرأ ما فى صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين ، قال : فدعا برئيس الحجابة ، فقال : اقرأ ما على صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى على صدر البيت شيئاً ، فأملى البيتين فكشبا عنه ، فالتفت إلى حاجبه فقال : اقرأ لى آية من كتاب الله جل وعزّ تشوقنى إلى الله عزّ وجلّ ، فتلا : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (١) ، فأمر بفكّيته فوجئنا . وقال : ما وجدت شيئاً تقرأه غير هذه الآية ! فقال : يا أمير المؤمنين ، محيى القرآن من قلبى غير هذه الآية ، فأمر بالرحيل عن ذلك المنزل تطهيراً مما كان ، وركب فرساً ، فلما كان فى الوادى الذى يقال له سقّـر - وكان آخر منزل بطريق مكة - كسبها به الفرس ، فدقّ ظهره ، ومات فدفن ببئر ميمون .

وذكر عن محمد بن عبد الله مولى بنى هاشم ، قال : أخبرنى رجل من العلماء وأهل الأدب ، قال : هتف بأبى جعفر هاتف من قصره بالمدينة فسمعه يقول :

٤٥٠/٣

أما وربُّ المسكون والحركِ إنَّ المنايا كثيرةُ الشَّرِكِ
 عليكِ يانفسُ إنَّ أسأتِ وإنِ أَحَسَنْتِ بالقَصْدِ ، كلُّ ذاكِ لَكَ^(١)
 ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا دارتِ نُجومُ السماءِ في الفلكِ
 إلا ينقلُ السلطانُ عن ملكِ إذا انقضى مُلكُهُ إلى ملكِ
 حتى يُصيرًا به إلى ملكِ ما عِزُّ سُلْطَانِهِ بِمُشْتَرِكِ
 ذاكِ بديعُ السماءِ والأرضِ والمرُ سِي الجبالِ المُسَخَّرِ الفلكِ
 فقال أبو جعفر : هذا والله أوَّان أجَلِي .

وذكر عبد الله بن عبيد الله ، أنَّ عبد العزيز بن مُسلم حدَّثه أنه قال :
 دخلت على المنصور يوماً أسلَّم عليه ؛ فإذا هو باهت لا يُجيب جواباً ، فوثبت
 لما أرى منه ، أريد الانصراف عنه ، فقال لي بعد ساعة : إني رأيت فيما يرى
 النائم ؛ كأن رجلاً ينشدني هذه الأبيات :

أَخِيَّ أَخْفِضْ مِنْ مُنَاكَ فَكأنَّ يَوْمَكَ قد أَتَاكَ
 ولقد أَرَاكَ الدَّهْرُ مِنْ تَصْرِيفِهِ ما قَدْ أَرَاكَ
 فإذا أَرَدْتَ النَّاقِصَ الـ عِبْدَ الدَّلِيلِ فَأَنْتَ ذَاكَ
 مُلْكْتَ ما مُلْكْتَهُ وَالْأَمْرُ فِيهِ إلى سِوَاكَ

فهذا الذي ترى من قلقٍ وَغَمٍّ لما سمعتِ ورأيتِ . فقلت : خيراً رأيتِ
 يا أمير المؤمنين . فلم يلبث إلى أن خرج إلى الحجّ فأت لوجهه ذاك . ٤٥١/٣

* * *

وفي هذه السنة بُويع للمهدي بالخلافة . وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن
 عليّ بن عبد الله بن العباس بمكة ؛ صبيحة الليلة التي تُوفى فيها أبو جعفر المنصور

(١) س : « في اليوم كان لك » .

وذلك يوم السبت لستَ لَيالِ خلونَ من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ، كذلك قال هشام بن محمد ومحمد بن عمر وغيرهما .

وقال الواقدي : وبويع له ببغداد يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذى الحجة من هذه السنة .

وأمّ المهديّ أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن يزيد بن شَمَر الحميريّ .

خلافة المهديّ محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس

* * *

ذكر الخبر عن صفة العقد الذي عُقِدَ للمهديّ بالخلافة
حين مات والده المنصور بمكة

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ أن أباه حدثه ، قال : خرجت في السنة التي
مات فيها أبو جعفر من طريق البصرة ؛ وكان أبو جعفر خرج على طريق
الكوفة ، فلقيناه بذات عِرْق ، ثم سرت معه ، فكان كلّمّا ركب عرضت له
فسلمت عليه ، وقد كان أذنف وأشنى على الموت ، فلما صار ببر ميمون
نزل به ، ودخلنا مكة ، فقضيت عُمرتي ، ثم كنت أختلف إلى أبي جعفر إلى
مَضرِبِه ، فأقيم فيه ^(١) إلى قريب من الزوال ، ثم أنصرف - وكذلك كان
يفعل الهاشميون - وأقبلت علته تشدّ وتزداد ، فلما كان في الليلة التي مات
فيها ، ولم نعلم ؛ فصليت الصبح في المسجد الحرام مع طلوع الفجر ، ثم ركبْتُ
في نوبتي ^(٢) متقلداً السيف عليهما ، وأنا أساير محمد بن عون بن عبد الله بن
الحارث - وكان من سادة بني هاشم ومشايخهم ؛ وكان في ذلك اليوم عليه
ثوبان مورّدان قد أحرم فيهما ، متقلداً السيف عليهما - قال : وكان مشايخ
بني هاشم يحبّون أن يُجرّموا في المورد لحديث عمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر
وقول عليّ بن أبي طالب فيه ^(٣) . فلما صرنا بالأبطح لقيننا العباس بن محمد
ومحمد بن سليمان في خيل ورجال يدخلان مكة ، فعدلنا إليهما ، فسلمنا عليهما
ثم مضينا ، فقال لي محمد بن عون : ما ترى حال هذين ودخولهما مكة ؟ قلت :
أحسب الرجل قد مات ؛ فأرادا أن يحصّنا مكة ؛ فكان ذلك كذلك ، فبينما

٤٥٢/٣

(٢) ب ، ج : « نوبتي » .

(١) ج : « معه » .

(٣) ج : « في ذلك » .

نحن نسير ، إذا رجل خفي الشَّخص^(١) في طِمْرَيْن ، ونحن بعد في غمْلَس ،
 قد جاء فدخل بين أعناق دابَّتينا ، ثم أقبل علينا ، فقال : مات والله الرجل !
 ثم خفي عنا ، فضينا^(٢) نحن حتى أتينا العسكر ، فدخلنا السُّرادق الذي كنا
 نجلس فيه في كل يوم ؛ فإذا بموسى بن المهدي قد صدرَ عند عَمُود السرادق ؛
 وإذا القاسم بن منصور في ناحية السُّرادق — وقد كان حين لقينا المنصور بذات
 عِرْق ، إذا ركب المنصور بعيره جاء القاسم فसार بين يديه وبينه وبين صاحب
 الشرطة ، ويؤمّر الناس أن يرفعوا القصص إليه — قال : فلما رأيته في ناحية السرادق
 ورأيت موسى مصدراً ، علمت أن المنصور قد مات . قال : فبينما أنا جالس
 إذ أقبل الحسن بن زيد ، فجلس إلى جنبي ، فصارت فخذه على فخذي ،
 وجاء الناس حتى ملثوا السرادق ، وفيهم ابن عيَّاش المتوفى ؛ فبينما نحن كذلك ،
 إذ سمعنا همساً من بكاء ، فقال لي الحسن : أترى الرجل مات ! قلت :
 لا أحسب ذلك ؛ ولكن لعله ثقیل ، أو أصابته غَشْشِيَّة ، فما راعنا إلا بأبى العنبر
 الخادم الأسود خادم المنصور ، قد خرج علينا مشقوق الأقبية من بين
 يديه ومن خلفه ، وعلى رأسه التراب ، فصاح : وا أمير المؤمنين ! فما بقي في
 السرادق أحدٌ إلا قام على رجله ، ثم أهواوا نحو مضارب أبي جعفر يريدون
 الدخول ، فنعهم الخدم ، ودفعوا في صدورهم . وقال ابن عيَّاش المتوفى :
 سبحان الله ! أما شهدت موت خليفة قط ! اجلسوا رحمكم الله . فجلس الناس ،
 وقام القاسم فشق ثيابه ، ووضع التراب على رأسه ، وموسى جالس على حاله .
 وكان صبيّاً رطباً ما يتحلل .

ثم خرج الربيع ، وفي يده قيرطاس ، فألقى أسفله على الأرض ، وتناول
 طرفه ، ثم قرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى
 مَنْ خَلَفَ بعده من بنى هاشم وشيعته من أهل خُرَّاسان وعامة المسلمين —
 ثم ألقى القيرطاس من يده ، وبكى وبكى الناس ، فأخذ القيرطاس ، وقال : قد
 أمكنكم البكاء ؛ ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بدّ من أن نقرأه
 عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله ؛ فسكت الناس ، ثم رجع إلى القراءة — أما بعد :

٥٣/٣

٥٤/٣

فإني كتبتُ كتابي هذا وأنا حيٌّ في آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألاّ يفتنكم بعدى ، ولا يُلبسكم شيعاً ، ولا يُلدّقكم بعضكم بأس بعض . يا بني هاشم ، ويا أهلَ خراسان ... ثم أخذ في وصيتهم بالمهدى ، وإذكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء بعهده إلى آخر الكتاب .

قال النوفلى : قال أبى : وكان هذا شيئاً وضعه الربيع ؛ ثم نظر في وجوه الناس ، فدنا من الهاشميين ، فتناول يد الحسن بن زيد ، فقال : قم يا أبا محمد ، فبايعْ ، فقام معه الحسن ، فأنتهى به الربيع إلى موسى فأجلسه بين يديه ، فتناول الحسن يدَ موسى ، ثم التفت إلى الناس ، فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واصطفي مالى ؛ فكلّمه ^(١) المهدى فرضى عني ، وكلّمه في ردّ مالى علىّ فأبى ذلك ، فأخلفه المهدى من ماله وأضعفه مكان كل علق علقين ، فمّن أولى بأن يبايع لأمر المؤمنين بصدر منشرح ونفس طيبة وقلب ناصح منى ! ثم بايع موسى للمهدى ، ثم مسح على يده . ثم جاء الربيع إلى محمد بن عون ، فقدّمه للسنّ فبايع ، ثم جاء الربيع إلىّ فأنهضني ؛ فكنّت الثالث ؛ وبايع الناس ؛ فلما فرغ دخل المضارب ، فكثّ هنيهة ثم خرج إلينا معشر الهاشميين ، فقال : انهضوا ، فنهضنا معه جميعاً ، وكنا جماعة كثيرة من أهل العراق وأهل مكة والمدينة ممن حضر الحج ، فدخلنا فإذا نحن بالمنصور على سريرته في أكفانه ، مكشوف الوجه ؛ فحملناه حتى أتينا به مكّة ثلاثة أميال ؛ فكأنى أنظر إليه أدنو من قائمة سريرته نحمله ؛ فتحرك الريح ، فتطير شعّر صدغيه ؛ وذلك أنه كان قد وفرّ شعره للحلق ؛ وقد نصل خضابه ؛ حتى أتينا به حفرته ، فدلّيناه فيها .

٤٥٥/٣

قال : وسمعت أبى يقول : كان أوّل شيء ارتفع به علىّ بن عيسى بن ماهان ؛ أنه لما كان الليلة التي مات فيها أبو جعفر أرادوا عيسى بن موسى على ببيعة مجدّة للمهدى — وكان القائم بذلك الربيع — فأبى ^(٢) عيسى بن موسى ،

(١) ب : « وكلّمه » .

(٢) ب ، س : « فأبى » .

فأقبل القواد الذين حضروا يقرّبون ويتباعدون^(١)؛ فنهض عليّ بن عيسى بن ماهان ، فاستل سيفه ، ثمّ جاء إليه ، فقال : والله لتبايعنّ أو لأضربنّ عنقك ! فلما رأى ذلك عيسى ، بايع وبايع الناس بعده .

وذكر عيسى بن محمد أنّ موسى بن هارون حدثه أن موسى بن المهديّ والربيع مولى المنصور وجّتها منارة مولى المنصور بخبر وفاة المنصور وبالبيعة للمهديّ . وبعثا بعدُ بتقريب النبيّ صلى الله عليه وسلم وبُردته التي يتوارثها الخلفاء مع الحسن الشروى ، وبعث أبو العباس الطوسيّ بخاتم الخلافة مع منارة ؛ ثمّ خرجوا من مكة ، وسار عبد الله بن المسيّب بن زهير بالحربة بين يدي صالح بن المنصور . على ما كان يسير بها بين يديه في حياة المنصور^(٢) ، فكسرها القاسم بن نصر بن مالك ؛ وهو يومئذ على شُرطة موسى بن المهديّ ، واندسّ عليّ بن عيسى بن ماهان لما كان في نفسه من أذى عيسى بن موسى ، وما صنّع به للراوندية ، فأظهر الطعن والكلام في سيرهم^(٣) . وكان من رؤسائهم أبو خالد المروزيّ ، حتى كاد الأمر يعظم ويتفاقم ؛ حتى لبس السلاح . وتحرك في ذلك محمد بن سليمان . وقام فيه وغيره من أهل بيته ؛ إلّا أن محمداً كان أحسنهم قياماً به حتى طفئ ذلك وسكن . وكتب^(٤) به إلى المهديّ ، فكتب بعزل عليّ بن عيسى عن حرس موسى بن المهديّ ، وصيّر مكانه أبا حنيفة حرب بن قيس ، وهدأ أمر العسكر ، وتقدّم العباس بن محمد ومحمد ابن سليمان إلى المهديّ ، وسبق إليه العباس بن محمد . وقدم منارة على المهديّ يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة ، فسلم عليه بالخلافة ، وعزّاه ، وأوصل الكتب إليه ، وبايعه أهل مدينة السلام .

وذكر الهيثم بن عديّ عن الربيع ، أنّ المنصور رأى في حجته التي مات فيها وهو بالعُدَيْب — أو غيره من منازل طريق مكة — رؤيا — وكان الربيع عدليه — وفزع منها ، وقال : يا ربيع ، ما أحسبني إلّا ميّتاً في وجهي هذا ؛ وأنك تؤكّد^(٥) البسيعة لأبي عبد الله المهديّ ، قال الربيع : فقلت له : بل

(٢) ب ، س : « في حياته » .

(٤) ب : « فكتب » .

(١) ج ، س : « وبياعدون » .

(٣) ب : « سيرهم » .

(٥) ج : « وإنا نؤكد » .

يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، وَيَبْلُغْ أبو عبد الله محبتك في حياتك إن شاء الله . قال : وثقل عند ذلك وهو يقول : بادر بي إلى حَرَم ربي ^(١) وأمنه ، هارباً من ذنوبي وإسرائي على نفسي ؛ فلم يزل كذلك حتى بلغ بئر ميمون ، فقلت له : هذه بئر ميمون ، وقد دخلت الحَرَم ، فقال : الحمد لله ، وقضى من يومه .

قال الربيع : فأمرت بالخيم فضربت ، وبالفساطيط فهَيَّيْتُ ، وعمدت إلى أمير المؤمنين فألبسته الطويلة والدَّرَاعَة ، وسندته ، وألقيت في وجهه كَلَّة رقيقة يَرى منها شخصه ، ولا يفهم أمره ، وأدريت أهله من الكَلَّة حيث لا يَعْلَم بخبره ، ويَرى شخصه . ثم دخلت فوقفت بالموضع الذي أُوهمهم أنه يخاطبني ، ثم خرجت فقلت : إن أمير المؤمنين مُفَيِّق بمنّ الله ، وهو يقرأ عليكم السلام ، ويقول : إني أحبّ أن يؤكد الله أمركم ^(٢) ؛ ويكتب عدوكم ، ويسرّ وليّكم ؛ وقد أحبيت أن تجدوا بيعة أبي عبد الله المهديّ ؛ لئلا يطمع فيكم عدو ولا باغٍ ، فقال القوم كلهم : وفقى الله أمير المؤمنين ؛ نحن إلى ذاك أسرع . قال : فدخل فوقف ، ورجع إليهم ، فقال : هلمّوا للبيعة ، فبايع القوم كلهم ؛ فلم يبق أحدٌ من خاصّته والأولياء ورؤساء من حضره إلا بايع المهديّ ، ثم دخل وخرج باكيّاً مشقوق الحُيْب لاطمأ رأسه ، فقال بعض من حضر : ويلي عليك يا بن شاة ! يزيد الربيع - وكانت أمّه ماتت وهي ترضعه فأرضعته شاة - قال : وحزير للمنصور مائة قَبْر ، ودفن في كلها ، لئلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس ، ودفن في غيرها للخوف عليه .

قال : وهكذا قبور خلفاء ولَد العباس ، لا يعرف لأحد منهم قبر .

قال : فبلغ المهديّ ، فلما قدم عليه الربيع قال : يا عبد ؛ ألم تمنعك جلاله أمير المؤمنين أن فعلت ما فعلت به ! وقال قوم : إنه ضربه ؛ ولم يصحّ ذلك . قال : وذكر من حضر حجة المنصور ، قال : رأيت صالح بن المنصور وهو مع أبيه والناس معه ؛ وإن موسى بن المهديّ لقي تَبَاعه ^(٣) ، ثم رجع الناس وهم خلف موسى ، وأن صالحاً معه .

(٢) ح : « يوطن الله أمركم » .

(١) ب : « الله » .

(٣) ج : « في تباعد » .

وذكر عن الأصمعي أنه قال : أول مَنْ نعى أبا جعفر المنصور بالبصرة
خَلَّافَ الأحمر ، وذلك أَنَا كُنَّا فِي حَلَقَةِ يُونُسَ ، فَرَبَّنَا فَسَلِّمْ عَلَيْنَا ، فَقَالَ (١) :
* قَدْ طَرَّقَتْ بِبِكْرِهَا أُمُّ طَبِيقُ (٢) *

قال يونس : وماذا ؟ قال :

تُنْتَجِّجُوهَا خَيْرَ أَضْحَمَ الْعُنُقُ مَوْتُ الْإِمَامِ فَلَقَّةٌ مِنَ الْفِلَقِ

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ ، وكان
المنصور - فيما ذكر - أوصى بذلك .

وكان العامل في هذه السنة على مكة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد
ابن عليّ بن عبد الله بن عباس ، وعلى المدينة عبد الصمد بن عليّ ، وعلى
الكوفة عمرو بن زهير الضبيّ أخو المسيّب بن زهير - وقيل : كان العامل عليها
إسماعيل بن أبي إسماعيل الثقفيّ . وقيل : إنه مولى لبني نصر من قيس - وعلى
قضاها شريك بن عبد الله النخعيّ ، وعلى ديوان خراجها ثابت بن موسى ،
وعلى خراسان حميد بن قحطبة ، وعلى قضاء بغداد مع قضاء الكوفة شريك
ابن عبد الله .

وقيل : كان القاضي على بغداد يوم مات المنصور عبيد الله محمد بن صهّوان
الجُسمحيّ وشريك بن عبد الله على قضاء الكوفة خاصّة . وقيل : إن شريكاً كان
إليه قضاء الكوفة ، والصلاة بأهلها .

وكان على الشَّرَطِ ببغداد يوم مات المنصور - فيما ذكر - عمر بن عبد الرحمن
أخو عبد الجبار بن عبد الرحمن . وقيل كان موسى بن كعب .

وعلى ديوان خراج البصرة وأرضها عُمارة بن حمزة . وعلى قضائها والصلاة
عبيد الله بن الحسن العنبريّ ، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج .

وأصاب الناس - فيما ذكر محمد بن عمر - في هذه السنة وباء شديد .

(١) ج ، س : « ثم قال » .

(٢) ج : « طوقت » ، س : « طرفت » ، ب : « طبقت » .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة العباس بن محمد الصائفة فيها حتى بلغ أنقرة ؛ وكان على مقدمة العباس الحسن الوصيف في المولى ، وكان المهديّ ضمّ إليه جماعة من قوّاد أهل خراسان وغيرهم . وخرج المهديّ فعسكر بالبصرة وأقام فيه حتى أنفذ العباس بن محمد ، ومن قطع عليه البعث معه ، ولم يجعل للعباس على الحسن الوصيف ولاية في عزّ ولا غيره ، ففتح في غزاته ^(١) هذه مدينة الرّوم ومطمورة معها ، وانصرفوا سالمين لم يُصَبَّ من المسلمين أحد .

وهلك في هذه السنة حميد بن قحطبة ، وهو عامل المهديّ على خراسان ، فولّى المهديّ مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد .

وفيهما ولّى حمزة بن مالك سجستان ، وولّى جبرئيل بن يحيى سمرقند .

وفيهما بنى المهديّ مسجد الرّصافة .

٤٦٠/١

وفيهما بنى حائطها ، وحفر خندقها .

وفيهما عزل المهديّ عبد الصمد بن عليّ عن المدينة ؛ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عن مَوْجدة ، واستعمل عليها مكانه محمد بن عبد الله الكشيريّ ثم عزله ، واستعمل عليها مكانه عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجُمَحِيّ .

وفيهما وجّه المهديّ عبد الملك بن شهاب المسمعيّ في البحّر إلى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد ، وأشخصهم معه ، وأشخص معه من المطوّعة الذين كانوا يلزمون المُرابطات ألفاً وخمسمائة رجل ، ووجّه معه من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجيّ في سبعمائة من أهل الشام ، وخرج معه من مطوّعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل ، فيهم

٤٦١/٣

— فيما ذكر — الربيع بن صبيح ، ومن الأسواريين والسبايخة أربعة آلاف رجل ، فولى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجارودي الألف الرجل المطوعة من أهل البصرة ، وولّى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي الرجل الذين من فرض البصرة ، وولّى عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مطوعة المرباطات ، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا ، وكان المهديّ وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن إبراهيم ، فضموا لوجههم ؛ حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند في سنة ستين ومائة .

وفيهما توفّيَ معبد بن الخليل بالسند ، وهو عامل المهديّ عليها ، فاستعمل مكانه روح بن حاتم بمشورة أبي عبيد الله وزيره .

وفيهما أمر المهديّ بإطلاق مَنْ كان في سجن المنصور ، إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ، وَمَنْ كان معروفًا بالسعى في الأرض بالفساد ، أو مَنْ كان لأحد قبلكه مظلمة أو حق ، فأطلقوا ، فكان ممن أطلق من المطبّق يعقوب بن داود مولى بنى سليم ، وكان معه في ذلك الحبس محبوسًا الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب .

* * *

وفيهما حوّل المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق الذي كان فيه محبوسًا إلى نصير الوصيف فحبسه عنده .

ذكر الخبر عن سبب تحويل

٤٦٢/٣

المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق إلى نصير

ذكر أن السبب في ذلك ، كان أن المهديّ لما أمّر بإطلاق أهل السجون . على ما ذكرت^(١) ، وكان يعقوب بن داود محبوسًا مع الحسن بن إبراهيم في موضع واحد ، فأطلق يعقوب بن داود ، ولم يُطلق الحسن بن إبراهيم ، ساء^(٢) ظنه ، وخاف على نفسه ، فالتمس مخرجًا لنفسه وخلاصًا ، فلدس إلى بعض ثقاته^(٣) ،

(٢) ب : « فساء » .

(١) ب : « كما ذكرت » .

(٣) س : « على ثقاته » .

فحضر له سَرَبًا من موضع مُسَامَت للموضع الذى هو فيه محبوس ، وكان يعقوب بن داود بعد أن أطلق يُطَيِّف بابن علانة^(١) - وهو قاضى المهدي بمدينة السلام^(٢) - ويلزمه ، حتى أنس به ، وبلغ يعقوب ما عزم عليه الحسن ابن إبراهيم من الهرب ، فأتى ابن علانة ، فأخبره أن عنده نصيحة للمهدي ، وسأله إيصاله إلى أبى عبيد الله^(٣) ، فسأله عن تلك النصيحة ، فأبى أن يخبره بها ، وحذره فوترها ، فانطلق ابن علانة إلى أبى عبيد الله ، فأخبره خبر يعقوب وما جاء به ، فأمره بإدخاله عليه ؛ فلما دخل عليه سأله إيصاله إلى المهدي ، ليعلمه النصيحة التى له عنده ، فأدخله عليه ، فلما دخل على المهدي شكر له بلاءه عنده فى إطلاقه إياه ومَنِّه عليه ، ثم أخبره أن له عنده نصيحة ، فسأله عنها بمحضر من أبى عبيد الله وابن علانة ، فاستخلاه منهما ، فأعلمه المهدي ثقته بهما ، فأبى أن يبرح له بشيء حتى يقوما ، فأقامهما وأخلاه ، فأخبره خبر الحسن بن إبراهيم وما أجمع عليه^(٤) ، وأن ذلك كائن من ليلته المستقبلية ، فوجه المهدي مَن يثق^(٥) به ليأتيه بخبره ، فأتاه بتحقيق ما أخبره به يعقوب ، فأمر بتحويله إلى نُصَيْر ، فلم يزل فى حبسه إلى أن احتال واحتيل له ، فخرج هاربًا ، وافتقيد ، فشاع خبره ، فطلب^(٦) فلم يُظفر به ، وتذكر المهدي دلالة يعقوب إياه كانت عليه ، فرجا عنده من الدلالة عليه مثل الذى كان منه فى أمره ، فسأل أبا عبيد الله عنه فأخبره أنه حاضر - وقد كان لزم أبا عبيد الله - فدعا به المهدي خاليًا ، فذكر له ما كان من فعله فى الحسن ابن إبراهيم أولًا ، ونصح له فيه ، وأخبره بما حدث من أمره ، فأخبره يعقوب أنه لا علم له بمكانه ، وأنه إن أعطاه أمانًا يثق به ضمن له أن يأتيه به ، على أن يتم له على أمانه ، ويصله ويُحسن إليه . فأعطاه المهدي ذلك فى مجلسه وضمنه له . فقال له يعقوب : قاله يا أمير المؤمنين عن ذكره ، ودع طلبه ،

٤٦٣/٣

(١) اسمه محمد بن عبد الله بن علانة الكلابي ، استقضاء المهدي سنة ١٦١ . انظر تاريخ بغداد ١٢ : ٣٠٧ .
(٢) س : « ببغداد » .
(٣) هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، من موالى الأشعرين ، كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة وبعدها . وانظر الفخرى ١٦٦ .
(٤) ب ، ج : « وما أجمع به » ، س : « وما أجمع عليه به » .
(٥) ب : « يوثق » ، ج : « وثق » .
(٦) س : « فطلبه » .

فإن ذلك يُوحِشه ، ودعني وإياه حتى أحتال فأتيك به ؛ فأعطاه المهديّ ذلك .
وقال يعقوب : يا أمير المؤمنين ، قد بسطت عدلك لرعيّتك ، وأنصفتهم ،
وعمّمتهم بخيرك وفضلك ، فعظم رجاؤهم ، وانفسحت آمالهم ؛ وقد بقيت أشياء
لو ذكرتها لك لم تدع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها ، وأشياء مع ذلك
خلف بابك يُعمل بها لا عملها ، فإن جعلت لي السبيل إلى الدخول عليك ،
وأذنت لي في رفعها إليك فعلت . فأعطاه المهديّ ذلك ، وجعله إليه ، وصيّر
سليماً الخادم الأسود خادماً المنصور سبيه في إعلام المهديّ بمكانه كلما أراد
الدخول ، فكان يعقوب يدخل على المهديّ^(١) ليلاً ، ويرفع إليه النصائح في
الأمر الحسن الجميلة من أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج
العزّاب ، وفكّك الأسارى والمحبّسين والقضاء على الغارمين ، والصّدقة على
المتعفّفين ، فحظي بذلك عنده ، وبما رجا أن يناله به من الظّفّر بالحسن بن
إبراهيم ، واتّخذ أخاً في الله ، وأخرج بذلك توقّعاً ، وأثبت في الدواوين ،
فتسبب مائة ألف درهم كانت أوّل صلة وصلته بها ، فلم تزل منزلته تنمي
وتعلوّ صُعداً ، إلى أن صيّر الحسن بن إبراهيم في يد المهديّ بعد ذلك ؛ وإلى
أن سقطت منزلته ، وأمر المهديّ بحبسه ، فقال عليّ بن الخليل في ذلك :

عجباً لتصريف الأمور ر مَسْرَةً وكرَاهِيَةً^(٢)
والدهرُ يلعبُ بالرجا ل له دوائرُ جارِيَةٌ^(٣)
رثتُ بيعقوب بن دا ود حِيَالُ معاوية^(٤)
وعَدتُ عليّ ابن عُلانة ال قاضي بَوَائِقُ عافية^(٥)
قلّ للوزير أبي عُبيد د الله : هلْ لك باقية !
يعقوب ينظرُ في الأمور ر وأنتَ تنظرُ ناحية

٤٦٥/٣

(٢) الأغاني ١٤ : ١٧٨ .

(١) س : « عليه » .

(٣) لم يرد هذا البيت في رواية الأغاني . (٤) معاوية : اسم الوزير أبي عبيد الله .

(٥) عافية بن يزيد الأزدي ؛ قاضي المهديّ أيضاً .

أدخلته فعلا عليه ك ، كذاك شؤم الناصية^(١)

* * *

وفي هذه السنة عزل المهدي إسماعيل بن أبي إسماعيل عن الكوفة وأحداثها .
واختلف فيمن ولّى مكانه ، فقال بعضهم : ولّى مكانه إسحاق بن الصباح
الكندي ثم الأشعثي بمشورة شريك بن عبد الله قاضي الكوفة . وقال عمر
ابن شبة : ولّى على الكوفة المهدي عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب
ابن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمح ، فولّى
على شرطه ابن أخيه عثمان بن سعيد بن لقمان . ويقال : إن شريك بن
عبد الله كان على الصلاة والقضاء ، وعيسى على الأحداث ، ثم أفرد شريك
بالولاية ، فجعل على شرطه إسحاق بن الصباح الكندي ، فقال بعض
الشعراء :

لَسْتُ تَعْدُو بَأَنَّ تَكُونَ وَلَوْ نِذً تَ سُهَيْلاً صَنِيعَةً لِشَرِيكِ

قال : ويزعمون أن إسحاق لم يشكر لشريك ، وأن شريكاً قال له :

صَلَّى وَصَامَ لِدُنْيَا كَانَ يَأْمُلُهَا فَقَدْ أَصَابَ وَلَا صَلَّى وَلَا صَامَا

وذكر عمر أن جعفر بن محمد قاضي الكوفة ، قال : ضمّ المهدي إلى
شريك الصلاة مع القضاء ، وولّى شرطه إسحاق بن الصباح ، ثم ولّى إسحاق بن
الصباح الصلاة والأحداث بعد ، ثم ولّى إسحاق بن الصباح بن عمران
ابن إسماعيل بن محمد بن الأشعث الكوفة ، فولّى شرطه النعمان بن
جعفر الكندي ، فمات النعمان ، فولّى على شرطه أخاه يزيد بن جعفر .

٤٦٦/٣

وفيها عزل المهدي عن أحداث البصرة سعيد بن دعلج ، وعزل عن
الصلاة والقضاء من أهلها عبيد الله بن الحسن ، وولّى مكانهما عبد الملك بن
نظبيان النُميري ، وكتب إلى عبد الملك يأمره بإنصاف مَنْ تظلم

(بعده في رواية الأغاني :

وَأَخَذَتْ حَتَفَكَ جَاهِدًا بِيَمِينِكَ الْمِيتَرَاخِيَةَ

من أهل البصرة من سعيد بن دعلج ، ثم صُرفت الأحداث في هذه السنة عن عبد الملك بن أيوب إلى عُمارة بن حمزة ، فولّاها عُمارة رجلاً من أهل البصرة يقال له المِسْوَر بن عبد الله بن مسلم الباهلي ، وأقرّ عبد الملك على الصلاة . وفيها عَزَلَ قُثَيْم بن العباس عن اليمامة عن سخطة ، فوصل كتابُ عزله إلى اليمامة ، وقد تَوَقَّيَ فاستعمل مكانه بشر بن المنذر البَجَلِي .

وفيها عزل يزيد بن منصور عن اليمن ، واستعمل مكانه رجاء بن رَوْح . وفيها عزل الهَيْثَم بن سعيد عن الجزيرة ، واستعمل عليها الفضل بن صالح . وفيها أعتق المهديّ أمّ ولده الخيزران وتزوَّجها .

وفيها تزوّج المهديّ أيضاً أم عبد الله بنت صالح بن عليّ ، أخت الفضل وعبد الله ابني صالح لأُمّهما .

وفيها وقع الحريق في ذى الحجة في السفن ببغداد عند قصر عيسى بن عليّ ، فاحترق ناس كثير ، واحترقت السفن بما فيها .

وفيها عَزَلَ مطر مولى المنصور عن مصر ، واستعمل مكانه أبو ضمرة محمد بن سليمان .

وفيها كانت حركة من تحرّك من بني هاشم وشيعتهم من أهل خُرَاسان في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وتصيير ذلك لموسى بن المهديّ ؛ فلمّا تبَيَّن ذلك المهديّ كتب - فيما ذكر - إلى عيسى بن موسى في القُدوم عليه وهو بالكوفة ، فأحسّ بالذي يُراد به ، فامتنع من القُدوم عليه .

وقال عمر : لما أفضى الأمر إلى المهديّ سأل عيسى أن يخرج من الأمر فامتنع عليه ، فأراد الإضرار به ، فولّى على الكوفة رَوْح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب ، فولّى على شُرَطه خالد بن يزيد بن حاتم ؛ وكان المهديّ يحبّ أن يحمل رَوْح على عيسى بعض الحمل فيما لا يكون عليه به حجة ، وكان لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، وكان عيسى قد خرج إلى ضَيْعَة له بالرُّحبة ؛ فكان لا يدخل الكوفة إلّا في شهرين من السنة في شهر رمضان ، فيشهد الجُمُعَة^(١)

والعيد ، ثم يرجع إلى ضييعته . وفي أول ذى الحجة ، فإذا شهد العيد رجع إلى ضييعته ، وكان إذا شهد الجمعة أقبل من داره على دوابه حتى ينتهي إلى أبواب المسجد فينزل على عتبة الأبواب ، ثم يصلّي في موضعه ؛ فكتب رُوح إلى المهديّ أن عيسى بن موسى لا يشهد الجُمُع ، ولا يدخل الكوفة إلا في شهرين من السنة ؛ فإذا حضر أقبل على دوابه حتى يدخل رَحْبَةَ المسجد ؛ وهو مصلّي الناس ، ثم يتجاوزها إلى أبواب المسجد ، فتروث دوابه في مصلّي^(١) الناس ؛ وليس يفعل ذلك غيره ؛ فكتب إليه المهديّ أن اتخذ على أفواه السُّكَّك التي تلي المسجد خشباً ينزل عنده الناس ، فاتخذ روح ذلك الخشب في أفواه السُّكَّك - فذلك الموضع يسمى الخشبة - وبلغ ذلك عيسى بن موسى قبل يوم الجمعة ، فأرسل إلى ورثة المختار بن أبي عبيدة - وكانت دار المختار^(٢) لزينة^(٣) المسجد ، فابتاعها وأثمن بها ، ثم إنه عمرها واتخذ فيها حماماً ، فكان إذا كان يوم الخميس أتاها فأقام بها ، فإذا أراد الجمعة ركب حماراً فذهب به إلى باب المسجد فصلّي في ناحية ، ثم رجع إلى داره . ثم أوطن الكوفة وأقام بها ، وألحّ المهديّ على عيسى فقال : إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع^(٤) منها حتى أبايع لموسى وهارون استحلّت منك بمعصيتك ما يستحلّ من العاصي ، وإن أجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً . فأجابته ، فبايع لهما وأمر له بعشرة آلاف ألف درهم - ويقال عشرين ألف ألف - وقطائع كثيرة .

٤٦٨/٣

وأما غير عمر فإنه قال : كتب المهديّ إلى عيسى بن موسى لما همّ بخلعه يأمره بالقدوم عليه ، فأحسن بما يُراد به ، فامتنع من القدوم عليه ، حتى خيف^(٥) انتقاضه ، فأنفذ إليه المهديّ عمّه العباس بن محمد ، وكتب إليه كتاباً ، وأوصاه بما أحب^(٦) أن يبلغه ، فقدم العباس على عيسى بكتاب المهديّ ورسالته إليه ، فانصرف إلى المهديّ بجوابه في ذلك ، فوجه إليه بعد قسوم العباس عليه محمد بن فروخ أبا هريرة القائد في ألف رجل من أصحابه

٤٦٩/٣

(٢) س : « دارهم » .

(٤) ج : « تختلّع » .

(٦) ج : « يجب » .

(١) س : « مصلّي للناس » .

(٣) لزينة المسجد ، أي بجانبه .

(٥) س : « خاف » .

من ذوى البصيرة^(١) فى التشيع ، وجعل^(٢) مع كل رجل منهم طبلاً ، وأمرهم أن يضربوا جميعاً بطبولهم عند قدومهم الكوفة ، فدخلها ليلاً فى وجه الصبح ، فضرب أصحابه بطبولهم ، فراع ذلك عيسى بن موسى رَوْعاً شديداً ، ثم دخل عليه أبو هريرة ، فأمره بالشخوص ، فاعتل بالشكوى فلم يقبل ذلك منه ، وأشخصه من ساعته إلى مدينة السلام .

* * *

وحجّ بالناس فى هذه السنة يزيد بن منصور— خال المهدي— عند قدومه من اليمن ، فحدثنى بذلك أحمد بن ثابت ، عمن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبى معشر . كذلك قال محمد بن عمر الواقدي وغيره . وكان انصراف يزيد بن منصور من اليمن بكتاب المهدي إليه يأمره بالانصراف إليه وتوليته إياه الموسم وإعلامه اشتياقه إليه وإلى قربه .

وكان أمير المدينة فى هذه السنة عبيد الله بن صفوان الجُمحى ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها إسحاق بن الصباح الكندى ، وعلى خراجها ثابت ابن موسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله ، وعلى صلاة البصرة عبد الملك ابن أيوب بن ظبيان النميرى ، وعلى أحداثها ثُمارة بن حمزة ؛ وخليفته على ذلك المسور بن عبد الله بن مسلم الباهلى ؛ وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن . وعلى كُور دجلة وكُور الأهواز وكُور فارس ثُمارة بن حمزة . وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى اليمن رجاء بن رُوح . وعلى اليمامة بشر بن المنذر ، وعلى خراسان أبوعون عبد الملك بن يزيد ، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة .

٤٧٠/٣

ثم دخلت سنة ستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خروج يوسف البرم]

فمن ذلك ما كان من خروج يوسف بن إبراهيم، وهو الذي يقال له يوسف البرم بخراسان منكراً هو ومن تبعه ممن كان على رأيه على المهدي - فيما زعم - الحال التي هو بها وسيرته التي يسير بها ، واجتمع معه - فيما ذكر - بشر من الناس كثير ، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقبه ، واقتلا حتى صارا إلى المعانقة فأسره يزيد ، وبعث به إلى المهدي ، وبعث معه من وجوه أصحابه بعدة ؛ فلما انتهى بهم إلى النهر وان حميل يوسف البرم على بعير قد حوّل وجهه إلى ذنب البعير وأصحابه على بعير ، فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال ، فأدخلوه على المهدي ، فأمر هرثمة بن أعين فقطع يدي يوسف ورجليه ، وضرب عنقه وعنق أصحابه ، وصلبهم على جسر دجلة الأعلى ، مما يلي عسكر المهدي ، وإنما أمر هرثمة بقتله ؛ لأنه كان قتل أخاً لهرثمة بخواسان .

٤٧١/٣

* * *

[ذكر خبر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادي]

وفيهما قدم عيسى بن موسى مع أبي هريرة يوم الخميس لست خلون من المحرم - فيما ذكر - الفضل بن سليمان فنزل داراً كانت لمحمد بن سليمان على شاطئ دجلة في عسكر المهدي ، فأقام أياماً يختلف إلى المهدي ، ويدخل مدخله الذي كان يدخله ؛ لا يكلم بشيء ، ولا يرى جفوة ولا مكروهاً ولا تقصيراً به ؛ حتى أنس به بعض الأنس ، ثم حضر الدار يوماً قبل جلوس المهدي ، فدخل مجلساً كان يكون للربيع في مقصورة صغيرة ، وعليها باب ، وقد اجتمع رؤساء الشيعة في ذلك اليوم على خلعه والوثوب عليه ؛ ففعلوا ذلك

وهو في المقصورة التي فيها مجلس الربيع ، فأغلق دونهم المقصورة ، فضرَبوا الباب بجرزهم وعمدَهم ؛ فهشَمُوا الباب ، وكادوا يكسرونه ، وشموه أقبح الشتم ، وحضروه هناك ؛ وأظهر المهدي إنكاراً لما فعلوا ، فلم يردعهم ذلك عن فعلهم ؛ بل شدُّوا في أمره ؛ وكانوا بذلك هو وهم أياً ما ، إلى أن كاشفه ذوو الأسنان من أهل بيته بحضرة المهدي ، فأبوا إلاَّ خلعه ، وشموه في وجهه ؛ وكان أشدَّهم عليه محمد بن سليمان .

فلما رأى المهدي ذلك من رأيهم وكرهتهم لعيسى وولايته ؛ دعاهم إلى العهد لموسى ، فصار إلى رأيهم وموافقتهم ، وألحَّ على عيسى في إجابته وإياهم إلى الخروج ممَّا له من العهد في أعناق الناس وتحليلهم منه ؛ فأبى ، وذكر أن عليه أيماناً محرَّجة في ماله وأهله ؛ فأحضر له من الفقهاء والقضاة عدَّة ، منهم محمد بن عبد الله بن علَّانة والزنجي بن خالد المكي وغيرهما ؛ فأتوه بما رأوا ، وصار إلى المهدي ابتياع ماله من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضا وعيوض ؛ ممَّا يخرج له من ماله لما يلزمه من الحنث في يمينه ؛ وهو عشرة آلاف ألف درهم ، وضياح بالزَّاب الأعلى وكسَّكَّر . فقبل ذلك عيسى ، وبقي منذ فاضه المهدي على الخلع إلى أن أجاب محتسباً عنده في دار الديوان من الرُّصافة إلى أن صار إلى الرضا بالخلع والتسليم ، وإلى أن خلع يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم بعد صلاة العصر ، فبايع للمهدي ول موسى من بعده من الغد يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم لارتفاع النهار . ثم أذن المهدي لأهل بيته ، وهو في قبة كان محمد بن سليمان أهداها له مضروبة في صحن الأبواب ، ثم أخذ بيعتهم رجلاً رجلاً لنفسه ول موسى بن المهدي من بعده ؛ حتى أتى إلى آخرهم . ثم خرج إلى مسجد الجماعة بالرُّصافة فقعده على المنبر ، وصعد موسى حتى كأنه دونه . وقام عيسى على أوَّل عتبة من المنبر ، فحمد الله المهدي وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بما أجمع عليه أهل بيته وشيعته وقوَّاده وأنصاره وغيرهم من أهل خراسان من خلع عيسى بن موسى وتصيير الأمر الذي كان عقد له في أعناق الناس لموسى بن أمير المؤمنين ؛ لاختيارهم له ورضاهم به ؛ وما رأى من إجابتهم إلى ذلك ؛ لما رجا من مصلحتهم وألفتهم ، وخاف مخالفتهم في نيَّاتهم واختلاف كلمتهم ، وأن عيسى قد

خلع تقدّمه ، وحلّهم مما كان له من البيعة في أعناقهم ، وأنّ ما كان له من ذلك فقد صار لموسى بن أمير المؤمنين ، بعقد من أمير المؤمنين وأهل بيته وشيعته في ذلك ؛ وأنّ موسى عاملٌ فيهم بكتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم بأحسن السيرة وأعدلها ، فبايعوا معشر من حضر ، وسارعوا إلى ما سارع إليه غيركم ؛ فإنّ الخير كله في الجماعة ، والشرّ كله في الفرقة . وأنا أسأل الله لنا ولكم التوفيق برحمته ، والعمل بطاعته وما يرضيه ، وأستغفر الله لي ولكم .

وجلس موسى دونه معتزلاً للمنبر ؛ لئلا يحول بينه وبين من صعد إليه ، يبايعه ويمسح على يده ، ولا يستر وجهه ، وثبت عيسى قائماً في مكانه ، وقُرئ عليه كتاب ذكر الخلع له ، وخروجه مما كان إليه من ولاية العهد وتحليله جماعة من كان له في عنقه بيعة ، مما عقدوا له في أعناقهم ؛ وأنّ ذلك من فعله وهو طائعٌ غير مكره ، راضٍ غير ساخط ، محبٌ غير مجبرٍ . فأقرّ عيسى بذلك ، ثم صعد فبايع المهديّ ، ومسح على يده ، ثم انصرف ، وبايع أهل بيت المهديّ على أسنانهم ؛ يبايعون المهديّ ثم موسى ، ويمسحون على أيديهما ؛ حتى فرغ آخرهم ؛ وفعل من حضر من أصحابه ووجوه القوادر والشّيعَة مثل ذلك ، ثم نزل المهديّ ، فصار إلى منزله ، ووكل ببيعته من بقي من الخاصّة والعامة خاله يزيد بن منصور ، ففوتى ذلك حتى فرغ من جميع الناس ، ووفى المهديّ لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلعه منه من ولاية العهد ، وكتب عليه بخلعه إياه كتاباً أشهد عليه فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتّابه وجنده في الدّواوين ؛ ليكون حجة على عيسى ، وقطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه .

وهذه نسخة الشرط الذي كتبه عيسى على نفسه :

٤٧٤/٣

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله المهديّ محمد أمير المؤمنين ولولّى عهد المسلمين موسى بن المهديّ ، ولأهل بيته وجميع قوادره وجنوده من أهل خراسان وعامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وحيث كان كائن منهم ، كتبته للمهديّ محمد أمير المؤمنين ، ولولّى عهد المسلمين موسى بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عليّ ؛ فيما جعل إليه من العهد إذ كان إلىّ ، حتى اجتمعت كلمة المسلمين ، واتّسق أمرهم ، واثلت أهاؤهم ، على الرضا بولاية موسى بن المهديّ

محمد أمير المؤمنين ، وعرفتُ الخطَّ في ذلك على الخطِّ فيه لي ، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى بن أمير المؤمنين ، والبيعة له ، والخروج مما كان لي في رقابهم من البيعة ، وجعلتكم في حيلٍّ من ذلك وسعة ، من غير حرج يدخل عليكم ، أو على أحد من جماعتكم وعامة المسلمين ، وليس في شيء من ذلك ، قديم ولا حديث لي دعوى ولا طلبية ولا حجة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ، ولا على عامة المسلمين ولا بيعة في حياة المهدي محمد أمير المؤمنين ولا بعده ولا بعد ولي عهد المسلمين موسى ، ولا ما كنت حياً حتى أموت . وقد بايعت محمد المهدي أمير المؤمنين والموسى بن أمير المؤمنين من بعده ، وجعلت لهما ولعامة المسلمين من أهل خراسان وغيرهم الوفاء بما شرطت على نفسي في هذا الأمر الذي خرجت منه ، والتأم^(١) عليه . على بذلك عهد الله وما اعتقد أحد من خلقه من عهد أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد على السمع والطاعة والنصيحة للمهدي محمد أمير المؤمنين وولي عهده موسى ابن أمير المؤمنين ، في السر والعلانية ، والقول والفعل ، والنية والشدة والرجاء والسر والضر والموالاة لهما ولن والاهما ، والمعادة لمن عاداهما ، كائنًا من كان في هذا الأمر الذي خرجت منه . فإن أنا نكبت^(٢) أو غيرت أو بدلت أو دغلت^(٣) أو نويت غير ما أعطيت عليه هذه الإيمان ، أو دعوت إلى خلاف شيء مما حملت على نفسي في هذا الكتاب للمهدي محمد أمير المؤمنين وولي عهده موسى ابن أمير المؤمنين ولعامة المسلمين ، أو لم أف بذلك ؛ فكل زوجة عندي يوم كتبت هذا الكتاب—أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة—طالق ثلاثاً ألبنة^(٤) طلاق الحرج^(٥) وكل مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وكل مال لي نقتد أو عرّض^(٦) أو قرّض أو أرض ، أو قليل أو كثير ، تالد أو طارف^(٧) أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة صدقة على المساكين ، يضع ذلك

(١) تم على الأمر وتم عليه : استمر .
 (٢) نكبت : عدلت .
 (٣) دغل في الشيء : دخل فيه دخول المريب . . . (٤) يقال لا أفعله بته ، أو ألبنة ، لكل أمر لا رجعة فيه ، وفي قطع الهمة خلاف . وانظر شرح القاموس والصحاح .
 (٥) طلاق الحرج ، أي طلاق التحريم .
 (٦) العرض : المتاع ؛ وكل شيء عرض إلا الدراهم والدنانير فإنها فقدت .
 (٧) التالد : المال الأصلي القديم . والطارف : المال المستحدث .

الوالى حيث يرى ، وعلى من مدينة السلام المشئ حافياً إلى بيت الله العتيق
الذى بمكة نذراً واجباً ثلاثين سنة ، لا كفارة لى ولا مخرج منه ؛ إلا الوفاء به .
والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيل شهيد ، وكفى بالله شهيداً . وشهيدٌ على عيسى
ابن موسى بإقراره بما فى هذا الشرط أربعمائة وثلاثون من بنى هاشم ومن الموالى
والصحابة من قريش والوزراء والكتاب والقضاة .

٤٧٦/٣

وكتب فى صفر سنة ستين ومائة . وختم عيسى بن موسى .

فقال بعض الشعراء :

كَرِهَ الموتَ أبو موسى وقد كان فى الموت نجاءً وكرمٌ
خلَعَ الملكَ وأضحى مُلبساً ثوبَ لومٍ ما تُرى منه القدم

* * *

وفى سنة ستين ومائة وافى عبد الملك بن شهاب المسمى مدينة باربد بمن
توجه معه من المطوّعة وغيرهم ، فناهضوها بعد قدومهم بيوم ، وأقاموا عليها
يومين ، فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة ، وتحاشد الناس ، وحضر
بعضهم بعضاً بالقرآن والتذكير ، ففتحها الله عليهم عشوة ، ودخلت خيلهم من
كل ناحية ؛ حتى ألجئوهم إلى بدّهم ، فأشعلوا فيها النيران والنّقط ، فاحترق منهم
من احترق ، وجاهد بعضهم المسلمين ، فقتلهم الله أجمعين ، واستشهد من
المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ، وأفاءها الله عليهم . وهاج البحر فلم يقدرُوا
على ركوبه والانصراف ، فأقاموا إلى أن يطيب ، فأصابهم فى أفواههم داءٌ
يقال له حُمام قُرٌّ ، فمات نحو من ألف رجل ، منهم الربيع بن صبيح . ثم
انصرفوا لما أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس ، يقال له بحر
حمران ، فعصفت عليهم فيه الريح ليلاً ، فكسرت عامة مراكبهم ، فغرق
منهم بعض ونجا بعض ، وقدموا معهم بسبى من سبيهم - فيهم بنت ملك
باربد - على محمد بن سليمان ، وهو يومئذ والى البصرة .

٤٧٧/٣

وفىها صيّر أبان بن صدقة كاتباً لحارون بن المهدي ووزيراً له .

وفىها عزل أبو عون عن خراسان عن سخطه ، وولى مكانه معاذ بن مسلم .

وفيهما غزا ثمامة بن الوليد العبسي الصائفة .
وفيهما غزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام .

* * *

[ذكر خبر رد نسب آل بكرة وآل زياد]

وفيهما رد المهدي آل بكرة من نسبهم في ثقيف إلى ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان سبب ذلك أن رجلاً من آل أبي بكر رفع ظُلامة إلى المهدي ، وتقرب إليه فيها بولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المهدي : إن هذا نسب واعتزاء ، ما تقرّون به إلاّ عند حاجة تعرض لكم ، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا . فقال الحكمم : يا أمير المؤمنين ، من جحد ذلك فإننا سنقرّ ؛ أنا أسألك أن تردّني ومعشر آل أبي بكر إلى نسبنا من ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذي ألحقهم به معاوية رغبة عن قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فيردّوا إلى نسبهم من عبيد في موالي ثقيف . فأمر المهدي في آل أبي بكر وآل زياد أن يردّ كل فريق منهم إلى نسبه ، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً ، وأمره أن يقرأ في مسجد الجماعة على الناس ، وأن يردّ آل أبي بكر إلى ولائهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبهم إلى نفيح ابن مسروح ، وأن يردّ على من أقرّ منهم ما أمر بردّه عليهم من أموالهم بالبصرة مع نظرائهم ، ممن أمر بردّ ماله عليه ، وألاّ يردّ على من أنكر منهم ، وأن يجعل الممتحن منهم والمستبرئ لما عندهم الحكمم بن سمرقند . فأنفذ محمد ما أتاها في آل أبي بكر إلاّ في أناس منهم غيب^(١) عنهم .

وأما آل زياد فإنه مما قوى رأى المهديّ فيهم - فيما ذكر عليّ بن سليمان - أن أباه حدثه ، قال : حضرت المهديّ وهو ينظر في المظالم إذ قدم عليه رجل من آل زياد يقال له الصغدّي بن سلم بن حرب ، فقال له : من أنت ؟ قال : ابن عمك ، قال : أيّ ابن عمي أنت ؟ فانتسب إلى زياد ، فقال له المهديّ : يا بن سميّة الزانية ، متى كنت ابن عمي ! وغضب وأمر به فوجئ في عنقه ، وأخرج ، ونهض الناس .

(١) يقال : قوم غيب ، بالتحريك ، أي غائبون .

قال : فلمّا خرجت لحقني عيسى بن موسى - أو موسى بن عيسى - فقال : أردتُ والله أن أبعثَ إليك ، أن أمير المؤمنين التفت إلينا بعد خروجك ، فقال : من عنده علم من آل زياد ؟ فوالله ما كان عند أحد منا من ذاك شيء ، فما عندك يا أبا عبد الله ؟ فما زلت أحدثه في زياد وآل زياد حتى صرنا إلى منزله بباب الحوّل ، فقال : أسألك بالله والرّحم لما كتبتَ لي هذا كله حتى أروح به إلى أمير المؤمنين ، وأخبره عنك . فأنصرفتُ فكتبت ، وبعثت به إليه . فراح إلى المهديّ ، فأخبره ، فأمر المهديّ بالكتاب إلى هارون الرشيد ؛ وكان والي البصرة من قبله يأمره أن يكتب إلى واليها يأمره أن يخرج آل زياد من قریش وديوانهم والعرب ، وأن يعرض ولد أبي بكرٍ على ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أقرّ منهم ترك ماله في يده ، ومن انتهى إلى ثقيف اصطفى ماله . فعرضهم ، فأقرّوا جميعاً بالولاء ، إلا ثلاثة نفر ، فاصطفيت أموالهم . ثم إن آل زياد بعد ذلك رشّوا صاحب الديوان حتى ردّهم إلى ما كانوا عليه ، فقال خالد النجار في ذلك :

٧٩/٣

إن زياداً ونافعاً وأبياً بكرةً عندي من أعجب العجَبِ
ذا قرشيٍّ كما يقولُ ، وذا مولى ، وهذا - بزعمه - عرَبِي

* * *

نسخة كتاب المهديّ إلى والي البصرة في ردّ

آل زياد إلى نسبهم

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فإنّ أحقّ ما حمّل عليه ولادة المسلمين أنفسهم وخواصّهم وعوامّهم في أمورهم وأحكامهم ، العمل بينهم بما في كتاب الله والاتباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصبر على ذلك ، والمواظبة عليه ، والرضا به فيما وافقهم وخالفهم ؛ للذي فيه من إقامة حدود الله ومعرفة حقوقه ، واتباع مرضاته ، وإحراز جزائره وحسن ثوابه ، ولما في مخالفة ذلك والصدود عنه وغلبة الهوى لغيره من الضلال والخسار في الدنيا والآخرة .

٤٨٠/٣

وقد كان من رأى معاوية بن أبي سفيان في استلحاقه زياد بن عبيد عبد آل علاج من ثقيف ، وادّعائه ما أباه بعد معاوية عامّة المسلمين وكثير

منهم في زمانه ، لعلمهم بزياد وأبي زياد وأمه من أهل الرضا والفضل والورع والعلم ، ولم يدع معاوية إلى ذلك ورع ولا هدى ، ولا اتّباع سنة هادية ، ولا قدوة من أئمة الحق ماضية ، إلا الرغبة في هلاك دينه وآخرته ، والتصميم على مخالفة الكتاب والسنة . والعُجْبُ بزياد في جَسَدِهِ ونفاذه ، وما رجا من معونته وموازرته إياه على باطل ما كان يركن إليه في سيرته وآثاره وأعماله الخبيثة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الولد للفراش وللعاهر الحجر» ، وقال : «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ لَا صَرْفًا وَلَا عَدْلًا^(١)» .

ولعمري ما وُلد زياد في حجر أبي سفيان ولا على فراشه ، ولا كان عبداً لأبي سفيان ، ولا سميّة أمة له ، ولا كانا في ملكه ، ولا صارا إليه لسبب من الأسباب . ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهل الحفظ للأحاديث عند كلام نَصْر بن الحجاج بن عُلَاط السُّلَميِّ وَمَنْ كان معه من موالى بني المغيرة الخزوميين وإرادتهم استلحاقه وإثبات دعوته ، وقد أعدّ لهم معاوية حجراً تحت بعض فرشه فألقاه إليهم ، فقالوا له : نسوّغ لك ما فعلت في زياد ، ولا نسوّغ لنا ما فعلنا في صاحبنا ، فقال : قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لكم من قضاء معاوية . فخالف معاوية بقضائه في زياد واستلحاقه إياه وما صنّع فيه وأقدم عليه ، أمر الله جل وعزّ وقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واتّبع في ذلك هواه رغبة عن الحق ومجانبة له ، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٢)﴾ ، وقال لداود صلى الله عليه وسلم وقد آتاه الحكم والنبوة والمال والخلافة : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ^(٣)﴾ ... الآية إلى آخرها .

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يعصم له نفسه ودينه ، وأن يعيذه من غلبة الهوى ، ويوفّقه في جميع الأمور لما يحب ويرضى ؛ إنه سميع قريب .

(١) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

(٢) سورة القصص ٥٠ .

(٣) سورة ص ٢٦ .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يردّ زياداً ومنّ كان من ولده إلى أمّهم ونسبهم المعروف ويلحقهم بأبيهم عبيد، وأمهم سمّية، ويتّبع في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أجمع عليه الصالحون وأئمة الهدى، ولا يجوز لمعاوية ما أقدم عليه مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان أمير المؤمنين أحقّ منّ أخذ بذلك وعمل به، لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه آثاره وإحيائه سنّته، وإبطاله سنن غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى، وقد قال الله جلّ وعزّ: ﴿فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (١).

فاعلم أن ذلك من رأى أمير المؤمنين في زياد، وما كان من ولد زياد فألحقهم بأبيهم زياد بن عبيد، وأمهم سمّية، واحملهم عليه، وأظهره لمن قبلك من المسلمين حتى يعرفوه ويستقيم فيهم؛ فإن أمير المؤمنين قد كتب إلى قاضي البصرة وصاحب ديوانهم بذلك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب معاوية بن عبيد الله في سنة تسع وخمسين ومائة.

فلما وصل الكتاب إلى محمد بن سليمان وقع بإنقاذه، ثم كلّم فيهم، فكفّ عنهم؛ وقد كان كتب إلى عبد الملك بن أيوب بن ظبّيان النميري بمثل ما كتب به إلى محمد، فلم ينفذه لموضعه من قيس، وكراهته أن يخرج أحد من قومه إلى غيرهم.

٤٨٢/٣

* * *

وفيهما كانت وفاة عبيد الله بن صفوان الجمّحيّ، وهو وال على المدينة، فولّى مكانه محمد بن عبد الله الكثيريّ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عزّل وولّى مكانه زفّر بن عاصم الهلاليّ. وولّى المهديّ قضاء المدينة فيها عبد الله بن محمد بن عمران الطلّحيّ.

وفيهما خرج عبد السلام الخارجيّ، فقتل.

وفيهما عزّل بسطام بن عمرو عن السند، واستعمل عليها رّوح بن حاتم.

وحجّ بالناس في هذه السنة المهديّ، واستخلف على مدينته حين شخص

عنها ابنته موسى ، وخلف معه يزيد بن منصور خال المهديّ وزيراً له ومدبراً لأمره .

وشخص مع المهديّ في هذه السنة ابنه هارون وجماعة من أهل بيته ؛ وكان ممن شخص معه يعقوب بن داود ، على منزلته التي كانت له عنده ؛ فاتاه حين وافى مكة الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن الذي استأمن له يعقوب من المهديّ على أمانه ، فأحسن المهديّ صلته وجائزته ، وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز .

وفيها نزع المهديّ كسوة الكعبة التي كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة ؛ وذلك أن حجاب الكعبة - فيما ذكر - رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ، ثم طلى البيت كله بالخلطوق ، وذكر أنهم لما بلغوا إلى كسوة هشام وجدوها ديباجاً ثخيناً جيداً ، وجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن .

وقسم المهديّ في هذه السنة بمكة في أهلها - فيما ذكر - مالا عظيماً ، وفي أهل المدينة كذلك ؛ فذكر أنه نُظر فيما قسم في تلك السفرة فوجد ثلاثين ألف ألف درهم ، حُمِلت معه ، ووصلت إليه من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فقسّم ذلك كله . وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب ، ووسّع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر بنزع المقصورة التي في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فنزعت ، وأراد أن ينقص منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعيده إلى ما كان عليه ، ويلقى منه ما كان معاوية زاد فيه ؛ فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك ، ف قيل له : إن المسامير قد سلكت في الخشب الذي أحدثه معاوية ، وفي الخشب الأول وهو عتيق ، فلا نأمن إن خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسر ، فتركه المهديّ .

وأمر أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً ، وأجرى عليهم أرزاقاً سوى أعطياتهم ، وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم .

وتزوَّج في مقامه بها بركة بنت عمرو العُمانية .
وفي هذه السنة حمل محمد بن سليمان الثلج للمهدى ، حتى وافى به مكة ،
فكان المهدى أول من حُمِلَ له الثلج إلى مكة من الخلفاء .
وفيها ردّ المهدى على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عنهم .

* * *

وكان على صلاة الكوفة وأحداثها في هذه السنة إسحاق بن الصباح الكندي ،
وعلى قضائها شريك . وعلى البصرة وأحداثها وأعمالها المفردة وكُور دجلة والبحرين
وعُمان وكُور الأهواز وفارس محمد بن سليمان . وكان على قضاء البصرة فيها
عبيد الله بن الحسن . وعلى خراسان معاذ بن مسلم ، وعلى الجزيرة الفضل بن
صالح ، وعلى السند رَوْح بن حاتم . وعلى إفريقية يزيد بن حاتم . وعلى مصر
محمد بن سليمان أبو ضمرة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان من ذلك خروج حكيم المقتنع بخُرَّاسان من قرية من قرى مَرَّو ، وكان — فيما ذكر — يقول بتناسخ الأرواح ، يعود ذلك إلى نفسه ، فاستغوى بشراً كثيراً ، وقوى وصار إلى ما وراء النهر ، فوجه المهدى لقتاله عدَّة من قوَّاده ؛ فيهم مُعَاذ بن مسلم ؛ وهو يومئذ على خُرَّاسان ، ومعه عَقْبَةُ بن مسلم وجبرئيل بن يحيى وليث مولى المهدى ، ثم أفرد المهدى لمحاربتة سعيداً الحَرَشِيَّ ، وضمَّ إليه القوَّاد ؛ وابتدأ المقتنع بجمع الطعام عدَّةً للحصار في قلعة بكش .

* * *

وفيها ظفر نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي بعبد الله بن مروان بالشَّام ؛ فقدم به على المهدى قبل أن يوليَّه السُّنْد ، فحبسه المهدى في المطبَّق ؛ فذكر أبو الخطاب أن المهدى أُنْثِيَ بعبد الله بن مروان بن محمد — وكان يكنى أبا الحكم — فجلس المهدى مجلساً عاماً في الرِّصَافَةِ ، فقال : مَنْ يعرف هذا ؟ فقال عبد العزيز بن مسلم العُقَيْلِيُّ ، فصار معه قائماً ، ثم قال له : أبو الحكم ؟ قال : نعم ابنُ أمير المؤمنين ، قال : كيف كنت بعدى ؟ ثم التفت إلى المهدى ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا عبد الله بن مروان . فعجب الناس من جرأته ، ولم يعرض له المهدى بشيء .

قال : ولما حبس المهدى عبد الله بن مروان احتيل عليه ، فجاء عمرو بن سهلة الأشعرى فادَّعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، فقدمه إلى عافية القاضي ، فتوجه عليه الحُكْمُ أن يقادَ به ، وأقام عليه البيِّنة ؛ فلما كاد الحُكْمُ يبرم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلي إلى عافية القاضي يتخطى رقاب الناس ؛ حتى صار إليه ، فقال : يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه ؛ كذب والله ما قتل أباه غيري ؛ أنا قتلتُه بأمر

مروان، وعبد الله بن مروان من دمه برىء . فزالَت عن عبد الله بن مروان، ولم يعرض المهديّ لعبد العزيز بن مسلم لأنه قتله بأمر مروان .

* * *

وفيهَا غزا الصّائفة ثمامة بن الوليد ، فنزل دابق ، وجاشت الرّوم وهو مغترّ ، فأنت طلائعهُ وعيونهُ بذلك ، فلم يحفل بما جاءوا به ، وخرج إلى الرّوم ، وعليها ميخائيل بسرّعان الناس^(١) ، فأصيب من المسلمين عِدّة ، وكان عيسى بن عليّ مرابطاً بحصن مرّعش يومئذ ، فلم يكن للمسلمين في ذلك العام صائفة من أجل ذلك .

٤٨٦/٣

وفيهَا أمر المهديّ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسيّة إلى زُبالة ، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس ، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها ، وأمر باتّخاذ المصانع في كلّ منهل ، وبتجديد الأميال والبرك ، وحفر الرّكايا مع المصانع ، وولّى ذلك يقطين بن موسى ، فلم يزل ذلك إليه إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، وكان خليفة يقطين في ذلك أخوه أبو موسى .

وفيهَا أمر المهديّ بالزيادة في مسجد الجامع بالبصرة ، فزيد فيه من مقدّمه ممّا يلي القبلة ، وعن يمينه ممّا يلي رحبة بني سليم ، وولّى بناء ذلك محمد بن سليمان وهو يومئذ والي البصرة .

وفيهَا أمر المهديّ بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر وتصييرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعُمل به .

وفيهَا أمر المهديّ يعقوب بن داود بتوجيه الأمان في جميع الآفاق ، فعَمِل به ، فكان لا ينفذ للمهديّ كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك .

وفيهَا اتّضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهديّ ، وضمّ يعقوب إليه من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشّام عدداً كثيراً ، وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم إسماعيل بن عُلَيّة الأسديّ ومحمد بن ميمون العنبريّ ، وجعل رئيس أهل الكوفة وأهل الشّام عبد الأعلى بن موسى الحلبيّ .

٤٨٧/٣

(١) سرعان الناس : أوائلهم .

ذكر السبب الذي من أجله
تغيرت منزلة أبي عبيد الله عند المهديّ

قد ذكرنا سبب اتصاله به الذي كان قبلُ في أيام المنصور وضمّ المنصور إياه إلى المهديّ حين وجهه إلى الرّميّ عند خلّع عبد الجبار بن عبد الرحمن المنصور ، فذكر أبو زيد عمر بن شبّة ، أنّ سعيد بن إبراهيم حدثه أنّ جعفر بن يحيى حدثه أنّ الفضل بن الرّبيع أخبره ، أنّ الموالى كانوا يشنعون على أبي عبيد الله عند المهديّ ، ويسعون عليه عنده ؛ فكانت كتب أبي عبيد الله تنفذ عند المنصور بما يريد من الأمور ، وتتخلّى الموالى بالمهديّ ؛ فيبلغونه عن أبي عبيد الله ، ويحرّضونه عليه .

قال الفضل : وكانت كتب أبي عبيد الله تصل إلى أبي تشرى ، يشكو الموالى وما يلتقي منهم ، ولا يزال يذكره عند المنصور ويعبره بقيامه ، ويستخرج الكتب عنه إلى المهديّ بالوصاية به ، وترك القبول^(١) فيه . قال : فلمّا رأى أبو عبيد الله غلبة الموالى على المهديّ ، وخالطتهم به نظر إلى أربعة رجال من قبائل شتى من أهل الأدب والعلم ، فضمّتهم إلى المهديّ ، فكانوا في صحابته ، فلم يكونوا يدعون الموالى يتخلّون به .

ثمّ إنّ أبا عبيد الله كلّم المهديّ في بعض أمره إذ اعترض رجل من هؤلاء الأربعة في الأمر الذي تكلّم فيه ، فسكت عنه أبو عبيد الله ، فلم يرّأده ، وخرج فأمر أن يحجب عن المهديّ فحجبه عنه ؛ وبلغ ذلك من خبره أبي .

* * *

قال : وحجّ أبي مع المنصور في السنة التي مات فيها ، وقام أبي من أمر المهديّ بما قام به من أمر البيعة وتجديدها على بيت المنصور والقواد والموالى ؛ فلما قدم تلقّيته بعد المغرب ، فلم أزل معه حتى تجاوز منزله ، وترك دار المهديّ ، ومضى إلى أبي عبيد الله ، فقال : يا بنيّ ؛ هو صاحب الرجل ؛ وليس ينبغي أن نعامله على ما كنّا نعامله عليه ؛ ولا أن نحاسبه بما كان منا في أمره من نصرتنا له . قال : فضينا حتى أتينا باب أبي عبيد الله ؛ فما زال واقفاً حتى صليتُ

(١) أى ترك قبول القول فيه .

العَتمَة ، فخرج الحاجب ، فقال : ادخل ، فثنى رجله وثبت رجله . قال :
 إنما استأذنت لك يا أبا الفضل وحدك . قال : اذهب فأخبره أن الفضل معي .
 قال : ثم أقبل على ، فقال : وهذا أيضاً من ذلك ! قال : فخرج الحاجب ،
 فأذن لنا جميعاً ، فدخلنا أنا وأبي ، وأبو عبيد الله في صدر المجلس ، على
 مصلتي متكئ على وسادة ، فقلت : يقوم إلى أبي إذا دخل إليه ، فلم يقم إليه ،
 فقلت : يستوى جالساً إذا دنا ، فلم يفعل ، فقلت : يدعو له بمصلى ، فلم
 يفعل ، ففقد أبي بين يديه على البساط وهو متكئ ، فجعل يسأله عن مسيره
 وسفره وحاله ، وجعل أبي يتوقع أن يسأله عما كان منه في أمر المهدي وتجديد
 بيعته ، فأعرض عن ذلك ، فذهب أبي يبتدئه بذكره ، فقال : قد بلغنا
 نبؤكم ، قال : فذهب أبي لينهض ، فقال : لا أرى الدروب إلا وقد غلقت .
 فلو أقمت ! قال : فقال أبي : إن الدروب لا تغلق دوني ، قال : بلى قد
 أغلقت . قال : فظن أبي أنه يريد أن يحتسبه ليسكن من مسيره ، ويريد أن
 يسأله ، قال : فأقيم . قال : يا فلان ، اذهب فهيتي لأبي الفضل في منزل
 محمد بن أبي عبيد الله مبيتاً . فلما رأى أنه يريد أن يخرج من الدار ، قال :
 فليس تغلق الدروب دوني فأعترم . ثم قام ، فلما^(١) خرجنا من الدار أقبل
 على فقال : يا بني ، أنت أحق^(٢) ، قلت : وما حمق أنا ! قال : تقول لي :
 كان ينبغي لك ألا تجيء ، وكان ينبغي إذا جئت فحجبنا ألا نقيم حتى
 صليت العتمَة ، وأن تنصرف ولا تدخل ؛ وكان ينبغي إذا دخلت فلم يقم إليك
 أن ترجع ولا نقيم عليه ؛ ولم يكن الصواب إلا ما عملت كله ؛ ولكن والله
 الذي لا إله إلا هو — واستغلق في اليمين — لأخلعن جاهي ، ولأنفقن مالي
 حتى أبلغ من أبي عبيد الله .

٤٨٩/٣

قال : ثم جعل يضطرب بجهده ، فلا يجد مساعداً إلى مكروهه ، ويحتال
 الجحد إذ ذكر القشيري الذي كان أبو عبيد الله حجبته ، فأرسل إليه فجاءه ،

(١ - ١) في ابن الاثير : « فلما خرج من عنده قال له ابنة الفضل : لقد بلغ فعل هذا بك
 ما فعل ، وكان الرأي ألا تأتيه ، وحيث أتيت وحجبتك أن تعود ، وحيث دخلت عليه فلم يقم لك أن
 تعود ؛ فقال لابنه : أنت أحق » .

فقال : إنك قد علمت ما ركبك به أبو عبيد الله ، وقد بلغ مني كل غاية من المكروه ، وقد أرغمت^(١) أمره بمجهدى ؛ فما وجدت عليه طريقاً ، فعندك حيلة في أمره ؟ فقال : إنما يؤتني أبو عبيد الله من أحد وجوه أذكرها لك ... يقال : هو رجل جاهل بصناعته وأبو عبيد الله أحذق الناس ، أو يقال : هو ظنين في الدين بتقليده ، وأبو عبيد الله أعف الناس ؛ لو كان بنات المهديّ في حجره لكان لمن موضع ، أو يقال : هو يميل إلى أن يخالف السلطان فليس يؤي أبو عبيد الله من ذلك ؛ إلا أنه يميل إلى القدر بعض الميل ؛ وليس يتسلق عليه بذلك أن يقال : هو متهم ؛ ولكن هذا كله مجتمع لك في ابنه ؛ قال : فتناوله الربيع ، فقبّل بين عينيه ، ثم دبّ لابن أبي عبيد الله ؛ فوالله ما زال يحتال ويدسّ إلى المهديّ ويتهمة ببعض حرم المهديّ ؛ حتى استحکم عند المهديّ الظنّة بمحمد بن أبي عبيد الله ، فأمر فأحضر ، وأخرج أبو عبيد الله . فقال : يا محمد اقرأ ، فذهب ليقرا ، فاستعجم عليه القرآن ، فقال : يا معاوية^(٢) ألم تعلمني أن ابنك جامع للقرآن ؟ قال : أخبرتك يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقتي منذ سنين ؛ وفي هذه المدة التي نأى فيها عني نسي القرآن ، قال : قم فتقرّب إلى الله في دمه ، فذهب ليقوم فوقه ، فقال العباس بن محمد : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تعني الشيخ ! قال : ففعل ، وأمر به فأخرج ، فضربت عنقه .

قال : فاتهمه المهديّ في نفسه ، فقال له الربيع : قتلت ابنه ، وليس ينبغي أن يكون معك ، ولا أن تنق به . فأوحش المهديّ ؛ وكان الذي كان من أمره وبلغ الربيع ما أراد ، واشتق وزاد .

وذكر محمد بن عبد الله^(٣) يعقوب بن داود ، قال : أخبرني أبي ، قال : ضرب المهديّ رجلاً من الأشعرين ، فأوجعه ، فتعصّب أبو عبيد الله — وكان مولّى لهم ، فقال : القتل أحسن من هذا يا أمير المؤمنين ، فقال له المهديّ : يا يهودي ، اخرج من عسكري لعنك الله . قال : ما أدرى إلى أين أخرج

(١) أرغت : طلبت . (٢) معاوية بن يسار ، اسم أبي عبيد الله كاتب المهدي .

(٣) ط : « أبي عبد الله » ، وانظر الفهرس .

٤٩١/٣ : إلّا إلى النار ! قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أحرّ بهذا أن لثلمها يتوقع ،
قال : فقال لي : سبحان الله يا أبا عبيد الله !

• • •

وفيها غزا الغمر بن العباس في البحر .

وفيها ولّى نصر بن محمد بن الأشعث السند مكان رّوح بن حاتم ، وشخص إليها حتى قدمها ثم عزّل ، وولّى مكانه محمد بن سليمان ، فوجه إليها عبد الملك ابن شهاب المسمعيّ ، فقدمها على نصر ، فبغته ، ثم أذن له في الشخص ، فشخص حتى نزل الساحل على ستة فراسخ من المنصورة ؛ فأثى نصر بن محمد عهده على السند ، فرجع إلى عمله ؛ وقد كان عبد الملك أقام بها ثمانية عشر يوماً ، فلم يعرض له ، فرجع إلى البصرة .

وفيها استقضى المهديّ عافية بن يزيد الأزديّ ؛ فكان هو وابنُ علاثة يقضيان في عسكر المهديّ في الرّصافة ؛ وكان القاضي بمدينة الشرقية عمر بن حبيب العدويّ .

وفيها عزّل الفضل بن صالح عن الجزيرة ، واستعمل عليها عبد الصمد ابن عليّ .

وفيها استعمل عيسى بن لقمان على مصر .

وفيها ولّى يزيد بن منصور سواد الكوفة وحسان الشروى الموصل وبسطام ابن عمرو التغلبيّ أذربيجان .

وفيها عزل أبا أيوب المسمى سليمان المكيّ عن ديوان الخراج ، وولّى مكانه أبو الوزير عمر بن مطرف .

وفيها توفّي نصر بن مالك من فالج أصابه ، ودفن في مقابر بني هاشم وصلى عليه المهديّ .

وفيها صرف أبان بن صدقة عن هارون بن المهديّ إلى موسى بن المهديّ ، وجعله له كاتباً ووزيراً ، وجعل مكانه مع هارون ابن المهديّ يحيى بن خالد ابن برمك .

وفيها عزل محمد بن سليمان أبا ضَمْرَةَ عن مصر في ذى الحجة المهدى
وولّاها سلمة بن رجاء .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة موسى بن محمد بن عبد الله الهادى ، وهو
ولى عهد أبيه .

وكان عامل الطائف ومكة واليامة فيها جعفر بن سليمان ، وعلى صلاة
الكوفة وأحداثها إسحاق بن الصباح الكندى ، وعلى سوادها يزيد بن منصور .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[خبر مقتل عبد السلام الخارجي]

فمن ذلك ما كان من مقتل عبد السلام الخارجي بِقِنْسَرِينَ .
* ذكر الخبر عن مقتله :

ذكر أن عبد السلام بن هاشم اليشكريّ هذا خرج بالجزيرة ، وكثر بها أتباعه ، واشتدت شوكته ، فلقبه من قواد المهديّ عدّة ، منهم عيسى بن موسى القائد ، فقتله في عدّة ممّن معه ، وهزم جماعة من القواد ، فوجه إليه المهديّ الجند ، فنكب غير واحد من القواد ، منهم شبيب بن واج المدوروديّ ، ثم ندب إلى شبيب ألف فارس ، أعطى كلّ رجل منهم ألف درهم معونة ، وألحقهم بشبيب فوافوه ، فخرج شبيب في أثر عبد السلام ، فهرب منهم حتى أتى قِنْسَرِينَ ، فلحقه بها فقتله .

* * *

وفيهما وضع المهديّ دواوين الأزمّة^(١) ، وولّى عليها عمر بن بزيع مولاة ، فولّى عمر بن بزيع النعمان بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق .
وفيهما أمر المهديّ أن يجرى على المجدّين وأهل السجون في جميع الآفاق .
وفيهما ولّى ثُمّامة بن الوليد العبسيّ الصّائفة ، فلم يتمّ ذلك .
وفيهما خرجت الروم إلى الحدّث ، فهدموا سورها .

وغزا الصّائفة الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المطوّعة ، فبلغ حَمّة أذرُوليّة ، فأكثر التخريب والتّحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصناً ، ويلقى جمعا ، وسمّته الروم التّنين . وقيل : إنه إنما أتى

(١) أي يكون لكل ديوان زمام ؛ وله رجل يضبطه .

هذه الحمّة الحسنُ ليستنقع فيها للوضّح^(١) الذي كان به؛ ثم قفل بالناس سالمين .
وكان على قضاء عسكره وما يجتمع من الفىء حتفص بن عامر السُّلمى .

قال : وفيها غزا يزيد بن أسيد السُّلمى من باب قاليقلا ، فغنم وفتح
ثلاثة حصون ، وأصاب سببياً كثيراً وأسرى .

وفيهما عزل على بن سليمان عن اليمن ، وولّى مكانه عبد الله بن سليمان .
وفيهما عزل سلمة بن رجاء عن مصر ، ووليها عيسى بن لقمان ، في
المحرّم ، ثم عزل في جمادى الآخرة ، ووليها واضح مولى المهديّ ، ثم عزل
في ذى القعدة ووليها يحيى الحرشى .

وفيهما ظهرت الحمرة بجرجان ، عليهم رجل يقال له عبد القهار ، فغلب
على جرجان ، وقتل بشراً كثيراً ، فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان ، فقتل
عبد القهار وأصحابه .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن جعفر بن المنصور ؛ وكان العباس
ابن محمد استأذن المهديّ في الحجّ بعد ذلك ، فعاتبه على ألاّ يكون استأذنه
قبل أن يولّى الموسم أحداً فيوليه إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، عمداً أخرتُ
ذلك لأنى لم أرد الولاية .

* * *

وكانت عمال الأمصار عمالها في السنة التى قبلها . ثم إن الجزيرة كانت
في هذه السنة إلى عبد الصمد بن على وطبرستان والرويان إلى سعيد بن
كدعلج ، وجرجان إلى مهلهل بن صفوان .

(١) الوضّح ، يكنى به عن البرص .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان فيها من هلاك المقنّع ؛ وذلك أن سعيداً الحرّشيّ حصّره بكش ، فاشتدّ عليه الحصار ، فلما أحسّ بالهلكة شرب سُمّاً ، وسقاه نساءه وأهله ، فمات وماتوا - فيما ذكر - جميعاً ، ودخل المسلمون قلّعته ، واحتزّوا رأسه ، ووجّهوا به إلى المهديّ وهو بحلب .

* * *

[ذكر خبر غزو الروم]

وفيهما قطع المهديّ البعوث للصائفة على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم ، وخرج فمسكروا بالبرّدان ، فأقام به نحواً من شهرين يتعباً فيه ويتهياً ، ويعطى الجنود ، وأخرج بها صلّات لأهل بيته الذين شخّصوا معه ، فتوفّي عيسى بن عليّ في آخر جمادى الآخرة ببغداد . وخرج المهديّ من الغد إلى البرّدان متوجّهاً إلى الصائفة ، واستخلف ببغداد موسى بن المهديّ ، وكتبه يومئذ أبان بن صدقة ؛ وعلى خاتمه عبد الله بن علّانة ، وعلى حرسه عليّ بن عيسى ، وعلى شُرطه عبد الله بن خازم^(١) ؛ فذكر العباس بن محمد أنّ المهديّ لما وجّه الرشيد إلى الصائفة سنة ثلاث وستين ومائة خرج يشيعه وأنا معه ؛ فلما حاذى قصر مسلمة ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إن لمسلمة في أعناقنا مئة ؛ كان محمد بن عليّ مرّ به ، فأعطاه أربعة آلاف دينار ، وقال له : يا بن عمّ هذان ألفان لديّك ، وألفان لمعونتك ، فإذا نفدت فلا تحتشمنا . فقال لما حدثته الحديث : أحضروا منّ هاهنا من ولد مسلمة ومواليه ، فأمر لهم بعشرين ألف دينار ، وأمر أن تُجرى عليهم الأرزاق ، ثم قال : يا أبا الفضل ، كافأنا مسلمة وقضينا حقه ؟ قلت : نعم ، وزدت يا أمير المؤمنين .

٤٩٥/٣

وذكر إبراهيم بن زياد ، عن الهيثم بن عدّى ، أن المهديّ أغزى هارون الرشيد بلاد الروم ، وضمّ إليه الربيع الحاجب والحسن بن قحطبة .

قال محمد بن العباس : إننى لقاعد^(١) فى مجلس أبى فى دار أمير المؤمنين وهو على الحرّس ؛ إذ جاء الحسن بن قحطبة ، فسلم علىّ ، وقعد على الفراش الذى يقعد أبى عليه ، فسأل عنه فأعلمته أنه راكب ، فقال لى : يا حبيبى أعلمه أنى جئت ، وأبلغه السلام عنى ، وقل له : إن أحبّ أن يقول لأمر المؤمنين : يقول الحسن بن قحطبة : يا أمير المؤمنين ؛ جعلنى الله فداك ! أغزيت هارون ، وضممتنى والربيع إليه ، وأنا قريع قوادك ، والربيع قريع مواليك ، وليس تطيب نفسى بأن نخلت^(٢) جميعاً بابك ؛ فلمّا أغزيتنى مع هارون وأقام الربيع ، ولما أغزيت الربيع وأقمت ببابك . قال : فجاء أبى فأبلغته الرسالة ، فدخل على المهديّ فأعلمه ، فقال : أحسن والله الاستعفاء ؛ لا كما فعل الحجام ابن الحجام - يعنى عامر بن إسماعيل - وكان استعفى^(٣) من الخروج مع إبراهيم فغضب عليه ، واستصنى ماله .

٤٩٦/٣

وذكر عبد الله بن أحمد بن الوضّاح ، قال : سمعت جدى أبا بُدَيْل ، قال : أغزى المهديّ الرشيد ، وأغزى معه موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح بن علىّ ومولائى أبىه : الربيع الحاجب والحسن الحاجب ؛ فلمّا فصل دخلت عليه بعد يومين أو ثلاثة ، فقال : ما خلّفتك عن ولىّ العهد ، وعن أخويك خاصة ؟ يعنى الربيع والحسن الحاجب . قلت : أمر أمير المؤمنين ومقامى بمدينة السلام حتى يأذن لى . قال : فسرّ حتى تلحق به وبهما ؛ واذكر ما تحتاج إليه . قال : قلت : ما أحتاج إلى شيء من العُدّة ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى ودّاعه ! فقال لى : متى تراك خارجا ؟ قال : قلت من غد ، قال : فودّعته وخرجت ، فلحق القوم . قال : فأقبلتُ أنظر إلى الرشيد يخرج ، فيضرب بالصّوّالجة ، وأنظر إلى موسى بن عيسى وعبد الملك ابن صالح ؛ وهما يتضحكان منه .

(٢) ج : « نخل » .

(١) س : « لما قعدت » .

(٣) س : « يستعفى » .

قال : فصرت إلى الربيع والحسن - وكنت لا نفرق - قال : فقلت : لاجزا كما
الله عمن وجهكما ولا عن وجهكما معه خيراً ؛ فقالا : إيه ، وما الخبر ؟ قال :
قلت : موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح يتصاحكان من ابن أمير المؤمنين ،
أومأ كنهما تقدران أن تجعلا لهما مجلساً يدخلان عليه فيه ولمن كان معه من
القواد في الجمعة يدخلون^(١) عليه ويخلّوه في سائر أيامه لما يريد^(٢) ! قال : فبينما
نحن في ذلك المسير إذ بعثا إلى في الليل . قال : فجئت وعندهما رجل ، فقالا
لي : هذا غلام الغمر بن يزيد ، وقد أصبنا^(٣) معه كتاب الدولة . قال :
ففتحت^(٤) الكتاب ، فنظرت فيه إلى سيني المهدي فإذا هي عشر سنين .
قال : فقلت : ما في الأرض أعجب منكما ! أتريان أن خبر هذا الغلام
يعني ، وأن هذا الكتاب يستر ! قال : كلا ، قلت : فإذا كان أمير المؤمنين
قد نقص من سنه ما نقص ، أفلسم أول من نعى إليه نفسه ! قال : فتبلىدوا
والله ، وسقط في أيديهما ، فقالا : فما الحيلة ؟ قلت : يا غلام علي بعنسة
- يعني الوراق الأعرابي مولى آل أبي بديل - فأتى به ، فقلت له : خط مثل
هذا الخط ، وورقة مثل هذه الورقة ، وصير مكان عشر سنين أربعين سنة ،
وصيرها في الورقة ، قال : فوالله لولا أني رأيت العشر في تلك والأربعين في
هذه ما شككت أن الخط ذلك الخط ، وأن الورقة تلك الورقة .

٤٩٧/٣

قال : ووجه المهدي خالد بن برمك مع الرشيد وهو ولي العهد حين
وجهه لغزو الروم ، وتوجه معه الحسن وسليمان ابنا برمك ، وجهه معه على أمر
العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد - وكان أمر هارون كله
إليه - وصير الربيع الحاجب مع هارون يغزو عن المهدي ، وكان الذي^(٥) بين
الربيع ويحيى^(٥) على حسب ذلك ؛ وكان يشاورهما ويعمل برأيهما ؛ ففتح
الله عليهم فتوحاً كثيرة ، وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءاً جميلاً ، وكان لخالد
في ذلك بسماً لو أثر جميل لم يكن لأحد ؛ وكان منجمهم يسمى البرمكي تبركاً

٤٩٨/٣

(١-١) كذا وردت العبارة في ١ . (٢) س : « وجدنا » .

(٣) س : « ففتحن » . (٤) ج : « ذلك » .

(٥) ١ ، س : « وبين يحيى » .

به ، ونظراً إليه . قال : ولما ندب المهديّ هارون الرشيد لما ندبته له ^(١) من الغزو ، أمر أن يدخل عليه ^(٢) كتاب أبناء الدّعوة لينظر إليهم ويختار له منهم رجلاً . قال يحيى : فأدخلوني عليه معهم ، فوقفوا بين يديه ، ووقفت آخرهم ، فقال لي : يا يحيى ، ادنُ ، فدنوت ، ثم قال لي : اجلس ، فجلست فجنّوت بين يديه ، فقال لي : إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي ، واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ، ويتولى كتابته ، فوقعت عليك خيرتي له ، ورأيتك أولّتي به ؛ إذ كنت مربّيته وخاصّته ، وقد وليتكَ كتابته وأمرَ عسكره . قال : فشكرتُ ذلك له ، وقبلت يده ، وأمر لي بمائة ألف درهم معونةً على سفرى ^(٣) ، فوجّهت في ذلك العسكر لما وجّهت له ^(٤) .

قال : وأوفد الربيعُ سليمانَ بن برمك إلى المهديّ ، وأوفد معه وفداً ، فأكرم المهديّ وفادته وفضله ، وأحسن إلى الوفد الذين كانوا معه ، ثم انصرفوا من وجههم ذلك .

* * *

[عزل عبد الصمد بن عليّ عن الجزيرة وتولية زفر بن الحارث]

وفي هذه السنة ؛ سنة مسير المهديّ مع ابنه هارون ، عزل المهديّ عبد الصمد ابن عليّ عن الجزيرة ، وولّى مكانه زفر بن عاصم الحلاليّ .

* ذكر السبب في عزله إياه :

ذكر أن المهديّ سلك في سَفَره هذه طريق الموصل ، وعلى الجزيرة عبد الصمد بن عليّ ، فلما شخص المهديّ من الموصل ، وصار بأرض الجزيرة ، لم يتلقه عبد الصمد ولا هيأ له نُزلاً ، ولا أصلح له قناطر . فاضطغن ذلك عليه المهديّ ، فلما لقيه تجهّمه وأظهر له جفاءً ، فبعث إليه عبد الصمد باللطاف لم يرضها ، فردّها عليه ، وازدّاد عليه سخطاً ، وأمر بأخذه بإقامة النُّزُل له ، فتعبت في ذلك ، وتقنّع ، ولم يزل يربّي ما يكرهه إلى أن نزل حصن

(٢) ج : « إليه » .

(٤) ساقطة من ط ، وأثبتها من ا .

(١) س : « إليه » .

(٣) س : « في سفرى » .

مسلمة ، فدعا به ، وجرى بينهما كلامٌ أغلظ له فيه القول المهدى ، فردّ عليه عبد الصمد ولم يحتمله ، فأمر بحبسه وعزّله عن الجزيرة ، ولم يزل في حبسه في سفره ذلك وبعد أن رجع إلى أن رضى عنه . وأقام له العباس بن محمد النّزل ، حتى انتهى إلى حلب ، فأنته البشرى بها بقتل المقنّع ، وبعث وهو بها عبد الجبار المحتسب لحلب من بتلك الناحية من الزنادقة . ففعل ، وأتاه بهم ، وهو بدايتي ، فقتل جماعة منهم وصلّبهم ، وأتّى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ثم عرض بها جندّه ، وأمر بالرحلة ، وأشخص جماعة من وافاه من أهل بيته مع ابنه هارون إلى الروم ، وشيخ المهدى ابنه هارون حتى قطع الدّرب ، وبلغ جيحان ، وارتاد بها المدينة التي تسمى المهدية ، وودّع هارون على نهر جيحان . فسار هارون حتى نزل رستاقاً من رساتيق أرض الروم فيه قلعة ، يقال لها سَمالو ، فأقام عليها ثمانية وثلاثين ليلة ، وقد نصب عليها المجانيق ، حتى فتحها الله بعد تخريب لها ، وعطش وجوع أصاب أهلها ، وبعد قتل وجراحات كانت في المسلمين ، وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم : لا يُقتلوا ولا يُرحلوا ، ولا يُفرّق بينهم ؛ فأعطوا ذلك ، فزّلوا ، ووفى لهم ، وقفل هارون بالمسلمين ^(١) سالمين إلا من كان أصيب منهم بها .

٥٠٠/٣

* * *

وفي هذه السنة وفي سفّرتّه هذه ، صار المهدى إلى بيت المقدس ، فصلّى فيه ^(٢) ، ومعه العباس بن محمد والفضل بن صالح وعلى بن سليمان وخاله يزيد ابن منصور .

وفيها عزل المهدى لإبراهيم بن صالح عن فلسطين ، فسأله يزيد بن منصور حتى رده عليها .

وفيها ولّى المهدى ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وإرمينية ، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك .

وفيها عزل زُفَر بن عاصم عن الجزيرة، وولّى مكانه عبد الله بن صالح ابن عليّ ، وكان المهديّ نزل عليه في مسيره^(١) إلى بيت المقدس، فأعجب بما رأى من منزله بسَلَمِيّة .

وفيها عزل معاذ بن مسلم عن خُرَاسان وولاهَا المسيّب بن زهير .
وعزل فيها يحيى الحرثيّ عن أصبهان ، وولّى مكانه الحكم بن سعيد .
وعزل فيها سعيد بن دَعْلَج عن طَبَرِستان والرُّويان ، وولاهما عمر ابن العلاء ؛

وفيها عزل مُهلَهل بن صفوان عن جُرجان ، وولاهَا هشام بن سعيد . ٥٠١/٣

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عليّ بن المهديّ .

وكان عليّ اليّامة والمدينة ومكة والطائف فيها جعفر بن سليمان ، وعليّ الصلاة والأحداث بالكوفة إسحاق بن الصباح، وعليّ قضائها شريك، وعليّ البصرة وأعمالها وكور دِجْلَة والبحرين وعمّان والفرّص وكور الأهواز وكور فارس محمد بن سليمان ، وعليّ خُرَاسان المسيّب بن زهير، وعليّ السّند نصر بن محمد ابن الأشعث .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحدث ، فأقبل إليه ميخائيل البيطريق - فيما ذكر - في نحو من تسعين ألفاً ، فيهم طازاذ الأرمني البطريق ، ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف ، فأراد المهديّ ضرب عنقه ، فكُلِّم فيه فحبسه في المطبق .

وفيهما عزل المهديّ محمد بن سليمان عن أعماله ، ووجه صالح بن داود على ما كان إلى محمد بن سليمان ، ووجه معه عاصم بن موسى الخراساني الكاتب على الخراج ، وأمره بأخذ حمّاد بن موسى كاتب محمد بن سليمان وعبيد الله بن عمر خليفته وعماله وتكشيفهم .

٥٠٢/٣

وفيهما بنى المهديّ بعيساباذ الكبرى قصرًا من لبن ، إلى أن أسس قصره الذي بالآجر : الذي سماه قصر السلامة ؛ وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في آخر ذي القعدة .

وفيهما شخص المهديّ حين أسس هذا القصر إلى الكوفة حاجيًا ، فأقام برُصافة الكوفة أيامًا ، ثم خرج متوجهًا إلى الحج ، حتى انتهى إلى العقبة ، فغلا عليه وعلى من معه الماء ، وخاف ألاّ يحمله ومن معه ما بين أيديهم ، وعرضت له مع ذلك حُمى ، فرجع من العقبة ، وغضب على يقطين بسبب الماء ؛ لأنه كان صاحب المصانع ، واشتدّ على الناس العطش في منصرفهم وعلى ظهرهم ^(١) حتى أشفقوا على المسلكة .

وفيهما توفّي ^(٢) نصر بن محمد بن الأشعث بالسند .

وفيهما عزل عبد الله بن سليمان عن اليمن عن سخطه ، ووجه من يستقبله

(٢) س : « مات » .

(١) س : « دوابهم » .

ويفتش متاعه ، ويحصي ما معه ، ثم أمر بحبسه ^(١) عند الربيع حين قدم ، حتى أقر من المال والجوهر والعنبر بما أقر به ، فردّه إليه ، واستعمل مكانه منصور بن يزيد بن منصور .

وفيها وجّه المهديّ صالح بن أبي جعفر المنصور من العقبة عند انصرافه عنها إلى مكة ليحجّ بالناس ، فأقام صالح للحجّ في هذه السنة .

* * *

وكان العامل على المدينة ومكة والطائف واليامة فيها جعفر بن سليمان ، وعلى اليمن منصور بن يزيد بن منصور ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها هاشم ابن سعيد بن منصور ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله ، وعلى صلاة البصرة وأحداثها وكُور دجلة والبحرين وعمان والفرس وكُور الأهواز وفارس صالح ابن داود بن عليّ ، وعلى السند سطّيح بن عمر ، وعلى خراسان المسيّب بن زهير ، وعلى الموصل محمد بن الفضل . وعلى قضاء البصرة عبيد الله بن الحسن ، وعلى مصر إبراهيم بن صالح ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى طبرستان والرويان وجرجان يحيى الحرشيّ ، وعلى دَنْبَاوَنْد وقوميس فراشة مولى أمير المؤمنين ، وعلى الرّيّ خلف بن عبد الله ، وعلى سجستان سعيد بن دعلج .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[غزوة هارون بن المهدي الصائفة ببلاد الروم]

فمن ذلك غزوة هارون بن محمد المهدي الصائفة ، ووجهه أبوه - فيما ذكر - يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم ، وضم إليه الربيع مولاة ، فوغل هارون في بلاد الروم ، فافتتح ماجدة ، ولقيته خيول نقيطا قوميس القوامسة ، فبارزه يزيد بن مزيد ، فأرجل يزيد ، ثم سقط نقيطا ، فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم ، وغلب يزيد على عسكرهم . وسار إلى الدُّمُسْتَقْ بنقُمودية وهو صاحب المسالحي ، وسار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة^(١) وثلاثة وتسعين رجلاً ، وحمل لهم من العيين مائة ألف دينار وأربعة^(٢) وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً ، ومن الورق أحداً وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم . وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أغسطه امرأة أليون ؛ وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينهما وبين هارون بن المهدي الرّسل والسفراء في طلب الصلح والموادة وإعطائه الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه ؛ وذلك أنه دخل مدخلا صعباً^(٣) مخوفاً على المسلمين ، فأجابته إلى ما سأل ، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار ، تؤديها في نيسان الأول في كل سنة ، وفي حزيران ، فقبل ذلك منها ، فأقامت له الأسواق في منصرفه ، ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعَرَض ، وكتبوا

٥٠٤/٣

(٢) ابن الأثير : « ثلاثة » .

(١) ابن الأثير : « وتسعمائة » .

(٣) س : « ضيقاً » .

كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسُلِّمَت الأسارى . وكان الذى أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمئة وثلاثة وأربعين رأساً ، وقتل من الروم فى الوقائع أربعة وخمسون ألفاً ، وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً . وما أفاء الله عليه من الدوابِّ الذَّلُّ بأدراتها عشرون ألف دابة ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس . وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف ، وبيع البرذون بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدَّرْع بأقل من درهم وعشرين سيفاً بدرهم ، فقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك :

أَظْفَتَ بِقُسْطَنْطِينَةِ الرُّومِ مُسْنِدًا إِلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى اكْتَسَى الذَّلَّ سَنُورَهَا (١)
وَمَا رِمَتْهَا حَتَّى أَتَتْكَ مُلُوكُهَا بِجِزْيَتِهَا ، وَالْحَرْبُ تَغْلِي قَدُورَهَا

* * *

وفىها عزل خلف بن عبد الله عن الرى ، وولّاها عيسى مولى جعفر .
وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن أبى جعفر المنصور .
وكانت عمّال الأمصار فى هذه السنة هم عمّالها فى السنة الماضية ؛ غير أن العامل على أحداث البصرة والصلاة بأهلها كان رَوْح بن حاتم ، وعلى كُور دِجْلَةَ والبحرين عُثْمَان وكُسْكُور وكُور الأهراس وفارس وكرمان كان المعلى مولى أمير المؤمنين المهديّ ، وعلى السند الليث مولى المهديّ .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ققول هارون بن المهديّ ؛ ومنّ كان معه من خليج قسطنطينية في المحرم ثلاث عشرة ليلة بقيت منه ، وقدمت الروم بالجزية معهم ، وذلك — فيما قيل — أربعة وستون ألف دينار عدد الرومية^(١) وألفان وخمسمائة دينار عربية ، وثلاثون ألف رطل مرّ عزيّ^(٢) .

٥٠٦/٣

وفيهما أخذ المهديّ البيعة على قواده هارون بعد موسى بن المهديّ ، وسماه الرشيد .

وفيهما عزل عبيد الله بن الحسن عن قضاء البصرة ، وولّى مكانه خالد بن طليق بن عمران بن حصين الخزاعيّ ، فلم تحمد^(٣) ولايته ، فاستعفى أهل البصرة منه .

وفيهما عزل جعفر بن سليمان عن مكة والمدينة ، وما كان إليه من العمل .

* * *

وفيهما سخط المهديّ على يعقوب بن داود .

ذكر الخبر عن غضب المهديّ على يعقوب

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ ، قال : سمعت أبي يذكر ، قال : كان داود بن طهمان — وهو أبو يعقوب بن داود — وإخوته كتاباً لنصر بن سيار ، وقد كتب داود قبله لبعض ولاة خراسان ؛ فلما كانت أيام يحيى بن زيد كان يدسّ إليه وإلى أصحابه بملاسمع من نصر ، ويحذّره ؛ فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقتل قسّكته والمعينين عليه من أصحاب نصر ، أتاه داود ابن طهمان مطمئناً لما كان يعلم ممّا جرى بينه وبينه ، فأمنه أبو مسلم ، ولم

(١) المرهزي : اللين من الصوف .

(١) س : « عددًا رومية » .

(٣) س : « فلم يحمدا » .

٥٠٧/٣

يعرض له في نفسه ، وأخذ أمواله التي استفاد أيام نصر ، وترك منازلهم وضيعة التي كانت له ميراثاً بمرو ، فلما مات داود خرج ولده أهل أدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ، ونظروا فإذا ليست لهم عند بني العباس منزلة ، فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر ؛ فلما رأوا ذلك أظهروا مقالة الزيدية ، ودنوا من آل الحسين ، وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها . فكان يعقوب يحول البلاد منفرداً بنفسه ، ومع إبراهيم بن عبد الله أحياناً ، في طلب البيعة لمحمد بن عبد الله ، فلما ظهر محمد وإبراهيم بن عبد الله كتب على ابن داود - وكان أسن - من يعقوب - لإبراهيم بن عبد الله ، وخرج يعقوب مع عدة من إخوته مع إبراهيم ؛ فلما قتل محمد وإبراهيم تواروا من المنصور ، فطلبهم ، فأخذ يعقوب وعلياً فحبسهما في المطبق أيام حياته ، فلما توفى المنصور من عليهما المهدي فيمن من عليه بتخلى سبيله ، وأطلقهما . وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن - وكانا لا يفارقانه - وإخوته الذين كانوا محتبسين معه ، فجرت بينهم بذلك الصداقة . وكان إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن يرى أن الخلافة قد تجوز في صالحى بنى هاشم جميعاً ، فكان يقول : كانت الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصلح إلا في بنى هاشم ؛ وهى في هذا الدهر لا تصلح إلا فيهم ؛ وكان يكثر في قوله للأكبر من بنى عبد المطلب ؛ وكان هو ويعقوب بن داود يتجاربان ذلك ؛ فلما خلّى المهدي سبيل يعقوب مكث المهدي برهة من دهره يطلب عيسى بن زيد والحسن ابن إبراهيم بن عبد الله بعد هرب^(١) الحسن من حبسه ، فقال المهدي يوماً : لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بآل حسن وبعيسى بن زيد ، وله فقه فأجلبه إلى على طريق الفقه ، فيدخل بينى وبين آل حسن وعيسى بن زيد ! فدُل على يعقوب بن داود ، فأتى به فأدخل عليه ، وعليه يومئذ فرّو وخفّأ كبّل^(٢) وعمامة كبرابيس وكساء أبيض غليظ . فكلمه وفاتحه ، فوجده رجلاً كاملاً ، فسأله عن عيسى بن زيد ؛ فزعم الناس أنه وعده الدخول بينه وبينه ، وكان يعقوب ينتفى من ذلك ؛ إلا أن الناس قد رموه بأن منزلته عند المهدي إنما

٥٠٨/٣

(٢) في اللسان : « فرو كبّل كثير الصوف ثقيل » .

(١) ج : « هروب » .

كانت للسعاية بآل عليّ . ولم يزل أمره يرتفع عند المهديّ ويعلو حتى استوزره ، وفوّض إليه أمر الخلافة ؛ فأرسل إلى الزيدية ، فأقن بهم مَنْ كلّ أوب ، وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كلّ جليل وعمل نفيس ، والدنيا كلها في يديه ، ولذلك يقول بشار بن برد :

بَنَى أُمَيَّةٌ هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَاطِلِبُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الدُّفِّ وَالْعُودِ^(٢)

قال : فحسده موالى المهديّ ، فسعوا عليه .

وما حظي به يعقوب عند المهديّ ، أنه استأمنه للحسن بن إبراهيم بن عبد الله ، ودخل بينه وبينه حتى جمع بينهما بمكة . قال : ولما علم آل الحسن بن عليّ بصنيعه استوحشوا منه ، وعلم يعقوب أنه إن كانت لهم دولة لم يعيش فيها ، وعلم أن المهديّ لا يناظره لكثرة السعاية به إليه ، قال يعقوب إلى إسحاق بن الفضل ، وأقبل يربصُ له الأمور وأقبلت السعايات تردُّ على المهديّ بإسحاق حتى قيل له : إن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه ؛ وقد كاتبهم ؛ وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد على معاد ، فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل ؛ فكان ذلك قد ملأ قلب المهديّ عليه .

٥٠٩/٣

قال عليّ بن محمد النوفليّ : فذكر لي بعض خدام المهديّ أنه كان قائماً على رأسه يوماً يذبّ عنه ، إذ دخل يعقوب ، فجثا بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت اضطراب أمر مصر ، وأمرني أن ألتبس لها رجلاً يجمع أمرها ، فلم أزل أرتاد حتى أصبت لها رجلاً يصلح لذلك . قال : ومن هو ؟ قال : ابن عمك إسحاق بن الفضل ، فرأى يعقوب في وجهه التغيّر^(٣) ، فنهض فخرج ، وأتبعه المهديّ طرفه ، ثم قال : قتلى الله إن لم أقتلك ! ثم رفع رأسه إلى وقال : اكتم عليّ ويلك ! قال : ولم يزل مواليه يحرّضونه عليه ويوحشونه منه ، حتى عزم^(٤) على إزالة النعمة عنه .

(٢) ابن الأثير : « بين النأي والعود » .

(٤) ج : « خرج » .

(١) ابن الأثير : « فالتسوا » .

(٣) ج : « التغيّر » .

وقال موسى بن إبراهيم المسعودي: قال المهدي: وُصف لي يعقوب بن داود في منامي، فقيل لي أن اتخذه وزيراً. فلما رآه، قال: هذه والله الحلقة التي رأيتها في منامي، فاتخذه وزيراً، وحظيَّ عنده غاية الحظوة، فكث حيناً حتى بنى عيساباذ، فأتاه خادم من خدمته - وكان حظياً عنده - فقال له: إن أحمد بن إسماعيل بن عليّ، قال لي: قد بنى منزراً أنفق عليه خمسين ألف من بيت مال المسلمين، فحفظها عن الخادم، ونسي أحمد ابن إسماعيل، وتوهمها على يعقوب بن داود، فبينما يعقوب بين يديه إذ لبيته، فضرب به الأرض، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين! قال: أأنت القائل: إني أنفقت على منزرة لي خمسين ألف ألف! فقال يعقوب: والله ما سمعته أذنائي، ولا كتبه الكرام الكاتبون؛ فكان هذا أول سبب أمره.

٥١٠/٣

قال: وحدثنني أبي، قال: كان يعقوب بن داود قد عرف عن المهدي خلعةً واستهتاراً بذكر النساء والجماع، وكان يعقوب بن داود يصف من نفسه في ذلك شيئاً كثيراً، وكذلك كان المهدي، فكانوا يخلون بالمهدي ليلاً فيقولون: هو على أن يصبح فيثور بيعقوب؛ فإذا أصبح غداً عليه يعقوب وقد بلغه الخبر، فإذا نظر إليه تبسم، فيقول: إن عندك خيراً! فيقول: نعم، فيقول: أقعد بجيأتي فحدثني، فيقول: خلوت بجاريتي البارحة، فقالت وقلت، فيصنع لذلك حديثاً، فيحدث المهدي بمثل ذلك، ويفترقان على الرضا، فيبلغ ذلك من يسعى على يعقوب، فيتعجب منه.

قال: وقال لي الموصلي: قال يعقوب بن داود للمهدي في أمر أراده: هذا والله السرف، فقال: ويلك! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف! ويترك يا يعقوب، لولا السرف لم يعرف المكثرون من المقترين!

وقال عليّ بن يعقوب بن داود عن أبيه، قال: بعث إلى المهدي يوماً، فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مؤرد متناه في السرور^(١) على بستان فيه شجر، ورعوس^(٢) الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى

٥١١/٣

ذلك الشجر بالأوراد^(١) والأزهار من الخوخ والتفاح ، فكلّ ذلك مورد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه ، فما رأيت شيئاً أحسن منه ؛ وإذا عنده جارية مارأيتُ أحسنَ منها ، ولا أشطَّ قَتَومًا ، ولا أحسنَ اعتدالاً ، عايتها نحو تلك الثياب ، فما رأيتُ أحسن من جملة ذلك . فقال لى : يا يعقوب ، كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قلت : على غاية الحسن ، فتع الله أمير المؤمنين به ، وهنأه إياه ، فقال : هو لك ، احمله بما فيه وهذه الجارية^(٢) ليتمّ سرورك به . قال : فدعوت له بما يجب^(٣) . قال : ثم قال : يا يعقوب ، ولى إليك حاجة ، قال : فوثبت قائماً ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، ما هذا إلا من مودة^(٤) ، وأنا أستعيز بالله من سخط أمير المؤمنين ! قال : لا ، ولكن أحبّ أن تضمن لى قضاء هذه الحاجة فلانى لم أسألكها من حيث تنوهم ، وإنما قلت ذلك على الحقيقة ، فأحبّ أن تضمن لى هذه الحاجة وأن تقضيها لى ، فقلت : الأمر لأمر المؤمنين وعلى السمع والطاعة ، قال : — والله — قلت والله ثلاثاً — قال : وحياة رأسى ! قلت : وحياة رأسك ، قال : فضع يدك عليه واحلف به ، قال : فوضعت يدى عليه ، وحلفت له به لأعملنّ بما قال ، ولأقضى حاجته . قال : فلما استوثق منى فى نفسه ، قال : هذا فلان بن فلان ، من ولد على ، أحبّ أن تكفىتنى مؤونته ، وترىحنى منه ، وتعجلّ ذلك . قال : قلت : أفعل ، قال : فخذته إليك ، فحوّلته إلى ، وحوّلت الجارية وجميع ما كان فى البيت من فرش وغير ذلك ، وأمر لى معه بمائة ألف درهم .

٥١٢/٢

قال : فحملت ذلك جملة ، ومضيتُ به ، فلشدّة سرورى بالجارية صيرتها فى مجلس بنى وبينها ستر ، وبعثتُ إلى العلوى ، فأدخلته على نفسى ، وسألته عن حاله ، فأخبرنى بها ، ويجمّل منها ، وإذا هو ألب الناس وأحسنهم إبانة .

قال : وقال لى فى بعض ما يقول : ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمى ، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ! قال : قلت : لا والله ، فهل فيك خير ؟

(٢) س : « وخذه والجارية » .

(١) ج : « بالأنوار » .

(٤) ا : « لمودة » ، س : « بمودة » .

(٣) ا ، ج : « يجب » .

قال : إن فعلتَ خيراً شكرتُ ولكِ عندى دعاء واستغفار . قال : فقلت له
أى الطرق أحبُّ إليك ؟ قال : طريق كذا وكذا ، قلتُ : فَمَنْ هناك ممن
تأنس به وتتق بموضعه ؟ قال : فلان وفلان ، قلتُ : فابعث إليهما ، وخُذْ
هذا المال ، وامض معهما مصاحباً فى سِرِّ الله ، وموعدك وموعدهما للخروج
من دارى إلى موضع كذا وكذا - الذى اتفقوا عليه - فى وقت كذا وكذا من
الليل ؛ وإذا الجارية قد حفظت على قولى ؛ فبعثتُ به مع خادم لها إلى المهديّ ،
وقالت : هذا جزاؤك من الذى آثرته على نفسك ؛ صنع وفعل كذا وكذا ؛
حتى ساقَت الحديث كله . قال : وبعث المهديّ من وقته ذلك ، فشحن تلك
الطرق والمواضع التى وصفها يعقوب والعلوى برجاله ، فلم يلبث أن جاءوه بالعلوى
بعينه وصاحبيه والمال ، على السجية التى حكمتها الجارية . قال : وأصبحتُ من
غد ذلك اليوم ، فإذا رسولُ المهديّ يستحضرنى - قال : وكنتُ خالى الذرع
غيرُ ملقٍ إلى أمر العلوى بالآ^(١) حتى أدخل على المهديّ ، وأجده على كرسى
بيده مخرصة - فقال : يا يعقوب ، ما حال الرجل ؟ قلتُ : يا أمير المؤمنين ،
قد أراحك الله منه ، قال : مات ؟ قلتُ : نعم ، قال : والله ، ثم قال : قم فضع
يدك على رأسى ؛ قال : فوضعت يدى على رأسه ، وحلفتُ له به . قال :
فقال : يا غلام ، أخرج إلينا ما فى هذا البيت^(٢) ، قال : ففتح بابَه عن العلوى
وصاحبيه والمال بعينه . قال : فبقيت متحيراً ، وسقط^(٣) فى يدى ، وامتنع
منى الكلام ، فما أدرى ما أقول ! قال : فقال المهديّ : لقد حلّ لى دمك
لو آثرت إراقتَه ، ولكن احبسوه فى المطبق ؛ ولا أذكّر به ، فحبستُ فى المطبق ،
واتخذ لى فيه برّاً فدلّيتُ فيها ، فكنت كذلك أطولَ مدّة لا أعرف عدد
الأيام^(٤) وأصبحتُ ببصرى ، وطال شعرى ؛ حتى استرسل كهيفة شعور البهائم .
قال : فإنى لكذلك ، إذ دُعيتُ بنى فَنُضِيَّ بنى إلى حيث لا أعلم أين هو ، فلم
أعدُ أن قيل لى : سلّم على أمير المؤمنين ، فسلمت ، فقال : أى أمير المؤمنين
أنا ؟ قلتُ : المهديّ ، قال : رحم الله المهديّ ، قلتُ : فالهادى ؟ قال :
رحم الله الهادى ، قلتُ : فالرشيد ؟ قال : نعم ؛ قلتُ : ما أشكُ فى وقوف^(٥)

(١) كذا فى م . (٢) ج : « من فى هذا البيت » . (٣) ج : « وأسقط » .

(٤) أ : « طول مدّة لا أعددّها » . (٥) أ : « وقوف » .

أمير المؤمنين على خبري وعلّتي وما تناهتُ إليه حالي ، قال : أجل ، كلُّ ذلك عندي قد عرف أمير المؤمنين ، فسأل حاجتك ، قال : قلت : المقام بمكة ، قال : نفعل ذلك ، فهل غير هذا ؟ قال : قلت : ما بقي فيّ مستمتع لشيء ولا بلاغ ، قال : فراشداً . قال : فخرجتُ فكان وجهي إلى مكة . قال ابنه : ولم يزل بمكة فلم تطل أيامه بها حتى مات .

٥١٤/٣

قال محمد بن عبد الله : قال لي أبي : قال يعقوب بن داود : وكان المهديّ لا يشرب النبيذ إلاّ تحرّجاً^(١) ؛ ولكنه كان لا يشتهيهِ ؛ وكان أصحابه : عمر بن بزيع والمعلّي مولاة والمفضل ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم ، قال : وكنت أعِظُهُ في سقْيهِم النبيذ وفي السماع ، وأقول : إنه ليس على هذا استوزرتني ولا علّني هذا صحبتك ؛ أبعد الصلوات الخمس^(٢) في المسجد الجامع ، يُشرب عنده النبيذ وتسمع السماع ! قال : فكان يقول : قد سمع عبدُ الله بن جعفر ، قال : قلت : ليس هذا من حسناته ؛ لو أنّ رجلاً سمع في كلِّ يوم كان ذلك يزيده قرّة من الله أو بعداً !

وقال محمد بن عبد الله : حدّثني أبي ، قال : كان أبي يعقوب بن داود قد ألحّ على المهديّ في حَسَمِهِ عن السماع وإسقاؤه النبيذ حتى ضيقَ عليه ؛ وكان يعقوب قد ضجّر بموضعه ، فتأب إلى الله مما هو فيه ؛ واستقبل وقدّم النّية في تركه موضعه . قال : فكنت أقول للمهديّ : يا أمير المؤمنين ؛ والله لشربةُ خمر أشربها أتوب إلى الله منها أحبّ إليّ مما أنا فيه ؛ وإنّي لأركب إليك فأتعني يداً خاطئة تصيبني في الطريق ، فأعفي وولّ غيري منّ شئت ؛ فإنّي أحبّ أن أسلمّ عليك أنا وولدي ؛ والله إنّي لأنفزع في النوم ؛ ولتيتني أمور المسلمين^(٣) وإعطاء الجند ، وليس دنياك عوضاً من آخرتي . قال : فكان يقول لي : اللهم غفرّاً ! اللهم أصلح قلبه ، قال : فقال شاعر له :

فَدَعْ عَنْكَ يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ جَانِباً وَأَقْبِلْ عَلَى صَهْبَاءِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

(١) كذا في أ ، س ، وفي ط : « لا تحرّجاً » .

(٢) س : « صلاة الخمس » ، ابن الأثير : « بعد الصلوات الخمس » .

(٣) ج : « الناس » .

قال عبد الله بن عمر : وحدّثني جعفر بن أحمد بن زيد العلوي ، قال : قال ابن سلام : وهب المهديّ لبعض ولد يعقوب بن داود جاريةً ، وكان يَضَعُفُ^(١) قال : فلمّا كان بعد أيام ، سأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما رأيْتُ مثلها ، ما وضعتُ بيني وبين الأرض مطيّةً أوطأ منها حاشا سامع . فالتفت المهديّ إلى يعقوب ، فقال له : من تراه يَعرُنِي ؟ يعنيني أو يعنيك ؟ فقال له يعقوب : من كلّ شيء تحفظ الأحمقَ إلا من نفسه .

وقال عليّ بن محمد النوفليّ : حدّثني أبي ، قال : كان يعقوب بن داود يدخلُ على المهديّ فيخلو به ليلاً يحادثه ويسامره ؛ فبينما هو ليلةً عنده ؛ وقد ذهب من الليل أكثرُهُ ، خرج يعقوب من عنده ، وعليه طيلسان مصبوغ هاشميّ ؛ وهو الأزرق الخفيف ؛ وكان الطيلسان قد دقّ دقّاً شديداً فهو يتقعقع^(٢) ، وغلام أخذ بعنان دابةٍ له شهباء^(٣) ، وقد نام الغلام ، فذهب يعقوب يسوّى طيلسانه فتقعقع ، فنفر البرذونُ ، ودنا منه يعقوب ، فاستدبره فضر به ضربة على ساقه فكسرها ، وسمع المهديّ الوجبةَ ، فخرج حافياً ؛ فلما رأى ما به أظهر الجزع والفتزع ، ثم أمر به فحمِلَ في كرسيٍّ إلى منزله ، ثم غدا عليه المهديّ مع الفجر ؛ وبلغ ذلك الناس ، فغدوا عليه ، فعاده أياماً ثلاثة متتابعة ، ثم قعد عن عيادته^(٤) ، وأقبل يرسل^(٥) إليه يسأله عن حاله ؛ فلما فقد وجهه ، تمكن السعاة من المهديّ ، فلم تأتِ عليه عاشرة حتى أظهر السخط عليه ، فتركه في منزله يعالج ، ونادى في أصحابه : لا يوجد أحدٌ عليه طيلسان يعقوبيّ ، وقلنسوة يعقوبية إلا أخذت ثيابه . ثم أمر ببيع يعقوب فحبس في سجن نصر .

قال النوفليّ : وأمر المهديّ بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشّرق والغرب ، وأمر أن يؤخذ أهلُ بيته ، وأن يُحبَسُوا ففعل ذلك بهم . وقال عليّ بن محمد : لما حبس يعقوب بن داود وأهل بيته ، وتفرّق عماله

(١) ج : « لضعف » . أ : « يضعف » . (٢) يتقعقع ، أى يحدث صوتاً .

(٣) ج : « أشهب » .

(٤) ج : « عادته » .

(٥) ج : « وارسل » .

واختفوا وتشرّدوا ، أذكّر المهديّ قصّته وقصة إسحاق بن الفضل ، فأرسل إلى إسحاق ليلا وإلى يعقوب ، فأتى به من محبسه ، فقال : ألم تخبرني بأنّ هذا وأهل بيته يزعمون أنّهم أحقّ بالخلافة منا أهل البيت ؛ وأنّ لهم الكبر علينا ! فقال له يعقوب : ما قلت لك هذا قطّ ، قال : وتكذّبن وتردّ عليّ قولي ! ثم دعا له بالسّيّاط فضرّبه اثني عشر سوطاً ضرباً مبرحاً ، وأمر به فردّ إلى الحبس .

قال : وأقبل إسحاق يحلف أنّه لم يقبل هذا قطّ ، وأنّه ليس من شأنه . وقال فيما يقول : وكيف أقول هذا يا أمير المؤمنين ، وقد مات جدّي في الجاهليّة وأبوك الباقي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووارثه ! فقال : أخرجوه ، فلما كان من الغد دعا بيعقوب ، فعاوده الكلام الذي كلمه في ليلته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل عليّ حتّى أذكرك ، أتذكر وأنت في طارمة^(١) على النهر ؛ وأنت في البستان وأنا عندك ؛ إذ دخل أبو الوزير — قال عليّ : وكان أبو الوزير حنّ يعقوب بن داود على ابنة صالح بن داود — فخبّرك هذا الخبر عن إسحاق ؟ قال : صدقت يا يعقوب ، قد ذكرت ذلك ، فاستحى المهديّ ، واعتذر إليه من ضربه ، ثم رده إلى الحبس ، فكثّ محبوساً أيام المهديّ وأيام موسى كلّها حتّى أخرجه الرّشيد بميله كان إليه في حياة أبيه .

٥١٧/٣

* * *

وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان ، وجعل على قضائه أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم .

وفيها تحوّل المهديّ إلى عيساباذ فنزلها ، وهي قصر السلامة ، ونزل الناس بها معه ، وضرب بها الدنانير والدراهم .

وفيها أمر المهديّ بإقامة البريد بين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مكة واليمن ؛ بغالاً وإبلا ؛ ولم يقيم هنالك بريد قبل ذلك .

وفيها اضطربت خراسان على المسّيب بن زهير ، فولّاهما الفضل بن سليمان

(١) الطارمة : بيت من خشب كالقبة ، وهو دخيل أعجمي معرب .

الطوسيّ أبا العباس ، وضمّ إليه معها سجستان ، فاستخلف على سجستان
تميم بن سعيد بن دعلج بأمر المهديّ .

وفيهما أخذ داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد
ابن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور في الزندقة ، فأقروا ، فاستتابهم المهديّ
وخلّى سبيلهم ، وبعث بداود بن روح إلى أبيه روح ؛ وهو يومئذ بالبصرة
عاملا عليها ، فنّ عليه ، وأمره بتأديبه .

وفيهما قدم الوضّاح الشروىّ بعبد الله بن أبي عبيد الله الوزير — وهو معاوية
ابن عبيد الله الأشعريّ من أهل الشام — وكان الذي يسعى به ابن شبّابة وقد
رُمي بالزندقة . وقد ذكرنا أمره ومقتله قبل .

وفيهما ولّى إبراهيم بن يحيى بن محمد على المدينة ؛ مدينة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وعلى الطائف ومكة عبيد الله بن قُثم .

وفيهما عزل منصور بن يزيد بن منصور عن اليمّين ، واستعمل مكانه
عبد الله بن سليمان الرّبّعيّ .

وفيهما خلّى المهديّ عبد الصمد بن عليّ من حبسه الذي كان فيه .

٥١٨/٣

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد .

وكان عامل الكوفة في هذه السنة على الصلاة وأحداثها هاشم بن سعيد ، وعلى
صلاة البصرة وأحداثها روح بن حاتم ، وعلى قضائها خالد بن طايق ، وعلى
كوردجلة وكسكر وأعمال البصرة والبحرين وكور الأهواز وفارس وكرمان
المعلّى مولى أمير المؤمنين ، وعلى خراسان وسجستان الفضل بن سليمان الطوسيّ ،
وعلى مصر إبراهيم بن صالح ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم ، وعلى طبرستان
والرويان وجرجان يحيى الحرشيّ . وعلى دنباوند وقوميس فراشة مولى المهديّ ،
وعلى الرّيّ سعد مولى أمير المؤمنين .

ولم يكن في هذه السنة صائفة ؛ للهدنة التي كانت فيها .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من توجيه المهديّ ابنه موسى في جمّع كثيف من الجنّ، وجهاز لم يُجهز - فيما ذكر - أحد بمثله، إلى جرجان لحرب ونداهرمز وشروين صاحبي طبرستان، وجعل المهديّ حين جهز موسى إليها أبان بن صدقة على رسائله، ومحمد بن جميل على جنده، ونُفِيعًا مولى المنصور على حجابته، وعلى بن عيسى بن ماهان على حرسه، وعبد الله بن خازم^(١) على شُرطه؛ فوجه موسى الجنود إلى ونداهرمز وشروين، وأمر عليهم يزيد بن مزيّد، فحاصرهما.

٥١٩/٣

وفيها توفّي عيسى بن موسى بالكوفة، وولى الكوفة يومئذ روح بن حاتم، فأشهد روح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الوجوه، ثم دُفن. وقيل إن عيسى بن موسى توفّي وروح على الكوفة، لثلاث بقين من ذى الحجة، فحضر روح جنازته، فقبل له: تقدّم فأنت الأمير، فقال: ما كان الله ليّرى روحا يصلّي على عيسى بن موسى؛ فليقدّم أكبر ولده، فأبوا عليه وأبى عليهم، فتقدم العباس بن عيسى، فصلّي على أبيه. وبلغ ذلك المهديّ، فغضب على روح، وكتب إليه:

قد بلغني ما كان من نكوصك عن الصلّاة على عيسى؛ أب نفسك، أم بأبيك، أم بجدك كنت تصلّي عليه! أوليس إنما ذلك مقامى لو حضرت. فإذا غبت كنت أنت أولى به لموضعك من السلطان!

وأمر بمحاسبته؛ وكان يلي الخراج مع الصلّاة والأحداث. وتوفّي عيسى والمهديّ واجداً عليه وعلى ولده؛ وكان يكره التقدّم عليه لجلالته.

(١) ط «خازم»، وهو خطأ، صوابه من أ.

وفيها جدّ المهديّ في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولّي أمرهم عمر الكلواذّي ، فأخذ يزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقر - فيما ذكر - فحبس ، فهرب من الحبس ، فلم يقدّر عليه .

وفيها عزل المهديّ أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل ، وولّاه الربيع الحاجب ، فاستخلف عليه سعيد بن واقد ؛ وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته .

وفيها فشا الموت ، وسعال شديد ووباء شديد ببغداد والبصرة .

وفيها توفّي أبان بن صدقة بجرجان ، وهو كاتب موسى على رسائله ، فوجّه المهديّ مكانه أبا خالد الأحول يزيد خليفة أبي عبيد الله .

وفيها أمر المهديّ بالزيادة في المسجد الحرام ؛ فدخلت فيه دور كثيرة . وولّي بناء ما زيد فيه يقطين بن موسى ، فكان في بنائه إلى أن توفّي المهديّ . وفيها عزل يحيى الحرشيّ عن طبرستان والرؤيان ؛ وما كان إليه من تلك الناحية ، وولّيتها عمر بن الغلاء ، وولّي جرجان فرّاشة مولى المهديّ ، وعزل عنها ^(١) يحيى الحرشيّ .

وفيها أظلمت الدنيا لليالّ بقين من ذى الحجة ، حتى تعالى النهار . ولم يكن فيها صائفة ، للهدنة التي كانت بين المسلمين والروم .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد وهو على المدينة ، ثم توفّي بعد فراغه من الحجّ وقدمه المدينة بأيام ، وولّي مكانه إسحاق بن عيسى ابن عليّ .

وفيها طعن عقبة بن سلم الهنائيّ بعيساباذ ، وهو في دار عمر بن بزيع ؛ اغتاله رجل ، فطعنه بخنجر ، فأت فيها .

* * *

وكان العامل على مكة والطائف فيها عبيد الله بن قُثَيم ، وعلى اليمن سليمان بن يزيد الحارثي ، وعلى اليمامة عبد الله بن مُصعب الزُّبيري ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها رَوْح بن حاتم ، وعلى صلاة البصرة وأحداثها محمد بن سليمان ، وعلى قضائها عمر بن عثمان التيمي ، وعلى كور دجلة وكُسْكِر وأعمال البصرة والبحرين وعمان وكُور الأهواز وفارس وكَرَمَان الملعني مولى المهدي .

وعلى خراسان وسجستان الفضل بن سليمان الطوسي .

وعلى مصر موسى بن مصعب . وعلى إفريقية يزيد بن حاتم .

وعلى طبرستان والرويان عمر بن العلاء ، وعلى جرجان ودنباوند وقوميس

فراشة مولى المهدي ، وعلى الرّي سعد مولى أمير المؤمنين .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من نقض الروم الصلح الذي كان جرى بينهم وبين هارون بن المهدي الذي ذكرناه قبل وغدرهم ؛ وذلك في شهر رمضان من هذه السنة ؛ فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم به اثنان وثلاثون شهراً ؛ فوجه علي بن سليمان وهو يومئذ على الجزيرة وقتسرين يزيد بن بدر بن البطال في سرية^(١) إلى الروم فغنموا وظفروا .

وفيهما وجه^(٢) المهدي سعيداً الحرشي إلى طبرستان في أربعين ألف رجل .

وفيهما مات عمر الكلواذي صاحب الزنادقة ، ولحقه مكانه حمدويه ، وهو محمد بن عيسى من أهل ميسان .

وفيهما قتل المهدي الزنادقة ببغداد .

وفيهما رد المهدي ديوانه وديوان أهل بيته إلى المدينة ونقله من دمشق إليها .

وفيهما خرج المهدي إلى نهر الصلة أسفل واسط - وإنما سمي نهر الصلة فيما ذكر لأنه أراد أن يقطع أهل بيته وغيرهم غلته ؛ يصلهم بذلك .

وفيهما ولحق المهدي علي بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن بزيع .

وذكر أحمد بن موسى بن حمزة ، عن أبيه ، قال : أول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع في خلافة المهدي ؛ وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر ؛ فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ؛ فاتخذ دواوين الأزمة ، ولحق كل ديوان رجلاً ، فكان واليه على زمام ديوان الحراج إسماعيل ابن صبيح ؛ ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة .

* * *

وحج بالناس في هذه السنة علي بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ربيعة .

(١) في القاموس : « السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة » ، وفي س : « في خيل » .

(٢) ج : « أوفد » .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

* * *

[ذكر الخبر عن خروج المهديّ إلى ماسبّندان]

فمّا كان فيها من ذلك خروج المهديّ في المحرم إلى ما سبّندان .

* ذكر الخبر عن خروجه إليها :

٥٢٣/٣

ذكر أن المهديّ كان في آخر أمره قد عزم على تقديم هارون ابنه على ابنه موسى الهادي ، وبعث إليه وهو بجرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ، ويقدم الرّشيد فلم يفعل ، فبعث إليه المهديّ بعض الموالى ، فامتنع عليه موسى من القدوم ، وضرب الرّسول ، فخرج المهديّ بسبب موسى وهو يريد به بجرجان فأصابه ما أصابه .

وذكر الباهليّ أن أبا شاکر أخبره - وكان من كتّاب المهديّ على بعض دواوينه - قال : سألت عليّ بن يقطين المهديّ أن يتغدّى عنده ، فوعده أن يفعل ، ثم اعتزم على إتيان ما سبّندان ؛ فوالله لقد أمر بالرحيل كأنه يُساق إليها سوقاً ، فقال له عليّ : يا أمير المؤمنين ؛ إنك قد وعدتني أن تتغدّى عندي غدّاً ، قال : فاحمل غداءك إلى النّهروان . قال : فحمله فتغدّى بالنّهروان ، ثم انطلق . وفيها توفّي المهديّ .

* * *

[ذكر الخبر عن موت المهديّ]

* ذكر الخبر عن سبب وفاته :

اختلف في ذلك ، فذكر عن واضح قهّрман المهديّ ، قال : خرج المهديّ يتصيّد بقرية يقال لها الرّوذ بماسبّندان ، فلم أزل معه إلى بعد العصر ،

وانصرفت إلى مضرى - وكان بعيداً من مضره - فلما كان في السَّحَر الأكبر ركبت لإقامة الوظائف ، فإنى لأسير في برية ، وقد انفردت عمن كان معى من غلمانى وأصحابى ؛ إذ لقينى أسود عريان على قَتَد^(١) رَحْل ، فدنا منى ؛ ثم قال لى : أبا سهل ، عظم الله أجرك فى مولاك أمير المؤمنين ! فهمت أن أعلّوه بالسَّوْط ، فغاب من بين يدى ؛ فلما انتهيت إلى الرِّوْاق لقينى مسرور ، فقال لى : أبا سهل ، عظم الله أجرك فى مولاك أمير المؤمنين ! فدخلت فإذا أنا به مسجىً فى قبّة ، فقلت : فارقتكم بعد صلاة العصر ؛ وهو أسرّ ما كان حالاً وأصحّه بدنًا ، فما كان الخبر ؟ قال : طردت الكلابُ ظلياً ، فلم يزل يتبعها ، فاقتحم الطَّيِّبُ باب خربة ، فاقتحمت الكلاب خلفه ، واقتحم القرس خلف الكلاب ، فدُقَّ ظهره فى باب الخربة ، فمات من ساعته .

٥٢٤/٣

وذكر أن على بن أبى نعيم المروزى ، قال : بعثت جارية من جوارى المهديّ إلى ضرة لها باليساء^(٢) فيه سمّ ؛ وهو قاعد فى البستان ، بعد خروجه من عيساباذ ، فدعا به فأكل منه ، ففرقت الجارية أن تقول له : إنه مسموم .

وحدثنى أحمد بن محمد الرازى ، أن المهديّ كان جالساً فى عُلْبِيّة فى قصر بماسبَندان ، يشرف من منظره فيها على سفله ، وكانت جاريته حسنة ، قد عمدت إلى كُمُثْرَتَيْنِ كبيرَتَيْنِ^(٣) ، فجعلتهما فى صينيّة ، وسمّت واحدة منهما وهى أحسنهما وأنضجهما فى أسفلها ، وردّت القِمَيعَ فيها ، ووضعتها فى أعلى الصينيّة - وكان المهديّ يعجبه الكُمُثْرَى - وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهديّ - وكان يتحفظها - تريد بذلك قتلها ، ففرت الوصيفة بالصينيّة التى فيها تلك الكُمُثْرَى ، تريد دفعها إلى الجارية التى أرسلتها حسنة إليها ، بحيث يراها المهديّ من المنظره ، فلما رآها ورأى معها الكُمُثْرَى ؛ دعا بها ، فدّ يده إلى الكُمُثْرَةِ التى فى أعلى الصينيّة وهى المسمومة ، فأكلها ، فلما وصلت إلى جوفه صرخ : جوفى ! وسمعت حسنة الصوت ، وأخبرت الخبر ، فجاءت

٥٢٥/٣

(١) القَتَد : من أدوات الرحل .

(٢) : ١ : « إلى كُمُثْرَى كثير » .

(٣) اللبأ : أول اللبن .

تَلَطَّمُ وَجْهَهَا^(١) وَتَبْكِي ، وَتَقُولُ : أَرَدْتُ أَنْ أَنْفِرْدَ بِكَ ، فَقَتَلْتُكَ يَا سَيِّدِي ! فَهَلْكَ مِنْ يَوْمِهِ .

وذكر عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب ، قال : لما صرنا إلى ماسِيبَئِدَانِ دَنَوْتُ إِلَى عَنَانِهِ ، فَأَمْسَكَتْ بِهِ^(٢) وَمَا بِهِ عِلَّةٌ ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ إِلَّا مَيِّتًا ، فَرَأَيْتُ حَسَنَةً وَقَدْ رَجَعَتْ ؛ وَإِنْ عَلَى قُبَّتِهَا الْمَسُوحُ ، فَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي ذَلِكَ :

رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحُ نَ عَلَيْهِنَ الْمُسُوحُ^(٣)
 كُلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَهْ يَوْمٌ نَطُوحُ^(٤)
 لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عُمِّرْتُ مَا عُمِرَ نُوحُ
 فَعَلَى نَفْسِكَ نُحْ إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ تَنُوحُ

وذكر صالح القارئ أن عليَّ بن يقطين ، قال : كُنَّا مَعَ الْمَهْدِيِّ بِمَاسِيبَئِدَانِ فَأَصْبَحَ يَوْمًا فَقَالَ : إِنِّي أَصْبَحْتُ جَائِعًا ، فَأَتَيْتُ بِأَرْغِفَةٍ وَلَحْمٍ بَارِدٍ مَطْبُوخٍ بِالْخَلِّ ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ : إِنِّي دَاخِلٌ إِلَى الْبَهْوِ وَنَأْمٌ فِيهِ ، فَلَا تَنْبَهُونِي حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّذِي أَنْتَبِهَ ، وَدَخَلَ الْبَهْوُ فَنَامَ ، وَنَمْنَا نَحْنُ فِي الدَّارِ فِي الرَّوَّاقِ ؛ فَانْتَبَهْنَا بِبِكَائِهِ ؛ فَقَمْنَا إِلَيْهِ مُسْرِعِينَ ، فَقَالَ : أَمَا رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ ؟ قُلْنَا : مَا رَأَيْنَا شَيْئًا ، قَالَ : وَقَفَ عَلَى الْبَابِ رَجُلٌ ، لَوْ كَانَ فِي أَلْفٍ أَوْ فِي مِائَةِ أَلْفٍ رَجُلٌ مَا خَفِيَ عَلَىَّ ، فَأَنْشُدْ يَقُولُ^(٥) :

كَأَنِّي هَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ آهْلُهُ وَأَوْحَشَ مِنْهُ رِبْعُهُ وَمَنَازِلُهُ^(٦)
 وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ وَمُلْكٍ إِلَى قَبْرِ عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُهُ وَحَدِيثُهُ تُنَادِي عَلَيْهِ مَعُولَاتٌ حَلَالِلُهُ

٥٢٦/٣

(٢) ج : « فَأَمْسَكَتْهُ » .

(١) س : « تَلَطَّمُ عَلَى وَجْهَهَا » .

(٣) الْأَغْنَى ٤ : ١٠٣ .

(٤) مَوْضِعُهُ فِي رِوَايَةِ الْأَغْنَى :

نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْ كَيْنُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ

(٥) س : « فَأَنْشَأَ » ؛ ابْنُ الْأَثِيرِ : « وَقَفَ عَلَى الْبَابِ رَجُلٌ فَقَالَ » .

(٦) ج : « مَنَازِلُهُ » .

قال : فما أتت عليه عشرة حتى مات .

وكانت وفاته — فيما قال أبو معشر والواقديّ — في سنة تسع وستين ومائة ، ليلة الخميس لثمان بقيّين من المحرم ؛ وكانت خلافته عشر سنين وشهراً ونصف شهر .

وقال بعضهم : كانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يوماً ؛ وتوفّي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة .

وقال هشام بن محمد : ملّاك أبو عبد الله المهديّ محمد بن عبد الله سنة ثمان وخمسين ومائة ، في ذى الحجة لست ليالٍ خلون منه ؛ فلك عشر سنين وشهراً واثنين وعشرين يوماً ، ثم توفّي سنة تسع وستين ومائة ، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة .

* * *

ذكر الخبر عن الموضع الذي دفن فيه ومنّ صلى عليه

ذكر أن المهديّ توفّي بقرية من قرى ماسبّدان ، يقال لها الرّذ ؛ وفي ذلك يقول بكّار بن ربّاح :

أَلَا رَحْمَةُ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ عَلَى رَمَّةٍ رَمَّتْ بِمَاسَبْدَانَ
لَقَدْ غَيَّبَ الْقَبْرُ الَّذِي تَمَّ سُودْدَا وَكَفَّيْنِ بِالْمَعْرُوفِ تَبْتَدِرَانِ

وصلّي عليه ابنه هارون ؛ ولم توجد له جنازة يُحمّل عليها ، فحمّل على باب ، ودفن تحت شجرة جَمُوز كان يجلس تحتها .

وكان طويلاً مُضْمَر الخلق ، جَعْدًا . واختلف في لونه ، فقال بعضهم : كان أسمر ، وقال بعضهم : كان أبيض .

٥٢٧/٣

وكان في عينه اليمنى — في قول بعضهم — نكّبة بياض . وقال بعضهم : كان ذلك بعينه اليسرى .
وكان وُلد بإيذَج .

ذكر بعض سير المهدي وأخباره

ذكر عن هارون بن أبي عبيد الله ، قال : كان المهدي إذا جلس للمظالم ، قال : أدخلوا عليّ القضاة ؛ فلولم يكن ردّي للمظالم إلا للحياء منهم لسكتي .

وذكر الحسن بن أبي سعيد ، قال : حدثني عليّ بن صالح ، قال : جلس المهدي ذات يوم يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصته ^(١) من أهل بيته والقواد ؛ وكان يقرأ عليه الأسماء ، فيأمر بالزيادة ؛ العشرة الآلاف والعشرين الألف ، وما أشبه ذلك ، فعرض عليه بعض القواد ، فقال : ^(٢) يُحِطُ هذا خمسمائة ، قال : لم حططتني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنني وجهتُك إلى عدو لنا فانهزمت . قال : كان يسرك أن أقتل ؟ قال : لا ، قال : فوالذي أكرمك بما أكرمك به من الخلافة لو ثببت لقتلت ، فاستحيا المهدي منه ، وقال : زده خمسة آلاف .

قال الحسن : وحدثني عليّ بن صالح ، قال : غضب المهدي على بعض القواد - وكان عتّب عليه غير مرة - فقال له : إلى متى تذهب إلى وأعفو ؟ قال : إلى أبد ^(٣) نسيء ، ويبقيك الله فتعفوعنا ؛ فكررها ^(٤) عليه مرات ، فاستحيا منه ورضى عنه ^(٥) .

٥٢٨/٣

وذكر محمد بن عمر ، عن حفص مولى مُزينة ، عن أبيه ، قال : كان هشام الكابي صديقاً لي ، فكنا نتلاقى فنحدث ونتناشد ؛ فكنت أراه في حال رثة وفي أخلاق ^(٦) على بغلة هزيل ^(٧) ، والضّر فيه بين وعلى بغلته ؛ فراعني إلا وقد لقيني يوماً على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وسرّج ولحام من سروج الخلافة ولُجُمها ، في ثياب جياذ ورائحة طيبة ، فأظهرت السرور ، ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة ، قال لي : نعم ، أخبرك عنها ، فآتم ؛ فبينما

(١) س : « خاصه » . (٢) ج : « يحيط » .

(٣) س : « أبداً » . (٤) س : « يكررها » .

(٥) س : « ففعا عنه » . (٦) ثوب أخلاق : إذا كانت الخلقة بينة فيه كله .

(٧) هزيل ، على فميل مما يستوى فيه المذكر والمؤنث .

أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر؛ إذ أتاني رسول المهديّ فسرّ^(١) إليّ، ودخلت عليه وهو جالس خالٍ ليس عنده أحد؛ وبين يديه كتاب، فقال: ادنُ يا هشام، فدنوتُ فجلست بين يديه، فقال: خذ هذا الكتاب فاقرأه. ولا يمنعك^(٢) ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه. قال: فنظرت في الكتاب؛ فلما قرأت بعضه استفظعته، فألقيته من يدي^(٣)، ولعنت كاتبه، فقال لي: قد قلت لك: إن استفظعته فلا تُلقيه؛ أقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره^(٤)! قال: فقرأته فإذا كتاب قد ثلّبه فيه كتابه ثلثاً عجباً، لم يبق له فيه شيئاً، فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الملعون الكذاب؟ قال: هذا صاحب الأندلس، قال: قلت: فالثاب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وفي أمهاته. قال: ثم اندرأت^(٥) أذكر مثالبهم، قال: فسُـرّ بذلك، وقال: أقسمت عليك لما أمّلت مثالبهم كلها على كاتب. قال: ودعا بكاتب^(٦) من كتاب السرّ^(٧)، فأمره فجلس ناحية، وأمرني فصرت إليه، فصدر الكاتب من المهديّ جواباً، وأمّلت عليه مثالبهم فأكثر؛ فلم أبق شيئاً حتى فرغت من الكتاب، ثم عرضته عليه، فأظهر السرور، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فحُتِم، وجُعِل في خريطة، ودُفع إلى صاحب البريد، وأمر بتعجيله إلى الأندلس. قال: ثم دعا بمندبل فيه عشرة أثواب من جياذ الثياب وعشرة آلاف درهم، وهذه البغلة بسرجهما ولحامها، فأعطاني ذلك، وقال لي: اكتم ما سمعت.

قال الحسن: وحدّثني ميسور بن مساور، قال: ظلّمني وكيل للمهديّ^(٨)، وغصبتني ضيعةً لي، فأتيت سلاًماً صاحب المظالم، فتظلمت منه وأعطيته رقعة مكتوبة، فأوصل الرقعة إلى المهديّ، وعنده عمّه العباس بن محمد وابن علّالة وعافية القاضي. قال: فقال لي المهديّ: ادنّه، فدنوت، فقال: ما تقول؟ قلت: ظلّمتني، قال: فترضى بأحد هذين؟ قال: قلت: نعم،

(١) س: «فصرت» .

(٢) ج: «بين يدي» .

(٣) ج: «عليه» .

(٤) س: «كاتباً» .

(٥) س: «النثر» .

(٦) س: «وكيل المهديّ» .

قال : فادنُ مني ، فدنوت منه حتى التزقت بالفراش ، قال : تكلّم ، قلت : أصلح الله القاضي ! إنه ظلمني في ضيعتي هذا ، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتي وفي يدي ، قال : قلت : أصلح الله القاضي ! سلكه ؛ صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها ؟ قال : فسأله : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : صارت إليّ بعد الخلافة . قال : فأطلقها له ، قال : قد فعلت ، فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لئذا المجلس أحبّ إليّ من عشرين ألف ألف درهم .

قال : وحدّثني عبد الله بن الربيع ، قال : سمعتُ مجاهدًا الشاعر يقول :
خرج المهديّ متنزّهًا ، ومعه عمر بن بزيع موله ، قال : فانقطعنا عن العسكر ،
والناس في الصيد ، فأصاب المهديّ جوع ، فقال : ويحك ! هل من شيء ؟
قال : ما من شيء ، قال : أرى كوخًا وأظنّها مبقلة ، فقصدنا قصدَه ، فإذا
نَبَطِيّ في كوخ ومبقلة ، فسلمنا عليه ، فردّ السلام ، فقلنا له : هل عندك
شيء نأكل ؟ قال : نعم عندى رُبَيْثَاء^(١) وخبز شعير ، فقال المهديّ : إن
كان عندك زيت فقد أكملت ، قال : نعم ، قال : وكراث ؟ قال : نعم ،
ما شئت وتمر . قال : فعدا نحو المبقلة ، فأناهم ببقل وكُرّاث وبصل ،
فأكلا أكلا كثيرًا ، وشبعا ، فقال المهديّ لعمر بن بزيع : قل في هذا شعراً ،
فقال :

٥٣٠/٣

إِنَّ مَنْ يُطْعِمُ الرُّبَيْثَاءَ بِالزَّيْتِ وَخُبْزَ الشَّعِيرِ بِالْكُرَّاثِ
لِحَقِيقُ بِصَفْعَةٍ أَوْ بِشْنَتِيٍّ نِ لِسَوْءِ الصَّنِيعِ أَوْ بِثَلَاثِ
فقال المهديّ : بش ما قلت ، ليس هكذا ...

لِحَقِيقُ بِبَسْدَرَةٍ أَوْ بِشْنَتِيٍّ نِ لِحُسْنِ الصَّنِيعِ أَوْ بِثَلَاثِ
قال : ووافي العسكر والخزائن والخدم فأمر للنَّبَطِيّ بثلاث بيدر وانصرف .
وذكر محمد بن عبد الله . قال : أخبرني أبو غانم . قال : كان زيد

(١) في حاشية ط : « وهو نوع من الصحناء » ، وفي القاموس : « الصحناء والصحناء :
إدام يتخذ من السمك الصغار مشه مصلح للمعدة » .

الهلاليّ رجلاً شريفاً سخياً مشهوراً من بني هلال ؛ وكان نقشُ خاتمه :
«أفلح يا زيد من زكّا عمله» ، فبلغ ذلك المهديّ ، فقال زيد الهلاليّ :
زَيْدُ الْهَلَالِيّ نقش خاتمه أَفْلَحَ يا زيدُ من زكا عمله^(١)

قال : وقال الحسن الوصيف : أصابتنا ريح في أيام المهديّ حتى ظننا
أنها تسوقنا إلى الخُشَر ، فخرجتُ أطلب أميرَ المؤمنين ، فوجدته واضعاً خدّه
على الأرض ، يقول : اللهم احفظ محمداً في أمته ، اللهم لا تُشمت بنا
أعداءنا من الأمم ، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين
يديك ؛ قال : فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وانجلي ما كنا فيه .

وقال الموصلي : قال عبد الصمد بن عليّ : قلت للمهديّ : يا أمير المؤمنين ،
إنا أهل بيت قد أشرب قلوبنا حبّ موالينا وتقديهم ؛ وإنك قد صنعت
من ذلك ما أفرطت فيه ؛ قد وليتهم أمورك كلّها ، وخصصتهم في ليلك
ونهارك ، ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان ، قال :
يا أبا محمد ، إنّ الموالى يستحقّون ذلك ؛ وليس أحدٌ يجتمع لى فيه أن أجلس
للعمّة فأدعوه به فأرفعه حتى تحكّ ركبتُه ركبتي ، ثم يقوم من ذلك المجلس ،
فأستكفيه سياسةً دأبتي ، فيكفيها ، لا يرفع نفسه عن ذلك إلاّ موالى هؤلاء ،
فإنهم لا يتعاطمهم ذلك ؛ ولو أردت هذا من غيرهم لقال : ابن دولتك
والمتقدم في دعوتك ، وابن من سبق إلى بيعتك^(٢) ، لا أدفعه عن ذلك .

قال عليّ بن محمد : قال الفضل بن الربيع : قال المهديّ لعبد الله بن
مالك : صارخٌ مولاى هذا ، فصارعه ؛ فأخذ بعنقه^(٣) ، فقال المهديّ : شدّ ،
فأما رأى ذلك عبد الله أخذ برجله فسقط على رأسه فصرعه . فقال عبد الله
للمهديّ : يا أمير المؤمنين ، قمتُ من عندك وأنا أحبّ الناس إليك^(٤) ، فلم
تزرِكْ عليّ مع مولاك . قال : أما سمعت قول الشاعر^(٥) :

(١) ورد هذا البيت في ط مجزئاً على هيئة النثر ، وصوابه من ١ .
(٢-٢) كذا في ا و في ط : « أين وليك والمتقدم في دعوتك ، وابن من سبق إلى دعوتك » .
(٣) ج : « بمضله » .
(٤) ج : « عندك » .
(٥) ج : « أما سمعت للشاعر » .

وَمَوْلَاكَ لَا يُهْضَمُ لَدَيْكَ فَإِنَّمَا هَضِيمَةُ مَوْلَى الْقَوْمِ جَدُّعُ الْمَنَاخِرِ

قال أبو الخطاب: لما حضرت القاسم بن مجاشع التميمي - من أهل مَرَوَ بقرية يقال لها باران - الوفاة أوصى إلى المهدي ، فكتب : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴾ (١) ، إلى آخر الآية . ثم كتب : والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ، ويشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووارث الإمامة بعده . قال : فعرضت الوصية على المهدي ، فلما بلغ هذا الموضع رمى بها ولم ينظر فيها (٢) . قال أبو الخطاب : فلم يزل ذلك في قلب أبي عبيد الله الوزير ؛ فلما حضرته الوفاة كتب في وصيته هذه الآية .

قال : وقال الهيثم بن عدي : دخل على المهدي رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المنصور شتمني وقذف أمي ؛ فلما أمرتني أن أحلّه ؛ وإلاّ عوّضتني واستغفرت الله له . قال : ولم شتمك ؟ قال : شتمتُ عدوّه بحضرته ؛ فغضب ، قال : ومن عدوّه الذي غضب لشمته ؟ قال : إبراهيم بن عبد الله ابن حسن ، قال : إن إبراهيم أمسّ به رَحِمًا وأوجب عليه حقًا ، فإن كان شتمك كما زعمت ، فعن رَحِمِهِ ذُبَ ، وعن عِرْضِهِ دفع ؛ وما أساء من انتصر لابن عمه . قال : إنه كان عدوّاً (٣) له ، قال : فلم ينتصر للعداوة ؛ وإنما انتصر للرَّحِمِ ؛ فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليولّي ، قال : لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعة عندك أبْلَغَ من هذه الدعوى ! قال : نعم ، قال : فتبسّم وأمر (٤) له بخمسة آلاف درهم .

قال : وأتيت المهدي برجل قد تنبأ ، فلما رآه ، قال : أنت نبي ؟ قال : نعم ، قال : وإلى من بُعث ؟ قال : وتركتموني أذهب إلى من بعثت إليه !

(٢) س : « إليها » .

(٤) س : « ثم أمر » .

(١) سورة آل عمران ١٨ ، ١٩ .

(٣) ج : « علو الله » .

وُجِّهَتْ بِالْغَدَاةِ فَأَخَذَتْ مَوْنَى بِالْعَشِيِّ، وَوَضَعَتْ مَوْنَى فِي الْحَبْسِ ! قَالَ : فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ مِنْهُ ، وَخَلَى سَبِيلَهُ .

وذكر أبو الأشعث الكندي ، قال : حدثني سليمان بن عبد الله ، قال : قال الربيع : رأيت المهدي يصلي في بهو له في ليلة مُقَدَّمَةٍ ؛ فما أدرى أهو أحسن ، أم البهو ، أم القمر ، أم ثيابه ! قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(١) ، قال : فتمَّ صلاته والتفت إلى فقال : يا ربيع ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : عليّ بموسى ، وقام إلى صلاته ، قال : فقلت : من موسى ؟ ابنه موسى ، أو موسى بن جعفر ، وكان محبوساً عندي ! قال : فجعلت أفكر ، قال : فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر ، قال : فأحضرتة ، قال : فقطع صلاته ، وقال : يا موسى ، إني قرأت هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(١) ، فخشيت أن أكون قد قطعت رَحِمِيكَ ، فوثقتُ لى أنك لا تخرج عليّ . قال : فقال : نعم ، فوثقتُ له وخلاّه .

وذكر إبراهيم بن أبي عليّ ، قال : سمعت سليمان بن داود ، يقول : سمعت المهديّ يحدثنا ^(٢) في محراب المسجد على اللحن اليتيم ^(٣) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ^(٤) ، في سورة النساء .

٥٣٤/٣

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان ، قال : حدثني أبي ، قال : حضرت المهديّ وقد جلس للمظالم ، فتقدّم إليه رجل من آل الزبير ؛ فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعض مُلُوكِ بني أميّة ، ولا أدرى : الوليد ، أم سليمان ! فأمر أبا عبيد الله أن يخرج ذِكْرَهَا من الديوان العتيق ، ففعل ، فقرأ ذكراها على المهديّ ؛ وكان ذلك أنها عُرِضَتْ على عِدَّةٍ منهم لم يروا ردّها ؛ منهم عمر ابن عبد العزيز . فقال المهديّ : يا زبيرى ، هذا عمر بن عبد العزيز ؛ وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم يَرَّ ردّها . قال : وكلّ أفعال عمر تُرضى ؟

(١) سورة محمد ٢٤ . (٢) كذا في ١ ، وفي ط : « يحدثنا » .

(٣) كذا في ط ، وفي ١ : على لحن خدّاش اللحن اليتيم ، وفي ج : « لحن خدّاش اليتيم » ،

(٤) سورة النساء ٥١ .

وهو غير واضح .

قال : وأيّ أفعاله لا تُرضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط^(١) من بنى أمية في خيرِ قِه في الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بنى هاشم في ستين . قال : يا معاوية أكذلك كان يفعل عمر ؟ قال : نعم ؛ قال : اردُدْ على الزبيرى ضيعته .

وذكر عمر بن شبّة أن أبا سلمة الغفارىّ حدثه ، قال : كتب المهديّ إلى جعفر بن سليمان وهو عامل المدينة أن يحمل إليه جماعة اتهموا بالقدر ، فحمل إليه رجالا ؛ منهم عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، وعبد الله بن يزيد بن قيس الهذليّ ، وعيسى بن يزيد بن دأب الليثيّ ، وإبراهيم ابن محمد بن أبي بكر الأساميّ ؛ فأدخلوا على المهديّ ، فانبرى له عبد الله ابن أبي عبيدة من بينهم ؛ فقال : هذا دين أبيك ورأيه ؟ قال : لا ، ذاك عمى داود . قال : لا ، إلا أبوك ، على هذا فارقنا وبه كان يدين . فأطلقهم .

وذكر علىّ بن محمد بن سليمان النوفلىّ ، قال : حدثني أبي ، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، قال : رأيتُ فيما يرى النائم في آخر سلطان بني أمية ، كأنى دخلتُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفعت رأسى ، فنظرت في الكتاب الذى فى المسجد بالفسيفساء^(٢) فإذا فيه : ممّا أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ؛ وإذا قائل يقول : يمحّو هذا الكتاب ويكتب مكانه اسمه رجل من بنى هاشم يقال له محمد . قال : قلت : أنا محمد ، وأنا من بنى هاشم ؛ فابن منّ ؟ قال : ابن عبد الله ، قلت : فأنا ابن عبد الله ، فابن منّ ؟ قال : ابن محمد ، قلت : فأنا ابنُ محمد ، فابن منّ ؟ قال : ابن علىّ ، قلت : فأنا ابن علىّ ، فابن منّ ؟ قال : ابن عبد الله ، قلت : فأنا ابن عبد الله ؛ فابن منّ ؟ قال : عباس ؛ فلو لم أكن بلغت العباس ما شككت أنى صاحب الأمر . قال : فتحدثتُ بهذه الرؤيا فى ذلك الدهر ونحن لا نعرف المهديّ ؛ فتحدثتُ الناس بها حتى وليّ المهديّ ، فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع رأسه

٥٣٥/٣

(١) السقط : الولد لغير تمام .

(٢) كذا فى اوابن الأثير ، والفسيفساء : ألوان من الخرز تركب فى الحيطان .

فنظر فرأى اسم الوليد، فقال: وإني لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم، فدعا بكرسي فألقى له في صحن المسجد وقال: ما أنا ببارح حتى يُمحي ويكتب اسمي مكانه. وأمر أن يحضر العمّال والساالم وما يحتاج إليه، فلم يبرح حتى غير وكتب اسمه.

وذكر أحمد بن الهيثم القُرشي، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عطاء، قال: خرج المهدي بعد هداة من الليل يطوف بالبيت، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهي تقول: قومي مقترون، نبت عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتْهم السنون؛ بادت^(١) رجالهم، وذهبت أموالهم، وكثر عيالهم؛ أبناء سبيل، وأنضاء طريق؛ وصية الله ووصية الرسول؛ فهل من أمر^(٢) لي بخير، كلاًه الله في سفره، وخلفه في أهله! قال: فأمر نَصيراً الخادم، فدفع إليها خمسمائة درهم.

وذكر علي بن محمد بن سليمان، قال: سمعت أبي يقول: كان أول من افترش الطبري المهدي؛ وذلك أن أباه كان أمره بالمقام بالرّي، فأهدي إليه الطبري من طبرستان، فافترشه، وجعل الثلج والخلاف حوله؛ حتى فُتح لهم الخيش، فطاب لهم الطبري فيه.

وذكر محمد بن زياد، قال: قال المفضل: قال لي المهدي: اجمع لي الأمثال مما سمعتها من البدو، وما صحّ عندك. قال: فكتبت له الأمثال وحروب العرب مما كان فيها؛ فوصلني وأحسن إلي.

قال علي بن محمد: كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سمرة أراد الوثوب بالشأم، فحمل إلى المهدي فخلى سبيله وأكرمه، وقرب مجلسه. فقال له يوماً: أنشدني قصيدة زهير التي هي على الراء، وهي:

* لِمَنْ الدِّيارُ بِقَنَةِ الجِجَرِ^(٣) *

(٢) ج: «من أمر لي».

(١) س: «مات».

(٣) ديوانه ٨٦، وبقية:

* أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ *

فأنشده ، فقال السَّمُرِيُّ : ذهب والله من يقال فيه مثل هذا الشعر ؛ فغضب المهديّ واستجعله ، ونحاه ولم يعاقبه ، واستحمله الناس .

وذكر أن أبا عون عبد الملك بن يزيد مريض ، فعاده المهديّ ؛ فإذا منزل رث وبناء سوء ؛ وإذا طاق صُفَّتْهُ التي هو فيها لَسِين . قال : وإذا مضربة ^(١) ناعمة في مجلسه ، فجلس المهديّ على وسادة ، وجلس أبو عون بين يديه ، فبرّه المهديّ ، وتوجّع لعلته . وقال أبو عون : أرجو عافية الله يا أمير المؤمنين ؛ وألا يميتني على فراشي حتى أقتل في طاعتك ؛ وإني لوائق بالألا ^(٢) أموت حتى أبليّ الله في طاعتك ما هو أهله ؛ فإننا قد رؤينا . قال : فأظهر له المهديّ رأيا جميلا ، وقال : أوصني بحاجتك ، وسأنتي ما أردت ، واحتكم في حياتك ^(٣) ومماتك ؛ فوالله لئن عجز مالمك عن شيء توصي به لأحتملنه ^(٤) كائنا ما كان ؛ فقل وأوص . قال : فشكر أبو عون ودعا ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون ، وتدعوه به ، فقد طالت موجديتك عليه . قال : فقال : يا أبا عون ، إنه على غير الطريق ، وعلى خلاف رأينا ورأيك ؛ إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ، ويسىء القول فيهما . قال : فقال أبو عون : هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ، ودعونا إليه ؛ فإن كان قد بدا لكم فرؤنا بما أحببتم حتى نطيعكم . قال : وانصرف المهديّ ، فلما كان في الطريق قال لبعض من كان معه من ولده وأهله ^(٥) : مالكم لا تكونون مثل أبي عون ! والله ما كنت أظنُّ منزله إلا مبنيا بالذهب والفضة ؛ وأنتم إذا وجدتم درهما بنيتم بالساج والذهب .

وذكر أبو عبد الله ، قال : حدثني أبي ، قال : خطب المهديّ يوما ، فقال : عباد الله ؛ اتقوا الله ؛ فقام إليه رجل ، فقال : وأنت فاتق الله ؛ فإنك تعمل بغير الحق . قال : فأخذه فحُمل ، فجعلوا يتلقّونه بنعال سيوفهم ؛ فلما أدخل عليه قال : يابن الفاعلة ، تقول لي وأنا على المنبر : اتق الله ! قال : سوءة لك ! لو كان هذا من غيرك كنتُ المستعدي بك عليه ، قال : ما أراك

٥٣٧/٣

٥٣٨/٣

(٢) ج : « ألا » .

(٤) س : « لأحملنه » .

(١) المضربة : القطعة من القطن .

(٣) س : « حاجتك » .

(٥) س : « إخوته » .

إِلَّا نَبْطِيًّا^(١) ، قال : ذاك أوكد للحجة عليك أن يكون نَبْطِيٌّ بِأَمْرِكَ بِتَقْوَى
الله . قال : فرئى الرَّجُلَ بعد ذلك ؛ فكان يحدث بما جرى بينه وبين المهدي .
قال : فقال أبى : وأنا حاضره ، إلا أنى لم أسمع الكلام .

وقال هارون بن ميمون الخُزَاعِيّ : حدثنا أبو خزيمة البادغيسيّ ، قال :
قال المهديّ : ما توسّل إلىّ أحد بوسيلة ، ولا تذرّع بذريعة هي أقرب من
تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها ، فأحسن ربّها ؛ لأن منع الأواخر
يقطع شكر الأوائل .

قال : وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير ، أن أباه حدثه ، قال :
كان بشار بن برد بن يَرْجُوح هجا صالح بن داود بن طهمان - أخا يعقوب
ابن داود - حين وُلِّيَ البصرة ، فقال :

هُمْ حَمَلُوا فَوْقَ الْمَنَابِرِ صَالِحاً أَخَاكَ فَصَجَّتْ مِنْ أَخِيكَ الْمَنَابِرُ
فبلغ يعقوب بن داود هجاؤه ، فدخل على المهديّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛
إنّ هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ، قال : ويلك ! وما قال ؟
قال : يعفني أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، قال : فأبى عليه إلا أن ينشده ،
فأنشده :

خَلِيفَةُ يَزْنِي بِعَمَّاتِهِ يَلْعَبُ بِالْدَّبُوقِ وَالصُّولَجَانِ^(٢)
أَبْدَلْنَا اللَّهَ بِهِ غَيْرَهُ وَدَسَّ مُوسَى فِي حِرِّ الْخِيزَرَانِ^(٣)

قال : فوجه في جملة ، فخاف يعقوب بن داود أن يقدم على المهديّ ،
فيمتدحه فيعفو عنه ، فوجه إليه من يلقيه في البَطِيحَةِ^(٤) في الحرارة^(٥) .

وذكر عبد الله بن عمر : حدثني جدّي أبو الحَيِّ العبسيّ ، قال :
لما دخل مَرْوَانُ بن أبي حفصة على المهديّ ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :

(١) ج : « قبطيا » .

(٢) الدبوق : لعبة من لعب الصبيان .

(٣) الخيزران : جارية من جوارى المهديّ ، وهي أم ولديه موسى وهارون .

(٤) البطيحة : أرض واسعة بين واسط والبصرة .

(٥) والخبر في الأغاني ٣ : ٢٤٣ .

أَنْتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنَى الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ^(١)
فَأَجَازَهُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ مِرْوَانُ :

بِسَبْعِينَ أَلْفًا رَاشَنِي مِنْ جِبَائِهِ وَمَا نَالَهَا فِي النَّاسِ مِنْ شَاعِرٍ قَبْلِي^(٢)

وَذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو عَدْنَانَ السُّلَمِيُّ ، قَالَ : قَالَ الْمَهْدِيُّ
لِعُصَامَةَ بْنِ حَمْزَةَ : مَنْ أَرْقَى النَّاسَ شِعْرًا ؟ قَالَ : وَالْبَتَّةُ بْنُ الْحُبَابِ الْأَسَدِيُّ ،
وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَهَا وَلَا ذَنْبٌ لَهَا حُبٌّ كَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ
فِي الْقَلْبِ يَقْدَحُ وَالْحَشَا . فَالْقَلْبُ مَجْرُوحُ النَّوَاحِ

قَالَ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، قَالَ : فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ مَنَادَمَتِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ
عَرَبِيٌّ شَرِيفٌ شَاعِرٌ ظَرِيفٌ ؟ قَالَ : يَمْنَعُنِي وَاللَّهِ مِنْ مَنَادَمَتِهِ ، قَوْلُهُ :

قُلْتُ لِسَاقِنَا عَلَى خَلْوَةٍ أَذِنَ كَذَا رَأْسَكَ مِنْ رَاسِي
وَنَمُّ عَلَى وَجْهِكَ لِي سَاعَةً إِنِّي أَمْرُوٌّ أَنْكِحُ جُلَاسِي

أَفَتَرِيدُ أَنْ يَكُونَ جُلَاسِي عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ^(٣) !

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِ الْمَهْدِيِّ إِنْسَانٌ ضَعِيفٌ يَقُولُ الشَّعْرَ
إِلَى أَنْ مَدَحَ الْمَهْدِيَّ . قَالَ : فَأَدْخِلْ عَلَيْهِ فَأَنْشُدْهُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ : « وَجَوَّارٍ
زَفَرَاتٍ » ، فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : أَيُّ شَيْءٍ زَفَرَاتٌ ؟ قَالَ : وَمَا تَعْرِفُهَا أَنْتَ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : فَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ
وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَعْرِفُهَا ، أَعْرِفُهَا أَنَا ! كَلَّا وَاللَّهِ .

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : أَخْبَرَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ طَرِيحَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الثَّقَفِيَّ دَخَلَ
عَلَى الْمَهْدِيِّ فَانْتَسَبَ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ
لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ :

(١) الْأَغَانِي ١٠ : ٨٩ . (٢) س : « مَثَلِي » .

(٣) الْأَغَانِي ١٦ : ١٤٣ (سَاسِي) . وَفِي ج : « جَلِيسِهِ » .

أَنْتَ ابْنُ مُسْلَنْطَحِ الْبِطَاحِ وَلَمْ تُطَرِّقْ عَلَيْكَ الْحِنَى وَالْوَلَجُ^(١)
والله لا تقول لى فى مثل هذا أبداً ، ولا أسمع منك شعراً ، وإن شئت
وصلتك .

وذكر أن المهديّ أمر بالصوم سنة ست وستين ليستسقى للناس فى اليوم
الرابع ، فلما كان فى الليلة الثالثة أصابهم الثلج ، فقال لقيط بن بكير
المحاربى فى ذلك :

يا إمام الهدى سقينا بك الغي	ثَ وَزالتَ عَنَّا بِكِ السَّلاوُ
بِتُغْنَى بِالْحَفِظِ وَالنَّاسُ نَوَا	مُ عَلَيْهِم مِّنَ الظَّلَامِ غِطَاءُ ^(٢)
رَقَدُوا حَيْثُ طَالَ لَيْلُكَ فِيهِمْ	لَكَ خَوْفٌ تَضْرَعُ وَبِكَاءُ
قَدْ عَنَتِكَ الْأُمُورُ مِنْهُمْ عَلَى الْغَف	لَمَةٌ مِنْ مَعَشَرٍ عَصَا وَأَسَاءُوا
وُسُقِينَا وَقَدْ قُحِطْنَا وَقَلْنَا	سَنَةٌ قَدْ تَنَكَّرَتْ حَمْرَاءُ
يَدْعَاءُ أَخْلَصَتْهُ فِى سَوَادِ الْ	لَيْلِ لِلَّهِ فَاسْتَجِيبِ الدَّعَاءُ
بِثُلُوجٍ تُحْيَا بِهَا الْأَرْضَ حَتَّى	أَصْبَحَتْ وَهَى زَهْرَةَ خَضْرَاءُ

٥٤١/٣

وذكر أن الناس فى أيام المهديّ صاموا شهر رمضان فى صميم الصيف ،
وكان أبو دلامة إذ ذاك يطالب بجائزة وعدها إياه المهديّ ، فكتب إلى المهديّ
رقعة يشكو إليه فيها ما لقى من الحرّ والصوم ، فقال فى ذلك :

أَدْعُوكَ بِالرَّحِمِ الَّتِي جَمَعْتَ لَنَا	فِى الْقَرَبِ بَيْنَ قَرِيبِنَا وَالْأَبْعَدِ ^(٣)
إِلَّا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ مَشَى	مِنْ مُنْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ الْمُنْشِدِ
حَلَّ الصِّيَامُ فَصَمْتُهُ مُتَعَبِدًا	أَرْجُو ثَوَابَ الصَّائِمِ الْمُتَعَبِدِ
وَسَجَدْتُ حَتَّى جَبْهَتِي مَشْجُوجَةٌ	مِمَّا أَكَلْتُ مِنْ نَطَاحِ الْمَسْجِدِ

(١) الأغاني ٤ : ٣١٦ . المسلنطح : ما اتسع سطحه . وتطرق : تضيق . والحنى : ما انخفض
من الأرض . والولج : كل ما اتسع فى الوادى .
(٢) ج : « والناس قوام » .
(٣) الأغاني ١٠ : ٢٥٤ .

قال : فلمّا قرأ المهدي الرقعة دعا به ، فقال : أيّ قرابة بيني وبينك يا بن اللخناء ! قال : رحيم آدم وحواء . فضحك منه وأمر له بجائزة .

وذكر عليّ بن محمد ، قال : حدثني أبي ، عن إبراهيم بن خالد المّعيطيّ قال : دخلت على المهديّ - وقد وُصف له غنائى - فسألني عن الغناء وعن علمي به ، وقال لي : تُغنّي النواقيس ؟ قلت : نعم والصليب يا أمير المؤمنين ! فصرفي ؛ وبلغني أنه قال : مُعيطيّ ، ولا حاجة لي إليه فيمن أدنيه من خلوتي ^(١) ولا آنس به ^(٢) .

ولمبعد المغني النواقيس في هذا الشعر :

٥٤٢/٣

سَلَا دَارَ لَيْلَى هَلْ تُجِيبُ فَتَنْطِقُ وَأَنْتَى تَرُدُّ الْقَوْلَ بَيِّدَاءَ سَمَلَقُ ^(٣)
وَأَنْتَى تَرُدُّ الْقَوْلَ دَارُ كَأَنَّهَا لِيُطَوِّلَ بِلَاهَا وَالتَّقَادُمُ مُهَرَّقُ

وذكر قعنب بن محرز أبو عمرو الباهليّ أن الأصمعيّ حدثه ، قال : رأيت حكماً الوادي حين مضى المهديّ إلى بيت المقدس ، فعرض له في الطريق ، وكان له شعيرات ^(٥) ، وأخرج دُفّاً له يضربه ، وقال : أنا القائل :

فَمَتَى تَخْرُجُ العُرو س فَقد طال حبسُها
قد دنا الصبحُ أو بدا وَهَى لَمْ تَقْضِ لِبَسْها

فتسرّع إليه الحرّس فصيحّ بهم : كُفُّوا ^(٦) ، وسأل عنه فقيل : حكم الوادي ، فأدخله إليه ووصله ^(٧) .

وذكر عليّ بن محمد أنه سمع أباه يقول : دخل المهديّ بعضَ دوره يوماً فإذا جارية له نصرانيّة ، وإذا جيبُها واسع وقد انكشف عما بين ثدييها ؛ وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع ؛ فاستحسنه ، فدّ يده إليه فجذبته ،

(١) الأغاني : « ولا حاجة لي إلى أن أدنيه من خلوتي » .

(٢) الأغاني ٣ : ٣٠٤ .

(٣) الأغاني ٣ : ٣٠٤ ، وفيه : « هل تبين » . (٤) الأغاني : « وله شعيرات على رأسه » .

(٥) الأغاني : « وله شعيرات على رأسه » . (٦) ج : « كفوا » .

(٧) الأغاني ٦ : ٢٨٦ .

فأخذه^(١) ، فولدت على الصليب ، فقال المهديّ في ذلك :

يوم نازعتها الصليبَ فقالت وَيَحْ نَفْسِي أَمَا تُحِلِّ الصليبا !

قال : وأرسل إلى بعض الشعراء فأجازه ، وأمر به فغنى فيه ، وكان معجباً بهذا الصوت .

قال : وسمعت أبي يقول : إنّ المهديّ نظر إلى جارية له عليها تاج فيه فرجس من ذهب وفضة ، فاستحسنه فقال :

* يا حبذا الرجس في التاج *

٥٤٣/٣

فأرتجّ عليه ، فقال : مَنْ بالحضرة ؟ قالوا : عبد الله بن مالك ، فدعاه ، فقال : إني رأيت جارية لي فاستحسنْتُ تاجاً عليها فقلت :
* يا حبذا الرجس في التاج *

فتستطيع أن تزيد فيه ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ولكن دَعْنِي أخرج فأفكّر ، قال : شأنك ، فخرج وأرسل إلى مؤدّب لولده^(٢) فسأله إجازته ، فقال :

* على جبينٍ لاح كالعاج *

وأتمها أبياتاً أربعة ، فأرسل بها عبد الله إلى المهديّ ، فأرسل إليه المهديّ بأربعين ألفاً ، فأعطى المؤدّب منها أربعة آلاف ، وأخذ الباقي لنفسه ، وفيها غناء معروف .

وذكر أحمد بن موسى بن مضر أبو عليّ ، قال : أنشدني التوزي في حسنة جاريته :

أرى ماءً وبى عطش شديد ولكن لا سبيلَ إلى الورودِ
أما يكفينك أنك تملكيني وأنّ الناس كلهم عبيدي
وأنك لو قطعت يدي ورجلي لقلتُ من الرضا أحسنَ زيدي

وذكر علي بن محمد ، عن أبيه ، قال : رأيتُ المهديّ وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش ، فرأيتُه يسير والبانوق بين يديه ، بينه وبين صاحب الشرطة ، عليها قباء أسود ، متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان . قال : وإنى لأرى في صدرها شيئاً من ثدييها .

قال عليّ : وحدّثني أبي ، قال : قدِم المهديّ إلى البصرة ، فرّ في سكة قريش ، وفيها منزلنا ؛ وكانت الولاة لا تمرُّ فيها إذا قدم الوالي ، كانوا يتشاءمون بها — قلّ وال مرّ فيها^(١) فأقام في ولايته إلا يسيراً حتى يُعزل — ولم يمرّ فيها خليفة قطّ إلا المهديّ ، كانوا يمرُّون في سكة عبد الرحمن بن سمرة ، وهي تساوي سكة قريش ، فرأيتُ المهديّ يسير ، وعبد الله بن مالك على شرطه يسير أمامه ، في يده الحربة ، وابنته البانوق تسير بينه وبين يديه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان ، عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية ، متقلدة السيف ، وإنى لأرى ثدييها قد رفعا القباء لنهودهما .

٥٤٤/٣

قال : وكانت البانوق سمرَاء حَسَنَةً القَدِّ حلوة . فلما ماتت — وذلك ببغداد — أظهر عليها المهديّ جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزّونه ، وأمر ألاّ يحجب عنه أحدٌ ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينقذ هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا^(٢) على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة ؛ فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، الله خيرٌ لها منك ، وثواب الله خيرٌ لك منها ، وأنا أسأل الله ألاّ يحزنك ولا يفتنك .

وذكر صباح بن عبد الرحمن ، قال : حدّثني أبي ، قال : تُوفيتُ البانوق بنت المهديّ ، فدخل عليه شبيب بن شيبة ، فقال : أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئت أجراً ، وأعقبك صبراً ، لا أجهد الله بلائك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة ؛ ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خيرٌ لها منك ؛ وأحقّ ما صُبر عليه ما لا سبيلَ إلى ردّه .

(٢) ج : « فاجتمعوا » .

(١) ج : « بها » .

خلافة الهادي

وفي هذه السنة بويج لموسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالخلافة ، يوم توفّي المهدى ، وهو مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان ؛ وكانت وفاة المهدى بماسبدان ومعه ابنه هارون ، ومولاه الربيع ببغداد خلفه بها ؛ فذكر أن المولى والقواد لما توفّي^(١) المهدى اجتمعوا إلى ابنه هارون ، وقالوا له : إن عليّ الجند بفاة المهدى لم تأمن الشغب ، والرأى أن يُحمل ، وتنادى في الجند بالقفل حتى تواريه ببغداد . فقال هارون : ادعوا إلى أبي يحيى بن خالد البرمكي - وكان المهدى ولّى هارون المغرب كلّهُ ؛ من الأنبار إلى إفريقية ، وأمر يحيى بن خالد أن يتولّى ذلك ، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها إلى أن توفّي - قال : فصار يحيى بن خالد إلى هارون ، فقال له : يا أبت ، ما تقول فيما يقول عمر بن بزيع ونصير والمفضل^(٢) ؟ قال : وما قالوا ؟ فأخبره ، قال : ما أرى ذلك ، قال : ولم ؟ قال : لأن هذا ما لا يخفى ، ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلّقوا بمحملة ، ويقولوا : لا نُخلّسه حتى نعطي لثلاث سنين وأكثر ، ويتحكّموا ويشتطّوا ؛ ولكن أرى أن يُوارى رحمه الله هاهنا ؛ وتوجّه نصيراً إلى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية ؛ فإنّ البريد إلى نصير ؛ فلا يسكير خروجه أحدٌ إذ كان على بريد الناحية ، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز ؛ مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالقفل ؛ فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم ؛ ولا عرجة على شيء دون بغداد . قال : فنقل ذلك . وقال الجند لما قبضوا الدراهم : بغداد ببغداد ! يتبادرون إليها ، ويبعثون على الخروج من ماسبدان ؛ فلما وافوا ببغداد ، وعلموا خبر الخليفة ، ساروا^(٣) إلى باب الربيع فأحرقوه ، وطلبوا^(٤) بالأرزاق ، وضجّوا . وقدم هارون ببغداد ،

(٢) ١ ، ج : « الفضل » .

(١) س : « مات » .

(٤) ابن الاثير : « وطلبوا الأرزاق » .

(٣) س : « صاروا » .

فبعث الخيزان إلى الربيع وإلى يحيى بن خالد تشاورهما في ذلك ؛ فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فلم يفعل ذلك لعلمه بشدة غيرة موسى .

قال : وجمعت الأموال حتى أُعطيَ الجند لستين ، فسكتوا ؛ وبلغ الخبر الهادي ، فكتب إلى الربيع كتاباً يتوعده فيه بالقتل ، وكتب إلى يحيى بن خالد يحجزه الخير ، ويأمره أن يقوم من أمر هارون بما لم يزل يقوم به ، وأن يتولّى أموره وأعماله على ما لم يزل يتولاه . قال : فبعث الربيع إلى يحيى بن خالد - وكان يوده ، ويثق به ، ويعتمد على رأيه : يا أبا عليّ ، ما ترى ؟ فإنه لا صبر لي على جرّ^(١) الحديد . قال : أرى ألاّ تبرح موضعك ، وأن توجه ابنك الفضل يستقبله ومعه من الهدايا والطرّف^(٢) ما أمكنك ؛ فإني لأرجو ألاّ يرجع إلاّ وقد كفيت ما تخاف إن شاء الله . قال : وكانت أم الفضل ابنة بحيث تسمع منهما مناجاتهما ؛ فقالت له : نصحك والله . قال : فإني أحب أن أوصي إليك ؛ فإني لا أدرى ما يحدث . فقال^(٣) : لست أنفرد لك بشيء ، ولا أدع ما يجب^(٤) ، وعندى في هذا وغيره ما تحب ؛ ولكن أشرك معي في ذلك الفضل ابنك وهذه المرأة ؛ فإنها جزلة مستحقة لذلك منك . ففعل الربيع ذلك ، وأوصى إليهم .

٥٤٧/٣

قال الفضل بن سليمان : ولما شغّب الجند على الربيع ببغداد وأخرجوا من كان في حبسه ، وأحرقوا أبواب دوره في الميدان ، حضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن إبراهيم ذلك ؛ فرأى العباس أن يرضوا ، وتطيب أنفسهم ، وتفرق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم ؛ فبذل ذلك لهم فلم يرضوا ، ولم يثقوا مما ضُمن لهم من ذلك ؛ حتى ضمنه محرز بن إبراهيم ، فقتلوا بضمانه وتفرقوا ، فوقى لهم بذلك ، وأعطوا رزق ثمانية عشر شهراً ؛ وذلك قبل قدوم هارون . فلما قدم - وكان هو خليفة موسى الهادي - ومعه الربيع وزيراً له ، وجهه الوفود إلى الأمصار ، ونعى إليهم المهديّ ، وأخذ يبعثهم لموسى الهادي ؛ وله بولاية العهد من بعده ؛ وضبط أمر بغداد . وقد كان نصير

(٢) س : « اللطف » .

(٤) ا : « تحب » .

(١) س : « جد » .

(٣) ط : « فقلت » .

الوصيف شخص من ماسبندان من يومه إلى جرجان بوفاة المهدي والبيعة له ؛ فلما صار إليه نادى بالرحيل ، وخرج من فتوره على البريد جواداً^(١) ومعه من أهل بيته إبراهيم وجعفر ، ومن الوزراء عبيد الله بن زياد الكاتب صاحب رسائله ، ومحمد بن جميل كاتب جنده . فلما شارف مدينة السلام استقبله الناس من أهل بيته وغيرهم ؛ وقد كان احتمال^(٢) على الربيع ما كان منه وما صنع من توجيه الوفود وإعطائه الجنود قبل قدومه ؛ وقد كان الربيع وجه ابنه الفضل ؛ فتلقاه بما أعد له من الهدايا ؛ فاستقبله بهمدان ، فأدناه وقربه ، وقال : كيف خلقت مولاي ؟ فكتب بذلك إلى أبيه ، فاستقبله الربيع ، فعاتبه الهادي ، فاعتذر إليه . وأعلمه السبب الذي دعاه إلى ذلك ، فقبله ، وولاه الوزارة مكان عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى ، وضم إليه ما كان عمر بن بزيع يتولاه من الزمام ، وولى محمد بن جميل ديوان خراج العراقيين ، وولى عبيد الله بن زياد خراج الشام ومسايليه ، وأقر على حرسه على بن عيسى بن ماهان ، وضم إليه ديوان الجند ، وولى شسطه عبد الله بن مالك مكان عبد الله بن خازم ،^(٣) وأقر الخاتم في يد علي بن يقطين .

وكانت موافاة موسى الهادي بغداد عند منصرفه من جرجان لعشر بقين من صفر من هذه السنة ، سار - فيما ذكر عنه - من جرجان إلى بغداد في عشرين يوماً ، فلما قدمها نزل القصر الذي يسمى الخلد ؛ فأقام به شهراً^(٤) ، ثم تحول إلى بستان أبي جعفر ، ثم تحول إلى عيساباذ .

وفي هذه السنة هلك الربيع مولى أبي جعفر المنصور .

وقد ذكر علي بن محمد النوفلي أن أباه حدثه أنه كانت لموسى الهادي جارية ، وكانت حظية عنده ، وكانت تحبه وهو يجرجان حين وجهه إليها المهدي ، فقالت أبياتاً ، وكتبت إليه وهو مقيم بجرجان ، منها :

يا بَعِيدَ الْمَحَلِّ أَمْ سَيَ بَجْرَجَانَ نَازِلَا

(١) جواداً ، أى سريعاً كالفرس الجواد . (٢) س : « يحتمل » .

(٣) ط : « حازم » ، تصحيف . (٤) ج : « شهرين » .

قال : فلما جاءتة البَيْسَعَة وانصرف إلى بغداد ؛ لم تكن له همة غيرها ، فدخل عليها وهي تغنى بأبياتها ، فأقام عندها يومه ولياته قبل أن يظهر لأحد من الناس .

٥٤٩/٣

وفي هذه السنة اشتد طلب موسى الزنادقة ؛ فقتل منهم فيها جماعة ؛ فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان ؛ ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يُهَرِّوْلُون ، فقال : ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البَيْدَر . وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى :

أيا أمينَ الله في خلقه ووراثَ الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجلٍ كافرٍ يُشَبِّهُ الكعبة بالبَيْدَر
ويجعلُ الناسَ إذا ما سَعَوْا حُمْرًا تدوسُ البرَّ والدُّوسر !

فقتله موسى ثم صلبه ، فسقطت خشبته على رجل من الحاج فقتلته وقتلت حماره . وقُتِل من بني هاشم يعقوب بن الفضل .

وذكر عن علي بن محمد الهاشمي ، قال : كان المهدي أتى بابن لداود ابن علي زنديقاً ، وأتى بيعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب زنديقاً ، في مجلسين متفرقين ، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً ، وذلك بعد أن أقرأ له بالزندقة ، أما يعقوب بن الفضل فقال له : أُقرُّ بها ببني وبينك ؛ فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض ، فقال له : ويلك ! لو كُشِفَت لك السموات ، وكان الأمر كما تقول ، كنتَ حقيقاً أن تغضب ^(١) ل محمد ، ولولا محمد صلى الله عليه من كنت ! هل كنت إلا إنساناً من الناس ! أما والله لولا أني كنت جعلت لله علي عهداً إذا ^(٢) ولا تني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك . ثم التفت إلى موسى الهادي ، فقال : يا موسى ، أقسمت عليك بحق إن وليت هذا الأمر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة . فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي ؛ وأما يعقوب فبقى حتى مات المهدي . وقدم موسى من جرجان

٥٥٠/٣

فساعة دخل، ذكر وصية المهدي، فأرسل إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً، وأقعدت الرجال عليه حتى مات. ثم لها عنه ببيعته وتشديد خلافته؛ وكان ذلك في يوم شديد الحر، فبقي يعقوب حتى مضى من الليل هده^(١)، فقيل لموسى: يا أمير المؤمنين، إن يعقوب قد انتفخ وأروح. قال: ابعثوا به إلى أخيه إسحاق ابن الفضل، فخبّروه أنه مات في السجن^(٢). فجعل في زورق وأُتِيَ به إسحاق، فنظر فإذا ليس فيه موضع للغسل، فدفنه في بستان له من ساعته، وأصبح فأرسل إلى الهاشميين يخبرهم^(٣) بموت يعقوب ويدعوهم إلى الجنازة، وأمر بخشبة فعملت في قدّ الإنسان فغشيت قطناً، وألبسها أكفاناً، ثم حملها على السرير، فلم يشكّ مَنْ حضرها أنه شيء مصنوع.

وكان ليعقوب ولد من صلّبه: عبد الرحمن والفضل وأروى فاطمة، فأما فاطمة فوجدت حبلى منه، وأقرّت بذلك.

قال عليّ بن محمد: قال أبي: فأدخلت فاطمة وامراًة^(٤) يعقوب بن الفضل—وليس بها شمية، يقال لها خديجة—على الهادي—أو على المهدي من قبل—فأقرتا بالزندقة، وأقرّت فاطمة أنها حامل من أبيها، فأرسل بهما إلى ريطة بنت أبي العباس، فرأتها مكتحلتين مختضبتيْن، فعذلتُهما، وأكثرت على الابنة خاصّة، فقالت: أكرهني، قالت: فما بال الخضاب والكحل والسرور؛ إن كنت مكرهة! ولعنتهما. قال: فخُبِّرتُ أنهما فزَعتا فماتتا فزَعاً، ضُرب على رأسيهما بشيء يقال له الرعوب^(٥). ففزعنا منه، فماتتا. وأما أروى فبقِيَتْ فزَوَّجها ابن عمها الفضل بن إسماعيل بن الفضل؛ وكان رجلاً لا بأس به في دينه.

وفيها قدم وندا هرمز صاحب طَبَرِستان إلى موسى بأمان، فأحسن صلّته، وردّه إلى طَبَرِستان.

* * *

(٢) ج: «الحبس».

(٤) أ، س: «ليعقوب».

(١) الهدء: أول الليل.

(٣) ج: «فأخبرهم».

(٥) ج: «الرعوب».

ذكر بقيّة الخبر

عن الأحداث التي كانت سنة تسع وستين ومائة

* * *

[خروج الحسين بن عليّ بن الحسن بفتح]

ومما كان فيها خروجُ الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب المقتول بفتح .

* ذكر الخبر عن خروجه ومقتله :

ذكر عن محمد بن موسى الخوارزمي أنه قال : كان بين موت المهديّ وخلافة الهادي ثمانية أيام . قال : ووصل إليه الخبر وهو بجرجان ، وإلى أن قدم مدينة السلام إلى خروج الحسين بن عليّ بن الحسن ، وإلى أن قتل الحسين ، تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً .

وذكر محمد بن صالح ، أن أبا حفص السلميّ حدثه ، قال : كان إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عليّ المدينة ، فلما مات المهديّ ، واستخلف موسى ، شخص إسحاق وافداً إلى العراق إلى موسى ، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشمي أن إسحاق بن عيسى بن عليّ استغنى الهادي وهو على المدينة ، واستأذنه في الشّخص إلى بغداد ، فأعفاه ، وولّى مكانه عمر بن عبد العزيز . وأن سبب خروج الحسين بن عليّ بن الحسن كان أن عمر بن عبد العزيز لما تولى المدينة — كما ذكر الحسين بن محمد عن أبي حفص السلميّ — أخذ أبا الزّرف الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذليّ وعمر بن سلام مولى آل عمر على شراب لهم ، فأمر بهم فضرّبوا جميعاً ، ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة ، فكلّمهم فيهم ، وصار إليه الحسين بن عليّ فكلّمه ، وقال : ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ، ولم يكن لك أن تضربهم ؛ لأنّ أهل العراق لا يروّون به بأساً ، فلم تطوف بهم ! فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردّهم ، وأمر بهم إلى الحبس ، فحبسوا يوماً وليلة ، ثم كلّمهم فيهم فأطلقهم جميعاً ؛ وكانوا

يُعرَضون ، ففُقد الحسن بن محمد ، وكان الحسين بن عليّ كفيّله .

قال محمد بن صالح : وحدّثني عبد الله بن محمد الأنصاريّ أنّ العُمريّ كان كفَّلَ بعضهم من بعض^(١) ؛ فكان الحسين بن عليّ بن الحسن ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفيّلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ؛ وكان قد تزوّج مولاةً لهم سوداء ابنة أبي لبيث مولى عبد الله بن الحسن ؛ فكان يأتيها فيُقيم عندها ، فغاب عن العرض يوم الأربعاء والخميس والجمعة ، وعرضهم خليفةُ العُمريّ عشيةَ الجمعة ، فأخذ الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله ؛ فسألهما عن الحسن بن محمد ؛ فغلّظ عليهما بعضَ التغليظ ، ثم انصرف إلى العُمريّ فأخبره خبرهم ، وقال له : أصلحك الله ! الحسن بن محمد غائب منذ ثلاث ، فقال : اتنّبى بالحسين ويحيى ؛ فذهب فدعاهما ، فلمّا دخلا عليه ، قال لهما : أين الحسن بن محمد ؟ قالا : والله ما ندري ؛ إنّما غاب عنا يوم الأربعاء ، ثم كان يوم الخميس ؛ فبلغنا أنّه اعتلّ ، فكنا نظن أنّ هذا اليوم لا يكون فيه عَرَض ؛ فكلّمهما بكلام أغلظ لهما فيه ، فحلف يحيى بن عبد الله ألاّ ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره ؛ حتى يعلم أنّه قد جاءه به . فلما خرجا قال له الحسين : سبحان الله ! ما دعاك إلى هذا ؟ ومن أين تجد حسناً ! حلفت له بشيء لا تقدر عليه . قال : إنّما حلفتُ على حسن ، قال : سبحان الله ! فعلى أيّ شيء حلفت ! قال : والله لا نمتُ حتى أضرب عايه باب داره بالسيف . قال : فقال حسين : تمكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة^(٢) ، قال : قد كان الذي كان فلا بدّ منه .

وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة في الموسم — فيما ذكروا — وقد كان قوم من أهل الكوفة من شيعتهم — ومن كان بايع الحسين — متكتمين في دار ، فانطلقوا فعملوا في ذلك من عشيّتهم ومن ليلتهم ، حتى إذا كان في آخر الليل خرجوا . وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العُمريّ ، فلم يجده فيها ، فجاء إلى منزله في دار عبد الله بن عمر فلم يجده أيضاً فيها ، وتوارى منهم ، فجاءوا حتى اقتحموا المسجد حين أذّنوا بالصبح ؛

(١) : « لبعض » .

(٢) : « من الميعاد » .

فجلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء ؛ وجعل الناس يأتون المسجد ؛ فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلُّون ، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ، ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد . وأقبل خالد البربري ؛ وهو يومئذ على الصوافي بالمدينة قائد على مائتين من الجند مقيمين بالمدينة ، وأقبل فيمنَّ معه ، وجاء العمري ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشروي ؛ ومعهم ناس كثير ؛ فيهم الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسين بن علي حمار ، واقتحم خالد البربري الرحبة ، وقد ظاهر بين درعين ، وبيده السيف ، وعمود في منطقته ، مصلياً سيفه ، وهو يصيح بحسين : أنا كسكاس ، قتلني الله إن لم أقتلك ! وحمل عليهم حتى دنا منهم ؛ فقام إليه ابنا عبد الله بن حسن : يحيى وإدريس ، فضربه يحيى على أنف البيضة فقطعها وقطع أنفه ، وشرقت عيناه بالدم فلم يبصر ، فبرك يذّرب عن نفسه بسيفه وهو لا يبصر ، واستدار له إدريس من خلفه فضربه وصرعه ، وعلّواه بأسيا فهما حتى قتلاه ، وشدّ أصحابهما على درعيه فخلعهما عنه ، وانتزعوا سيفه وعموده ، فجاءوا به . ثم أمروا به فجُرّ إلى البلاط ، وحملوا على أصحابه فانهزموا . قال عبد الله بن محمد : هذا كله بعيني .

٥٥٥/٣

وذكر عبد الله بن محمد أن خالداً ضرب يحيى بن عبد الله ، فقطع البرنس ، ووصلت^(١) ضربته إلى يد يحيى فأثرت فيها^(٢) ، وضربه يحيى على وجهه ، واستدار رجل أعور من أهل الجزيرة فأتاه من خلفه ، فضربه على رجله ، واعتوروه بأسيا فقتلوه .

قال عبد الله بن محمد : ودخل عليهم المسوّد المسجد حين دخل الحسين ابن جعفر على حمارة ، وشدّت المبيضة فأخرجوهم ، وصاح بهم الحسين : ارفقوا بالشيخ - يعني الحسين بن جعفر - وانتهب بيت المال ، فأصيب فيه بضعة عشر ألف دينار ، فضلت من العطاء - وقيل : إن ذلك كان سبعين ألف دينار كان بعث بها عبد الله بن مالك ، يفرض بها من خزاعة - قال : وتفرّق الناس ، وأغلق أهل المدينة عليهم أبوابهم ؛ فلما كان من الغد اجتمعوا واجتمعت شيعة ولد العباس ، فقاتلوهم بالبلاط فيما بين رحبة دار الفضل والزّوراء ،

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « خلعت » . (٢) ساقطة من ط وهي في ١ .

وجعل المسوِّدة يحملون على المبيضة حتى يبلغوا بهم رحبة دار الفضل ، وتحمل المبيضة عليهم حتى يُبلِّغ بهم الزَّوراء . وفشت الجراحات بين الفريقين جميعاً ، فاقتلوا إلى الظهر ، ثم افترقوا ، فلما كان في آخر النهار من اليوم الثاني يوم الأحد ، جاء الخبر بأن مباركاً التركي ينزل بئر المطَّلب ، فنشط الناس ، فخرجوا إليه فكلّموه أن يجيء ، فجاء من الغد حتى أتى الثنية ، واجتمع إليه شيعة بني العباس ومن أراد القتال ، فاقتلوا بالبلاط أشدّ قتال إلى انتصاف النهار ، ثم تفرّقوا . وجاء هؤلاء إلى المسجد ، ومضى الآخرون إلى مبارك التركي ، إلى دار عمر بن عبد العزيز بالثنية يقيم فيها ، وواعد^(١) الناس الرواح ، فلما غفلوا عنه ، جلس على رَوَاحله فانطلق ، وراح الناس فلم يجدوه ، فناوشوهم شيئاً من القتال إلى المغرب ، ثم تفرّقوا ، وأقام حسين وأصحابه أياماً يتجهّزون . وكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً ، ثم خرج يوم أربعة وعشرين لست بقيين من ذى القعدة ، فلما خرجوا من المدينة عاد المؤذنون فأذنوا ؛ وعاد الناس إلى المسجد ، فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وآثارهم ، فجعلوا يدعون الله عليهم ، ففعل^(٢) الله بهم وفعل .

قال محمد بن صالح : فحدثني نصير بن عبد الله بن إبراهيم الجُمَحِيّ ، أن حسيناً لما انتهى إلى السوق متوجّهاً إلى مكة التفت إلى أهل المدينة ، وقال : لا خلف الله عليكم بخير ! فقال الناس وأهل السوق : لا بل أنت ؛ لا خلف الله عليك بخير ، ولا ردّك ! وكان أصحابه يُحدِّثون في المسجد ، فملئوه قدرًا وبولا ؛ فلما خرجوا غسل الناس المسجد .

قال : وحدثني ابن عبد الله بن إبراهيم ، قال : أخذ أصحاب الحسين ستورَ المسجد ، فجعلوها خفّاتين لهم ، قال : ونادى أصحابُ الحسين بمكة : أيّما عبد أتانا فهو حرّ ؛ فأتاه العبيد ، وأتاه عبد كان لأبي ؛ فكان معه ؛ فلما أراد الحسين أن يخرج أتاه أبي فكلّمه ، وقال له : عمّدتَ إلى ممالك لم تملكهم فأعتقتهم ، بم تستحلّ ذلك ! فقال حسين لأصحابه : اذهبوا به ، فأبى عبدَ عرفه فادفعوه إليه ؛ فذهبوا معه ، فأخذ غلامه وغلامين لخيران لنا . وانتهى خبر الحسين إلى الهادي ، وقد كان حجّ في تلك السنة رجال من أهل

بيته؛ منهم محمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد وموسى بن عيسى، سوى من حجّ من الأحداث . وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر ، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب ، فقبل له : عمك العباس بن محمد ! قال : دعوني ، لا والله لا أخدع عن ملكي ؛ فنفذ الكتاب بولاية محمد بن سليمان بن عليّ على الحرب ، فلقيتهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحجّ . وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدّة من السلاح والرجال ؛ وذلك لأن الطريق كان مخوفاً معوراً من الأعراب ؛ ولمّ يحشد لهم حسين ؛ فأتاه خبرهم ، فهم بصوبه ، فخرج بخدمته وإخوانه . وكان موسى بن عليّ بن موسى قد صار ببطن نخل ، على الثلاثين من المدينة ، فأنتهى إليه الخبر ومعه إخوانه وجواريه ، وأنتهى الخبر إلى العباس بن محمد بن سليمان وكاتبهم ، وساروا إلى مكة فدخلوا ، فأقبل محمد بن سليمان ، وكانوا أحرماً بعُمرة . ثم صاروا إلى ذي طُوى ؛ فعسكروا بها ، ومعهم سليمان بن أبي جعفر ؛ فانضمّ إليهم من وافى في تلك السنة من شيعة ولد العباس ومواليهم وقوادهم . وكان الناس قد اختلفوا في تلك السنة في الحجّ وكثروا جداً . ثم قدّم محمد بن سليمان قدامه تسعين حافراً ما بين فرس إلى بغل ، وهو على نجيب عظيم ، وخلفه أربعون راكباً على النجائب عليها الرّحال وخلفهم مائتا^(١) راكب على الحمير ، سوى من كان معهم من الرّجاله وغيرهم ، وكثروا في أعين الناس جداً وملثوا صدورهم^(٢) فظنّوا أنهم أضعافهم ، فطافوا بالبيت ، وسعّوا بين الصّفا والمرّة ، وأحلّوا من عمرتهم ، ثم مضوا فأتوا ذا طُوى ونزلوا ، وذلك يوم الخميس . فوجّه محمد بن سليمان أبا كامل — مولّى لإسماعيل بن عليّ — في نيّف وعشرين فارساً ؛ وذلك يوم الجمعة فلقيتهم . وكان في أصحابه رجل يقال له زيد ، كان انقطع إلى العباس ، فأخرجه معه حاجتاً لما رأى من عبادته ، فلما رأى القوم قلب ترسه وسيفه ، وانقلب إليهم ؛ وذلك ببطن مرّ ، ثم ظفروا به بعد ذلك مشدّخاً بالأعمدة ؛ فلما كان ليلة السبت وجّهوا خمسين فارساً ، كان أوّل من ندبوا صباح أبو الذّيال ، ثم آخر ثم آخر ؛ فكان أبو خلوة الخادم مولى محمد خامساً ،

٥٥٨/٣

(١) كذا في ١ ، و في ط : « ما بين » . (٢) ساقطة من ط وهي مشبهة في ١ .

فأتوا المفضل مولى المهدي ، فأرادوا أن يصيروهم عليهم ، فأبى وقال : لا ، ولكن صيروا عليهم غيري وأكون أنا معهم ، فصيروا عليهم عبد الله بن حميد بن رزين السمرقندي - وهو يومئذ شاب ابن ثلاثين سنة - فذهبوا وهم خمسون فارساً ؛ وذلك ليلة السبت . فدنا القوم ، وزحفت ^(١) الخيل ، وتعباً الناس ؛ فكان العباس بن محمد وموسى بن عيسى في الميسرة ، ومحمد بن سليمان في الميمنة ؛ وكان معاذ بن مسلم فيما بين محمد بن سليمان والعباس بن محمد ، فلما كان قبل طلوع الفجر جاء حسين وأصحابه فشدّ ثلاثة من موالى سليمان بن عليّ - أحدهم زنجويه غلام حسان - فجاءوا برأس فطرحوه قدام محمد بن سليمان - وقد كانوا قالوا : من جاء برأس فله خمسمائة درهم - وجاء أصحاب محمد فغمر قلوبوا الإبل ، فسقطت محاملها . فقتلوهم وهزموهم ؛ وكانوا خرجوا من تلك الثنايا ، فكان الذين خرجوا ممّا يلي محمد بن سليمان أقلّهم ، وكان جلّهم خرجوا ممّا يلي موسى بن عيسى وأصحابه ؛ فكانت الصدمة بهم ؛ فلما فرغ محمد بن سليمان ممّن يليه وأسفروا ، نظروا إلى الذين يلون موسى بن عيسى ؛ فإذا هم مجتمعون كأنهم كبة غزل ، والتفت الميمنة والقلب عليهم ، وانصرفوا نحو مكة لا يدرون ما حال الحسين ؛ فما شعروا وهم بذى طوى أو قريباً منها إلا برجل من أهل خراسان ، يقول : البشرى البشرى ! هذا رأس حسين ، فأخرجه وبجبهته ضربة طولاً ، وعلى قفاه ضربة أخرى ؛ وكان الناس نادوا بالأمان حين فرغوا ، فجاء الحسن بن محمد أبو الزّفت مغميضاً إحدى عينيه ، قد أصابها شيء في الحرب ، فوقف خلف محمد والعباس ، واستدار به موسى بن عيسى وعبد الله ابن العباس . فأمر به فقتل ، فغضب محمد بن سليمان من ذلك غضباً شديداً . ودخل محمد بن سليمان مكة من طريق والعباس بن محمد من طريق ، واحتزّزت الرؤوس ؛ فكانت مائة رأس ونيقاً ؛ فيها رأس سليمان بن عبد الله بن حسن وذلك يوم التروية ، وأخذت أخت الحسين ، وكانت معه فصيرت عند زينب بنت سليمان ، واختلطت المنهزمة بالحجّاج ، فذهبوا ، وكان سليمان بن أبي جعفر شاكياً فلم يحضر القتال ، ووافى عيسى بن جعفر الحجّ تلك السنة ؛ وكان مع أصحاب حسين رجل "أعمى يقصّ عليهم فقتل ، ولم يقتل أحد منهم صبراً .

٥٥٩/٣

٥٦٠/٣

قال الحسين بن محمد بن عبد الله : وأسر موسى بن عيسى أربعة نفر من أهل الكوفة ، ومولى لبني عجل وآخر .

قال محمد بن صالح : حدثني محمد بن داود بن عليّ ، قال : حدثنا موسى بن عيسى ، قال : قدمتُ معي بستة أسارى فقال لي الهادي : هيه ! تقتل أسيرى ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إني فكرت فيه فقلت : تجيء عائشة وزينب إلى أمّ أمير المؤمنين ، فتبكيان عندها وتكاثمانها ، فتكلّم له أمير المؤمنين فيطلقه . ثم قال : هات الأسرى ، فقلت : إني جعلت لهم العهد والمواثيق بالطلاق والعتاق ، فقال : اثنى بهم ، وأمر باثنين فقتلا ، وكان الثالث منكراً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ هذا أعلم الناس بآل أبي طالب ؛ فإن استبقيته ذلك على كل بغية لك ، فقال : نعم والله يا أمير المؤمنين ؛ إني أرجو أن يكون بقائى صنعاً لك . فأطرق ثم قال : والله لإفلاتك^(١) من يدي بعد أن وقعت في يدي لشديد ؛ فلم يزل يكلّمه حتى أمر به أن يؤخّر ، وأمره أن يكتب له طلبته ، وأما الآخر فصفح عنه ، وأمر بقتل عذافر الصيرفي وعليّ بن السابق القلاس الكوفيّ ، وأن يصلّبا ، فصلبوها بباب الجسر ، وكانا أسيرا بفسخ . وغضب على مبارك التركيّ ، وأمر بقبض أمواله وتصديره في ساسة الدوابّ ، وغضب على موسى بن عيسى لقتله الحسن بن محمد ، وأمر بقبض أمواله .

٥٦١/٣

وقال عبد الله بن عمرو الثلجيّ : حدثني محمد بن يوسف بن يعقوب الهاشميّ ، قال : حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسى ، قال : أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب من وقعة فسخ في خلافة الهادي ، فوقع إلى مصر ، وعلى برید منصر واضح مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور ، وكان رافضياً خبيثاً ، فحمله على البرید إلى أرض المغرب ، فوقع بأرض طنجة بمدينة يقال لها وكيلة ، فاستجاب له منّ بها وبأعراضها من البربر ، فضرب الهادي عنق واضح وصلّبه .

ويقال : إنّ الرّشيد الذي ضرب عنقه ، وأنه دس إلى إدريس الشّماخ الياميّ مولى المهديّ ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية ،

(١) : ١ « إن إفلاتك » .

فخرج حتى وصل إلى ليلة وذكر أنه متطبيب ، وأنه من أوليائهم ، ودخل على إدريس فأنس به واطمأن إليه ؛ وأقبل الشماخ يريه الإعظام له والميل إليه والإيثار له فنزل عنده بكل منزلة . ثم إنه شكاً إليه علة في أسنانه ، فأعطاه سنوناً^(١) مسموماً قاتلاً ، وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر لليلته ؛ فلما طلع الفجر استن إدريس بالسنون ، وجعل يردّه في فيه ، ويكثر منه ، فقتله . وطُلب الشماخ فلم يُظفر به ، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه ، وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس ؛ فكتب ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك ، فولّى الشماخ بريد مصر وأجاره^(٢) ، فقال في ذلك بعض الشعراء - أظنه الهنازي :
 أَتَظُنُّ يَا إِدْرِيسُ أَنَّكَ مُفْلِتٌ كَيْدَ الْخَلِيفَةِ أَوْ يُفِيدُ فِرَارُ
 فَلَيْدَرِكَنَّكَ أَوْ تَحِلَّ بِبَلَدَةٍ لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ
 إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا انتَضَاهَا سُخْطُهُ طَالَتْ وَقَصَرَ دُونَهَا الْأَعْمَارُ
 مَلِكٌ كَانَ الْمَوْتَ يَتَّبِعُ أَمْرَهُ حَتَّى يَقَالَ : تُطِيعُهُ الْأَقْدَارُ

٥٦٢/٣

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشمي أن الحسين بن علي لما خرج بالمدينة وعليها العمري لم يزل العمري متخفياً مقام الحسين بالمدينة ، حتى خرج إلى مكة . وكان الهادي وجهه سليمان بن أبي جعفر لولاية الموسم ، وشخص معه من أهل بيته ممن أراد الحجّ العباس بن محمد وموسى بن عيسى وإسماعيل بن عيسى ابن موسى في طريق الكوفة ، ومحمد بن سليمان وعدة من ولد جعفر بن سليمان على طريق البصرة ، ومن الموالى مبارك التركي والمفضل الوصيف وصاعد مولى الهادي - وكان صاحب الأمر سليمان - ومن الوجوه المعروفين يقطين بن موسى وعبيد ابن يقطين وأبو الوزير عمر بن مطرف ؛ فاجتمعوا عند الذي بلغهم من توجه الحسين ومن معه إلى مكة ، ورأسوا عليهم سليمان بن أبي جعفر لولايته ؛ وكان قد جعل أبو كامل مولى إسماعيل على الطلائع ، فلقوه بفتح ، وخلّفوا عبيد الله بن قشّم بمكة للقيام بأمرها وأمر أهلها ؛ وقد كان العباس بن محمد أعطاهم الأمان على ما أحدثوا ، وضمن لهم الإحسان إليهم والصلاة لأرحامهم ؛

(٢) ط : « وأخبره » .

(١) السنون : ما استكت به .

وكان رسولهم في ذلك المفضل الخادم، فأبوا قبول ذلك، فكانت الواقعة، فقتل من قتل، وانهزم الناس، وفودى فيهم بالأمان، ولم يستبع هارب، وكان فيمن هرب يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن حسن؛ فأما إدريس فلحق بتاهرت من بلاد المغرب، فلجأ إليهم فأعظموه؛ فلم يزل عندهم إلى أن تسلط له، واحتيل عليه، فهلك، وخلفه ابنه إدريس بن إدريس؛ فهم^(١) إلى اليوم بتلك الناحية مالكين لها، وانقطعت عنهم البعوث.

قال المفضل بن سليمان: لما بلغ العمرى وهو بالمدينة مقتل الحسين بفتح وثب على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممن خرج مع الحسين، فهدمها وحرق النخل، وقبض ما لم يحرقه، وجعله في الصوافي المقبوضة^(٢). قال: وغضب الهادي على مبارك التركي لما بلغه من صدوده عن لقاء الحسين بعد أن شارف المدينة، وأمر بقبض أمواله وتصديره في سياسة دوابه؛ فلم يزل كذلك إلى وفاة الهادي، وسخط على موسى بن عيسى لقتله الحسن بن محمد بن عبد الله أبي الزت؛ وتركه أن يقدم به أسيراً، فيكون المحكم في أمره، وأمر بقبض أمواله، فلم تزل مقبوضة إلى أن توفي موسى. وقدم على موسى ممن أسير بفتح الجماعة، وكان فيهم عذافر الصيرفي وعلي بن سابق القلاص الكوفي، فأمر بضرب أعناقهما وصلبهما بباب الجسر ببغداد؛ ففعل ذلك. قال: ووجهه مهرويه مولاه إلى الكوفة، وأمره بالتغليظ عليهم لخروج من خرج منهم مع الحسين.

وذكر علي بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، قال: حدثني يوسف النبرم مولى آل الحسن - وكانت أمه مولاة فاطمة بنت حسن - قال: كنت مع حسين أيام قدم على المهدي، فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرقها في الناس ببغداد والكوفة؛ والله ما خرج من الكوفة وهو يملك شيئاً يلبسه إلا فرواً ما تحته قميص وإزار الفراش؛ ولقد كان في طريقه إلى المدينة؛ إذا نزل استقرض من مواله ما يقوم بمؤونتهم في يومهم قال علي: وحدثني السري أبو بشر، وهو حليف بني زهرة، قال: صليت الغداة في اليوم الذي خرج فيه الحسين بن علي بن الحسن صاحب فتح، فصليت

٥٦٣/٣

٥٦٤/٣

(٢) ط: «والمقبوضة»، وما أثبتته من أ.

(١) ط: «فهو».

بنا حسين ، وصعد المنبر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس وعليه قميص وعمامة بيضاء قد سدّ لها من بين يديه ومن خلفه ، وسيفه مسلول قد وضعه بين رجليه ؛ إذ أقبل خالد البربري في أصحابه ؛ فلماً أراد أن يدخل المسجد بدّره يحيى بن عبد الله ، فشدّ عليه البربري ؛ وإني لأنظر إليه ، فبدّره يحيى بن عبد الله ، فضربه على وجهه ، فأصاب عينيه وأنفه ؛ فقطع البيضة والقلنسوة ، حتى نظرتُ إلى قَحْفِهِ طائراً عن موضعه ، وحمل على أصحابه فانهمزوا . ثم رجع إلى حسين ، فقام بين يديه وسيفه مسلول يقطر دمًا ، فتكلّم حسين ، فحمد الله وأثنى عليه ، وخطب الناس ، فقال في آخر كلامه :
يأيها الناس ، أنا ابن رسول الله في حرم رسول الله ، وفي مسجد رسول الله ، وعلى منبر نبيّ الله ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن لم أفِ لكم بذلك فلا بيعة لي في أعناقكم . قال : وكان أهل الزيارة في عامهم ذلك كثيراً ، فكانوا قد ملثوا المسجد ؛ فإذا رجل قد نهض ، حسن الوجه ، طويل القامة ، عليه رداء ممشّق ، أخذ بيد ابن له شابّ جميل جَسَدٌ ، فتخطّى رقاب الناس ؛ حتى انتهى إلى المنبر ، فدنا من حسين ، وقال : يا بن رسول الله ، خرجتُ من بلد بعيد وابني هذا معي ، وأنا أريد حجّ بيت الله وزيارة قبر نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وما يخطر ببالي هذا الأمر الذي حدث منك ؛ وقد سمعتُ ما قلتَ ، فعندك وفاء بما جعلت على نفسك ؟ . قال : نعم ، قال : ابسط يدك فأبايعك ، قال : فبايعه ، ثم قال لابنه : ادن فبايع . قال : فرأيتُ والله رءوسهما في الرءوس بمنى ، وذلك أني حججت في ذلك العام .

٥٦٠/٣

قال : وحدثني جماعة من أهل المدينة أن مباركاً الترمكي أرسل إلى حسين ابن عليّ : والله لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير ، أوتهوى بي الريح في مكان سحيق ، أيسر عليّ من أن أشوكك بشوكة ، أو أقطع من رأسك شعرة ؛ ولكن لا بدّ من الإعذار ؛ فبيّتني فإني منهزم عنك . فأعطاه بذلك عهد الله وميثاقه . قال : فوجّه إليه الحسين - أخرج إليه - في نفر يسير ، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبّروا ، فانهمز أصحابه حتى لحق بموسى بن عيسى .

وذكر أبو المِضْرَحِيّ الكلابيّ ، قال : أخبرني المفضل بن محمد بن المفضل

ابن حسين بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب ، أن الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن ، قال يومئذ في قوم لم يخرجوا معه — وكان قد وعدوه أن يوافوه ، فتخلّفوا عنه — متمثلاً :

من عاذ بالسيف لاقى فُرْصَةً عَجَباً مَوْتاً على عجل أو عاش منتصفاً^(١)
لا تَقْرَبُوا السَّهْلَ إِنْ السَّهْلَ يُفْسِدُكُمْ لَنْ تُدْرِكُوا المَجْدَ حَتَّى تُضْرِبُوا عُغْنَفاً^(٢)

وذكر الفضل بن العباس الهاشمي أن عبد الله بن محمد المتقريّ حدثه عن أبيه ، قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فتح ، فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل مَنْ قتل ، فقال له : أصلح الله الأمير ! أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه ؟ قال : أنشدني ، فأنشده ، فقال :

٥٦٦/٣

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الغَادِي لِطَيْبَتِهِ على عَذَا فَرَةٍ فِي سَيْرِهَا قُحْمُ
أَبْلَغُ قَرِيشاً على شَحْطِ المَزَارِ بها بَيْنِي وَبَيْنَ الحُسَيْنِ اللهُ وَالرَّحِمُ
وَمَوْقِفٍ بِفَنَاءِ البَيْتِ أَنشُدُهُ عَهْدَ الإِلَهِ وَمَا تُرْعَى لَهُ الذَّمُّ
عَنَّفَمُ قَوْمُكُمْ فَخَرًا بِأَمِّكُمْ أُمُّ حَصَانُ لِعَمْرَى بَرَّةٌ كَرَمُ
هِيَ الَّتِي لَا يُدَانِي فَضْلُهَا أَحَدُ بَنَتْ النُّبَى وَخَيَّرِ النَّاسِ قَدْ عَلِمُوا
وَفَضْلُهَا لَكُمْ فَضْلُ وَغَيْرُكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهَا قِسْمُ
إِنِّي لِأَعْلَمُ أَوْ ظَنًّا كَعَالِمِهِ وَالظَّنَّ يَصْدُقُ أَحْيَانًا فَيَنْتَظِمُ
أَنْ سَوْفَ يَتْرُكُكُمْ مَا تَطْلُبُونَ بها قَتَلِي تَهَادَاكُمْ الْعِقبَانِ وَالرَّحْمُ
يَا قَوْمَنَا لَا تُشَبِّهُوا الحَرْبَ إِذْ خَمَدَتْ وَمَسَّكُوا بِحِبَالِ السَّلَمِ وَاعْتَصِمُوا
لَا تَرْكَبُوا البَغْيَ إِنْ البَغْيَ مَضْرَعَةٌ وَإِنَّ شَارِبَ كَأْسِ البَغْيِ يَتَّخِمُ
قَدْ جَرَّبَ الحَرْبَ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ القُرُونِ وَقَدْ بَادَتْ بها الأُمَمُ
فَانْصَفُوا قَوْمَكُمْ لَا تَهْلِكُوا بِذَخَا قَرُبَ ذِي بَذَخٍ زَلَّتْ بِهِ القَدَمُ

٥٦٧/٣

(١) ا، س : « أو مات » .

(٢) ا، ج : « حتى تدركوا » .

قال : فسرّى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه .

وذكر عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسى بن موسى أنّ العلاء حدّثه أن الهادى أمير المؤمنين لمّا ورد عليه خلعُ أهل فُخّ خلّا ليله يكتب كتاباً بخطّه ، فاعتمّ بخلوته موالیه وخاصّته ، فدسّوا غلاماً له ، فقالوا : اذهب حتى تنظر إلى أى شيء انتهى الخبر ، قال : فدنا من موسى ، فلما رآه قال : ما لك ؟ فاعتلّ عليه ، قال : فأطرق ثم رفع رأسه إليه ، فقال :

رَقَدَ الْأَلَى لَيْسَ السَّرَى مِنْ شَأْنِهِمْ وَكَفَاهُمْ الْإِذْلَاجُ مَنْ لَمْ يَرْقُدْ

وذكر أحمد بن معاوية بن بكر الباهلى ؛ قال : حدّثنا الأصمعى ، قال : قال محمد بن سليمان ليلة فُخّ لعمر بن أبى عمرو المدنى - وكان يرى بين يديه بين الهدفين : ارم ، قال : لا والله لا أرى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إني إنّما صحبّتك لأرى بين يديك بين الهدفين ، ولم أصحبك لأرى المسلمين .

قال : فقال الخزوى : ارم ، « افرى فما مات إلا بالبرص » .

قال : ولما قتل الحسين بن على وجاء^(٢) برأسه يقطّين بن موسى ، فوضّع بين يدى الهادى ، قال : كأنكم والله جئتم برأس طاغوت من الطواغيت ! إن أقلّ ما أجزىكم به أن أحرّمكم جوائزكم . قال : فحرّمهم ولم يعطهم شيئاً .

وقال موسى الهادى : لما قُتل الحسين متمثلاً :

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَامَاهَا^(٣) إِنَّا إِذَا مَا فِتَّةً نَلْقَاهَا

* نَرُدُّ أَوْلَاهَا عَلَى أَخْرَاهَا *

وغزا الصائفة في هذه السنة معيوف بن يحيى من درّب الراهب ، وقد كانت الروم أقبلت مع البطريق إلى الحدّث^(٤) ؛ فهرب الوالى والجند وأهل الأسواق ،

(٢) ج : « وجاءه » .

(١ - ١) ج : « فات بالبرص » .

(٤) ابن الأثير : « الحديثة » .

(٣) اللسان ٦ : ٤٣٦ .

فدخلها العدو ، ودخل أرض العدو معيوف بن يحيى ، فبلغ مدينة أشنة ، فأصابوا سبايا وأسارى وغنموا .

وحجّ بالناس فى هذه السنة سليمان بن أبى جعفر المنصور .

وكان على المدينة عمر بن عبد العزيز العمريّ ، وعلى مكة والطائف عبيد الله بن قُشَم ، وعلى اليمن إبراهيم بن سَلَم بن قتيبة ، وعلى اليمامة والبحرين سُويد بن أبى سُويد القائد الخراسانيّ ، وعلى عُمان الحسن بن تسنيم^(١) الخوارىّ ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها وصدقاتها وبِهَقْبَاز الأسفل موسى بن عيسى ، وعلى صلاة البصرة وأحداثها محمد بن سليمان . وعلى قضائها عمر بن عثمان ، وعلى جرجان الحجّاج مولى الهادى ، وعلى قوميس زياد بن حسان ، وعلى طَبَرِستان والرُّويان صالح بن شيخ بن عُميرة الأسديّ ، وعلى أصبهان طيفور مولى الهادى .

(١) ابن الاثير : « نسيم » .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وفاة يزيد بن حاتم بإفريقية فيها ، ووليها بعده رَوْح بن حاتم . ٥٦٩/٣
وفيهما مات عبد الله بن مروان بن محمد في المطبق .

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة موسى الهادي]

وفيهما توفّي موسى الهادي بعيساباذ . واختُلف في السبب الذي كان به وفاته ، فقال بعضهم : كانت وفاته من قَرْحَةٍ كانت في جوفه . وقال آخرون : كانت وفاته من قِبَلِ جوارٍ لأمّه الخيزران ؛ كانت أمرتهنّ بقتله لأسباب نذكر بعضها .

* ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله كانت أمرتهنّ بقتله :

ذكر يحيى بن الحسن أن الهادي نأبذَ أمه ونافرها ؛ لما صارت إليه الخلافة ، فصارت خالصةً إليه يوماً ، فقالت : إن أمك تستكسيك ، فأمر لها بخزانة مملوءة كيسوة . قال : ووُجِدَ للخيزران في منزلها من قراقر (١) الوشي ثمانية عشر ألف قسّرقر . قال : وكانت الخيزران في أوّل خلافة موسى تفتت عليه في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفّر الكفاية إلى بداذة التبذل ؛ فإنه ليس من قدّر النساء الاعتراض في أمر الملك ؛ عليك بصلاتك وتسيحك (٢) وتبتلك ؛ ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك . قال : وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلمته في الحوائج ؛ فكان يجيبها إلى كلّ ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانثال الناس عليها ، وطمعوا فيها ؛ فكانت المواقب تغدو إلى بابها ؛ قال : فكلمته يوماً في أمرٍ لم يجد إلى إجابتها (٣) إليه سبيلا ،

٥٧٠/٣

(١) القورقور : من لباس المرأة . (٢) ١ : « وسبختك » (٣) س : « في إجابتها » .

فاعتلّ بعلّة ، فقالت : لا بدّ من إجابتي ، قال : لا أفعل ، قالت : فإنّي قد تضمّنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك . قال : فغضب موسى ، وقال : ويل على ابن الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبها ؛ والله لأفضيتها لك ، قالت : إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : إذاً والله لا أبالي . وحمي غضب . فقامت مغضبة ، فقال : مكانك تستوعى ^(١) كلامي والله ، وإلاّ فأنا نبيّ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنّ بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوّادي أو أحد من خاصّتي أو خدمي لأضربنّ عنقه ؛ ولأقبضنّ ماله ؛ فن شاء فليزِم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كلّ يوم ! أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يُذكرك ، أو بيت يصونك ! إياك ثمّ إياك ؛ ما فتحت بابك لملئ أو لدمي . فانصرفت ما تعقل ما تطأ ؛ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها .

قال يحيى بن الحسن : وحدّثني أبي ، قال : سمعت خالصة تقول للعباس ابن الفضل بن الربيع : بعث موسى إلى أمّه الخيزُران بأرزّة ، وقال : استطبّتها فأكلتُ منها ، فكلّي منها . قالت خالصة : فقلت لها : أمسكي حتى تنظري ؛ فإنّي أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه ، فجاءوا بكلب فأكل منها ، فتساقط لحمه ؛ فأرسل إليها بعد ذلك : كيف رأيت الأرزّة ؟ فقالت : وجدتها طيبة ، فقال : لم تأكلي ؛ ولو أكلت لكنتُ قد استرحتُ منك ، متى أفلح خليفة له أمّ !

٥٧١/٣

قال وحدّثني بعضُ الهاشمين ، أن سبب موت الهادي كان أنه لما جدّ في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر ، وخافت الخيزُران على هارون منه ، دسّت إليه من جواربها لماً مرض من قتلته بالغمّ والجلوس على وجهه ، ووجّهت إلى يحيى بن خالد : إن الرجل قد توفّي ، فاجدّد في أمرك ولا تقصّر .

وذكر محمد بن عبد الرحمن بن بشار أن الفضل بن سعيد حدّثه ، عن أبيه ، قال : كان يتصل بموسى وصول القوّاد إلى أمّه الخيزُران ، يؤمّلون بكلامها

(١) ج : « تستوعى » . أ : « تستوعى » .

في قضاء حوائجهم عنده ، قال : وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي ؛ فكان يمنعها من ذلك ويقول : ما للنساء والكلام في أمر الرجال ! فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده ، قال يوماً وقد جمعهم : أيما خير ؟ أنا أو أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيما خير ، أمي أو أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال : فأيتكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟ قالوا : ما أحد منا يحب ذلك ، قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبتة ، فشق ذلك عليها فاعتزلته ، وحلفت ألا تكلمه ؛ فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة .

* * *

[ذكر الخبر عما كان من خلع الهادي للرشد]

وكان السبب في إرادة موسى الهادي خلعه أخيه هارون حتى اشتد عليه في ذلك وجد فيما ذكر صالح بن سليمان - أن الهادي لما أفضت إليه الخلافة أقر يحيى بن خالد على ما كان يلي هارون من عمل المغرب ؛ فأراد الهادي خلعه هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر بن موسى الهادي ، وتابعه على ذلك القواد ؛ منهم يزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وعلي بن عيسى ومن أشبههم ؛ فخلعوا هارون ، وبايعوا لجعفر بن موسى ، ودسوا إلى الشيعة ^(١) ؛ فتكلموا في أمره ، وتنقصوه في مجلس الجماعة ، وقالوا : لا نرضى به ، وصعب أمرهم حتى ظهر ؛ وأمر الهادي ألا يسار قدام الرشيد بحربة ، فاجتنبه الناس وتركوه ؛ فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه .

وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه هو وولده - فيما ذكر . قال صالح : وكان لإسماعيل بن صبيح كاتب يحيى بن خالد ، فأحب أن يضعه موضعاً يستعلم له فيه الأخبار ، وكان إبراهيم الحراني في موضع الوزارة لموسى ، فاستكتب إسماعيل ، ورفع الخبر إلى الهادي ؛ وبلغ ذلك يحيى بن خالد ، فأمر إسماعيل أن يشخص إلى حران ، فسار إليها ؛ فلما كان بعد أشهر سأل

(١) : « إليه الشيعة » .

الهادي إبراهيم الحراني : مَنْ كَاتِبُكَ ؟ قال : فلان كاتب ، وسمّاه ، فقال : أليس بلغني أن إسماعيل بن صُبَيْح كاتبك ؟ قال : باطلٌ يا أمير المؤمنين ؛ إسماعيل بجرّان .

قال : وسُعِيَ إلى الهادي ببجي بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من هارون خلاف ؛ وإنما يفسده ببجي بن خالد ، فابعث إلى ببجي ، وتهدّدّه بالقتل ؛ وارمِه بالكفر ؛ فأغضب ذلك موسى الهادي على ببجي بن خالد .

وذكر أبو حفص الكرمانيّ أن محمد بن ببجي بن خالد حدّثه ، قال : بعث الهادي إلى ببجي ليلاً ، فأبى من نفسه ، وودّع أهله ، وتحنّط وجدّد ثيابه ، ولم يشكّ أنه يقتله ؛ فلمّا أدخل عليه ، قال : يا ببجي ، ما لي ولك ! قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ؛ فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته . قال : فلم تدخل ببني وبين أخى وتفسده على ! قال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ أنا حتى أدخل بينكما ! إنما صيرني المهديّ معه ، وأمرني بالقيام بأمره ؛ فقتلت بما أمرني به ، ثم أمرتني بذلك فأنتهيت إلى أمرك . قال : فما الذي صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئاً ، ولذلك فيه ولا عنده . قال : فسكن غضبه . وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع ، فقال له ببجي : لا تفعل ، فقال : أليس يترك لي الهنيء والمرىء ، فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمي ! وكان هارون يجدُّ بأمّ جعفر وجنّداً شديداً ، فقال له ببجي : وأين هذا من الخلافة ! ولعلك ألا يتّرك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ؛ ومنعه من الإجابة .

٥٧٣/٣

قال الكرمانيّ : فحدّثني صالح بن سامان ، قال : بعث الهادي إلى ببجي بن خالد وهو بعيساباذ ليلاً ، فراعته ذلك ، فدخل عليه وهو في خكّوة ، فأمر بطلب رجل كان أخافه^(١) ، فتغيّب عنه ؛ وكان الهادي يريد أن ينادمه ويمنعه مكانه من هارون ، فنادمه وكلّمه ببجي فيه ، فأمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده ، وقال : هذا أمانه^(٢) ، وخرج ببجي فطلب الرجل ، وأتى الهادي به فسرّ بذلك .

قال : وحدثنى غير واحد أن الرجل الذى طلبه كان إبراهيم الموصلى .

قال صالح بن سليمان : قال الهادى يوما للربيع : لا يدخل على يحيى بن خالد إلا آخر الناس . قال : فبعث إليه الربيع ، وتفرغ له . قال : فلما جلس من غد أذن حتى لم يبق أحد ، ودخل عليه يحيى ، وعنده عبد الصمد ابن على والعبّاس بن محمد وجيلة أهل وقوّاده ، فما زال يُدنيه حتى أجلسه بين يديه ، وقال له : إني كنت أظلمك وأكفرك ، فاجعلنى فى حلّ ، فتعجب الناس من إكرامه إياه وقوله ؛ فقبل يحيى يده وشكر له ، فقال له الهادى : من الذى يقول فيك يا يحيى :

لو يَمَسُّ البَخِيلُ راحةَ يحيى لَسَخَتْ نَفْسُهُ بِبَذْلِ النَّوَالِ

قال : تلك راحتك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك !

قال : وقال يحيى للهادى فى خلع الرّشيد لما كلمه فيه : يا أمير المؤمنين ؛ إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم ؛ وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكّد لبيعته ، فقال : صدقت ونصحت ؛ ولى فى هذا تدبير .

قال الكيرمانى : وحدثنى خزيمة بن عبد الله ، قال : أمر الهادى بحبس يحيى بن خالد على ما أَراده عليه من خلع الرّشيد ، فرفع إليه يحيى رقعة : إنّ عندى نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلىنى ، فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أرايت إن كان الأمر - أسأل الله ألاّ - نبلغه ، وأن يقدر منا قبله - أتظنّ أنّ الناس يسلمون الخلافة لجعفر ؛ وهو لم يبلغ الحُلُم ، ويرضون به لصلاتهم وحسبهم وغزوهم ! قال : والله ما أظنّ ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلائتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؛ فقال له : نبهتني يا يحيى - قال : وكان يقول : ما كلّمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى - قال : وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغى أن تعقده له ، فكيف بأن تحلّه عنه ، وقد عقده المهديّ له ! ولكن أرى أن تُقرّر هذا الأمر يا أمير المؤمنين

على حاله ؛ فإذا بلغ جعفر ، وبلغ الله به ، أتيتَه بالرَّشيد فخلع نفسه ، وكان أول مَنْ يبايعه ويعطيه صفقة يده . قال : فقبل الهادي قوله ورأيتَه ، وأمر بإطلاقه .

وذكر الموصليّ عن محمد بن يحيى ، قال : عزم الهادي بعد كلام أبي له على خلْع الرشيد ، وحملَه عليه جماعة من مواليه وقوَّاده ؛ أجابه إلى الخلْع أو لم يُجِبه ، واشتد غضبه منه ، وضيقَ عليه . وقال يحيى هارون : استأذنه في الخروج إلى الصَّيْد ، فإذا خرجتَ فاستبعد ودافع الأيام ، فرفع هارون رقعة يستأذن فيها ، فأذن له ؛ فضى إلى قصر مقاتل^(١) ، فأقام به أربعين يوماً حتى أنكر الهادي أمرَه وغمَّه احتباسُه ، وجعل يكتب إليه ويصرِّفه ، فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر ، وأظهر شتمه ، وبسط مواليه وقوَّاده ألسنتهم فيه ؛ والفضل ابن يحيى إذ ذاك خليفة أبيه ، والرَّشيد بالباب ؛ فكان يكتب إليه بذلك ، وانصرف وطال الأمر .

قال الكرمانيّ : فحدثني يزيد مولى يحيى بن خالد ، قال : بعث الخيزران عاتكة - ظنَّراً كانت هارون - إلى يحيى ، فشقتَ جيبها بين يديه ، وتبكي إليه وتقول له : قالت لك السيدة : الله الله في ابني لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه ، فبقاؤه أحبُّ إلىَّ من الدنيا بجمْع ما فيها . قال : فصاح بها ، وقال لها : وما أنت وهذا ! إن يكن ما تقولين فلاني وولدي وأهلي سنقتلُ قبله ، فإن اتَّهَمْتَ عليه فلست بمتَّهم على نفسي ولا عليهم . قال : ولمَّا لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه هارون بما بذلَّ له من إكرام وإقطاع وصلة ، بعث إليه يتهدَّده بالقتل إن لم يكفَّ عنه . قال : فلم تزل تلك الحال من الخوف والخطر ، ومات أم يحيى وهو في الحُلْد ببغداد ؛ لأن هارون كان ينزل الحُلْد ، ويحيى معه ، وهو وليّ العهد ، نازل في داره يلقيه في ليله ونهاره .

٥٧٦/٣

وذكر محمد بن القاسم بن الرِّبيع ، قال : أخبرني محمد بن عمرو الروميّ ،

(١) : « قصر بني مقاتل » .

قال : حدثني أبي ، قال : جلس موسى الهادي بعد ما ملك في أوّل خلافته جلوساً خاصاً ، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم بن قتيبة والحرّانيّ ، فجلسوا عن يساره ، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلم ، ويكنى أبا سليمان ؛ وكان يثق به ويقدمه ؛ فبينما هو كذلك ، إذ دخل صالح صاحب المصلّى ، فقال : هارون بن المهديّ ، فقال : ائذن له ، فدخل فسلم عليه ، وقبل يديه ، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية ، فأطرق موسى ينظر إليه ، وأدمن ذلك ، ثم التفت إليه ، فقال : يا هارون ، كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمّل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرط القتاد ؛ تؤمّل الخلافة ! قال : فبرك هارون على ركبته ، وقال : يا موسى ؛ إنك إن تجبرت وُضعت ، وإن تواضعت رُفعت ؛ وإن ظلمت خُتلت^(١) ؛ وإني لأرجو أن يفضي الأمر إلى ؛ فأُنصف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادي ، وأزوجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب^(٢) من حق الإمام المهديّ . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ؛ أدن مني ، فدنا منه ، فقبل يديه ، ثم ذهب يعود إلى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل — أغنى أباك المنصور — لا جلست إلاّ معي ، وأجلسه في صدر المجلس معه ، ثم قال : يا حرّانيّ ، احمل إلى أخيّ ألف ألف دينار ؛ وإذا افتتح الخراج فاحمّل إليه النصف منه ، واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا ، وما أخذ من أهل بيت اللعنة ؛ فيأخذ جميع ما أراد . قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدن دابته إلى البساط . قال عمرو الروميّ : وكان هارون يأنس بي ، فقمّت إليه فقلت : يا سيّدی ، ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهديّ : أريت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ؛ فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره . فدعا المهديّ الحكم بن موسى الضمريّ — وكان يكنى أبا سفيان — فقال له : عبّر هذه الرؤيا ، فقال : يملكان جميعاً ، فأما موسى فقتل أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة ؛ وتكون أيامه

٥٧٧/٣

(١) ابن الأثير : « قتلت » .

(٢) ابن الأثير : « ما تحب » .

أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال : ولم يلبث إلا أياماً يسيرة ، ثم اعتل موسى ومات ، وكانت علته ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفضت الخلافة إلى هارون ، فزوج حمدونة من جعفر ابن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ؛ ووفّي بكل ما قال ؛ وكان دهره أحسن الدهور .

٥٧٨/٣

وذكر أن الهادي كان قد خرج إلى الحديث ؛ حديثه الموصل ؛ فرض بها ، واشتد مرضه ، فانصرف . فذكر عمرو الشكري - وكان في الخدم - قال : انصرف الهادي من الحديث بعد ما كتب إلى جميع عماله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه ؛ فلما ثقل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه ، فقالوا : إن صار الأمر إلى يحيى قتلنا ولم يستبقنا ، فتأمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيى بأمر الهادي ، فيضرب عنقه . ثم قالوا : لعل أمير المؤمنين يفتيق من مرضه ، فما عذرنا عنده ! فأمسكوا . ثم بعث الخيزران إلى يحيى لتعلمه أن الرجل لما به ، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي ؛ وكانت المستولية على أمر الرشيد وتدير الخلافة إلى أن هلك ؛ فأحضر الكتاب وجتمعوا في منزل الفضل بن يحيى ، فكتبوا لليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمّال ب وفاة الهادي ، وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يذّون ؛ فلما مات الهادي أنفذوها على البرد .

وذكر الفضل بن سعيد ، أن أباه حدثه أن الخيزران كانت قد حلفت ألا تكلم موسى الهادي ، وانتقلت عنه ، فلما حضرته الوفاة ، وأتاها الرسول فأخبرها بذلك ، فقالت : وما أصنع به ؟ فقالت لها خالصة : قومي إلى ابنك أيتها الحرّة ؛ فليس هذا وقت تعتب ولا تغضب . فقالت : أعطوني ماءً أتوضأ للصلاة ، ثم قالت : أما إننا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ، ويملك خليفة ، ويولد خليفة ؛ قال : فمات موسى ، وملك هارون ، وولد المأمون .

قال الفضل : فحدثت بهذا الحديث عبد الله بن عبيد الله ، فساقه لي مثل ما حدثني أبي ، فقلت : فمن أين كان للخيزران هذا العلم ؟ قال : إنها كانت قد سمعت من الأوزاعي .

٥٧٩/٣

ذكر يحيى بن الحسن أن محمد بن سليمان بن عليّ حدثه ، قال : حدثتني عمّتي زينب ابنة سليمان ، قالت : لما مات موسى بعيساباذ ، أخبرتنا الخيزران الخبير ، ونحن أربع نسوة ؛ أنا وأختي وأمّ الحسن وعائشة ، بُنيّات سليمان ، ومعنا رِبْطَة أمّ عليّ ، فجاءت خالصة ، فقالت لها : ما فعل الناس ؟ قالت : يا سيدتي ، مات موسى ودفنوه ؛ قالت : إن كان مات موسى ، فقد بقي هارون ، هات لي سَوِيْقًا ، فجاءت بسَوِيْقٍ ، فشربت وسقّتنا ، ثم قالت : هات لساداتي أربعمئة ألف دينار ، ثم قالت : ما فعل ابني هارون ؟ قالت : حلف ألاّ يُصلّيَ الظهرَ إلا ببغداد . قالت : هاتوا الرّحائل ، فما جلوسى ها هنا ؛ وقد مضى ! فلاحقته ببغداد .

* * *

ذكر الخبر عن وقت وفاته

ومبلغ سنه وقدر ولايته ومَنّ صلى عليه

قال أبو معشر : توفّيَ موسى الهادي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول ؛ حدثنا بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق .

وقال الواقديّ : مات موسى بعيساباذ للنصف من شهر ربيع الأول .

وقال هشام بن محمد : هلك موسى الهادي لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ليلة الجمعة في سنة سبعين ومائة .

وقال بعضهم : توفّيَ ليلة الجمعة لسته عشر يوماً منه ؛ وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر .

وقال هشام : ملك أربعة عشر شهراً ، وتوفّيَ وهو ابن ستّ وعشرين سنة .

وقال الواقديّ : كانت ولايته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً .

وقال غيرهم : توفّيَ يوم السبت ، لعشر خَلَّتْ من ربيع الأول — أو ليلة الجمعة — وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وكانت خلافته سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه هارون بن محمد الرشيد . وكان كنيته أبا محمد ، وأمّه الخيزران أم ولد ، ودفن بعيساباذ الكبُرَى في بُستانه .

وذكر الفضل بن إسحاق أنه كان طويلًا جسيمًا جميلًا أبيض ، مشربًا حُمْرة ؛ وكان بشفته العليا تَقْلُصُ ، وكان يلقب موسى أَطْبَقَ (١) ؛ وكان ولد بالسَّيْرَوَان من الرِّى .

* * *

ذكر أولاده

وكان له من الأولاد تسعة ؛ سبعة ذكور وإبنتان . فأما الذكور فأحدهم جعفر — وهو الذى كان يرشحه للخلافة — والعباس وعبد الله وإسحاق وإسماعيل وسليمان وموسى بن موسى الأعشى ؛ كلهم من أمهات أولاد . وكان الأعشى — وهو موسى — ولد بعد موت أبيه . والابنتان ؛ إحداهما أم عيسى كانت عند المأمون ، والأخرى أمّ العباس بنت موسى ، تَلَقَّبَ نُوتة .

* * *

ذكر بعض أخباره وسيّره

ذكر إبراهيم بن عبد السلام ، ابن أخى السندى أبو طوطة ، قال : حدثنى السُّنْدَى بن شاهك ، قال : كنت مع موسى بِجُرْجَان ، فَأَتَاهُ نَعَى المهديّ والخلافة ، فركب البريد إلى بغداد ؛ ومعه سعيد بن سَلَم ، ووجهنى إلى خُرَّاسَان ؛ فحدثنى سعيد بن سَلَم ، قال : سرّنا بين أبيات جُرْجَان وبساتينها ، قال : فسمع صوتًا من بعض تلك البساتين من رَجُلٍ يتغنّى ، فقال لصاحب شرطته : علىّ بالرجل الساعة ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين ، ما أشبه قصّة هذا الخائن بقصّة سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف ؟ قال : قلت له : كان سليمان بن عبد الملك فى متنزّه له ومعه حُرْمَه ؛ فسمع من بستان آخر صوت رجل يتغنّى ، فدعا صاحب شرطته ، فقال : علىّ بصاحب الصوت ؛ فَأَتَيْتَ به ؛ فلما مثل بين يديه ، قال له : ما حَمَمَكَ على الغناء وأنت إلى جنبى ومعى حُرْمَى ! أما علمت أن الرِّمَاقَ (٢) إذا سمعت صوت الفحل حنّت إليه ! يا غُلام جُبّة ؛ فجبّب الرجل . فلما كان فى العام المقبل رجّع سليمان إلى ذلك المتنزه ، فجلس مجلسه الذى فيه ، فذكر الرجل وما صنع به ، فقال لصاحب

٥٨١/٣

(١) : « موسى الحقيق » .

(٢) فى القاموس : « الرمكة محرّكة : الفرس أو البرذونة ، تتخذ للنسل » .

شُرطته : على بالرجل الذى كنا جبّسناه ، فأحضره ، فلما مشل بين يديه ، قال له : إماماً بعثت فوفّيتك ، وإماماً وهبت فكافأناك ، قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ، ولكنّه قال له : يا سليمان ؛ الله الله ! إنك قطعت نسلى ، فذهبت بماء وجهى ، وحرمتنى لذتى ، ثم تقول : إماماً وهبت فكافأناك ، وإماماً بعثت فوفّيتك ! لا والله حتى أقف بين يدي الله . قال : فقال موسى : يا غلام ، ردّ صاحب الشرطة ، فردّه ، فقال : لا تعرض للرجل .

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادى ؛ أن على ابن صالح حدّثه ؛ أنه كان يوماً على رأس الهادى وهو غلام — وقد كان جفا المظالم عامّةً ثلاثة أيام — فدخل عليه الحرّاني ، فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه ، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام ؛ فالتفت إلى ، وقال : يا على ، ائذن للناس ، على بالجفلى لا بالنقري^(١) ، فخرجت من عنده أطير على وجهى . ثم وقفت فلم أدر ما قال لى ، فقلت : أراجع أمير المؤمنين ، فيقول : أتحنّجبنى ولا تعلم كلامى ! ثم أدركنى ذهنى ، فبعثت إلى أعرابى كان قد وفد ، وسألته عن الجفلى والنقري ، فقال : الجفلى جفالة ، والنقري ينقرّ خواصّهم^(١) . فأمرت بالسّور فرفعت وبالأبواب ففتحت ، فدخل الناس على بكسرة أبيهم ؛ فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل ؛ فلما تقوَّض المجلس مثلت بين يديه ، فقال : كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا على ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كلّمتنى بكلام لم أسمعه قبل يومى هذا ، وخفت مراجعتك ، فتقول : أتحنّجبنى وأنت لم تعلم كلامى ! فبعثت إلى أعرابى كان عندنا ، ففسّرلى الكلام ؛ فكافّته عنى يا أمير المؤمنين ، قال : نعم مائة ألف درهم تحمّل إليه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ إنه أعرابى جليّف ، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ، فقال : ويلك يا على ! أجود وتبسّخل !

قال : وحدّثنى على بن صالح ، قال : ركب الهادى يوماً يريد عيادة أمّه الخيزران من علّة كانت وجدّتها ، فاعترضه عمر بن بزيع ، فقال له :

(١) يقال : دعاهم الجفلى ، أى دعاهم بجماعتهم ، والنقري : الدعوة الخاصة ، والجفالة : الجماعة من الناس .

يا أمير المؤمنين ؛ ألا أدلك على وجه هو أعود عليك من هذا ؟ فقال : وما هو يا عمر ؟ قال : المظالم لم تنتظر فيها منذ ثلاث ، قال : فأومأ إلى المطرقة أن يميلوا إلى دار المظالم ، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر إليها من تخلفه ، وقال : قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقك ، فلنا إليه ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله .

٥٨٣/٣

وذكر عن عبد الله بن مالك ، أنه قال : كنت أتولّى الشرطة للمهدى ، وكان المهدي يبعث إلى ندماء الهادي ومغنييه ، ويأمرني بضربهم ؛ وكان الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه لهم ؛ ولا ألتفت إلى ذلك ، وأمضى لما أمرني به المهدي . قال : فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف ؛ فبعث إلى يوماً ، فدخلت عليه متكفناً متحنطاً ؛ وإذا هو على كرسي ، والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ، فقال : لا سلم الله على الآخر ! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني ، وما أمر أمير المؤمنين به من ضربه وجسه فلم تجبني ؛ وفي فلان وفلان وجعل يعدد ندماءه — فلم تلتفت إلى قولي ، ولا أمرى ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لي [١] في استيفاء الحجّة ؟ قال : نعم ، قلت : ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ، أيسرك أنك وليتني ما ولاّني أبوك ، فأمرتني بأمر ، فبعث إلى بعض بنيك بأمر يخالف به أمرك ، فاتبعت أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أنا لك ، وكذا كنت لأبيك . فاستدنانني ، فقبّلت يديه ، فأمر يخلع فصبّت عليّ ، وقال : قد وليتُك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً . فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي مفكراً في أمرى وأمره ، وقلت : حدّث يشرب ، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءه ووزراؤه وكتّابه ؛ فكأنني بهم حين يغلب عليهم الشراب قد أزالوا رأيي فيّ ، وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوفه . قال : فإنني لجالس وبين يديّ بنية لي في وقتي ذلك ، والكانون بين يديّ ، ورقاق أشطره بكامسخ وأسخنه وأضعه للصبيّة ؛ وإذا ضجة عظيمة ، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وترزّلت بوقع الخواصر وكثرة الضوضاء ، فقلت : هاه ! كان والله ما ظننت ، ووافاني من أمره ما تخوفت ؛ فإذا الباب قد فتح ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم ؛ فلماً

٥٨٤/٣

رأيته وثبت عن مجلسي مبادراً ، فقبلت يده ورجله وحافر حماره ، فقال لي : يا عبد الله ، إني فكرت في أمرك ، فقلت : يسبق إلى قلبك أننى إذا شربت وحولى أعداؤك ، أزالوا ما حسن من رأيي فيك ، فأقلقتك وأوحشتك ، فصرت إلى منزلك لأونسك وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي لك ، فهات فأطعمني مما كنت تأكل ، وافعل فيه ما كنت تفعل ؛ لتعلم أننى قد تحرمت بطعامك ، وأنست بمنزلك ؛ فيزول خوفك ووحشتك . فأدريت إليه ذلك الرقاق والسكَّرجة التي فيها الكامخ ، فأكل منها ثم قال : هاتوا الزلَّة التي أزلتها لعبد الله من مجلسي . فأدخلت إلى أربعمئة بغل مؤقرة دراهم ، وقال : هذه زُلَّتُكَ ، فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه البغال عندك ؛ لعل أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري ، ثم قال : أظلك الله بخير ، وانصرف راجعاً .

فذكر موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره ، ثم بنى حوله معالف لتلك البغال ؛ وكان هو يتولَّى النظر إليها والقيام عليها أيام حياة الهادى كلها .

٥٨٥/٣

وذكر محمد بن عبد الله بن يعقوب بن داود بن طهمان السُّلَمي . قال : أخبرني أبي ، قال : كان علي بن عيسى بن ماهان يغضب غضب الخليفة ، ويرضى رضا الخليفة ؛ وكان أبي يقول : ما لعربي ولا لعجمي عندي ما لعل ابن عيسى ؛ فإنه دخل إلى الحبس وفي يده سوط ، فقال : أمرني أمير المؤمنين موسى الهادى أن أضربك مائة سوط ، قال : فأقبل يضعه على يدي ومنكبي ؛ يمسنى به مساً إلى أن عد مائة ، وخرج . فقال له : ما صنعت بالرجل ؟ قال : صنعتُ به ما أمرت . قال : فما حاله ؟ قال : مات ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ويلك ! فضحتني والله عند الناس ؛ هذا رجل صالح ، يقول الناس : قتل يعقوب بن داود ! قال : فلما رأى شدة جزعه ، قال : هو حي يا أمير المؤمنين لم يمُت ، قال : الحمد لله على ذلك .

قال : وكان الهادى قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنه الفضل ، فقال له : لا تحجب عني الناس ؛ فإن ذلك يزيل عني البركة ، ولا تلق إلى أمراً إذا كشفته أصبته باطلا ؛ فإن ذلك يوقع الملك ، ويضر بالرعية .

وقال موسى بن عبد الله : أتى موسى برجل ، فجعل يقرّعه بذنوبه ويتهدده ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ، اعتذارى مما تُقرّعنى به ردّ عليك ، وإقرارى يوجب علىّ ذنباً ؛ ولكنى أقول :
فإن كنتَ ترجو فى العقوبة رحمةً فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر
قال : فأمر بإطلاقه .

٥٨٦/٣

وذكر عمر بن شبة أن سعيد بن سلم كان عند موسى الهادى ، فدخل عليه وفد الروم وعلى سعيد بن سلم قلنسوة - وكان قد صلح وهو حدث - فقال له موسى : ضع قلنسوتك حتى تتشايع بصلعتك .

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أن أباه حدثه ، قال : خرجت إلى عيساباذ أريد الفضل بن الربيع ، فلقيت موسى أمير المؤمنين وهو خليفة ؛ وأنا لا أعرفه ؛ فإذا هو فى غلالة على فرس ، ويده قناة لا يدرك أحداً إلا طعنه . فقال لى : يابن الفاعلة ! قال : فرأيت إنساناً كأنه صم ، وكنت رأيته بالشأم ، وكان فخذاه كفخذى بعير ، فضربت يدى إلى قائم السيف ، فقال لى رجل : ويلك ! أمير المؤمنين ، فحرّكت دابى - وكان شهرياً^(١) حملنى عليه الفضل بن الربيع ، وكان اشتراه بأربعة آلاف درهم - فدخلت دار محمد بن القاسم صاحب الحرس ، فوقف على الباب ، ويده القناة ، وقال : أخرج يابن الفاعلة ! فلم أخرج ، ومرّ فضى . قلت للفضل : فإنى رأيت أمير المؤمنين ؛ وكان من القصة كذا وكذا ، فقال : لا أرى لك وجهاً إلا ببغداد ؛ إذا جئت أصابى الجمعة فالقنى ، قال : فما دخلت عيساباذ حتى هلك الهادى .

وذكر الهيثم بن عروة الأنصارى أن الحسين بن معاذ بن مسلم - وكان رضيع موسى الهادى - قال : لقد رأيتنى أخلو مع موسى ، فلا أجد له هبةً فى قلبى عند الخلوة ، لما كان يبسطنى . وربّما^(٢) صارعنى فأصرعه غير هائب له ، وأضرب به الأرض ، فإذا تلبّس لبسة الخلافة ثم جلس مجلس الأمر والنهى

(١) فى القاموس : « الشهيرة : ضرب من البراذين » . (٢) كذا فى ١ ، وهى ساقطة من ط .

قمتُ على رأسه ؛ فوالله ما أملك نفسي من الرعدة والهَيْبَة له .

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أن محمد بن سعيد بن عمر بن مِهْرَان ، حدثه عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كانت المرتبة لإبراهيم بن سلّم ابن قتيبة عند الهادي ، فمات ابن إبراهيم يقال له سلم ، فأتاه موسى الهادي يعزيه عنه على حمار أشهب ، لا يُمنع مُقبلٌ ولا يُردّ عنه مُسلّمٌ ؛ حتى نزل في رواقه ، فقال له : يا إبراهيم ، سرّك وهو عدو^(١) وفتنة ، وحزّنك وهو صلاة ورحمة . فقال : يا أمير المؤمنين ، ما بقي مني^(٢) جزء كان فيه حزن إلّا وقد امتلأ عزاء . قال : فلما مات إبراهيم صارت المرتبة لسعيد بن سلّم بعده .

وذكر عمر بن شبة أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كان يلقب بالجزري^(٣) ، تزوج رُقِيّة بنت عمرو العُمانية - وكانت تحت المهديّ - فبلغ ذلك موسى الهادي في أوّل خلافته ، فأرسل إليه فجّهله^(٤) وقال : أعياك النساء إلّا امرأة أمير المؤمنين ، فقال : ما حرّم الله على خلقه إلّا نساء جدّي صلى الله عليه وسلم ؛ فأما غيرهنّ فلا ولا كرامة . فشجّه بمخضرة كانت في يده ، وأمر بضربه خمسمائة سوط ، فضُرب ، وأراد^(٥) أن يطلّقها فلم يفعل ، فحمل من بين يديه في نِطع فألقى ناحية ؛ وكان في يده خاتم سري^(٦) فرآه بعضُ الخدم وقد غُشي عليه من الضرب ، فأهوى إلى الخاتم ، فقبض على يد الخادم فدقّها ، فصاح . وأتى موسى فأراه يده ، فاستشاط وقال : يُفعل هذا بخادمي ، مع استخفافه^(٧) بأبي ، وقوله لي ! وبعث إليه : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : قلّ له وسكته ، ومُره أن يضع يده على رأسك وليصدّقك . ففعل ذلك موسى ، فصدقه الخادم ، فقال : أحسن والله ، أنا أشهد أنه ابنُ عمّي ؛ لو لم يفعل لانتفيتُ منه . وأمر بإطلاقه . وذكر أبو إبراهيم المؤذن ، أن الهادي كان يشب على الدابة وعليه درعان ، وكان المهديّ يسميه رِيحاني .

٥٨٨/٣

(٢) س : « في » .

(٤) س : « حمل إليه » .

(٦) ابن الأثير : « نفيس » .

(١) س : « عدوك » .

(٣) ج : « الحردى » .

(٥) ج : « وأداره » .

(٧) س : « استخفافك » .

وذكر محمد بن عطاء بن مقدّم الواسطي، أن أباه حدثه أن المهديّ قال لموسى يوماً - وقد قدّم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بنيّ ، إن صار لك ^(١) هذا الأمر فتجرّد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعسل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور ^(٢) وترك قتل الهوامّ تحرّجاً وتحويّلاً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تُبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرُق ، لتتقدّم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ؛ فأرفع فيها الخشب ، وجردّ فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ؛ فأبى رأيتُ جدّك العباس في المنام قلّدي بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين . قال : فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشتُ لأقتلنّ هذه الفرقة كلّها حتى لا أترك منها عيناً تطرف .

ويقال : إنه أمر أن يهتأ له ألف جندع ، فقال : هذا في شهر كذا ، ومات بعد شهرين .

وذكر أيوب بن عناية أن موسى بن صالح بن شيخ ، حدثه أن عيسى ابن دأب كان أكثر أهل الحجاز أدباً وأعدبهم ألفاظاً ؛ وكان قد حطّطى عند الهادي حُطوةً لم تكن عنده لأحد ؛ وكان يدعوله بمتكأ ^(٣) ، وما كان يفعل ذلك بأحد غيره في مجلسه . وكان يقول : ما استطلتُ بك يوماً ولا ليلة ، ولا غبت ^(٤) عن عيني إلاّ تمنّيتُ ألا أرى غيرك . وكان لذيذ المفاكهة طيب المسامرة ، كثير النادرة ، جيد الشعر حسن الانتزاع له . قال : فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار ؛ فلما أصبح ابنُ دأب وجهه قهقرانه إلى باب موسى ، وقال له : الثّق الحاجب ، وقُلْ له : يوجّه إلينا بهذا المال ، فلقى الحاجب ، فأبلغه رسالته ؛ فتبسم وقال : هذا ليس إليّ ، فانطلق إلى صاحب

٥٨٩/٣

(٢) س : « للطهور » .

(١) س : « إليك » .

(٤) س : « وما غبت » .

(٣) ابن الأثير : « بما يتكىء عليه » .

التوقيع ليُخرج له كتاباً إلى الديوان ، فتدبره هناك ثم تفعل فيه كذا وكذا .
فرجع إلى ابن دأب فأخبره ، فقال : دعها ولا تعرض لها ، ولا تسأل عنها .
قال : فيينا موسى في مستشرق له ببغداد ، إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل ،
وليس معه إلا غلام واحد ! فقال لإبراهيم الحرّاني : أما ترى ابن دأب ؛
ما غير من حاله ، ولا تزين لنا ؛ وقد برّرناه بالأمس ليسرى أثرنا عليه ! فقال
له إبراهيم : فإن أمرني أمير المؤمنين عرضت له بشيء من هذا ؛ قال : لا ،
هو أعلم بأمره ؛ ودخل ابن دأب ، فأخذ في حديثه إلى أن عرض له موسى
بشيء من أمره ، فقال : أرى ثوبك غسिला ، وهذا شئ يحتاج فيه إلى الجديد
اللين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، باعني قصير عما أحتاج^(١) إليه ، قال : وكيف
وقد صرفنا إليك من برتنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك ! قال : ما وصل إلى^{٩٠/٣}
ولا قبضته ، فدعا صاحب بيت مال الخاصة ، فقال : عجل له^(٢) الساعة
ثلاثين ألف دينار ، فأحضرت وحملت بين يديه .

وذكر عليّ بن محمد ، أن أباه حدثه عن عليّ بن يقطين ، قال : إني لعند
موسى ليلة مع جماعة من أصحابه ؛ إذ أتاه خادم فسارّه بشيء ، فنهض
سريعاً^(٣) ، وقال : لا تبرحوا ، ومضى فأبطأ ، ثم جاء وهو يتنفس ، فألقى
بنفسه على فراشه يتنفس ساعة حتى استراح ، ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى
بمنديل ، فقام بين يديه ، فأقبل يُرعد ، فعجبنا من ذلك . ثم جلس وقال
للخادم : ضع ما معك ، فوضع الطبق ، وقال : ارفع المنديل ، فرفعه فإذا
في الطبق رأساً جاريتين ؛ لم أر والله أحسن من وجوههما قط ولا من شعورهما ،
وإذا على رؤوسهما الجواهر منظوم على الشعر ، وإذا رائحة طيبة تفوح ، فأعظمتنا
ذلك ، فقال : أتدرون ما شأنهما ؟ قلنا : لا ، قال : بلغنا أنهما تتحبان
قد اجتمعتا على الفاحشة ، فوكلت هذا الخادم بهما يُنهي إلى أخبارهما ، فجاءني
فأخبرني أنهما قد اجتمعتا ، فجئت فوجدتهما في الحاف واحد على الفاحشة

(١) س : « يحتاج » .

(٢) س : « إليه » .

(٣) س : « سرعاً » .

فقتلتها ، ثم قال : يا غلامُ ، ارفع الرأسين^(١) قال : ثم رجع في حديثه كأن لم يصنع شيئاً .

وذكر أبو العباس بن أبي مالك اليامي أن عبد الله بن محمد البواب ، قال : كنت أحجب الهادي خليفةً للفضل بن الربيع ، قال : فإنه ذات يوم جالس وأنا في داره ، وقد تغدّى ودعا بالنبيذ ، وقد كان قبل ذلك دخل على أمه الخيزران ، فسألته أن يولّي خاله الغطريف اليمن ، فقال : أذكّرني به قبل أن أشرب ، قال : فلما عزم على الشرب وجهت إليه منيرة - أو زهرة - تذكّره ، فقال : ارجعي فقولّي : اختاري له طلاق ابنته عبيدة أو ولاية اليمن ، فلم تفهم لإقوله : « اختاري له » فرت ، فقالت : قد اخترت له ولاية اليمن ، فطلق ابنته عبيدة ، فسمع الصباح ، فقال : ما لكم ؟ فأعلمته الخبر ، فقال : أنت اخترت له ، فقالت : ما هكذا أدّيت إلى الرسالة عنك . قال : فأمر صالحاً صاحب المصلى أن يقف بالسيف على رءوس الندماء ليطلقوا نساءهم ، فخرج إلى بذلك الحدم ليعلموني ألا آذن لأحد . قال : وعلى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه ، يراوح بين قدميه^(٢) ، فعنّ لي بيتان ، فأنشدتهما وهما :

خَلِيلِي مِنْ سَعْدٍ أَلِمَّا فَسَلِّمًا^(٣) عَلَى مَرْيَمَ ، لَا يُبْعِدُ اللَّهُ مَرْيَمًا
وَقُولَا لَهَا : هَذَا الْفِرَاقُ عَزَمْتِهِ فَهَلْ مِنْ نَوَالٍ بَعْدَ ذَاكَ فَيُعْلَمَا!^(٤)

قال : فقال لي الرجل المتلفع بطيلسانه : فنسعلما ، فقلت : ما الفرق بين « يعلما » و « نسعلما » ؟ فقال : إن الشعر يصلحه معناه ويفسده معناه ، ما حاجتنا إلى أن يعلم الناس أسرارنا ! فقلت له : أنا أعلم بالشعر منك ، قال : فلمن الشعر ؟ قلت : للأسود بن عمارة النوفلي ، فقال لي : فأنا هو ؛ فدنوت منه فأخبرته خبر موسى ، واعتذرت إليه من مراجعتي إياه . قال : فصرفت دابته ، وقال : هذا أحق منزل بأن يترك^(٥) .

(٢) الأغاني : « رجليه » .

(١) س : « ارجع بالرأسين » .

(٤) الأغاني : « قبل ذاك » .

(٣) ج : « من سعدى » .

(٥) الخبر في الأغاني ١٤ : ١٧١ ، ١٧٢ .

قال مصعب الزبيري : قال أبو المعافى : أنشدت العباس بن محمد مديحاً
في موسى وهارون :

يا خَيْرُزُنْ هَنَّاكِ ثُمَّ هَنَّاكِ إِنَّ الْعِبَادَ يَسْؤُسُهُمْ إِبْنَاكِ ٥٩٢/٣

قال : فقال لي : إني أنصحك ، قال اليماني : لا تذكر أمي بخير ولا بشر .
وذكر أحمد بن صالح بن أبي فنن ، قال : حدثني يوسف الصيقل
الشاعر الواسطي ، قال : كنا عند الهادي بـجُرْجان قبل الخلافة ودخوله بغداد ،
فصعد مستشفراً له حسناً ؛ فغنّني بهذا الشعر :

وَاسْتَقَلْتُ رَجَالَهُمْ^(١) بِالرُّدَيْنِيِّ شُرْعَا

فقال : كيف هذا الشعر ؟ فأنشدوه ، فقال : كنت أشتهي أن يكون
هذا الغناء في شعر أرق من هذا ، اذهبوا إلى يوسف الصيقل حتى يقول فيه ،
قال : فأتوني فأخبروني الخبر ، فقلت :

لَا تَلْمَنِي أَنْ أَجْزَعَا سَيِّدِي قَدْ تَمَنَّا
وَابِلَائِي إِنْ كَانَ مَا بَيْنَنَا قَدْ تَقَطَّعَا
إِنَّ مُوسَى بِفَضْلِهِ جَمَعَ الْفَضْلَ أَجْمَعَا

قال : فنظر^(٢) فإذا بعير أمامه^(٣) ، فقال : أوقروا هذا دراهم ودنانير ،
واذهبوا بها إليه . قال : فأتوني بالبعير موقراً^(٤) .

وذكر محمد بن سعد ، قال : حدثني أبو زهير ، قال : كان ابن دأب
أحظى الناس عند الهادي ، فخرج الفضل بن الربيع يوماً ، فقال : إن
أمير المؤمنين يأمر من يبابه بالانصراف ؛ فأما أنت يا ابن دأب فادخل ، قال
ابن دأب : فدخلت عليه وهو منبطح على فراشه ؛ وإن عيسئسيه لحرمان من
السَّهر وشرب الليل ، فقال لي : حدثني بجديث في الشراب ، فقلت : نعم ٥٩٣/٣

(١) س : « واستهلت رحاهم » ، الأغاني : واستدارت رحاهم .

(٢) ج : « فنظرت » .

(٣) ج : « قائم » .

(٤) الخبر في الأغاني ٢٠ : ٩٣ ، ٩٤

يا أمير المؤمنين ، خرجت رجلة ^(١) من كنانة ينتجعون الخمر من الشام ، فأت
أخ لأحدهم ، فجلسوا عند قبره يشربون ، فقال أحدهم :

لا تُصِرْ دَ هَامَةً مِنْ شَرِبِهَا أَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَإِنْ كَانَ قُيْرُ
أَسْقِ أَوْصَالاً وَهَاماً وَصَدَى قَاشِعاً يَقْشَعُ قَشْعَ الْمُتَكَرِّ ^(٢)
كَانَ حُرّاً فَهَوَى فِيمَنْ هَوَى كُلَّ عُوْدٍ وَفُنُونٍ مِنْكَسِرْ

قال : فدعا بدواة فكتبها ، ثم كتب إلى الحراني بأربعين ألف درهم ،
وقال : عشرة آلاف لك ، وثلاثون ألفاً للثلاثة الأبيات . قال : فأتيت
الحراني ، فقال : صالحنا على عشرة آلاف ، على أنك تحلف لنا ألا تذكرها
لأمير المؤمنين ، فحلفت ألا أذكرها لأمير المؤمنين حتى يبدأني ، فأت ولم
يذكرها حتى أفضت الخلافة إلى الرشيد .

وذكر أبو دِعامَة أن سَلَمَ بْنَ عمرو الخاسر مدح موسى الهادي ، فقال :

بَعِيسَابَاذَ حُرٍّ مِنْ قَرِيْشٍ عَلَى جَنَابَتِهِ الشَّرْبُ الرُّوَاءُ
يَعُوْذُ الْمُسْلِمُونَ بِحَقْوَتَيْهِ إِذَا مَا كَانَ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءُ
وَبِالْمَيْدَانِ دُورٌ مُشْرِفَاتٍ يُشَيِّدُهُنَّ قَوْمٌ أَدْعِيَاءُ
وَكَمْ مِنْ قَائِلٍ إِنْ صَحِيحٌ وَتَأْبَاهُ الْخَلَائِقُ وَالرُّوَاءُ
لَهُ حَسْبٌ يَضُنُّ بِهِ لِيَبْقَى وَلَيْسَ لِمَا يَضُنُّ بِهِ بَقَاءُ
عَلَى الضَّبِيِّ لَوْمْ لَيْسَ يَخْفَى يَغْطِيهِ فَيَنْكَشِفُ الْغَطَاءُ
لَعَمْرِي لَوْ أَقَامَ أَبُو خَدِيجٍ بِنَاءَ الدَّارِ مَا انْهَدَمَ الْبِنَاءُ

٥٩٤/٣

قال : وقال سَلَمَ بْنَ الخاسر لما تولّى الهادي الخلافة بعد المهدي :

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ
فَمَاتَ الَّذِي عَمَّ الْبَرِيَّةَ فَقَدَهُ وَقَامَ الَّذِي يَكْفِيكَ مَنْ يُتَفَقَّدُ

(١) رجلة : جمع راجل ؛ وهو الذي ليس له ظهر يركبه .

(٢) ج : « المتكرر » .

وقال أيضاً :

تَخْفَى الْمُلُوكُ لِمُوسَى عِنْدَ طَلْعَتِهِ مِثْلَ النُّجُومِ لِقَرْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَا
وَلَيْسَ خَلْقُ يَرَى بَدْرًا وَطَلْعَتُهُ مِنْ الْبَرِيَّةِ إِلَّا ذَلَّ أَوْ خَضَعَا

وقال أيضاً :

لَوْلَا الْخَلِيفَةُ مُوسَى بَعْدَ وَالِدِهِ مَا كَانَ لِلنَّاسِ مِنْ مَهْدِيَّهِمْ خَلْفُ
أَلَا تَرَى أُمَّةَ الْأُمِّيِّ وَارِدَةً كَأَنَّهُمَا مِنْ نَوَاحِي الْبَحْرِ تَغْتَرِفُ
مِنْ رَاحَتِي مَلِكٍ قَدْ عَمَّ نَائِلُهُ كَانَ نَائِلُهُ مِنْ جُودِهِ سَرَفُ

وذكر إدريس بن أبي حفصة أن مروان بن أبي حفصة حدثه ، قال :
لما ملك موسى الهادي دخلت عليه فأنشدته :

إِنْ خُلِدْتُ بَعْدَ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ نَفْسِي لَمَّا فَرِحْتَ بِطُولِ بَقَائِهَا

قال : ومدحت فقلت فيه :

بِسَبْعِينَ أَلْفًا شَدَّ ظَهْرِي وَرَاشِنِي أَبُوكَ وَقَدْ عَايَنْتُ مِنْ ذَاكَ مَشْهَدَا
وَإِنِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوَاتِقُ بَأَلَّا يُرَى شَرْبِي لَدَيْكَ مُصْرَدًا^(١)

فلما أنشدته قال : ومن يبلغ مدى المهدي ! ولكننا سنبلغ رضاك .
قال : وعاجلته المنية فلم يعطني شيئاً ، ولا أخذت من أحد درهماً حتى
قام الرشيد .

وذكر هارون بن موسى الفروى^(٢) ، قال : حدثني أبو غزيرة ، عن
الضحاح بن معن السلمي ، قال : دخلت على موسى فأنشدته :

يَا مَنْزِلِي شَجْوِ الْفَوَادِ تَكَلَّمَا فَلَقَدْ أَرَى بِكُمَا الرَّبَابَ وَكُلُّمَا
مَا مَنْزِلَانِ عَلَى التَّقَادُمِ وَالْبَلَى أَبْكِي لِمَا تَحْتَ الْجَوَانِحِ مِنْكُمَا
رُدًّا السَّلَامَ عَلَى كَبِيرِ شَاقَةِ طَلَلَانَ قَدْ دَرَسَا فَهَاجَ فَسَلَّمَا

(١) شرب مصدر ، أى قليل . (٢) ط : « القروى » وصوابه من ا ، وانظر الفهرس .

قال : ومدحته فيها ، فلما بلغت :

سَبَطَ الْأَنَامِلُ بِالْفَعَالِ أَخَالُهُ أَنْ لَيْسَ يَتْرُكُ فِي الْخَزَائِنِ دِرْهَمًا
التفت إلى أحمد الخازن ، فقال : ويحك يا أحمد ! كأنه نظر إلينا البارحة ،
قال : وكان قد أخرج تلك الليلة مالا كثيرا ففرقه .

وذكر عن إسحاق الموصلي - أو غيره - عن إبراهيم ، قال : كنا يوما
عند موسى ، وعنده ابن جامع ومُعَاذ بن الطيب - وكان أول يوم دخل علينا
مُعَاذ ؛ وكان مُعَاذ حاذقا بالأغاني ، عارفاً بقديهما - فقال : مَنْ أَطْرَبُنِي
منكم فله حكمه ؛ فغناه ابنُ جامع غِنَاءً فلم يحرّكه ، وفهمتُ غرضه في
الأغاني ، فقال هات يا إبراهيم ، فغنيته :

سُلَيْمَى أَجْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ نَقُولُهَا أَيْنَا !

فطرب حتى قام من مجلسه ، ورفع صوته ، وقال : أعد ، فأعدت ،
فقال : هذا غرضي فاحسبكم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك
وعينه الحرارة ، فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جسمَرتان ، ثم قال :
يا بن اللخناء ، أردت أن تُسمع العامة أنك أطربتني وأنتي حكمتك فأفطعتك !
أما والله لولا بادرةُ جهلك التي غلبتُ على صحيح عقلك لضربتُ الذي فيه
عينك . ثم أطرق هُنيئة ^(١) ، فرأيت ملك الموت بيني وبينه ينتظر أمره .
ثم دعا إبراهيم الحرّاني فقال : خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال ، فليأخذ
منه ما شاء ، فأدخلني الحرّاني بيت المال ، فقال : كم تأخذ ؟ قلت : مائة
بدرّة ، قال : دعني أوأمّره ^(٢) ، قال : قلت : فثمانين ، قال : حتى أوأمّره ،
فعملت ما أراد ، فقلت : سبعين بدرّة لي ، وثلاثين لك ، قال : الآن جئت
بالحق ، فشأنك . فانصرفتُ بسبعمئة ألف وانصرف ملك الموت عن وجهي .

٥٩٦/٣

وذكر علي بن محمد ، قال : حدثني صالح بن علي بن عطية الأضخم
عن حكيم الوادي ، قال كان الهادي يشتهي من الغناء الوسط الذي يقل

(١) كذا في أ وفي القاموس : الهنيئة ، أي شيء يسير ، وصوابه ترك الهمة .

(٢) أوأمّره ، أي أشاوره .

ترجيئعه ، ولا يبلغ أن يستخف به جداً . قال : فبينما نحن ليلة عنده ، وعنده ابن جامع والموصلي والزبير بن دحمان والغنوي إذ دعا بثلاث بدور وأمر بهن فوضعن في وسط المجلس ، ثم ضم بعضهن إلى بعض ، وقال : من غناني صوتاً في طريق الذي أشتهيه ، فهن له كلهن . قال : وكان فيه خلُق حسن ؛ كان إذا كره شيئاً لم يوقّف عليه ، وأعرض عنه . فغناه ابن جامع ، فأعرض عنه ، وغنى القوم كلهم ؛ فأقبل يعرض حتى تغنيت ، فوافقت ما يشتهي ؛ فصاح : أحسنت أحسنت ! اسقوني ، فشرب وطرب ، فقامت فجلست على البذور ، وعلمت أني قد حوّيتها ، فحضر ابن جامع ، فأحسن المحضر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، هو ^(١) والله كما قلت ؛ وما منّا أحد إلا وقد ذهب عن طريقك غيره ، قال : هي لك ، وشرب حتى بلغ حاجته على الصوت ، ونهض ، فقال : مروا ثلاثة من الفرائش يحملونها معه ، فدخل وخرجنا نمشي في الصحن منصرفين ، فلحقني ابن جامع ، فقلت : جعلت فداك يا أبا القاسم ! فعلت ما يفعل مثلك في نسبك ؛ فانظر فيها بما شئت . فقال : هناك الله ، ودنا أنا زدناك . ولحقنا الموصلي ، فقال : أجزنا ^(٢) ، فقلت : ولیم لم تحسن محضرك ! لا والله ولا درهماً واحداً ^(٣) .

٥٩٧/٣

وذكر محمد بن عبد الله ، قال : قال لي سعيد القارئ العلاف — وكان صاحب أبان القارئ : إنه كان عند موسى جلسائه ، فيهم الحراني وسعيد ابن سلم وغيرهما ؛ وكانت جارية لموسى تسقيهم ؛ وكانت ماجنة ، فكانت تقول لهذا : يا جليبي ^(٤) ؛ وتعبث بهذا وهذا ؛ ودخل يزيد بن مزيد فسمع ما تقول لهم ، فقال لها : والله الكبير ؛ لأن قلت لي مثل ما تقولين لهم لأضربنك ضربة بالسيف ، فقال لها موسى : ويلك ! إنه والله يفعل ما يقول ؛ فأياك . قال : فأمسكت عنه ولم تعابثه قط . قال : وكان سعيد العلاف وأبان القارئ إياضيتين .

(١) س : « هذا » ، الأغاني : « أحسن » .

(٢) الأغاني : « آخذ يا حكم من هذا ؟ » .

(٣) الخبر في الأغاني ٦ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٤) قال في اللسان : « الجليبي : الجاني في خلقه وخلقه » .

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب ، قال : حدثني ابن القداح ، قال : كانت للربيع جارية يقال لها أمة العزيز ، فائقة الجمال ، ناهدة الشديس ، حسنة القوام ، فأهداها إلى المهدي ، فلما رأى جمالها وهيئتها ، قال : هذه لموسى أصلح ، فوهبها له ؛ فكانت أحب الخلق إليه ، وولدت له بنه الأكبر . ثم إن بعض أعداء الربيع قال لموسى : إنه سمع الربيع يقول : ما وضعتُ بيني وبين الأرض مثل أمة العزيز ، فغار موسى من ذلك غيرة شديدة ، وحلف ليعتقلن الربيع ، فلما استخلف دعا الربيع في بعض الأيام ، فتغدى معه وأكرمه ، وناوله كأساً فيها شراب عسل ؛ قال : فقال الربيع : فعلت أن نفسي فيها ، وأنني إن رددت الكأس ضرب عني ؛ مع ما قد علمت أن في قلبه علي من دخولي على أمه ، وما بلغه عني ، ولم يسمع مني عذراً . فشربتها . وانصرف الربيع إلى منزله ، فجمع ولده ، وقال لهم : إني ميت في يومى هذا أو من غد ، فقال له ابنه الفضل : ولم تقول هذا جعلت فداك ! فقال : إن موسى سقاني شربة سم بيده ، فأنا أجد عملها في بدني ، ثم أوصى بما أراد ، ومات في يومه أو من غده . ثم تزوج الرشيد أمة العزيز بعد موت موسى الهادي ، فأولدها علي بن الرشيد .

٥٩٨/٣

وزعم الفضل بن سليمان بن إسحاق الهاشمي أن الهادي لما تحول إلى عيساباذ في أول السنة التي ولي الخلافة فيها ، عزل الربيع عما كان يتولاه من الوزارة وديوان الرسائل ، وولّى مكانه عمر بن بزيع ، وأقر الربيع على الزمام ؛ فلم يزل عليه إلى أن توفى الربيع ، وكانت وفاته بعد ولاية الهادي بأشهر ؛ وأودن بموته فلم يحضر جنازته ، وصلى عليه هارون الرشيد ؛ وهو يومئذ ولي عهد ، وولّى موسى مكان الربيع إبراهيم بن ذكوان الحراني ، واستخلف على ما تولاه إسماعيل بن صبيح ، ثم عزله واستخلف يحيى بن سليم ، وولّى إسماعيل زمام ديوان الشام وما يليها .

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، خال الفضل بن الربيع ، أن أباه حدثه ، أن موسى الهادي قال : أريد قتل الربيع ؛ فما أدري كيف أفعل به ! فقال له سعيد بن سلم : تأمر رجلاً باتخاذ سكين مسموم ، وتأمره بقتله ، ثم

٥٩٩/٣

تأمر بقتل ذلك الرجل . قال : هذا الرأي ، فأمر رجلاً فجلس له في الطريق ، وأمره بذلك ، فخرج بعض خلفاء الربيع ، فقال له : إنه قد أمر فيك بكذا وكذا ، فأخذ في غير ذلك الطريق ، فدخل منزله ، فمارض ، فمرض بعد ذلك ثمانية أيام ؛ فمات ميتة نفسه . وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة ؛ وهو الربيع ابن يونس .

خلافة هارون الرشيد

بُويِعَ للرشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بالخلافة ليلة الجمعة الليلة التي تُوَفِّيَ فيها أخوه موسى الهادي . وكانت سنّهُ يوم ولى اثنتين وعشرين سنة . وقيل كان يوم بُويِعَ بالخلافة ابنَ إحدى وعشرين سنة . وأمّه أم ولد إِمَانِيَّة جُرَشِيَّة يقال لها خَيْرُزَان ، وولد بالرّى ثلاث بقين من ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة في خلافة المنصور . وأما البرامكة فإنها - فيما ذُكِرَ - تزعم أنّ الرشيد وُلِدَ أول يوم من المحرم سنة تسع وأربعين ومائة ؛ وكان الفضل بن يحيى ولد قبله بسبعة أيام ، وكان مولد الفضل لسبع بقين من ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائة ، فجعلت أم الفضل ظمراً للرشيد ، وهى زينب بنت منير ، فأرضعت الرشيد بلبان^(١) الفضل ، وأرضعت الخيزُران الفضل بلبان الرشيد .

وذكر سليمان بن أبي شيخ أنه لما كان الليلة التي تُوَفِّيَ فيها موسى الهادي أخرج هَرَثْمَةُ بن أعين هارون الرشيد ليلاً فأقعده للخلافة ، فدعا هارون يحيى بن خالد بن برمك - وكان محبوباً ، وقد كان عزم موسى على قتله وقتل هارون الرشيد في تلك الليلة - قال : فحضر يحيى ، وتقلّد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فأحضره ، وأمره بإنشاء الكتب ؛ فلما كان غداة تلك الليلة ، وحضر القواد قام يوسف بن القاسم ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم تكلم بكلام أبلغ فيه ، وذكر موت موسى وقيام هارون بالأمر من بعده ، وما أمر به للناس من الأعطيات . وذكر أحمد بن القاسم ، أنه حدثه عمّه عليّ بن يوسف بن القاسم هذا الحديث ، فقال : حدثني يزيد الطبريّ مولانا أنه كان حاضراً يحمل دواة أبي يوسف ابن القاسم ، فحفظ الكلام . قال : قال بعد الحمد لله عزّ وجلّ والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(١) في اللسان : « يقال : هو أخوه بلبان أمه ، بكسر اللام ؛ ولا يقال : بلبن أمه ؛ إنما اللبن الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرها » .

إن الله بمنه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وأتاكم أهل الطاعة من أنصار الدّولة وأعوان الدّعوة ، من نعمته التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد ، وأياديه التامة ، أن جمع ألفتكم وأعلى أسرکم ، وشدّ عَضْدُكم ، وأوهن عدوكم ، وأظهر كلمة الحقّ ؛ وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ؛ فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذابّين بسيفه المنتضى ؛ عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم استنقذهم من أيدي الظّلمة ، أئمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدّم الحرام ، والآكلين النّيء ، والمستأثرين به ؛ فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النّعمة ، واحذروا أن تغيّروا فيغيّر بكم . وإن الله جل وعزّ استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام ، فقبضه إليه ، وولّى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين رعوفاً بكم رحيماً ، من محسنكم قبولا ، وعلى مسيئكم بالعفو ^(١) عطوفاً ؛ وهو - أمتعه الله بالنّعمة وحفظ ^(٢) له ما استرعاها إياه من أمر الأمة ، وتولاّه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته - يعدّمكم من نفسه الرّأفة بكم ، والرحمة لكم . وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبدل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً ، غير مقاصّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحامل باقِي ذلك ؛ للدّفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال ؛ حتى تعود الأموال إلى جِمامِها وكثرتها ، والحال التي كانت عليها ؛ فاحمدوا الله وجدّدوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم ؛ بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضّل به عليكم ، أيّده الله بطاعته . وارغبوا إلى الله له في البقاء ؛ ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون . وأعطوا صّفقة إيمانكم ، وقوموا إلى بسيعتكم ، حايطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم ^(٣) وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباد الصالحين

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، قال : حدثني محمد بن هشام

(٢) س : « وحفظ الله » .

(١) ج : « بالعطف » .

(٣) ج : « لكم » .

الحزبي ، قال : جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم في لحاف بلا إزار ؛
 لما تَوَفَّى موسى ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كم تروني
 إعجاباً منك بخلافتي ! وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل ؛ فإن بلغه هذا ،
 فما تكون حالي ! فقال له : هذا الحراني وزير موسى وهذا خاتمه . قال : ففعد
 في فراشه ، فقال : أشر على ، قال : فبينما هو يكلمه إذ طلع رسول آخر ،
 فقال : قد وُلد لك غلام ، فقال : قد سميتُه عبد الله ، ثم قال ليحيى : أشر
 على ، فقال : أشر عليك أن تقعد لخالك على إرمينية ، قال : قد فعلت ؛ ولا
 والله لا صليت بعيساباذ إلا عليها ، ولا صليت الظهر إلا ببغداد ؛ وإلا ورأس
 أبي عصمة بين يدي . قال : ثم لبس ثيابه ، وخرج فصلى عليه ، وقدم
 أبا عصمة ، ففرضب عنقه ، وشدَّ جُمته في رأس قناة ، ودخل بها ببغداد ؛
 وذلك أنه كان مضى هو وجعفر بن موسى الهادي راكبين . فبلغا إلى قنطرة من
 قناطر عيساباذ ، فالتفت أبو عصمة إلى هارون ، فقال له : مكانك حتى يجوز
 ولي العهد ، فقال هارون : السمع والطاعة للأمير ؛ فوقف حتى جاز جعفر ؛
 فكان هذا سبب قتل أبي عصمة .

٦٠٢/٣

قال : ولما صار الرشيد إلى كرسى الجسر دعا بالغواصين ، فقال : كان
 المهدي وهب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار يسمى الجبل^(١) ، فدخلت على
 أخي وهو في يدي ؛ فلما انصرفت لحقني سليم الأسود على الكرسى ، فقال :
 يأمرُك أمير المؤمنين أن تعطيني الخاتم ، فرميت به في هذا الموضع . فغاصوا ،
 فأخرجوه ، فسُرب به غاية السرور .

قال محمد بن إسحاق الهاشمي : حدثني غير واحد من أصحابنا ، منهم
 صباح بن خاقان التميمي ، أن موسى الهادي كان خلع الرشيد وبائع لابنه
 جعفر ؛ وكان عبد الله بن مالك على الشرط ، فلما تَوَفَّى الهادي هجم خزيمة
 ابن خازم في تلك الليلة ، فأخذ جعفرًا من فراشه ؛ وكان خزيمة في خمسة
 آلاف من مواليه معهم السلاح ، فقال : والله لأضربن عنقك أو تخلعها ،
 فلما كان من الغد ، ركب الناس إلى باب جعفر ، فأتى به خزيمة ، فأقامه

على باب الدار في العلو، والأبواب مغلقة، فأقبل جعفر ينادي: يا معشر المسلمين، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللتها منها؛ والخلافة لعمرى هارون؛ ولا حق لي فيها.

وكان سبب مشى عبد الله بن مالك الخزاعي إلى مكة على الدود؛ لأنه كان شاور الفقهاء في أيمانه التي حلف بها لبيعة جعفر، فقالوا له: كل يمين لك تخرج منها إلا المشى إلى بيت الله؛ ليس فيه حيلة. فحج ماشياً. وحظي خزيمة بذلك عند الرشيد.

وذكر أن الرشيد كان ساخطاً على إبراهيم الحرائي وسلام الأبرش يوم مات موسى، فأمر بحبسهما وقبض أموالهما، فحبس إبراهيم عند يحيى بن خالد في داره، فكلّم فيه محمد بن سليمان هارون، وسأله الرضا عنه وتخلية سبيله، والإذن له في الانحدار معه إلى البصرة، فأجابه إلى ذلك.

* * *

وفي هذه السنة عزل الرشيد عمر بن عبد العزيز العمري عن مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وما كان إليه من عملها، وولّى ذلك إسحاق بن سليمان ابن علي.

وفيها ولد محمد بن هارون الرشيد، وكان مولده - فيما ذكر أبو حفص الكرماني عن محمد بن يحيى بن خالد - يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة، وكان مولد المأمون قبله في ليلة الجمعة النصف من شهر ربيع الأول.

وفيها قلّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارة، وقال له: قد قلّدتك أمر الرعية، وأخرجته من عني إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه؛ ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أنّ الشمس كانت سقيمةً فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناطرة في الأمور ، وكان يحيى يعرض عليها ويصدرُ
عن رأيها .

وفيهما أمر هارون بسهم ذوى القربى ، فقسّم بين بنى هاشم بالسوية .
وفيهما آمن مَنْ كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزنادقة ؛ منهم
يونس بن فروة ويزيد بن الفيض .

وكان ممّن ظهر من الطالبيين طباطبأ ؛ وهو إبراهيم بن إسماعيل ، وعلى بن
الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن .

وفيهما عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنّسرين ، وجعلها حيزاً واحداً
وسميت العواصم .

وفيهما عمّرت طرسوس على يدى أبي سليم فرج الخادم التركى ونزلها الناس .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون الرشيد من مدينة السلام ، فأعطى أهل
الخرمسين عطاء كثيراً ، وقسم فيهم مالاّ جليلاً .

٦٠٥/٣

وقد قيل : إنه حجّ في هذه السنة وغزا فيها ، وفي ذلك يقول داود بن رزين :

بهارونَ لاحَ النُّورُ في كُلِّ بَلَدَةٍ	وَقَامَ بِهِ في عَدَلِ سِيرَتِهِ النَّهْجُ
إِمَامَ يَذَاتِ اللَّهِ أَصْبَحَ شُغْلُهُ	وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَى بِهِ الْغَزْوُ وَالْحَجُّ
تَضِيقُ عَيْنُ النَّاسِ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ	إِذَا مَا بَدَأَ لِلنَّاسِ مَنَظَرُهُ الْبَلَجُ
وَإِنَّ أَمِينَ اللَّهِ هَارُونَ ذَا النَّدَى ^(١)	يُنِيلُ الَّذِي يَرْجُوهُ أَضْعَافَ مَا يَرْجُو

وغزا الصائفة في هذه السنة سليمان بن عبد الله البكائي .

وكان العامل فيها على المدينة إسحاق بن سليمان الهاشمي ، وعلى مكة
والطائف عبيد الله بن قُشَم ، وعلى الكوفة موسى بن عيسى ، وخليفته عليها
ابنه العباس بن موسى ، وعلى البصرة والبحرين والفرّص وُعثمان واليامة وكُور
الأهواز وفارس محمد بن سليمان بن عليّ .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك قدوم أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي مدينة السلام منصرفاً عن خراسان ، وكان خاتم الخلافة حين قدم مع جعفر بن محمد بن الأشعث ، فلما قدم أبو العباس الطوسي أخذ الرشيده منه ، فدفعه إلى أبي العباس ، ثم لم يلبث أبو العباس إلا يسيراً حتى توفى . فدفع الخاتم إلى يحيى بن خالد ، فاجتمعت ليحيى الوزارتان .

٢٠٦/٣

وفيهما قتل هارون أبا هريرة محمد بن فروخ - وكان على الجزيرة - فوجه إليه هارون أبا حنيفة حرب بن قيس ، فقدم به عليه مدينة السلام ، فضرب عنقه في قصر الخلد .

وفيهما أمر هارون بإخراج من كان في مدينة السلام من الطالبين إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي ابن أبي طالب ، وكان أبوه الحسن بن عبد الله فيمن أشخص .

وخرج الفضل بن سعيد الحروري فقتله أبو خالد المروزي .

وفي هذه السنة كان قدوم روح بن حاتم إفريقية ، وخرجت في هذه السنة الخيزران إلى مكة في شهر رمضان ، فأقامت بها إلى وقت الحج فحجّت .

وحج بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك شخوص الرشيد فيها إلى مَرَج القلعة مرتاداً بها منزلاً ينزله .

* ذكر السبب في ذلك :

٦٠٧/٣

ذكر أن الذي دعاه إلى الشخوص إليها أنه استقل مدينة السلام ، فكان يسميها البُسْخار ، فخرج إلى مَرَج القلعة ، فاعتلّ بها ، فانصرف ، وُسِّمَتْ تلك السفرة سَفْرَةَ المرتاد .

* * *

وفيهما عزل الرشيد يزيد بن مزيد عن إرمينية ، وولّاها عبيد الله بن المهديّ .

* * *

وغزا الصائفة فيها إسحاق بن سليمان بن عليّ .

وحجّ بالناس في هذه السنة يعقوب بن أبي جعفر المنصور .

وفيهما وضع هارون عن أهل السواد العُشْبَر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر وفاة محمد بن سليمان]

فمن ذلك وفاة محمد بن سليمان بالبصرة، ليلال بقين من جمادى الآخرة منها. وذكر أنه لما مات محمد بن سليمان وجهه الرشيد إلى كل ما خلقه رجلاً أمره باصطفائه، فأرسل إلى ما خلف من الصّامت من قبل صاحب بيت ماله رجلاً، وإلى الكسوة بمثل ذلك، وإلى الفرش والرقيق والدواب من الخيل والإبل، وإلى الطيب والجوهر وكل آلة برجل من قبل الذى يتولى كل صنف من الأصناف، فقد مو البصرة، فأخذوا جميع ما كان لمحمد مما يصلح للخلافة، ولم يتركوا شيئاً إلا الحرثي^(١) الذى لا يصلح للخلفاء، وأصابوا له ستين ألف ألف، فحملوها مع ما حمّل، فلما صارت فى السفن أخير الرشيد بمكان السفن التى حملت ذلك؛ فأمر أن يدخل جميع ذلك خزائنه إلا المال؛ فإنه أمر بصكاك فكتب للندماء، وكتب للمغنين صكاك صغار لم تدّر فى الديوان، ثم دفع إلى كل رجل صكاً بما رأى أن يهب^(٢) له، فأرسلوا وكلاءهم إلى السفن، فأخذوا المال على ما أمر لهم به فى الصكاك أجمع؛ لم يدخل منه بيت ماله دينار ولا درهم، واصطفى ضياعه؛ وفيها ضيعة يقال لها برشيد بالأهواز لها غلة كثيرة.

وذكر على بن محمد، عن أبيه، قال: لما مات محمد بن سليمان أصيب فى خزانة لباسه منذ كان صبياً فى الكتّاب إلى أن مات مقادير السنين؛ فكان من ذلك ما عليه آثار النقص^(٣). قال: وأخرج من خزانته ما كان يهدى له من بلاد السند ومكران وكيرمان وفارس والأهواز واليامة والرى ونحمان؛ من اللطاف والأدهان والسّمك والحبوب والجن، وما أشبه ذلك، ووجد أكثره فاسداً. وكان من ذلك خمسمائة كسعة^(٤) أقيست من دار جعفر

(٢) ج: «أن يجب».

(٤) الكعدة: ضرب من السمك.

(١) الحرثي: أردأ المتاع.

(٣) النقص: الخبر.

ومحمد في الطريق ؛ فكانت بلاءً . قال : فكثنا حيناً لا نستطيع أن نمر بالمربد من نَتْنِها .

* * *

[ذكر وفاة الخيزران أم الهادي والرشد]

وفيهما تُوَفِّيَت الخيزران أم هارون الرشيد وموسى الهادي .

* ذكر الخبر عن وقت وفاتها :

ذكر يحيى بن الحسن أن أباه حدثه ، قال : رأيتُ الرشيد يوم ماتت الخيزران ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائة ، وعليه جبة سعيديّة وطيلسان خرق أزرق ، قد شدّ به وسطه ، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدو في الطين ؛ حتى أتى مقابر قریش فغسل رجله ، ثم دعا بخُفّ وصلّى عليها ، ودخل قبرها ، فلما خرج من المقبرة وُضع له كرسيّ فجلس عليه ، ودعا الفضل بن الربيع ، فقال له : بحق المهديّ — وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد — إني لأهّمّ لك من الليل بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر . فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صُبَيْح : أنا أجلّ أبا الفضل عن ذلك ؛ بأن أكتب إليه وآخذه ؛ ولكن إن رأى أن يبعث به !

٦٠٩/٣

قالَ وولى الفضل نفقات العامة والخاصة وبادُوريا والكُوفة ، وهي خمسة طساسيج ، فأقبِلَتْ حاله تنمى إلى سنة سبع وثمانين ومائة .

وقيل إن وفاة محمد بن سليمان والخيزران كانت في يوم واحد .

* * *

وفيهما أقدم الرشيد جعفر بن محمد بن الأشعث من خراسان ، وولّاها ابنه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث .

وحجّ بالناس فيها هارون ؛ وذُكِرَ أنه خرج محرّماً من مدينة السلام .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان بالشأم من العصبية فيها .

وفيهما ولّى الرشيد إسحاق بن سليمان الهاشمي السند ومكران .

وفيهما استقضى الرشيد يوسف بن أبي يوسف ، وأبوه حتى .

وفيهما هلك رَوْح بن حاتم .

وفيهما خرج الرشيد إلى باقرْدَى وبازْبَنْدَى ، وبني بباقرْدَى قصرأ ، ٦١٠/٣

فقال الشاعر في ذلك :

بِقِرْدَى وبِازْبَنْدَى مَصِيفٌ وَمَرْبِعٌ وَعَذْبٌ يُحَاكِي السِّلْسِيلَ بَرُودٌ
وَبَغْدَادُ ، مَا بَغْدَادُ ، أَمَا تُرَابُهَا فَخُرَّةٌ ، وَأَمَا حَرَّهَا فَشَدِيدٌ

وغزا الصائفة عبدُ الملك بن صالح .

* * *

وحجَّ بالناس فيها هارون الرشيد ، فبدأ بالمدينة ، فقسم في أهلها مالا

عظيماً ، ووقع الوباء في هذه السنة بمكة ، فأبطأ عن دخولها هارون ، ثم دخلها
يوم التَّروِيَةِ ، ففضى طوافه وسعيه ولم ينزل بمكة .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن البيعة للأمين]

فمن ذلك عقد الرشيد لابنه محمد بمدينة السلام من بعده ولاية عهد المسلمين وأخذه له بذلك بيعة القواد والجند ، وتسميته إياه الأمين ، وله يومئذ خمس سنين ، فقال سلم الحاسر :

قد وفقَّ اللهُ الخليفةَ إذ بنى بيتَ الخليفةِ للهِجَانِ الأَزْهَرِ
فهو الخليفةُ عن أبيه وجده شهيداً عليه بمنظرٍ وبمخيرٍ
قد بايعَ الثقلانِ في مهدي الهدى لمحمدِ بن زبيدةَ ابنةَ جعفر

* ذكر الخبر عن سبب بيعة الرشيد له :

٦١١/٣

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر رَوْح مولى الفضل بن يحيى بن خالد - أنه رأى عيسى بن جعفر قد صار إلى الفضل بن يحيى ، فقال له : أنشدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي - يعنى محمد بن زبيدة بنت جعفر بن المنصور - فإنه ولدٌ لك وخلافته لك ؛ فوعده أن يفعل ، وتوجه الفضل على ذلك ؛ وكانت جماعة من بني العباس قد مدّوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد ؛ لأنه لم يكن له وليّ عهد ؛ فلما بايع له ، أنكروا بيعته لصغر سنّه .

قال : وقد كان الفضل لما تواتى خراسان أجمع على البيعة لمحمد ؛ فذكر محمد بن الحسين بن مصعب أن الفضل بن يحيى لمّا صار إلى خراسان ، فرق فيهم أموالاً ، وأعطى الجند أعطيات متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ؛ فبايع الناس له وسماه الأمين ، فقال في ذلك النَّمَرِيُّ :

أَمَسَتْ بَمَرْوَ عَلَى التَّوْفِيقِ قَدْ صَفَقَتْ عَلَى يَدِ الْفَضْلِ أَيْدِي الْعُجَمِ وَالْعَرَبِ

ببيعة لولي العهد أحكمها بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قدوكدالفضل عقداً^(١) لانتقاض له لمصطفى من بني العباس مُنتخب

قال : فلما تناهى الخبرُ إلى الرشيد بذلك ، وباع له أهل المشرق ، بايع
محمد ، وكتب إلى الآفاق ، فبوع له في جميع الأمصار ، فقال أبان اللاحق
في ذلك :

عَزَمْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّشِيدِ بِرَأْيِ هُدًى ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْحَمْدِ

* * *

وعزل فيها الرشيد عن خراسان العباس بن جعفر ، وولاه خاله الغطريف
ابن عطاء .

وفيهما صار يحيى بن عبد الله بن حسن إلى الديلم ، فتحرّك هناك .
وغزا الصائفة فيها عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ إقريطية .
وقال الواقدي : الذي غزا الصائفة في هذه السنة عبد الملك بن صالح ،
قال : وأصابهم في هذه الغزاة برد قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ .

* * *

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من تولية الرشيد الفضل بن يحيى كُور الجبال وطبرستان ودُنْبَاوند وقوميس وإرمينية وأذربيجان .

وفيهما ظهر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بالدَّيْلَم .

ذكر الخبر عن مخرج يحيى بن عبد الله وما كان من أمره

٦١٣/٣

ذكر أبو حفص الكيرماني ، قال : كان أول خبر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه ظهر بالدَّيْلَم ، واشتدَّت شوْكتُه ، وقوى أمرُه ، ونزع إليه الناس من الأمصار والكُور ، فاعْتَمَ لذلك الرشيد ، ولم يكن في تلك الأيام يشرب التبيد ، فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل ، ومعه صناديد القوَاد ، وولاه كور الجبال والرِّيَ وجُرْجان وطَبَرِستان وقوميس ودُنْبَاوند والرُّويان ، وحُمِلت معه الأموال ، ففرق الكور على قوَادِه ، فولَّى المثنى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم طَبَرِستان ، وولَّى علي بن الحجاج الحِزَاعِي جُرْجان ، وأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وعسكر بالنَّهْرَيْن ، وامتدحه الشعراء ، فأعطاهم فأكثر ، وتوسل إليه الناس بالشعر ، ففرق فيهم أموالا كثيرة . وشخص الفضل بن يحيى ، واستخلف منصور بن زياد بباب أمير المؤمنين ، تجري كتبه على يديه ، وتنفذ الجوابات عنها إليه ، وكانوا يثقون بمنصور وابنه في جميع أمورهم ؛ لتقديم صحبتته لهم ، وحرمة بهم . ثم مضى من معسكره ، فلم تزل كتب الرشيد تتابع إليه بالبِرِّ واللطف والجوائز والخلاعة ؛ فكاتب يحيى ورفقَ به واستماله ، وناشده وحذَّره ، وأشار عليه ، وبسط أمله . ونزل الفضل بطالقان الرِّيَ ودَسْتَجِي بموضع يقال له أشب ؛ وكان شديد البرد كثير الثلوج ؛ ففي ذلك يقول أبان بن عبد الحميد اللاحق :

٦١٤/٣

لَدُورُ أَمْسَ بِالْذُّلَا بِ حَيْثُ السَّيْبُ يَنْعَرُجُ
أَحَبُّ إِلَى مَنْ دُورُ أَشْبَ إِذَا هُمْ ثَلَجُوا

قال : فأقام الفضل بهذا الموضع ، وواتر كتبه على يحيى ، وكاتب صاحب الديلم ، وجعل له ألف ألف درهم ؛ على أن يسهل له خروج يحيى إلى ما قبله ، وحملت إليه ، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه على نسخة يبعث بها إليه . فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد ، فسرّه وعظم موقعه عنده ، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ؛ منهم عبد الصمد بن علي والعباس ابن محمد ومحمد بن إبراهيم وموسى بن عيسى ومن أشبههم ، ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا ، فوجه الفضل بذلك إليه ، فقدم يحيى بن عبد الله عليه ، وورد به الفضل بغداد ، فلقبه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له أرزاقاً سنية ، وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً ، وكان يتولّى أمره بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى غيره ، وأمر الناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل ؛ ففي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ظَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ بَرْمَكِيَّةٍ رَتَقَتْ بِهَا الْفَتْقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمٍ
عَلَى حِينَ أَعْيَا الرَّاغِقِينَ التِّثَامُ فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُتَلَاثِمِ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ يَدَاكَ بِخُطَّةٍ مِنَ الْمَجْدِ بَاقِ ذِكْرَهَا فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا زَالَ قَدْ حُ الْمُلْكُ يَخْرُجُ فَائِزاً لَكُمْ كُلَّمَا ضُمَّتْ قِدَاحُ الْمُسَاهِمِ

٦١٥/٣

قال : وأنشدني أبو ثمامة الخطيب لنفسه فيه :

لِلْفَضْلِ يَوْمُ الطَّالِقَانِ وَقَبْلَهُ يَوْمُ أَنَاخَ بِهِ عَلَى خَاقَانَ
مَا مِثْلُ يَوْمَيْهِ اللَّذَيْنِ تَوَالِيَا فِي غَزَوَتَيْنِ تَوَالَتَا يَوْمَانِ
سَدَّ الثُّغُورَ وَرَدَّ أَلْفَةَ هَاشِمٍ بَعْدَ الشَّتَاتِ ، فَشَعْبُهَا مُتَدَانِ

عَصَمَتْ حُكُومَتُهُ جَمَاعَةَ هَاشِمٍ مِنْ أَنْ يُجَرَّدَ بَيْنَهَا سَيْفَانِ
تِلْكَ الْحُكُومَةُ لِأَتَى عَنْ لَبْسِهَا عَظُمَ النَّبَا وَتَفَرَّقَ الْحَكَمَانِ

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم ، وخلع عليه ، وتغنى إبراهيم به .

وذكر أحمد بن محمد بن جعفر^(١) ، عن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن ، قال : لما قدم يحيى بن عبد الله من الديلم أتيتُهُ ، وهو في دار علي بن أبي طالب ، فقلت : يا عم ، ما بعدك تُخْبِر ولا^(٢) بعدى تُخْبِر ؛ فأخبرني خبرك ، فقال : يا ابن أخي ، والله إن كنت إلا كما قال حيسى ابن أخطب :

لَعَمْرِكَ مَا لَمْ ابْنُ أَخْطَبِ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ يَخْذُلِ اللَّهِ يَخْذَلُ
لِجَاهَدٍ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ حَمْدَهَا^(٣) وَقَلْقَلْ يَبْغَى الْغَزَا كُلَّ مَقْلَقَلْ

وذكر الضبي أن شيخاً من النوفليين ، قال : دخلنا على عيسى بن جعفر ، وقد وُضِعَتْ له وسائل بعضها فوق بعض ؛ وهو قائم متكئ عليها ؛ وإذا هو يضحك من شيء في نفسه ، متعجباً منه ، فقلنا : ما الذي يُضحكك الأمير أدام الله سروره ! قال : لقد دخلني اليوم سرورٌ ما دخلني مثله قط ، فقلنا : تتم الله للأمير سروره^(٤) ، وزاده سروراً . فقال : والله لا أحد تكلم به إلا قائماً — وانكأ على الفرش وهو قائم — فقال : كنت اليوم عند أمير المؤمنين الرشيد ، فدعا بيحيى بن عبد الله ، فأخرج من السجن مكبلاً في الحديد ، وعنده بكّار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير — وكان بكّار شديد البغض لآل أبي طالب ، وكان يبلغ هارون عنهم ، ويسىء^(٥) بأخبارهم ، وكان الرشيد ولاه المدينة ، وأمره بالتضييق عليهم — قال : فلما دُعِيَ بيحيى قال له الرشيد : هيه هيه ! متضاحكاً ؛ وهذا يزعم أيضاً أنا سمعناه ! فقال يحيى : ما معنى يزعم ؟ ها هو ذا لساني — قال : وأخرج لسانه أخضر

٦١٦/٣

(٢) ج : « وما » .

(٤) س : « السرور » .

(١) ج : « حفص » .

(٣) أ : « يجاهد » .

(٥) ط : « ويشيء » .

مثل السلق — قال : فتربّد هارون ! واشتدّ غضبه ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ إن لنا قرابة ورحمًا ، ولسنا بتُرك ولا ديلم ، يا أمير المؤمنين ؛ إنّا وأنتم أهل بيت واحد ، فأذكرك الله وقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! علام تحببني وتعذّبي ؟ قال : فرق له هارون ، وأقبل الزبيرى على الرشيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغرك كلام هذا ؛ فإنه شاقّ عاصٍ ؛ وإنما هذا منه مكر وخُبث ؛ إنّ هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر فيها العصيان . قال : فأقبل يحيى عليه ؛ فوالله ما استأذن أمير المؤمنين فى الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومنّ أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قد أملك ؛ فكيف إذا غاب عنك ! يقول : ومنّ أنتم ! استخفافاً بنا . قال : فأقبل عليه يحيى ، فقال : نعم ، ومنّ أنتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجر عبد الله ابن الزبير أمّ مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومنّ أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وإنما بابائى وآباء هذا هاجر أبوك إلى المدينة . ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما الناس نحن وأنتم ؛ فإن خرجنا عليكم قلنا : أكلم وأجعمتمونا وليسم وأعريتُمونا ، وركبتم وأرجلتمونا ؛ فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا ؛ فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله^(١) بالفضل . يا أمير المؤمنين ، فلم يجترئ هذا وضرباؤه على أهل بيتك ؛ يسعى بهم عندك ! إنه والله ما يسعى^(٢) بنا إليك نصيحةً منه لك ؛ وإنه يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ؛ إنما يريد أن يباعِد بيننا ، ويشقى من بعض بعض . والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد جاء إلى هذا حيث قُتِل أخى محمد بن عبد الله ، فقال : لعن الله قاتله ! وأنشدنى فيه مرثيةً قالها نحواً من عشرين بيتاً ، وقال : إن تحرّكت فى هذا الأمر فأنا أوّل من يبيلك ، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة ، فأيدينا مع يدك !

قال : فتغيّر وجه الزبيرى واسودّ ، فأقبل عليه هارون ، فقال : أى شىء يقول هذا ؟ قال : كاذب يا أمير المؤمنين ؛ ما كان ممّا قال حرف . قال : فأقبل على يحيى بن عبد الله ، فقال : تروى القصيدة التى رثاه بها ؟ قال :

(١) بعدها فى س : « فيه » .

(٢) س : « سعى » .

نعم يا أمير المؤمنين ، أصلحك الله ! قال : فأنشدنا إياه ، فقال الزبيرى :
والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو - حتى أتى على آخر اليمين الغموس -
ما كان مما قال شىء ؛ ولقد تقول على ما لم أقل . قال : فأقبل الرشيد على يحيى
ابن عبد الله ، فقال : قد حلف ، فهل من بيعة سمعوا هذه الميثية منه ؟ قال :
لا يا أمير المؤمنين ؛ ولكن أستحلفه بما أريد ، قال : فاستحلفه ، قال : فأقبل
على الزبيرى ، فقال : قل : أنا برىء من حول الله وقوته موكل إلى حول وقوتي ،
إن كنت قلتة . فقال الزبيرى : يا أمير المؤمنين ، أى شىء هذا من الحلف !
أحلف له بالله الذى لا إله إلا هو ، ويستحلفنى بشىء لا أدرى ما هو ! قال
يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما
أستحلفه ^(١) به ! فقال له هارون : احلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من
حول الله وقوته موكل إلى حولى وقوتى ؛ قال : فاضطرب منها وأرعِد ، فقال
يا أمير المؤمنين ، ما أدرى أى شىء هذه اليمين التى يستحلفنى بها ، وقد
حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء ! قال : فقال هارون له : لتحلفن له أو
لأصدقن عليك ولأعاقبنك ، قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته ،
موكل إلى حولى وقوتى إن كنت قلتة . قال : فخرج من عند هارون فضربه
الله بالفالج ، فمات من ساعته .

٦١٨/٣

قال : فقال عيسى بن جعفر : والله ما يسرّنى أن يحىي نقصه حرفاً
مما كان جرى بينهما ، ولا قصّر فى شىء من مخاطبته إياه
قال : وأما الزبيريون فيزعمون أن امرأته قتلتة ؛ وهى من ولد عبد الرحمن
ابن عوف .

وذكر إسحاق بن محمد النخعى أن الزبير بن هشام حدثه عن أبيه ، أن
بكتار بن عبد الله تزوج امرأة من ولد عبد الرحمن بن عوف ، وكان له من
قلبها موضع ، فاتخذ عليها جارية ، وأغارها ؛ فقالت لغلّامين له زنجيين :
إنه قد أراد قتلكما هذا الفاسق - ولا طفتكما ^(٢) - فتعاوناني على قتله ؟ قال :

٦١٩/٣

(١) س : « استحلفته » .

(٢) ح ، س : « ولطفتهما » .

نعم ، فدخلت عليه وهو نائم ، وهما جميعاً معها ، فقعدا على وجهه حتى مات . قال : ثم إنها سقتهما نبيذاً حتى تهوعا^(١) حول الفراش ، ثم أخرجتهما ووضعت عند رأسه قسيّنة ؛ فلما أصبح^(٢) اجتمع أهله ، فقالت : سكر فقاء فشرّق فمات . فأخذ الغلامان ؛ فضرّبا ضرباً مبرحاً ، فأقرأ بقتله ، وأنها أمرتهما بذلك ؛ فأخرجت من الدار ولم تُورث .

وذكر أبو الخطاب أنّ جعفر بن يحيى بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره ، قال : دعا الرشيد اليوم بيحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البختريّ القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف ، وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمان ؟ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّه في ذلك الرشيد ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان ؟ لو كان محارباً ثم وُلّي كان آمناً . فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البختريّ أن ينظر في الأمان ، فقال أبو البختريّ : هذا منتقَض من وجه كذا وكذا ، فقال الرشيد : أنت قاضي القضاة ؛ وأنت أعلم بذلك ؛ فزق الأمان ، وتفل فيه أبو البختريّ — وكان بكّار بن عبد الله بن مصعب حاضراً المجلس — فأقبل على يحيى بن عبد الله بوجهه ، فقال : شققت العصا ، وفارقت الجماعة ، وخالفت كلمتنا ، وأردت خليفتنا ؛ وفعلت بنا وفعلت . فقال يحيى : ومن أنتم رحمكم الله ! قال جعفر : فوالله ما تمالك الرشيد أن ضحكك ضحكاً شديداً . قال : وقام يحيى ليمضي إلى الحبس ، فقال له الرشيد : انصرف ، أما ترون به أثر علة ! هذا الآن إن مات قال الناس : سَمَوْه . قال يحيى : كلاّ ما زلتُ عليلاً منذ كنت في الحبس ؛ وقبل ذلك أيضاً كنت عليلاً . قال أبو الخطاب : فما مكث يحيى بعد هذا إلا شهراً حتى مات .

وذكر أبو يونس إسحاق بن إسماعيل ، قال : سمعتُ عبد الله بن العباس ابن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ ، الذي يعرف بالخطيب ، قال : كنتُ يوماً على باب الرشيد أنا وأبي ، وحضر ذلك اليوم من الجُنْد والقُواد ما لم أر مثلهم على باب خليفة قبله ولا بعده ، قال : فخرج الفضل بن الربيع

(١) تهوعا ، أى تقيّثا .

(٢) س : « أصبحت » .

إلى أبي ، فقال له : ادخل ، ومكث ساعة ثم خرج إلى ، فقال : ادخل ، فدخلت ، فإذا أنا بالرشيد معه امرأة يكلمها ، فأومأ إلى أبي أنه لا يريد أن يدخل اليوم أحد ، فاستأذنت لك لكثرة من رأيت حضر الباب ؛ فإذا دخلت هذا المدخل زادك ذلك نبلاً عند الناس . فما مكثنا إلا قليلاً حتى جاء الفضل ابن الربيع ، فقال : إن عبد الله بن مصعب الزبيرى يستأذن فى الدخول ، فقال : إننى لا أريد أن أدخل اليوم أحداً ، فقال : قال : إن عندى شيئاً أذكره^(١) . فقال : قل له يَقُلْهُ لك ، قال : قد قلت له ذلك ، فزعم أنه لا يقوله إلا لك ، قال : أدخله . وخرج ليُدخله ، وعادت المرأة وشغل بكلامها ، وأقبل على أبي ، فقال : إنه ليس عنده شيء يذكره ؛ وإنما أراد الفضل بهذا ليوم من على الباب^(٢) أن أمير المؤمنين لم يدخلنا لخاصة خصصنا بها ؛ وإنما أدخلنا لأمرٍ نسأل عنه كما دخل هذا الزبيرى .

٦٢١/٣

وطلع الزبيرى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ها هنا شيء أذكره ، فقال له : قل ، فقال له : إنه سرٌ ، فقال : ما من العباس^(٣) سرٌ ، فنهضت ، فقال : ولا منك يا حبيبى ، فجلست ، فقال : قُلْ ، فقال : إني والله قد خفت على أمير المؤمنين من امرأته وبنته وجاريته التى تنام معه ، وخادمه الذى يناوله ثيابه وأخص خلق الله به من قواده ، وأبعدهم منه . قال : فرأيتُه قد تغير لونه ، وقال : مماذا^(٤) ؟ قال : جاءتني دعوة يحيى بن عبد الله بن حسن ، فعلمت أنها لم تبلغنى مع العداوة بيننا وبينهم ، حتى لم يُسبق على بابك أحداً إلا وقد أدخله فى الخلاف عليك . قال : فتقول له هذا فى وجهه ! قال : نعم ، قال الرشيد : أدخله ، فدخل ، فأعاد القول الذى قال له ، فقال يحيى بن عبد الله : والله يا أمير المؤمنين لقد جاء بشيء لو قيل لمن هو أقل منك فيمن هو أكبر منى ، وهو مقتدر عليه لما أقلت منه أبداً ، ولِ رَحِمٍ وقرابة ، فلم لا تؤخر هذا الأمر ولا تعجل ، فلعلك أن تكفى مؤنتى بغير يدك ولسانك ، وعسى بك أن تقطع رَحِمَكَ من حيث لا تعلمه ! أباهله^(٥) بين يديك وتصبر قليلاً . فقال :

(٢) س : « بالباب » .

(١) س : « يذكر » .

(٣) ج : « من بنى العباس » . (٤) كذا فى ١ ، وهو الصواب ، وفى ط : « فإذا قال » .

(٥) المباهلة : التلاعن .

٦٢٢/٣

يا عبد الله، قم فصل إن رأيت ذلك ، وقام يحيى فاستقبل القبلة، فصلّى ركعتين خفيفتين ، وصلّى عبد الله ركعتين، ثم برك يحيى ، ثم قال : ابرك، ثم شبك يمينه في يمينه ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى دعوتُ عبد الله بن مصعب إلى الخلاف على هذا - ووضع يده عليه ، وأشار إليه - فاسحتني بعذاب من عندك وكليني إلى حولي وقوتي، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من قبلك ، آمين رب العالمين . فقال عبد الله : آمين رب العالمين ، فقال يحيى بن عبد الله لعبد الله بن مصعب : قل كما قلت ، فقال عبد الله : اللهم إن كنت تعلم أن يحيى بن عبد الله لم يدعني إلى الخلاف على هذا فكلني إلى حولي وقوتي واسحتني بعذاب من عندك ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من عندك . آمين رب العالمين !

٦٢٣/٣

وتفرقا، فأمر بيحيى فحبس في ناحية من الدار؛ فلما خرج وخرج عبد الله ابن مصعب أقبل الرشيد على أبي ، فقال : فعلتُ به كذا وكذا ، وفعلتُ به كذا وكذا ، فعدد (١) أبايده عليه ، فكلّمه أبي بكلمتين لا يدفع بهما عن عصفور ، خوفاً على نفسه ، وأمرنا بالانصراف فانصرفنا . فدخلت مع أبي أنزعُ عنه لباسه من السواد - وكان ذلك من عادتي - فبينما أنا أحلّ عنه منطقته ؛ إذ دخل عليه الغلام ، فقال : رسولُ عبد الله بن مصعب ، فقال : أدخله ، فلما دخل قال له : ما وراءك (٢) ؟ قال : يقول لك مولاى، أنشدك الله إلّا بلغت إلى ! فقال أبي للغلام : قل له : لم أزل عند أمير المؤمنين إلى هذا الوقت ، وقد وجهتُ إليك بعبد الله ، فما أردت أن تلقيه إلى فألقه إليه، وقال للغلام : اخرج فإنه يخرج في أثرك ؛ وقال لى : إنما دعاني ليستعين بى على ما جاء به من الإفك؛ فإن أعنته قطعت رجلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن خالفته سعى بى ؛ وإنما يتدرق الناس بأولادهم ، ويتقون بهم المكاره ؛ فاذهب إليه ، فكل ما قال لك فليكن جوابك له : أخبر أبى ؛ فقد وجهتك

(١) س : « يعدد » .

(٢) ج : « وما وراءك » .

وما آمن عليك ، وقد كان قال لى أبى حين انصرفنا — وذلك أنا احتبسنا عند الرشيد : أمّا رأيت الغلام المعترض فى الدّار ! لا والله ما صرّفنا حتى فرغ منه — يعنى يحى — إنا لله وإنا إليه راجعون ! وعند الله نحتسب أنفسنا . فخرجت مع الرسول ، فلما صرّت فى بعض الطريق وأنا مغموم بما أقدم عليه ، قلت للرسول : ويحك ! ما أمره ! وما أزعجه بالإرسال إلى أبى فى هذا الوقت ! فقال : إنّه لما جاء من الدار ، فساعة نزل عن الدابة صاح : بطنى بطنى !

قال عبد الله بن عباس : فما حفلت بهذا الكلام من قول الغلام ، ولا التفات إليه ، فلما صرنا على باب الدرب — وكان فى درب لا منفذ له — فتح البابين ؛ فإذا النساء قد خرجن منشورات الشعور محتزمات^(١) بالحبال ، يلطن وجوههن وينادين بالويل ، وقد مات الرجل ، فقلت : والله ما رأيت أمراً أعجب من هذا ! وعطفت دابّتى راجعاً أركض ركضاً لم أركض مثله قبله ولا بعده إلى هذه الغاية ، والغلمان والحشم ينتظرونى لتعلّق قلب الشيخ بى ؛ فلما رأونى دخلوا يتعادون ، فاستقبلنى مرعوباً فى قميص ومنديل ، ينادى : ما وراءك يا بنى ؟ قلت : إنه قد مات ، قال : الحمد لله الذى قتله وأراحك وإيانا منه ؛ فما قطع كلامه حتى ورد خادم الرشيد يأمر أبى بالركوب وإيأى معه . فقال أبى ونحن فى الطريق نسير : لو جاز أن يدعى ليحيى نبوة لادّعاها أهلّه ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ! ولا والله ما نشكّ فى أنه قد قتل . فضينا حتى دخلنا على الرشيد ؛ فلما نظر إلينا قال : يا عباس بن الحسن ، أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صرعه بلسانه ، ووقّاه الله يا أمير المؤمنين قسّطع أرحامك . فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحبّ ، ورفع السرّ ، فدخل يحى ، وأنا والله أتبين الارتياح فى الشيخ ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ! قال : الحمد لله الذى أبان لأمر المؤمنين كذب عدوّه على ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين ؛ لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده فكيف ولست بطالب له ولا مُريده ، ولو لم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به ،

٦٢٤/٣

ثم لم يبق^(١) في الدنيا غيري وغيرك وغيره ما تقويت به عليك أبدأ ! وهذا والله من إحدى آفاتك - وأشار إلى الفضل بن الربيع - والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ، ثم طمع مني في زيادة ثمرة لباعك بها . فقال : أما العباسي فلا تقل له إلا خيراً ، وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاث حبات مع هذه الحبسة ، وأوصل إليه أربع مائة ألف دينار

* * *

[ذكر الفتنة بين اليمانية والتزارية]

وفي هذه السنة ، هاجت العصبيّة بالشأم بين التزارية واليمانية ، ورأس التزارية يومئذ أبو الهيثام .

* ذكر الخبر عن هذه الفتنة :

٦٢٥/٣

ذكر أن هذه الفتنة هاجت بالشأم وعامل السلطان بها موسى بن عيسى ، فقتل بين التزارية واليمانية على العصبيّة من بعضهم لبعض بشرٌ كثير ، فواتى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشأم ، وضمّ إليه من القوادر والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة . فلما ورد^(٢) الشأم أحلت لدخوله إلى صالح بن علي الهاشمي ، فأقام موسى بها حتى أصلح بين أهلها ، وسكنت الفتنة ، واستقام أمرها ، فأنتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ، ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى ، فعفا عنهم ، وعمّا كان بينهم ، وأقدمهم بغداد ، وفي ذلك يقول إسحاق بن حسان الخزيمى :

مَنْ مُبْلَغٌ يَحْيَى وَدُونَ لِقَائِهِ	زَارَاتُ كُلِّ خَنَائِسٍ هَمَّهُامِ
يَا رَاعِيَ الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُفَرِّطٍ	فِي لَيْنٍ مُغْتَبِطٍ وَطَيْبٍ مَشَامِ
تَعْدَى مَشَارِبُهُ وَتُسْقَى شَرْبُهُ	وَيَبِيْتُ بِالرَّبَّاتِ وَالْأَعْلَامِ
حَتَّى تَنْخَنَخَ ضَارِباً بِجِرَانِهِ	وَرَسَتْ مَرَاسِيهِ بَدَارِ سَلَامِ
فَلِكُلِّ نَغْرٍ حَارِسٌ مِنْ قَلْبِهِ	وَشُعَاعُ طَرْفٍ مَا يُفْتَرُّ سَامِ

وقال في موسى غير أبي يعقوب :

قد هاجت الشأم هنجاً يُشيب راس ولیده
فصّب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشأم لما أتى نسيج وحیده
هو الجواد الذي بُدّ كل جود بجوده
أعداه جود أبيه يحيى وجود جدوده
فجاد موسى بن يحيى بطارف وتليده
وتال موسى ذرى المجى وهو حشو مهوده
خصضته بمدحى منشوره وقصيدة
من البرامك عود له فأكرم يعوده
حووا على الشعر طراً خفيفه ومدیده

٦٢٦/٣

وفيهما عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خراسان ، ولأها حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي ، وكان حمزة يلقب بالعروس .

وفيهما ولّى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك مصر ، فولأها عمر بن مهران .

ذكر الخبر عن سبب

تولية الرشيد جعفراً مصر وتولية جعفر عمر بن مهران إياها

ذكر محمد بن عمر أن أحمد بن مهران حدثه أن الرشيد بلغه أن موسى ابن عيسى عازم على الخلع - وكان على مصر - فقال : والله لا أعزله إلا بأخس من على بابي . انظروا لي رجلاً ، فذكر عمر بن مهران - وكان إذ ذاك يكتب للخيزران ، ولم يكتب لغيرها ، وكان رجلاً أحول مشوه الوجه ، وكان

٦٢٧/٣

لباسه لباساً خسيساً ، أرفع ثيابه طيلسانه ، وكانت قيمته ثلاثين درهماً ، وكان يشمر ثيابه ويقصر أكمامه ، ويركب بغلاً وعليه رَسَنٌ ولجام حديد ، ويردف غلامه خلفه — فدعاه به ، فولاه مصر ؛ خراجها وضياعتها وحسبها . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتولاهما على شريطة ، قال : وما هي ؟ قال : يكون إذنى إلى ، إذا أصلحت البلاد انصرفت . فجعل ذلك له ، فضى إلى مصر ، واتصلت ولاية عمر بن مهران بموسى بن عيسى ؛ فكان يتوقع قدومه ، فدخل عمر بن مهران مصر على بغل ، وغلامه أبو دُرَّة على بغل ثقل ، فقصد دار موسى بن عيسى والناس عنده ، فدخل فجلس في أخريات الناس ، فلما تفرق أهل المجلس ، قال موسى بن عيسى لعمر : ألك حاجة يا شيخ ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ! ثم قام بالكتب فدفعها إليه ، فقال : يقدم أبو حفص ، أبواه الله ! قال : فأنا أبو حفص ، قال : أنت عمر بن مهران ؟ قال : نعم ، قال : لعن الله فرعون حين يقول : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ ﴾ ^(١) ، ثم سلم له العمل ورحل ، فتقدم عمر بن مهران إلى أبي دُرَّة غلامه ، فقال له : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الحِراب ، لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً ؛ فجعل الناس يبعثون بهداياهم ، فجعل يرد ما كان من الألفاف ، ويتقبل المال والثياب ، ويأتى بها عمر ؛ فيوقع عليها أسماء من بعث بها ، ثم وضع الحباية ؛ وكان بمصر قوم قد اعتادوا المظل وكسّر الخراج ، فبدأ برجل منهم ، فلواه ، فقال : والله لا تؤدى ما عليك من الخراج إلا في بيت المال بمدينة السلام إن سلمت ، قال : فأنا أؤدى ، فتحمل عليه ، فقال : ٦٢٨/٣ قد حلفت ولا أحنث ، فأشخصه مع رجلين من الجند — وكان العمال إذ ذاك يكتبون الخليفة — فكتب معهم إلى الرشيد : إتنى دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من الخراج ؛ فلوانى واستنظرنى ، فأنظرتهم ثم دعوته ، فدافع ومال إلى الإلطاء ^(٢) ، فأليت ألا يؤدّيه إلا في بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان بن فلان وفلان بن فلان ، من جند أمير المؤمنين ، من قيادة فلان بن فلان ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب

(٢) الإلطاء : الجحود .

(١) سورة الزخرف ٥١ .

إلى بوصوله فعل إن شاء الله تعالى .

قال : فلم يلوه أحدٌ بشيءٍ من الخراج ، فاستأدى الخراج ، النجم الأول والنجم الثانى ، فلما كان فى النجم الثالث ، وقعت المطالبة والمطل ، فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم ، فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر بإحضار تلك الهدايا التى بُعث بها إليه ، ونظر فى الأكياس وأحضر الجِهبذ ؛ فوزن ما فيها وأجزاها عن أهلها ، ثم دعا بالأسفاط ، فنادى على ما فيها ، فباعها وأجزى أثمانها عن أهلها . ثم قال : يا قوم ، حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها ، فأدُّوا إلينا ما لنا ؛ فأدُّوا إليه حتى أغلق مال مصر ؛ فانصرف ولا يُعلم أنه أغلق مال مصر غيره ، وانصرف ، فخرج على بغل ، وأبو درّة على بغل — وكان إذنه إليه .

* * *

وغزا الصائفةَ فى هذه السنة عبدُ الرحمن بن عبد الملك ، فافتتح حصناً .

* * *

وحجّ بالناس فى هذه السنة سليمان بن أبى جعفر المنصور ، وحجت معه — فيما ذكر الواقديّ — زُبيدة زوجة هارون وأخوها معها .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمّا كان فيها من ذلك عَزَلَ الرشيد - فيما ذكر - جعفرَ بن يحيى عن مصر وتولّيته إياها إسحاق بن سليمان ، وعزّله حمزة بن مالك عن خُرَاسان وتولّيته إياها الفضل بن يحيى ؛ إلى ما كان يليه من الأعمال من الرّى وسجستان .

* * *

وغزا الصائفةَ فيها عبدُ الرزاق بن عبد الحميد التَّغْلَبِيّ .
وكان فيها - فيما ذكر الواقدي - ريح وظلمة وحُمرة ليلة الأحد لأربع ليال بقين من المحرم ، ثم كانت ظلمة ليلة الأربعاء ، لليلتين بقيتا من المحرم من هذه السنة ؛ ثم كانت ريح وظلمة شديدة يوم الجمعة لليلة خلت من صفر .

* * *

وحجَّ بالناس فيها هارون الرشيد .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك وثوب الحويفية بمصر ؛ من قيس وقضاة وغيرهم
بعامل الرشيد عليهم إسحاق بن سليمان ، وقتلهم إياه ، وتوجيه الرشيد إليه هرثمة
ابن أعين في عدة من القواد المضمومين إليه مدداً لإسحاق بن سليمان ؛ حتى
أدعن أهل الخوف ، ودخلوا في الطاعة ، وأدوا ما كان عليهم من وظائف
السلطان - وكان هرثمة إذ ذاك عامل الرشيد على فلسطين - فلما انقضى
أمر الحويفية صرف هارون إسحاق بن سليمان عن مصر ، وولّاها هرثمة نحواً من
شهر ، ثم صرفه وولّاها عبد الملك بن صالح .

٦٣٠/٣

وفيهما كان وثوب أهل إفريقية بعبدويه الأنباري ومن معه من الجند
هنالك ، فقتل الفضل بن رّوح بن حاتم ، وأخرج من كان بها من
آل المهلب ، فوجه الرشيد إليهم هرثمة بن أعين ، فرجعوا إلى الطاعة .

وقد ذكر أن عبديوه هذا لما غلب على إفريقية ، وخلع السلطان ، عظم شأنه
وكثر تبعه ، ونزع إليه الناس من النواحي ، وكان وزير الرشيد يومئذ يحيى بن خالد
ابن برمك ، فوجه إليه يحيى بن خالد بن برمك يقطين بن موسى ومنصور بن زياد
كاتبه ؛ فلم يزل يحيى بن خالد يتابع على عبديوه الكتب بالترغيب في الطاعة
والتخويف للمعصية والإعذار إليه والإطماع والعدة حتى قبل الأمان ، وعاد
إلى الطاعة وقدم بغداد ، فوفى له يحيى بما ضمن له وأحسن إليه ، وأخذ له أماناً
من الرشيد ، ووصله ورأسه .

وفي هذه السنة فوّض الرشيد أموره كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك .

٦٣١/٣

وفيهما خرج الوليد بن طريف الشاري بالجزيرة ، وحكم بها ، فقتل إبراهيم^(١)
ابن خازم بن خزيمه بن نصيبين ، ثم مضى منها إلى إرمينية .

(١) س : « فقتل إبراهيم » .

[ولاية الفضل بن يحيى على خراسان وسيرته بها]

وفيهما شخص الفضل بن يحيى إلى خراسان والياً عليها ، فأحسن السيرة بها ، وبني بها المساجد والرباطات ، وغزاهما وراء النهر ، فخرج إليه خاراخره ملك أشروسنة ؛ وكان ممتنعاً .

وذكر أن الفضل بن يحيى اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم لهم ، وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل ، فسموا ببغداد الكرتبية ، وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ما الفضلُ إلا شهاب لا أقول له	عند الحروب إذا ما تأفلُ الشُّهْبُ
حامٍ على مُلكِ قوم عزَّ سَهْمُهُمُ	منَ الوراثَةِ في أيديهم سببُ
أَمَسْتُ يَدُ لَبْنِي ساقِ الحَجِيجِ بها	كتائبُ ما لها في غيرهم أَرَبُ
كتائبُ لبني العباسِ قد عَرَفْتُ	ما أَلَّفَ الفضلُ منها العِجْمَ والعَرَبُ
أَثَبَتْ خَمْسَ مِئِينَ في عِدَادِهِمُ	من الأُلُوفِ التي أَحْصَتْ لك الكُتُبُ
يُقَارِعُونَ عن القومِ الذين همُ	أولى بأحمدَ في الفرقانِ إن نُسِبُوا
إن الجوادَ ابنَ يحيى الفضلَ لا وِرْقُ	يبقى على جُودِ كَفْيِهِ ولا ذَهَبُ
ما مرَّ يومَ له مُدٌّ شَدَّ مِثْرَهُ	إِلَّا تَمَوَّلَ أَقْوامٌ بما يَهَبُ
كم غايةٍ في الندى والبأسِ أحرَزَها	للطَّالِبِينَ مداها دونها تَعَبُ
يعطى اللّهُ حينَ لا يُعطى الجوادُ ولا	يَنْبُو إذا سَلَّتِ الهِنْدِيَّةُ القُضْبُ
ولا الرِّضَا والرِّضَا لله غايَتُهُ	إلى سِوى الحقِّ يَدْعُوهُ ولا الغُضْبُ
قدَ فاضَ عُرْفُكَ حتى ما يُعادِلُهُ	غَيْثُ مُغِيثٍ ولا بَحْرُ له حَدَبُ

قال : وكان مروان بن أبي حفصة قد أنشد الفضل في معسكره قبل خروجه إلى خراسان :

٦٣٣/٣
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْجُودَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ تَحَدَّرَ حَتَّى صَارَ فِي رَاحَةِ الْفَضْلِ
 إِذَا مَا أَبُو الْعَبَّاسِ رَاحَتْ سَمَاوُهُ فَيَا لَكَ مِنْ هَطْلٍ وَيَا لَكَ مِنْ وَبَلٍ
 إِذَا أُمُّ طِفْلٍ رَاعَهَا جَوْعُ طِفْلِهَا دَعَتْهُ بِإِسْمِ الْفَضْلِ فَاسْتَعَصَمَ ^(١) الطِّفْلُ
 لِيَحْيَا بِكَ الْإِسْلَامُ إِنَّكَ عِزُّهُ وَإِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَغِيرُهُمْ كَهْلُ

وذكر محمد بن العباس أن الفضل بن يحيى أمر له بمائة ألف درهم ،
 وكساه وحمله على بغلة . قال : وسمعته يقول : أَصَبْتُ فِي قَدَمْتِي هَذِهِ سَبْعُمِائَةِ
 أَلْفِ دَرَاهِمٍ . وفيه يقول :

تَخَيَّرْتُ لِلْمَذْحِ ابْنَ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فَحَسْبِي وَلَمْ أَظْلِمُ بَأَنَّ أَتَخَيَّرَا
 لَهُ عَادَةً أَنْ يَبْسُطَ الْعَدْلَ وَالنَّدَى لِمَنْ سَاسَ مِنْ قَحْطَانٍ أَوْ مَنْ تَنَزَّرَا
 إِلَى الْمَنْبَرِ الشَّرْقِيِّ سَارَ وَلَمْ يَزَلْ لَهُ وَالِدٌ يَعْلُو سَرِيرًا وَمَنْبَرًا
 يُعَدُّ وَيَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ وَلَا يُرَى لَدَى الدَّهْرِ إِلَّا قَائِدًا أَوْ مُؤَمِّرًا

ومدحه سلم الخاسر ، فقال :

٦٣٤/٣
 وَكَيْفَ تَخَافُ مِنْ بَوِّسٍ بَدَارٍ تَكْنَفُهَا الْبَرَامِكَةُ الْبُحُورُ
 وَقَوْمٌ مِنْهُمْ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى نَفِيرٌ مَا يُوَاظِنُهُ نَفِيرُ
 لَهُ يَوْمَانِ : يَوْمَ نَدَى وَبَاسٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ بَيْنَهُمَا أَسِيرُ
 إِذَا مَا الْبَرْمَكِيُّ غَدَا ابْنَ عَشْرِ فَهَيْمَتُهُ وَزِيرٌ أَوْ أَمِيرُ

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشمي أن إبراهيم بن جبريل خرج مع الفضل
 ابن يحيى إلى خراسان وهو كاره للخروج ، فأحفظ ذلك الفضل عليه . قال
 إبراهيم : فدعاني يوماً بعد ما أغفلني حيناً ، فدخلت عليه ؛ فلما صرت بين
 يديه سلمت ، فمادّ عليّ ، فقلت في نفسي : شرّ والله - وكان مضطجعاً ،
 فاستوى جالساً - ثم قال : ليفرخ روعك يا إبراهيم ، فإن قدرتي عليك تمنعني
 منك ؛ قال : ثم عقد لي على سجستان ، فلما حملت خراجها ، وهبه لي

(١) كذا في ١ ، ج ، و ، ط : « فاعتصم » .

وزادني خمسمائة ألف درهم . قال : وكان لإبراهيم على شُرطه وحرّسه ،
فوجهه إلى كابل ، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة ٥

قال : وحدّثني الفضل بن العباس بن جبريل - وكان مع عمه إبراهيم -
قال : وصل إلى إبراهيم في ذلك الوجه سبعة آلاف ألف ، وكان عنده من
مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم ، فلما قدم بغداد وبني داره في البغيتين
استزار الفضل ليريه نعمته عليه ، وأعدّ له الهدايا والطُرف وآنية الذهب والفضة ،
وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية من الدار .

قال : فلما قعد الفضل بن يحيى قدّم إليه الهدايا والطُرف ، فأبى أن يقبل
منها شيئاً ، وقال له : لم آتكَ لأَسْلُبِكَ ^(١) ، فقال : إنها نعمتك أيها الأمير .
قال : ولك عندنا مزيد ، قال : فلم يأخذ من جميع ذلك إلا سوطاً سِجزيّاً ،
وقال : هذا من آلة الفرسان ، فقال له : هذا المال من مال الخراج ، فقال :
هولك ، فأعاد عليه ، فقال : أما لك بيت يسعه ! فسوّغه ذلك ، وانصرف .

قال : ولما قدم الفضل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد إلى بستان
أبي جعفر يستقبله ، وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتّاب والأشراف ،
فجعل يصلُّ الرجل بالألف ألف ^(٢) وبانخمسمائة ألف ، ومدحه مروان بن
أبي حفصة ، فقال :

حَمِدْنَا الَّذِي أَدَّى ابْنُ يَحْيَى فَأَصْبَحَتْ	بِمَقْدَمِهِ تَجْرِي لَنَا الطَّيْرُ أَسْعَدَا
وَمَا هَجَعَتْ حَتَّى رَأَتْهُ عَيْوُنَا	وَمَا زِلْنَا حَتَّى آبَ بِاللَّمْعِ حُشْدَا
لَقَدْ صَبَحْتُنَا خَيْلُهُ وَرَجَالُهُ	بَارَوْعَ يَدِّ النَّاسِ بَأْسًا وَسُودَا
نَفَى عَن خُرَاسَانَ الْعَدُوَّ كَمَا نَفَى	صُحَى الصَّبْحِ جِلْبَابَ الدَّجَى فَتَعَرَّدَا ^(٣)
لَقَدْ رَاعَ مَنْ أَمَسَى بِمَرَوْ مَسِيرُهُ	إِلَيْنَا ، وَقَالُوا شَعْبُنَا قَدْ تَبَدَّدَا
عَلَى حِينِ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظَلَامَةٍ	وَأُطْلِقَ بِالْعَفْوِ الْأَمِيرَ الْمُقَيَّدَا

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « إلا لأسليك » ، والوجه ما أثبتته .

(٢) ١ : « بألف ألف » . (٣) تعرد ، أي تجرد وانكشف .

٦٣٦/٣

وَأَفْشَى بِلَا مَنْ مَعَ الْعَدْلِ فِيهِمْ
فَأَذْهَبَ رَوْعَاتِ الْمَخَافِ عَنْهُمْ
وَأَجْدَى عَلَى الْإِيْتَامِ فِيهِمْ بِعُرفِهِ
إِذَا النَّاسُ رَامُوا غَايَةَ الْفَضْلِ فِي النَّدَى
سَمَا صَاعِدًا بِالْفَضْلِ يَحْيَى وَخَالِدُ
يَلِينُ لِمَنْ أَعْطَى الْخَلِيفَةَ طَاعَةً
أَذَلَّتْ مَعَ الشُّرْكِ النِّفَاقَ سُيُوفُهُ
وَشَدَّ الْقُوَى مِنْ بَيْعَةِ الْمُصْطَفَى الَّذِي
سَمَّى النَّبِيُّ الْفَاتِحَ الْخَاتِمَ الَّذِي
أَبْحَثَ جِبَالَ الْكَابِلِيِّ وَلَمْ تَدَعْ
فَأَطْلَعَتْهَا خَيْلًا وَطِئْنَ جُمُوعُهُ
وَعَادَتْ عَلَى ابْنِ الْبَرِّمْ نَعْمَاكَ بَعْدَمَا

٦٣٧/٣

أَيَادِي عُرْفِ بَاقِيَاتٍ وَعُودًا
وَأَصْدَرَ بَاغِي الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأُورِدَا
فَكَانَ مِنَ الْآبَاءِ أَخْنَى وَأَعُودَا
وَفِي الْبَاسِ أَلْفَوْهَا مِنَ النَّجْمِ أَبْعَدَا
إِلَى كُلِّ أَمْرٍ كَانَ أَسْنَى وَأَمْجَدَا
وَيُسْقَى دَمَ الْعَاصِي الْحَسَامُ الْمَهْنَدَا
وَكَانَتْ لِأَهْلِ الدِّينِ عَزًّا مُؤَبَّدَا
عَلَى فَضْلِهِ عَهْدُ الْخَلِيفَةِ قُلْدَا
بِهِ اللَّهُ أَعْطَى كُلَّ خَيْرٍ وَسَدَّدَا
بِهِنَّ لِنِيرَانِ الضَّلَالَةِ مُوقَدَا
قَتِيلَا وَمَأْسُورًا وَقَلًّا مُشْرَدَا
تَحَوَّبَ مَخْذُولًا يَرَى الْمَوْتَ مُفْرَدَا

وذكر العباس بن جرير ، أن حفص بن مسلم — وهو أخو رزام بن مسلم ، مولى
خالد بن عبد الله القسري — حدثه أنه قال : دخلت على الفضل بن يحيى مقدّمه
خراسان ، وبين يديه بيدرٌ تفرق بخواتيمها ، فما فُضَّتْ بَدْرَةٌ منها ، فقلت :
كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالدٍ وجُودَ يديه بِخَلِّ كُلِّ بِخِيلٍ
قال : فقال لي مروان بن أبي حفصة : وددت أني سبقتك إلى هذا البيت ،
وأن على غرم عشرة آلاف درهم .

* * *

وغزا فيها الصّائفة معاوية بن زُفَر بن عاصم ، وغزا الشّاتية فيها سليمان
ابن راشد ، ومعه البيد بطريق صقلية .
وحجّ بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وكان على مكة .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك انصرف الفضل بن يحيى عن خراسان واستخلفه عليها عمرو بن شريحيل .

٦٣٨/٣

وفيهما ولّى الرشيد خراسان منصور بن يزيد بن منصور الحميري .

وفيهما شري^(١) بخراسان حمزة بن أترك السجستاني .

وفيهما عزل الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن الحجبة ، وولّاها الفضل بن الربيع .

وفيهما رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته ، وكثر تبعه ، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيباني ، فراوغه يزيد ، ثم لقيه وهو مغترّ فوق هيت ، فقتله وجماعة كانوا معه ، وتفرّق الباقون ، فقال الشاعر :

وائلُ بَعْضُهَا يَقْتُلُ بَعْضًا لَا يَفْلُ الْحَدِيدَ إِلَّا الْحَدِيدُ

وقالت الفارعة أخت الوليد :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التُّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَاءٍ وَسُيُوفٍ

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان ، شكرًا لله على ما أبلاه في الوليد بن طريف ، فلمّا قضى عمرته انصرف إلى المدينة ، فأقام بها إلى وقت الحج ، ثم حجّ بالناس ، فمشى من مكة إلى منى ، ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر ماشيًا ، ثم انصرف على طريق البصرة .

٦٣٩/٣

وأما الواقدى فإنه قال : لما فرغ من عمرته أقام بمكة حتى أقام للناس حجّهم .

(١) شري : صار من الشراة ؛ وهم الخوارج . سموا بذلك لأنهم شروا ، أى غضبوا .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن العصبية التي هاجت بالشام]

فما كان فيها من ذلك ، العصبية التي هاجت بالشام بين أهلها .

* ذكر الخبر عما صار إليه أمرها :

ذكر أن هذه العصبية لما حدثت بالشام بين أهلها ، وتفاقم أمرها ، اغتم بذلك من أمرهم الرشيد ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام ، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ؛ فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح ، وجعل على شرطه العباس بن محمد بن المسيب بن زهير ، وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة ، فأتاهم فأصلح بينهم ؛ وقتل زواقلهم^(١) ، والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رُحماً ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة ؛ وأطفأ تلك النائرة ، فقال منصور النمري لما شخص جعفر :

لَقَدْ أَوْقَدَتْ بِالشَّامِ نِيرَانِ فِتْنَةٍ
إِذَا جَاشَ مَوْجُ الْبَحْرِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ
رَمَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِجَعْفَرٍ
رَمَاهَا بِمَيْمُونِ النَّقِيبَةِ مَاجِدٍ
تَدَلَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ بَرْمَكِيَّةٌ
غَدَوْتَ تُزْجَى غَابَةً فِي رُءُوسِهَا
إِذَا خَفَقَتْ رَايَاتُهَا وَتَجَرَّسَتْ^(٢)
فَقُولُوا لِأَهْلِ الشَّامِ : لَا يَسْلُبُنَاكُمْ

فَهَذَا أَوَانُ الشَّامِ تُخَمِدُ نَارُهَا
عَلَيْهَا ، خَبَتْ شُهْبَانُهَا وَشَرَارُهَا
وَفِيهِ تَلَاقَى صَدْعُهَا وَانْجِبَارُهَا
تَرَاخَى بِهِ قَحْطَانُهَا وَزِرَارُهَا
دَمَوْغٌ لَهُامِ النَّاكِثِينَ انْحِدَارُهَا
نُجُومُ الثَّرِيَّا وَالْمَنَابِإِ ثِمَارُهَا
بِهَا الرِّيحُ هَالِ السَّامِعِينَ انْثِبَارُهَا
حِجَاكُمُ طَوِيلَاتُ الْمُنَى وَقِصَارُهَا

٦٤٠/٣

فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ
 هُوَ الْمَلِكُ الْمَأْمُولُ لِلْبِرِّ وَالتَّقَى
 وَزِيرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّفُهُ
 وَمَنْ تَطَوَّأَ أَسْرَارُ الْخَلِيفَةِ دُونَهُ
 وَفَيْتَ فَلَمْ تَغْدِرْ لِقَوْمٍ بِذِمَّةٍ
 طَبِيبٌ بِإِحْيَاءِ الْأُمُورِ إِذَا التَّوَتَ
 إِذَا مَا ابْنُ يُحْيَى جَعْفَرٌ قَصَدَتْ لَهُ
 لَقَدْ نَشَأَتْ بِالشَّامِ مِنْكَ غِمَامَةٌ
 فَطَوَّبَى لِأَهْلِ الشَّامِ يَا وَيْلَ أُمِّهَا
 فَإِنْ سَالُوا كَانَتْ غِمَامَةٌ نَائِلِ
 أَبوكَ أَبُو الْأَمْلَاقِ يُحْيَى بْنُ خَالِدٍ
 كَأَيِّنْ تَرَى فِي الْبَرِّ مَكِّيِّينَ مِنْ نَدَى
 غَدَا بِنَجُومِ السَّعْدِ مَنْ حَلَّ رَحْلُهُ
 عَذِيرِي مِنَ الْأَقْدَارِ هَلْ عَزَمَاتُهَا
 فَعَيْنُ الْأَسَى مَطْرُوفَةٌ لِفِرَاقِهِ

أَتَاكُمْ وَإِلَّا^(١) نَفْسُهُ فَخِيَارُهَا
 وَصَوْلَاتُهُ لَا يُسْتَطَاعُ خِطَارُهَا
 وَصَعْدَتُهُ وَالْحَرْبُ تَدْمِي شِفَارُهَا
 فَعِنْدَكَ مَاوَاهَا وَأَنْتَ قَرَارُهَا
 وَلَمْ تَذُنْ مِنْ حَالِ يَنَالِكَ عَارُهَا
 مِنَ الدَّهْرِ أَعْنَاقُ ، فَأَنْتَ جُبَارُهَا^(٢)
 مُلِمَّاتُ خَطْبٍ لَمْ تَرْعُهُ كِبَارُهَا
 يُؤْمَلُ جَدَوَاهَا وَيُخْشَى دِمَارُهَا
 أَتَاهَا حَيَاهَا ، أَوْ أَتَاهَا بَوَارُهَا
 وَغَيْثُ ، وَإِلَّا فَالِدَّمَاءُ قِطَارُهَا
 أَخُو الْجُودِ وَالنُّعْمَى الْكِبَارِ صَغَارُهَا
 وَمِنْ سَابِقَاتٍ مَا يُشَقُّ غِبَارُهَا
 إِلَيْكَ ، وَعَزَّتْ عَضْبَةُ أَنْتَ جَارُهَا
 مُخَلَّفَتِي عَنْ جَعْفَرٍ وَاقْتَسَارُهَا
 وَنَفْسِي^(٣) إِلَيْهِ مَا يَنَامُ أَدَّكَارُهَا

٦٤١/٣

وولّى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها ، واستخلف على
 الشام عيسى بن العكيّ وانصرف ، فازداد الرشيد له إكراماً . فلما قدم على
 الرشيد دخل عليه - فيما ذكر - فقبل يديه ورجليه^(٤) ، ثم مثّل بين يديه ،
 فقال : الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي أنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ،
 ورحم تضرّعي ، وأنسأ في أجالي ، حتى أراي^(٥) وجه سيّدي ، وأكرمني

٦٤٢/٣

(٢) س : « صيارها » .

(٤) س : « ثم رجليه » .

(١) س : « وإذلاً » .

(٣) س : « ونفس » .

(٥) س : « أرى » .

بقربه ، وامتنَ علىّ بتقبيل يده ، وردّني إلى خِدْمته ؛ فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني ؛ فأعلم أنها كانت بمعاصي لحقتني وخطايا^(١) أحاطت بي ؛ ولو طال مُقامي عنك يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك ، وأسفّاً على فراقك ، وأن يعجل بي عن إذْكَ الاشتياقُ إلى رؤيتك ؛ والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة ، وأمتعني بالعافية ، وعرفني الإجابة ومسكني بالطاعة ، وحال بيني وبين استعمال المعصية ؛ فلم أشخص إلاّ عن رأيك ، ولم أقدم إلاّ عن إذْكَ وأمرك ؛ ولم يخترَ مني أجل^(٢) . دونك . والله يا أمير المؤمنين - ولا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينت ما لو تعرّض لي الدنيا كلّها لاخترت عليها قربك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام : إنّ الله يا أمير المؤمنين - لم يزل يبيلك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيّتك غاية أمنيّتك ، فيصلح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويلمّ شعّتهم ؛ حفظاً لك فيهم ، ورحمةً لهم ؛ وإنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرضاتك ؛ والله المحمود على ذلك وهو مستحقّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون^(٣) بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤمنون فضلك ، آمنون بادرّتك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمّده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم مقدّم^(٤) عنده لمسألتهم .

٦٤٣/٣

وايم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصتُ عنهم ، وقد أحمَد الله شرارهم وأطفأ نارهم ، ونفى مُراقهم ، وأصلح دهماءهم ، وأولاني الجميلَ فيهم ، ورزقني الانتصار منهم ؛ فما ذلك كله إلا ببركتك ويُمنك ، وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم لك . والله يا أمير

(١) س : « أو خطايا » .

(٢) س : « أجل » .

(٣) س : « متمسكون » .

(٤) بعدها في س : « عليهم » .

المؤمنين ما تقدمتُ إليهم إلاّ بوصيتك ، وما عاملتهم إلاّ بأمرك ، ولا سرت فيهم إلاّ على حدّ ما مثّلته لي ورسمته ، ووقفته على ، ووالله ما انقادوا إلاّ لدعوتك ، وتوحّد الله بالصنع لك ، وتخوفهم من سطوتك . وما كان الذي كان مني - وإن كنت بذلت جهدي ، وبلغت مجهودي - قاضياً ببعض حقك على ؛ بل ما ازدادت نعمتك علىّ عظماً ؛ إلاّ ازددتُ عن شكرك عجزاً وضعفاً ، وما خلق الله أحداً من رعيّتك أبعد من أن يُطمع نفسه في قضاء حقك مني ، وما ذلك إلاّ أن أكون باذلاً مهجتي في طاعتك ، وكلّ ما يقرب إلى موافقتك ؛ ولكنني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها ^(١) عند غيري ؛ فكيف بشكري ^(٢) وقد أصبحتُ واحد أهل دهري فيما صنعتَه فيّ وبني ! أم كيف بشكري ^(٣) وإنما أقوى على شكرى بإكرامك أياي ! وكيف بشكري ^(٤) ولو جعل الله شكرى في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدّى ^(٥) وكيف بشكري ^(٦) وأنت كهني دون كلّ كهف لي ! وكيف بشكري ^(٧) وأنت لا ترضي لي ما أَرْضاه لي ! وكيف بشكري وأنت تجدد من نعمتك عندي ما ^(٨) يستغرق ^(٩) كلّ ما سلف عندك لي ! أم كيف بشكري وأنت تُنسيني ^(١٠) ما تقدّم من إحسانك إليّ بما تجدده لي ! أم كيف بشكري ^(١١) وأنت تقدمني بطولك ^(١٢) على جميع أكفائي ! أم كيف بشكري ^(١٣) وأنت وليّتي ! أم كيف بشكري وأنت المكرّم لي ! وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ؛ إذا كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه ، بل دون شقص ^(١٤) من عشر عشره ^(١٥) ، أن يتولى مكافأتك عنّي بما هو أوسع له ، وأقدر عليه ، وأن يتقضى عنّي حقّك ، وجليل منّتك ؛ فإن ذلك بيده ، وهو القادر عليه !

* * *

وفي هذه السنة أخذ الرّشيد الخاتم من جعفر بن يحيى ، فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد .

(١) س : « ما لا أعرفها » .	(٢) ١ : « تشكرني » .
(٣) ١ ، س : « عددي » .	(٤) ج : « بما » .
(٥) س : « استغرق » .	(٦) ج : « نسيتني » .
(٧) س : « بطولك » .	(٨) س : « بشكرك » .
(٩) الشقص : النصيب .	(١٠) س : « عشرة » ؟

وفيهما وُلِّيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى خُرَّاسَانَ وَسِجِسْتَانَ ، واستعمل جَعْفَرٌ عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة .

وفيهما شخص الرّشيد من مدينة السلام مريداً الرّقة على طريق الموصل ، فلما نزل البردّان ، وُلِّيَ عيسى بن جعفر خُرَّاسَانَ ، وعزل عنها جعفر بن يحيى ؛ فكانت ولاية جعفر بن يحيى إياها عشرين ليلة .

وفيهما وُلِّيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الحرس .

وفيهما هدم الرّشيد سُورَ الموصل بسبب الخوارج الذين خرجوا منها ، ثم مضى إلى الرّقة فنزلها واتخذها وطنًا .

٦٤٥/٣

وفيهما عَزَلَ هَرَّثَمَةَ بْنُ أَعْيَنَ عن إفريقية ، وأقفلهُ إلى مدينة السلام ، فاستخلفه جعفر بن يحيى على الحرس .

وفيهما كانت بأرض مصر زلزلة شديدة ، فسقط رأسُ منارة الإسكندرية . وفيها حكم خُراشة الشيبانيّ وشَرِيّ بالجزيرة ، فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيليّ .

وفيهما خرجت الحمّرة بجرّجان ، فكتب على بن عيسى بن ماهان أن الذي هتج ذلك عليه عمرو بن محمد العمركيّ ، وأنه زنديق ، فأمر الرّشيد بقتله ، فقتل بمرو .

وفيهما عَزَلَ الفضل بن يحيى عن طبرستان والرّويان ، وولّي ذلك عبد الله ابن خازم . وعزل الفضل أيضًا عن الرّميّ ، ووليّها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخير ، وولّي سعيد بن سلّم^(١) الجزيرة . وغزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم .

وفيهما صار الرّشيد إلى البصرة مُنصرّفه من مكة ، فقدمها في المحرم منها ، فنزل المحدثّة أيامًا ، ثم تحوّل منها إلى قصر عيسى بن جعفر بالخُرّيبية ، ثم ركب في نهر سَيْحَانَ الذي احتفَره يحيى بن خالد ؛ حتى نظر إليه ، وسكر^(٢) نهر الأبلّة ونهر معقل ، حتى استحكم أمر سَيْحَانَ ، ثم شخص عن البصرة

(٢) سكر النهر : سدّاه .

(١) : « مسلم » .

٦٤٦/٣

لاثنى عشرة ليلة بقيت من المحرم، فقدم مدينة السلام، ثم شخص إلى الحيرة، فسكنها وابتنى بها المنازل، وأقطع مَن معه الحِطَط، وأقام نحواً من أربعين يوماً، فوثب به أهل الكوفة، وأساءوا مجاورته، فارتحل إلى مدينة السلام، ثم شخص من مدينة السلام إلى الرقة، واستخلف بمدينة السلام حين شخص إلى الرقة محمداً الأمين، وولاه العراقيين.

* * *

وحج بالناس في هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فكان فيها غزو الرشيد أرض الروم ، فافتتح بها عنوةً حصن الصفصاف ، فقال مروان بن أبي حفصة :

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفاً

وفيهما غزا عبد الملك بن صالح الروم ، فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة .

وفيهما توفى الحسن بن قحطبة وحمزة بن مالك .

وفيهما غلبت الحمرة على جرجان .

وفيهما أحدث الرشيد عند نزوله الرقة في صدور كتبه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

وحج بالناس في هذه السنة هارون^(١) الرشيد ، فأقام للناس الحج ، ثم صدر معجلاً . وتخلّف عنه يحيى بن خالد ، ثم لحقه بالغمرة فاستعفاه من الولاية فأعفاه ، فردّ إليه الخاتم ، وسأله الإذن في المقام فأذن له ، فانصرف إلى مكة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فكان فيها انصراف الرشيد من مكة ومسيره إلى الرقة ، وبيعته بها لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين ، وأخذ البيعة له على الجند بذلك بالرقة ، وضمته إياه إلى جعفر بن يحيى ، ثم توجيهه إياه إلى مدينة السلام ، ومعه من أهل بيته جعفر بن أبي جعفر المنصور وعبد الملك بن صالح ، ومن القواد على بن عيسى ، فسُويَ له بمدينة السلام حين قدمها ، وولاه أبوه خراسان وما يتصل بها إلى همدان ، وسماه المأمون .

وفيهما حُمِلت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى ، فأتت بِسِرْدعة ، وعلى إرمينية يومئذ سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي ، فرجع من كان فيها من الطراخنة إلى أبيها ، فأخبروه أن ابنته قُتلت ^(١) غيلة ، فحنق لذلك ، وأخذ في الأهبة لحرب المسلمين .

وانصرف فيها يحيى بن خالد إلى مدينة السلام .

وغزا فيها الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ دفسوس مدينة أصحاب الكهف .

وفيهما سَمِلت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون ، وأقرّوا أمه ريني ، وتلقّب أَعَسْطَة .

* * *

وحجّ بالناس فيها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك خروج الحنزر بسبب ابنة خاقان من باب الأبواب وإيقاعهم بالمسلمين هنالك وأهل الذمة ، وسبيهم — فيما ذكر — أكثر من مائة ألف . فانتهكوا أمراً عظيماً لم يُسمع في الإسلام بمثله ، فولّى الرشيد لإرمينية يزيد بن مزيد مع أذربيجان ، وقواه بالحندي ؛ وجهه ، وأنزل خزيمه بن خازم نصيبين رداءً لا أهل لإرمينية .

وقد قيل في سبب دخول الحنزر لإرمينية غير هذا القول ؛ وذلك ما ذكره محمد بن عبد الله ، أن أباه حدثه أن سبب دخول الحنزر لإرمينية في زمان هارون كان أن سعيد بن سلم ضرب عنق المنجم السلمي بفأس ، فدخل ابنه بلاد الحنزر ، واستجاشهم على سعيد ، فدخلوا لإرمينية من الثلثة ، فانهزم سعيد ، ونكحوا المسلمات ، وأقاموا فيها — أظن — سبعين يوماً ، فوجه هارون خزيمه بن خازم ويزيد بن مزيد إلى إرمينية حتى أصلحوا ما أفسد سعيد ، وأخرجوا الحنزر ، وسدّت الثلثة .

وفيهما كتب الرشيد إلى عليّ بن عيسى بن ماهان وهو بخراسان بالمصير إليه ؛ وكان سبب كتابه إليه بذلك ؛ أنه كان حُمل عليه ، وقيل له : إنه قد أجمع ^(١) على الخلاف ، فاستخلف عليّ بن عيسى ابنه يحيى على خراسان ، فأقره الرشيد ، فوفاه عليّ ، وحمل إليه مالا عظيماً ، فردّه الرشيد إلى خراسان من قبل ابنه المأمون لحرب أبي الحصب ، فرجع .

٦٤٩/٣

وفيهما خرج بنسّاً من خراسان أبو الحصب وهيب بن عبد الله النسائي مولى الحرّيش .

وفيها مات موسى بن جعفر بن محمد ببغداد ومحمد بن السمك القاضي .

* * *

وفيها حجّ بالناس العباس بن موسى الهادي بن محمد بن عبد الله بن محمد
ابن عليّ .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها قدم هارون مدينة السلام في جمادى الآخرة منصرفاً إليها من الرقة في الفُرات في السفن ، فلما صار إليها أخذ الناس بالبقايا .

ووليّ استخراج ذلك - فيما ذكر - عبد الله بن المهيم بن سام بالحبس والضرب ، ووليّ حماد البربري مكة واليمن ، ووليّ داود بن يزيد بن حاتم المهلبيّ السند ، ويحيى الحرشيّ الجبل ، ومهرويه الرازيّ طبرستان ، وقام بأمر إفريقية إبراهيم الأغلب ، فولّاه إياه الرّشيد .

وفيها خرج أبو عمرو الشاري فوجّه إليه زهير القصاب فقتله بشهْرزُور .
وفيها طلب أبو الحصيب الأمان ، فأعطاه ذلك عليّ بن عيسى ، فوافاه بمَرْزَ فَأَكْرَمَهُ .

* * *

وحجّ بالناس فيها إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من قتل أهل طبرستان مَهْرُوبِيَه الرازي وهو واليها ، فولّي الرشيد مكانه عبد الله بن سعيد الحرّشي .

وفيهما قتل عبدالرحمن الأبنوي^(١) أبان بن قحطبة الخارجي بمِرج القلعة .

وفيهما عاث حمزة الشاري بباذغيس من خراسان ، فوثب عيسى بن علي ابن عيسى على عشرة آلاف من أصحاب حمزة فقتلهم ، وبلغ كابل وزابلستان والقندهار ، فقال أبو العذافر^(٢) في ذلك :

كَادَ عِيسَى يَكُونُ ذَا الْقَرْنَيْنِ بَلَغَ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ
لَمْ يَدْعُ كَابِلًا وَلَا زَابُلِسْتَا نَ فَمَا حَوْلَهَا إِلَى الرُّخَّجَيْنِ

وفيهما خرج أبو الحبيب ثانية بنّسا ، وغلب عليها وعلى أبيورد وطوس ونيسابور ، وزحف إلى مرو ، فأحاط بها ، فهزم ، ومضى نحو سرخس ، وقوى أمره .

وفيهما مات يزيد بن مزيد ببرذعة ، فولّي مكانه أسد بن يزيد .

وفيهما مات يقطين بن موسى ببغداد .

وفيهما مات عبد الصمد بن علي ببغداد في جمادى الآخرة ، ولم يكن ثُغَرِ^(٣) قط ؛ فأدخل القبر بأسنان الصبي ، وما نقص له سن .

٦٥١/٣

وشخص فيها الرشيد إلى الرقة على طريق الموصل .

واستأذنه فيها يحيى بن خالد في العمرة والحوار ، فأذن له ، فخرج في

(١) ط : « الأنباري » ، وهو « عبد الرحمن بن جبلة الأبنوي » .

(٢) ط : « العذافر » ، وانظر الفهرس .

(٣) ثغر : سقطت رواضعه ، والرواضع : أسنان الصبي .

شعبان ، واعتمر عمرة شهر رمضان ، ثم رابط بجدة إلى وقت الحج ، ثم حج .
ووقعت في المسجد الحرام صاعقة فقتلت رجلين .

* * *

وحج بالناس فيها منصور بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان خروجُ عليّ بن عيسى بن ماهان من مَرَوْحَ إلى أبي الحصيب إلى نَسَا ، فقتله بها ، وسبى نساءه وذرائه ، واستقامت خُرَاسَان .

وفيهما حبس الرشيدُ ثُمَامَةَ بن أَشْرَسَ لوقوفه على كذبه في أمر أحمد بن عيسى بن زيد .

وفيهما مات جعفر بن أبي جعفر المنصور عند هَرَمَةِ . وتوفي العباس بن محمد ببغداد .

* * *

[ذكر حجّ الرشيد ثمّ كتابته العهد لأبنائه]

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد ؛ وكان شخوصه من الرقة للحجّ في شهر رمضان من هذه السنة ، فرّ بالأَنْبَار ، ولم يدخل مدينة السلام ؛ ولكنه نزل منزلاً على شاطئ الفرات يدعى الدّارَات ، بينه وبين مدينة السلام سبعة فراسخ ، وخلف بالرقّة إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، وأخرج معه ابنه : محمد أ الأمين وعبد الله المأمون ؛ وليّ عهده ؛ فبدأ بالمدينة ، فأعطى أهلها ثلاثة أعطية ؛ كانوا يقدمون إليه فيعطيههم عطاء ، ثمّ إلى محمد فيعطيههم عطاءً ثانياً ، ثمّ إلى المأمون فيعطيههم عطاءً ثالثاً ، ثمّ صار إلى مكة فأعطى أهلها ، فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار .

٦٥٢/٣

وكان الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد — فيما ذكر محمد بن يزيد عن إبراهيم بن محمد الحجبسيّ — يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة ، وسماه الأَمن ، وضمّ إليه الشَّام والعراق في سنة خمس وسبعين ومائة ، ثمّ بايع لعبد الله المأمون بالرقّة في سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وولاه من حدّ هَمْدَان إلى آخر المشرق ، فقال في ذلك سلّم بن عمرو الخاسر :

بايَع هَارُونُ إِمَامُ الْهُدَى لِيَذِي الْحِجْبَى وَالْخُلُقِ الْفَاضِلِ
 الْمَخْلِفِ الْمُتَلَفِ أَمْوَالَهُ وَالضَّامِنِ الْأَثْقَالَ لِلْحَامِلِ
 وَالْعَالِمِ النَّافِذِ فِي عِلْمِهِ وَالْحَاكِمِ الْفَاضِلِ وَالْعَادِلِ
 وَالرَّائِقِ الْفَاتِقِ حَلَفَ الْهُدَى^(١) وَالْقَائِلِ الصَّادِقِ وَالْفَاعِلِ
 لِحَيْرِ عَبَّاسٍ إِذَا حُصِّلُوا وَالْمُقْضِلِ الْمَجْدَى عَلَى الْعَائِلِ^(٢)
 أَبْرَهُمْ بَرًّا وَأَوْلَاهُمْ بِالْعُرْفِ عِنْدَ الْحَدَثِ النَّازِلِ
 لِمُشْبِهِ الْمَنْصُورِ فِي مَلِكِهِ إِذَا تَدَجَّتْ ظُلُمَةُ الْبَاطِلِ
 فَتَمَّ بِالْمَأْمُونِ نَوْرُ الْهُدَى وَانْكَشَفَ الْجَهْلُ عَنِ الْجَاهِلِ

وذكر الحسن بن قريش أن القاسم بن الرشيد، كان في حِجْر عبد الملك
 ابن صالح ، فلما بايع الرشيدُ لحمد والمأمون ، كتب إليه عبد الملك بن صالح :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَوْ كَانَ نَجْمًا كَانَ سَعْدًا
 اعْقِدْ لِقَاسِمٍ بَيْعَةً وَاقْدَحْ لَهُ فِي الْمُلْكِ زَنْدًا
 اللَّهُ فَرْدٌ وَاحِدٌ فَاجْعَلْ وَلَاَةَ الْعَهْدِ فَرْدًا

فكان ذلك أول ما حضَّ الرشيد على البيعة للقاسم . ثم بايع للقاسم ابنه ،
 وسماه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والشغور والعواصم ، فقال في ذلك :

حُبَّ الْخَلِيفَةِ حُبٌّ لَا يَدِينُ بِهِ مَنْ كَانَ اللَّهُ عَاصٍ يَعْمَلُ الْفِتْنَا
 اللَّهُ قَلَدٌ هَارُونًا سِيَاسَتَنَا لَمَّا اصْطَفَاهُ فَأَحْيَا الدِّينَ وَالسَّنَا
 وَقَلَدٌ الْأَرْضَ هَارُونُ لِرَأْفَتِهِ بَنَّا أَمِينًا وَمَأْمُومًا وَمُؤْتَمَنًا

قال : ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة ، قال بعض العامة^(٣) : قد أحكم
 أمر الملك ، وقال بعضهم : بل ألقى بأسَهُم بينهم ، وعاقبة ما صنع في ذلك
 خوفاً على الرعية ، وقالت الشعراء في ذلك ، فقال بعضهم :

(٢) س : « العامل » .

(١) س : « الندى » .

(٣) س : « الناس » .

أَقُولُ لَعْنَةً فِي النَّفْسِ مِنِّي وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَطْرُدُ أَطْرَادًا
خُذِي لِلْهَوْلِ ^(١) عُدَّتُهُ بِحَزْمٍ سَنَدَقِي مَا سَيَمْنَعُكَ الرُّقَادَا
فَإِنَّكَ إِنْ بَقِيتِ رَأَيْتِ أَمْرًا يُطِيلُ لَكَ الْكَأَبَ وَالسَّهَادَا
رَأَى الْمَلِكُ الْمَهْذَبُ شَرًّا رَأَى بِقِسْمَتِهِ الْخِلَافَةَ وَالْبِلَادَا
رَأَى مَا لَوْ تَعَقَّبَهُ بِعِلْمٍ ^(٢) لَبَيَّضَ مِنْ مَفَارِقِهِ السَّوَادَا
أَرَادَ بِهِ لِيَقْطَعَ عَنْ بَنِيهِ خِلَافَهُمْ وَيَبْتَذِلُوا الْوُدَادَا
فَقَدْ غَرَسَ الْعَدَاوَةَ غَيْرَ آلٍ وَأَوْرَثَ شَمْلَ أَلْفَتِهِمْ بَدَادَا
وَأَلْقَحَ بَيْنَهُمْ حَرْبًا عَوَانًا وَسَلَّسَ لاجْتِنَابِهِمُ الْقِيَادَا ^(٣)
فَوَيْلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَنْ قَلِيلٍ لَقَدْ أَهْدَى لَهَا الْكُرْبَ الشَّدَادَا
وَأَلْبَسَهَا بِلَاءً غَيْرَ فَنٍ وَأَلْزَمَهَا التَّضَعُّعَ وَالْفَسَادَا
سَتَجْرَى مِنْ دِمَائِهِمْ بِحُورٌ زَوَاخِرُ لَا يَرَوْنَ لَهَا نِفَادَا
فَوَزُرُ بِلَائِهِمْ أَبَدًا عَلَيْهِ أَغْيَا كَانَ ذَلِكَ أَمَّ رَشَادَا

٦٥٤/٣

قال : وحجَّ هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزراؤه وقضاته في سنة ست وثمانين ومائة ، وخلف بالرقّة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكّي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر ، وأشخص القاسم ابنه إلى مسَبِج ، فأنزله إياها بمن ضمّ إليه من القواد والجند ، فلما قضى مناسكته كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين ، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما ، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليّ عبدُ الله من الأعمال ، وصيرَ إليه من الضبائع والغنّات والجواهر والأموال ، والآخر نسخة البسيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد ، وإشهاده عليه بها الله وملائكته

(١) س : « للقول » .

(٢) س : « رأى برأى » .

(٣) ج : « لاحتسابهم » .

ومَن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقُوداه ووزرائه وكتابه وغيرهم .

وكانت الشهادة بالبَيْعَة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدّم إلى الحَجْبَة في حفظهما ، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما ، فذكر عبدُ الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم الحنفي ، أن الرّشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقُوداء والفقهاء ، وأدخلوا البيت الحرام ، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد ، وأشهد عليهما جماعة من حضر ، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة ، فلما رُفِع ليعلّق وقع ، فقليل إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه . وكانت نسخة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعا غير مكره . إن أمير المؤمنين ولأني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعا ، ولّي عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا مني وتسليم ، طائعا غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكُورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها ^(١) وبريدها ، وبيوت أموالها ، وصدقاتها وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها ، في حياته وبعده . وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضا مني وطيب نفسي ، أن لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عَقَدَ له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليم ذلك له ؛ وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلّها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعية ، أو جعل له من عقدة ^(٢) أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلّى أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منزل أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقرا مسلما إليه . وقد عرفت ذلك كله شيئا شيئا .

(١) الطراز : ما ينسج من الثياب للسلطان ، ويطلق على الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجياد ؛ وكان للطراز دور كدور ضرب النقود . وانظر اللسان .

(٢) العقدة : الضيعة والمقار الذي اعتقده صاحبه ملكا . واعتقد الضيعة والمال : اقتناهما .

٦٥٦/٣

فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقصر ماسين ؛ وإن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والرّي والكُور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب ، من لدن الرّي إلى أقصى عمل خراسان . فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائد ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمتهم إلى أمير المؤمنين ، ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرّي مما يلي همدان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها ؛ وما هو منسوب إليها ، ولا يشخصه ^(١) إليه ، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولا يولى عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بئداراً ، ولا محاسباً ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده ؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكره عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليتهم ، ولا أحد بسبيل ^(٢) منهم ، ولا في دمايتهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبترخيص له في ذلك وإداهان منه فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله ومن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته .

٦٥٧/٣

وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمه ومكتبته ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً

(٢) كذا في ١ .

(١) ط : « شخصه » ، والصواب ما أثبتته من ١ .

عليه ؛ فعلى محمد بن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغير له وقسماء^(١) حتى ينفذ فيه رأيه وأمره .

فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وشغورها وأعمالها ، والذي من حد عملها مما يلي همدان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه ممن قدم قرامسين ، أو أن ينتقصه قليلا أو كثيرا مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ؛ صغرت أو كبرت ؛ فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، والقيام معه ، والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والذب عنه ؛ ما كانت الحياة في أبدانهم . وليس لأحد منهم جميعاً من كانوا ، أو حيث كانوا ، أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع^(٢) محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب . وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأنتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلم له الخلافة .

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما وقربائهما ولا غيرهم من جميع البرية ؛ فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف

٦٥٨/٣

٦٥٩/٣

ذلك عنه إلى مَنْ رأى من ولده وإخوته ، وتقديم مَنْ أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد مَنْ يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى .
فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ، وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلين ، ووكدّها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتتقن لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمى وكتب في كتابه هذا ، واشترط عليكم وأقرتم به على أنفسكم ؛ فإن أنتم بدّلتُم من ذلك شيئاً ، أو غيرتم ، أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة ، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكل مملوك لأحد منكم - أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة - حر ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً ألبنة طلاق الحرج ، لامثنوية^(١) فيها . والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ ، وكفى بالله حسيباً .

* * *

نسخة الشرط الذى كتب عبد الله
ابن أمير المؤمنين بخط يده فى الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحفة من عقله ، وجواز من أمره ، وصدق نية فيما كتب فى كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين . إن أمير المؤمنين هارون ولأنى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هارون ، ولأنى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة

(١) حلف يميناً لامثنوية فيها ، أى لا استثناء .

وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين ، أو ابتاع لى من الضياع والعُقَد والرِّباع أو ابتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكسَاء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ، ولا يعرض لى ولا لأحد من عمالى وكتّابى بسبب محاسبة ، ولا يتَّبِع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أبداً ، ولا يُدْخِل علىّ ولا عليهم ولا على مَنْ كان معى ومن استعنتُ به من جميع الناس مكروهاً ؛ فى نفس ولا دم ولا شعرولاً بشرولاً مال ، ولا صغير من الأمور ولا كبير . فأجابه إلى ذلك ، وأقرّ به وكتب له كتاباً ، أكّد فيه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين هارون وقبيله ، وعرف صدق نيّته فيه . فشرطُ لأمر المؤمنين وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه ، وأنصح له ولا أغشه ، وأوفى ببعته وولايته ، ولا أغدر ، ولا أنكُث ، وأنفذُ كُتبه وأمره ، وأحسن موازرتة وجهاد عدوّه فى ناحيتى ، ما وُقِى لى بما شرط لأمر المؤمنين فى أمرى ، وسمّى فى الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين ، ورضى به أمير المؤمنين ، ولم يتَّبِعنى بشىء من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التى شرطها أمير المؤمنين لى عليه .

٦٦١/٣

فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند ، وكتب إلىّ يأمرنى بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدوّ من أعدائه ؛ خالفه أو أراد نقص شىء من سلطانه أو سلطانى الذى أسندّه أمير المؤمنين إلينا وولّانا إياه ؛ فعلىّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصّر فى شىء كتب به إلىّ . وإن أراد محمد أن يوكلّى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى ؛ فذلك له ما وُقِى لى بما جعله أمير المؤمنين إلىّ واشترطه لى عليه ، وشرط على نفسه فى أمرى ، وعلىّ إنفاذ ذلك والوفاء له به ؛ ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ، ولا أقدم قبله أحداً من ولدّى ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين ؛ إلاّ أن يوكلّى أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدى ؛ فيلزمنى ومحمداً الوفاء له .

٦٦٢/٣

وجعلتُ لأمر المؤمنين ومحمد علىّ الوفاء بما شرطت وسمّيت فى كتابى هذا ، ما وُقِى لى محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى ، وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة فى هذا

الكتاب الذى كتبه لى ، وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتى وذم أبائى وذم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين ، من عهوده ومواريقه ، والأيمان المؤكدة التى أمر الله بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها ؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت فى كتابى هذا أو غيرت أو بدلت ، أو نكثت أو غدرت ، فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً ؛ وكل امرأة هى لى اليوم أو أتزوجها لى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبنة طلاق الحرج ؛ وكل مملوك هو لى اليوم أو أملكه لى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وعلى المشى لى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة ، نذراً واجباً على فى عنى حافياً راجلاً ؛ لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وكل مال لى أو أملكه لى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة ؛ وكل ما جعلت لأمر المؤمنين وشرطت فى كتابى هذا لازم لا أضمر غيره ، ولا أنوى غيره .

وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان وفلان . وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

* * *

نسخة كتاب هارون بن محمد الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن الله ولى أمير المؤمنين وولى ما ولاه ، والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه ، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره ، والمنعم عليه بالتصبر والتأييد فى مشارق الأرض ومغاربها ، والكالى والحافظ والكافى من جميع خلقه ؛ وهو الحمود على جميع آلائه ، المسئول تمام حسن^(١) ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين ، وعادته الجميلة عنده ، وإلهام ما يرضى به ، ويوجب له عليه أحسن الميزان من فضله . وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولّى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين ، من تبليغه بهما أحسن ما أمّلت الأمة ، ومدّت إليه أعناقها ، وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما

والثقة بهما ، لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ؛ وجمع ^(١) ألفتهم ، وصلاح دهنائهم ، ودفع الحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ؛ حتى ألقوا إليهما أزمتهما ، وأعطوهما بيعتهما وصفقات أيمانهم ، بالعهود والمواثيق ووكد الأيمان المغلظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مرد ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا صرّف له عن محبته ومشيتته ، وما سبق في علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة ؛ لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه .

٦٦٤/٣

ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، يُعمل فكره ورأيه ونظره ورويته ^(٢) فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة ، واللم للشعث ، والدفع للشتات والفرقة ، والحسم لكيد أعداء النعم ؛ من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق ، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما . ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ، ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة ، والقوة في أمر الله وحقه واثلاف أهوائهما ، وصلاح ذات بينهما ، وتحصينهما من كيد أعداء النعم ، وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما .

فغزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله ، وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره ، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود ، وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهم ^(٣) ومودتهم وتواصلهما وموازرتهم ومكانفتهم على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاها ، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم ، والجهاد لعدو المسلمين ؛ من كانوا حيث كانوا ، وقطع طمع كل عدوٍّ مظهر للعداوة ، ومسرّها ، وكل منافق

(١) ج : « جميع » .

(٢) ط : « رؤيته » .

(٣) س : « كلمتهما » .

٦٦٥/٣

ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيدت وقعته^(١) بينهما، وبدحس^(٢) يدحس به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة ، والسعى بالفساد في الأرض ، والدعاء إلى البدع والضلالة ؛ نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومناصحة الله وجميع المسلمين ، وذنباً عن سلطان الله الذي قدره ، وتوحد فيه للذي حمّله إياه ، والاجتهاد في كل^(٣) ما فيه قرّة إلى الله ، وما ينال به رضوانه ، والوسيلة عنده .

فلما قدّم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك ، وما نظره فيه لهما ، فقبلاً كلّ ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله ، وكتباً لأمر المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحضّر ممّن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقضاته وحجّبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجّبة ، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة .

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كلّ في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة ، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما ، وحضروا كتابهما ، أن يعلموا جميع ممّن حضر الموسم من الحاجّ والعُمّار وفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعرفوه ، ويعرفوه ويحفظوه ، ويؤدّوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا . وقد اشتهر ذلك عندهم ، وأثبتوا الشهادة عليه^(٤) ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقق دمائهم ، ولمّ شعبيهم وإطفاء جمرّة أعداء الله ؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمر المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك .

٦٦٦/٣

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبتهما لأمر المؤمنين ابنه محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه ؛ هذا فاحمد الله عزّ

(١) س : « توقيعه » ، ح : « وتوقعه » .

(٢) الدحس : الفساد .

(٣) س : « على كل » .

(٤) س : « عليهم » .

وجلّ على ما صنع لمحمد وعبد الله وليّ عهد المسلمين حمداً كثيراً ، واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمه محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً .

واقراً كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين ، وأفهمهم إياه وقمّ به بينهم ، وأثبت في الديوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك ، إن شاء الله وحسبنا الله ونعم الوكيل وبه الحول والقوة والطول .

وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقیّین من المحرم سنة ست وثمانين ومائة .

قال : وأمر هارون الرشيد لعبد الله المأمون بمائة ألف دينار ، وحملت له إلى بغداد من الرقة .

* * *

قال وكان الرشيد بعد مقتل جعفر بن يحيى بالعمّـر ، صار إلى الرقة ، ثم قدم بغداد ؛ وقد كانت توالى عليه الشكاية من عليّ بن عيسى بن ماهان من خراسان وكثر عليه القول عنده ، فأجمع على عزّله من خراسان ، وأحبّ أن يكون قريباً منه . فلما صار إلى بغداد شخص بعد مدة منها إلى قتر ماسين ، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائة ، وأشخص إليها عدّة رجال من القضاة وغيرهم ، وأشهدهم أن جميع ما له في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وما سواه أجمع لعبد الله المأمون ، وأنه ليس فيه قليل ولا كثير بوجه ولا سبب ، وجدّد البيعة له على من كان معه ، ووجه هرثمة بن أعين صاحب حرّسه إلى بغداد ، فأعاد أخذ البيعة على محمد بن هارون أمير المؤمنين وعلى من كان بحضرته لعبد الله والقاسم على النسخة التي كان أخذها عليه الرشيد بمكة ، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله إذا أفضت إليه الخلافة ؛ فقال : إبراهيم الموصليّ في بيعة هارون لابنيه في الكعبة :

٦٦٧/٣

خيرُ الأمور مَغْبَةٌ وأحقُّ أمرٍ بالتّمام
أمرٌ قضى إحكامه الرّحمانُ في البيتِ الحرامِ

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن إيقاع الرشيد بالبرامكة]

فما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد وإيقاعه بالبرامكة .

✓ * ذكر الخبر عن سبب قتله وإياه وكيف كان قتله وما فعل به وبأهل بيته :

أما سبب غضبه عليه الذى قتله عنده ، فإنه مختلف فيه ، فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل ، عن أبيه أنه قال : إني لقاعد في مجلس الرشيد ، إذ طلع يحيى بن خالد - وكان فيما مضى يدخل بلا إذن - فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً ، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير .

قال : ثم أقبل على الرشيد ، فقال : يا جبريل ، يدخل عليك وأنت في منزلك أحدٌ بلا إذنك ! فقلت : لا ، ولا يطمع في ذلك . قال : فما بالنا يُدْخِلُ علينا بلا إذن ! فقام يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد منى الله قبلك ؛ والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شئء كان خصّني^(١) به أمير المؤمنين ، ورفع به ذكرى ؛ حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً ، وحيناً في بعض إزاره ؛ وما علمت أن أمير المؤمنين كره^(٢) ما كان يحب^(٣) ؛ وإذا قد علمت فإنتى أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن ، أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك . قال : فاستحيا - قال : وكان من أرق الخلفاء وجهاً - وعيناه في الأرض ، ما يرفع إليه طرفه ، ثم قال : ما أردت ما تكره ؛ ولكن الناس يقولون . قال : فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول

٦٦٨/٣

ثم أمسك عنه ، وخرج يحيى .

وذكر عن أحمد بن يوسف أن ثُمَامَةَ بن أشرس ؛ قال : أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره ، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت في عباده وبلاده ، فقلت : يا رب إني استكفيت يحيى أمورَ عبادك ! أترك تحتج بحجة يرضى بها^(١) ! مع كلام فيه توبيخ وتقريع . فدعا الرشيد يحيى - وقد تقدم إليه خبر الرسالة - فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ، قال : فأى الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، فأمر به فوضع في المطبق دهرأ ؛ فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه ، فأحضر ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يا محمد ، أتحنى ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : تقول هذا ! قال : نعم ، وضعت في رجلي الأكبال ، وحملت بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ، ويحب الإلحاد وأهله ؛ فكيف أحبك ! قال : صدقت ، وأمر بإطلاقه ، ثم قال : يا محمد ، أتحنى ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ولكن قد ذهب ما في قلبي ، فأمر أن يعطى مائة ألف درهم ، فأحضرت ، فقال : يا محمد ، أتحنى ؟ قال : أما الآن فنعم ؛ قد أنعمت عليّ ، وأحسنتم إليّ . قال : انتقم الله ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك . قال : فقال الناس في البرامكة فأكثروا ، وكان ذلك أول ما ظهر من تغيير حالهم .

٦٦٩/٣

قال : وحدثني محمد بن الفضل بن سفيان ، مولى سليمان بن أبي جعفر ، قال : دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد ، فقام الغلمان إليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار . قال : فدخل فلم يبق إليه أحد ، فأربد لونه . قال : وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه . قال : فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره ، فلا يسقونه ، وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً .

وذكر أبو محمد اليزيدى - وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم - قال : مَنْ قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله ابن حسن فلا تصدقه ؛ وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره ، فأجابه ، إلى أن قال : اتق الله في أمري ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله ما أحدثتُ حدثاً ، ولا أويتُ محدثاً . فرق عليه ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال : وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذَ بعد قليل فأردَّ إليك أو إلى غيرك ! فوجهه معه مَنْ أدَّاه إلى مأمنه . وبلغ الخبرُ الفضل بن الربيع ، من عين كانت له عليه من خاصّة خدمه ، فعلا الأمر ، فوجده حقّاً ، وانكشف عنده ؛ فدخل على الرشيد فأخبره ، فأراه أنه لا يعبأ بخبره . وقال : وما أنت وهذا لا أمّ لك ! فاعل ذلك عن أمري ؛ فانكسر الفضل ؛ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا ، وجعل يلقمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله ^(١) يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال . قال : بجيأتى ! فأحجم جعفر - وكان من أدقّ الخلق ذهنًا ، وأصحّهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره ، فقال : لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده . قال : نعم ما فعلت ؛ ما عدوت ما كان في نفسي . فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

وحدث إدريس بن بدر ، قال : عرض رجل للرشيد وهو يناظر يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نصيحة ؛ فادعُ بي إليك ، فقال له ثمّة : خذ الرجل إليك ، وسله عن نصيحته هذه ، فسأله ، فأبى أن يخبره وقال : هي سرّ من أسرار الخليفة ، فأخبر هرثمة الرشيد بقوله ، قال : فقل له لا يبرح الباب حتى أفرغ له ، قال : فلما كان في الهاجرة انصرف مَنْ كان عنده ، ودعا به ، فقال : أخليني ، فالتفت هارون إلى بنيه ، فقال : انصرفوا يا فتیان ؛

(١) ابن الأثير : « هو بحاله » .

فوثبوا وبقى خاقان وحُسين على رأسه ؛ فنظر إليهما الرَّجُل ، فقال الرَّشيد :
تَسَحَّيَا عَنِّي ، ففعلا ، ثم أقبل على الرَّجُل ، فقال : هات ما عندك ، فقال :
على أن تؤمَّنني ! قال : على أن أؤمَّنك وأحسن إليك . قال : كنت بجلوان
في خانٍ من خاناتها ، فإذا أنا ببيحيى بن عبد الله في دُرَّاعة صوف غليظة
وكساء صوف أخضر غليظ ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا
رحل ، ويكونون منه بصدد يوهمون مَنْ رَأَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ وَهُمْ مِنْ أَعْوَانِهِ ،
ومع كلِّ واحدٍ منهم منشور يأمن به إن عُرِضَ له . قال : أو تعرف بيحيى
ابن عبد الله ؟ قال : أعرفه قديماً ، وذلك الذى حقق معرفتى به بالأمس ،
قال : فصِّفه لى ، قال : مربع أسمر رقيق السمرة ، أجْلَحُ ^(١) ، حسن العينين ،
عظيم البطن . قال : صدقت ؛ هو ذاك . قال : فما سمعته يقول ؟ قال :
ما سمعته يقول شيئاً ؛ غير أنى رأيتَه يصلّى ، ورأيت غلاماً من غلمانهِ أعرفه
قديماً جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوبٍ غسيل ،
فألقاه في عنقه ونزع جبّة الصوف ، فلما كان بند الزّوال صلى صلاة ظننتُها
العصر ، وأنا أرقمه ؛ أطال في الأوليين ، وخفف في الآخرين ، فقال : لله
أبوك ! بلخاد ما حفظت عليه ، نعم تلك صلاة العصر ؛ وذلك وقتُها عند القوم ،
أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك ! فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من أعقاب
أبناء هذه الدّولة ، وأصلى من مَرَو ، ومولدى مدينة السلام ، قال : فمتزلك
بها ؟ قال : نعم ؛ فأطرق ملياً ، ثم قال : كيف احتمالُك لمكروه تُمتحن
به فى طاعتي ! قال : أبلغُ من ذلك حيث أحبّ أمير المؤمنين ، قال : كن
بمكانك حتى أرجع . ففطر فى حجرة ^(٢) كانت خلف ظهره ، فأخرج كيساً
فيه ألفا دينار ، فقال : خذ هذه ، ودعنى وما أدبر فيك ، فأخذها ، وضمَّ
عليها ثيابه ، ثم قال : يا غلام ، فأجابه خاقان وحسين ، فقال : اصفعا ابن
اللخناء ، فصفعاه نحواً من مائة صَفْعَةٍ ، ثم قال : أخرجاه إلى مَنْ بَقِيَ
فى الدار ، وعمامته فى عنقه ، وقولا : هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين
وأوليائه ! ففعلا ذلك ؛ وتحذّثوا بخبره ؛ ولم يعلم بحال الرجل أحد ، ولا بما

٦٧٢/٣

(١) الجَلَح : انحسار الشعر عن جانبي الرأس . (٢) ط : « ففطر فى حجرة » .

كان ألقى إلى الرشيد ؛ حتى كان من أمر البرامكة ما كان .

وذكر يعقوب بن إسحاق أن إبراهيم بن المهدي حدثه . قال : أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها ، فقال لي : أمّا تعجب من منصور بن زياد ؟ قال : قلت فبماذا ؟ قال : سألتُه : هل ترى في داري عيباً ؟ قال : نعم ؛ ليس فيها لبنة ولا صُوبورة ، قال إبراهيم : فقلت : الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي^(١) أمير المؤمنين ، قال : هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك ، سوى ما عرضني^(٢) له . قال : قلت : إن العدوّ إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول : يا أمير المؤمنين ، إذا أنفقت على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته ! وأين صلاته ! وأين النواصب التي تنوبه ! وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ! وهذه جملة سريعة إلى القلب ، والموقف^(٣) على الحاصل منها صعب . قال : إن سمع منّي قلتُ : إن لأمر المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها^(٤) ؛ وأنا رجلٌ نظرت إلى نعمته عندي ، فوضعته في رأس جبل ، ثم قلت للناس : تعالوا فانظروا .

وذكر زيد بن عليّ بن حسين بن زيد أن إبراهيم بن المهدي حدثه أن جعفر بن يحيى ، قال له يوماً - وكان جعفر بن يحيى صاحبه عند الرشيد ، وهو الذي قرّبه منه : إني قد استربت بأمر هذا الرجل - يعني الرشيد - وقد ظننتُ أن ذلك لسابق سبق في^(٥) نفسي منه ، فأردتُ أن أعتبر ذلك بغيري ، فكنت^(٦) أنت ؛ فارتقى ذلك^(٧) في يومك هذا ، وأعلمني ما ترى منه . قال : ففعلتُ ذلك في يومى ؛ فلما نهض الرشيد من مجلسه كنتُ أوّل أصحابه نهض عنه ، حتى صرت إلى شجرة في طريقي ، فدخلتها ومنّ معي ، وأمرتهم بإطفاء الشمع ، وأقبل الندماء يمرّون بي واحداً واحداً ، فأراهم ولا يروني ؛ حتى إذا لم

(٢) ١ ، س : « عوضني » .

(٤) س : « منها » .

(٦) ج : « فكيف » .

(١) ج : « عند » .

(٣) ١ ، س : « والتوقف » .

(٥) س : « إلى » .

(٧) س : « ذاك » .

يبقى منهم أحد ؛ إذا أنا يجعفر قد طلع ، فلما جاوز الشجر^(١) قال : اخرج يا حبيبي ، قال : فخرجت ، فقال : ما عندك^(٢) ؟ فقلت : حتى تعلمني كيف علمت أني ها هنا ؛ قال : عرفت عنايتك بما أعني به ، وأنت لم تكن لتنصرف أو^(٣) تعلمني ما رأيت منه ؛ وعلمت أنك تكره أن تُرَى واقفاً في مثل هذا الوقت ، وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع ، فقصيتُ بأنك فيه ، قلت : نعم ؛ قال : فهاتِ ما عندك ، قلت : رأيت الرجل يهزل إذا جددت ، ويجدد إذا هزلت . قال : كذا هو عندى ، فانصرف يا حبيبي . قال : فانصرفت .

✓ قال : وحدثنى عليّ بن سليمان أنه سمع جعفر بن يحيى يوماً يقول : ليس لدارنا هذه عيب ؛ إلا أن صاحبها فيها قليل البقاء — يعنى نفسه .

وذكر عن موسى بن يحيى ، قال : خرج أبى إلى الطّواف في السنة التي أصيب فيها ، وأنا معه من بين ولده ، فجعل يتعلّق بأستار الكعبة ، ويردّد الدعاء ، ويقول : اللهمّ ذنوبى جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك . اللهمّ إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي في الدنيا ؛ وإن أحاط ذلك بسمعى وبصرى ، ومالى وولدى ، حتى تبلغ رضاك ، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة .

قال : وحدثنى أحمد بن الحسن بن حرب ، قال : رأيتُ يحيى وقد قابل البيت ، وتعلّق بأستار الكعبة ، وهو يقول : اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبني نعمتك عندى فاسلبني ، اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبني أهلى وولدى فاسلبني ؛ اللهمّ إلا الفضل . قال : ثم ولّى ليمضى ؛ فلما قرب من باب المسجد كثر مسرعاً ، ففعل مثلك ذلك ، وجعل يقول : اللهمّ إنه سيحجّ بمثل أن يرغب إليك ثم يستثنى عليك ... اللهم والفضل . قال : فلما انصرفوا من الحجّ نزلوا الأنبار ، ونزل الرشيد بالعمُر ومعه وليّ العهد ؛ الأمين والمأمون ، ونزل الفضل مع الأمين ، وجعفر مع المأمون ، ويحيى في منزل خالد بن عيسى كاتبه ، ومحمد بن

٦٧٥/٣

(١) س : « جاز في الشجر » . ١ : « حاذى الشجر » . (٢) س : « ما عندهم » .

(٣) س : « حتى » .

يجي في منزل ابن نوح صاحب الطراز ، ونزل محمد بن خالد مع المأمون بالعمر مع الرشيد ، قال : وخلا الرشيد بالفضل ليلا ، ثم خلع عليه وقلده ، وأمره أن ينصرف مع محمد الأمين ، ودعا بموسى بن يحيى فرضي عنه وكان غضب عليه بالحيرة في بدايته ، لأن علي بن عيسى بن ماهان اتهمه عند الرشيد في أمر خراسان وأعلمه طاعة أهلها له ، ومحبتهم إياه ، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلا^(١) إليهم والوثوب به معهم ؛ فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه ؛ وكان موسى أحد الفرسان الشجعان ، فلما قلدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد ، وعمل فيه التليل منه ، ثم ركب موسى دين^(٢) ، واختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان ؛ كما قيل له ، فلما صار إلى الحيرة في هذه الحجة وافاه^(٣) موسى من بغداد ، فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة ؛ فكان ذلك أول ثلثة ثلموا بها ؛ فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ، ولم يكن يردّها في شيء ، فقال : يضمّنه أبوه فقد رُفِعَ إلى فيه ، فضمّنه يحيى ودفعه إليه ، ثم رضى عنه ، وخلع عليه ، وكان الرشيد قد عتب على الفضل ابن يحيى ، وثقل مكانه عليه لتركه الشرب معه ؛ فكان الفضل يقول : لو علمت أن الماء ينقص من مروعتي ما شربته ؛ وكان مشغوفاً بالسماع . قال : وكان جعفر يدخل في منادمة الرشيد ؛ حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فترك أمر أبيه ، ويدخل معه فيما يدعوه إليه .

وذكر عن سعيد بن هريم أن يحيى كتب إلى جعفر حين أعيته حيلته فيه : إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ؛ وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها^(٣) . قال : وقد كان يحيى قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ؛ ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك على منك ، فلو أعيته^(٤) واقتصرت به على ما يتولاه من جسم أعمالك ، كان ذلك واقعاً بموافقتي ، وآمن لك على . قال الرشيد : يا أبت ليس بك هذا ؛ ولكنك إنما تريد أن تقدّم عليه الفضل .

(٢) ج : « وآتاهم » ، والصواب ما أثبتته من ١ .

(٤) ط : « أعقبته » .

(١) س : « الاستلال » .

(٣) لا شوى لها : لا برة معها .

وقد حدثني أحمد بن زهير - أحسبه عن عمه زاهر بن حرب - أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي ، وكان يُحضرهما إذا جلس للشرب ؛ وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنهما ، وقال لجعفر : أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي ، وتقدم إليه ألا يمسه ، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته ؛ فزوجها منه على ذلك ، فكان يُحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيشملان من الشراب ، وهما شابان ، فيقوم إليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلامًا ، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة ، فلم يزل الأمر مستورًا^(١) عن هارون ، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواربها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد ، وأخبرته^(٢) بمكانه ؛ ومع من هو من جواربها ، وما معه من الحلوى الذي كانت زينته به أمه ؛ فلما حج هارون هذه الحجة ، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه ، فلمّا أحضروا سأل اللواتي معهن الصبي ، فأخبرته بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة ، فأراد - فيما زعم - قتل الصبي ، ثم تحوّب من ذلك .

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعامًا كلما حج بعُسفان فيقره^(٣) إذا انصرف شاخصًا من^(٤) مكة إلى العراق ؛ فلما كان في هذا العام ، اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك ، ثم استزاره فاعتل عليه الرشيد ، ولم يحضر طعامه ، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله^(٥) من الأنبار ؛ فكان من أمره وأمر أبيه ما أنا ذاكره إن شاء الله تعالى .

* * *

ذكر الخبر عن مقتل جعفر

ذكر الفضل بن سليمان بن علي أن الرشيد حج في سنة ست وثمانين ومائة

٦٧٨/٣

(١) ج : « مستورًا » . (٢) ج : « وخبرته » . (٣) س : « فيغديه » .

(٤) س : « عن » . (٥) س : « نزل منزلاً » .

وأنه انصرف من مكة ، فوافى الحيرة في الحرم من سنة سبع وثمانين ومائة عند انصرافه من الحج ، فأقام في قصر عون العبادي أياماً ، ثم شخص في السفن حتى نزل العمُر الذي بناحية الأنبار ، فلما كان ليلة السبت لانسلاخ الحرم ، أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند ، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً ، ودخل عليه مسرور وعنده ابن بختيشوع المتطبب وأبوزكار الأعمى المغنّي الكلوزاني ، وهو في لهو ، فأخرجه إخراجاً غنياً يقوده ، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرشيد ، فحبسه وقيّده بقيد حمار ، وأخبر الرشيد بأخذه إياه وبجيبته به ، فأمر بضرب عنقه ، ففعل ذلك .

وذكر عن عليّ بن أبي سعيد أن مسروراً الخادم ، حدثه قال : أرسلني الرشيد لآتيه بجعفر بن يحيى لَمَّا أراد قتله ، فأتيته وعنده أبو زكار الأعمى المغنّي وهو يغني :

فلا تَبْعِدْ فكلُّ فتى سيّئ عليه الموتُ يَطْرُقُ أو يُغَادِي

قال : فقلت له : يا أبا الفضل ، الذي جئتُ له من ذلك قد والله طرقت ، أجب أمير المؤمنين . قال : فرفع يديه ، ووقع على رجليّ يقبلهما ، وقال : حتى أدخل فأوصي ، قلت : : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص بما شئت ، فتقدّم في وصيّته بما أراد ، وأعتق مماليكه ، ثم أتتني رسلُ أمير المؤمنين تستحثني به ، قال : فضيتُ به إليه فأعلمته ، فقال لي وهو في فراشه : اثنتي برأسه ، فأتيت جعفرأ فأخبرته ، فقال : يا أبا هاشم ، اللهَ اللهَ ! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو سكران ؛ فدافع بأمرى حتى أصبح أواميره في ثانية ، فعدت لأوامره ، فلما سمع حسّي ، قال : يا ماصّ بظُرأمة ، اثنتي برأس جعفر ! فعدتُ^(١) إلى جعفر ، فأخبرته ، فقال : عاوده في ثالثة ، فأتيته ، فحذفتني بعمود ثم قال : نُفِيت من المهديّ إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه ، لأرسلنّ إليك منْ يأتيني برأسك أولاً ، ثم برأسه آخرأ . قال : فخرجت فأتيته برأسه .

(١) س : « فأتيت » .

قال : وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه ، ومن كان منهم ^(١) بسبيل ، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً ، وحوّل الفضل بن يحيى ليلاً فحبس في ناحية من منازل الرشيد ، وحبس يحيى ابن خالد في منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها ، ووجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم ؛ وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم ، وولاه أمورهم ، وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم ، وأخذ وكلائهم . فلما أصبح بعث بجيشة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفائي وهرثمة بن أعين وإبراهيم بن حميد المروزي ، وأتبعهم عدة من خدمه وثقاته ؛ منهم مسرور الخادم إلى منزل جعفر بن يحيى ، وإبراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى منزل الفضل بن يحيى ، ويحيى بن عبد الرحمن ورشيد الخادم إلى منزل يحيى ومحمد ابن يحيى ، وجعل معه هرثمة بن أعين ، وأمر بقبض جميع ما لهم ، وكتب إلى السدي الحرشي بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام ، ونصب رأسه على الجسر الأوسط وقطع جثته ، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل . ففعل السدي ذلك ، وأمضى الخدم ما كانوا وجهوا فيه ، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصاغر إلى الرشيد ، فأمر بإطلاقهم ، وأمر بالنداء في جميع البرامكة : ألا أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه ؛ فإنه استثناهم ؛ لما ظهر من نصيحة محمد له ، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة . وخلص سبيل يحيى قبل شخوصه من العسكر ، ووكل بالفضل ومحمد وموسى بن يحيى ، وبأبي المهدي صهرهم حنيفة من قبل هرثمة بن أعين ، إلى أن وافى بهم الرقة ، فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي شيخ يوم قدم الرقة ، وتولى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، ثم صلب . وحبس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دير القائم ، وجعل عليهم حنيفة من قبل مسرور الخادم وهرثمة بن أعين ، ولم يفرق بينهم وبين عدة

٦٨٠/٣

من خدمهم ، ولا ما يحتاجون إليه ، وصيّر معهم زبيدة بنت مُنير أمّ الفضل وذنابير جارية يحبي وعدّة من خدّمهم وجواريهم . ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ، فعمّتهم بالثقيف^(١) بسخطه ، وجُدّد له ولهم التّهمة عند الرشيد ، فضيّق عليهم .

وذكر الزبير بن بكار أن جعفر بن الحسين اللّهيّ حدثه أن الرشيد أُتِيَ بأنس ابن أبي شيخ صبح اللّيلة التي قتل فيها جعفر بن يحيى ، فدار بينه وبينه كلام ، فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه ، وأمر أن تضرب عنقه ، وجعل يتمثّل ببیت قيل في قتل أنس قبل ذلك :

تَلَمَّظَ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنْسٍ فَالسَّيْفُ يَلْحَظُ وَالْأَقْدَارُ تَنْتَظِرُ

قال : فضرب عنقه ، فسبق السيف الدم ، فقال الرشيد : رحم الله عبد الله ابن مصعب . وقال الناس : إن السيف كان سيف الزبير بن العوام .

وذكر بعضهم أن عبد الله بن مُصعب كان على خبر الناس للرشيد ، فكان أخبره عن أنس أنه على الزندقة ، فقتله لذلك ، وكان أحد أصحاب البرامكة .

وذكر محمد بن إسحاق أن جعفر بن محمد بن حكيم الكوفي ، حدثه قال : حدثني السندی بن شاهك ، قال : إني لجالس يوماً ، فإذا أنا بخادم قد قدم على البريد ، ودفع إلى كتاباً صغيراً ، ففضضته ، فإذا كتاب الرشيد بخطه فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : يا سندی ، إذا نظرت في كتابي هذا ، فإن كنت قاعداً فقم ، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إلى . قال السندی : فدعوت بدواي ، ومضيت . وكان الرشيد بالعُمر ؛ فحدثني العباس بن الفضل بن الربيع ، قال : جلس الرشيد في الزوّ^(٢) في الفرات ينتظر ، وارتفعت غبرة ، فقال لي : يا عباس ، ينبغي أن يكون هذا السندی وأصحابه ! قلت : يا أمير المؤمنين ،

(١) عمهم بالثقيف بسخطه ، أي أخذهم بذلك .

(٢) الزوّ : نوع من السفن .

ما أشبهه أن يكون هو ! قال : فطلعت . قال : السندی : فنزلت عن دابتي ^(١) ، ووقفت ، فأرسل إلى الرشيد فصرت إليه ، ووقفت ساعة بين يديه ، فقال لمن كان عنده من الخدم : قوموا ، فقاموا فلم يبقَ إلاّ العباس بن الفضل وأنا ، ومكث ساعة ، ثم قال للعباس : اخرج ومُرّ برفع التختاتج المطروحة على الزوّ ، ففعل ذلك ، فقال لي : ادنُ مني ، فدنوت منه ، فقال لي : تدرى فيم أرسلت إليك ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : قد بعثت إليك في أمر لو علم به زرّ قميصي رميتُ به في الفرات ، يا سندی مَنْ أوثق قوادى عندي ؟ قلت : هرثة ، قال : صدقت ، فن أوثق خدمي عندي ؟ قلت : مسرور الكبير ، قال : صدقت ، امض من ساعتك هذه وجدّ في سيرك حتى توافي مدينة السلام ، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك ، ومُرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة ^(٢) ، فإذا انقطعت الزّجّل ^(٣) ، فصر إلى دور البرامكة ، فوكل بكلّ باب من أبوابهم صاحب ربع ، ومُرّه أن يمنع مَنْ يدخل ويخرج - خلا باب محمد بن خالد - حتى يأتيك أمرى . قال : ولم يكن حرك البرامكة في ذلك الوقت . قال السندی : فجئت أركض ، حتى أتيت مدينة السلام ، فجمعت أصحابي ، وفعلت ما أمرني به . قال : فلم ألبث أن أقدم على هرثة ابن أعين ، ومعه جعفر بن يحيى على بغلٍ بلا أكاف ، مضروب العنق ، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره باثنين ؛ وأن أصلبه على ثلاثة جسور . قال : ففعلت ما أمرني به .

٦٨٣/٣

قال محمد بن إسحاق : فلم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان ، ففضيت فنظرت إليه ، فلما صار بالجانب الشرقيّ على باب خزيمة بن خازم ، دعا بالوليد بن جُشم الشّاري من الحبس ، وأمر أحمد بن الجنيد الخنّليّ - وكان سيّافه - فضرب عنقه ، ثم التفت إلى السندی ، فقال : ينبغي أن يحرق هذا - يعني جعفرأ - فلما مضى ، جمع السندیّ له شوكاً وحطباً وأحرقه .

(٢) ج : « على أهبة وأعوانهم » .

(١) ١ ، س : « دوابي » .
(٢) الزجل : الجماعة من الناس .

وقال محمد بن إسحاق : لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى ، قيل ليحيى بن خالد : قتل أمير المؤمنين ابنك جعفرًا ، قال : كذلك يُقتل ابنه ، قال : فقيل له : خربت ديارك ، قال : كذلك تُخرب دورهم .

وذكر الكرماني أن بشارًا التركي حدثه أن الرشيد خرج إلى الصيد وهو بالعُمر في اليوم الذي قتل جعفرًا في آخره ؛ فكان ذلك اليوم يوم الجمعة ، وجعفر ابن يحيى معه ، قد خلا به دون ولادة العهد ؛ وهو يسير معه ، وقد وضع يده على عاتقه ؛ وقبل ذلك ما غلّقه بالغالية بيد نفسه ؛ ولم يزل معه ما يفارقه حتى انصرف مع المغرب ، فلما أراد الدخول ضمّه إليه ، وقال له : لولا أني على الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ، فأقم أنت في منزلك ، واشرب أيضًا واطرب ؛ لتكون أنت في مثل حالي ، فقال : لا والله ما ^(١) أشتهي ذلك إلاّ معك ، فقال له : بجيأتني لما شربت ؛ فانصرف عنه إلى منزله ؛ فلم تزل رسل الرشيد عنده ساعة بعد ساعة تأتيه بالأنفال والأبخرة والرياحين ؛ حتى ذهب الليل . ثم بعث إليه مسروراً فحبس عنده ، وأمر ^(٢) بقتله وحبس الفضل ومحمد وموسى ، ووكل سلاماً الأبرش بباب يحيى بن خالد ، ولم يعرض لمحمد بن خالد ولا لأحد من ولده وحشمه .

قال : فحدثني العباس بن بزيع عن سلام ، قال : لما دخلت على يحيى في ذلك الوقت - وقد هتكت الستور وجُمع المتاع - قال لي : يا أبا سلمة ؛ هكذا تقوم الساعة ! قال سلام : فحدثت بذلك الرشيد بعد ما انصرفت إليه ؛ فأطرق مفكراً .

قال وحدثني أيوب بن هارون بن سليمان بن علي ، قال : كان سكني إلى يحيى ، فلما نزلوا الأنبار خرجت إليه فأنا معه في تلك العشيّة التي كان آخر أمره ، وقد صار إلى أمير المؤمنين في حرّاقته ، فدخل إليه من باب صاحب الخاصة ، فكلّمه في حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور وغزو البحر ، ثم خرج ، فقال للناس : قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم ، وبعث إلى

(٢) ج : « ثم أمره » .

(١) ١ ، س : « لا » .

أبي صالح يحيى بن عبدالرحمن يأمره بإنفاد ذلك ، ثم لم يزل يحدّثنا عن أبي مسلم وتوجيه معاذ بن مسلم حتى دخل منزله بعد المغرب ، ووافانا في وقت السحر خبر مقتل جعفر وزوال أمرهم . قال : فكتب إلى يحيى أعزيه ، فكتب إلى : أنا بقضاء الله راض ، وبالحيار منه عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد . وما يعفو الله أكثر ، والله الحمد .

٦٨٥/٣

قال : وقتل جعفر بن يحيى في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة - وفي ذلك يقول الرقاشي :

أَيَا سَبَبْتُ يَا شَرَّ السُّبُوتِ صَبِيحَةً وَيَا صَفْرُ الْمَشْهُومِ مَا جِئْتَ أَشْأَمَا
أَتَى السَّبَبْتُ بِالْأَمْرِ الَّذِي هَدَّ رُكْنَنَا وَفِي صَفْرِ جَاءَ الْبَلَاءُ مُصَمَّمَا

قال : وذكر عن مسرور أنه أعلم الرشيد أن جعفرًا سأله أن تقع عينه عليه ، فقال : لا ، لأنه يعلم إن وقعت عيني عليه لم أقتله .

* * *

[ما قيل في البرامكة من الشعر بعد زوال أمرهم]

قال : وفيهم يقول الرقاشي ، وقد ذكر أن هذا الشعر لأبي نواس :

أَلَا نَ اسْتَرَحْنَا وَاسْتَرَا حَتِ رِ كَابُنَا وَأَمْسَكَ مِنْ يُجْدِي وَمَنْ كَانَ يُجْدِي
فَقُلْ لِلْمَطَايَا قَدْ أَمِنْتَ مِنَ السَّرَى وَطَى الْفِيَا فِي قَدْ قَدْ بَعْدَ فَدْ قَدْ
وَقُلْ لِلْمَنَايَا : قَدْ ظَفِرْتَ بِجَعْفَرٍ وَلَنْ تَظْفِرِي مِنْ بَعْدِهِ بِمُسَوْدٍ
وَقُلْ لِلْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلِ تَعَطَّلِي وَقُلْ لِلرَّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدِي
وَدُونِكَ سِيفًا بِرَمَكِبًا مُهَنْدًا أَصِيبَ بِسِيفٍ هَاشِمِيٍّ مُهَنْدٍ

٦٨٦/٣

وفيهم يقول في شعر له طويل :

إِنْ يَغْدِرِ الزَّمَنُ الْخَثُونُ بِنَا فَقَدْ غَدَرَ الزَّمَانُ بِجَعْفَرٍ وَمُحَمَّدٍ
حَتَّى إِذَا وَضَحَ النَّهَارُ تَكَشَّفَتْ عَنْ قَتْلِ أَكْرَمِ هَالِكٍ لَمْ يُلْحَدِ

ما فُلَّ حَدُّ مُهَنْدٍ بِمُهَنْدٍ
وَنَدَى ، كَعَدَّ الرَّمْلِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ
لَكِنَّهُ فِي بَرْمَكٍ لَمْ يُوَلَّدِ
مَخْلُوقَةً مِنْ جَوْهَرٍ وَزَبْرَجِدٍ
أَبَدًا تَجُودُ بِطَارِفٍ وَبِمُتَلَدٍ
قَدَرُ فَأَضْحَى الْجُودَ مَغُولَ الْيَدِ

وَالْبَيْضُ لَوْلَا أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ
يَا آلَ بَرْمَكٍ كَمْ لَكُمْ مِنْ نَائِلٍ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ - لَا يُشْكُ - أَخَوُكُمْ
نَازَعْتُمُوهُ رِضَاعَ أَكْرَمِ حُرَّةٍ
مَلِكُ لَهُ كَانَتْ يَدُ فَيَاضَةٍ
كَانَتْ يَدًا لِلْجُودِ حَتَّى غَلَّهَا

وفيهام يقول سيف بن إبراهيم :

هُوتَ أَنْجُمُ الْجَدَوَى وَشَلَّتْ يَدُ النَّدَى
هُوتَ أَنْجُمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرْمَكٍ

وقال ابن أبي كريمة :

كُلُّ مُعْبِرٍ أَعِيرَ مَرْتَبَةً
صَالَتْ عَلَيْهِ مِنَ الزَّمَانِ يَدُ

وقال العطوى أبو عبد الرحمن :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا قَوْلُ وَائِشٍ
لَطُفْنَا حَوْلَ جِذْعِكَ وَاسْتَلَمْنَا
عَلَى الدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا جَمِيعًا

وفى قتل جعفر قال أبو العتاهية :

قُولَا لِمَنْ يَرْتَجِي الْحَيَاةَ أَمَّا
كَانَا وَزَيْرِي خَلِيفَةَ اللَّهِ هَا
فَذَاكُمْ جَعْفَرٌ بِرُمْتِهِ

٦٨٧/٣

وِغَاضَتْ بِحُورِ الْجُودِ بَعْدَ الْبَرَامِكِ
بِهَا يَعْرِفُ الْحَادِي طَرِيقَ الْمَسَالِكِ

بَعْدَ فَتَى بَرْمَكٍ عَلَى غَرَرٍ
كَانَ بِهَا صَائِلًا عَلَى الْبَشَرِ

وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِئْلَامُ
وَدَوْلَةُ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ

فِي جَعْفَرٍ عِبْرَةٌ وَيَحْيَاهُ !
رَوْنَهُمَا مَا خَلِيلَاهُ
فِي حَالِقِ رَأْسُهُ وَنُصْفَاهُ

والشيخ يحيى الوزير أصبح قد نَحَاهُ عن نفسه وأقصاه
 شئت بعد التجميع شملهم فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
 كذاكَ مَنْ يُسَخِّطُ الإلهَ بما يُرضى به العبدَ يحجزه الله
 سبْحانَ مَنْ دانَّتِ الملوكُ له أشهدُ أن لا إلهَ إلا هو
 طوبى لمن تابَ بعدَ غرَّتِه فتابَ قبلَ المماتِ، طوباهُ!

٦٨٨/٣

* * *

قال: وفي هذه السنة هاجت العصبية بدمشق بين المضربة واليانية، فوجه
 الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .
 وفيها زُزلت المصيبة فانهدم بعض سورها ، ونضب ماؤهم ساعة الليل .
 وفيها خرج عبد السلام بآمِد ، فحكّم ، فقتله يحيى بن سعيد العقيلي .
 وفيها مات يعقوب بن داود بالرقّة .
 وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة ، فوجه لله ، وجعله قرباناً له ووسيلة ،
 وولاه العواصم .

* * *

[ذكر الخبر عن غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح]

وفيها غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وحبيه .

* ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وما أوجب حبه :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أن عبد الملك بن صالح كان له ابن
 يقال له عبد الرحمن ، كان من رجال الناس ، وكان عبد الملك يكنى به ؛
 وكان لابنه عبد الرحمن لسان ، على فأفأة فيه ، فنصب لأبيه عبد الملك وقُمامة ^(١) ،
 فسعيا به إلى الرشيد ، وقال له : إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها ، فأخذه وحبه
 عند الفضل بن الربيع ؛ فذكر أن عبد الملك بن صالح أدخل على الرشيد
 حين سخط عليه ، فقال له الرشيد : أكفراً بالنعمة ، وجموداً لجليل المنّة

٦٨٩/٣

(١) ابن الأثير : « فسمى بأبيه هو وقمامة كاتب أبيه » .

والتكرمة! فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد بؤتُ إذاً بالندم ، وتعرضت لاستحلال النِّقَم ؛ وما ذاك إلا بغىٌ حاسد نافسى فيك مودةً القربة وتقديماً الولاية . إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عثرته ، لك فيها فرض^(١) الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادثها ، والغفران لذنوبها . فقال له الرشيد : أتضع لى من لسانك ، وترفع لى من جنانك ! هذا كاتبك قُمامة يخبر بقلبك ، وفساد نيتك ، فاسمع كلامه . فقال عبد الملك : أعطاك ما ليس فى عقده ، ولعله لا يقدر أن يعصهنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى . وأحضر قُمامة^(٢) ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائب ولا خائف ، قال : أقول : إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك ، فقال عبد الملك : أهو كذلك يا قُمامة ! قال قُمامة : نعم ، لقد أردت ختل أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : كيف لا يكذب على من خلنى وهو يبهتنى فى وجهى ! فقال له الرشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعثوك^(٣) وفساد نيتك ، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك؟ فقال عبد الملك بن صالح : هو مأمور ، أو عاق مجبور^(٤) ؛ فإن كان مأموراً فعذور^(٥) ، وإن كان عاقاً ففاجر كفور ؛ أخبر الله عز وجل بعداوته ، وحذر منه بقوله : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ ﴾^(٥) .

قال : فنهض الرشيد ، وهو يقول : أما أمرك فقد وضح ؛ ولكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فىك ؛ فإنه الحكم بينى وبينك . فقال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وبأمر المؤمنين حاكماً ؛ فإنى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه ، وأمر الله على رضاه .

قال : فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فسلم لما دخل ، فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً

(٢) ج : « بفلك » .

(٤) ج : « فغور » .

(١) س : « علينا فرض الطاعة » .

(٣) س : « مجنون » .

(٥) سورة التغابن ١٤ .

وخصماً . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنَّ أوله جرى على غير السنَّة ؛ فأنا أخاف آخره .
قال : وما ذاك ؟ قال : لم تردَّ على السلام ، أنصفَ نصفَ العوام . قال :
السلام عليكم ؛ اقتداءً بالسنة ، وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتحية . ثم التفت
نحو سليمان بن أبي جعفر ، فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي ... البيت (١) .

ثم قال : أما والله لكأني أنظرُ إلى شُرُوبِهَا (٢) قد جمع ، وعارضها (٣)
قد لمع ؛ وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تَسْطَعُ ، فأقْلَعُ (٤) عن براجم بلا معاصم (٥)
ورعوس بلا غلاصم (٦) ؛ فنهلاً ؛ فَيَسِيَّ والله سهَّلَ لكم الوعر ، وصفا لكم
الكدر ، وألقت إليكم الأمورُ أثناءَ أزمَتِها ، فنذارٍ لكم نذار ، قبل حلول
داهية خَسْبُوطٍ باليد ، لبوط بالرجل . فقال عبد الملك : اتقَ الله يا أمير المؤمنين
فيما ولّاك ، وفي رعيته التي استرعاك ؛ ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا
العقاب موضع الثواب ، فقد نخلتُ لك النصيحة ، ومحضتُ لك الطاعة .
وشددت أواخِي ملكك بأثقل من رُكْنِي يَلْمَسُكُمْ ، وتركتُ عدوك مشغلاً .
فإنَّ اللهَ في ذِي رحمةٍ أن تقطعه ، بعد أن بلّثته بظنِّ أفصح الكتابِ لي
بعضهه ، أو ببغى باغ ينهس اللحم ، ويالغُ الدم (٨) ، فقد والله سهَّلْتُ لك
الوعور ، وذَلَلْتُ لك الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور ؛
فكم من ليلٍ تمام فيك كابُدُّهُ ، ومقام ضيق قمته ؛ كنت كما قال أخو
بنى جعفر بن كلاب :

وَمَقَامٍ ضَيِّقٍ فَرَجَّتُهُ بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلُ
لَوْ يَقُومُ الْفَيْلُ أَوْ فَيَّالَهُ زَلٌّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَزَحَلُ

(١) لعمرو بن معدى كرب ، الأكل ١٣٨ ، وبقية :

* عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادٍ *

- (٢) الشُّوبُوب : الدفعة من المطر . (٣) العارض : السحاب المتروص في الأفق .
(٤) ج : « فتقْلَعُ » . (٥) البراجم : مفاصل الأصابع . والمعصم : اليد .
وجمه معاصم . (٦) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ؛ وجمعه غلاصم .
(٧) أعْضَهُ فلاناً : بهته وقال ما ليس فيه .
(٨) ولغ الكلب في الإناء ، يلغ ويالغ ، أى شرب منه .

قال : فقال له الرشيد : أما والله لو لا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك .

وذكر زيد بن علي بن الحسين العلوي ، قال : لما حبس الرشيد عبد الملك ابن صالح ، دخل عليه عبد الله بن مالك - وهو يومئذ على شرطه - فقال : أفي إذن أنا فأتكلم ؟ قال : تكلم ، قال : لا ، والله العظيم يا أمير المؤمنين ، ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً ، فعلام حبسته ! قال : ويحك ! بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ^(١) ابني هذين - يعني الأمين والمأمون - فإن كنت ترى أن نطلقه ^(٢) من الحبس ^(٣) أطلقناه . قال : أمّا إذ حبسته يا أمير المؤمنين ، فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه ؛ ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يشبه محبس ^(٤) مثلك مثله . قال : فإني أفعل . قال : فدعا الرشيد الفضل بن الربيع ، فقال : امض إلى عبد الملك بن صالح إلى محبسه ، فقل له : انظر ما تحتاج إليه في محبسك فأمر به حتى يقام لك ؛ فذكر قصته وما سأل .

قال : وقال الرشيد يوماً لعبد الملك بن صالح في بعض ما كآمه : ما أنت لصالح ! قال : فلمن أنا ؟ قال : لمروان الجعدي ، قال : ما أبالي أي الفحطين غلب علي ؛ فحبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع ؛ فلم يزل محبوساً حتى توفي الرشيد ، فأطلقه محمد ، وعقد له على الشام ؛ فكان مقبلاً بالركة ، وجعل لحمد عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبداً . فمات قبل محمد ، فدُفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له : حول أباك من داري ، فنُبشت عظامه وحُوت . وكان قال لحمد : إن خفت فالجأ إلى ، فوالله لأصونتك .

وذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد : إن عبد الملك ابن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك ، وقد علمت ذلك ، فأعلمني ما عندك فيه ، فإنك إن صدقتني أعدتُك إلى حالك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ؛ ولو اطلعت عليه لكننت صاحبه

(١) س : « بيني وبين ابني » .

(٢) س : « أطلقه » .

(٣) س : « السجن » .

(٤) س : « حبس » .

دونك ؛ لأن ملكك كان ملكي ، وسلطانك كان سلطاني ، والخير والشر كان فيه عليّ ولي ؛ فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني ! وهل كنت إذا فعلت ذلك به يتعلل بي أكثر من فعلك ! أعينك بالله أن تظنّ بي هذا الظنّ ؛ ولكنّه كان رجلاً محتملاً ، يسرّني ^(١) أن يكون في أهلك مثله ، فوليتّه ، لما أحمّدت من مذهبه ، وملت إليه لأدبه واحتماله . قال : فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه ، فقال : إن أنت لم تقرّ عليه قتلت الفضل ابنك ^(٢) ، فقال له : أنت مسلّط علينا فافعل ما أردت ؛ على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي ، فبم ^(٣) يدخل الفضل في ذلك ^(٤) ! فقال الرسول للفضل : قم ؛ فإنه لا بدّ لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك ؛ فلم يشكّ أنه قاتله ، فودّع أباه ، وقال له : ألسنّ راضياً عني ؟ قال : بلى ، فرضى الله عنك . ففرّق بينهما ثلاثة أيام ؛ فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا . وكان يأتيهم منه أغلظ رسائل ، لما كان أعداؤهم يقرّونهم به عنده ، فلما أخذ مسرور بيد الفضل كما أعلمه ^(٥) ، بلغ من يحيى ، فأخرج ما في نفسه ، فقال له : قل له : يُقتل ابنك مثله . قال مسرور : فلما سكن عن الرشيد الغضب ، قال : كيف قال ؟ فأعدت عليه القول ، قال : قد خفت والله قوله ؛ لأنه قلماً قال لي شيئاً إلا رأيتُ تأويله .

٦٩٤/٣

وقيل : بينما الرشيد يسير وفي موكبه عبد الملك بن صالح ، إذ هتف به هاتف وهو يساير عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، طأطأ من إشرافه وقصّر من عنانه ، واشدّد من شكائمه ؛ وإلاّ أفسد عليك ناحيته . فالتفت إلى عبد الملك ، فقال : ما يقول هذا يا عبد الملك ؟ فقال عبد الملك : مقال باغ ودسيس حاسد ؛ فقال له هارون : صدقت ، نقتصّ القوم فضلتهم ، وتخلّفوا وتقدّمتمهم ؛ حتى برز شاوك ، فقصر عنه غيرك ؛ ففي صدورهم جمرات التخلّف ، وحزازات النقص . فقال عبد الملك : لا أطفأها الله وأضرّمها عليهم حتى تورثهم كمدّاً دائماً أبداً .

(٢) س : « يعني ابنه » .

(٤) س : « هذا » .

(١) س : « فسرى » .

(٣) أ ج : « فأدخل الفضل » .

(٥) كذا في أ وفي ط : « لما أعلمه » .

وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح وقد مرّ بمنبج ، وبها مستقرّ عبد الملك :
هذا منزلك ؟ قال : هو لك يا أمير المؤمنين ، ولي بك . قال : كيف هو ؟
قال : دون بناء أهلي وفوق منازل منبج ، قال : فكيف ليها ؟ قال : سحرّ
كله .

* * *

[ذكر الخبر عن دخول القاسم بن الرشيد أرض الروم]

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان ، فأناخ
على قرّة وحاصرها ، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ، فأناخ
على حصن سنان حتى جهدوا ، فبعثت إليه الروم تبذل له ثلثمائة وعشرين
رجلا من أسارى المسلمين ؛ على أن يرحل عنهم ؛ فأجابهم إلى ذلك ، ورحل
عن قرّة وحصن سنان صلحا .

ومات على بن عيسى بن موسى في هذه الغزاة بأرض الروم ، وهو مع
القاسم .

* * *

[ذكر الخبر عن نقض الروم الصلح]

وفي هذه السنة نقض صاحب الروم الصلح الذي كان جرى بين الذي
قبله وبين المسلمين ، ومنع ما كان ضمنه الملك لهم قبله .

* ذكر الخبر عن سبب نقضهم ذلك :

وكان سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم
وصاحبتهم يومئذ ريني - وقد ذكرنا قبل سبب الصلح الذي كان بين المسلمين
وبينها - فعادت الروم على ريني فخلعتها ، وملكها عليها نقفور . والروم
تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفّنة من غسان ، وأنه قبل الملك كان يلي
ديوان الخراج ، ثم ماتت رينى بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها ؛ فذكر
أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة ، كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب ؛ أما بعد ؛ فإن الملكة
التي كانت قبلى ، أقامت مقام الرّخ ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملت

إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ؛ لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابي فأرُدْ ما حصل قبلك من أموالها، وافند نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

قال : فلما قرأ الرشيد الكتاب ، استفزّه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ؛ وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ؛ واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبدّ برأيه دونّه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ؛ قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام .

٦٩٦/٣

ثم شخص من يومه ، وسار حتى أناخ بباب هِرَقْلَةَ ، ففتح وغنم ، واصطلى وأفاد ، وخرّب وحرّق ، واصطلم . فطلب تقفور المودة على خراج يؤدّيه في كلّ سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فلما رجع من غزوته ، وصار بالرقّة نقض تقفور العهد ، وخان الميثاق . وكان البرد شديداً ، فيس تقفور من رجّعتة إليه ، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه ؛ فانهب لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكربة في مثل تلك الأيام ، فاحتيل له بشاعر من أهل خُرّة^(١) يكنى أبا محمد عبدالله بن يوسف - ويقال : هو الحجاج بن يوسف التيمي ، فقال :

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ	وعليه دائرة البوار تدور ^(٢)
أَبَشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ	غَنِمُ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهُ كَبِيرُ
فَلَقَدْ تَبَاشَرَتِ الرَّعِيَّةُ أَنَّ أَتَى	بِالنَّقْضِ عَنْهُ وَافِدُ وَبَشِيرُ
وَرَجَعَتْ يَمِينُكَ أَنْ تَعْجَلَ غَزْوَهُ	تَشْنِي النُّفُوسَ مَكَائِهَا مَذْكُورُ
أَعْطَاكَ جَزِيَّتَهُ وَطَاطَأَ خَدَّهُ	حَذَرَ الصَّوَارِمِ وَالرَّدَى مَحْذُورُ

(١) ط : « جنده » ، وما أثبتته من أ .

(٢) بعده في ابن الأثير :

فتح يزيد على الفتح يؤمنا بالنصر فيه لواءك المنصور

فَأَجْرَتَهُ مِنْ وَقَعِهَا وَكَأَنَّمَا (١)
وَصَرَفَتْ بِالطُّولِ الْعَسَاكِرَ قَافِلًا (٢)
نِقْفُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ إِنْ نَأَى
أُظْنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُفْلَتٌ (٣)
أَلْقَاكَ حَيْنُكَ فِي زَوَاجِرِ بَحْرِهِ
إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى اقْتِسَارِكَ قَادِرٌ
لَيْسَ الْإِمَامُ وَإِنْ غَفَلْنَا غَافِلًا
مَلِكٌ تَجَرَّدَ لِلْجِهَادِ بِنَفْسِهِ
يَا مَنْ يُرِيدُ رِضَا الْإِلَهِ بِسَعْيِهِ
لَا نُضْحَ يَنْفَعُ مَنْ يَعْشُ إِمَامُهُ
نُضْحُ الْإِمَامِ عَلَى الْأَنَامِ فَرِيضَةٌ

بَأَكْفَنَّا شَعْلُ الضَّرَامِ تَطِيرُ (٤)
عَنْهُ وَجَارُكَ آمِنٌ مَسْرُورٌ
عَنْكَ الْإِمَامُ لِهَاجِلِ مَغْرُورٌ
هَبْلَتِكَ أَمَكَ مَا ظَنَنْتَ غُرُورًا!
فَطَمَتَ عَلَيْكَ مِنَ الْإِمَامِ بُحُورٌ
قَرُبْتُ دِيَارَكَ أَمْ نَأَتْ بِكَ دُورٌ
عَمَّا يَسُوسُ بِحَزْمِهِ وَيُدِيرُ
فَعَدُوَّهُ أَبَدًا بِهِ مَقْهُورٌ
وَاللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ ضَمِيرٌ
وَالنُّضْحُ مِنْ نَصْحَائِهِ مَشْكُورٌ
وَلَا هِلَهَا كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ

وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

إِمَامُ الْهُدَى أَصْبَحْتَ بِالْدِّينِ مَعْنِيًّا
لَكَ اسْمَانِ شُبْحًا مِنْ رَشَادٍ وَمِنْ هُدَى
إِذَا مَا سَخِطْتَ الشَّيْءَ كَانَ مُسَخِّطًا
بَسَطْتَ لَنَا شَرْقًا وَغَرْبًا يَدَ الْعُلَا
وَوَشَّيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ وَالنَّدَى
قَضَى اللَّهُ أَنْ يَصْفُو لَهَارُونَ مُلْكُهُ (٥)
تَحَلَّيْتَ الدُّنْيَا لَهَارُونَ بِالرِّضَا

وَأَصْبَحْتَ تَسْقِي كُلَّ مُسْتَمِطِرٍ رِيًّا
فَأَنْتَ الَّذِي تَدْعِي رَشِيدًا وَمَهْدِيًّا
وَلِنْ تَرْضَ شَيْئًا كَانَ فِي النَّاسِ مَرْضِيًّا
فَأَوْسَعْتَ شَرْقِيًّا وَأَوْسَعْتَ غَرْبِيًّا
فَأَصْبَحَ وَجْهُ الْأَرْضِ بِالْجُودِ مَوْشِيًّا
وَكَانَ قَضَاءُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ مَقْضِيًّا
فَأَصْبَحَ نِقْفُورُ لَهَارُونَ ذِمِّيًّا

(١) ج : « وكأنا » .

(٢) ج : « فصرفت » .

(٣) س : « أن يبتني لهارون » .

(٤) ج : « تدور » .

(٥) س : « حين غلوت » .

وقال التيمي :

لَجَّتْ يَنْقُورَ أَسْبَابُ الرَّدَى عَبَثًا لَمَّا رَأَتْهُ بِغِيلِ اللَّيْثِ قَدْ عَبَثَا
وَمَنْ يَزُرُّ غَيْلَهُ لَا يَخْلُ مِنْ فَزَعٍ إِنَّ فَاتَ أَنْيَابَهُ وَالْمِخْلَبَ الشَّيْثَا
خَانَ الْعُهُودَ وَمَنْ يَنْكُثُ بِهَا فَعَلَى حَوْبَائِهِ ، لَا عَلَى أَعْدَائِهِ نَكْثَا
كَانَ الْإِمَامُ الَّذِي تُرْجَى فَوَاضِلُهُ أَذَاقَهُ ثَمَرَ الْحِلْمِ الَّذِي وَرِثَا
فَرَدَّ أَلْفَتَهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ عَطَفَتْ أَزْوَاجُهُ مَرَهًا يَبْكِينَهُ شِعْنَا

فلما فرغ من إنشاده ، قال : أو قد فعل نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك ، فكرّ راجعاً في أشدّ محنة وأغلظ كلفة ، حتى أناخ بفنائنه ، فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد ، فقال أبو العتاهية :

أَلَا نَادَتْ هِرْقَلَةُ بِالْخَرَابِ مِنَ الْمَلِكِ الْمُوَفَّقِ بِالصَّوَابِ
غدا هَارُونُ يَرْعُدُ بِالنَّايَا وَيَبْرُقُ بِالْمَذْكُورَةِ الْقِصَابِ
وَرَايَاتٍ يَحِلُّ النَّصْرُ فِيهَا تَمُرُّ كَأَنَّهَا قِطْعُ السَّحَابِ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَفِرَتْ فَاسْلَمَ وَأَبْشُرُ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ

٦٩٩/٣

* * *

[خبر مقتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك]

وفيهما قُتِلَ - في قول الواقدي - إبراهيم بن عثمان بن نهيك . وأما غير الواقدي ؛ فإنه قال : في سنة ثمان وثمانين ومائة .

* ذكر الخبر عن سبب مقتله :

ذُكِرَ عن صالح الأعمى - وكان في ناحية إبراهيم بن عثمان بن نهيك - قال : كان إبراهيم بن عثمان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة ، فيبكي جزعاً عليهم ، وحباً لهم ، إلى أن خرج من حدّ البكاء ، ودخل في باب طالبي الثأر والإحسَن ، فكان إذا خلا بجواريه وشرب وقوى عليه النبيذ ، قال : يا غلام ،

سيفي ذا المنية - وكان قد سمي سيفه ذا المنية - فيجيئه غلامه بالسيف فينتضيه ، ثم يقول : واجعفره ! واسيده ! والله لأقتلن قاتلك ، ولأثأرن بدمك عن قليل ! فلما كثر هذا من فعله ، جاء ابنه عثمان إلى الفضل بن الربيع ، فأخبره بقوله ، فدخل الفضل فأخبر الرشيد ، فقال : أدخله ، فدخل ، فقال : ما الذي قال الفضل عنك ؟ فأخبره بقول أبيه وفعله ، فقال الرشيد : فهل سمع هذا أحد معك ؟ قال : نعم خادمه نوال ، فدعا خادمه سرّاً فسأله ، فقال : لقد قال ذاك غير مرة ولا مرتين ، فقال الرشيد : ما يحلّ لي أن أقتل ولياً من أوليائي بقول غلام وخصي ، لعلهما تواصيا على هذه المنافسة ^(١) ؛ الابن على المرتبة ، ومعاداة الخادم لطول الصحبة ، فترك ذلك أياماً ، ثم أراد أن يمتحن إبراهيم بن عثمان بمحنة تزيل الشك عن قلبه ، والخطر عن وهمه ، فدعا الفضل بن الربيع ، فقال : إني أريد محنة إبراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه عليه ؛ فإذا رفع الطعام فادع بالشراب ، وقل له : أجب أمير المؤمنين فينادمك ؛ إذ كنت منه بالحلّ الذي أنت به ، فإذا شرب فاخرج وخلصني وإياه ، ففعل ذلك الفضل بن الربيع ؛ وقعد إبراهيم للشراب ، ثم وثب حين وثب الفضل بن الربيع للقيام ، فقال له الرشيد : مكانك يا إبراهيم ، فقعده ، فلما طابت نفسه ، أوما الرشيد إلى الغلمان فتنحّوا عنه ، ثم قال : يا إبراهيم ، كيف أنت وموضع السرّ منك ؟ قال : يا سيدي إنما أنا كأخصّ عبيدك ، وأطوع خدمك ، قال : إن في نفسي أمراً ^(٢) أريد أن أودعك ، وقد ضاق صدري به ، وأسهرت به ليلي ، قال : يا سيدي إذا لا يرجع عني إليك أبداً ، وأخفيه عن جنبي أن يعلمه ، ونفسي أن تضيعه . قال : ويحك ! إني ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامة ما أحسن أن أصفها ؛ فوددت أني خرجت من ملكي وأنه كان بقي لي ؛ فما وجدت طعم النوم منذ فارقت ، ولا لذّة العيش منذ قتلت ! قال : فلما سمعها إبراهيم أسبل دمعته ^(٣) ، وأذرى عبرته ، وقال : رحم الله أبا الفضل ، وتجاوز عنه ! والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله ، وأوطئت

(١) ج : « بمنافسة لابن » .

(٢) بعدها في ا ، س : « من الأمور » .

(٣) ج وابن الأثير : « دموعه » .

العَشْوَةُ في أمره ! وأين يوجد في الدنيا مثله ! وقد كان منقطع القرين في الناس
أجمعين ديناً^(١) . فقال الرشيد : قم عليك لعنة الله يا بن اللخناء ! فقام ما يعقل
ما يبطأ ، فانصرف إلى أمه ، فقال : يا أمّ ، ذهبت والله نفسي ، قالت :
كلاً إن شاء الله ، وما ذاك يا بني ؟ قال : ذاك أن الرشيد امتحنني بمحنة والله ؛
ولو كان^(٢) لي ألف نفس لم أنجُ بواحدة منها . فما كان بين هذا وبين أن
دخل عليه ابنه — فضربه بسيفه حتى مات — إلا ليالٍ قلائل .

٧٠١/٣

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن العباس بن محمد بن عليّ .

(١) ساقطة من أ .

(٢) ج : « ولو كانت » .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة]

فما كان فيها من ذلك غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخوله أرض الروم من درب الصفصاف ، فخرج للقائه نيقفور ، فورد عليه من ورائه أمر صرفه عن لقائه ، فانصرف ، ومرّ بقوم من المسلمين ، فجرح ثلاث جراحات ، وانهزم . وقتل من الروم فيما ذكر - أربعون ألفاً وسبعمائة ، وأخذ أربعة آلاف دابة .

* * *

وفيهما رابط القاسم بن الرشيد بدابق .

وحجّ بالناس فيها الرشيد ، فجعل طريقه على المدينة ، فأعطى أهلها نصف العطاء ؛ وهذه الحجة هي آخر حجة حجّها الرشيد ؛ فيما زعم الواقدي وغيره .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر شخوص الرشيد إلى الرى]

فمن ذلك ما كان من شخوص هارون الرشيد أمير المؤمنين فيها إلى الرى .
 ذكر الخبر عن سبب شخوصه إليها وما أحدث في خرجته تلك في سفره :
 ذكر أن الرشيد كان استشار يحيى بن خالد في تولية خراسان على بن
 عيسى بن ماهان ، فأشار عليه ألا يفعل ، فخالفه الرشيد في أمره ، وولاه
 إياها ، فلما شَخَصَ على بن عيسى إليها ظلم الناس ، وعَسَرَ^(١) عليهم ،
 وجمع ما لاجليلا ، وجهه إلى هارون منها هدايا لم يرَ مثلها قط من الخيل والريق
 والثياب والمِسْك والأموال ، فقعد هارون بالشَّماسية على دكان مرتفع حين وصل
 ما بعث به على إليه ، وأحضرت تلك الهدايا فعرضت عليه ، فعظمت في
 عينه ، وجلَّ عنده قدرها ، وإلى جانبه يحيى بن خالد ، فقال له : يا أبا على ؛
 هذا الذى أشرت علينا ألأنوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه ، فكان فى خلافتك
 البركة — وهو كالمأزح معه إذ ذاك — فقد ترى ما أنتج رأينا فيه ، وما كان من
 رأيك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ! أنا وإن كنت أحب أن
 أصيب فى رأيي وأوفق^(٢) فى مشورتى ، فأنا أحب من ذلك أن يكون رأى
 أمير المؤمنين أعلى ، وفراسته أثق ، وعلمه أكثر من علمى ، ومعرفته فوق معرفتى ؛
 وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما يكره أمير المؤمنين ، وما أسأل الله
 أن يعينه ويُعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكرهه ، قال : وما ذاك ؟ فأعلمه ،
 قال : ذاك أنى أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف ،
 أخذ^(٣) أكثرها ظلماً وتعدياً ؛ ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة
 من بعض تجار الكرخ ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : قد ساومنا عوناً

٧٠٢/٣

٧٠٣/٣

(١) ج : « وعسف » .

(٢) ١ : « وأوفق » .

(٣) ط : « وأخذها » ، وما أثبت من أ ، س .

على السَّقَطَ الذي جاءنا به من الجوهر ، وأعطيناه به سبعة آلاف ألف ، فأبى أن يبيعه ، فأبعثُ إليه الساعة بحاجتي فأمره^(١) أن يردّه إلينا ؛ لنعيد فيه نظرنا ؛ فإذا جاء به جسدناه ، وربحنا سبعة آلاف ألف ، ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك . وعلى أن هذا أسلم عاقبة ، وأسرّ أمراً من فعل عليّ بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها ، فأجمعُ لأُمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى ، وأيسر أمر ، وأجمل جباية ؛ ممّا جمع عليّ في ثلاث سنين .

فوقرت في نفس الرشيد وحفظها ، وأمسك عن ذكر عليّ بن عيسى عنده ، فلما عاث عليّ بن عيسى بخراسان ووتر أشرافها ، وأخذ أموالهم ، واستخفّ برجالهم ، كتب رجال من كبرائها ووجهها إلى الرشيد ، وكتبَتْ جماعة من كورها إلى قراباتِها وأصحابها ، تشكو سوء سيرته ، وخبث طعمته ، ورداء مذهبه ، وتسالُ أمير المؤمنين أن يبدّلها به من أحبّ من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقوّاده . فدعا يحيى بن خالد ، فشاورة في أمر عليّ بن عيسى وفي صرفه ، وقال له : أشّر عليّ برجل ترضاه لذلك الثغر يُصلح ما أفسد الفاسق ، ويرتق ما فتن . فأشار عليه بيزيد بن مَزَيْد ، فلم يقبل مشورته .

وكان قيل للرشيد : إن عليّ بن عيسى قد أجمع^(٢) على خلافك ، فشخص إلى الرّي من أجل ذلك ، منصرفه من مكة ، فعسكر بالنتهر وان لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، ومعه ابناه عبد الله المأمون والقاسم ، ثم سار إلى الرّي ، فلما صار بقرمّاسين أشخص إليه جماعة من القضاة وغيرهم ، وأشهدهم أن جميع ما له في عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكرّاع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون ، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير . وجدّد البيعة له على مَنْ كان معه ، ووجه هَرِثمة بن أعين صاحب حرسه إلى بغداد ، فأعاد أخذ البيعة على محمد بن هارون الرشيد وعليّ مَنْ بحضرته لعبد الله والقاسم ، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله ؛ إذا أفضت الخلاة

(١) كذا في ١ ، وهو الصواب ، وفي ط : « يأمره » .

(٢) ج : « اجتمع » .

إليه . ثم مضى الرشيد عند انصراف هرثة إليه إلى الرى ، فأقام بها نحواً من أربعة أشهر ؛ حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطُرف ، من المتاع ^(١) والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع مَنْ كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمته وقواده على قَدَر طبقاتهم ومراتبهم ، ورأى منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه . فرضى عنه ، وردّه إلى خراسان ، وخرج وهو مشيع له ؛ فذكر أن البيعة أخذت للمأمون والقاسم بولاية العهد بعد أخوينه محمد وعبد الله ، وسمّى المؤتمن حين وجّه هارون هرثة لذلك بمدينة السلام ^(٢) يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب من هذه السنة ، فقال الحسن بن هانئ في ذلك :

تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِعِلْمِهِ وَفَضَّلَ هَارُونَاً عَلَى الْخُلَفَاءِ
نَزَالَ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى التَّقَى وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأُمْنَاءِ ٧٠٥/٣

وفي هذه السنة — حين صار الرشيد إلى الرى — بعث حسيناً الخادم إلى طبرستان ، فكتب له ثلاثة كتب ؛ من ذلك كتاب فيه أمان لشروين أبى قارن ، والآخر فيه أمان لونداهرمز ، جدّ مازيار ، والثالث فيه أمان لمرزبان ابن جستان ، صاحب الديلم . فقدم عليه صاحب الديلم ، فوهب له وكساه وردّه . وقدم عليه سعيد الحرشى بأربعمائة بطل من طبرستان ، فأسلموا على يد الرشيد ، وقدم ونداهرمز ، وقبل الأمان ، وضمن السمع والطاعة وأداء الخراج ، وضمن على شروين مثل ذلك ؛ فقبل ذلك منه الرشيد وصرفه ، ووجّه معه هرثة فأخذ ابنه وابن شروين رهينة . وقدم عليه الرى أيضاً خزيمة بن خازم ، وكان والى إرمينية ، فأهدى هدايا كثيرة .

* * *

وفي هذه السنة ولّى هارون عبد الله بن مالك طبرستان والرى والرويان

(٢) س : « إلى مدينة السلام » .

(١) ج : « والمتاع » .

وَدُنْبَاوَنَد وَقُومِيس وَهَمْدَان . وقال أبو العتاهية في خَرْجَةِ هَارُونَ هَذِهِ —
وَكَانَ هَارُونَ وَلِيدَ الرَّيِّ :

إِنَّ أَمِينَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَنَّ بِهِ الْبِرُّ إِلَى مَوْلِيدِهِ
لِيُضْلِحَ الرَّيِّ وَأَقْطَارَهَا وَيُمْطِرَ الْخَيْرَ بِهَا مِنْ يَدِهِ

وَوَلَّى هَارُونَ فِي طَرِيقِهِ مُحَمَّدَ بْنَ الْجَنْحِيدِ الطَّرِيقَ مَا بَيْنَ هَمْدَانَ وَالرَّيِّ ، ٧٠٦/٣
وَوَلَّى عِيسَى بْنُ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ ثُمَمَانَ ، فَقَطَعَ الْبَحْرَ مِنْ نَاحِيَةِ جَزِيرَةِ ابْنِ
كَأَوَانَ ، فَافْتَتَحَ حَصْنَهَا بِهَا وَحَاصِرَ آخَرَ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ ابْنُ مَخْلَدٍ الْأَزْدِيُّ
وَهُوَ غَارٌّ ، فَأَسْرَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى ثُمَّانَ فِي ذِي الْحِجَّةِ ، وَانصَرَفَ الرَّشِيدُ بَعْدَ
ارْتِحَالِ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى إِلَى خُرَّاسَانَ عَنِ الرَّيِّ بِأَيَّامٍ ، فَأَدْرَكَهُ الْأَضْحَى بِقَصْرِ
الْأَصْوَصِ ؛ فَضَحَّتْ بِهَا ، وَدَخَلَ مَدِينَةَ السَّلَامِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، لِلْيَلَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ
ذِي الْحِجَّةِ ، فَلَمَّا مَرَّ بِالْجَسْرِ أَمَرَ بِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ، وَطَوَى بَغْدَادَ
وَلَمْ يَنْزِلْهَا ، وَمَضَى مِنْ فَوْرِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى الرَّقَّةِ ، فَنَزَلَ السَّيْلَحِينَ .

* * *

وَذَكِّرَ عَنْ بَعْضِ قَوَادِ الرَّشِيدِ أَنَّ الرَّشِيدَ قَالَ لَمَّا وَرَدَ بَغْدَادَ : وَاللَّهِ إِنِّي
لَأَطْوِي مَدِينَةً مَا وُضِعَتْ بِشَرْقٍ وَلَا غَرْبَ مَدِينَةِ أَيْمَنَ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهَا ؛ وَإِنِّي
لَوْطَنِي وَوَطَنَ آبَائِي ، وَدَارَ مَمْلَكَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَا بَقُوا وَحَافَظُوا عَلَيْهَا ؛ وَمَا رَأَى
أَحَدٌ مِنْ آبَائِي سُوءًا وَلَا نَكْبَةً مِنْهَا ، وَلَا سِيءَ بِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطً ، وَلِنَعْمِ الدَّارُ
هِيَ ! وَلَكِنِّي أُرِيدُ الْمَنَاخَ عَلَى نَاحِيَةِ أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَالبَغْضِ لِأُثَمَّةِ الْهَدَى
وَالْحَبِّ لِشَجَرَةِ اللَّعْنَةِ — بَنَى أُمِيَّةٌ — مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَارَقَةِ وَالْمُتَلَصِّصَةِ وَخَفِيِّ
السَّبِيلِ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا فَارَقْتُ بَغْدَادَ مَا حَيَّيْتُ وَلَا خَرَجْتُ عَنْهَا أَبَدًا .

وقال العباس بن الأحنف في طيِّ الرشيد ببغداد :

مَا أَنْخَنَّا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا نَفَّ رِقٌّ بَيْنَ الْمَنَاخِ وَالْارْتِحَالِ
سَاءَ لَوْنَا عَنْ حَالِنَا إِذْ قَدِمْنَا فَقَرْنَا وَدَاعَهُمْ بِالسُّؤَالِ

* * *

وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم ، فلم يبق بأرض الروم^(١)
 مسلم إلا فودى به — فيما ذكر — فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك :
 وفُكَّتْ بِكَ الْأَسْرَى الَّتِي شُدَّتْ لَهَا مُحَابِسُ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا
 عَلَى حِينِ أَعْيَا الْمُسْلِمِينَ فِكَاكُهَا وَقَالُوا : سُجُونُ الْمُشْرِكِينَ قَبُورُهَا

* * *

ورابطَ فيها القاسم بدآبيق .

وحجَّ بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى بن موسى .

ثم دخلت سنة تسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر ظهور خلاف رافع بن ليث]

فمن ذلك ما كان من ظهور رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند ، مخالفًا لهارون وخلعه إياه ، ونزعه يده من طاعنه .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان سبب ذلك - فيما ذكر لنا - أن يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج ابنة لعمته أبي النعمان ، وكانت ذات يسار^(١) ، فأقام بمدينة السلام ، وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها ، وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمس سببًا للتخلص منه ، فعى عليها ، وبلغ رافعًا خبرها ، فطمع فيها وفي مالها ، فدس إليها من قال لها : إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها ؛ إلا أن تشرك بالله ، وتحضر لذلك قومًا عدولًا ، وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج ؛ ففعلت ذلك وتزوجها رافع . وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث ، فرفع ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعًا ويجلده الحد ، ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيّدًا على حمار ؛ حتى يكون عظةً لغيره . فدرأ سليمان بن حميد الأزدي عنه الحد ، وحمله على حمار مقيّدًا حتى طلقها ، ثم حبسه في سجن سمرقند ، فهرب من الحبس ليلاً من عند حميد بن المسيح - وهو يومئذ على شرط سمرقند - فلحق بعلي بن عيسى ببغداد ، فطلب الأمان فلم يجبه علي إليه ، وهم بضرب عنقه ، فكلّمه فيه ابنه عيسى بن علي ، وجدّد طلاق المرأة ، وأذن له في الانصراف إلى سمرقند ، فانصرف إليها ، فوثب بسليمان ابن حميد ؛ عامل علي بن عيسى فقتله . فوجه علي بن عيسى إليه ابنه ،

٧٠٨/٣

فقال الناس إلى سباع بن مسعدة ، فرأسوه عليهم ، فوثب على رافع فقيده ، فوثبوا على سباع ، فقيده ورأسوا رافعاً وبايعوه ، وطابقه من وراء النهر ، ووافاه عيسى بن علي ، فلقبه رافع فهزمه ، فأخذ علي بن عيسى في فرّض الرجال والتأهب للحرب .

* * *

وفي هذه السنة غزا الرشيد الصائفة ، واستخلف ابنه عبد الله المأمون بالرقّة ٧٠٩/٣ وفوض إليه الأمور ، وكتب إلى الآفاق بالسّمع له والطاعة ، ودفع إليه خاتم المنصور يتيّم به ؛ وهو خاتم الخاصّة ، نقشه : « الله ثقتي آمنت به » .

وفيهما أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون .

وفيهما خرجت الروم إلى عين زربة وكنيسة السّوداء ، فأغارت وأسرت ، فاستنقذ أهل المصيصة ما كان في أيديهم .

* * *

[فتح الرشيد هرقلّة]

وفيهما فتح الرشيد هرقلّة ، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم ؛ وكان دخلها - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ؛ سوى الاتباع وسوى المطوّعة وسوى من لا ديوان له ، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبّسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصّفصاف وملّقبوية - وكان فتح الرشيد هرقلّة في شوال - وأخربها وسبي أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها ، وولّى حميد بن مَعِيُوف سواحل بحر الشام إلى مِصْر ، فبلغ حميد قُبْرُس ، فهدم وحرّق وسبي أهلها (١) ستة عشر ألفاً ، فأقدمهم الرّافقة ، فتولّى بيعهم أبو البختريّ القاضي ، فبلغ أسقف قُبْرُس ألفي دينار .

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب ؛ واتخذ

(١) س : « أهل قبرس » .

قلنسوة مكتوباً عليها « غاز حاج » ، فكان يلبسها ، فقال أبو المعالي ٧١٠/٣
الكلابي :

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدهُ فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصى الثَّغُورِ
فَفِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طَيْرٍ وَفِي أَرْضِ التَّرَفِّهِ فَوْقَ كُورِ^(١)
وَمَا حَازَ الثَّغُورَ سِوَاكَ خَلَقَ مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ

ثم صار الرشيد إلى الطُّوَّانة ، فعسكر بها ، ثم رحل عنها ، وخلف عليها
عقبة بن جعفر ، وأمره ببناء منزل هنالك ، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخرّاج
والجزية ، عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ؛
منها عن رأسه أربعة دنانير ؛ وعن رأس ابنه استبراق دينارين . وكتب نقفور
مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبى هِرَقْلَةَ كتاباً نسخته :
لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليكم ، أما بعد
أيها الملك ، فإنّ لى إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك ، هيئة يسيرة ؛
أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هِرَقْلَةَ ، كنت قد خطبتُها على ابنى ،
فإن رأيت أن تسعفى بحاجتى فعلت . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
واستهداه أيضاً طيباً وسرادقا من سُرادقائه ؛ فأمر الرشيد بطلب الجارية ،
فأحضرت وزُيِّنَتْ وأجْلِسَتْ على سرير^(٢) في مضربه الذى كان نازلاً فيه ،
وسالمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث
إليه بما سأل من العطر ، وبعث إليه من الثمر^(٣) والأخبصة والزبيب والترياق ،
فسلم ذلك كله إليه رسول الرشيد ، فأعطاه نقفور وقرّ دراهم إسلامية على
برذون كُئِيت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومائة ثوب ديباج ومائتى
ثوب بُزْيُون^(٤) ، واثنى عشر بازيًا ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة
براذين . وكان نقفور اشترط ألاّ يخرب ذا الكلاع ولا صمله ولا حصن سنان ،

(١) ١ ، س : « في أرض البرية » . (٢) ج : « فراش » .

(٣) س : « التمر » .

(٤) البزْيُون : ضرب من نسج البز أو من رقيق الديباج ، مركب من : « بز » ومن : « يون » ،
أى يشبه البز . وانظر الألفاظ الفارسية لأدى شير ٢٢ .

واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله ، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار .
 وخرج في هذه السنة خارجي من عبد القيس يقال له سيف بن بكر ،
 فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد ، فقتله بعين النورة .
 ونقض أهل قبرس العهد ، فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلها .

* * *

وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج خارجي^١ يقال له ثروان بن سيف بناحية حوْلَايا ؛ فكان يتنقل بالسواد ، فوجّه إليه طوق بن مالك فهزّمه طوق وجرحه ، وقتل عامة أصحابه ، وظنّ طوق أنه قد قتل ثروان ، فكتب بالفتح ، وهرب ثروان مجروحاً .

وفيهما خرج أبو النداء بالشام^١ فوجّه الرشيد^١ في طلبه يحيى بن معاذ ، وعقّد له على الشام .

وفيهما وقع الثلج بمدينة السلام .

وفيهما ظفر حماد البربري^١ بهيصم الباني .

وفيهما غلظ أمر رافع بن ليث بسمرقند .

وفيهما كتب أهل نَسَف إلى رافع يعطونه الطاعة ، ويسألونه أن يوجّه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي^١ ، فوجّه صاحب الشاش في إتراكه قائداً من قواده ، فأتوا عيسى بن علي^١ ، فأحرقوا به وقتلوه في ذى القعدة ، ولم يعرضوا لأصحابه .

وفيهما ولّى الرشيد حمّويه الخادم بريد خراسان .

وفيهما غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف ، فأخذت الروم عليه المضيق ، فقتلوه على مَرَحَلَتَيْن من طَرَسُوس في خمسين^(٢) رجلاً ، وسليم الباقون .

وفيهما ولّى الرشيد غزو الصائفة هرّمة بن أعين ، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً من جند خراسان ، ومعه مسرور الخادم ؛ إليه النفقات وجميع الأمور ، خلا الرياسة .

(١-١) ج : « فوجه إليه الرشيد » .

(٢) ١ : « سبعين » .

ومضى الرشيد إلى درب الحدث^(١)، فرتب هنالك عبدالله بن مالك، ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش، فأغارت الروم عليها، وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد بن سلم مقيم بها، وبعث محمد بن يزيد بن يزيد إلى طرسوس، فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان، ثم انصرف إلى الرقة.

وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وكتب إلى السندی بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.

٧١٣/٣

* * *

وفيها عزل الرشيد علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وولاهها هرثمة.

ذكر الخبر عن سبب عزل الرشيد علي بن

عيسى وسخطه عليه

قال أبو جعفر: قد ذكر قبل سبب هلاك ابن علي بن عيسى وكيف قُتِل. ولما قتل ابنه عيسى خرج علي بن بلخ حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع بن الليث، فيستولى عليها. وكان ابنه عيسى دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة - قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف - ولم يعلم بها علي بن عيسى ولا اطلع على ذلك إلا جارية كانت له، فلما شغص علي بن بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم، وتحدث به الناس، فاجتمع قراء أهل بلخ وجوهها، فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة، فبلغ الرشيد الخبر، فقال: خرج علي بن بلخ عن غير أمرى، وخلف مثل هذا المال؛ وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حاكمي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع! فعزله عند ذلك، وولّى هرثمة بن أعين، واستصفي أموال علي بن عيسى، فبلغت أمواله ثمانين ألف ألف.

وذكر عن بعض الموالى أنه قال: كنا بجرجان مع الرشيد وهو يريد

(١) : « حرب الحدث ».

خُرَاسان، فوردت خزائن عليّ بن عيسى التي أخذت له على ألف وخمسمائة
بعير ، وكان عليّ مع ذلك قد أذلّ الأعالى من أهل خُرَاسان وأشرفهم .

٧١٤/٣

وذكر أنه دخل عليه يوماً هشام بن فرخسرو والحسين بن مصعب ،
فسلمّا عليه ، فقال للحسين : لا سلّم الله عليك يا ملحد يا ابن الملحد! والله إنّي
لأعرف ما أنت عليه من عداوتك للإسلام وطعنك في الدين ، وما أنتظر بقتلك
إلا إذن الخليفة فيه ، فقد أباح الله دمك ، وأرجو أن يسفكه الله على يدي
عن قريب ، ويعجلك ^(١) إلى عذابه . ألسنّ المرجف بي في منزلي هذا بعد
ما ثملت من الخمر ، وزعمت أنه ^(٢) جاءتك كتب من مدينة السلام بعزلي !
اخرج ^(٣) إلى سخط الله ، لعنك الله ، فعن قريب ما تكون من أهلها ! فقال
له الحسين : أعيذ بالله الأمير أن يقبل قول واش ، أو سعاية باغ ، فإني برىء
مما قرئت ^(٤) به . قال : كذبت لا أمّ لك ! قد صحّ عندي أنك ثملت من
الخمر ، وقلت ما وجب عليك به أغلظ ^(٥) الأدب ؛ ولعلّ الله أن يعاجلك
بأسه ونقمته ^(٦) ؛ اخرج عني غير مستور ولا مصاحب . فجاء الحاجب فأخذ
بيده فأخرجه ، وقال لهشام بن فرخسرو : صارت دارك دار الندوة ؛ يجتمع ^(٧)
فيها إليك السفهاء ، وتطعن على الولاة ! سفك الله دمي إن لم أسفك دمك !
فقال هشام : جعلت فداء الأمير ! أنا والله مظلوم مرحوم ؛ والله ما أدعُ في
تقريظ الأمير جهداً ، وفي وصفه قولاً إلاّ خصصته به وقلته فيه ؛ فإن كنت
إذا ^(٨) قلت خيراً نقل إليك شراً ^(٩) ! فما حيلتي ! قال : كذبت لا أمّ لك ؛
لأننا أعلم بما تنطوى عليه جوانحك من ولدك وأهلك ، فاخرج فعن قريب أريح
منك نفسى . فخرج . فلمّا كان في آخر الليل دعا ابنته عالية – وكانت من
أكبر ولده – فقال لها : أىّ بنية ، إني أريد أن أفضي إليك بأمر إن أنت
أظهرته قتلت ؛ وإن حفظته سلمت ، فاخترى بقاء أبيك على موته ، قالت :

٧١٥/٣

(٢) س : « أنك » .

(٤) ج ، ا : « قذفت » .

(٦) ج : « ونقمه » .

(٨) ج : « إذ » .

(١) ج : « ويعجلك » .

(٣) ف : « فاخرج » .

(٥) ج ، ا : « غليظ » .

(٧) ج : « تجتمع » .

(٩) س : « إليه شراً » .

وما ذاك^(١) جعلت فداك ! قال : إني أخاف هذا الفاجر عليّ بن عيسى على دمي ، وقد عزمت على أن أظهر أن الفالج أصابني ، فإذا كان في السحر فاجمعي جواريك ، وتعالى إلى فراشي وحرّ كيني ؛ فإذا رأيت حركتي قد ثقلت ، فصيحى أنت وجواريك ، وابعثي إلى إخوتك فأعلميهم عنتي . وإياك ثم إياك أن تطلعي^(٢) على صحة بدني أحداً من خلق الله من قريب أو بعيد . ففعلت — وكانت عاقلة حازمة — فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك إلا إن حرّك ، فيقال إنه لم يعلم من أهل خراسان أحداً من عزل عليّ بن عيسى بخبر ولا أثر غير هشام ؛ فإنه توهم عزله ، فصحّ توهمه .

ويقال : إنه خرج في اليوم الذي قدم فيه هرّمة لتلقيه ، فراه في الطريق رجل من قوّاد عليّ بن عيسى ، فقال : صحّ الجسم ؟ فقال : ما زال صحيحاً بحمد الله ! وقال بعضهم : بل رآه عليّ بن عيسى ، فقال : أين بك ؟ فقال : أتلقى أميرنا أبا حاتم ، قال : ألم تكن عليلاً ؟ قال : بلى ؛ فوهب الله العافية ، وعزل الله الطاغية في ليلة واحدة .

وأما الحسين بن مصعب فإنه خرج إلى مكّة مستجيراً بالرشيد من عليّ بن عيسى ، فأجاره .

ولما عزم الرشيد على عزل عليّ بن عيسى دعا — فيما بلغني — هرّمة بن أعين مستخلياً به فقال : إني لم أشاور فيك أحداً ، ولم أطلع على سرّي فيك ، وقد اضطرب عليّ ثغور المشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر عليّ بن عيسى ؛ إذ خالف عهدي ونبذته وراء ظهره ؛ وقد كتب يستمدّ ويستجيش ، وأنا كاتب إليه ، فأخبره أني أمدّه بك ، وأوجهّ إليه معك من الأموال والسلاح والقوّة والعدّة ما يطمئنّ إليه قلبه ، وتطلع إليه نفسه ، وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفصّته ، ولا تطلعنّ فيه حتى تصل^(٣) إلى مدينة نيسابور ؛ فإذا نزلتها فاعمل بما فيه ، وامثله ولا تجاوزه ، إن شاء الله ، وأنا موجهّ معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى عليّ بن عيسى بخطي ؛ ليتعرّف ما يكون منك ومنه ؛ وهونّ عليه أمر

٧١٦/٣

(٢) س : « يطلع » .

(١) ج : « وما هو » .

(٣) س : « نصير » .

على فلا تظهرته عليه ، ولا تعلمنه ما عزمته عليه ، وتأهب للمسير ، وأظهر
لخاصتك وعامتك أنى أوجتلك مدداً لعلى بن عيسى وعوناً له . قال : ثم
كتب إلى على بن عيسى بن ماهان كتاباً بخطه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوّمت باسمك ،
وأوطأت سادة^(١) العرب عتقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولتك وأتباعك ؛
فكان جزائى أن خالفت عهدي ، ونبتت وراء ظهرك أمرى ؛ حتى عثت فى
الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته^(٢) ؛ بمعوى سيرتك ، ورداءة
طعمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان ،
وأمرته أن يشدّ وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم
درهماً ، ولا حقاً لمسلم ولا معاهداً إلا أخذكم به ؛ حتى تردّه إلى أهله ؛ فإن
أبست ذلك وأباه ولدك وعمالك فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصبّ
عليكم السياط ، ويحلّ بكم ما يحلّ بمن نكث وغيره ، وبدّل وخالف ، وظلم
وتعدّى وغشم ، انتقاماً لله عزّ وجلّ بادئاً ، وخليفته ثانياً ، وللمسلمين
والمعاهدين ثالثاً ؛ فلا تعرض نفسك للتى لا شوى لها ، واخرج مما يلزمك
طائعاً أو مكرهاً .

وكتب عهد هرثمة بخطه :

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه
ثغر خراسان وأعماله وخراجه ؛ أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله
ومراقبته^(٣) ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله ، فيحلّ حلاله
ويحرّم حرامه ، ويقف عند مثابيه ؛ ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى
العلم بكتاب الله ، أو يردّه إلى إمامه ليريه الله عزّ وجلّ فيه رأيه ، ويعزم له
على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ،
وأن يشدّ عليهم وطأته ، ويحلّ بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال

(١) ج : « سادات » .

(٢) س : « فى خليفته » .

(٣) ج : « موافقته » .

يصحّ عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين ؛ فإذا استنظف ما عندهم وقبّلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحقّ كلّ ذى حقّ حتى يردّوه إليهم ؛ فإن ثبتت قبّلهم حقوق أمير المؤمنين وحقوق للمسلمين ؛ فدافعوا بها وجحدوها ، أن يصبّ عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ؛ حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطّأها بأدنى أدب ، تلفتْ أنفسهم ، وبطلت أرواحهم ؛ فإذا خرجوا من حقّ كلّ ذى حقّ ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خُشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملابس ، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين ، إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك ، فإنّي آثرتُ الله ودينى على هواى وإرادتى ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبّر في عمال الكُور الذين تمرّبهم في صُعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمرٍ يريبهم وظنّ يربّهم . وابسُط من آمال أهل ذلك الثَغْر ومن أمانهم وعذرهم ، ثمّ اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ، ومنّ ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدى وكتابى بخطّى ، وأنا أشهد الله وملائكته وحملّة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً .

وكتب أمير المؤمنين بخطّ يده لم يحضره إلا الله وملائكته .

ثمّ أمر أن يكتب كتاب هرّمة إلى علىّ بن عيسى في معاونته وتقوية أمره والشدّ على يديه ؛ فكتب وظهر الأمر بها ؛ وكانت كتب حَمَوِيّه وردت على هارون : إنّ رافعاً لم يخلع ولا نزع السّواد ولا من شايعه ، وإنما غايتهم عزل علىّ بن عيسى الذى قد سامهم المكروه .

• • •

[خبر شخص هَرّمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها]

ومن ^(١) ذلك ما كان من شخص هَرّمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها .

٧١٩/٣

• ذكر الخبر عما كان من أمره في شخصه إليها وأمر علىّ بن عيسى

وولده :

(١) قبل هذه الكلمة في ا ، ج : « ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة » .

ذكر أن هرثمة مضى في اليوم السادس من اليوم الذي كتب له عهده الرشيد وشيَّعه الرشيد، وأوصاه بما يحتاج إليه، فلم يعرج هرثمة على شيء، ووجهه إلى علي بن عيسى في الظاهر أموالاً وسلاحاً، وخيلاً وطيباً؛ حتى إذا نزل نيسابور جتمع جماعة من ثقات أصحابه وأولى السن والتجربة منهم؛ فدعا كل رجل منهم سرّاً، وخلا به، ثم أخذ عليهم العهود والمواثيق أن يكتموا أمره، ويطوؤا سرّه، وولّى كل رجل منهم كورة^(١)، على نحو ما كانت حاله عنده؛ فولّى جرجان ونيسابور والطبسين ونسا وسرخس، وأمّر كل واحد^(٢) منهم، بعد أن دفع إليه عهده بالمسير^(٣) إلى عمله الذي ولّاه على أخفى الحالات وأسترها، والتشبه بالمجتازين في ورودهم الكور ومقامهم فيها إلى الوقت الذي سماه لهم، وولّى إسماعيل بن حفص بن مصعب جرجان بأمر الرشيد، ثم مضى حتى إذا صار من مَرّو على مرحلة، دعا جماعة من ثقات أصحابه، وكتب لهم أسماء ولد علي بن عيسى وأهل بيته وكتبّاه وغيرهم في رقاد، ودفع إلى كل رجل منهم رقعة باسم مَنْ وكتّله بحفظه إذا هو دخل مَرّو، خوفاً من أن يهربوا إذا ظهر أمره. ثم وجهه إلى علي بن عيسى: إن أحبّ الأميرُ أكرمهُ الله أن يوجّهه ثقاته لقبض ما معي من أموال فععل؛ فإنه إذا تقدّم المال أمانى كان أقوى للأمير، وأفتّ في عضد أعدائه. وأيضاً فإنّي لا آمنُ عليه إن خلّفته وراء ظهري؛ أن يطمع فيه بعض من تسمّو إليه نفسه إلى أن يقطع بعضه، ويفترض غفلتنا عند دخول المدينة. فوجّهه علي بن عيسى جهابذته وقهارمته لقبض المال، وقال هرثمة الخزانة: اشغلوهم هذه الليلة، واعتلّوا عليهم في حمّل المال بعلّة تقرب من أطماعهم، وتزيل الشكّ عن قلوبهم، ففعلوا. وقال لهم الخزان: حتى تؤامروا أبا حاتم في دوابّ المال والبغال. ثم ارتحل نحو مدينة مَرّو، فلما صار منها على ميلين تلقّاه علي بن عيسى في ولده وأهل بيته وقواده بأحسن لقاء ونسبه؛ فلمّا وقعت عين هرثمة عليه، ثنى رجله لينزل عن دابته فصاح به علي: واللّه لئن نزلت لأنزلن، فثبت على سرّجه، ودنا كل^(٤) منهما من صاحبه فاعتنقا، وسارا، وعلي يسأل هرثمة عن

٧٢٠/٣

(٢) ج: «رجل» .
(٤) ج: «كل واحد» .

(١) ج: «كورة» .
(٣) س: «المصير» .

أمر الرشيد وحاله وهيبته وحال خاصته وقواده وأنصار دولته ؛ وهرثمة يُجيبه ؛ حتى صار إلى قنطرة لا يجوزها إلاّ فارس ، فحبس هرثمة لحام دابته ، وقال لعلّى : سر على بركة الله ، فقال علىّ : لا والله لا أفعل حتى تمضى أنت ، فقال : إذاً والله لا أمضى ، فأنت الأمير وأنا الوزير ؛ فضى وتبعه هرثمة حتى دخلاً مَرَوْ ، وصاروا إلى منزل علىّ ، ورجاء الخادم لا يفارق هرثمة في ليل ولا نهار ، ولا ركوب ولا جلوس ؛ فدعا علىّ بالغداء فطعما ، وأكلَ معهما رجاء الخادم ، وكان عازماً على ألاّ يأكل معهما ، فغمزه هرثمة وقال : كُئِلَ فإنك جائع ، ولا رأىَ الجائع ولا حاقن ؛ فلما رُفِعَ الطعام قال له علىّ : قد أمرت أن يفرغ لك قصر على الماشان ؛ فإن رأيتَ أن تصير إليه فعلت . فقال له هرثمة : إن معى من الأمور ما لا يتحمل تأخير المناظرة فيها ؛ ثم دفع رجاء الخادم كتاب الرشيد إلى علىّ ، وأبلغه رسالته . فلما فُضَّ الكتاب فنظر إلى (١) أوّل حرف منه سَقِطَ في يده ، وعلم أنه قد حلّ به ما يخافه ويتوقعه ، ثم أمر هرثمة بتقييده وتقييد ولده وكتابه وعماله — وكان رجل (٢) ومعه وقر من قيود وأغلال — فلما استوسق منه صار إلى المسجد الجامع ، فخطب وبسط من آمال الناس ، وأخبر أن أمير المؤمنين ولّاه ثغورهم لما انتهى إليه من سوء سيرة الفاسق علىّ ابن عيسى ، وما أمره به فيه وفي عمّاله وأعوانه ، وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصّة ، والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق . وأمر بقراءة عهده عليهم . فأظهروا السرور بذلك ، وانفسحت آمالهم ، وعظم رجائهم ، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم ، وكثر الدعاء لأمر المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم انصرف ، فدعا بعلىّ بن عيسى وولده وعماله وكتّابه ، فقال : اكفوني مؤنتكم ، واعفوني من الإقدام بالمكروه عليكم . ونادى في أصحاب ودائعهم ببراءة الذّمة من رجل كانت لعلّى عنده وديعة أو لأحد من ولده أو كتابه أو عماله وأخفاها ولم يظهر عليها ؛ فأحضره الناس ما كانوا أودِعوا إلاّ رجلاً من أهل مَرَوْ — وكان من أبناء المجوس — فإنه لم يزل يتلطف للوصول (٣) إلى علىّ بن عيسى حتى صار إليه ، فقال له سرّاً : لك عندى مال ، فإن احتجت

٧٢١/٣

(٢) س : « دخل » .

(١) س : « ف » .

(٣) ج : « بالوصل » .

إليه حملته إليك أولاً فأولاً ، وصبرت للقتل فيك ؛ إيثاراً للوفاء وطلباً لجميل الثناء ، وإن استغنييت عنه حبسته عليك حتى ترى فيه رأيك . فعجب على^{٧٢٢/٣} منه ، وقال : لو اصطنعتُ مثلك ألف رجل ما طمِيع في السلطان ولا الشيطان أبداً . ثم سأله عن قيمة ما عنده ، فذكر له أنه أودعه مالا وثياباً ومسكاً ، وأنه لا يدرى ما قدر ذلك ؛ غير أنه أودعه بخطئه ، وأنه محفوظ لم يشدّ منه شيء ، فقال له : دعه ؛ فإن ظهر عليه سلّمته ونجوت بنفسك ، وإن سلّمته به رأيت فيه رأيي . وجزاه الخير ، وشكر له فعله ذلك أحسن شكر ، وكافأه عليه وبره . وكان يُضرب به المثل بوفائه ؛ فذكر أنه لم يتستر عن^(١) هرثمة من مال عليّ إلا ما كان أودعه هذا الرجل — وكان يقال له : العلاء بن ماهان — فاستنظف هرثمة ما وراء ظهورهم حتى حلتى نسائهم ؛ فكان الرجل يدخل إلى المنزل فيأخذ جميع ما فيه ؛ حتى إذا لم يبق فيه إلا صوف أو خشب أو ما لا قيمة له قال للمرأة : هاتي ما عليك من الحلوى ، فتقول للرجل إذا دنا منها ليتزع ما عاينها : يا هذا ، إن كنت محسناً فاصرف بصرك عني ، فوالله لا تركتُ شيئاً من بغيتك عليّ إلاّ دفعته إليك ؛ فإن كان الرجل يتحوّب من الدتوّ إليها أجابها إلى ذلك حتى ربما نبذت إليه بالخاتم والخلاخال وما قيمته عشرة دراهم ، ومن كان بخلاف هذه الصفة ، قال : لا أرضى حتى أفتّشك ؛ لا تكونين قد خبأت ذهباً أو دُرّاً أو ياقوتاً ؛ فيضرب يده إلى مغابنها وأرفاعها ؛ فيطلب فيها ما يظنّ أنها قد سترته عنه ؛ حتى إذا ظنّ أنه قد أحكم هذا كله وجهه على بعير بلا وطاء تحته ، وفي عنقه سلسلة ، وفي رجله قيود ثقّال ما يقلدر معها على نهوض وأعتاد .

فذكر عمن شهد أمر هرثمة وأمره ؛ أن هرثمة لما فرغ من مطالبة عليّ بن عيسى وولده وكتابه وعمّاله بأموال أمير المؤمنين ، أقامهم لمظالم الناس ، فكان إذا برّد للرجل عليه أو على أحد من أصحابه حق ، قال : اخرج للرجل من حقّه ، وإلا بسطت عليك ، فيقول عليّ : أصّلى الله الأمير !

(١) : « لم يشدّ على هرثمة » .

أَجَلَنِي يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ، فيقول : ذلك إلى صاحب الحق ، فإن شاء فعل . ثم يُقْبَلُ على الرجل ، فيقول : أَتَرَى أَنْ تَدْعَهُ ؟ فإن قال : نعم ، قال : فانصرف وعُدْ إليه ، فيبعث على إلى العلاء بن ماهان ، فيقول له : صالح فلانا عني^(١) من كذا وكذا على كذا وكذا ، أو على ما رأيت ، فيصالحه ويصلح أمره .

وذكر أنه قام إلى هرثمة رجل ، فقال له : أصلح الله الأمير ! إن هذا الفاجر أخذ مني درقة^(٢) ثمينة لم يملك أحد مثلها ، فاشترها على كُرهِ مني ولم أَرِدْ بيعها بثلاثة آلاف درهم ؛ فأتيت قهرمانه أطلب ثمنها ، فلم يعطيني شيئاً ، فأقمت حَوْلًا أَنْتَظِرُ رُكُوبَ هذا الفاجر ؛ فلما ركب عرضتُ له وصِحتُ به : أيها الأمير ، أنا صاحب الدرقة ، ولم آخذ لها ثمنًا إلى هذه الغاية ، فقذف أمتي ولم يعطيني حتى ، فخذ لي بحقي من مالي^(٣) وقَدِّفْه أُمِّي ، فقال : لك بيتنة ؟ قال : نعم ، جماعة حضروا كلامه ؛ فأحضرهم فأشهدهم^(٤) على دعواه ، فقال هرثمة : وجب عليك الحد ، قال : ولم ؟ قال : لقد فك أَمِّ هذا ، قال : مَنْ فَقَّهَكَ^(٥) وعَلَّمَكَ هذا ؟ قال : هذا دين المسلمين ، قال : فأشهد أن أمير المؤمنين قد قذفك غير مرة ولا مرتين ؛ وأشهد أنك قد قذفت بنيك ما لا أحصي ، مرة حاتمًا ومرة أعين ؛ فمن يأخذ لهؤلاء بحدودهم منك ؟ ومن يأخذ لك من مولاك ! فالتفت هرثمة إلى صاحب الدرقة ، فقال : أرى لك أن تطالب هذا الشيطان بحدِّ قتلِك أو ثمنها ، وترك مطالبته بقذفه أَمِّكَ .

٧٢٤/٣

* * *

[كتاب هرثمة إلى الرشيد في أمر علي بن عيسى]

ولما حمل هرثمة عليًا إلى الرشيد ، كتب إليه كتابًا يخبره ما صنع ؛ نسخته :
بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ لم يزل يبلي أمير المؤمنين في كلِّ ما قلده من خلافته ، واسترعاه من أمور^(٦) عبادِه وبلادِه أَجْمَلِ

(١) س : « على » .

(٢) الدرقة : الترس من جلد بلا خشب ولا عقب ، وتسمى الحجة أيضًا .

(٣) س : « ماله » .

(٤) ا ، س : « فشهدوا » .

(٥) ج : « فهمك » .

(٦) س : « أمر » .

البلاء وأكملته ، ويعرفه في كل ما حضره ونأى عنه من خاص أموره وعامتها ، ولطيفها وجليلها أتم الكفاية وأحسن الولاية ، ويعطيه في ذلك كله أفضل الأمانة ، ويبلغه فيه أقصى غاية المهمة ، امتناناً منه عليه ، وحفظاً لما جعل إليه ، مما تكفل بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته ؛ فيستتم الله أحسن ما عوده وعودنا من الكفاية في كل ما يؤدبنا إليه ، ونسأله توفيقنا لما نقضى به المفترض من حقه في الوقوف عند أمره ، والاقتصار على رأيه .

ولم أزل أعز الله أمير المؤمنين ، مذ فصلت عن معسكر أمير المؤمنين ممثلاً ما أمرني به فيما أنهضني له ؛ لا أجاوز ذلك ولا أتعده إلى غيره ، ولا أتعرف اليمن والبركة إلا في امتثاله ؛ إلى أن حلت أوائل خراسان ؛ صائناً للأمر الذي أمرني أمير المؤمنين بصيانته وسره ؛ لا أفضي ذلك إلى خاصي ولا إلى عامي ، ودبرت في مكاتبة أهل الشاش وفرغانة وخزلهما ^(١) عن الخائن ، وقطع طمعه وطمع من قبله عنهما ، ومكاتبة من يبلغ بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين وفسترت له ، فلما نزلت نيسابور عملت في أمر الكور التي اجترت عليها بتولية من وليت عليها ، قبل مجاوزتي إياها ؛ كجرجان ونيسابور ونسسا وسرخس ، ولم آل الاحتياط في ذلك ، واختيار الكفاة وأهل الأمانة والصحة من ثقات أصحابي ، وتقدمت إليهم في ستر ^(٢) الأمر وكنهه ، وأخذت عليهم بذلك أيمان البيعة ، ودفعت إلى كل رجل منهم عهده بولايته ، وأمرتهم بالمسير ^(٣) إلى كور أعمالهم على أخفى الحالات وأسترها ، والتشبه بالمجتازين في ورودهم الكور ومقامهم بها إلى الوقت الذي سميت لهم ؛ وهو اليوم الذي قدرت فيه دخولي إلى مرو ، والتقاءي وعلى بن عيسى ، وعملت في استكفائي ^(٤) إسماعيل بن حفص بن مصعب أمر جرجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفذ ^(٥) أولئك العمال لأمرى ، وقام كل رجل منهم في الوقت الذي وقفت له بضبط عمله وإحكام ناحيته ، وكفى الله أمير المؤمنين المؤنة في ذلك ، بلطيف ^(٦) صنعه .

(١) حزمها عن الخائن ، أي إبعادها عنه .

(٢) س : « بستر » .

(٣) ا ، س : « بالمسير » .

(٤) ا ، س : « استكفاء » .

(٥) س : « فتفقد » .

(٦) ا ، ج : « بلطف » .

ولما صرتُ من مدينة مَرَوْ على منزل، اخترت عِدَّةً من ثقات أصحابي، وكتبت بتسمية ولد عليّ بن عيسى وكتابه وأهل بيته وغيرهم رقاعاً، ودفعت إلى كلِّ رجلٍ منهم رُقعة باسم مَنْ وكتُّبُهُ بحفظه في دخولي، ولم آمن لوقصرت في ذلك وأخبرته أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره إلى التغيب والانتشار، فعملوا بذلك، ورحلتُ عن^(١) موضعي إلى مدينة مَرَوْ، فلما صرت منها على ميلين تلقاني عليّ بن عيسى في ولَدِهِ وأهل بيته وقواده، فلقيته^(٢) بأحسن لقاء، وأنسته^(٣)، وبلغتُ من توقيره وتعظيمه والتاس التزول إليه أول ما بصرت به ما ازداد به أنساً وثقة، إلى ما كان ركن إليه قبل ذلك؛ مما كان يأتيه من كتبٍ؛ فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال مني له والالتباس، لإلقاء سوء الظنِّ عنه؛ لثلاث يسبق إلى قلبه أمرٌ ينتقض به ما دبر أمير المؤمنين في أمره، وأمرني به في ذلك. وكان الله تبارك وتعالى هو المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمر فيه إلى أن ضمتني وإياه مجلسه، وصرت إلى الأكل معه، فلما فرغنا من ذلك بدأنِي يسألني المصيرَ إلى منزل كان ارتاده لي؛ فأعلمته ما معي من الأمور التي لا تحتمل تأخير المناظرة فيها. ثم دفع إليّ رجاء الخادم كتابَ أمير المؤمنين وأبلغه رسالته، فعلم عند ذلك أن قد حلَّ به الأمر الذي جناه على نفسه، وكسبته يده؛ من سخط أمير المؤمنين، وتغيّر^(٣) رأيه بخلافه أمره وتعدّيه سيرته.

ثم صرت إلى التوكيل به، ومضيت إلى المسجد الجامع، فبسطت آمال الناس ممن حضر، وافتتحت القول بما حملني أمير المؤمنين إليهم، وأعلمتهم إعظام أمير المؤمنين ما أتاه، ووضح عنده من سوء سيرة عليّ، وما أمرني به فيه وفي عمّاله وأعوانه؛ وإني بالغٌ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم. وأمرت بقراءة عهدي عليهم، وأعلمتهم أن ذلك مثالي وإمامي؛ وأنني به أقنئني، وعليه أحتدي؛ ففني زلتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسي، وأحلت بها ما يحلّ بمن خالف

(١) ١، س : « من » .

(٢-٢) س : « بأحسن اللقاء وأنسه » .

(٣) ج : « وتغيّره له » .

رأى أمير المؤمنين وأمره ؛ فأظهروا السرور بذلك والاستبشار ، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم ، وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء .
ثم انكفأت إلى المجلس الذي كان على بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتابه وعمله والاستيثاق منهم جميعاً ، وأمرتهم بالخروج إلى من الأموال التي احتجوها من أموال أمير المؤمنين وفيء المسلمين ، وإعفائي بذلك من الإقدام عليهم بالمكره والضرب ، وناديت في أصحاب وذائعهم بإخراج ما كان عندهم . فحملوا إلىّ إلآى أن كتبت إلى أمير المؤمنين صدرًا صالحًا من الورق والعين^(١) ، وأرجو أن يعين الله على استيفاء ما قبلهم ، واستنظاف ما وراء ظهورهم ، ويسهل الله من ذلك أفضل ما لم يزل يعوده أمير المؤمنين من الصنع في مثله من الأمور التي يعنى بها إن شاء الله تعالى .

ولم أدع عند قدومي مرو التقدّم في توجيه الرسل وإنفاذ الكتب البالغة في الإعذار والإنذار ، والتبصير والإرشاد ، إلى رافع^(٢) ومن قبله من أهل سمرقند ، وإلى من يبلغ ، على حسن ظنتي بهم في الإجابة ، ولزوم الطاعة والاستقامة ؛ ومهما تنصرف به رسل إلىّ يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم ، أعمل على حسبه من أمرهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حقه وصدقته . وأرجو أن يعرف الله أمير المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفايته ؛ ما لم تزل عادته جارية به عنده ، بمنه وطوله وقوته والسلام .

الجواب من الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك بقدمك مرو في اليوم الذي سميت ، وعلى الحال التي وصفت وما فسرّت ، وما كنت قدّمت من الحيل قبل ورودك إياها ، وعملت^(٣) به في أمر الكور التي سميت وتولية من وليت عليها قبل نفوذك عنها ، ولطفت له من الأمر الذي استجمع لك به ما أردت من أمر الخائن على بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار في

(١) الورق : الدراهم المضروبة . والعين : الديثار .

(٢) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار .

(٣) ج : « وعملت » .

يدك من عمّاله وأصحاب أعماله واحتذائك في ذلك كلّهُ ما كان أمير المؤمنين مثلك ووقفك عليه، وفهم أمير المؤمنين كلّ ما كتبت به ، وحمد الله على ذلك كثيراً وعلى تسديده إياك وما أعانك به من توفيقه ، حتى بلغت إرادة أمير المؤمنين ، وأدركت طلبته ، ^(١) وأحسن ما كان يُحبّ بك وعلى يدك إحكامه ^(٢) ، مما كان اشتدّ به اعتناؤه ، ولجّ به اهتمامه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفائتك ، فلا أعدم الله أمير المؤمنين أحسن ما عرفه منك في كلّ ما أهاب بك إليه ، واعتمد بك عليه ^(٣) .

وأمير المؤمنين يأمرُك أن تزداد جدّاً واجتهاداً فيما أمرُك ^(٣) به من تتبع أموال الخائن على بن عيسى وولده وكتّابه وعمّاله ووكلائه وجهابذته والنظر فيما اختانوا به أمير المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرّعية في أموالهم ، وتتبع ذلك واستخراجه من مظانّه ومواضعه ، التي صارت إليه ، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودعها إياهم ؛ واستعمال الالين والشدة في ذلك كله ؛ حتى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم ؛ ولا تبقى من نفسك في ذلك بقية ^(٤) ، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم ؛ حتى لا تبقى لمتظلم منهم قبيحهم ظلّامة إلا استقصيت ^(٥) ذلك له ، وحملته وإياهم على الحقّ والعدل فيها ، فإذا بلغت أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك ، فأشخص الخائن وولده وأهل بيته وكتّابه وعمّاله إلى أمير المؤمنين في وثاق ، وعلى الحال ^(٦) التي استحقّوها من التغير والتنكيل ^(٧) بما كسبت أيديهم ؛ وما الله بظلام للعبيد .

٧٢٩/٣

ثم اعمل بما أمرُك به أمير المؤمنين من الشخصوس إلى سمرقند، ومحاولة ما قبل خامل، ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كُور ما وراء النهر وطُخارستان بالدّعاء إلى الفسيّة والمراجعة ، وبسط أمانات أمير المؤمنين التي حملوها إليهم ؛ فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أمسلك بهم ، وفرّقوا جموعهم ، فهو ما يحبّ أمير المؤمنين أن يعاملهم به من العفو عنهم والإقالة

(١ - ١) س : « وأحكمت ما كان تحت يدك ويجب عليك إحكامه » .

(٢) س : « يأمرُك » .

(٣) ج : « منك عليه » .

(٤) س : « استقصيت » .

(٥) س : « باقية » .

(٦) ج : « التغير والتنكيل » .

(٧) س : « على الحال » .

لهم ؛ إذ كانوا رعيته ؛ وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى طلبيتهم ،
وأمن روعهم ، وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته ، وأمر بإنصافهم في حقوقهم
وظلاماتهم — وإن خالفوا ما ظن أمير المؤمنين ، فحاکهم إلى الله إذ طغوا
وبغوا ، وكرهوا العافية وردوها ؛ فإن أمير المؤمنين قد قضى ما عليه ، فغير
ونكل ، وعزل واستبدل ، وعفا عمن أحدث ، وصفح عن اجترم ؛ وهو يشهد
الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن آثروه ، وعنود^(١) إن أظهروه . وكفى بالله
شهيداً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عليه يتوكل وإليه ينيب . والسلام .
وكتب إسماعيل بن صبيح بين يدي أمير المؤمنين .

• • •

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن العباس بن محمد بن علي ، وكان ٧٣٠/٣
والى مكة .
ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين .

(١) عند عن الطريق — كنصر وسمع وكرم — عنودا ، مال .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان الفداء بين المسلمين والروم على يدى ثابت بن نصر بن مالك.

* * *

[ذكر الخبر عن مسير الرشيد إلى خراسان]

وفيهما وفى الرشيد من الرقة فى السفن مدينة السلام ، يريد (١) الشخوص إلى خراسان لحرب رافع ؛ وكان مصيره ببغداد يوم الجمعة لحمس ليال بقين من شهر ربيع الآخر ، واستخلف بالرقة ابنه القاسم ، وضم إليه خزيمة بن خازم ، ثم شخص من مدينة السلام عشية (٢) الاثنين ، لحمس خلون من شعبان بعد صلاة العصر ، من الخيزرانية ، فبات فى بستان أبى جعفر ، ثم سار (٣) من غد إلى النهروان ، فعسكر هنالك ، ورد حماداً البربرى إلى أعماله ، واستخلف ابنه محمداً بمدينة السلام .

وذكر عن ذى الرياستين أنه قال : قلت للمأمون لما أراد الرشيد الشخوص إلى خراسان لحرب رافع : لست تدري ما يحدث بالرشيد وهو خارج إلى خراسان ، وهى ولايتك ، ومحمد المقدم عليك ! وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك ؛ وهو ابن زبيدة ، وأخواله بنوهاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلب إليه أن يشخصك معه . فسأله الإذن فأبى عليه ، فقلت له : قل له : أنت عليل ؛ وإنما أردت أن أخدمك ، ولست أكلفك شيئاً . فأذن له وسار .

٧٣١/٣

فذكر محمد بن الصباح الطبرى أن أباه شيع الرشيد حين خرج إلى خراسان ، فضى معه إلى النهروان ، فجعل يحادثه (٤) فى الطريق إلى أن قال له : يا صباح ، لأحسبك ترانى أبداً . قال : فقلت : بل يردك الله سالماً ؛ قد فتح (٥) الله

(٢) س : « يوم » .
(٤) ج : « يحادثه » .

(١) س : « يريد » .
(٣) ج : « صار » .
(٥) س : « قد يفتح » .

عليك ، وأراك في عدوك أملك . قال : يا صبايح ، ولا أحسبك تدري ما أجد ! قلت : لا والله ، قال : فتعال حتى أريك ، قال : فانحرف عن الطريق قَدْرَ مائة ذراع ، فاستظلّ بشجرة ، وأومأ إلى خدمه الخاصة فتنحروا ، ثم قال : أمانة الله يا صبايح أن تكتم^(١) عليّ ، فقلت : يا سيدي ، عبدك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد ! قال : فكشف عن بطنه ؛ فإذا عصابة حرير حوالى بطنه ، فقال : هذه علّة أكتمها الناس كلّهم ؛ ولكلّ واحد من ولديّ على رقيب ؛ فسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين - وسمي الثالث فذهب عنى اسمه - وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسي ، ويعدّ أيامي ، ويستطيل عمري^(٢) ، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو بدابة ، فيجيئونني ببرذون أعجف قطوف^(٣) ، ليزيد في علتي ، فقلت : يا سيدي ٧٢٢/٣ ما عندى في الكلام جواب ؛ ولا في ولاية العهود ؛ غير أني أقول : جعل الله من يشنّوك من الجنّ والإنس والقريب والبعيد فداك ؛ وقدّمهم إلى تلك قبلك ، ولا أرانا فيك مكروهاً أبداً ، وعمر بك الله الإسلام ، ودعم ببقائك أركانه ، وشدّ بك أرجاءه ، وردّك الله مظفراً مفلحاً ، على أفضل أمليك في عدوك ، وما رجوت من ربك . قال : أمّا أنت فقد تخلّصت من الفريقين .

قال : ثم دعا ببرذون ، فجاءوا به كما وصف ، فنظر إلى فركبه ، وقال انصرف غير مودّع ؛ فإن لك أشغالا ، فودّعه وكان آخر العهد به .

* * *

وفيها تحرّك الحرّمية بناحية أذربيجان ، فوجّه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فارس ، فأسر وسبى ، ووافاه بقرمّاسين ، فأمر بقتل الأسارى وبيع السبى .

وفيها مات عليّ بن ظبّيان القاضي بقصر اللصوص .

وفيها قدم يحيى بن معاذ بأبي النداء^(٤) على الرشيد وهو بالركة فقتله .

(٢) س : « دهري » .

(٤) س : « الندى » .

(١) ج : « إن كتمت » .

(٣) دابة قطوف : ضاق مشيها .

وفيهما فارق عُجَيف بن عنبسة والأحوص بن مهاجر في عدّة من أبناء الشيعة رافع بن ليث ، وصاروا إلى هرثمة .

وفيهما قُدِمَ بابن عائشة وبعده من أهل أحواف مصر .

وفيهما ولّى ثابت بن نصر بن مالك الثَّغُور^(١) وغزا ، فافتتح مطمورة .

وفيهما كان القداء بالبُـدَـنْـدُون .

وفيهما تحرّك ثُرَوان الحروري ، وقَتَلَ عامل السلطان بطف البصرة .

وفيهما قُدِمَ بعلى بن عيسى بغداد ، فحبس في داره .

وفيهما مات عيسى بن جعفر بطارستان^(٢) - وقيل بالدَّسْكَرة - وهو يريد اللحاق بالرشيد .

٧٣٣/٣

وفيهما قَتَلَ الرشيد الهيصم اليماني^(٣) .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور .

(١) ج : « الثغر » .

(٢) ج : « بطبرستان » .

(٣) ابن الأثير : « الهيصم الكنانى » .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة الفضل بن يحيى]

فمن ذلك وفاة الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في الحبس بالرقّة في المحرم ، وكان بدء علته - فيما ذكر - من ثقل أصابه في لسانه وشيقه ؛ وكان يقول : ما أحبّ أن يموت الرشيد ، فيقال له : أما تحب أن يفرّج الله عنك ! فيقول : إن أمرى قريب من أمره . ومكث يعالج أشهراً ، ثم صلح ، فجعل يتحدث ، ثم اشتدّ عليه فعقد لسانه وطرفه ، ووقع لمآبه ، فكث في تلك الحال يوم الخميس ويوم الجمعة ، وتوفّي مع أذان الغداة ، قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر ؛ وهو في خمس وأربعين سنة ، وجزع الناس عليه ، وصلى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجهم ، ثم أخرج فصلّى الناس على جنازته .

* * *

وفيهما مات سعيد الطبري المعروف بالجوهرى .

* * *

[ذكر الخبر عن مقام الرشيد بطوس]

وفيهما وافى هارون جرجان في صفر ، فوافاه بها خزائن على بن عيسى على ألف بعير وخمسمائة بعير ، ثم رحل من جرجان - فيما ذكر - في صفر ، وهو عليل ، إلى طوس ؛ فلم يزل بها إلى أن توفّي - واتهم هرثة ، فوجّه ابنه المأمون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة إلى مرو ، ومعه عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن يزيد بن مزيد والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسندى ابن الحرشي ونعيم بن حازم ؛ وعلى كتابته وزارته أيوب بن أبي سُمَيْر ، ثم اشتدّ بهارون الوجع حتى ضعف عن السير . وكانت بين هرثة وأصحاب رافع فيها وقعة ، فتّح فيها بخارى ، وأسر

أخا رافع بشير بن الليث، فبعث به إلى الرشيد وهو بطوس؛ فذكر عن ابن جامع المروزي، عن أبيه، قال: كنت فيمن^(١) جاء إلى الرشيد بأخي رافع. قال: فدخل عليه وهو على سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذراع، وعليه فرش بقدر ذلك - أو قال أكثر - وفي يده مرآة ينظر إلى وجهه. قال: فسمعتة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ونظر إلى أخي رافع، فقال: أما والله يا ابن اللّخاء؛ إني لأرجو ألا يفوتني خامل^(٢) - يريد رافعاً - كما لم تفوتني. فقال له: يا أمير المؤمنين، قد كنت لك حربياً، وقد أظفرك الله بي فافعل ما يجب الله، أكن لك مسلماً؛ ولعل الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننت على! فغضب وقال: والله لو لم يبق من أجلك إلا أن أحرّك شفتي بكلمة لقلت: اقتلوه. ثم دعا بقصاب، فقال: لا تشحذ مُدّاك، اتركها على حالها، وفصل هذا الفاسق ابن الفاسق، وعجل؛ لا يحضرن أجلى وعضوان من أعضائه في جسمه. ففصله حتى جعله أشلاء. فقال: عدّ أعضاءه،^(٣) فعددت له أعضاءه^(٣)، فإذا هي أربعة عشر عضواً، فرفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم كما مكنتني من ثأرك وعدوك، فبلغت فيه رضاك، فكنتني من أخيه. ثم أغشى عليه، وتفرّق من حضره.

٧٣٥/٣

* * *

[ذكر الخبر عن موت الرشيد]

وفيها مات هارون الرشيد.

* ذكر الخبر عن سبب وفاته والموضع الذي توفّي فيه :

ذكر عن جبريل بن بختيشوع أنه قال: كنت مع الرشيد بالرقّة، وكنت أوّل من يدخل عليه في كلّ غداة، فأتعرّف^(٤) حاله في ليلته؛ فإن كان أنكر شيئاً وصفه، ثم ينسبط فيحدثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه، ومقدار شربه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها؛ فدخلت عليه في غداة يوم، فسلمت فلم يكده يرفع طرفه، ورأيت عابساً مفكراً

(٢) س: « حامل ».

(٤) ج: « فأعرف ».

(١) س: « بمن ».

(٣-٣) س: « فعدت أعضاؤه ».

مهموماً ، فوقفت بين يديه ملياً من النهار ، وهو على تلك الحال ؛ فلما طال ذلك أقدمتُ عليه ، فقلت : يا سيدى ، جعلنى الله فداك ! ما حالك هكذا ، أعلّة فأخبرنى بها ؛ فلعله يكون عندى دواؤها ، أو حادثة فى بعض مَنْ تحبّ فذاك ما لا يُدفع ولا حيلة فيه إلا التسليم والغمّ ، لادرك فيه ، أو فتشّى ورد عليك فى مُلكك ، فلم تخلُ الملوك من ذلك ؛ وأنا أولى من أفضيتْ إليه بالخبر ، وتروّحتْ إليه بالمشورة . فقال : ويحك يا جبريل ! ليس غمّى وكربى لشيء مما ذكرت ، ولكن لرؤيا رأيتها فى ليلتى هذه ، وقد أفرغتنى وملأت صدرى ، وأقرحت^(١) قابى ، قلت : فرجتْ عنى يا أمير المؤمنين ؛ فدنوتُ منه ، فقبلت رجله ، وقلت : أهذا الغمّ كله لرؤيا ! الرؤيا إنما تكون من خاطر أو بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء ؛ وإنما هى أضغاث أحلام بعد هذا كله . قال : فأقصتها عليك ، رأيت كأنى جالس على سريرى هذا ؛ إذ بدت من تحتى ذراع أعرفها وكفّ أعرفها ، لا أفهم اسم صاحبها ، وفى الكفّ تربة حمراء ، فقال لى قائل أسمعه ولا أرى شخصه : هذه التربة التى تُدفن فيها ، فقلت : وأين هذه التربة ؟ قال : بطوس . وغابت اليد وانقطع الكلام ، وانتهت . فقلت : يا سيدى ، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة ، أحسبك أخذت مضجعتك ، ففكرت فى خراسان وحروبها وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها . قال : قد كان ذاك ، قال : قلت : فلذلك^(٢) الفكر خالطك فى منامك ما خالطك ، فولد هذه الرؤيا ، فلا تحفّل بها جعلنى الله فداك ! وأتبع هذا الغمّ^(٣) سروراً ، يخرج من قلبك لا يولد علة . قال : فما برحت أطيّب نفسه بضروب من الحيل ، حتى سلا وانبسط^(٤) ، وأمر بإعداد ما يشتهي ، ويزيد فى ذلك اليوم فى لهوه . ومرت الأيام فَنسى ، ونسينا تلك الرؤيا ، فما خطرت لأحد منا ببال ، ثم قدّر مسيره إلى خراسان حين خرج^(٥) رافع ، فلما صار فى بعض الطريق ، ابتدأت بيه العلة فلم تنزل تتزايد^(٦) حتى دخلنا طُوس ، فترلنا فى منزل الجنيد بن

(٢) س : « فقلت لذلك » .

(١) كذا فى ج ، وفى ط : « أفرجت » .

(٤) س : « فانبسط » .

(٣) ج : « ألهم » .

(٦) س : « تزايد » .

(٥) ج : « تحرك » .

عبد الرحمن في ضيعة له تعرف بسناباذ ، فبينما هو يمرض في بستان له في ذلك القصر إذ ذكر تلك الرؤيا ، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط ؛ فاجتمعنا إليه ؛ كل يقول : يا سيدي ما حالك ؟ وما دهالك ؟ فقال : يا جبريل ، تذكر رؤياي بالرقعة في طُوس ؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور ، فقال : جئني من تربة هذا البستان ، فضي مسرور ، فأتي بالتربة في كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر إليه قال : هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي ، وهذه والله الكف بعينها ، وهذه والله التربة الحمراء ما خربت شيئاً ؛ وأقبل على البكاء والنحيب . ثم مات بها والله بعد ثلاثة ، ودفن^(١) في ذلك البستان .

٧٣٧/٣

وذكر بعضهم أن جبريل بن بختيشوع كان غلط على الرشيد في علته في علاج عاجله به ، كان سبب منيته ؛ فكان الرشيد هم ليلة مات بقتله ، وأن يفصله كما فصل أخا رافع ، ودعا بجبريل ليفعل ذلك به ، فقال له جبريل : أنظرنى إلى غدٍ يا أمير المؤمنين ، فإنك ستصبح في عافية . فمات في ذلك اليوم .

وذكر الحسن بن عليّ الرّبعي أن أباه حدثه عن أبيه — وكان جملاً معه مائة جمل ، قال : هو حمل^(٢) الرشيد إلى طُوس — قال : قال الرشيد : احفروا لي قبراً قبل أن أموت ، فحفروا له ، قال : فحملته في قبة أقود به ؛ حتى نظر إليه . قال ، فقال : يابن آدم تصير إلى هذا !

وذكر بعضهم أنه لما اشتدت به العلة أمر بقبوره فحفر في موضع من الدار التي كان فيها نازلاً ، بموضع يسمى المثقب ، في دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فلما فرغ من حفر القبر ، أنزل فيه قومًا فقرأوا فيه القرآن حتى ختموا ، وهو في محفة على شفير القبر .

وذكر محمد بن زياد بن محمد بن حاتم بن عبيد الله بن أبي بكرة ، أن سهل بن صاعد حدثه ، قال : كنت عند الرشيد في بيته الذي قبض فيه ، وهو يجود بنفسه ، فدعا بمحففة غليظة فاحتجى بها ، وجعل يقاسي

٧٣٨/٣

ما يقاسى ؛ فنهضت فقال لى : اقعد يا سهل ، فقعدت وطال^(١) جلوسى لا يكلمنى ولا أكلمه ، والمَلْحفة تنحلّ فيعيد الاحتباء بها ، فلما طال ذلك نهضت ، فقال لى : إلى أين يا سهل ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ما يسع^(٢) قلبي أن أرى أمير المؤمنين يعانى من العلة ما يعانى ؛ فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين كان أرواح^(٣) لك ! قال : فضحك ضحك صحيح ، ثم قال : يا سهل إني أذكر فى هذه الحال قول الشاعر :

وَلَمَّا نِيَّ مِنْ قَوْمٍ كِرَامٍ يَزِيدُهُمْ
شِمَاسًا وَصَبْرًا شِدَّةَ الْحَدَثَانِ

وذكر عن مسرور الكبير ، قال : لما حضرت الرشيد الوفاة ، وأحسن بالموت ، أمرنى أن أنشر^(٤) الوشى فأتيت به بأجود ثوب أقدر عليه وأغلاه قيمة ، فلم أجده ذلك فى ثوب واحد ، ووجدت ثوبين أغلبنى شىء قيمة ، وجدتهما متقاربين فى أثمانهما ، إلا أن أحدهما أغلبنى من الآخر شيئاً ، وأحدهما أحمر والآخر أخضر ، فجئته بهما ، فنظر إليهما وخبرته قيمتهما ، فقال : اجعل أحسنهما كفى ، وردّ الآخر إلى موضعه .

وتوفى - فيما ذكر - فى موضع يدعى المثقّب ، فى دار حميد بن أبى غانم ، نصف الليل ؛ ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه صالح ، وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح ، ومن خدمه مسرور وحسين ورشيد .

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، أولها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، وآخرها ليلة السبت لثلاث ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

٧٣٩/٣

وقال هشام بن محمد : استخلف أبو جعفر الرشيد هارون بن محمد ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة ، وتوفى ليلة الأحد غرة جمادى الأولى وهو ابن

(١) س : « فطال » .
(٢) س : « يتسع » .
(٣) س : « أودع » .
(٤) س : « أنش » .

خمس وأربعين سنة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فلك ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً .

وقيل : كان سنّه يوم توفّي سبعمائة وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، أولها ثلاث بقين من ذى الحجة سنة خمسين وأربعين ومائة ، وآخرها يومان مضيا من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وكان جميلاً وسيماً أبيض جَعْدًا ، وقد وَخَطَهُ الشيب .

* * *

ذكر ولاية الأمصار في أيام هارون الرشيد

ولاية المدينة : إسحاق بن عيسى بن عليّ ، عبد الملك بن صالح بن عليّ ، محمد بن عبد الله ، موسى بن عيسى بن موسى ، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، عليّ بن عيسى بن موسى ، محمد بن إبراهيم ، عبد الله بن مُصعب الزبيرى ، بكّار بن عبد الله بن مصعب ، أبو البسخريّ وهب بن وهب .

ولاية مكة : العباس بن محمد بن إبراهيم ، سليمان بن جعفر بن سليمان ، موسى بن عيسى بن موسى ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، عبد الله بن قُثَم ، ابن العباس ، محمد بن إبراهيم ، عبيد الله بن قُثَم ، عبد الله بن محمد بن عمران ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، العباس بن موسى بن عيسى ، عليّ بن موسى بن عيسى ، محمد بن عبد الله العثمانيّ ، حماد البربرى ، سليمان بن جعفر ابن سليمان ، أحمد بن إسماعيل بن عليّ ، الفضل بن العباس بن محمد .

٧٤٠/٣

ولاية الكوفة : موسى بن عيسى بن موسى ، يعقوب بن أبي جعفر ، موسى ابن عيسى بن موسى ، العباس بن عيسى بن موسى ، إسحاق بن الصباح الكنديّ ، جعفر بن جعفر بن أبي جعفر ، موسى بن عيسى بن موسى ، العباس بن عيسى بن موسى ، موسى بن عيسى بن موسى .

ولاية البصرة : محمد بن سليمان بن عليّ ، سليمان بن أبي جعفر ، عيسى ابن جعفر بن أبي جعفر ، خزيمة بن خازم ، عيسى بن جعفر ، جرير بن يزيد ، جعفر بن سليمان ، جعفر بن أبي جعفر ، عبد الصمد بن عليّ ، مالك

ابن عليّ الخزاعي ، إسحاق بن سليمان بن عليّ ؛ سليمان بن أبي جعفر ، عيسى
ابن جعفر ، الحسن بن جميل مولى أمير المؤمنين ؛ إسحاق بن عيسى بن عليّ .
ولاية خراسان : أبو العباس الطوسيّ ، جعفر بن محمد بن الأشعث ،
العباس بن جعفر ، الغطريف بن عطاء ، سليمان بن راشد على الخراج ، حمزة
ابن مالك ، الفضل بن يحيى ، منصور بن يزيد بن منصور ، جعفر بن يحيى
خليفته بها ، عليّ بن الحسن بن قحطبة ، عليّ بن عيسى بن ماهان ،
هرثمة بن أعين .

* * *

ذكر بعض سير الرشيد

ذكر العباس بن محمد عن أبيه ، عن العباس ، قال : كان الرشيد يصلّي
في كلّ يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ؛ إلا أن تعرض له علة ، وكان
يتصدق من صلّب ماله في كلّ يوم بألف درهم بعد زكاته ، وكان إذا حجّ
حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة
السابعة والكسوة الباهرة^(١) ، وكان يقتنى آثار المنصور ، ويطلب العمل بها
إلاّ في بذل المال ؛ فإنه لم يرّ خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، ثمّ المأمون من
بعده . وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ، ولا يؤخّر ذلك في أوّل ما يجب
ثوابه . وكان يحبّ الشعراء والشعر ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره
المراء^(٢) في الدين ، ويقول : هو شيء لا نتيجة له ، وبالحرى ألا يكون فيه ثواب ،
وكان يحبّ المديح ؛ ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتره بالثمن الغالي .

وذكر ابن أبي حفصة أن مروان بن أبي حفصة دخل عليه في سنة إحدى
وثمانين ومائة يوم الأحد لثلاث^(٣) خلون من شهر رمضان ، فأنشده شعره الذي
يقول فيه :

وَسَدَّتْ بِهَارُونَ الثُّغُورُ فَأُحْكِمَتْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَاثِرُ

(٢) ج : « المرائين » .

(١) س : « الطاهرة » .

(٣) س : « لست » .

له عسكرٌ عنه تُشْطَى العساكرُ
على الرغمِ قسراً عن يدٍ وهو صاغِرُ
كَأَن لَمْ يُدْمَنَّهُ مِنَ النَّاسِ حَاضِرُ^(١)
فكابرُهُ فيها أَلَجٌ مُكَابِرُ
إلى مثلِ هَارُونَ الْعَيُونُ النَّوَاطِرُ
كَمَا حَقَّتِ الْبَدْرُ النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ
وَكِلْتَاهُمَا بَحْرٌ عَلَى النَّاسِ زَاخِرُ
عَلَيْهِمْ بِكَفَيِّكَ الْغُيُومُ الْمَوَاطِرُ^(٢)
قُرَيْشٌ ، كَمَا أَلْقَى عَصَاهُ الْمُسَافِرُ
فَأَنْتَ لَهَا بِالْحَزَمِ طَاوٍ وَنَاشِرُ
إِلَى أَهْلِهِ صَارَتْ بِهِنَّ الْمَصَايِرُ
فَلَا الْعُرْفُ مَنْزُورٌ وَلَا الْحُكْمُ جَائِرُ
إِذَا غَابَ نَجْمٌ لَاحَ آخِرُ زَاهِرُ
أَوَائِلُ مَنْ مَعْرِوْفِكُمْ وَأَوَاخِرُ
مَدَى شُكْرٍ نُعْمَاكُمْ وَإِنِّي لَشَاكِرُ
وَذُو نَهْلٍ بِالرَّيِّ عَنْهُمْ صَادِرُ
صُدُورُ الْعَوَالِي وَالسُّيُوفُ الْبَوَاتِرُ
وَطَوْرًا بِأَيْدِيهِمْ تُهْزُ الْمَخَاصِرُ^(٣)
بِهِمْ لِلْعَطَايَا وَالْمَنَايَا بَوَادِرُ
أَسْرَتُهُ مُخْتَالَةٌ وَالْمَنَابِرُ

وما انفكَّ مَعْقُودًا بِنَصْرِ لَوَاؤُهُ
وَكُلَّ مُلُوكِ الرُّومِ أَعْطَاهُ جَزِيَّةً
لَقَدْ تَرَكَ الصَّفْصَافَ هَارُونَ صَفْصَافاً
أَنَاخَ عَلَى الصَّفْصَافِ حَتَّى اسْتَبَاحَهُ
إِلَى وَجْهِهِ تَسْمُو الْعُيُونُ وَمَا سَمَتْ
تَرَى حَوْلَهُ الْأَمْلَاقَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
يَسُوقُ يَدَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ كِرَامُهَا^(٤)
إِذَا فَقَدَ النَّاسُ الْغَمَامَ تَتَابَعَتْ
عَلَى ثِقَةٍ أَلْقَتْ إِلَيْكَ أُمُورَهَا^(٥)
أُمُورٌ بِمِيرَاثِ النَّبِيِّ وَلَيْتَهَا
إِلَيْكُمْ تَنَاهَتْ فَاسْتَقَرَّتْ وَإِنَّمَا
خَلَفَتْ لَنَا الْمَهْدِيَّ فِي الْعَدْلِ وَالنَّدَى
وَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ نُجُومٌ مُضِيئَةٌ
عَلَى بَنِي سَاقِ الْحَجِيجِ تَتَابَعَتْ
فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَتَقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بِالْعَا^(٦)
وَمَا النَّاسُ إِلَّا وَارِدٌ لِحِيَاضِكُمْ^(٧)
حُصُونُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي كُلِّ مَازِقٍ
فَطَوْرًا يَهْزُونَ الْقَوَاطِعَ وَالْقَنَا
بِأَيْدِي عِظَامِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ لَا تَنِي
لِيَهْنِكُمْ الْمُلْكُ الَّذِي أَصْبَحْتَ بِكُمْ

٧٤٢/٣

٧٤٣/٣

(٢) ج : « يسوف يديه » .

(٤) س : « أَلْقَتْ عَلَيْكَ » .

(٦) س : « بجياضكم » .

(١) ا : « كان لم يكن » .

(٣) ا ، س : « الغيوث المواطر » .

(٥) س : « وأصبحت » .

(٧) ط : « المحاضر » ، والصواب ما أثبتته من ا .

أَبُولَكَ وَلِيَّ الْمُصْطَفَى دُونَ هَاشِمٍ وَإِنْ رَغِمَتْ مِنْ حَاسِدِيكَ الْمَنَاخِرُ

فأعطاه خمسة آلاف^(١) دينار، فقبضها بين يديه وكساه خلعتة، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاصّ مراكبه.

وذُكر أنه كان مع الرشيد ابنُ أبي مريم المدني، وكان مضحكاً^(٢) له محدثاً فكيفها، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملّ محادثته^(٣)؛ وكان ممّن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد الحبان، فبلغ من خاصّته بالرشيد أن بوّاه منزلاً في قصره، وخلطه بحُرّمه وبطانته ومواليه وغلمانته؛ فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائماً، فكشف اللحاف عن ظهره^(٤)، ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عمّلك، قال: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي. فضى وتركه نائماً، وتأهّب الرشيد للصلاة، فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابه، ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فأنتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾^(٥) فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب، فقال: يابن أبي مرّيم، في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعت؟ قال: قطعت على صلاتي، قال: والله ما فعلت؛ إنما سمعت منك كلاماً غمّني حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله! فعاد فضحك، وقال: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما.

وذكر بعضُ خدام الرشيد أن العباس بن محمد أهدى غالبية إلى الرشيد، فدخل عليه وقد حملها معه، فقال: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك! قد جئت بك بغالية ليس لأحد مثلها، أما ميسكها فن سرّر الكلاب التبتية

(٢) ج، ١: «مضحكاً».

(٤) س: «عنه».

(١) س وابن الأثير «عشرة آلاف».

(٣) س: «عن محادثته».

(٥) سورة يس ٢٢

العتيقة ، وأما عَسْبَرُهَا فَمِنْ عَنبرٍ بَحْرٍ عَدَنَ ، وأما بَانُهَا فَمِنْ فُلَانٍ المَدَنِيِّ المعروف
بجودة عَمَلِهِ ، وأما مَرَكَبُهَا فإِنْسَانٌ بالبصرة عالم بتأليفها ، حاذق بتركيبها ، فإن
رَأَى أميرَ المؤمنين أَن يَمُنَّ عَلَى بَقِيوْهَا فَعَلَ ، فقال الرشيد لخاقان الخادم وهو
على رأسه : يَا خَاقَانُ ، أَدْخِلْ هَذِهِ الْغَالِيَةَ ؛ فَأَدْخَلَهَا خَاقَانُ ، فَإِذَا هِيَ فِي
بَرْئِيَّةٍ ^(١) عَظِيمَةٍ مِنْ فَضَّةٍ ، وَفِيهَا مِلْعَقَةٌ ، فَكَشَفَ عَنْهَا وَابْنُ أَبِي مَرْيَمٍ حَاضِرٌ ،
فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبِّهَا لِي ، قَالَ : خُذْهَا إِلَيْكَ . فَاعْتَاطَ الْعَبَّاسُ ،
وَطَارَ أَسْفًا ، وَقَالَ : وَيْلَكَ ! عَمَدْتَ إِلَى شَيْءٍ مَنَعْتُهُ نَفْسِي ، وَآثَرْتُ بِهِ
سَيْدِي فَأَخَذْتَهُ ! فَقَالَ : أُمِّهِ فَاعِلَةٌ إِنْ دَهَنَ بِهَا إِلَّا اسْتَه ! قَالَ : فَضَحِكَ
الرَّشِيدُ ، ثُمَّ وَثَبَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمٍ ، فَأَلْقَى طَرَفَ قَمِيصِهِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَدْخَلَ يَدَهُ
فِي الْبَرْئِيَّةِ ، فَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنْهَا مَا حَمَلَتْ يَدُهُ ، فَيَضَعُهُ فِي اسْتِهِ مَرَّةً وَفِي
أَرْفَاقِهِ وَمَغَابِنِهِ أُخْرَى ، ثُمَّ سَوَدَ بِهَا وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ وَأَطْرَافَهُ ، حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ
جَوَارِحِهِ ، وَقَالَ لَخَاقَانَ : أَدْخِلْ إِلَيَّ غِلَامِي ، فَقَالَ الرَّشِيدُ وَمَا يَعْقِلُ مِمَّا هُوَ
فِيهِ مِنَ الضَّحْكَ ، ادْعُ غِلَامَهُ ، فَدَعَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ بِهَذِهِ الْبَاقِيَةِ ^(٢) ،
إِلَى فِلَانَةٍ ، أَمْرَاتِهِ ، فَقُلْ لَهَا : اذْهَبِي بِهَذَا حِرْكَ إِلَى أَنْ أَنْصَرَفَ فَأُنِيكَكَ . فَأَخَذَهَا
الْغِلَامُ وَمَضَى ، وَالرَّشِيدُ يَضْحَكُ ، فَذَهَبَ بِهِ الضَّحْكَ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ
فَقَالَ : وَاللَّهِ أَنْتَ شَيْخٌ أَحْمَقُ ، تَجِيءُ إِلَى خَلِيفَةِ اللَّهِ فَتُمَدِّحُ عَنْدهُ غَالِيَةً !
أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَمْطُرُ السَّمَاءُ وَكُلَّ شَيْءٍ تَخْرُجُ الْأَرْضُ لَهُ ، وَكُلَّ شَيْءٍ
هُوَ فِي الدُّنْيَا فَلَيْكَ يَدُهُ ، وَتَحْتَ خَاتَمِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ ! وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ قِيلَ
لِمَلِكِ الْمَوْتِ : انْظُرْ كُلَّ شَيْءٍ يَقُولُ لَكَ هَذَا فَأَنْفَذَهُ ، فَفَعَلَ هَذَا تُمَدِّحُ عَنْدهُ
الْغَالِيَةَ ، وَيَخْطُبُ فِي ذِكْرِهَا ، كَأَنَّهُ يَقَالُ أَوْعِطَارُ أَوْ تَمَّارُ ! قَالَ : فَضَحِكَ
الرَّشِيدُ حَتَّى كَادَ يَنْقَطِعُ نَفْسُهُ ، وَوَصَلَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمِائَةِ
أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وذكر عن زيد بن علي بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي
ابن أبي طالب ، قال : أراد الرشيد أن يشرب الدواء يومًا ، فقال له ابن
أبي مريم : هل لك أن تجعلني حاجبك غدًا عند أخذك الدواء ؛ وكل شيء

(٢) س : « الباطية » .

(١) البرنية في الأصل : إنا من خنزف .

أَكْسِبَهُ فَهُوَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟ قَالَ : أَفْعَلُ ، فَبَعَثَ إِلَى الْحَاجِبِ : الزَّمْ غَدَاً مَنْزِلَكَ ؛ فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ ابْنَ أَبِي مَرْيَمَ الْحِجَابَةَ . وَبَكَرَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ ، فَوَضَعَ لَهُ الْكَرْسِيَّ ، وَأَخَذَ الرَّشِيدَ دَوَاءً ، وَبَلَغَ الْخَبَرَ بِطَانَتَهُ ، فَجَاءَ رَسُولُ أُمِّ جَعْفَرٍ يَسْأَلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنْ دَوَائِهِ ، فَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ ، وَتَعَرَّفَ حَالَهُ وَانصَرَفَ بِالْجَوَابِ ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ : أَعْلِمِ السَّيِّدَةَ مَا فَعَلْتُ فِي الْإِذْنِ لَكَ قَبْلَ النَّاسِ ؛ فَأَعْلَمَهَا ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ يُحْيَى بْنِ خَالِدٍ ، فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ جَعْفَرٍ وَالْفَضْلِ ، فَفَعَلَ كَذَلِكَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَرَامِكَةِ بِصِلَةٍ جَزِيلَةٍ ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ فَدَّاهُ وَلَمْ يَأْذِنْ لَهُ ، وَجَاءَتْ رَسُلُ الْقَوَادِ وَالْعِظَمَاءِ ؛ فَمَا أَحَدٌ سَهَّلَ إِذْنَهُ إِلَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِصِلَةٍ جَزِيلَةٍ ؛ فَمَا صَارَ الْعَصْرَ حَتَّى صَارَ إِلَيْهِ سِتُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّشِيدُ مِنَ الْعَلَةِ ، وَنَقَى بَدَنَهُ مِنَ الدَّوَاءِ دَعَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ فِي يَوْمِكَ هَذَا ؟ قَالَ : يَا سَيِّدِي ، كَسَبْتُ سِتِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَاسْتَكْبَرْتُهَا وَقَالَ : وَأَيْنَ ^(١) حَاصِلِي ؟ قَالَ : مَعْرُورٌ ، قَالَ : قَدْ سَوَّغْنَاكَ حَاصِلِنَا ؛ فَأَهْدِ إِلَيْنَا عَشْرَةَ آلَافٍ تَفَاحَةً ، فَفَعَلَ ، فَكَانَ أَرْبَحَ مَنْ تَاجَرَ الرَّشِيدَ .

وَذَكَرَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ صَبِيحٍ ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَإِذَا ^(٢) جَارِيَةٌ عَلَى رَأْسِهِ ، وَفِي يَدَيْهَا صَحِيفَةٌ ^(٣) وَمِلْعَقَةٌ فِي يَدَيْهَا ^(٤) الْأُخْرَى ، وَهِيَ تَلْعَقُهُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، قَالَ : فَظَنَنْتُ إِلَى شَيْءٍ أَبْيَضَ رَقِيقٌ فَلَمْ أَدْرَ مَا هُوَ ! قَالَ : وَعَلِمَ أَنَّي أَحَبُّ أَنْ أَعْرِفَهُ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ ، قُلْتُ : لَبِيكَ يَا سَيِّدِي ، قَالَ : تَدْرِي مَا هَذَا ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : هَذَا جَشِيشٌ ^(٥) الْأَرَزُ وَالْحَنْظَةُ وَمَاءُ نُسْخَالَةِ السَّمِيدِ ؛ وَهُوَ نَافِعٌ لِلْأَطْرَافِ الْمَعُوجَةِ وَتَشْنِيجِ الْأَعْصَابِ وَيَصْفَى الْبَشَرَةَ ، وَيَذْهَبُ بِالْكَلْفِ ، وَيَسْمَنُ الْبَدَنَ ، وَيَجْلُو الْأَوْسَاحَ . قَالَ : فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةً حِينَ انصَرَفْتَ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُ الطَّبَاحَ ؛ فَقُلْتُ : بَكَرَ عَلَى كُلِّ غَدَاةٍ بِالْجَشِيشِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَوُصِفْتُ لَهُ الصِّفَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا . قَالَ : تَضْمَجُ مِنْ هَذَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، فَعَمِلِهِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَاسْتَطْبَعْتُهُ ،

(٢) س : « وَإِذَا » .

(٤) ج : « الْيَدِ » .

(١) س : « أَيْنَ » بِدُونِ وَاوٍ .

(٣) ج : « صَفْحَةٌ » .

(٥) الْجَشِيشُ : السَّوِينُ .

وعمله في اليوم الثاني فصار دونه ، وجاء به في اليوم الثالث ، فقلت : لا تُقدِّمهُ .

وذكر أن الرشيد اعتلّ علة ، فعالجه الأطباء ، فلم يجد من علته إفاقة ، فقال له أبو عمر الأعجمي : بالهند طبيب يقال له مَسْكَة ؛ رأيتهم يقدمونه على كل من بالهند ؛ وهو أحد عبّادهم وفلاسفتهم ، فلو بعث إليه أمير المؤمنين لعلّ الله أن يبعث له الشفاء على يده ! قال : فوجه الرشيد من حملته ، ووجهه إليه بصلة تعينه على سفره . قال : فقدم فعالج الرشيد فبرئ من علته بعلاجه ، فأجرى له رزقاً واسعاً وأموالاً كافية ، فبينما مَسْكَة ماراً بالهند ؛ إذا هو برجل من المانيّين قد بسط كساءه ، وألقى عليه عقاقير كثيرة ، وقام يصف دواء عنده معجوزاً ، فقال في صفته : هذا دواء للحمى الدائمة وحمى الغيب وحمى الربيع ، والمثلثة ؛ ولوجع الظهر والركبتين والبواسير والرياح ، ولوجع المفاصل ووجع العينين ، ولوجع البطن والصّداع والشقيقة ولتقطير البول والفالج والارتعاش ؛ فلم يدع علة في البدن إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاء منها ، فقال مَسْكَة لترجمانه : ما يقول هذا ؟ فترجم له ما سمع ، فتبسّم مَسْكَة ، وقال : على كل حال ملك العرب جاهل ؛ وذلك أنه إن كان الأمر على ما قال (٢) هذا ، فلم حملني من بلادى ، وقطعني عن أهلى ، وتكلّف الغليظ من مؤنّى ، وهو يجد هذا نصب عينه (٣) ويلزائه ! وإن كان الأمر ليس كما يقول هذا فلم لا يقتله ! فإن الشريعة قد أباحت دمه ودم من أشبهه ؛ لأنه إن قُتل ، فإنما هى نفس يحيا بقتلها خلقت كثير ؛ وإن ترك هذا الجاهل (٤) قتل في كل يوم نفساً ، وبالحرى أن يقتل اثنتين وثلاثاً وأربعاً في كل يوم ؛ وهذا فساد في التدبير ، ووهن في المملكة .

٧٤٨/٣

وذكر أن يحيى بن خالد بن برمك ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج بالسّواد ، فدخل إلى الرشيد يودّعه ؛ وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى وجعفر : أوصياه ، فقال له يحيى : وقّر واعمر ، وقال له جعفر : أنصِفْ

(١) الشقيقة : مرض يأخذ نصف الرأس والوجه . (٢) س : « كما قال » .

(٣) ج : « عينيه » . (٤) ج : « بهذا الجهل » .

وانتصف ، فقال له الرشيد : اعدل وأحسن .

وذكر عن الرشيد أنه غضب على يزيد بن يزيد الشيباني ، ثم رضى عنه ، وأذن له ، فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ الحمد لله الذى سهل لنا سبيل الكرامة ، وحل لنا ^(١) النعمة بوجه لقائك ، وكشف عنا صُبابة الكرب بإفضالك ، فجزاك الله فى حال سخطك رضا المنيبين ، وفى حال رضاك جزاء المنعمين الممتنين المتطولين ؛ فقد جعلك الله وله الحمد ، تثبتت تحرجاً عند الغضب ، وتطول ممتناً بالنعم ، وتعفو عن المسيء تفضلاً بالعفو .

وذكر مصعب بن عبد الله الزبيرى أن أباه عبد الله بن مصعب أخبره ^(٢) أن الرشيد قال له : ما تقول فى الذين طعنوا على عثمان ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، طعن عليه ناس ؛ وكان معه ناس ؛ فأما الذين طعنوا عليه فنفروا عنه ؛ فهم ^(٣) أنواع الشيع ، وأهل البدع ، وأنواع الخوارج ؛ وأما الذين كانوا معه فهم أهل الجماعة إلى اليوم . فقال لى : ما أحتاج أن أسأل بعد هذا اليوم ^(٤) عن هذا .

قال مصعب : وقال أبى - وسألنى عن منزلة أبى بكر وعمر كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقلت له : كانت منزلتهما فى حياته منه منزلتهما فى مماته ، فقال : كفيتهنى ما أحتاج إليه .

قال : وولّى سلام ، أورشيد الخادم - بعض خدام الخاصة - ضياع الرشيد بالثغور والشامات ، فتواترت الكتب بحسن سيرته وتوفيره ^(٥) وحمد الناس له ، فأمر الرشيد بتقديمه والإحسان إليه ، وضمّ ما أحب أن يضمّ إليه من ضياع الجزيرة ومصر . قال : فقدّم فدخل عليه وهو يأكل سَفَرَجَلاً قد أتى به من بلخ ؛ وهو يقشره ويأكل منه ، فقال له : يا فلان ، ما أحسن ما انتهى إلى مولاك عنك ، ولك عنده ما تحبّ ، وقد أمرت لك بكذا وكذا ، ولّيتك كذا وكذا ، فسل حاجتك ، قال : فتكلّم وذكر حسن سيرته ، وقال : أنسيتهم ^(٦) ٧٥٠/٣

(٢) س : « حدثه » .

(٤) ج : « إلى هذا اليوم » .

(١) س : « وحلّنا » .

(٣) ج : « فمهم » .

(٥) ط : « توفيره » .

والله يا أمير المؤمنين سيرة العُمرين . قال : فغضب واستشاط ، وأخذ سفرجلة فرماه بها ، وقال : يا بن اللخناء ، العمرين ، العمرين ، العمرين ! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز ، نحتملها لعمر بن الخطاب !

وذكر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، أن أبا بكر بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز حدثه ، عن الضحّاك بن عبد الله ، وأثنى عليه خيراً ؛ قال : أخبرني بعضُ ولد عبد الله بن عبد العزيز ، قال : قال الرّشيد : والله ما أدرى ما أمر في هذا العُمري ! أكره أن أقدم عليه وله خلف أكرههم ؛ وإنّي لأحب أن أعرف طريقته ومذهبه ، وما أثق بأحد أبعد إليه ، فقال عمر بن بزيع والفضل ابن الربيع : فنحن يا أمير المؤمنين ، قال : فأنتم ، فخرجنا من العرّج إلى موضع من البادية يقال له خلّص ، وأخذنا معهما أدلاء من أهل العرّج ؛ حتى إذا وردا عليه في منزله أتياه مع الضحى ؛ فإذا هو^(١) في المسجد ، فأناخا راحليهما ومن كان معهما من أصحابهما ، ثم أتياه على زى الملوك من الرّيح والثياب والطيب ؛ فجلسا إليه وهو في مسجد له ، فقالا له : يا أبا عبد الرحمن ، نحن رسل من خلفنا من أهل المشرق ، يقولون لك : اتق الله ربك ؛ فإذا شئت فقم . فأقبل عليهما ، وقال : ويحكمما فيمن ولمن ! قال : أنت ، فقال : والله ما أحب أنى لقيت الله بمحجمة دم امرئ مسلم ، وأنّ لى ما طلعت عليه الشمس ؛ فلما أيسا منه قال : فإنّ معنا شيئاً تستعين به على دهرك ، قال : لا حاجة لى فيه ، أنا عنه فى غنى ، فقالا له : إنها عشرون ألف دينار ، قال : لا حاجة لى فيها ، قال : فأعطها من شئت ، قال : أنتم ، فأعطياها من رأيتما ، ما أنا لكما بخادم ولا عون . قال : فلما يشا منه ركبا راحليهما^(٢) حتى أصبحا مع الخليفة بالسّتيا فى المنزل الثانى ، فوجدا الخليفة ينتظرهما ؛ فلما دخلا عليه حدّثاه بما كان بينهما وبينه ، فقال : ما أبالى ما أصنع بعد هذا . فحجّ عبد الله فى تلك السنة ، فبينما هو واقف على بعض أولئك الباعة يشتري لصبياناه ؛ إذا هارون يسعّى بين الصّفا والمروة على دابة ، إذ عرض له عبد الله

٧٥١/٣

وترك مايريد ، فأتاه حتى أخذ بلجام دابته ، فأهوت إليه الأجناد والأحراس ، فكفّتهم عنه هارون فكلّمه . قال : فرأيتُ دموعَ هارون ؛ وإنها لتسيل على معرّفة دابته ، ثم انصرف .

وذكر محمد بن أحمد مولّى بنى سليم قال : حدثني الليث بن عبد العزيز الجوزجاني - وكان مجاوراً بمكة أربعين سنة - أن بعض الحجابة حدثه أن الرشيد لما حجّ دخل الكعبة ، وقام على أصابعه ، وقال : يا مَنْ يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك ردّاً حاضراً ، وجواباً عتيداً ، ولكل صامت منك علمٌ محيطٌ بما عيذك الصداقة ، وأياديك الفاضلة ؛ ورحمتك الواسعة . صلّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لنا ذنوبنا وكفرّ عنا سيئاتنا . يا مَنْ لا تضرّه الذنوب ، ولا تخفى عليه العيوب ، ولا تنقصه مغفرة الخطايا . يا من كبس الأرض على الماء ، وسدّ الهواء بالسماء ، واختار لنفسه الأسماء ، صلّ على محمد ، وخير لي في جميع أمري . يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات ؛ إن من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفيتني ، وصرت في لحدى ، وتفرّق عني أهلي وولدي . اللهم لك الحمد حمداً يفضّل على كل حمد كفضلك على جميع الخلق . اللهم صلّ على محمد صلاة تكون له رضاءً ، وصلّ على محمد صلاة تكون له حرزاً ، واجزه عنا خير الجزاء في الآخرة والأولى . اللهم أحيّنّا سعداء وتوفّنّا شهداء ، واجعلنا سعداء مرزوقين ، ولا تجعلنا أشقياء محرومين !

وذكر عليّ بن محمد عن عبد الله ، قال : أخبرني القاسم بن يحيى ، قال : بعث الرشيد إلى ابن أبي داود والذين يخدمون قبر الحسين بن عليّ في الحائر ، قال : فأتيتهم بهم ، فنظر إليه الحسن بن راشد ، وقال : ما لك ؟ قال : بعث إليّ هذا الرجل - يعني الرشيد - فأحضرتني ، ولست آمنه على نفسي ، قال له : فإذا دخلت عليه فسألك ، فقل له : الحسن بن راشد وضعني في ذلك الموضع . فلما دخل عليه قال هذا القول ، قال : ما أخلق أن يكون هذا من تخليط الحسن ! أحضروه ، قال : فلما حضّر قال : ما حملك

على أن صبرت هذا الرجل في الحير ؟ قال : رحم الله من صبره في الحير ، أمرتني أم موسى أن أصبره فيه ، وأن أجرى عليه في كل شهر ثلاثين درهماً فقال : ردوه إلى الحير ، وأجروا عليه ما أجرته أم موسى - وأم موسى هي أم المهدي ابنة يزيد بن منصور .

وذكر علي بن محمد أن أباه حدثه قال : دخلت على الرشيد في دار عون العبادي فإذا هو في هيئة الصيف ، في بيت مكشوف ؛ وليس فيه فرش على مقعد عند باب في الشق الأيمن من البيت ، وعليه غلالة رقيقة ، وإزار رشدي عريض الأعلام ، شديد التضريع^(١) ؛ وكان لا يخيّش البيت الذي هو فيه ؛ لأنه كان يؤذيه ؛ ولكنه كان يدخل عليه برّد الخيش ؛ ولا يجلس فيه . وكان أول من اتخذ في بيت مقيله في الصيف سقفاً دون سقف ؛ وذلك أنه لما بلغه أن الأكاسرة كانوا يطئون ظهور بيوتهم في كل يوم من خارج ليكف عنهم حرّ الشمس ؛ فاتخذ هو سقفاً يلي^(٢) سقف البيت الذي يتقبل فيه .

٧٥٣/٣

وقال علي عن أبيه : خبرت أنه كان في كل يوم القبط تغار^(٣) من فضة يعمل فيه العطار الطيب والزعفران والأفاويه وماء الورد ، ثم يدخل إلى بيت مقيله ، ويدخل معه سبع غلاتل قصب رشديّة تقطع النساء ، ثم تغمس الغلال في ذلك الطيب ، ويؤتى في كل يوم بسبع جوار ، فتخلع عن كل جارية ثيابها ثم تخلع عليها غلالة ، وتجلس على كرسي مثقب ، وترسل الغلالة على الكرسي فتجأله ، ثم تبخر من تحت الكرسي بالعود المدرج في العنبر أمدأ^(٤) حتى يحفّ القميص عليها ، يفعل ذلك بهن ، ويكون ذلك في بيت مقيله ، فيعيق ذلك البيت بالبخور والطيب .

وذكر علي بن حمزة أن عبد الله بن عباس بن الحسن بن عبيد الله بن علي ابن أبي طالب قال : قال لي العباس بن الحسن : قال لي الرشيد : أراك تكثر من ذكر ينسب وصفتها ، فصفتها لي وأوجز ، قال : قلت : بكلام أو بشعر ؟

(١) فخرج الثوب : صبغه بالحمرة . (٢) س : « على » .

(٣) في القاموس : « التيفار ، كقفيقال : الإجابة » ، وفي كلمة غير واضحة .

(٤) س : « أبدأ » .

قال : بكلامٍ وشعر ، قال : قلت : جِدْتُهَا فِي أَصْلِ عِذْقِهَا ، وَعِذْقُهَا
مَسْرَحُ شَأْنِهَا ، قال : فْتَبَسَّمْ ، فَقُلْتُ لَهُ :

يَا وَاِدَى الْقَصْرِ نِعَمَ الْقَصْرِ وَالْوَادَى مِنْ مَنَزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادَى
تَرَى قَرَاقِيرَهُ وَالْعَيْسَ وَاقِفَةً وَالضَّبَّ وَالنَّوْنَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادَى

وذكر محمد بن هارون ، عن أبيه ، قال : حضرت الرشيد ، وقال له
الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين ، قد أحضرتُ ابنَ السَّمَاكِ كما أمرتني ، قال :
أدخله ، فدخل ، فقال له : عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده
لا شريك له ، واعلم أنك واقف^(١) غدًا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف
إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما ؛ جنة أو نار . قال : فبكى هارون حتى اخضلت
لحيته ، فأقبل الفضلُ على ابن السَّمَاكِ ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالَج
أحدًا شكُّ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ! لقيامه^(٢) بحق
الله وعدله في عبادته ، وفضله^(٣) ! قال : فلم يحفل بذلك ابن السَّمَاكِ من قوله ،
ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا — يعني
الفضل بن الربيع — ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر
لنفسك . قال : فبكى هارون حتى أشفقنا^(٤) عليه . وأفحِم الفضل بن الربيع
فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

٧٥٥/٣

قال : ودخل ابن السَّمَاكِ على الرشيد يومًا ؛ فبينما هو عنده إذ استسقى ماء ، فأُتِيَ
بقلّة من ماء ؛ فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السَّمَاكِ : على رسلك
يا أمير المؤمنين ؛ بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنعت هذه
الشَّرْبَةُ فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هناك الله ؛
فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنعت
خروجها من بدنك ، فماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي ؛ قال ابن
السَّمَاكِ : إن مُلْكًا قيمته شربة ماء ، لجدير ألا ينافس فيه . فبكى هارون ؛

(٢) س : « بقيامه » .

(٤) ط : « شققنا » .

(١) س : « موقوف » .

(٣) س : « وفعله » .

فأشار الفضلُ بن الربيعُ إلى ابن السَّماك بالانصراف فانصرف .

قال : ووعظ الرشيد عبد الله بن عبد العزيز العمري ، فتلقى قوله بنعم يا عم ، فلما ولّى لينصرف ؛ بعث إليه بألّى دينار في كيس مع الأمين والمأمون فاعترضاه بها ، وقالوا : يا عم ؛ يقول لك أمير المؤمنين : خذها وانتفع بها أو فرقها ، فقال : هو أعلم بمن يفرقها عليه ، ثم أخذ من الكيس ديناراً ، وقال : كرهت أن أجمع سوء القول وسوء الفعل . وشخص إليه إلى بغداد بعد ذلك ، فكره الرشيد مصيره إلى بغداد ، وجمع العمريّين ، فقال : مالي ولابن عمكم ! احتملته بالحجاز ، فشخص إلى دار مملكتي ؛ يريد أن يفسد على أوليائي ! ردّوه عني ، فقالوا : لا يقبل منا ؛ فكتب إلى موسى بن عيسى أن يرفق به حتى يردّه ، فدعا له عيسى ببنيّ عشر سنين ، قد حفظ الخطب والمواعظ ، فكلّمه كلاماً كثيراً ، ووعظه بما لم يسمع العمريّ بمثله ، ونهاه عن التعرّض لأمير المؤمنين ، فأخذ نعله ، وقام وهو يقول : ﴿ فاسْحَقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وذكر بعضهم أنه كان مع الرشيد بالرقّة بعد أن شخص من بغداد ، فخرج يوماً مع الرشيد إلى الصيّد ، فعرض له رجل من النساك ، فقال : يا هارون ، اتق الله ، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرَّجُل إليك حتى أنصرف ، فلما رجع دعاً ببغداثة ، ثم أمر أن يطعم الرجل من خاصّ طعامه ، فلما أكل وشرب دعا به ، فقال : يا هذا ، أنصفتني في المخاطبة والمسألة ، قال : ذاك أقلّ ما يجب لك ، قال : فأخبرني : أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون ؟ قال : بل فرعون ، قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٢) وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٣) ، قال : صدقت ؛ فأخبرني فن خير ؟ أنت أم موسى ابن عمران ؟ قال : موسى كليم الله وصفيته ، اصطنعه لنفسه ، وأتمنه على وحيه ، وكلّمه من بين خلقه ، قال : صدقت ؛ أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون

(٢) سورة النازعات ٢٤ .

(١) سورة الملك ١١ .

(٣) سورة القصص ٣٨ .

قال لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١) ، ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يَكْنِيَاه ؛ وهذا وهو في عُسْوَةٍ وَجَبَرِيَّتِهِ ؛ على ما قد علمت ، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم ، أودى أكثر فرائض الله عليّ ، ولا أعبد أحداً سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه ؛ فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه ؛ فلا بأدب الله تأدبت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت ، فما كان يؤمنك أن أسطو بك ! فإذا أنت قد عرّضت نفسك لما كنت عنه غنياً . قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين ؛ وأنا أستغفرك ؛ قال : قد غفر لك الله ؛ وأمر له بعشرين ألف درهم ، فأبى أن يأخذها ، وقال : لا حاجة لي في المال ؛ أنا رجل سائح . فقال هرثمة - وخزّره (٢) : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهل صليته ! فقال الرشيد : أمسك عنه ، ثم قال له : لم نعطك هذا المال لحاجتِكَ إليه ؛ ولكن من عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومنحه ؛ فاقبل من صليتنا ما شئت ؛ وضعها حيث أحببت . فأخذ من المال ألفي درهم ، وفرّقها على الحجاب ومن حضر الباب .

* * *

ذكر مَنْ كَانَ عِنْدَ الرَّشِيدِ مِنَ النِّسَاءِ الْمَهَائِرِ (٣)

قيل : إنه تزوّج زبيدة ؛ وهي أمّ جعفر بنت جعفر بن المنصور ، وأعرس بها في سنة خمس وستين ومائة في خلافة المهديّ ببغداد ، في دار محمد بن سليمان - التي صارت بعد للعباسة ، ثم صارت للمعتصم بالله - فولدت له محمداً الأمين ، وماتت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

وتزوّج أمة العزيز أمّ ولد موسى ، فولدت له عليّ بن الرشيد .

وتزوّج أمّ محمد ابنة صالح المسكين ، وأعرس بها بالرقّة في ذى الحجة سنة سبع وثمانين ومائة ، وأمّها أم عبد الله ابنة عيسى بن عليّ صاحبة دار أمّ عبد الله بالكرك التي فيها أصحاب الدبس ؛ كانت أملك من إبراهيم بن

(٢) الخزر : النظر بمؤخر العين .

(١) سورة طه ٤٤ .

(٣) المهيرة : الزوجة الحرة الغالية المهر .

المهدى ، ثم خلعت منه فتزوّجها الرشيد .
وتزوّج العباسة ابنة سليمان بن أبي جعفر ، وأعرس بها في ذى الحجة سنة
سبع وثمانين ومائة ، حُمِلت هى وأمّ محمد ابنة صالح إليه .
وتزوج عزيزة ابنة الغطريف ، وكانت قبله عند سليمان بن أبي جعفر
فطلقها ، فخلّف عليها الرشيد ، وهى ابنة أخى الخيزران .
وتزوج الجُرَشِيَّة العُثمانيّة ، وهى ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو
ابن عثمان بن عفان ، وسميت الجُرَشِيَّة لأنها ولدت بجُرَش باليمن ، وجدة أبيها
فاطمة بنت الحسين بن على بن أبي طالب ، وعمّ أبيها عبد الله بن حسن بن
حسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم .
ومات الرشيد عن أربع مهائير : أم جعفر ، وأم محمد ابنة صالح ، وعباسة
ابنة سليمان ، والعُمانيّة .

٧٥٨/٣

* * *

[ذكر ولد الرشيد]

وولد للرشيد من الرّجال :

محمد الأكبر وأمّه زبيدة ، وعبد الله المأمون وأمّه أم ولد يقال لها مارجل ،
والقاسم المؤتمن وأمّه أمّ ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم وأمّه
أم ولد يقال لها ماردة ، وعلى وأمّه أمة العزيز ، وصالح وأمّه أم ولد
يقال لها رثم ، ومحمد أبو عيسى وأمّه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب
 وأمّه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأمّه أم ولد يقال لها
خُبُث ، ومحمد أبو سليمان وأمّه أم ولد يقال لها رَواح ، ومحمد أبو على
 وأمّه أمّ ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأمّه أم ولد يقال لها كِثْمان .
ومن النساء : سَكينة وأمّها قصيف وهى أخت القاسم ، وأمّ حبيب وأمّها
ماردة وهى أخت أبى إسحاق المعتصم ، وأروى أمّها حَلُوب ، وأمّ الحسن وأمّها
عِرابة ، وأمّ محمد وهى حَمْدونة ، وفاطمة وأمّها غُصَص واسمها مصفى وأمّ أبيها
وأمّها سكّر ، وأمّ سلمة وأمّها رحيق ، وخديجة وأمّها شَجَر ، وهى أخت كريب ،
وأمّ القاسم وأمّها خزق ، ورملة أمّ جعفر وأمّها حَلْنى ، وأمّ على أمّها أنيق ، وأمّ
الغالية أمّها سَمْنَدَل ، وريطة وأمّها زينة .

٧٥٩/٣

[بقية ذكر بعض سير الرشيد]

ذكر يعقوب بن إسحاق الأصفهاني، قال : قال المفضل بن محمد الضبي : وجهه إلى الرشيد ؛ فما علمت إلاّ وقد جاءتني الرّسل ليلا ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين ؛ فخرجت حتى صرت إليه ؛ وذلك في يوم خميس ؛ وإذا هو متكئ ومحمد بن زبيدة عن يساره ، والمأمون عن يمينه ؛ فسلمت ، فأومأ إلىّ فجلست ، فقال لي : يا مفضل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال كم اسمائي : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمْ ﴾ ^(١) ؟ قلت : ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين ، قال : وما هي ؟ قلت : الكاف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهاء والميم ، وهي للكفار ، والياء وهي لله عزّ وجلّ . قال : صدقت ؛ هكذا أفادنا هذا الشيخ - يعني الكسائي - ثم التفت إلى محمد ، فقال له : أفهمت يا محمد ؟ قال : نعم ، قال : أعدّ عليّ المسألة كما قال المفضل ، فأعادها ، ثم التفت إلىّ فقال : يا مفضل ، عندك مسألة تسألنا عنها بحضرة هذا الشيخ ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال : وما هي ؟ قلت : قول الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ ^(٢)

قال : هيهات أفادناها متقدّمًا قبلك هذا الشيخ ؛ لنا قمرها ، يعني الشمس والقمر كما قالوا سنّة العمرين : سنة أبي بكر وعمر ، قال : قلت : فأزيد في السؤال ؟ قال : زدْ ، قلت : فلم استحسنوا هذا ؟ قال : لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخفّ على أفواه القائلين غلبوه وسمّوا به الآخر ؛ فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر وفتوحه أكثر ، واسمه أخفّ غلبوه وسمّوا بأب بكر باسمه ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ بُعِدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ ^(٣) وهو المشرق والمغرب . قلت : قد بقيت زيادة في المسألة ! [فالتفت إلى الكسائي] ^(٤) فقال : يقال في هذا غير ما قلنا ؟ قال : هذا أوفى ما قالوا ، وتام المعنى عند العرب . قال : ثم التفت إلىّ فقال : ما الذي بقي ؟ قلت : بقيت الغاية التي إليها أجرى الشاعر المفتخر في شعره ، قال : وما هي ؟ قلت : أراد بالشمس إبراهيم ، وبالقمر

(٢) ديوانه ٥١٩ .

(٤) من ١ .

(١) سورة البقرة ١٣٧ .

(٣) سورة الزخرف ٣٨ .

محمد أصلى الله عليه وسلم ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين من آبائك الصالحين . قال :
 فاشرب أمير المؤمنين ؛ وقال : يا فضل بن الربيع ؛ احمل إليه مائة ألف درهم
 لقضاء دينه ، وانظر من الباب من الشعراء فيؤذن لهم ، فإذا العماني ومنصور
 النمرى ، فأذن لهما ، فقال : أدن مني الشيخ ، فدنا منه وهو يقول :
 قل للإمام المقتدى بأمه ما قاسم دون مدي ابن أمه
 * فقد رخصناه فقم فسمه *

فقال الرشيد : ما ترضى أن تدعو إلى عقد البيعة له وأنا جالس حتى
 تنهضني قائماً ! قال : قيام عزم يا أمير المؤمنين ، لا قيام حتم^(١) ، فقال : يؤتى
 بالقاسم ، فأتى به ، وطبطب^(٢) في أرجوزته ، فقال الرشيد للقاسم : إن هذا
 الشيخ قد دعا إلى عقد البيعة لك ، فأجزل له العطية ، فقال : حكم
 أمير المؤمنين ، قال : وما أنا وذاك ! هات النمرى ، فدنا منه ، وأنشده :
 * ما تنقضي حسرة مني ولا جزع^(٣) *

— حتى بلغ —

٧٦١/٣ ما كان أحسن أيام الشباب وما أبقي حلاوة ذكراه التي تدعُ
 ما كنت أوفى شبابي كنه غرته حتى مضى فإذا الدنيا له تبع
 قال الرشيد : لا خير في دنيا لا يُخطر فيها ببرد الشباب^(٤) .

وذكر أن سعيد بن سلم الباهلي دخل على الرشيد ، فسلم عليه ، فأوماً إليه
 الرشيد فجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أعرابي من باهلة واقف على باب
 أمير المؤمنين ؛ ما رأيت قط أشعر منه ، قال : أما أنك استبحت هذين — يعنى
 العماني ومنصور النمرى ، وكانا حاضريه — نهبي لهما أحجارك ، قال : هما
 يا أمير المؤمنين يهباني لك ؛ فيؤذن للأعرابي ؟ فأذن له ، فإذا أعرابي في جبّة

(١) : ١ « جسم » .

(٢) الأغاني ١٢ : ١٥١ وبقية :

* إلا ذكرت شباباً ليس يرتجع *

(٤) الخبر في الأغاني ١٧ : ٨٠ (سأسى) .

خَزَرَ ، ورداء يمان ، قد شدّ وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قد عَصَبَهَا على خَدَيْهِ ، وأَرْخَى لها عَدَبَةً ، فقتل بين يدي أمير المؤمنين ، وأَلْقَيْتِ الكِرَاسِيَّ ، فجلس الكَسَائِيُّ والمُفَضَّلُ وابنُ سَلَمٍ والفضل بن الربيع ، فقال ابنُ سَلَمٍ للأعرابي : خذ في شَرَفِ أمير المؤمنين ، فاندفع الأعرابي في شعره ، فقال أمير المؤمنين : أسمعُكَ مستحسنًا ، وأنكرُكَ متهمًا عليك ؛ فإنَّ يكن هذا الشعر لك وأنت قلتَه من نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين - يعني محمدًا والمأمون - وهما حِفَافَاهُ ^(١) فقال : يا أمير المؤمنين حملتني على القدر في غير الحذر روعةَ الخلافة ، وبهَرَّ البديهة ، ونفُور القوافي عن الرويّة ، فيمهلني أمير المؤمنين ؛ يتألف إلى نافراتها ، ويسكن رَوْعِي . قال : قد أمهلتك يا أعرابي ، وجعلت اعتذارك بدلًا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفّست الخناق ، وسهلت ميدان النفاق ، ثم أنشأ يقول :

هُمَا طُنْبَاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا
بَنَيْتَ بِعَبْدِ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ذَرِيَّ قَبَّةِ الْإِسْلَامِ فَاهْتَزَّ عَوْدُهَا

فقال : وأنت يا أعرابي بارك الله فيك ؛ فسكنا ، ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال : الهنيدة ^(٢) يا أمير المؤمنين ، قال : فتبسّم أمير المؤمنين ، وأمر له بمائة ألف درهم وسبع خلّع .

وذكر أنَّ الرشيد قال لابنه القاسم - وقد دخل عليه قبل أن يبايع له : أنت للمأمون يبيع لحملك هذا ، قال : يبيع حظه ^(٣) .

وقال للقاسم يومًا قبل البيعة له : قد أوصيتُ الأمين والمأمون بك ، قال : أمّا أنت يا أمير المؤمنين فقد توليت النظر لهما ، ووكلت النظر لي إلى غيرك .

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : قدم الرشيد مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه ابنه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، فأعطى فيها العطايا وقسم

(١) حفافاه ، أي محققان به .

(٢) الهنيدة : اسم للمائة أو المائتين من الإبل .

(٣) ط : « حظه » ، وما أثبتته من أ .

في تلك السنة في رجالهم ونسائهم ثلاثة أعطية؛ فكانت الثلاثة الأعطية التي قسمها فيهم ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وفرض في تلك السنة لخمسمائة من وجوه موالى المدينة ، ففرض لبعضهم في الشرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ، ومخارق^(١) مولى بنى تميم ، وكان يقرئ^(٢) القرآن بالمدينة .

٧٦٣/٣

وقال إسحاق المولى : لما بايع الرشيد لولده ، كان فيمن بايع عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، فلما قدم ليبايع ، قال :

لا قصراً عنها ولا بلغتُهما حتى يطولَ على يدك طوالُها

فاستحسن الرشيد ما تمثل ، وأجزل له صلته . قال : والشعر لطريح بن إسماعيل ، قاله في الوليد بن يزيد وفي ابنه .

وقال أبو الشيص يرقى هارون الرشيد :

غَرَبَتْ في الشَّرْقِ شَمْسٌ فلها عَيْنَانِ تَدْمَعُ
ما رَأَيْنَا قَطُّ شَمْساً غربت مِن حَيْثُ تَطْلُعُ

وقال أبو نواس الحسن بن هاني :

جَرَتْ جَوَارِ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ فنحنُ في مَأْتَمٍ وفي عُرسِ
القلبُ يَبْكِي والسَّنُّ ضاحِكُهُ فنحنُ في وَحْشَةٍ وفي أُنْسِ
يُضْحِكُنَا القَائِمُ الأَمِينُ وَيُبْ كيننا وَفَاةُ الإمامِ بالأمْسِ
بَدْرَانِ : بدر أضحى ببغدادَ بال خلدٍ ، وبدر بطوسَ في رَمْسِ

وقيل : مات هارون الرشيد ، وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيّف .

٧٦٤/٣

(١) : « مخارق » .

(٢) : كذا في ١ ، وفي ط : « يقرأ » .

خلافة الأمين

وفي هذه السنة بويع لمحمد الأمين بن هارون بالخلافة في عسكر الرشيد، وعبد الله بن هارون المأمون يومئذ بمرو؛ وكان - فيما ذكر - قد كتب حَمَوِيَه مولى المهديّ صاحب البريد بطُوسَ إلى أبي مسلم سلام، مولاه وخليفته ببغداد على البريد والأخبار، يعلمه وفاة الرشيد. فدخل على محمد فعزّاه وهنّاه بالخلافة، وكان أوّل الناس فعل ذلك، ثمّ قدم عليه رجاء الخادم يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، كان صالح بن الرشيد أرسله إليه بالخبر بذلك - وقيل: [أتاه الخبر بذلك] ^(١) - ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة، فأظهره ^(٢) يوم الجمعة، وستر خبره بقيّة يومه وليلته، وخاض الناس في أمره.

ولما قدم كتاب صالح على محمد الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد - وكان نازلاً في قصره بالخلد - تحوّل إلى قصر أبي جعفر بالمدينة، وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة، فحضروا وصلى بهم؛ فلما قضى صلاته صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ونعى الرشيد إلى الناس، وعزّى نفسه والناس، ووعدهم خيراً، وبسط الآمال، وآمن الأسود والأبيض، وبايعه جليّة أهل بيته وخاصّته ومواليه وقوّاده، ثمّ دخل. ووكل ببيعته على من بقي منهم عمّ أبيه سليمان بن أبي جعفر، فبايعهم، وأمر السندی بمبايعة جميع الناس من القوّاد وسائر الجند، وأمر للجند مئتين بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً، وبخواصّ من كانت له خاصة بهذه الشهور.

* * *

[ذكر الخبر عن بدء الخلاف بين الأمين والمأمون]

وفي هذه السنة كان بدء اختلاف الحال بين الأمين ومحمد وأخيه المأمون، وعزم كل واحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذ عليهما العمل به، في الكتاب الذي ذكرنا أنه كان كتبه عليهما وبينهما.

(١) من أ. (٢) كذا في أ، وفي ط: «فأظهر»

* ذكر الخبر عن السبب الذى كان أوجب اختلاف حالهما فيما ذكرت :

قال أبو جعفر : قد ذكرنا قبل أن الرشيد جدّ حين شخص إلى خراسان البيعة للمأمون على القواد الذين معه ، وأشهد منّ معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع منّ معه من الجند مضمومون إلى المأمون ، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون . فلما بلغ محمد بن هارون أن أباه قد اشتدّت علته ، وأنه لمّا به ، بعث منّ يأتيه بخبره فى كل يوم ، وأرسل بكر بن المعتمر ، وكتب معه كتباً ، وجعلها فى قوائم صناديق منقورة وألبسها جلود البقر ، وقال : لا يظهروا أمير المؤمنين ولا أحد من فى عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه ، ولا ما معك ، ولو قتلت حتى يموت أمير المؤمنين ؛ فإذا مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه .

فلما قدّم بكر بن المعتمر طوس ، بلغ هارون قدومه ، فدعا به ، فسأله : ما أقدمك ؟ قال : بعثنى محمد لأعلم له علم خبرك وآتية به ، قال : فهل معك كتاب ؟ قال : لا ، فأمر بما معه ففتش فلم يصيبوا معه شيئاً ، فهدّده بالضرب فلم يقرّ بشيء ، فأمر به فحبس وقيّد . فلما كان فى الليلة التى مات فيها هارون أمر الفضل بن الربيع أن يصير إلى محبس بكر بن المعتمر فيقرّره ، فإن أقرّ وإلا ضرب عنقه ، فصار إليه ، فقرّره فلم يقرّ بشيء ، ثم غشي على هارون ، فصاح النساء ، فأمسك الفضل عن قتله ، وصار إلى هارون ليحضره ، ثم أفاق هارون وهو ضعيف ، قد شغل عن بكر وعن غيره لحس الموت ، ثم غشي عليه غشية ظنّوا أنها هى ، وارتفعت الضجة ، فبعث بكر بن المعتمر برقة منه إلى الفضل بن الربيع مع عبد الله بن أبى نعيم ، يسأله ألا يعجلوا بأمر ، ويعلمه أن معه أشياء يحتاجون إلى علمها - وكان بكر محبوساً عند حسين الخادم - فلما توفّى هارون فى الوقت الذى توفّى فيه ، دعا الفضل بن الربيع ببكر من ساعته ، فسأله عما عنده ، فأذكر أن يكون عنده شيء ، ونحش على نفسه من أن يكون هارون حياً ، حتى صبح عنده موت هارون ، وأدخله عليه ، فأخبره أن عنده كتباً من أمير المؤمنين محمد ، وأنه لا يجوز له إخراجها ؛ وهو على حاله فى قيوده وحبسه ، فامتنع حسين الخادم من إطلاقه حتى أطلقه الفضل ، فأتاهم

بالكتب التي عنده ، وكانت في قوائم المطابخ المجلدة بجلود البقر ، فدفع إلى كل إنسان منهم كتابه . وكان في تلك الكتب كتاب من محمد بن هارون إلى حسين الخادم بخطه ، يأمره بتخلية بكر بن المعتمر وإطلاقه ، فدفعه إليه ، وكتاب إلى عبد الله المأمون ، فاحتبس كتاب المأمون عنده ليعثه إلى المأمون بمرو ، وأرسلوا إلى صالح بن الرشيد - وكان مع أبيه بطوس ، وذلك أنه كان أكبر من يحضر هارون من ولده - فأتاهم في تلك الساعة ، فسألهم عن أبيه هارون ، فأعلموه ، فجزع جزعاً شديداً ، ثم دفعوا إليه كتاب أخيه محمد الذي جاء به بكر . وكان الذين حضروا وفاة هارون هم الذين ولّوا أمره وغسله وتجهيزه ، وصلى عليه ابنه صالح .

وكانت نسخة كتاب محمد إلى أخيه عبد الله المأمون :

إذا ورد عليك كتابُ أخيك - أعاده الله من فقدك - عند حلول ما لا مردَّ له ولا مدفعٍ مما قد أخلف وتناسخ [في] ^(١) الأُمم الحالية والقرون الماضية [فعز نفسك] ^(١) بما عزَّاك الله به . واعلم أنَّ الله جل ثناؤه قد اختار لأُمير المؤمنين أفضل الدارين ، وأجزل الحظين فقبحه الله طاهراً زاكياً ، قد شكر سعيه ، وغفر ذنبه إن شاء الله . فقم في أمرك قيام ذى الحزم والعزم ، والناظر لأخيه ونفسه وسيلطانه وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب عليك الجزع ، فإنه يُحيط الأجر ، ويُعقب الوزر . وصلوات الله على أُمير المؤمنين حياً وميتاً ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ! وخُذ البيعةَ عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك ، ثم للقاسم ابن أُمير المؤمنين ؛ على الشريطة التي جعلها لك أُمير المؤمنين من نسسخها له وإثباتها ، فإنك مقلد من ذاك ما قللك الله وخليفته . وأعلم من قبلك رأى في صلاحهم وسدَّ خلتهم والتوسعة عليهم ؛ فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته ، قابعت إلى برأسه مع خبره . وإياك وإقالته ؛ فإن النار أولى به . واكتب إلى عمال ثغورك وأمرأ أجنادك بما طرقك من المصيبة بأُمير المؤمنين ، وأعلمهم أنَّ الله لم يرض الدنيا له ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته ، مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرهم أن يأخذوا البيعة

على أجنادهم وخواصهم وعوامتهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك وأعز إليهم في ضبط ثغورهم ، والقوة على عدوهم . [وأعلمهم] ^(١) أننى متفقد حالانهم ولأمر شعنتهم ، وموسع عليهم ، ولا تنبى ^(٢) في تقوية أجنادى وأنصارى ، ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة ، لتقرأ عليهم ؛ فإن فى ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم . واعمل بما تأمر به لمن حَضَرَكَ ، أو نأى عنك من أجنادك ؛ على حسب ما ترى وتشاهد ؛ فإن أخاك يعرف حسن اختيارك ، وصحة رأيك ، وبعد نظرك ؛ وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشد بك عضده ، ويجمع بك أمره ؛ إنه لطيف لما يشاء .

وكتب بكر بن المعتز بين يدى وإملائى فى شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة .
وإلى أخيه صالح :

بسم الله الرحمن الرحيم . إذا ورد عليك كتابى هذا عند وقوع ما قد سبق فى علم الله ونفذ من قضائه فى خلفائه وأوليائه ، وجرت به سنته فى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فقل : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٣) ، فاحمدوا الله ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، وإنا إليه راجعون . وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهم عصمة وكهفًا ، وبهم رعوًا رجيا ؛ فشمّر فى أمرك ، وإياك أن تلقى بيدك ؛ فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له ، وهو متفقد مواقع فقدانك ، فحقيق ظنه ونسأل الله التوفيق . وخذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين ؛ على الشريطة التى جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسحها على القاسم أو إثباتها ، فإن السعادة واليسر فى الأخذ بعهدة ، والمضى على مناهجه . وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأى فى استصلاحهم ، وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم ؛ فإن شغب شاغب ، أو نعر ناعر ، فاسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها

٧٦٩/٣

وموعظة للمتقين . واضمّم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع وأسد أمير المؤمنين وخدمه وأهله ^(١) ؛ ومُرّه بالمسير معهم فيمن معه من جنده ورباطته ، وصيّر إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ؛ فإنه ثقة على ما يلي ، مقبول عند العامة ، واضمّم إليه جميع جند الشرط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده ، ومُرّه بالجد والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله ، ليله ونهاره ؛ فإن أهل العداوة والتفاق لهذا السلطان يغتمون مثل حلول هذه المصيبة . وأقِر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُرّه بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ؛ فإنه ممن لا يُعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها بمعاهد من الله مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء . ومر الخدم بإحضار روابطهم ممن يُسدّ بهم وبأجنادهم مواضع الحسّل من عسكرك ؛ فإنهم حدّ من حدودك ، وصيّر مقدّمك إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، وسأقتك إلى يحيى بن معاذ ، فيمن معه من الجنود ، ومُرّهما بمناوبتك في كلّ ليلة ، والزم الطريق الأعظم ، ولا تعدّ ونّ المراحل ؛ فإن ذلك أرفق بك . ومر أسد بن يزيد أن يتخيّر رجلاً من أهل بيته أوقواده ، فيصير إلى مقدمته ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ؛ فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت ، فاختر لموضعهم من تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوام ؛ فإن ذلك لن يُعوزك من قوأك وأنصارك إن شاء الله . وإياك أن تنفذ رأياً أو تُبرم أمراً إلا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع ، وأقر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛ ولا تخرجنّ أحداً منهم من ضيّن ما يلي إلى أن تُتقدم على .

وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيليغكه ، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى ، وإن أمرت لأهل العسكر بعباء أو رزق ؛ فليكن الفضل بن الربيع المتولّى لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه ؛ بمحض من أصحاب الدواوين ؛ فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك لمهمات الأمور . وأنفذ إلى عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد ؛ ولا يكون لك عرّجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجه إلى بعسكرك

٧٧١/٣ بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يستدفع الله عنك ، ويسأله لك حسن التأييد برحمته .

وكتب بكر بن المعتمر بن يدى وإملاؤى فى شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة .
 وخرج رجاء الخادم بالخاتم والقضيب والبُرْدَة ، وبنعى هارون حين دفن
 حتى قدم بغداد ليلة الخميس - وقيل يوم الأربعاء - فكان من الخبر ما قد
 ذكرت قبل .

وقيل : إن نعى الرشيد لما ورد بغداد صعد إسحاق بن عيسى بن على المنبر ،
 فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أعظم الناس رزيةً ، وأحسن الناس بقيةً
 رزؤنا ، فإنه لم يُرْزَأ أحدٌ كرزئنا ، فن له مثل عوضنا ! ثم نعاه إلى الناس ،
 وحض الناس على الطاعة .

* * *

وذكر الحسن الحاجب أن الفضل بن سهل أخبره ، قال : استقبل الرشيد
 وجوه أهل خراسان ، وفيهم الحسين بن مصعب . قال : ولقينى فقال لى :
 الرشيد ميتٌ أحد هذين اليومين ، وأمرُ محمد بن الرشيد ضعيف ، والأمرُ أمر
 صاحبك ؛ مُدَّ يدك . فدَّ يده فبايع للمأمون بالخلافة . قال : ثم أتانى بعد
 أيام ومعه الخليل بن هشام ، فقال : هذا ابن أخى ، وهو لك ثقة خذ بيعته .
 وكان المأمون قد رحل من مَرَّو إلى قصر خالد بن حماد على فرسخ من
 مَرَّو يريد سمرقند ، وأمر العباس بن المسيب بإخراج الناس واللعوق
 بالعسكر ، فمرَّ به إسحاق الخادم ومعه نعى الرشيد ، فغمَّ العباس قدومه ،
 فوصل إلى المأمون فأخبره ، فرجع المأمون إلى مَرَّو ، ودخل دار الإمارة ،
 دار أبى مسلم ، ونعى الرشيد على المنبر ، وشقَّ ثوبه ونزل ، وأمر للناس بمال ،
 وبايع لمحمد ولنفسه وأعطى الجند رزق اثنى عشر شهراً .

٧٧٢/٣

قال : ولما قرأ الذين وردت عليهم كتبُ محمد بطُوس من القواد والجند
 وأولاد هارون ؛ تشاوروا فى اللحاق بمحمد ، فقال الفضل بن الربيع :
 لا أدعُ مُلْكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ،
 ففعلوا ذلك محبةً منهم للحق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت
 أخذت عليهم للمأمون ، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون بمَرَّو ،

فجمع مَنْ معه من قواد أبيه ، فكان معه منهم عبد الله بن مالك ، ويسحي ابن معاذ ، وشبيب بن حميد بن قحطبة ، والعلاء مولى هارون ، والعباس بن المسيّب بن زهير وهو على شرطته ، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته ؛ وكان معه من أهل بيته عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، وذو الرياستين ؛ وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصّهم به ، فشاورهم وأخبرهم الخبر ، فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألني فارس جريدة ، فيردّهم ، وسُمّي لذلك قوم ، فدخل عليه ذو الرياستين ، فقال له : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت^(١) هؤلاء هدية إلى محمد^(٢) ، ولكنّ الرأي أن تكتب إليهم كتاباً ، وتوجّه إليهم رسولا ؛ فتذكّرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذّره الحث ، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين . قال : قلت له : إن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرئ ما عند القوم ، وتوجّه سهل بن صاعد - وكان على قهرمته - فإنه يأملك ، ويرجو أن ينال أمله ؛ فلن يألوّك نصحاً ، وتوجّه نوفلاً الخادم مولى موسى أمير المؤمنين - وكان عاقلاً . فكتب كتاباً ، وجهتهما فلحقاهم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل .

٧٧٣/٣

فذكر الحسن بن أبي سعيد^(٢) عن سهل بن صاعد ، أنه قال [له]^(٣) : فأوصلت^(٤) إلى الفضل بن الربيع كتابته ، فقال لي : إنما أنا واحد منهم ، قال لي سهل : وشدّ عليّ عبد الرحمن بن جبلة بالرمح ، فأمره على جنبي ، ثم قال [لي]^(٣) : قل لصاحبك : والله لو كنت حاضراً لوضعت الرمح في فيك . هذا جوابي .

قال : ونال من المأمون . فرجعت بالخبر .

قال الفضل بن سهل : فقلت للمأمون : أعداء قد استرحّت منهم ؛ ولكن افهم عني ما أقول لك ؛ إن هذه الدولة لم تكن قطّ أعزّ منها أيام أبي جعفر ، فخرج عليه المقتنع وهو يدعى الربويّة . وقال بعضهم : طلب بدم أبي مسلم ، فتضعه العسكر بخروجه بخراسان . فكفاه الله المؤنة^(٥) . ثم خرج بعده يوسف البرم وهو عند بعض المسلمين كافر ؛ فكفى الله المؤنة . ثم خرج أسناذيس

(١ - ١) ابن الأثير : « جعلوك هدية إلى أخيك » . (٢) في ط : « سعد » ، وانظر الفهرس .
(٣) من . (٤) كذا في أ ، وفي ط : « لما أوصلت » . (٥) أ : « أمر » .

يدعو إلى الكفر، فسار المهديّ من الرّىّ إلى نيسابور فكفّى المؤنة ؛ ولكن ما أصنع ! أكثر عليك^(١) ! أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً ، قلت : وكيف بك وأنت نازل في أحوالك ، وييعتك في أعناقهم ! كيف يكون اضطراب أهل بغداد ! اصبر وأنا أضمن لك الخلافة - ووضعت يدي على صدري - قال : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك فقم به . قال : قلت : والله لأصدّقنك ، إن عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ ومن سمينا من أمراء الرؤساء ، إن قاموا لك بالأمر كانوا^(٢) أنفع مني لك برياستهم المشهورة ، ولما عندهم من القوة على الحرب ، فمن قام بالأمر كنت خادماً له حتى تصير إلى محبتك ، وترى رأيك في . فلقيتهم في منازلهم ، وذكرتهم البيعة التي في أعناقهم وما يجب عليهم من الوفاء . قال : فكأنني جئتهم بجيفة على طبق ، فقال بعضهم : هذا لا يحل ، اخرج ، وقال بعضهم : من الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ! فجئت فأخبرته ، قال : قم بالأمر ، قال : قلت : قد قرأت القرآن ، وسمعت الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالرأي أن تبعث إلى من بالخبرة من الفقهاء ، فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة ، وتقعد على اللبود ، وترد المظالم . ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء ، وأكرمنا القواد والملوك وأبناء الملوك ؛ فكنا نقول للتميمي : نقيمك مقام موسى بن كعب ، وللربيعي : نقيمك مقام أبي داود خالد بن إبراهيم ، وللإمامي : نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم ؛ فكنا ندعو كل قبيلة إلى نقباء^(٣) رؤسهم ، واستملنا الرءوس ، وقلنا لهم مثل ذلك^(٣) ، وحططنا عن خراسان ربع الحراج ، فحسن موقع ذلك منهم ، وسرّوا به ، وقالوا : ابن أختنا ، وابن عم النبي صلى الله عليه .

قال علي بن إسحاق : لما أفضت الخلافة إلى محمد ، وهذا الناس ببغداد ، أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم ؛ فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالة واللعب ، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد :

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « أكبر » .

(٢) كذا في ١ وفي ط : « كان » .

(٣-٣) وردت العبارة في ط مضطربة ، والصواب ما أثبتته من ١ .

بَنَى آمِينَ اللَّهُ مِيدَانَا وَصَيَّرَ السَّاحَةَ بُسْتَانَا
وَكَانَتْ الْغَزْلَانُ فِيهِ بَانَا يُهْدَى إِلَيْهِ فِيهِ غِزْلَانَا

٧٧٥/٣

* * *

وفي هذه السنة شخصت أمّ جعفر من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغير ذلك في شعبان ؛ فتلقاها ابنها محمد الأمين بالأنبار في جميع مَنْ كان ببغداد من الوجوه ، وأقام المأمون على ما كان يتولّى من عمل خُراسان ونواحيها إلى الرّى ، وكاتب الأمين ، وأهدى إليه هدايا كثيرة ، وتواترت كتبُ المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طُرف خُراسان من المتاع والآنية والمِسك والدوابّ والسلاح .

وفي هذه السنة دخل هرّثمة حائط سَمَرْقَنْد ، ولجأ رافع إلى المدينة الداخلة ، وراسل رافع التُّرك فوافوه ، فصار هرّثمة بين رافع والتُّرك ، ثم انصرف التُّرك ، فضعف رافع .

وقتل في هذه السنة نَيْقَفُور ملك الروم في حرب بُرْجَان ، وكان ملكه — فيما قيل — سبع^(١) سنين ، وملك بعده إِسْتَبْرَاق بن نَيْقَفُور وهو مجروح ، فبقى شهرين ومات . وملك مِيخَائِيل بن جُورجس ختّنه على أخته .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ ، وكان والى مكة .

وأقرّ محمد بن هارون أخاه القاسم بن هارون في هذه السنة على ما كان أبوه هارون ولّاه من عمل الجزيرة ، واستعمل عليها خُزَيْمَة بن خازم ، وأقرّ القاسم على قِنَسَرِين والعواصم .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مخالفة أهل حِمَص عاملهم إسحاق بن سليمان ، ٧٧٦/٣
وكان محمد ولاه إياها ، فلما خالفوه انتقل إلى سلمية ، فصرفه محمد عنهم ،
وولّى مكانه عبد الله بن سعيد الحرشيّ ومعه عافية بن سليمان ، فحبس عدة
من وجوههم ، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار ، وسأله الأمان فأجابهم ،
وسكنوا ثم هاجوا ؛ فضرب أيضاً أعناق عدة منهم .

وفيهما عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل
الشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وولّى مكانه خزيمه بن خازم ، وأمره بالمقام
بمدينة السلام .

وفي هذه السنة أمر محمد بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة .

* * *

[ذكر تفاقم الخلاف بين الأمين والمأمون]

وفيهما مكرّر كل واحد منهما بصاحبه : محمد الأمين وعبد الله المأمون ،
وظهر بينهما الفساد .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك :

ذكر أن الفضل بن الربيع فكّر بعد مقدّمه العراق على محمد منصوراً عن
طُوس ، وناكساً للهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله ، وعلم أن
الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حيّ لم يُبق عليه ؛ وكان في ظنّره
به عطبه ، فسعى في إغراء محمد به ، وحثّه على خلعه ، وصرف ولاية العهد من
بعده إلى ابنه موسى ؛ ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه
— فيما ذكر عنه — الوفاء لأخويه : عبد الله والقاسم ، بما كان أخذ عليه
لهما والده من العهود والشروط ، فلم يزل الفضل به يصغّر في عينه شأن المأمون ، ٧٧٧/٣

ويزين- له خلعه ؛ حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك ! فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنما أدخلها فيها بعدك واحداً بعد واحد ، وأدخل في ذلك من رآه معه على بن عيسى بن ماهان والسندی وغيرهما ممن بحضرته ؛ فأزال محمداً عن رأيه .

فأول ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دبّر من ذلك ، أن كتب إلى جميع العمّال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدّعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد ، فذكر الفضل بن إسحاق بن سليمان أن المأمون لما بلغه ما أمر به محمد من الدّعاء لابنه موسى وعزله القاسم عمّا كان الرشيد ضمّ إليه من الأعمال وإقدامه إيّاه مدينة السلام ؛ علم أنه يدبّر عليه في خلعه ، فقطع البريد عن محمد ، وأسقط اسمه من الطّرز [والضرب] (١) .

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم ، بعث في طلب الأمان لنفسه ، فسارع إلى ذلك هرثمة وخرج رافع فلحق بالمأمون ، وهرثمة بعد مقيم بسمرة فأكرم المأمون رافعاً . وكان مع هرثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين ؛ فلما دخل رافع في الأمان ، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه ، فعبر نهر بلخ بعسكره والنهر جامد ، فتلقاه الناس ، وولاه المأمون الحرس . فأنكر ذلك كله محمد ، فبدأ بالتدبير على المأمون ؛ فكان من التدبير أنه كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك - وهو عامل المأمون على الرّي - وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الرّي - مريداً بذلك امتحانه - فبعث إليه ما أمره به ، وكتب المأمون وذا الرياستين . فبلغ ذلك من أمره المأمون ، فوجّه الحسن بن عليّ المأموني وأردفه بالرسّمي (٢) على البريد ، وعزل العباس بن عبد الله بن مالك ؛ فدكر عن الرسّمي أنه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الرّي .

ووجّه محمد إلى المأمون ثلاثة أنفس رسلاً : أحدهم العباس بن موسى بن عيسى ، والآخر صالح صاحب المصلّي ، والثالث محمد بن عيسى بن نهيك ؛

وكتب معهم كتاباً إلى صاحب الرمي؛ أن استقبلهم بالعدة والسلاح الظاهر.
وكتب إلى والي قُوميس ونيسابور وسرخس بمثل ذلك؛ ففعلوا. ثم وردت
الرسائل مَرَو، وقد أعيد لهم من السلاح وضروب العدد والعتاد، ثم صاروا
إلى المأمون؛ فأبلغوه رسالة محمد بمسألته تقديم موسى على نفسه؛ ويذكر له أنه
سمّاه الناطق بالحق؛ وكان الذي أشار عليه بذلك علي بن عيسى بن ماهان،
وكان يخبره أن أهل خراسان يطيعونه؛ فردّ المأمون ذلك وأباه.

قال: فقال لي ذو الرئاستين: قال العباس بن موسى بن عيسى بن
موسى: وما عليك أيها الأمير من ذلك؛ فهذا جدّي عيسى بن موسى قد
خُلِعَ فما ضرّه ذلك، قال: فصحت به: اسكت، فإن جدّك كان في
أيديهم أسيراً؛ وهذا بين أخواله وشيعته. قال: فانصرفوا، وأنزل كل واحد
منهم منزلاً. قال ذو الرئاستين: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى،
فخلوت به فقلت: أيذهب^(١) عليك في فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من الإمام —
وسمّي المأمون في ذلك اليوم بالإمام ولم يسم بالخلافة، وكان سبب ما سمّي
به الإمام ما جاء من خلعت محمد له، وقد كان محمد قال للذين أرسلهم: قد
تسمّي المأمون بالإمام، فقال لي العباس: قد سميتوه الإمام! قال: قلت
له: قد يكون إمام المسجد والقبيلة، فإن وفيتم لم يضرّكم، وإن غدرتم فهو ذاك.
قال: ثم قلت للعباس: لك عندى ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك
من مواضع الأعمال بمصر ما شئت.

٧٧٩/٣

قال: فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة؛ فكان بعد
ذلك يكتب إلينا بالأخبار، ويشير علينا بالرأى.

قال: فأخبرني علي بن يحيى السرخسي، قال: مرّ بي العباس بن
موسى ذاهباً إلى مَرَو — وقد كنت وصفت له سيرة المأمون وحسن تدبير
ذي الرئاستين واحتماله الموضع، فلم يقبل ذلك مني — فلما رجع مرّ بي، فقلت
له: كيف رأيت؟ قال: ذو الرئاستين أكثر مما وصفت، فقلت: صافحت

(١) كذا في أ، وفي ط: « يذهب ».

الإمام ؟ قال : نعم ، قلت : امسح يدك على رأسى . قال : ومضى القوم إلى محمد فأخبروه بامتناعه ، قال : فألح الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى على محمد في البيعة لابنه وخلع المأمون ، وأعطى الفضل الأموال حتى بايع لابنه موسى ، وسماه الناطق بالحق ، وأحضنه على بن عيسى وولاه العراق . قال : وكان أول من أخذ له البيعة بشر بن السّميدع الأزديّ ، وكان والياً على بلد ، ثم أخذها صاحب مكة وصاحب المدينة على خواص من الناس قليل ، دون العامة .

قال : ونهى الفضل بن الربيع عن ذكر عبد الله والقاسم والدّعاء لهما على شيء من المنابر ، ودسّ لذكر عبد الله والوقعة فيه ، ووجه إلى مكة كتاباً مع رسول من حجابة البيت يقال له محمد بن عبد الله بن عثمان بن طلحة في أخذ الكتابين اللذين كان هارون كتبهما ، وجعلهما في الكعبة لعبد الله على محمد ، فقدم بهما عليه ، وتكلم في ذلك بقية الحجابة ، فلم يحفل بهما ، وخافوا على أنفسهم ، فلما صار بالكتابين إلى محمد قبضهما منه ، وأجازه بجائزة عظيمة ، ومزقهما وأبطلهما .

وكان محمد — فيما ذكر — كتب إلى المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه ، يسأله أن يتجافى له عن كُور من كُور خراسان — سَمّاها — وأن يوجه العمال إليها من قبيل محمد ، وأن يحتمل توجيه رجل من قبيله يولّيه البريد عليه ليكتب إليه بخبره . فلما ورد إلى المأمون الكتاب بذلك ، كبر ذلك عليه واشتدّ ، فبعث إلى الفضل بن سهل وإلى أخيه الحسن ، فشاورهما في ذلك ، فقال الفضل : الأمر مُخْطِر ، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ، ولهم تأنيس بالمشاورة ، وفي قطع الأمر دونهم وحشة ، وظهوره^(١) قلة ثقة ، فرأى الأمير في ذلك . وقال الحسن : كان يقال : شاوَر في طلب الرأى مَنْ تَق بنصيحته ، وتألّف العدو فيما لا اكتتام له بمشاورته ؛ فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام ، وقرأ عليهم الكتاب ، فقالوا جميعاً له : أيّها الأمير ،

تشاور في مخطر، فاجعل لبديعتنا حظاً من الروية، فقال المأمون: ذلك هو الحزم، وأجلهم ثلاثاً، فلما اجتمعوا بعد ذلك، قال أحدهم: أيها الأمير، قد حميت على كترهين، ولست أرى خطأ مدافعةً بمكروه أو لهما مخافة مكروه آخرهما. وقال آخر: كان يقال أيها الأمير، أسعدك الله، إذا كان الأمر مُخْطِراً، فأعطاؤك مَنْ نازعك طرفاً من بُغيته أمثلُ من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته. وقال آخر: إنه كان يقال: إذا كان علمُ الأمور مغيباً عنك، فخذ ما أمكنك من هُدنة^(١) يومك؛ فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعاً بفساد غدك. وقال آخر: لئن خيفت^(٢) للبذل عاقبة، إن أشدَّ منها لَمَّا يَبْعَثُ الإباء^(٣) من الفرقة. وقال آخر: لا أرى مفارقة منزلة سلامة؛ فلعلني أعطى معها العاقبة. فقال الحسن: فقد وجب حقكم باجتهادكم؛ وإن كنتُ من الرأي على مخالفتكم، فقال له المأمون: فناظرهم، قال: لذلك ما كان الاجتماع. وأقبل الحسن عليهم، فقال: هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا: نعم؛ ويُحتمل ذلك لما نخاف من ضرر مشعته. قال: فهل تثقون بكفه بعد إعطائه إياها، فلا يتجاوز بالطلب إلى غيرها؟ قالوا: لا، ولعل سلامة تقع من دون ما يُخاف ويُسَوَّق. قال: فإن تجاوز بعدها بالسألة؛ أفأ ترونه قد توهن بما بذل منها في نفسه! قالوا: ندفع ما يعرض له في عاقبة بمدافعة محذورة عاجلة! قال: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا: استصلح عاقبة أمرِك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطار أدخلته على نفسك في غدك. قال المأمون للفضل: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قال: أيها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ليستظهر بها عليك غداً على مخالفتك! وهل يصير الحازم إلى فضلة مَنْ عاجل الدعة بخَطَر يتعرَّض له في عاقبة؛ بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم. فقال المأمون: بل بإيثار العاجلة صار من صار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا أو أمر آخرة. قال القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي؛ والله يؤيد الأمير بالتوفيق. فقال: اكتب

(١) كذا في ١، وفي ط: «هدية». (٢) كذا في ١، وفي ط: «خفت».

(٣) كذا في ١.

يا فضلُ إليه ، فكتب :

قد بلغني كتاب أمير المؤمنين يسألني التجاني عن مواضع سماها مما أثبتته الرشيد في العقْد ، وجعل أمره إلى ، وما أمرُ رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ؛ غير أن الذي جعل إلى الطَرْف الذي أنابه ، لا ظنين في النظر لعامته ، ولا جاهل بما أسند إلى من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة ، وعامة لاتتألف عن هضمها ، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الإفضال — لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ؛ فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكد به مأخوذ العهد ! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع بمسألة ما كتب بمسألته إلى . ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله .

وكان المأمون قد وجه حارسة إلى الحد ، فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء^(١) ، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يؤثر أثراً ، ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً ، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً . فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة ، أو أن تودع صدورهم رهبة ، أو يحملوا على منزل خلاف أو مفارقة . ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحرّاس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنّة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه ، أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ، ومنع الأشتات^(٢) من جواز السبل والقسطع بالمتاجر والوُغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة ، وفُتشت الكتب . وكان — فيما ذكر — أول من أقبل من قبل محمد مناظراً في منعه ما كان سأل جماعة ، وإنما وجهوا ليعلم أنهم قد عاينوا وسمعوا ، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا أو يحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتج بها ، أو ذريعة إلى ما التمس [منها] . فلما صاروا إلى حد الرى ، وجدوا تدبيراً مؤيداً ، وعقداً مستحصداً مؤكداً ، وأخذتهم الأحراس من جوانبهم ، فحفظوا في حال ظعنهم وإقامتهم من أن يخبروا أو يستخبروا ، وكتب بخبرهم من مكانهم ، فجاء الإذن في حملهم

فحمّلوا محروسين ؛ لا خبرَ يصل إليهم ، ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم ؛ وقد كانوا مُعَدَّين لبث الخبر في العامة وإظهار الحجة بالمفارقة والدعاء لأهل القوة إلى المخالفة ؛ يبذلون الأموال ، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل ؛ فوجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً ؛ حتى صاروا إلى باب المأمون .

٧٨٤/٣

وكان الكتاب النافذ معهم إلى المأمون :

أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطَّرف ، وضمَّ ما ضمَّ إليك من كُور الجبل ؛ تأييداً لأمرك ، وتحصيناً لطرفك ؛ فإن ذلك لا يُوجب لك فضلة المال عن كفايتك . وقد كان هذا الطَّرف وخراجه كافياً لحدثه ، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده ؛ وقد ضمَّ لك إلى الطرف كوراً من أمتها كور الأموال لا حاجة لك فيها ، فالحقَّ فيها أن تكون مردودةً في أهلها ، ومواضع حقها . فكتبت إليك أسألك ردَّ تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ؛ لتكون فضول ردّها مصروفة إلى مواضعها ؛ وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدّي إلينا علم ما نُعنى به من خبر طرفك ؛ فكتبت تلطّ^(١) دون ذلك بما إن تمَّ أمرُك عليه صيرنا الحقَّ إلى مطالبتك ؛ فائن عن همك اثن عن مطالبتك ، إن شاء الله .

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب مجيباً له :

أما بعد ؛ فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين ، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه ، ولم يسأل ما يوجبه حقَّ فيلزمني الحجة بترك إجابته ؛ وإنما يتجاوز المناظران^(٢) منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها ؛ فتي تجاوز متجاوز - وهي موجودة الوسع - ولم يكن تجاوزها إلّا عن نقضها واحتمال ما في تركها ؛ فلا تبغني يابن أبي علي مخالفتك وأنا مذعنٌ بطاعتك ، ولا على قطيعتك . وأنا على إثثار ما تحب من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك . والسلام .

٧٨٥/٣

ثم أحضر الرّسل ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب في أمرٍ كتبت له في جوابه ، فأبلغوه الكتاب ، وأعلموه أني لا أزال على طاعته ؛ حتى يضطرنى

(١) تلط : تعجد . (٢) كذا في ١ ، وفي ط : « المناظران » .

بترك الحقّ الواجب إلى مخالفته . فذهبوا يقولون ، فقال : قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم ، وأحسنوا تأدية ما سمعتم ؛ فقد أبلغتمونا من كتابنا ما عسى أن تقولوه لنا . فانصرف الرسل ولم يُثبتوا لأنفسهم حجة ، ولم يحملوا خبراً يؤدونه إلى صاحبهم ، ورأوا جداً غير مشوب بهزل ، في منع ما كُفِّم من حقهم الواقع - بزعمهم .

فلما وصل كتاب المأمون إلى محمد وصل منه ما فطع به ، وتخطط^(١) غيظاً بما تردّد منه [في سمعه]^(٢) ، وأمر عند ذلك بما ذكرناه من الإمساك عن الدّعاء له على المنابر ؛ وكتب إليه :

أما بعد ؛ فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكّن لك من ظلمها ، متعرّضاً لحراق نار لا قبيل لك بها ، ولحظّك عن الطاعة كان أودع لك ؛ وإن كان قد تقدّم مني متقدّم ؛ فليس بخارج من مواضع نفعلك إذ كان راجعاً على العامة من رعيّتك ؛ وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ، ويثبت لك من حال الهدنة ؛ فأعلمني رأيك أعمل عليه . إن شاء الله .

وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل ، أن المأمون قال لذي الرياستين : إن ولدي وأهلي ومالي الذي أفردته الرّشيد لي بحضرة محمد - وهو مائة ألف ألف - وأنا إليها محتاج ، وهي قبيله فما ترى في ذلك ؟ وراجعه في ذلك مراراً . فقال له ذو الرياستين : أيّها الأمير ، بك حاجة إلى فضلة مالك ؛ وأن يكون أهلك في دارك وجنابك ؛ وإن أنت كتبت فيه كتاب عزمة فننعلك صار إلى خلع عهده ؛ فإن فعل حمّلك ولو بالكُمره على محاربتك ؛ وأنا أكره أن تكون المستفتح باب الفرقة ما أرتجه الله دونك ؛ ولكن تكتب كتاب طالب لحقك ، وتوجيه أهلك على ما لا يوجب عليه المنع نكثاً لعهدك ؛ فإن أطاع فنعمة وعافية ؛ وإن أبى لم تكن بعثت على نفسك حرباً [أو مشاقة] . فكتب إليه ، فكتب عنه :

أما بعد ؛ فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظراً من لا يقتصر عنه على إعطاء النّصفه من نفسه حتى يتجاوزها إليهم ببرّه وصلته ؛ وإذا كان ذلك رأيه في

(١) : « قطع به » ، والمتخط : المقشعر غضباً . (٢) من ١ .

عامته ؛ فأحزب بأن يكون على مجاوزة ذلك بصنوه وقسيم نسبه ؛ فقد تعلم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها من ثغور حلت بين لهواتها ، وأجناد لاتزال موقنة بنشر غيبتها وبنكت آرائها ، وقلة الحرج قبلي ، والأهل والولد قبلي أمير المؤمنين ، وما للأهل — وإن كانوا في كفاية من بر أمير المؤمنين ، فكان لهم والدًا — بُدّ من الإشراف والنزوع إلى كنفي ، ومالي بالمال من القوة والظهير على لمّ الشعث بحضرتي ، وقد وجهت لحمل العيال وحمل ذلك المال ؛ فرأى أمير المؤمنين في إجازة فلان إلى الرقة في حمل ذلك المال ، والأمر بمعونته عليه ، غير محرج له فيه إلى ضيقة تقع بمخالفته ، أو حامل له على رأي يكون على غير موافقة . والسلام .

٧٨٧/٣

فكتب إليه محمد :

أما بعد ؛ فقد بلغني كتابك بما ذكرت مما عليه رأي أمير المؤمنين في عامته فضلاً عما يجب من حقّ لذي حرّمته وخليط نفسه ، ومحلّك بين لهوات ثغور ، وحاجتك لحلك بينها إلى فضلة من المال لتأييد أمرك ؛ والمال الذي سُمّي لك من مال الله ، وتوجيهك من وجهته في حمله وحمل أهلك من قبيل أمير المؤمنين . ولعمري ما ينكر أمير المؤمنين رأياً هو عليه مما ذكرت لعامته ، يوجب عليه من حقوق أقربيه وعامته . وبه إلى ذلك المال الذي ذكرت حاجة في تحصين أمور المسلمين ؛ فكان أوّل به لإجراؤه منه على فرائضه ، وردّه على مواضع حقه ؛ وليس بخارج من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيّتك . وأما ما ذكرت من حمل أهلك ؛ فإن رأي أمير المؤمنين تولّى أمرهم ؛ وإن كنت بالمكان الذي أنت به من حقّ القرابة . ولم أر من حملهم على سفرهم مثل الذي رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتت ؛ وإن أرّ ذلك من قبلي أوجههم إليك مع الثقة من رسل إن شاء الله . والسلام .

٧٨٨/٣

قال : ولما ورد الكتاب على المأمون ، قال : لا طّ دون حقنا يريد أن نتوهن مما يمنع من قوتنا ، ثم يتمكن للوهنة من الفرصة في مخالفتنا . فقال له ذو الرياستين : أو ليس من المعلوم دفع الرشيد ذلك المال إلى الأمين لجمعه ، وقبض الأمين إياه على أعين الملائ من عامته ؛ على أنه يحرسه قنيّة ، فهو

لا ينزع إليها؛ فلا تأخذ عليه مضايقتها، وأمل له ما لم تضطرك جريئته إلى مكاشفته بها؛ والرأى لزوم عروة الثقة، وحسم الفرقه؛ [فإن أمسك فبنعمة] ^(١) وإن تطلع إليها فقد تعرض لله بالمخالفة، وتعرضت منه بالإمسك للتأييد والمعونة.

قال : وعلم المأمون والفضل أنه سيحدث بعد كتابه من الحدث ما يحتاج إلى لسمه ^(٢)، ومن الخبر ما يحتاج أن يباشره بالثقة من أصحابه، وأنه لا يحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النباهة والأقدار من الشيعة وأهل السابقة؛ فرأى أن يختار رجلاً يكتب معه إلى أعيان أهل العسكر من بغداد؛ فإن أحدث محمد خلعاً للمأمون صار إلى دفعها، وتلطف لعلم حالات أهلها؛ وإن لم يفعل من ذلك شيئاً خنس في حقيقته، وأمسك عن إيصالها، وتقدم إليه في التعجيل . ٧٨٩/٣

ولما قدم أوصل الكتب، وكان كتابه مع الرسول الذي وجهه لعلم الخبر : أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين كأعضاء البدن، يحدث العلة في بعضها؛ فيكون كرهه ذلك مؤلماً لجميعها؛ وكذلك الحدث في المسلمين، يكون في بعضهم فيصل كرهه ذلك إلى سائرهم؛ للذي يجمعهم من شريعة دينهم، ويلزمهم من حرمة أخوتهم ^(٣)، ثم ذلك من الأئمة أعظم للمكان الذي به الأئمة من سائر أممهم؛ وقد كان من الخبر ما لا أحسبه إلا سيغرب عن محنته، ويسفر عما استتر من وجهه؛ وما اختلف مختلفان فكان أحدهما مع أمر الله إلا كان أول معونة المسلمين وموالاتهم في ذات الله؛ وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع؛ وبحيث إن قلت أذن لقولك؛ وإن لم تجد للقول مساعاً فأمسكت عن مخوف اقتدي فيه بك؛ ولن يضيع على الله ثواب الإحسان مع ما يجب علينا بالإحسان من حقل، ولحظ حازلك النصيين أو أحدهما أمثل من الإشراف لأحد الحظيين، مع التعرض لعدمهما، فاكتب إلى برأيك، وأعلم ذلك لرسولي ليؤديه إلى عنك . إن شاء الله .

وكتب إلى رجال النباهة من أهل العسكر بمثل ذلك .

قال : فوافق قدوم الرسول بغداد ما أمر به من الكف عن الدعاء للمأمون

(١) من أ . (٢) كذا في أ ، وفي ط « عليه » .

(٣) ط : « آخرتهم » ، وما أثبتته من أ .

في الخطبة يوم الجمعة ، وكان بمكان الثقة من كل من كتب إليه معه ؛ فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرب للرسول عمّا في نفسه ، ومنهم من أجاب عن كتابه ؛ فكتب أحدهم :

٧٩٠/٣

أما بعد فقد بلغني كتابك وللحق برهان يدل على نفسه تثبت به الحجة على كل من صار إلى مفارقتك ؛ وكفى غبنًا بإضاعة حظ من حظ العاقبة ؛ للمأمول من حظ عاجلة ، وأبين من الغبن إضاعة حظ عاقبة مع التعرض للنكبة والوقائع ؛ ولي من العلم بمواضع حظي ما أرجو أن يحسن معه النظر مني لنفسى ، ويضع عني مؤنة استراذتي . إن شاء الله .

قال : وكتب الرسول المتوجّه إلى بغداد إلى المأمون وذى الرياستين :

أما بعد ، فإنني وافيتُ البلدة ، وقد أعلن خليطك بتنكره ، وقدم علمًا من اعتراضه ومفارقته [وأمسك عمّا كان يجب ذكره وتوفيته] ^(١) بحضرته ؛ ودفعت كتبك فوجدت أكثر الناس ولاية السريّة ونفاة العلانية ، ووجدت المشرفين بالرعية لا يحوطون إلّا عنها ولا يبالون ^(٢) ما احتملوا فيها ؛ والمنازع محتجج الرأى ، لا يجد دافعًا منه عن همّه ، ولا راغبًا في عامه ، والحلون بأنفسهم يحلون تمام الحدث ؛ ليسلموا من منهزم حدثهم ، والقوم على جدّ ، ولا تجعلوا للتواني [في أمركم نصيبًا] ^(٣) إن شاء الله والسلام .

قال : ولما قدم على محمد من معسكر المأمون سعيد بن مالك بن قادم وعبد الله بن حميد بن قحطبة والعباس بن الليث مولى أمير المؤمنين ومنصور بن أبي مطر وكثير بن قاذرة ، أطففهم وقربهم ، وأمر لمن كان قبض منهم الستّة الأشهر برزق اثني عشر شهرًا ، وزادهم في الخاصة والعامة ، ولمن لم يقبضها بمائة عشر شهرًا .

٧٩١/٣

قال : ولما عزم محمد على خلع المأمون دعا يحيى بن سليم فشاورة في ذلك ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك مع ما قد وكّد الرشيد من بسعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للإيمان والشرائط في الكتاب الذى

كتبه ! فقال له محمد : إن رأى الرشيد كان فلتةً شَبَّهَها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، واستماله برُفاه وعُقْدَه ، فغرس لنا غَرْساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائهِ والراحة منه . فقال : أما إذا كان رأى أمير المؤمنين خلعةً ، فلا يُجَاهِرُه مجاهرةً فيستنكرها الناس ، ويستشنعها العامة ؛ ولكن تستدعى الجندَ بعد الجند والقائدَ بعد القائد ، وتؤنسه ^(١) بالألطف والهدايا ، وتفرق ثقاته ومن معه ، وترغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطماع ؛ فإذا أوهنت قوّته ، واستفرغت رجاله ، أمرته بالقدوم عليك ؛ فإن قدم صار إلى الذى تريد منه ؛ وإن أبى كنت قد تناولته وقد كلّ حده وهيض جناحه ، وضعف ركنه وانقطع عزّه . فقال محمد : ما قَطَعَ أمراً كصريمة ، أنت مهذار خطيب ، ولست بذى رأى ، فزلّ عن هذا الرأى إلى الشيخ الموفق والوزير الناصح ^(٢) ؛ قم فالحق بمدادك وأقلامك ؛ [قال يحيى : فقلت : غضب] ^(٣) يشوبه صدق ونصيحة ، أشرت إلى رأى يخلطه غش وجهل . قال : فوالله ما ذهبت الأيامُ حتى ذكر كلامه ، وقرّعه بخطئه وخرقه .

قال سهل بن هارون : وقد كان الفضل بن سهل دسّ قومًا اختارهم ممن يثق به من القوادر والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبار يوماً يوماً ، فلما هم محمد بخلع المأمون ، بعث الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء الرجال يشاوره فيما يرى من ذلك ، فعظم الرجلُ عليه أمر نقض العهد للمأمون ، وقبّح الغدر به ، فقال له الفضل : صدقت ؛ ولكن عبد الله قد أحدث الحدث الذى وجب به نقض ما أخذ الرشيد له . قال : أفقتبتُ الحجة عند العوام بمعلوم حديثه كما تثبت الحجة بما جدد من عهده ! قال : لا ، قال : أفحدثُ هذا منكم يوجب عند العامة نقضَ عهدكم ما لم يكن حديثه معلوماً يجب به فسْخُ عهده ! قال : نعم ، قال الرجل - ورفع صوته : بالله ما رأيتُ كالיום رأى رجل يرتاد به النظر ، يشاور فى رفع ملك فى يده بالحجة ثم يصير إلى مطالبتها بالعناد والمغالبة ! قال : فأطرق الفضل ملياً ، ثم قال : صدقتنى الرأى ، واحتملت ثقل الأمانة ؛ ولكن أخبرنى إن نحن أغمضنا من قالة العامة ووجدنا مساعدين

(١) ابن الأثير : « وتؤنسها » . (٢) أى الفضل بن الربيع . (٣) من ١ .

تاريخ الطبرى - ثامن

من شيعتنا وأجنادنا ، فما القول ؟ قال : أصلحك الله ، وهل أجنادك إلا من عامتلك في أخذ بيعتهم وتمكن برهان الحق في قلوبهم ! أفليسوا وإن أعطوك ظاهر طاعة هم مع ما تأكد من وثائق العهد في معارفهم ؛ قال : فإن أعطونا بذلك الطاعة قال : لا طاعة دون أن تكون على تثبيت من البصائر . قال : نرغبهم بتشريف حظوظهم ، قال : إذاً يصيروا إلى التقبّل ، ثم إلى خذلانك عند حاجتك إلى مناصحتهم . قال : فما ظنك بأجناد عبد الله ؟ قال : قوم على بصيرة من أمرهم لتقدّم بيعتهم وما يتعاهدون من حظّهم ، قال : فما ظنك بعامتهم ؟ قال : قوم كانوا في بلوى عظيمة من تحيف ولاتهم في أموالهم ، ثم في أنفسهم صاروا به إلى الأمانة من المال والرفاغة في المعيشة ، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم ، ويتذكرون بلية لا يأمنون العودة إليها . قال : فهل من سبيل إلى استفساد عظماء البلاد عليه ؛ لتكون محاربتنا إياه بالمكيدة من ناحيته ، لا بالزخرف نحوه لمناجزته ! قال : أما الضعفاء فقد صاروا له إلباً لما نالوا به من الأمان والنّصفه ، وأما ذوو القوة فلم يجدوا مطعناً ولا موضع حجة ، والضعفاء السواد الأكثر . قال : ما أراك أبقيت لنا موضع رأى في اعتزالك إلى أجنادنا ، ولا تمكّن النظر في ناحيته باحتيالنا ، ثم أشدّ من ذلك ما قلت به وهنة أجنادنا وقوة أجناده في مخالفته . وما تسخو نفس أمير المؤمنين بترك ما لا يعرف من حقه ، ولا نفسى بالهدنة مع تقدم جرى في أمره ، وربما أقبلت الأمور مشرفة بالخفاة ، ثم تكشف عن الفلّج والدرك في العاقبة . ثم تفرقا .

٧٩٣/٣

قال : وكان الفضل بن الربيع أخذ بالمراسد لثلاث تجاوز الكتب الحد ؛ فكتب الرسول مع امرأة ، وجعل الكتاب وديعة في عودٍ منقور من أعواد الأكاف ، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر ؛ وكانت المرأة تمشي على المسالح كالخجاجة من القرية إلى القرية ، لا تُهاج ولا تفتش . وجاء الخبر إلى المأمون موافقاً لسائر ما ورد عليه من الكتب ، قد شهد بعضها ببعض ، فقال لذي الرياستين : هذه أمور قد كان الرأي أخبر عن عيبها ، ثم هذه طوالع تخبر عن أواخرها ، وكفانا أن نكون مع الحق ، ولعل كرهاً يسوق خيراً . قال : وكان أول ما دبره الفضل بن سهل بعد ترك الدعاء للمأمون وصحة

٧٩٤/٣

الخبره ، أن جمع الأجناد التي كان أعدّها بجنّبات الرّى مع أجناد قد كان مكنها فيها ، وأجناد للقيام بأمرهم ؛ وكانت البلاد أجذبت بحضرتهم ؛ فأعدّ لهم من الحمولة ما يحمل إليهم من كل فجّ وسبيل ؛ حتى ما فقدوا شيئاً احتاجوا إليه ، وأقاموا بالحدّ لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء في عامد ولا مجتاز . ثمّ أشخص طاهر بن الحسين فيمنّ ضمّ إليه من قواده وأجناده ، فسار طاهر مغذّاً لا يلوى على شيء ، حتى ورد الرّى ، فنزلها ووكل بأطرافها ، ووضع مسالحه ، وبثّ عيونه وطلّاعه ، فقال بعض شعراء خراسان :

رَمَى أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمَنْ عَلَيْهَا إِمَامُ الْعَدْلِ وَالْمَلِكُ الرَّشِيدُ
بِأَحْزَمِ مَنْ مَشَى رَأْيًا وَحَزْمًا وَكَيْدًا نَافِذًا فِيمَا يَكِيدُ
بِدَاهِيَّةٍ نَادٍ^(١) خَنْفَقِي يَشِيبُ لِهَوْلِ صَوْلَتِهَا الْوَلِيدُ

وذكر أن محمداً وجه عيصمة بن حماد بن سالم إلى همدان في ألف رجل ، وولاه حرب كور الجبل ، وأمره بالمقام بهمدان ، وأن يوجه مقدمته إلى ساوة ، واستخلف أخاه عبد الرحمن بن حماد على الحرس ، وجعل الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى يلهبان محمداً ، ويبعثانه على خلع المأمون والبسعة لابنه موسى .

* * *

وفي هذه السنة عمّد محمد بن هارون في شهر ربيع الأول لابنه موسى على جميع ما استخلفه عليه ، وجعل صاحب أمره كلّهُ على بن عيسى بن ماهان ، وعلى شُرطه محمد بن عيسى بن نهيك ، وعلى حرسه عثمان بن عيسى ابن نهيك ، وعلى خراجهِ عبد الله بن عبيدة وعلى ديوان رسائله على بن صالح صاحب المصلى .

وفي هذه السنة وثب الروم على ميخائيل صاحب الروم فهرب وترهب ، وكان ملكه سنتين فيما قيل .

(١) ط : « نَاد » ، تصحيف ، صوابه من ا ، والنّاد والخنفقيق ، من أسماء الدواهي .

وفيها ملك على الروم ليون القائد .

وفيها صرف محمد بن هارون إسحاق بن سليمان عن حِمَص، وولّاها عبد الله بن سعيد الحرّشيّ، ومعه عافية بن سليمان، فقتل عدّة من وجوههم، وحبس عدّة، وحرق مدينتهم من نواحيها بالنار، فسألوه الأمان، فأجابهم فسكنوا ثم هاجوا، فضرب أعناق عدّة منهم .

ثم دخلت سنة خمسن وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر محمد بن هارون بإسقاط ما كان ضرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدرهم بخراسان في سنة أربع وتسعين ومائة ؛ لأن المأمون كان أمر ألا يثبت فيها اسم محمد ، وكان يقال لتلك الدنانير والدرهم الرباعية ، وكانت لا تجوز حيناً .

* * *

[النهي عن الدعاء للمأمون على المنابر]

وفيها نهى الأمين عن الدعاء على المنابر في عمله كله للمأمون والقاسم ، وأمر بالدعاء له عليها ثم من بعده لابنه موسى ، وذلك في صفر من هذه السنة ، وابنه موسى يومئذ طفل صغير ، فسماه الناطق بالحق ، وكان ما فعل من ذلك عن رأى الفضل بن الربيع ، فقال في ذلك بعض الشعراء :

أضاعَ الخلافةَ غُشُّ الوزيرِ وَفَسَقُ الأَمِيرِ ، وَجَهْلُ المَشِيرِ
فَفَضَّلُ وزيرٌ ، وَبَكَرُ مشيرٌ يُريدانِ ما فيه حتفُ الأَمِيرِ^(١)

فبلغ ذلك المأمون ، فتسمى بإمام الهدى ، وكتب بذلك .

* * *

عقد الإمرة لعلي بن عيسى

وفيها عقد محمد لعلي بن عيسى بن ماهان يوم الأربعاء ليلة خلست من شهر ربيع الآخر على كُور الجبل كلها : نهاوند وهمدان وقم وأصفهان ،

(١) ذكرهما ابن الأثير ؛ وذكر بعدهما ثالثاً ، ونسبا إلى بعض شعراء بغداد ؛ وقال بعدها : « في عدة أبيات تركتها لما فيها من القذف الفاحش ولقد عجبت لأبي جعفر حيث ذكرهما مع ورعه وندم الابن على نكته وغدره » . والقصيدة بتأني في ص ٣٩٦ من هذا الجزء .

حربها وخراجها ، وضمّ إليه جماعة من القوّاد وأمر له - فيما ذكر - بمائتي ألف دينار ، ولولده بخمسين ألف دينار ، وأعطى الجند مالا عظيماً ، وأمر له من السيوف الحلاّة بألني سيف وستة آلاف ثوب للخياص ، وأحضر محمد أهل بيته ومواليه وقوّاده المقصورة بالشماسية يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الآخرة ، فصلى محمد الجمعة ، ودخل وجلس لهم ابنه موسى في المحراب ، ومعه الفضل ابن الربيع وجميع منّ أحضر ، فقرأ عليهم كتاباً من الأمين يعلمهم رأيهم فيه وحقه عليهم ، وما سبق لهم من البيعة متقدماً مفرداً بها ، ولزوم ذلك لهم ، وما أحدث عبد الله من التسمي بالإمامة ، والدعاء إلى نفسه ، وقطع ذكره في دور الضرب والطّرز ؛ وأنّ ما أحدث من ذلك ليس له ؛ ولا ما^(١) يدعي من الشروط التي شرّطت له بجائزة له . وحشهم على طاعته ، والتمسك ببيعته .

وقام سعيد بن الفضل الخطيب بعد قراءة الكتاب ، فعارض ما في الكتاب بتصديقه والقول بمثله . ثم تكلم الفضل بن الربيع وهو جالس ، فبالغ في القول وأكثر ، وذكر أنه لا حقّ لأحد في الإمامة والخلافة إلا لأمر المؤمنين محمد الأمين ؛ وأنّ الله لم يجعل لعبد الله ولا غيره في ذلك حظاً له ولا نصيباً . فلم يتكلّم أحد من أهل بيت محمد ولا غيرهم بشيء إلاّ محمد بن عيسى بن نهيك ونفر من وجوه الحرّس . وقال الفضل بن الربيع في كلامه : إنّ الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خراسان من صلّب ماله بثلاثة آلاف ألف درهم تقسم بينكم . ثم انصرف الناس ، وأقبل علىّ بن عيسى على محمد يخبره أنّ أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون أنه إن خرج هو أطاعوه وانقادوا معه .

٧٩٧/٣

* * *

[شخصوس علىّ بن عيسى إلى حرب المأمون]

وفيها شخصوس علىّ بن عيسى إلى الرّبيّ إلى حرب المأمون .

* ذكر الخبر عن شخصوسه إليها وما كان من أمره في شخصوسه ذلك :

ذكر الفضل بن إسحاق ، أنّ علىّ بن عيسى شخصوس من مدينة السلام

(١) ط : « وما » ، وما أثبتته من ا .

عشيّة الجمعة لحمس عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة ،
 شخص عشيّة تلك فيما بين صلاة الجمعة إلى صلاة العصر إلى معسكره بنهر
 بين ؛ فأقام فيه في زهاء أربعين ألفاً ، وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون بزعمه ،
 وشخص معه محمد الأمين إلى النهر وان يوم الأحد لست بقيت من جمادى
 الآخرة ، فعرض بها الذين ضُموا إلى عليّ بن عيسى ، ثم أقام بقية يومه ذلك
 بالنهر وان ، ثم انصرف إلى مدينة السلام . وأقام عليّ بن عيسى بالنهر وان
 ثلاثة أيام ، ثم شخص إلى ما وجّه له مسرعاً حتى نزل همدان ، فولّى عليها
 عبد الله بن حميد بن قسحطبة . وقد كان محمد كتب إلى عصمة بن حماد
 بالانصراف في خاصة أصحابه وضم بقية العسكر وما فيه من الأموال وغير
 ذلك إلى عليّ بن عيسى ، وكتب إلى أبي دلف القاسم بن عيسى بالانضمام
 إليه فيمن معه من أصحابه ، [ووجه] ^(١) معه هلال بن عبد الله الحضرمي ،
 وأمر له بالفرّض ، ثم عقد لعبد الرحمن بن جبلة الأبنوي ^(٢) على الدّينور ،
 وأمره بالسّير في بقية أصحابه ، ووجه معه ألفي ألف درهم حملت إليه قبل
 ذلك ، ثم شخص عليّ بن عيسى من همدان يريد الرّبيّ قبل ورود عبد الرحمن
 عليه ، فسار حتى بلغ الرّبيّ على تعبئة ، فلقه طاهر بن الحسين وهو في أقل
 من أربعة آلاف - وقيل كان في ثلاثة آلاف وثمانمائة - وخرج من عسكر
 طاهر ثلاثة أنفس إلى عليّ بن عيسى يتقربون إليه بذلك ، فسألهم : من هم ؟
 ومن أيّ البلدان هم ؟ فأخبره أحدهم أنه كان من جند عيسى أبيه ^(٣) الذي قتله
 رافع . قال : فأنت من جندي ! فأمر به فضرب مائتي سوط ، واستخفّ
 بالرجلين . وانتهى الخبر إلى أصحاب طاهر ، فازدادوا جيّداً في محاربتة ونفورا منه .
 فذكر أحمد بن هشام أنه لم يكن ورّد عليهم الكتاب من المأمون ، بأن
 تسمى بالخلافة ، إذ التقيا - وكان أحمد على شُرطة طاهر - فقلت لطاهر :
 قد ورد عليّ بن عيسى فيمن ترى ، فإن ظهرنا له ؛ فقال : أنا عامل أمير المؤمنين
 وأقرّنا له بذلك ، لم يكن لنا أن نحاربه . فقال لي طاهر : لم يجئني في هذا

(١) تكلمة من ا ، وموضعها بياض في ط .

(٢) ط : « الأبنوي » تصحيف .

(٣) ط : « ابنه » ، وصوابه من ا .

شيء ، فقلت : دَعْنِي وما أريد ، قال : شَأْنُكَ ، قال : فصعدت المنبر ، فخلعت محمدًا ، ودعوت للمأمون بالخلافة ، وسرنا من يومنا أو من غدٍ يوم السبت ، وكان ذلك في شعبان سنة خمس وتسعين ومائة ، فنزلنا قسطنطينة ، وهي أول مرحلة من الرّى إلى العراق . وانتهى على بن عيسى إلى بريّة يقال لها مشكويه ، وبيننا وبينه سبعة فراسخ ، وجعلنا مقدمتنا على فرسخين من جنده^(١) . وكان على بن عيسى ظنّ أن طاهرًا إذا رآه يسلم إليه العمل ؛ فلما رأى الجِدّ منه ، قال : هذا موضع مفازة ، وليس [موضع مقام]^(٢) . فأخذ يساره إلى رُستاق يقال له رستاق بنى الرازى ، وكان معنا الأتراك ، فنزلنا على نهر ، ونزل قريبًا منا ، وكان بيننا وبينه دكادك وجبال ؛ فلما كان في آخر الليل جاءنى رجل فأخبرنى أن على بن عيسى دخل الرّى - وقد كان كاتبهم فأجابوه - فخرجتُ معه إلى الطريق ، فقلت له : هذا طريقهم ؛ وما هنا أثر حافر ، وما يدلّ على أنه سار . وجئت إلى طاهر فأنبهته ، فقلت له : تصلى ؟ قال : نعم ، فدعا بماء فتهيأ ، فقلت له : الخبر كيت وكيت . وأصبحنا ، فقال لى : تركب ، فوقفنا على الطريق ، فقال لى : هل لك أن تجوز هذه الدكادك ؟ فأشرفنا على عسكر على بن عيسى وهم يلبسون السلاح ، فقال : ارجع ، أخطأنا ، فرجعنا فقال لى : أخرج أصحابنا .

٨٠٠/٣

قال : فدعوت المأمون والحسن بن يونس المحاربى والرستمى^(٣) ، فخرجوا جميعًا ؛ فكان على الميمنة المأمونى ، وعلى الميسرة الرستمى ومحمد بن مصعب . قال : وأقبل على فى جيشه ؛ فامتألت الصحراء بياضًا وصُفرة من السلاح والمذهب^(٤) ، وجعل على ميمنته الحسين بن على ومعه أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس ، وعلى ميسرته آخر ، وكرّوا ، فهزّمونا حتى دخلوا العسكر ، فخرج إليهم الساعة السّوءاء^(٥) فهزّموهم .

قال : وقال طاهر لما رأى على بن عيسى : هذا ما لا قبيل لنا به ، ولكن نجعلها خارجيّة ، فقصد قصد القلب ، فجمع سبعمائة رجل من الخوارزمية ؛

(١) ا : « من قسطنطينة » . (٢) من ا . (٣) ط : « الرستمى » ، تحريف .
(٤) ط : « والمذهب » . (٥) ساعة سوءاء : شديدة .

فيهم ميكائيل وسبسل وداود سياه .

قال أحمد بن هشام : قلنا لظاهر : نذكر عليّ بن عيسى البيعة التي كانت ، والبيعة التي أخذها هو للمأمون خاصة على معاشر أهل خراسان ، فقال : نعم ؛ قال : فعلتُناهما على رُمحين ، وقمت بين الصفيين ، فقلت : الأمان ! لا ترمونا ولا نرميكم ؛ فقال عليّ بن عيسى : ذلك لك ، فقلت : يا عليّ بن عيسى ، ألا تتقَى الله ! أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة ! اتقَى الله فقد بلغت باب قبرك ، فقال : مَنْ أنت ؟ قلت : أحمد بن هشام — وقد كان عليّ بن عيسى ضربه أربعمئة سوط — فصاح عليّ بن عيسى : يا أهل خراسان ، مَنْ جاء به فله ألف درهم . قال : وكان معنا قوم بخارية ، فرموه ، وقالوا : نقتلك ونأخذ مالك : وخرج من عسكره العباس بن الليث مولى المهديّ ، وخرج رجل يقال له حاتم الطائيّ ، فشدّ عليه طاهر ، وشدّ يديه على مقبض السيف ، فضربه فصرعه [فقتله] ^(١) ، وشدّ داود سياه على عليّ بن عيسى فصرعه ؛ وهو لا يعرفه . وكان عليّ بن عيسى على بردون أرّحل ^(٢) ، حملة عليه محمد — وذلك يكرّهُ في الحرب ويدلّ على الهزيمة — قال : فقال داود : «نارى اسنان كتبتم» . قال : فقال طاهر الصغير — وهو طاهر بن التاجيّ : عليّ بن عيسى أنت ؟ قال : نعم ، أنا عليّ بن عيسى ، وظنّ أنه يهّاب فلا يقدم عليه أحد ، فشدّ عليه فذبّه بالسيف . ونازعهم محمد بن مقاتل بن صالح الرّأس ، فنتف محمد خُصلة من لحيته ، فذهب بها إلى طاهر وبشره ؛ وكانت ضربة طاهر هي الفتح ، فسمّى يومئذ ذا اليمينين بذلك السبب لأنه أخذ السيف بيديه [جميعاً] ^(١) . وتناول أصحابه النشاب ليرمونا ، فلم أعلم بقتل عليّ حتى قيل : قتل والله الأمير . فتبعناهم فرسخين ، وواقفونا اثني عشرة مرّة ، كلّ ذلك نهزمهم ؛ فلحقني طاهر بن التاجيّ ، ومعه رأس عليّ ابن عيسى ؛ وكان آلى أن ينصب رأس أحمد عند المنبر الذي خلّص عليه محمد ، وقد كان عليّ أمر أن يهيا له الغداء بالرّبيّ . قال : فانصرفت فوجدت عيبة

(١) من ١ .

(٢) بردون أرّحل : أبيض الظهر .

على فيها دَرَاة وجبة وغُلالة، فلبستها، وصليت ركعتين شكراً لله تبارك وتعالى. ووجدنا في عسكره سبعمائة كيس؛ في كل كيس ألف درهم، ووجدنا عدة بغال عليها صناديق في أيدي أولئك البخارية الذين شتموه، وظنّوا أنه مال؛ فكسروا الصناديق؛ فإذا فيها خمر سوادى، وأقبلوا يفرقون القناني، وقالوا: عملنا الجدة^(١) حتى نشرب.

قال أحمد بن هشام: وجئت إلى مضرب طاهر، وقد اغتمّ لتأخرى عنه، فقال: لى البشرى! هذه خصلة من لحية على، فقلت له: البشرى! هذا رأس على. قال: فأعنت طاهر من كان بحضرته من غلمانة شكراً لله، ثم جاءوا بعلى وقد شد الأعوان يديه إلى رجله، فحمل على خشبة كما يحمل الحمار الميت^(٢) وأمر به فلف في لبد وألقى في بئر. قال: وكتب إلى ذى الرياستين بالخبر. قال: فسارت الخريطة وبين مرّو وذلك الموضع نحو من خمسين ومائتى فرسخ؛ ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، ووردت عليهم يوم الأحد. قال ذو الرياستين: كنا قد وجهنا هرثمة، واحتشدنا في السلاح مدداً، وسار في ذلك اليوم، وشيعة المأمون فقلت للمأمون: لا تبرح، حتى يسلم عليك بالخلافة فقد وجبت لك، ولا نأمن أن يقال: يصلح بين الأخوين، فإذا سلم عليك بالخلافة لم يمكن أن ترجع. فتقدمت أنا وهرثمة والحسن بن سهل، فسلمنا عليه بالخلافة، وتبادر شيعة المأمون، فرجعت وأنا كالـ تنعّب لم أنم ثلاثة أيام في جهاز هرثمة، فقال لى الخادم: هذا عبد الرحمن بن مدرك — وكان يلى البريد، ونحن نتوقع الخريطة لنا أو علينا — فدخل وسكت، قلت: ويلك! ما وراءك؟ قال: الفتح؛ فإذا كتاب طاهر إلى: أطل الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنوك فداءك؛ كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدي، وخاتمه فى أصبعي؛ والحمد لله رب العالمين. فوثبت إلى دار أمير المؤمنين، فلحقنى الغلام بالسّواد، فدخلت على المأمون فبشّرته، وقرأت عليه الكتاب، فأمر بإحضار أهل بيته والقوّاد ووجوه الناس، فدخلوا فسلموا عليه بالخلافة، ثم ورد رأس على يوم الثلاثاء، فطيف به فى خراسان.

٨٠٣/٣

(١) : « العمل ». (٢) بعدها فى ١ : « عز عليك أبا يحيى أن ترد هذا المورد ».

وذكر الحسن بن أبي سعيد ، قال : عقدنا لظاهر سنة أربع وتسعين ومائة فاتصل عقده إلى الساعة .

وذكر محمد بن يحيى بن عبد الملك النيسابورى ، قال : لما جاء نعى على ابن عيسى وقتله إلى محمد بن زبيدة - وكان في وقته ذلك على الشط يصيد السمك - فقال للذى أخبره : ويلك ! دعنى ؛ فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد . قال : وكان بعض أهل الحسد يقول : ظنّ طاهر أن علياً يعلو عليه ، وقال : متى يقوم طاهر لحرب على مع كثرة جيشه وطاعة أهل خراسان له ! فلما قتل على تضاعل ، وقال : والله لو لقيه طاهر وحده لقاتله في جيشه حتى يغلب أو يقتل دونه .

وقال رجل من أصحاب على له بأس ونجدة في قتل على ولقاء طاهر :

لقينا الليث مفترساً لديه وكنا ما يُنهِنهُنَّ اللقاء
نخوض الموت والغمرات قدماً إذا ما كراً ليس به خفاء
فضضع ركبنا لما التقينا وراح الموت وانكشف الغطاء
وأردى كبشنا والرأس مناً كأن بكفه كان القضاء

٨٠٤/٣

ولما انتهى الخبر بقتل على بن عيسى إلى محمد والفضل ، بعث إلى نوفل خادم المأمون - وكان وكيل المأمون ببغداد وخازنه ، وقيّمه في أهله وولده وضياعه وأمواله - عن لسان محمد ، فأخذ منه الألف ألف درهم التي كان الرشيد وصل بها المأمون ، وقبض ضياعه وغلاته بالسواد ، وولّى عمّالاً من قبله ، ووجه عبد الرحمن الأبنأوى^(١) بالقوة والعدة فنزل همدان .

وذكر بعض من سمع عبد الله بن خازم عند ذلك يقول : يريد محمد إزالة الجبال وفلّ العساكر بتدبيره والمنكوس من تظهيره^(٢) ، هيهات ! هو والله كما قال الأول :

* قد ضيّع الله ذوداً أنت راعيها *

ولما بايع محمد لابنه موسى ووجهه على بن عيسى، قال الشاعر من أهل بغداد
في ذلك لما رأى تشاغل محمد بلهوه وبطالته وتخليته عن تدبير على والفضل
ابن الربيع :

أضاع الخِلافة غُشَّ الوزير
ففضل وزيرٌ ، وبكرٌ مشيرٌ
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ
لواط الخليفة أعجوبةٌ
فهذا يدوس وهذا يدأس
فلو يستعينان هذا بذلك
ولكن ذاك لَجَّ في كوثري
فشنَّع فغلاهما منهما
وأعجب من ذا وذا أننا
ومن ليس يُحسِنُ غُسلَ استه
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ
وهذان لولا انقلاب الزمان
ولكنها فتن كالجبال
فصبراً في الصبر خير كثير
فيارب فاقبضهما عاجلاً
ونكّل بفضلٍ وأشياءه

وَفِسقُ الإمامِ وَجَهْلُ المشيرِ؟
يُريدان ما فيه حُتْفُ الأميرِ
وشرُّ المسالكِ طُرُقُ الغرورِ
وَأعجبُ منه خلاقُ الوزيرِ
كذلك لَعَمري اختلافُ الأمورِ
لكانا بعُرْضةٍ أمرٍ سَتِيرِ
ولم يَشْفِ هذا دُعاسُ الحميرِ
وصاراً خِلافاً كَبُولِ البعيرِ
نبايعُ للطفلِ فينا الصغيرِ
ولم يَخْلُ من بَوْلِهِ حِجْرُ ظيرِ
يُريدانِ نَقْصَ الكِتابِ المنيرِ
أَفِي العيرِ هذانِ أم في النفيرِ
تَرْفَعُ فيها الوُضِيعُ الحَقِيرِ
وإن كان قد ضاق صدرُ الصَّبُورِ
إليك وأوردْهم عذابَ السعيرِ
وصَلِّبْهُمْ حولَ هَذِي الجُسُورِ

* * *

وذكر أن محمداً لما بعث إلى المأمون في البيعة لابنه موسى ، ووجه الرسل
إليه في ذلك ، كتب المأمون جواب كتابه :

أما بعد ، فقد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين منكراً لإبائي منزلة تهـصمـني بها ، وأرادني على خلاف ما يعلم من الحق فيها ، ولعمري أن لورد أمير المؤمنين الأمر إلى النصفه فلم يطالب إلا بها ، ولم يوجب نكرة على تركها ، لانبسط بالحجة مطالع مقالته ؛ ولكنك محجوجاً بمفارقة ما يجب من طاعته ؛ فأما وأنا مدعين بها وهو على ترك إعمالها ، فأولى به أن يُدير الحق في أمره ، ثم يأخذ به ، ويعطي من نفسه ؛ فإن صرت إلى الحق فرغت عن قلبه ؛ وإن أبيت الحق قام الحق بمعذرتي . وأما ما وعد من بر بطاعته ، وأوعد من الوطأة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارق الحق في فعله فأبقى للمستبين موضع ثقة بقوله ! والسلام .

٨٠٦/٣

قال : وكتب إلى علي بن عيسى لما بلغه ما عزم عليه :

أما بعد ؛ فإنك في ظل دعوة لم تزل أنت وسلـفك بمكان ذب عن حريمها ؛ وعلى العناية بحفظها ورعاية لحقتها ، توجبون ذلك لأئمتكم ، وتعتصمون بحبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يداً على أهل مخالفتكم ، وحزباً وأعواناً^(١) لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتتصرفون فيما تصرفوا فيه من منزلة شديدة ورجاء ، لاترون شيئاً أبلغ في صلاحكم من الأمر الجناح لأئمتكم ؛ ولا أحرى لبواركم مما دعا إلى شتات كلمتكم ، ترون من رغب عن ذلك جائراً عن القصد وعن أمه على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفاً من سيوف نقيم الله ، فكم من أولئك قد صاروا وديعة مسبغة ، وجزراً جامدة ؛ قد سفت الرياح في وجهه ، وتداغت السباع إلى مضرعه ، غير ممد ولا موسد قد صار إلى أمة ، وغير عاجل حظه ؛ ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك ؛ بحيث أنزلتم أنفسكم ، من الثقة بكم في أمورها ، والتقدمة في آثارها ؛ وأنت مستشعر دون كثير من ثقاتها وخاصتها ؛ حتى بلغ الله بك في نفسك أن كنت قريع أهل دعوتك ، والعلم القائم بمعظم أمر أئمتك^(٢) ؛ إن قلت : ادنوا دنواً وإن أشرت : أقبلوا أقبلوا وإن أمسكت وقفوا وأقروا ، وثاماً لك واستنصاحاً ، وتزداد نعمة مع الزيادة في نفسك ، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلت المحل الذي

٨٠٧/٣

(١) ط : « وإخوانا » . (٢) ط : « أئمتك » وما أثبتته من أ .

قُرْبَتَ به من يومك ، وانقرض فيما دونه أكثر مدتك ، لا يُستَظَر بعدها إلاّ ما يكون ختامَ عملك من خير فيَرْضَى ما تقدّم من صالح فعلك ؛ أو خلاف فيضلّ له متقدّمٌ سعيك ؛ وقد ترى يا أبا يحيى حالاً عليها جلوت أهل نعمتك ، والولاة القائمة بحق إمامتك ؛ من طعن في عُقْدَةِ كُنْتَ القائم بشبّها ، وخرت بعهود توليت معاقد أخذها ؛ يُبدأ فيها بالأخصيين ، حتى أفضى الأمر إلى العامّة من المسلمين ، بالأيمان المحرّجة والمواثيق المؤكدة . وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة ، وتفريق أمر أمة وشتّ أمر جماعة ، وتعرض به لتبديل نعمة وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة ؛ ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصلّ زوالها إليكم في خواصّ أنفسكم ؛ ولن يغيّر الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وليس الساعى في نشرها بيسّاعٍ فيها على نفسه دون السعى على حسملتها ، القائمين بحجرتها ؛ قد عرّضوهم أن يكونوا جزراً لأعدائهم ، وطُعْمة قوم تتظفر بمخالبهم في دمائهم . ومكانك المكان الذى إن قلت رُجِعَ إلى قولك ، وإن أشرت لم تشتم في نصيحتك ؛ ولك مع إثبات الحقّ الحظوة عند أهل الحقّ . ولا سواء من حظّى بعاجل مع فراق الحقّ فأوبق نفسه في عاقبته ، ومن أعان الحقّ فأدرك به صلاح العاقبة ؛ مع وفور الحظّ في عاجلته ، وليس لك ما تُستندّ عى ولا عليه ما تُستعطف ؛ ولكنه حقّ من حقّ أحسابك يجب ثوابه على ربك ، ثم على منّ قمت بالحقّ فيه من أهل إمامتك ؛ فإن أعجزك قول أو فعل فصر إلى الدّار التى تأمن فيها على نفسك . وتحكم فيها برأيك ، وتنحاز إلى منّ يحسن تقبلاً لصالح فعلك ، ويكون مرجعك إلى عقدك وأموالك ؛ ولك بذلك الله ، وكفى بالله وكيلاً . وإن تعذّر ذلك بقيّة^(١) على نفسك ، فإمساكاً بيدك ، وقولاً بحقّ ، ما لم تخف وقوعه بكُرْهك ؛ فلعلّ مقتدياً بك ، ومغبطاً بنهيك^(٢) . ثم أعلمنى رأيك أعرفه إن شاء الله .

٨٠٨/٣

قال : فأنى علىّ بالكتاب إلى محمد ، فشبّ أهل النكث من الكُفّاة من تلهيه ، وأوقدوا نيرانه ، وأعان على ذلك حُمياً قُدْرته ، وتساقط طبيعته ، وردّ الرأى إلى الفضل بن الربيع لقيامه كان بمكانفته . وكانت كُتُبُ ذى الرياستين ترد إلى الدّيسيس الذى كان يشاوره فى أمره : إن

أبى القوم إلا عزمة الخلاف ؛ فألطف لأن يجعلوا أمره لعلى بن عيسى . وإنّما خصّ ذو الرياستين عليّاً بذلك لسوء أثره في أهل خراسان ، واجتماع رأيهم على ما كرهه ؛ وإنّ العامة قائلة بحربه . فشاور الفضل الدّيسيس الذي كان يشاوره ، فقال : على بن عيسى إن فعل فلم ترمهم بمثله ، في بعد صوبه وسخاوة نفسه ، ومكانه في بلاد خراسان في طول ولايته عليهم وكثرة صنائعه فيهم ، ثم هو شيخُ الدّعوة وبقيّة أهل المشايعة ؛ فأجمّعوا على توجيهه على ؛ فكان من توجيهه ما كان . وكان يجتمع للمأمون بتوجيهه على جنّدان : أجناده الذين يحاربه بهم ، والعامة من أهل خراسان حرب عليه لسوء أثره فيهم ؛ وذلك رأى يكثر الأخطار به إلا في صدور رجال ضعاف الرّأى لحال على في نفسه ، وما تقدّم له ولسلّفته ؛ فكان ما كان من أمره ومقتله .

٨٠٩/٣

وذكر سهل أن عمرو بن حفص مولى محمد قال : دخلت على محمد في جوف الليل - وكنت من خاصّته أصليّ إليه حيث لا يصل إليه أحدٌ من مواليه وحشمه - فوجدته والشمع بين يديه ، وهو يفكّر ، فسلمت عليه فلم يردّ على ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره ، فلم أزله واقفاً على رأسه حتى مضى أكثر الليل ، ثم رفع رأسه إلى ، فقال : أحضرنى عبد الله بن خازم ، فضيت إلى عبد الله ، فأحضرت ، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل ، فسمعت عبد الله وهو يقول : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أوّل الخلفاء نكثَ عهدَه ، ونقضَ ميثاقَه ، واستخفّ بيمينه ، وردّ رأى الخليفة قبله ! فقال : اسكت ، لله أبوك ! فعبد الملك كان أفضل منك رأياً ، وأكمل نظراً ؛ حيث يقول : لا يجتمع فحلان في هجّة^(١) . قال عمرو بن حفص : وسمعت محمداً يقول للفضل ابن الربيع : ويلك يا فضل ! لاهياة مع بقاء عبد الله وتعرّضه ؛ ولا بدّ من خلسه ، والفضل يعينه على ذلك ، ويعدّه أن يفعل ؛ وهو يقول : فتى ذلك ! إذا غلب على خراسان وما يليها !

وذكر بعضُ خدم محمد أن محمداً لما همّ بخلع المأمون والبسّعة لابنه ؛ جمع وجوه القوّاد ؛ فكان يعرض عليهم واحداً واحداً ، فيأبّونه ؛ وربما

(١) الهجّة من الإبل : من الأربعين إلى ما زادت .

ساعده قوم^{*} حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم ؛ فشاوره في ذلك ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبتك ولم يغشك من صدقك ، لاتجرب
القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ،
فإن الغادر مخذول ، والناكث مفلول . وأقبل على بن عيسى بن ماهان ،
فتبسم محمد ، ثم قال : لكن شيخ هذه الدعوة ، وناب هذه الدولة لا يخالف
على إمامه ، ولا يوهن طاعته ، ثم رفعه إلى موضع لم أره رفعه إليه فيما مضى ؛
فيقال : إنه أول القواد أجاب إلى خلع عبد الله ، وتابع محمداً على رأيه .

٨١٠/٣

قال أبو جعفر : ولما عزم محمد على خلع عبد الله ، قال له الفضل بن
الربيع : ألا تُعذر إليه يا أمير المؤمنين فإنه أخوك ؛ ولعله يسلم هذا الأمر في
عافية ، فتكون قد كُفيت مؤونته ، وسلمت من محاربتة ومعادنته^(١) ! قال :
فأفعل ماذا ؟ قال : تكتب إليه كتاباً ، تستطيب به نفسه ، وتسكن وحشته ،
وتسأله الصّفح لك عما في يده ؛ فإن ذلك أبلغ في التدبير ، وأحسن في القالة
من مكاثرتة بالجنود ، ومعالجته بالكيد . فقال له : أعمل في ذلك برأيك^(٢) . فلما
حضر إسماعيل بن صُبَيْح للكتاب إلى عبد الله قال : يا أمير المؤمنين ، إن
مسألتك الصّفح عما في يديه توليد للظن ، وتقوية للتهمة ، ومدعاة للحندر ؛
ولكن اكتب إليه فأعلمه حاجتك إليه ، وما تحب من قربهِ والاستعانة
برأيه ، وسلّمه القدوم إليك ؛ فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته
وإجابته . فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين ، قال : فليكتب بما رأى ،
قال :.. فكتب إليه :

من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين .
أما بعد ، فإن أمير المؤمنين روى في أمرك ، والموضع الذي أنت فيه من
ثغره^(٣) ، وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكافئة على ما حمّله الله ، وقلّده من
أمر عبادهِ وبلاده ؛ وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرّشيد أوجب لك من الولاية ،
وأمر به من إفرادك على ما يصبر إليك منها ، فرجاً أمير المؤمنين ألا يدخل عليه
وكف في دينه ، ولا تكت في يمينه ؛ إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على

٨١١/٣

(١) ١ : « منابذته » . (٢) ط : « رأيك » ، وما أثبتته من أ .

(٣) ط : « ثغرك » ، وما أثبتته من أ .

المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدّ للثغور، وأصلح للجنود، وأكد^(١) لانيء ، وأردّ على العامة من مقامك ببلاد خراسان منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيّباً عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتديريك . وقد رأى أمير المؤمنين أن يولّي موسى بن أمير المؤمنين فيما يقلده من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك . فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه ، بأبسط أمل وأفسح رجاء وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ؛ فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النصب فيما فيه من صلاح أهل ملته^(٢) وذمته . والسلام .

ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وإلى عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك ، وإلى صالح صاحب المصلى ، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى عبدالله المأمون ، وألا يدعوا وجهاً من اللين والرقق إلا بلغوه ، وسهلوا الأمر عليه فيه ؛ وحمل بعضهم الأموال والألطاف والهدايا ؛ وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة . فتوجهوا بكتابته : فلما وصلوا إلى عبد الله ، أذن لهم ، فدفعوا إليه كتاب محمد ، وما كان بعث به معهم من الأموال والألطاف والهدايا .

٨١٢/٣

ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الأمير ؛ إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلًا عظيمًا ، ومن النظر في أمور الناس عبثًا جليلاً ، وقد صدقت نيته في الخير ، فأعوزة الوزراء والأعوان والكفأة في العدل ؛ وقليل ما يأنس بأهل بيته ، وأنت أخوه وشقيقه ؛ وقد فزع إليك في أموره ، وأتمك للموازرة والمكائفة ؛ ولنا نستبطئك في برّه اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعة تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسلطانه ؛ فأجب أيها الأمير دعوة أخيك وآثر طاعته ، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره ؛ فإن في ذلك قضاء الحق ، وصلة الرحم ، وصلاح الدولة ، وعزّ الخلافة . عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال : إن الإكثار على الأمير - أيده الله - في القول خرق ، والاقتصاد في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ؛ وقد غاب الأمير أكرمه الله عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قرب ، ومن شهد غيره من أهل بيته فلا يجد عنده غناء ، ولا يجد منه خلقاً ولا عوضاً ؛ والأمير أولى من بر أخاه ، وأطاع إمامه ؛ فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين ، بما هو أرضى وأقرب من موافقة أمير المؤمنين ومحبة ؛ فإن القدوم عليه فضل وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وكف في الدين ، وضرر ومكرره على المسلمين .

٨١٣/٣

وتكلم محمد بن عيسى بن نسيك ، فقال : أيها الأمير ؛ إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نسحذ نيتك بالأساطير والخطب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين . وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرته ، وتناولك فرغاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تجب أمير المؤمنين فيما دعاك فنعمة عظيمة تتلاني بها رعييتك وأهل بيتك ؛ وإن تقعد يغن الله أمير المؤمنين عنك ؛ ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البر بك والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

وتكلم صاحب المصلى ، فقال : أيها الأمير ؛ إن الخلافة ثقيلة والأعوان قليل ؛ ومن يكيد هذه الدولة وينطوي على غشها والمعادنة لأوليائها من أهل الخلافة^(١) والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ، وصلاح الأمور وفسادها راجع عليك وعليه ؛ إذ أنت ولي عهده ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنس وسكون لأهل الملة والذمة . وفق الله الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له !

فحمد الله المأمون وأثنى عليه ، ثم قال : قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين أكرمه الله ما لا أنكره ، ودعوتوني من الموازنة والمعونة إلى ما أوتره ولا أدفعه ؛ وأنا ليطاعة أمير المؤمنين مقدم ، وعلى المسارعة إلى ما سره ووافقه حريص ، وفي

٨١٤/٣

(١) ط : « الخلافة » ، وما أثبتته من أ .

الروية تبيانُ الرأى ، وفي أعمال الرأى نصحُ الاعتزام ؛ والأمر الذى دعانى إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُّطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعَجَلَةً ، وأنا فى تَخَرُّ من ثغور المسلمين كِلْبٌ عدوة ، شديدٌ شوكته ، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقمت لم آمن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرتة ، وإيثار طاعته ؛ فانصرفوا حتى أنظر فى أمرى ، ونصح الرأى فيما أعتزم عليه من مسيرى إن شاء الله . ثم أمر بإزلالهم وإكرامهم والإحسان إليهم .

فذكر سفيان بن محمد أن المأمون لما قرأ الكتاب أسقط فى يده ، وتعاضمه ما ورد عليه منه ، ولم يدُر ما يردُّ عليه ، فدعا الفضل بن سهل ، فأقرأه الكتاب ، وقال : ما عندك فى هذا الأمر ؟ قال : أرى أن تتمسك بموضعك ، ولا تجعل عليك سبيلا ؛ وأنت تجد من ذلك بدءاً . قال : وكيف يمكنى التمسك بموضعى ومخالفة محمد ، وعُظُم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه ، مع ما قد فرق فى أهل بغداد من صلاته وفوائده ! وإنما الناس مائلون مع الدِّراهم ، منقادون لها ، لا ينظرون إذا وجدوها حفظاً بيعة ، ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة . فقال له الفضل : إذا وقعت التهمة حقاً الاحتراس ، وأنا لغدر محمد متخوف ، ومن شرَّهه إلى ما فى يديك مشفق ؛ ولأن تكون فى جندك وعزك مقبياً بين ظهرائى أهل ولايتك أحرى ؛ فإن دهمك منه أمر جرّدت له وناجزته وكايدته ؛ فإمّا أعطاك الله الظَّفَر عليه بوفائِكَ ونَيْتِكَ ، أو كانت الأخرى فتّ محافظاً مكراً ، غير ملقٍ بيديك ، ولا ممكن عدوك من الاحتكام فى نفسك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أتانى وأنا فى قوّة من أمرى ، وصلاح من الأمور ؛ كان خطبه يسيراً ، والاحتياال فى دفعه ممكناً ؛ ولكنه أتانى بعد إفساد خُرّاسان واضطراب عامرها وغامرها ، ومفارقة جِسْبَغويه^(٢) الطاعة ، والتواء خاقان صاحب التبت ، وتهيؤ ملك كابل للغارة على ما يليه من بلاد خُرّاسان ، وامتناع ملك إبرازبنده بالضريبة التى كان يؤديها ، وما لى بواحدة من هذه الأمور يدٌ ؛ وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدوى

٨١٥/٣

(١) ط : « علينا » ، وما أتيت من ا .

(٢) ط : « جينغويه » .

إلا لشرّ يريد ، وما أرى لإلتخية ما أنا فيه ، واللاحق بخاقان ملك الترك ، والاستجارة به وببلاد ، فبالحرى أن آمن على نفسى ، وأمتنع ممن أراد قهّرى والغدر بى .

فقال له الفضل : أيها الأمير ؛ إن عاقبة الغدر شديدة ، وتبعية الظلم والبغى غير مأمون شرّها ، وربّ مستذلّ قد عاد عزيزاً ، ومقهور قد عاد قاهراً مستطيلاً ؛ وليس النصر بالقلة والكثرة ، وحرّج^(١) الموت أيسر من حرج الذلّ والضيم ؛ وما أرى أن تفارق ما أنت فيه وتصير إلى طاعة محمد متجرداً من قوّادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه ، يُجرى عليك حكمه ، فتدخل فى جملة أهل مملكته من غير أن تبلى عذراً فى جهاد ولا قتال ؛ ولكن اكتب إلى جينغويه وخاقان ، فولّهما بلادهما ، وعدّهما التقوية لهما فى محاربة الملوك ، وابعث إلى ملك كابل بعض هدايا خراسان وطرفها ، وسلّمه الموادعة تجده على ذلك حريصاً ، وسلّم الملك إبرازبنده ضريبتّه فى هذه السنة ، وصيرها صلةً منك وصلته بها ، ثم اجمع إليك أطرافك ، واضمّم إليك من شدّة من جندك ، ثم اضرب الخيل بالخيّل ، والرجال بالرجال ؛ فإن ظفرت وإلا كنت على ما تريد من اللحاق بخاقان قادراً . فعرف عبد الله صدق ما قال ، فقال : أعمل فى هذا الأمر وغيره من أمورى بما ترى ، وأنفد الكتب إلى أولئك العصاة ، فرضوا وأذعنوا ؛ وكتب إلى من كان شاذّاً عن مسرّو من القواد والجنود ، فأقدمهم عليه ، وكتب إلى طاهر بن الحسين وهو يومئذ عامل عبد الله على الرىّ ، فأمره أن يضبط ناحيته ، وأن يجمع إليه أطرافه ؛ ويكون على حدّريّ وعدّة من جيش إن طرّقه ، أوعدوّه إن هجم عليه . واستعدّ للعرب ، وتهيأ لدفع محمد عن بلاد خراسان .

٨١٦/٣

ويقال : إن عبد الله بعث إلى الفضل بن سهل فاستشاره فى أمر محمد ، فقال : أيها الأمير ، أنظرنى فى يومى هذا أغدّ عليك برأى ؛ فبات يدبّر الرأى ليلته ؛ فلما أصبح غدا عليه ، فأعلمه أنه نظر فى التجوم فرأى أنه سيغلبه ، وأنّ العاقبة له . فأقام عبد الله بموضعه ، ووطن نفسه على محاربة محمد ومناجزته .

فلما فرغ عبد الله مما أراد لإحكامه من أمر خراسان ، كتب إلى محمد :

لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هارون ؛ أما بعد ؛
فقد وصل إلى كتاب أمير المؤمنين ؛ وإنما أنا عامل من عماله وعون
من أعوانه ، أمرني الرشيد صلوات الله عليه بلزوم هذا الثغر ، ومكايده
من كايده أهله من عدو أمير المؤمنين ؛ ولعمري إن مقامى به ، أردت على
أمير المؤمنين وأعظم غناءً عن المسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين ، وإن كنت
مغتبطاً بقربه ، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده ؛ فإن رأى أن يقرني على عملي ،
ويعفيتني من الشخوص إليه ، فعل إن شاء الله . والسلام .

٨١٧/٣

ثم دعا العباس بن موسى وعيسى بن جعفر ومحمداً وصالحاً ؛ فدفع الكتاب
إليهم ، وأحسن إليهم في جوائزهم ، وحمل إلى محمد ما تهياً له من ألطاف
خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمره عنده ، وأن يقوموا بعذره .

قال سفيان بن محمد : لما قرأ محمد كتاب عبد الله^(١) ، عرف أن المأمون
لا يتابعه على القدوم عليه ، فوجه عصمة بن حماد بن سالم صاحب حرّسه ،
وأمره أن يقيم مسلحةً فيما بين همدان والرّي ، وأن يمنع التجار من حمل
شيء إلى خراسان من الميرة ، وأن يفتش المارة ، فلا يكون معهم كتب بأخباره
وما يريد ؛ وذلك سنة أربع وتسعين ومائة . ثم عزم على محاربته ، فدعا على
ابن عيسى بن ماهان ، فعقد له على خمسين ألف فارس ورجل من أهل
بغداد ، ودفع إليه دفاتر الجند ، وأمره أن ينتق ويتخير من أراد على عينه ،
ويخص من أحب ويرفع من أراد إلى الثمانين^(٢) ، وأمكنه من السلاح وبيوت
الأموال ، ثم وجهوا إلى المأمون .

فذكر يزيد بن الحارث ، قال : لما أراد على الشخوص إلى خراسان ركب
إلى باب أم جعفر ، فودّعها ، فقالت : يا على . إن أمير المؤمنين وإن كان
ولدي ؛ إليه تناهت شفتي ، وعليه تكامل حنّدي ؛ فأني على عبد الله
منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ؛ وإنما ابني ملك نافس أخاه في

٨١٨/٣

سلطانه ، وغاره على ما في يده ؛ والكريم يأكل لحمه ويمنعه^(١) غيره ؛ فاعرف لعبد الله حقّ والده وأخوته ، ولا تجبّه بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه^(٢) بقيّد ولا غُلّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تعنّف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ؛ ولا تركب قبّله ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سَفّه عليك فلا تراه. ثم دفعتْ إليه قيّدًا من فضة ، وقالت : إن صار في يدك فقيّد بهذا القيد . فقال لها : سأقبل أمرَك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

وأظهر محمد خلع المأمون ، وباع لابنيه - في جميع الآفاق إلا خُرَاسان - موسى وعبد الله ؛ وأعطى عند بيعتهما بنى هاشم والقوّاد والجند الأموال والجوائز ، وسمّى موسى النّاطق بالحق ، وسمّى عبد الله القائم بالحق . ثم خرج على بن عيسى لسبع ليال خلون من شعبان سنة خمس وتسعين ومائة من بغداد حتى عسكر بالنّهر وان ، وخرج معه يشيعه محمد ، وركب القوّاد والجند ، وحُشرت الأسواق ، وأشخص معه الصّناع والفعلّة ؛ فيقال : إنّ عسكره كان فرسخًا بفسطاطيه وأهْبسته وأثقاله ، فذكر بعضُ أهل بغداد أنّهم لم يروا عسكراً كان أكثر رجالاته ، وأفره كُرَاعًا ، وأظهر سلاحًا ، وأتمّ عدّة ، وأكمل هيئة ؛ من عسكره .

وذكر عمرو بن سعيد أن محمدًا لما جاز باب خُرَاسان نزل على فترجّل ، وأقبل يُوصيه ، فقال : امنع جندك من العبث بالرعيّة والغارة على أهل القُرى وقطّع الشجر وانتهاك النساء ؛ وولّ الرّى يحيى بن عليّ ، واضم إليه جندًا كثيرًا ، ومرّه ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يجي من خراجها ؛ وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك ، ومنّ خرج إليك من جند أهل خُرَاسان ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضعّ عن أهل خُرَاسان رُبْع الخراج ، ولا تؤمّن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برُمح ؛ ولا تأذن لعبد الله في المّقام أكثر من ثلاثة من اليوم الذي تظهر فيه عليه ؛ فإذا أشخصته فليكن مع أوثق أصحابك عندك ؛ فإن غره الشيطان فناصبك

٨١٩/٣

(٢) ط : « ترهقه » .

(١) ط : « يمينه » ، وما أثبتته من ا .

فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كُور خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك . أفهيمت كل ما أوصيك به ؟ قال : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ! قال : سير على بركة الله وعونه !

وذكر أن منجمه أتاه فقال : أصلح الله الأمير ! لو انتظرت بمسيرك صلاح القمر ؛ فإن النحوس عليه عالية ، والسعود عنه ساقطة منصرفة ! فقال لغلام له : يا سعيد ؛ قل لصاحب المقدمة يضرب بطله ويقدم علمه ؛ فإننا لا ندرى ما فساد القمر من صلاحه ؛ غير أنه من نازلنا نازلناه ، ومن وادعنا وادعناه وكشفنا عنه ؛ ومن حاربنا وقتلنا لم يكن لنا إلا إرواء^(١) السيف من دمه . إنا لا نعتد بفساد القمر ؛ فإننا وطننا أنفسنا على صدق اللقاء ومناجزة الأعداء .

* * *

قال أبو جعفر : وذكر بعضهم أنه قال : كنتُ فيمن خرج في عسكر على بن عيسى بن ماهان ؛ فلما جاز حلوان لقيته القوافل من خراسان ؛ فكان يسألها عن الأخبار ، يستطلع عليهم أهل خراسان ؛ فيقال له : إن طاهراً مقيم بالريّ يعرض أصحابه ، ويرم آله ، فيضحك ثم يقول : وما طاهر ! فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ؛ وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب ؛ ثم التفت إلى أصحابه فقال : والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاص الشجر من الريح العاصف ؛ إلا أن يبلغه عبورنا عتبة همدان ، فإن السخال لا تقوى على النطاح ، واللعاب لا صبر لها على لقاء الأسد ؛ فإن يُقيم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظباة السيوف وأسنة الرماح .

وذكر يزيد بن الحارث أن على بن عيسى لما صار إلى عتبة همدان استقبل قافلة قدمت من خراسان ، فسألهم عن الخبر ، فقالوا : إن طاهراً مقيم بالريّ ، وقد استعد للقتال ، واتخذ آلة الحرب ، وإن المدد يترى عليه من خراسان وما يليها من الكور ؛ وإنه في كل يوم يعظم أمره ، ويكثر

(١) ط : « أروى » ، وما أثبتته من أ .

أصحابه ؛ وإنهم يرون أنه صاحب جيش خراسان . قال عليّ : فهل شخص من أهل خراسان أحد يعتدّ به ؟ قالوا : لا ؛ غير أن الأمور بها مضطربة ، والناس رعيون ، فأمر بطي المنازل والمسير ، وقال لأصحابه : إن نهاية القوم الرّى ، فلو قد صيرناها خلف ظهورنا فسّت ذلك في أعضادهم ، وانتشر نظامهم ، وتفرقت جماعتهم . ثم أنفذ الكتب إلى ملوك الديلم وجبال طبرستان وما والاها من الملوك ، يبعدهم الصّلات والجوائز . وأهدى إليهم التّيجان والأسورة والسيوف الخلاة بالذهب ، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ، ويمنعوا من أراد الوصول إلى طاهر من المدد ؛ فأجابوه إلى ذلك ، وسار حتى صار في أول بلاد الرّى ، وأتاه صاحب مقدّمته ، فقال : لو كنت - أبق الله الأمير - أذكيت العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدت موضعاً تعسكر فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ؛ كان ذلك أبلغ في الرّأى ، وأنس للجند . قال : لا ؛ ليس مثل^(١) طاهر يستعدّ له بالمكايد والتّحفظ ؛ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين : إما أن يتحصّن بالرّى فيبيته أهلها فيكفوننا مؤنته ، أو يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعساكرنا منه . وأتاه يحيى بن عليّ ، فقال : اجمع متفرق العسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرح الخيل إلّا ومعها كنف^(٢) من القوم ؛ فإنّ العساكر لا تناس بالتّواني ، والحروب لا تدبّر بالاغترار ؛ والثقة أن تحترز ، ولا تنقل : إن المحارب لي طاهر ؛ فالشرارة الخفية ربما صارت ضرماً ، والثلمة من السيل ربما اغتثرت بها وتُهوّن فصارت بجرّاً عظيماً ؛ وقد قربت عساكرنا من طاهر ؛ فلو كان رأيه الحرب لم يتأخر إلى يومه هذا . قال : اسكت ؛ فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ؛ وإنما تتحفّظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوئ لها أكفأها [ونظراءها]^(٣) .

وذكر عبد الله بن مجالد ، قال : أقبل عليّ بن عيسى حتى نزل من الرّى على عشرة فراسخ ، وبها طاهر قد سدّ أبوابها ، ووضع المسالحي على طرُقها ، واستعدّ لمحاربتة ؛ فشاور طاهر أصحابه ، فأشاروا عليه أن يقيم بمدينة الرّى ، ويدافع القتال ما قدّر عليه إلى أن يأتيه من خراسان المدد من الخيل ، وقائد

٨٢١/٣

(١) : « لئلا » . (٢) كنف ، أى حشد . (٣) من ا .

٨٢٢/٣

يتولى الأمر دونه ، وقالوا : إن مقامك بمدينة الرّى أرفقُ بأصحابك ، وأقدر لهم على الميرة ، وأكنّ من البرّد ، وأحترى إن دهمك قتال أن يعتصموا بالبيوت ، وتقوى على الماطلة والمطاولة ؛ إلى أن يأتيك مدد ، أو تردّ عليك قوّة من خلفك . فقال طاهر : إن الرأى ليس ما رأيتم ؛ إن أهل الرّى لعلّ هائبون ، ومن معرّته وسطوته متقون ؛ ومعه منّ قد بلغكم من أعراب البوادي وصعاليك الجبال ولقيف القرى ؛ ولست آمن إن هجم علينا مدينة الرّى أن يدعو أهلها خوفهم إلى الوثوب بنا ، ويعينوه على قتالنا ؛ مع أنه لم يكن قوم قوّا روعبوا في ديارهم^(١) ، وتورّد عليهم عسكرهم إلا وهنوا وذلوا ، وذهب عزهم ، واجترأ عليهم عدوهم . وما الرأى إلا أن نصير مدينة الرّى قنفاً^(٢) ظهورنا ؛ فإن أعطانا الله الظفّر ، وإلا عولنا عليها فقاتلنا في سككها ، وتحصناً في مسنعتها إلى أن يأتينا مدد أو قوّة من خراسان . قالوا : الرأى ما رأيت . فنادى طاهر في أصحابه فخرجوا . فعسكروا على خمسة فراسخ من الرّى بقرية يقال لها كلواص^(٣) ؛ وأتاه محمد بن العلاء فقال : أيها الأمير ؛ إن جنّدك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلاّت قلوبهم خوفاً ورُعْباً منه ، فلو أقمت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشامتهم أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم ! فقال : لا ؛ إني لا أوتى من قلة تجربة وحزّم ؛ إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخترت المناجزة لم آمن أن يطلعوا على قلتنا وعورتنا ؛ وأن يستميلوا منّ معى برغبة أو رهبة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحيم الخيل بالخيّل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبر محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ؛ فإن يرزق الله الظفّر والفالج فذلك الذى نريد ونرجو ؛ وإن تكن الأخرى ؛ فلست بأول منّ قاتل فقتيل ، وما عند الله أجزل وأفضل .

٨٢٣/٣

وقال على لأصحابه : بادروا القوم ؛ فإنّ عددهم قليل ، ولو زحفتم إليهم لم يكن لهم صبر على حرارة السيوف وطعن الرماح . وعبأ جنده ميمنة

(١) : « زوحمو على ديارهم » . (٢) : « وراء » . (٣) : « كلواص » .

وميسرة وقلباً ؛ وصيرَ عشر رايات ؛ في كلّ راية ألف رجل ، وقدم الرايات راية رايةً ، فصيرَ بين كلّ راية وراية غلّوة ، وأمرَ أمراءها : إذا قاتلت الأولى فصبّرت وحمت وطال بها القتال أن تُقدّم التي تليها وتؤخّر التي قاتلت حتى ترجع إليها أنفسُها ، وتسريح وتنشط للمحاربة والمعادة . وصيرَ أصحاب الدروع والخواشن والخذ أمام الرايات ، ووقف في القلب في أصحابه من أهل البأس والحفاظ والنجدة منهم .

وكتبَ طاهر بن الحسين كتابته وكرّس كراديسه ، وسوى صفوفه ، وجعل يمرّ بقائد قائد ، وجماعة جماعة ؛ فيقول : يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر ؛ إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ؛ إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم وصغروا ما عظمتهم ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ؛ وإنما يطلبون الباطل ويقاتلون على الغدر والجهل ؛ أصحاب سلب ونهب ؛ فلو قد غضضتم الأبصار ، وأثبتتم الأقدام ! قد أنجز الله وعده ، وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ؛ فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النّار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ؛ فإنما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين . وقلق قلقاً شديداً ، وأقبل يقول : يا أهل الوفاء والصدق ؛ الصبر الصبر الحفاظ الحفاظ ! وتزاحف الناس بعضهم إلى بعض ، ووثب^(١) أهل الرى ، فغلّتوا أبواب المدينة ، ونادى طاهر : يا أولياء الله ، اشتغلوا بمن أمامكم عمّن خلفكم ؛ فإنه لا ينجيكم إلاّ الجِدّ والصدق . وتلاحموا واقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، وعلت ميمنة علىّ على ميسرة طاهر ففضتها فضاً منكراً ، وميسرته على ميمنته فأزالته عن موضعها . وقال طاهر : اجعلوا بأسكم وجدّكم على كراديس القلب ؛ فإنكم لو فضضتم منها راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها . فصبر أصحابه صبراً صادقاً ، ثم حملوا على أوائل رايات القلب فهزموهم ؛ وأكثروا فيهم القتل ؛ ورجعت الرايات بعضها على بعض ، وانتقضت ميمنة علىّ . ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه ، فرجعوا على من كان في وجوههم ، فهزموهم ، وانتهت الهزيمة إلى علىّ

٨٢٤/٣

(١) كذا في ١ ، وفي ط « وتزاحف » .

فجعل ينادى أصحابه : أين أصحاب الأسورة والأكاليل ! يا معشر الأبناء ، إلى الكرّة بعد الفرّة ؛ معاودة^(١) الحرب من الصبر فيها . ورماه رجلٌ من أصحاب طاهر بسهم فقتله ، ووضعوا فيهم السيوف يقتلونهم ويأسرونهم ؛ حتى حال الليل بينهم وبين الطلب ، وغنموا غنيمة كثيرة ؛ ونادى طاهر في أصحابه على : مَنْ وضع سلاحه فهو آمن ، فطرحوا أسلحتهم ، ونزلوا عن دوابهم ، ورجع طاهر إلى مدينة الرّي ، وبعث بالأسرى والرّءوس إلى المأمون .

وذكر أن عبد الله بن عليّ بن عيسى طرّح نفسه في ذلك اليوم بين القتلى ؛ وقد كانت به جراحات كثيرة ، فلم يزل بين القتلى متشبّها بهم يومه وليستّه ؛ حتى أمن الطلب ، ثم قام فانضمّ إلى جماعة من فكلّ العسكر ، ومضى إلى بغداد ، وكان من أكابر ولده .

وذكر سفيان بن محمد أنّ عليّاً لمّا توجه إلى خراسان بعث المأمون إلى من كان معه من القوّاد يعرض عليهم قتاله رجلاً رجلاً ؛ فكلّتهم يصرح بالهنية ، ويعتلّ بالعلال ، ليجدوا إلى الإعفاء من لقائه ومحاربتة سبيلاً .

وذكر بعض أهل خراسان أنّ المأمون لما أتاه كتاب طاهر ، بخبر عليّ وما أوقع الله به ، قعد للناس ؛ فكانوا يدخلون فيهنّونه ويدعون له بالعزّ والنصر . وإنه في ذلك اليوم أعلن خلع محمد ، ودعى له بالخلافة في جميع كُور خراسان وما يليها ، وسرّ أهل خراسان ، وخطب بها الخطباء ، وأنشدت الشعراء ، وفي ذلك يقول شاعر من أهل خراسان^(٢) :

أصبحتِ الأُمّة في غِبْطَةٍ	من أمرِ دنياها ومن دينِها
إذ حفظت عهدَ إمام الهدى	خير بني حواء مأمونها
على شفا كانت فلماً وفّت	تخلّصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله إذ زُبرت	في ولده كتب دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى	وفقها الله لتزيينها !

وهي أبيات كثيرة .

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « معاودة » . (٢) كذا في ١ ، وفي ط : « يقول الشاعر » .

وذكر عليّ بن صالح الحرّبيّ أنّ عليّ بن عيسى لما قُتِلَ، أَرْجَفَ الناس ببغداد إرجافاً شديداً ، وندم محمد عليّ ما كان من ذِكْشِهِ وَغَدْرِهِ ، ومشى القوَاد بعضهم إلى بعض ، وذلك يوم الخميس للنصف من شوال سنة خمس وتسعين ومائة ، فقالوا : إنّ عليّاً قد قُتِلَ ، ولسنا نَشْكُ أنّ محمداً يحتاج إلى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع ؛ وإنما يحرك الرجال أنفسهم ، ويرفعها بأسها وإقدامها ؛ فليأمر كلُّ رجلٍ منكم جنده بالشَّغْبِ وطلب الأرزاق والجوائز ؛ فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ، ويصلح جندنا . فاتفق على ذلك رأيهم وأصبحوا ، فتوافقوا إلى باب الجسر وكبروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز . وبلغ الخبر عبد الله بن خازم ، فركب إليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قوَاد الأعراب ، فتراموا بالنشاب والحجارة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وسمع محمد التكبير والضحيج ؛ فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر ، فرجع إليه فأعلمه أنّ الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم . قال : فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال : لا ، قال : ما أهون ما طلبوا ! اوجع إلى عبد الله ابن خازم فرّه فليصرف عنهم ؛ ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، ورفع من كان دون الثمانين إلى الثمانين ، وأمر للقوَاد والخواصّ بالصَّلَاتِ والجوائز .

٨٢٦/٣

* * *

[توجيه الأمين عبد الرحمن بن جبلة لحرب طاهر]

وفي هذه السنة وجّه محمد المخلوع عبد الرحمن بن جبلة الأبنويّ إلى همدان لحرب طاهر .

* ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر عبد الله بن صالح أنّ محمداً لما انتهى إليه قتلُ عليّ بن عيسى بن ماهان ، واستباحة طاهر عسكره ، وجّه عبد الرحمن الأبنويّ في عشرين ألف رجل من الأبناء ، وحمل معه الأموال ، وقوّاه بالسلاح والخيّل ، وأجازة بجوائز ، وولّاه حُلُوان إلى ما غلب عليه من أرض خُرّاسان ، وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والسَّجْدَةِ والغناء منهم ، وأمره بالإكماش في السَّير ، وتقليل اللَّبْثِ

٨٢٧/٣

والتضجع^(١)؛ حتى ينزل مدينة هَمْدَان، فيسبق طاهراً إليها، ويخندق عليه وعلى أصحابه، ويجمع إليه آلة الحرب، ويغادى طاهراً وأصحابه إلى القتال. وبسط يده وأنفذ أمره في كل ما يريد العمل به، وتقدم إليه في التحفظ والاختراس، وترك ما عمل به على من الاغترار والتضجع، فتوجه عبد الرحمن حتى نزل مدينة هَمْدَان، فضبط طرقها، وحصن سورها وأبوابها، وسد ثلثيها، وحشر إليها الأسواق والصناعات، وجمع فيها الآلات والميصر، واستعد للقاء طاهر ومحاربه. وكان يحيى بن علي لما قُتِل أبوه هرب في جماعة من أصحابه، فأقام بين الرى وهَمْدَان؛ فكان لا يمر به أحد من قتل أبيه إلا احتسبه؛ وكان يرى أن محمداً سيوليه مكان أبيه، ويوجه إليه الخيل والرجال؛ فأراد أن يجمع الفل إلى أن يوافيه القوة والمدد؛ وكتب إلى محمد يستمده ويستنجد به؛ فكتب إليه محمد يعلمه توجيه عبد الرحمن الأبنائى، ويأمره بالمقام موضعه؛ وتلقى طاهر فيمن معه؛ وإن احتاج إلى قوة ورجال كتب إلى عبد الرحمن فقواه وأعانه.

فلما بلغ طاهراً الخبر توجه نحو عبد الرحمن وأصحابه، فلما قرب من يحيى، قال يحيى لأصحابه: إن طاهراً قد قرب منا ومعه من تعرفون من رجال خراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس، ولا آمن إن لقيته بمن معى من هذا القتل. أن يصد عنا صدعاً يدخل وهنه على من خلفنا، وأن يعتل عبد الرحمن بذلك، ويقلدني به العار والوهن والعجز عند أمير المؤمنين، وأن أستنجد به وأقيم على انتظار مدده؛ لم آمن أن يمسك عنا ضناً برجاله وإبقاء عليهم، وشحاً بهم على القتل؛ ولكن نتراحف إلى مدينة هَمْدَان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن؛ فإن استعنا به قرب منا عونته؛ وإن احتاج إلينا أعناؤه وكننا بفنائها، وقاتلنا معه. قالوا: الرأي ما رأيت؛ فانصرف يحيى، فلمّا قرب من مدينة هَمْدَان خذله أصحابه، وتفرق أكثر من كان اجتمع إليه، وقصد طاهر لمدينة هَمْدَان؛ فأشرف عليها، ونادى عبد الرحمن في أصحابه، فخرج على تعبئة، فصادف^(٢) طاهراً، فاقتلوا قتلاً شديداً، وصبر الفريقان جميعاً، وكثر القتلى

٨٢٨/٣

(٢) ط: «فصادف»، وما أثبت من أ.

(١) التضجع: القعود في الأمر.

والجرحي فيهم . ثم إنَّ عبد الرحمن انهزم ، فدخل مدينة هَمْدَان ، فأقام بها أياماً حتى قوى أصحابه ، واندمل جرحاهم ، ثم أمر بالاستعداد ، وزحف إلى طاهر ؛ فلما رأى طاهر أعلامه وأوائل أصحابه قد طلَعوا ، قال لأصحابه : إنَّ عبد الرحمن يريد أن يتراءى ^(١) لكم ؛ فإذا قربتم منه قاتلكم ؛ فإن هزمتموه بادر إلى المدينة فدخلها ، وقاتلكم على خندقها ، وامتنع بأبوابها وسورها ؛ وإن هزمتكم اتسع لهم المجال عليكم ، وأمكنته سعة المعترك من قاتلكم ، وقتل ^(٢) من انهزم ، وولّى منكم ؛ ولكن قفوا من خندقنا وعسكرنا قريباً ؛ فإن تقارب منا قاتلناه ؛ وإن بعد من خندقهم قَرُبنا منه . فوقف طاهر مكانه ، وظنَّ عبد الرحمن أنَّ الهيبة بطأت به من لقائه والنهوض إليه ، فبادر قتاله فاقتلوا قتالا شديداً ، وصبر طاهر ، وأكثر القتل في أصحاب عبد الرحمن ، وجعل عبد الرحمن يقول لأصحابه : يا معشر الأبناء ، يا أبناء الملوك وألفاف السيوف ؛ إنهم العجم ^(٣) ، وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر ؛ فاصبروا لهم فداكم أبي وأمى ! وجعل يمر على راية راية ، فيقول : اصبروا ؛ إنما صبرنا ساعة ، هذا أول الصبر والظفر . وقاتل بيديه قتالا شديداً ، وحمل حملات منكراً ما منها حملة إلا وهو يكثر في أصحاب طاهر القتل ؛ فلا يزول أحدٌ ولا يتزحزح . ثم إنَّ رجلاً من أصحاب طاهر حمل على أصحاب عَسَمَ عبد الرحمن فقتله ، وزحمتهم أصحاب طاهر زحمةً شديدة ، فولَّوهم أكتافهم ، فوضعوا فيهم السيوف ، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم إلى باب مدينة هَمْدَان ، فأقام طاهر على باب المدينة محاصراً لهم وله ؛ فكان عبد الرحمن يخرج في كل يوم فيقاتل على أبواب المدينة ، ويرى أصحابه بالحجارة من فوق السور ، واشتدَّ بهم الحصار ، وتأذى بهم أهلُ المدينة ، وتبرموا بالقتال والحرب ، وقطع طاهر عنهم المادّة من كل وجه . فلما رأى عبد الرحمن ، ورأى أصحابه قد هلكوا وجهدوا ، وتخوف أن يشب به أهلُ هَمْدَان أرسل إلى طاهر فسأله

٨٢٩/٣

(١) ط : « يترايا » .

(٢) ا : « وقتال » .

(٣) ط : « لعجم » ، وما أثبتته من ا .

الأمان له ولمن معه ؛ فأمنه طاهر ووفى له ، واعتزل عبد الرحمن فيمن كان استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن عليّ .

* * *

[تسمية طاهر بن الحسين ذا اليمينين]

وفي هذه السنة سُمّيَ طاهر بن الحسين ذا اليمينين .

* ذكر الخبر عن ذلك :

قد مضى الخبرُ عن السبب الذي من أجله سُمّيَ بذلك ، ونذكرُ الذي سَمّاه بذلك .

ذُكر أن طاهراً لما هزم جيش عليّ بن عيسى بن ماهان ، وقتل عليّ بن عيسى ، كتب إلى الفضل بن سهل : أطال الله بقاءك ، وكبّت أعداءك ، وجعل مَنْ يشنّوك فداك ! كتبتُ إليك ورأس عليّ بن عيسى في حبسجري ، وخاتمته في يدي ، والحمد لله ربّ العالمين . فنهض الفضل ، فسلم على المأمون بأمر المؤمنين ؛ فأمدّ المأمون طاهر بن الحسين بالرجال والقوادر ، وسَمّاه ذا اليمينين ، وصاحب جبل الدين ، ورفع من كان معه في دون الثمانين إلى الثمانين .

* * *

[ظهور السفينائي بالشام]

وفي هذه السنة ظهر بالشام السفينائي عليّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، فدعا إلى نفسه ؛ وذلك في ذى الحجة منها ، فطرد عنها سليمان بن أبي جعفر بعد حصره إياه بدمشق — وكان عامل محمد عليها — فلم يفلت منه إلا بعد اليأس ، فوجّه إليه محمد المخلاوع الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان ، فلم ينفذ إليه ؛ ولكنه لما صار إلى الرقة أقام بها .

* * *

[طرد طاهر عمال الأمين عن قزوين وكور الجبال]

وفي هذه السنة طرد طاهر عمال محمد عن قزوين وسائر كور الجبال .

* ذكر الخبر عن سبب لك :

ذكر عليّ بن عبد الله بن صالح أن طاهراً لما توجه إلى عبد الرحمن

الأبناوى بهمذان ، تخوف أن يثب به كثير بن قادة - وهو بقزوين عامل من عمال محمد - في جيش كثيف إن هو خلفه وراء ظهره ؛ فلما قرب طاهر من همدان أمر أصحابه بالنزول فنزلوا . ثم ركب في ألف فارس وألف راجل ، ثم قصد قصد كثير بن قادة ، فلما قرب منه هرب كثير وأصحابه ، وأخلى قزوين ، وجعل طاهر فيها جنداً كثيفاً ، وولاهما رجلاً من أصحابه ، وأمر أن يحارب من أراد دخولها من أصحاب عبد الرحمن الأبناوى وغيرهم .

٨٣١/٣

* * *

[ذكر قتل عبد الرحمن بن جبلة الأبناوى]

وفي هذه السنة قتل عبد الرحمن بن جبلة الأبناوى بأسداباذ .

* ذكر الخبر عن مقتله :

ذكر عبد الرحمن بن صالح أن محمداً المخلوع لما وجه عبد الرحمن الأبناوى إلى همدان ، أتبعه بابن الحرسى : عبد الله وأحمد ، في خيل عظيمة من أهل بغداد ، وأمرهما أن ينزلا قصر اللصوص ، وأن يسمعا ويطيعا لعبد الرحمن ، ويكونا مدداً له إن احتاج إلى عونهما . فلما خرج عبد الرحمن إلى طاهر في الأمان أقام عبد الرحمن يبرى طاهراً وأصحابه أنه له مسالم ، راضٍ بعهودهم وأيمانهم ؛ ثم اغترهم وهم آمنون . فركب في أصحابه ، فلم يشعر طاهر وأصحابه حتى هجموا عليهم ، فوضعوا فيهم السيوف ، فثبت لهم رجالة أصحاب طاهر بالسيوف والتراس والنشاب ، وجشوا على الركب ، فقاتلوه كأشد ما يكون من القتال ، ودافعهم الرجال إلى أن أخذت الفرسان عدتها وأهبتها ، وصدقوهم القتال ، فاقتتلوا قتالاً منكراً ، حتى تقطعت السيوف ، وتقصفت الرماح . ثم إن أصحاب عبد الرحمن هربوا ، وترجل هو في ناس من أصحابه ، فقاتل حتى قتل ، فجعل أصحابه يقولون له : قد أمكنك الهرب فاهرب ؛ فإن التوم قد كلبوا من القتال ، وأتعبتهم الحرب ، وليس بهم حراك ولا قوة على الطلب ، فيقول : لا أرجع أبداً ، ولا يرى أمير المؤمنين وجهه منهزماً . وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة ، واستبيح عسكره ، وانتهى من أفلت من أصحابه إلى عسكر عبد الله وأحمد ابني الحرسى ، فدخلهم الوهن ^(١) والفشل ، وامتلاأت

٨٣٢/٣

(١) ط : « الوهن » ، وما أثبتته من أ .

قلوبهم خوفاً ورعباً فولّوا منهزمين لا يلوون على شيء من غير أن يلقاهم أحد ؛ حتى صاروا إلى بغداد ، وأقبل طاهر وقد خلت له البلاد ، يحوز^(١) بلدةً بلدةً ، وكورةً وكورةً ؛ حتى نزل بقرية من قرى حلوان يقال لها شلاشان ؛ فخذق بها ، وحصّن عسكره ، وجمع إليه أصحابه . وقال رجل من الأبناء يرثى عبد الرحمن الأبنائى :

ألا إنما تبكى العيونُ لفارسٍ نفى العارَ عنه بالمناصلِ والقنا
تجلّى غبارُ الموتِ عن صحنِ وجهه وقد أحرزَ العليّا من المجدِ واقتنى
فتى لا يُبالى إن دنا من مروءةٍ أصابَ مصُون النفسِ أو ضيّعَ الغنى
يُقيمُ لأطرافِ الذّوابِلِ سُوقَها ولا يرهَبُ الموتَ المُتاحَ إذ أدنا

* * *

وكان العاملُ فى هذه السنة على مكة والمدينة من قبل محمد بن هارون داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو الذى حجّ بالناس فى هذه السنة وستين قبلها وذلك سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وأربع وتسعين ومائة .

وعلى الكوفة العباس بن موسى الهادى من قبل محمد .

وعلى البصرة منصور بن المهدي من قبل محمد .

وبخراسان المأمون ، وببغداد أخوه محمد .

٨٢٢/٣

(١) كذا فى أو ابن الأثير وفى ط : « يحوز » .

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر توجيه الأمين الجيوش لحرب طاهر بن الحسين]

فما كان من ذلك حبس محمد بن هارون أسد بن يزيد بن يزيد ، وتوجيهه أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد بن قحطبة إلى حلوان لحرب طاهر .

* ذكر الخبر عن سبب حبسه وتوجيهه من ذكرت :

ذكر عن عبد الرحمن بن وثاب أن أسد بن يزيد بن يزيد حدثه ، أن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن الأبنوي . قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، واحمرت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول : ينام نوم الظربان ؛ [وينتبه انتباه الذئب ، همم بطنه ، يخاتل الرعاء والكلاب ترصده ^(١) . لا يفكر في زوال نعمة ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ؛ قد ألماه كأسه ، وشغله قنـدحه ، فهو يجرى في لهوه ، والأيام توضع ^(٢) في هلاكه ؛ قد شمر عبد الله له عن ساقه ، وفوق له أصوب أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ، قد عبى له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلاء في أسنة الرماح وشفار السيوف . ثم استرجع ، وتمثل بشعر البسـيـث :

ومجدولة جدل العنان خريـدة	لها شعر جعد ووجه مـقسـم
وشعر نقي اللون عذب مذاقة	تضي لها الظلماء ساعه تبـسـم
وثديان كالحقنين ، والبطن ضامر	خميص ، وجه ناره تتـصـرم ^(٣)
لهوت بها ليل التمام ابن خالد	وأنت بمرور الرود غيظاً تجـرم ^(٤)

٨٣٤/٣

(١) من ا .

(٢) كذا في ا ، وفي ط : « تضرع » .

(٣) ابن الأثير : « ووجه ناره » .

(٤) كذا في ا وابن الأثير ، وفي ط : « على بمرور الرود » .

أَظَلُّ أَنَاغِيَهَا وَتَحْتَ ابْنِ خَالِدٍ أُمِّيَّةَ نَهْدُ الْمَرْكَدَيْنِ عَشْمُ
طَوَاهُ طِرَادُ الْخَيْلِ فِي كُلِّ غَارَةٍ لَهَا عَارِضٌ فِيهِ الْأَسِنَّةُ تُرْزَمُ
يُقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنِ خَاقَانَ لَيْلَةً إِلَى أَنْ يُرَى الْإِصْبَاحُ لَا يَتَلَعَّمُ
فِيُصْبِحُ مِنْ طُولِ الطَّرَادِ ، وَجِسْمُهُ نَجِيلٌ وَأُضْحَى فِي النِّعَمِ أَصْمَصِمُ
أَبَاكَرُهَا صَهْبَاءُ كَالْمَسْكِ رِيحُهَا لَهَا أَرْجُ فِي ذَنْهَا حِينَ تَرُشُّمُ (١)
فَشْتَانٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ خَالِدٍ أُمِّيَّةَ فِي الرِّزْقِ الَّذِي اللَّهُ قَاسِمُ (٢)

ثم التفت إلى فقال : يا أبا الحارث ، أنا وإياك نجرى إلى غاية ، إن قصّرنا عنها دَمِمْنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ؛ وإنما نحن شعب من أصل ؛ إن قوى قوينا ؛ وإن ضعف ضعفنا ؛ إن هذا قد ألقى بيده لإلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ؛ وقد أمكن مسامعه من أهل اللهو والجسارة ، فهم يعدونه الظفر ، ويمدونه عقب الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ؛ وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ، ونعطب بعطبه ؛ وأنت فارس العرب وابن فارسها ؛ قد فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران ؛ أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك ، والثاني يُمنّ تقبيتك وشدة بأسك ؛ وقد أمرني بإزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت ؛ غير أن الاقتصاد رأسُ النصيحة ومفتاح اليُمن والبركة ، فأنجز حوائجك ، وعجّل المبادرة إلى عدوك ؛ فإنني أرجو أن يؤوليك الله شرفَ هذا الفتح ، ويلمّ بك شعث هذه الخلافة والدولة . فقلت : أنا لطاعة أمير المؤمنين - أعزه الله - وطاعتك مقدم ، ولكلّ ما أدخل الوهن والذلّ على عدوّه وعدوك حريص ؛ غير أن المحارب لا يعمل بالغرور ، ولا يفتح أمره بالتقصير والحلل ؛ وإنما ميلاك المحارب الجنود ، وملاك الجنود المال ؛ وقد ملأ أمير المؤمنين أعزه الله أيدي من شهد العسكر من جنوده ، وتابع لهم الأرزاق الدارّة والصّلات والفوائد

(١) سقط هذا البيت من ط ، وأثبتته من ا وابن الأثير وترشم ، أى تختم .

(٢) ا ، وابن الأثير : « يقسم » .

الجزيلة ، فإن سرتُ بأصحابي وقلوبهم متطلعة إلى مَنْ خلفهم من إخوانهم لم أنتفع بهم في لقاء مَنْ أُمّى ، وقد فضل أهل السُّلم على أهل الحرب ، وجاز بأهل الدِّعة^(١) منازل أهل النَّصب والمشقة ؛ والذي أسأل أن يؤمّر لأصحابي برزق سنة ، ويحمل معهم أرزاق سنة ، ويخصَّ مَنْ لا خاصّة له منهم من أهل الغناء والبلاء ، وأبدل مَنْ فيهم من الزَّمنى والضَّعفاء ، وأحمل ألف رجل ممّن معي على الخيل ؛ ولا أُسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور . فقال : قد اشتطت^(٢) ؛ ولا بدّ من مناظرة أمير المؤمنين . ثم ركب وركبت معه ، فدخل قبلي على محمد ، وأذن لي فدخلتُ ، فما كان بيني وبينه إلا كلمتان حتى غضب وأمر بحبسي .

٨٣٦/٣

وذكر عن بعض خاصة محمد أن أسدأ قال لمحمد : ادفع إليّ ولديّ عبد الله المأمون حتى يكونا أسيرين في يدي ؛ فإن أعطاني الطاعة ، وألقى إليّ بيده ، وإلاّ عملت فيهما بحكمي ، وأنفذت فيهما أمرى . فقال : أنت أعرابيّ مجنون ؛ أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم ، وأطعمك خراج كُور الجبال إلى خُرّاسان ، وارفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القوّاد والملوك ، وتدعوني إلى قتل ولدي ، وسفك دماء أهل بيتي ! إن هذا للشُّرق والتخليط . وكان ببغداد ابنان لعبد الله المأمون ، وهما مع أمّهما أم عيسى ابنة موسى الهادي ، نزولا في قصر المأمون ببغداد ؛ فلما ظفر المأمون ببغداد خرجا إليه مع أمّهما إلى خُرّاسان ؛ فلم يزالا بها حتى قدموا ببغداد ، وهما أكبر ولده .

وذكر زياد بن عليّ ، قال : لما غضب محمد على أسد بن يزيد ، وأمر بحبسه ، قال : هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه ؛ فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم^(٣) وما تقدّم من طاعتهم ونصيحتهم ؟ قالوا : نعم ؛ فيهم أحمد بن يزيد ، وهو أحسنهم طريقة ، وأصحبهم^(٤) نيّة في الطاعة ؛ وله مع هذا بأس ونجده وبصّر بسياسة الجنود ولقاء الحروب ؛ فأنفذ إليه محمد برّيداً يأمره بالقدوم عليه ؛ فذكر بكر بن أحمد ، قال : كان أحمد

(١) ط : « الدعوة » ، وما أثبتته من أ . (٢) ابن الأثير : « أشطت » .

(٣) ابن الأثير : « نباقتهم » . (٤) أ : « أصلهم » .

٨٣٧/٣

متوجهاً إلى قرية تدعى إسحاقية ، ومعه نفر من أهل بيته ومواليه وحشمه ؛ فلما جاوز نهر أبان سمع صوت برید في جوف الليل ، فقال : إن هذا لعجيب ، برید في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الموضع ! إن هذا الأمر لعجيب . ثم لم يلبث البرید أن وقف ، ونادى الملاح : هل معك أحمد ابن مزید ؟ قال : نعم ؛ فنزل فدفع إليه كتاب محمد ، فقرأه ثم قال : إني قد بلغت ضيعتي ؛ وإنما بيني وبينها ميل ؛ فدعني أقعها وقعة فأمر فيها بما أريد ثم أغدو معك ، فقال : لا ، إن أمير المؤمنين أمرني ألا أنظرك ولا أرفهك ؛ وأن أشخصك أي ساعة صادفتك فيها ؛ من ليل أو نهار . فانصرف معه حتى أتى الكوفة ، فأقام بها يوماً حتى تجمل وأخذ أهبة السفر ، ثم مضى إلى محمد .

فذكر عن أحمد ، قال : لما دخلت بغداد ، بدأت بالفضل بن الربيع ، فقلت : أسلم عليه ، وأستعين بمنزلته ومحضره عند محمد ؛ فلما أذن لي دخلت عليه ؛ وإذا عنده عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وهو يريد على الشخص (١) إلى طاهر ، وعبد الله يشتط عليه في طلب المال والإكثار من الرجال ؛ فلما رأيته رحت بي وأخذ بيدى ، ورفعني حتى صيرني معه على صدر المجلس ، وأقبل على عبد الله يداعبه ويمزحه ، فنبسم في وجهه ، ثم قال :

إِنَّا وَجَدْنَا لَكُمْ إِذْ رَثَّ حَبْلُكُمْ مِنْ آلِ شَيْبَانَ أَمَّا دُونَكُمْ وَأَبَا الْأَكْثَرُونَ إِذَا عُدَّ الْحَصَى عَدْدًا وَالْأَقْرَبُونَ إِلَيْنَا مِنْكُمْ نَسْبًا

٨٣٨/٣

فقال عبد الله : إنهم كذلك ؛ وإن منهم لسد الخلل ونكاء العدو ، ودفع معرفة أهل المعصية عن أهل الطاعة . ثم أقبل على الفضل ، فقال : إن أمير المؤمنين أجرى ذكرك ، فوصفتك له بحسن الطاعة وفضل النصيحة والشدة على أهل المعصية ، والتقدم بالرأى ، فأحب اصطناعك والتنويه باسمك ، وأن يرفعك إلى منزلة لم يبلغها أحد من أهل بيتك . والتفت إلى خادمه ، فقال : ياسراج ؛ مر دوابي ، فلم ألبث أن أسرج له ، فضى ومضيت معه ، حتى دخلنا على محمد وهو في صحن داره ، له ساج ، فلم يزل يأمرني بالدنو حتى كدت

الأصقه ، فقال : إنه قد كثر عليّ تخليط ابن أخيك وتنكّره ، وطال خلافه عليّ حتى أوحشني ذلك منه ، ووُلِدَ في قلبي التهمة له ، وصيرني لسوء المذهب وخبث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحبّ أن أكون أتناوله به ، وقد وُصِفْتُ لى بخير ، ونُسِبْتُ إلى جميل ، فأحببت أن أرفع قدرك ، وأعلى منزلتك ، وأقدّمك على أهل بيتك ، وأن أوليّك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة ، وأعرضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم ؛ فانظر كيف تكون ، وصحّ نيّتك ، وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك ، وسرّه في عدوّه ينعم سرورك وتشريفك . فقلت : سأبذل في طاعة أمير المؤمنين أعزّه الله مهجتي ، وأبلغ في جهاد عدوّه أفضل ما أمّله عندي ، ورجاه من غنائى وكفائى ، إن شاء الله . فقال : يا فضل ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ادفع إليه دفاتر أصحاب أسد ، واضمّ إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب ، وقال : أكشف على أمرك ، وعجل المسير إليه . فخرجت فانتخبت الرجال واعترضت الدفاتر ، فبلغت عدّة من صحّحت اسمه عشرين ألف رجل . ثمّ توجهت بهم إلى حلوان .

٨٣٩/٣

وذكر أن أحمد بن مزيد لما أراد الشخوص دخل على محمد ، فقال : أوصني أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال : أوصيك بخصال عدّة : إياك والبغى ، فإنه عقال النصر ، ولا تقدّم رجلاً إلا باستخارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قدّرت باللين فلا تتعدّه إلى الخرق والشرّة ^(١) ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعني بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي ؛ ولا تستقها ^(٢) فيما تتخوف رجوعه عليّ ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً ، وقريناً سرّاً ، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله إن استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استنصرحك ؛ ولتكن أيديكما واحدة ، وكلمتكما متفقة . ثمّ قال : سلّ حوائجك ، وعجل السراح إلى عدوّك . فدعا له أحمد ، وقال : يا أمير المؤمنين ، كثّر لي الدعاء ولا تقبل في قول باغ ، ولا ترفضني قبل المعرفة بموضع قدمي لك ، [ولا تنقض عليّ ما استجمع من رأى ، ومن عليّ بالصفح عن ابن أخى ، قال : ذلك لك] ^(٣) . ثمّ بعث إلى أسد فحل قيوده وخلّى

(١) : « الشدة » . (٢) : « ولا تستبقها » . (٣) : من ١ .

سبيله ، فقال أبو الأسد الشيباني في ذلك [يمدح أحد ويذكر حاله ومنزلته] (١) .

لِيَهْنِ أبا العباس رَأَى إِمَامِهِ وما عِنْدَهُ مِنْهُ الْقَضَا بِمَزِيدِ
دَعَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى التِّي يُقْصِرُ عَنْهَا ظِلُّ كُلِّ عَمِيدِ
فَبَادَرَهَا بِالرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَالْحَجِي وَرَأَى أَبِي الْعَبَّاسِ رَأْيُ سَدِيدِ

نَهَضَتْ بِمَا أَعْيَا الرُّجَالُ بِحَمَلِهِ وَأَنْتَ بِسَعْدِ حَاضِرِ وَسَعِيدِ
رَدَدَتْ بِهَا لِلرَّائِدِينَ أَعَزَّهُمْ وَمِثْلَكَ وَالْيَ طَارِفًا بِتَلِيدِ
كَفَى أَسَدًا ضَيْقَ الْكِبُولِ وَكَرْبَهَا وَكَانَ عَلَيْهِ عَاطِفًا كِيَزِيدِ

وَحَصَلَهُ فِيهَا كَلَيْثُ غَضَنْفِرِ أَبِي أَشْبَلِ عِبْلِ الذَّرَاعِ مَدِيدِ
وذكر يزيد بن الحارث أن محمداً وجه أحمد بن مزيد في عشرين ألف

رجل من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألف رجل من
الأبناء ، وأمرهما أن ينزلا حُلُوان ، ويدفعا طاهراً وأصحابه عنها ؛ وإن أقام
طاهر بشلان أن يتوجها إليه في أصحابهما حتى يدفعاه ، وينصبا له الحرب ،
وتقدم إليهما في اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة ؛ فتوجها حتى نزلا
قريباً من حُلُوان بموضع يقال له خائقين ، وأقام طاهر بموضعه ، وخذق عليه
وعلى أصحابه ، ودس الجواسيس والعيون إلى عسكريهما ؛ فكانوا يأتونهم
بالأراجيف ، ويخبرونهم أن محمداً قد وضع العطاء لأصحابه ؛ وقد أمر لهم
من الأرزاق بكذا وكذا ؛ ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم
حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخلوا خائقين ،
ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً ، ويكون بينهم وبينه قتال . وتقدم طاهر
حتى نزل حُلُوان ؛ فلما دخل طاهر حُلُوان لم يلبث إلا يسيراً حتى أتاه هرثمة
ابن أعين بكتاب المأمون والفضل بن سهل ، يأمرانه بتسليم ما حوى من المدن
والكُور إليه ، والتوجه (٢) إلى الأهواز ، فسلم ذلك إليه ، وأقام هرثمة بحُلُوان
فحصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها ، وترجته طاهر إلى الأهواز .

[ذكر رفع منزلة الفضل بن سهل عند المأمون]

وفي هذه السنة رفع المأمون منزلة الفضل بن سهل وقدره .

ذكر الخبر عما كان من المأمون إليه في ذلك :

ذُكر أن المأمون لما انتهى إليه الخبر عن قتل طاهر على بن عيسى واستيلائه على عسكره وتسميته إتياء أمير المؤمنين ؛ وسلم الفضل بن سهل عليه بذلك ، وصحّ عنده الخبر عن قتل طاهر عبد الرحمن بن جبلة الأبنائى وغلبته على عسكره ، دعا الفضل بن سهل ، ففقدله في رجسب من هذه السنة على المشرق^(١) ؛ من جبل همدان إلى جبل سقينان والتبت طولاً ، ومن بحر فارس والهند إلى بحر الديلم وجرجان عرصاً ، وجعل عماله ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، وأعطاه علماً ، وسماه ذا الرياستين ؛ فذكر بعضهم أنه رأى سيفه عند الحسن بن سهل مكتوباً عليه بالفيضة من جانب : رئاسة الحرب ، ومن الجانب الآخر : رئاسة التدبير . فحمل اللواء على بن هشام ، وحمل العلم نعيم بن حازم ، وولّى الحسن بن سهل ديوان الخراج .

* * *

[ذكر خبر ولاية عبد الملك بن صالح على الشام]

وفي هذه السنة ولّى محمد بن هارون عبد الملك بن صالح بن على على الشام وأمره بالخروج إليها ، وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة .

* ذكر الخبر عن سبب توليته ذلك :

ذكر داود بن سليمان أن طاهراً لما قوى واستعلى أمره ، وهزّم من هزم من قواد محمد وجيوشه ، دخل عبد الملك بن صالح على محمد - وكان عبد الملك محبوساً في حبس الرشيد ؛ فلما توفّي الرشيد ، وأفضى الأمر إلى محمد أمر

٨٤٢/٣

بتخلية سبيله ؛ وذلك في ذى القعدة سنة تسع وثلاثين ومائة ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إننى أرى الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلتَ سماحتك ؛ فإن أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كفت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ؛ وليس تُملك الجنود بالإمساك ، ولا يبق ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ؛ ومع هذا فإن جنديك قد رعبتهم الهزائم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ؛ وامتألت قلوبهم هيبةً لعدوهم ، ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم ؛ فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب ، وأدبتهم الشدائد ، وجلتهم منقاد إلى ، مسارع إلى طاعتي ، فإن وجهنى أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً تعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنى موليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعدة ، فعجل الشخصوص إلى ما هنالك ؛ فاعمل عملاً يظهر أثره ، ويحمد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء الله . فولاه الشام والجزيرة ، واستحثه بالخروج استحثاً شديداً ، ووجه معه كنفاً من الجند والأبناء .

* * *

وفي هذه السنة سار عبد الملك بن صالح إلى الشام ، فلما بلغ الرقة أقام بها . وأنفذ رسله وكتبه إلى رؤساء أجناد أهل الشام بجمع الرجال بها ، وإمداد محمد بهم لحرب طاهر .

* ذكر الخبر عن ذلك :

قد تقدم ذكرى سبب توجيه محمد إياه لذلك ؛ فذكر داود بن سليمان أنه لما قدم عبد الملك الرقة ، أنفذ رسله ، وكتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في أمله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ؛ فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازه وخلع عليه وحمله ؛ فأتاه أهل الشام : الزواquil والأعراب من كل فج ، واجتمعوا عنده حتى كثروا . ثم إن

بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت أخذت منه في وقعة سليمان بن أبي جعفر تحت بعض الزواquil ؛ فتعلق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ؛ واجتمعت جماعة من الزواquil والهند ، فتلاحموا ، وأعان كل فريق منهم صاحبه ، وتلاطموا وتضاربوا بالأيدي ، ومشى بعض الأبناء إلى بعض ، فاجتمعوا إلى محمد بن أبي خالد ، فقالوا : أنت شيخنا وفارسنا ؛ وقد ركب الزواquil منا ما قد بلغك ؛ فاجمع أمرنا وإلا استذلونا ، وطمعوا فينا ، وركبوا بمثل هذا في كل يوم . فقال : ما كنت لأدخل في شغب ، ولا أشاهدكم على مثل الحالة . فاستعد الأبناء وتهيئوا ، وأتوا الزواquil وهم غارون ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم ، وتنادى الزواquil ، فركبوا خيولهم ، ولبسوا أسلحتهم ، ونشبت الحرب بينهم . وبلغ ذلك عبد الملك بن صالح ، فوجه إليهم رسولا يأمرهم بالكف ووضع السلاح ، فرموه بالحجارة ، واقتتلوا يومهم ذلك قتالا شديداً ، وأكثر الأبناء القتل في الزواquil ؛ فأخبر عبد الملك بكثرة من قتل — وكان مريضاً مدنفاً — فضرب بيده على يد ، ثم قال : واذلّاه ! تستنصم العرب في دارها ومحلتها وبلادها ! فغضب من كان أمسك عن الشر من الأبناء ، وتفاقم الأمر فيما بينهم ، وقام بأمر الأبناء الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، وأصبح الزواquil ؛ فاجتمعوا بالرقّة ، واجتمع الأبناء وأهل خراسان بالرافقة ؛ وقام رجل من أهل حمص ، فقال : يا أهل حمص ؛ الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ؛ لأنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ! ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى (١) حومة الموت أنختم . إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم . النفير النفير ، قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب (٢) ، ويبعد العمل ، ويقرب الأجل !

٨٤٤/٣

وقام رجل من كلب في غرر ناقته ، ثم قال :

شَوْبُوبُ حَرْبٍ خَابَ مِنْ يَصْلَاهَا قَدْ شَرَّعَتْ فُرْسَانُهَا قَنَاها

(٢) ابن الأثير : « المهرب » .

(١) ابن الأثير : « وفي » .

فَأَوْرَدَ اللَّهُ لَطْفِي لظَاهَا إِنْ غُمِرَتْ كَلْبٌ بِهَا لَحَاها
ثم قال : يا معشرَ كَلْبٍ ؛ إنها الرأية السوداء ؛ والله ما ولت ولا عدلت
ولا ذلت ناصرها ^(١) ، ولا ضعف وليُّها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوف أهل خراسان
في رقابكم ، وآثارَ أسنتهم في صدوركم . اعتزلوا الشرَّ قبل أن يعظم ، وتخطَّوه
قبل أن يضطرم . شامكم شأمكم ، داركم داركم ! الموت الفلسطيني خير من
العيش الجزري . ألا وإني راجع ، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي .

٨٤٥/٣

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواquil حتى أضرموا ما كان
التجار جمعوا من الأغلاف بالنار ، وأقام الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان
مع جماعة أهل خراسان والأبناء على باب الرافقة تخوفاً لطوق بن مالك .
فأتى طوقاً رجلاً من بني تغلب ، فقال : ألا ترى ما لقيت العرب من هؤلاء !
انهض فإنّ مثلك لا يقعد عن هذا الأمر ، قد مدّ أهلُ الجزيرة أعينهم
إليك ، وأملدوا عونك ونصرَك . فقال : والله ما أنا من قيسها ولا يمنها ؛
ولا كنت في أوّل هذا الأمر لأشهدَ آخره ؛ وإني لأشدّ إبقاءً على قومي ،
وأنظرُ لعشيرتي من أن أعرضهم للهلاك بسبب هؤلاء السفهاء من الجند وجهال
قيس ، وما أرى السلامة إلا في الاعتزال .

وأقبل نصر بن شبث في الزواquil على فرس كُسميت أغرّ ، عليه درّاعة
سوداء قد ربطها خلف ظهره ، وفي يده رُمح وترس ، وهو يقول :

فُرْسَانٌ قَيْسٍ أَصْمُدُنْ لِلْمَوْتِ لَا تُرْهِبُنِي عَنْ لِقَاءِ الْقَوْتِ

* دَعَى التَّمَنَّى بَعْسَى وَلَكَيْتَ ^(٢) *

ثم حمل هو وأصحابه ، فقاتل قتالا شديداً ، فصبر لهم الجند ، وكثر
القتل في الزواquil ، وحملت الأبناء حملات ، في كلِّها يقتلون ويجرحون ؛ وكان
أكثر القتل والبلاء في تلك الدفعة لكثير بن قاذرة وأبي الفيل وداود بن موسى
ابن عيسى الخراساني ، وانهزمت الزواquil ، وكان على حاميتهم يومئذ نصر
ابن شبث وعمر السلمي والعباس بن زفر .

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « نصرها » .

(٢) كذا في ١ ، وفي ط : التخي .

وتوفّيَ في هذه السنة عبد الملك بن صالح .

٨٤٦/٣

* * *

[ذكر خلع الأمين والمبايعة للمأمون]

وفي هذه السنة خُلع محمد بن هارون ، وأُخذت عليه البيعة لأخيه عبد الله المأمون ببغداد .

وفيها حبس محمد بن هارون في قصر أبي جعفر مع أم جعفر بنت جعفر ابن أبي جعفر .

* ذكر الخبر عن سبب خلعه :

ذُكر عن داود بن سليمان أن عبد الملك بن صالح لما توفّي بالرقّة ، نادى الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان في الجند ، فصيّر الرّجال في السفن والفرسان على الظهر ووصلهم ، وقوى ضعفاءهم ، ثم حملهم حتى أخرجهم من بلاد الجزيرة ؛ وذلك في سنة ست وتسعين ومائة .

وذكر أحمد بن عبد الله ، أنه كان فيمن شهد مع عبد الملك الجزيرة لما انصرف بهم الحسين بن عليّ ، وذلك في رجب من سنة ست وتسعين ومائة . وذكر أنه تلقاه الأبناء وأهل بغداد بالكرمة والتعظيم ، وضربوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ودخل منزله في أفضل كرامة وأحسن هيئة ؛ فلما كان في جوف الليل بعث إليه محمد يأمره بالركوب إليه ؛ فقال للرسول : والله ما أنا بمغنّ ولا بمسامر ولا مضحك ؛ ولا وليتُ له عملاً ، ولا جرى له على يدي مال ؛ فلا شيء يريدني في هذه الساعة ! انصرف ؛ فإذا أصبحتُ غدوتُ إليه إن شاء الله .

فانصرف الرسول ، وأصبح الحسين فوافي باب الجسر ، واجتمع إليه الناس ، فأمر بإغلاق الباب الذي يخرج منه إلى قصر عبد الله^(١) بن عليّ وباب سوق يحيى ، وقال : يا معشر الأبناء ؛ إن خلافة الله لا تجاور بالبطر ، ونعمته

٨٤٧/٣

(١) ط : « عبيد الله » ، وهو عبد الله بن علي بن عيسى بن ماهان ؛ وانظر ص ٤١٢ .

لا تستصحب بالتجبر والتكبر ؛ وإن محمداً يريد أن يوتغ أديانكم ، وينكت بيعتكم ، ويفرق جمعكم ؛ وينقل عزكم إلى غيركم ؛ وهو صاحب الزواويل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدة وراجعه من أمره قوة ، ليرجعن ذلك عليكم ؛ وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ؛ فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم ، فوالله لا ينصره منكم ناصر إلا خذل ، ولا يمنع مانع إلا قتل ؛ وما عند الله لأحد هودة ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه . ثم أمر الناس بعبور البحر فعبروا ؛ حتى صاروا إلى سكة باب خراسان ؛ واجتمعت الحربية وأهل الأرباض مما يلي باب الشام ، [وباب الأنبار وشط الصراة مما يلي باب الكوفة] (١) . وتسرعت خيول من خيول محمد من الأعراب وغيرهم إلى الحسين بن علي ؛ فاقتتلوا قتالا شديداً ملياً من النهار ، وأمر الحسين من كان معه من قواده وخاصة أصحابه بالتزول فنزلوا إليهم بالسيف والرمح ، وصد قوهم القتال ، وكشفوهم حتى تفرقوا عن باب الخلد .

قال : فخلع الحسين بن علي محمدًا يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلعت من رجب سنة ست وتسعين ومائة ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون من غد يوم الاثنين إلى الليل ، وغدا إلى محمد يوم الثلاثاء ، فوثب بعد الوقعة التي كانت بين الحسين وبين أصحاب محمد العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي على محمد ، ودخل عليه فأخرجه من قصر الخلد إلى قصر أبي جعفر ، فحبسه هناك إلى صلاة الظهر ، ثم وثب العباس بن موسى بن عيسى على أم جعفر فأمرها بالخروج من قصرها إلى مدينة أبي جعفر ، فأبت ، فدعا لها بكرسي ، وأمرها بالجلوس فيه ، ففنعها بالسوط وساءها ، وأغلظ لها القول ، فجلست فيه ، ثم أمر بها فأدخلت المدينة مع ابنها ولدها . فلما أصبح الناس من الغد طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشام ، فقال : أيها الناس ؛ والله ما أدري بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا سنًا ، ولا أكرمنا حسبًا ، ولا أعظمنا منزلة ، وإن فينا من لا يرضى بالدنية ، ولا يقاد بالخادعة ؛

وإني أولكم نقض عهده، وأظهر التغيير^(١) عليه، والإنكار لفعله ؛ فمن كان رأيه رأى فليعتزل معي .

وقام أسد الحربى، فقال : يا معشر الحربيّة، هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نتمّ وطال نومكم ، وتأخّرتم فقدّم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرّه ، فاذهبوا بذكر فكته وإطلاقه .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية^(٢) على فرّس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال : أيّها الناس ، هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ، قال : فهل عزل أحداً من قوادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! قال : فما بالكم خذلتموه وأعتنتم عدوه على اضطهاده وأسرّه ! أما والله ما قتلت قوم خليفته قط إلا سلّط الله عليهم السيف القاتل ، والحنف الجارف ؛ انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به . ونهضت الحربيّة ، ونهض معهم عامّة أهل الأرباض في المشهّرات والعُدّة الحسنة . فقاتلوا الحسين بن على وأصحابه قتالا شديداً منذ ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسّر الحسين بن على ، ودخل أسد الحربى على محمد ، فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة ؛ فنظر محمد إلى قوم ليس عليهم لباس الحرب والجند ، ولا عليهم سلاح ؛ فأمرهم فأخذوا من السلاح الذى فى الخزائن حاجتهم ووعدهم ومنّاهم ، وانتهب الغوغاء بذلك السبب سلاحاً كثيراً ومتاعاً من خبز وغير ذلك ؛ وأتى بالحسين بن على ، فلامه محمد على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأوله أعنة الخيل وأملأ يده من الأموال ؛ وأشرف أقداركم فى أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ! قال : بلى ، قال : فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعى ، وتؤلّب الناس على ، وتندبهم إلى قتال ! قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله . قال : فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، ولولاك الطلب بثأرك ، ومن قتل من أهل بيتك . ثم دعا له بخليعة فخلعها

٨٤٩/٣

عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حُلوان ، وولاه ما وراء بابه .
 وذكر عن عثمان بن سعيد الطائي ، قال : كانت لي من الحسين بن علي^١
 ناحية خاصة ، فلما رضى عنه محمد ، وردت إليه قيادته ومنزلته ، عبرت
 إليه مع المهنيين ، فوجدته واقفاً بباب الجسر ، فهنأته ودعوت له ، ثم قالت له :
 إنك قد أصبحت سيد العسكرين ، وثقة أمير المؤمنين ، فأشكر العفو والإقالة ،
 ثم داعبته ومازحته ، ثم أنشأت أقول :

هَمْ قَتَلُوهُ حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ وَصَارَ مُعْزَاً بِاللَّيْلِ وَالنَّجْدِ
 أَغْرُ كَأَنَّ الْبَدْرَ سُنَّةُ وَجْهِهِ إِذَا جَاءَ يَمْشِي فِي الْحَدِيدِ الْمُسَرَّدِ
 إِذَا جَشَّاتِ نَفْسُ الْجَبَانِ وَهَلَلَتْ مَضَى قُدُمًا بِالْمَشْرِفِ الْمُهْنَدِ
 حَلِيمٌ لَدَى النَّادِي جَهُولٌ لَدَى الْوَعَى عَكُورٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَلِيلُ التَّزْيِيدِ
 فَشَارَكَ أَدْرِكَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنَّهُمْ رَمَوْكَ عَلَى عَمْدٍ بِشَنْعَا مُزْنَدِ
 فضحك ، ثم قال : ما أحرصني على ذاك إن ساعدني عُمر ، وأبدت
 بفتنح ونَصْر . ثم وقف على باب الجسر ، وهرب في نفر من خدمه ومواليه ،
 فنَادَى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه ، فأدركوه بمسجد كوثر ، فلما بصر
 بالخليل نزل وقيد فرسه ، وصلى ركعتين وتحرم ، ثم أقيهم فحمل عليهم حملات
 في محلها يهزمهم ويقتل فيهم . ثم إن فرسه عثر به وسقط ، وابتدره الناس
 طعنًا وضربًا وأخذوا رأسه ، وفي ذلك يقول علي بن جبلة — وقيل الحريري^(١) :

أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْأَلَى كَفَرُوا بِهِ وَفَازُوا بِرَأْسِ الْهَرْتَمِيِّ حُسَيْنِ
 لَقَدْ أَوْرَدُوا مِنْهُ قَنَاءَ صَلْبِيَّةٍ بِشَطْبِ يَمَانِيٍّ وَرَمَحِ رُدَيْنِي
 رَجَا فِي خِلَافِ الْحَقِّ عِزًّا وَامْرَةً فَالْبِسَهُ التَّامِيلُ خُفَّ حُنَيْنِ
 وقيل : إن محمداً لما صفح عن الحسين استوزره ودفع إليه خاتمه .

وقتل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان للنصف من رجب من هذه

(١) ط : « الخزيمي » ، بالزاي ، تحريف ، وهو أبو يعقوب إسحاق بن حسان الشاعر ،
 منسوب إلى خريم بن عامر المري . تاريخ بغداد ٦ : ٣٢٦ .

السنة في مسجد كوثر ، وهو على فرسخ من بغداد في طريق التهرين .
 وجدّد البيعة لمحمد يوم الجمعة لست عشرة خلت من رجب من هذه السنة ،
 وكان حبس الحسين محمداً في قصر أبي جعفر يومين .
 وفي الليلة التي قتل فيها حسين بن عليّ هرب الفضل بن الربيع .
 وفي هذه السنة توجه طاهر بن الحسين حين قدم عليه هزيمة من حُلوان إلى
 الأهواز ، فقتل عامل محمد عليها ، وكان عامله عليها محمد بن يزيد المهلبى
 بعد تقديم طاهر جيوشاً أمامه إليها قبل انفصاله إليه لحربه .

* * *

ذكر الخبر عن مقتل محمد بن يزيد المهلبى ودخول
 طاهر إلى الأهواز

ذكر عن يزيد بن الحارث ، قال : لما نزل طاهر شلاشان ، وجهّ الحسين
 ابن عمر الرستمى إلى الأهواز ، وأمره أن يسير سيراً مقتصداً ، ولا يسير إلاّ
 بطلائع ، ولا ينزل إلا في موضع حصين يأمن فيه على أصحابه . فلما توجه أتت
 طاهراً عيونه ، فأخبروه أن محمد بن يزيد المهلبى — وكان عاملاً لمحمد على الأهواز —
 قد توجه في جمع عظيم يريد نزول جندى سابور — وهو حدّ ما بين الأهواز
 والجليل — ليحمى الأهواز ، ويمنع من أراد دخوله من أصحاب طاهر ؛ وإنه في عدّة
 وقوة ، فدعا طاهر عدّة من أصحابه ؛ منهم محمد بن طالوت ومحمد بن
 العلاء والعباس بن بخاراخذاه والحارث بن هشام وداود بن موسى وهادى بن
 حفص ، وأمرهم أن يكسّوا السيّر^(١) حتى يتصلّ أولهم بأخر أصحاب الحسين بن
 عمر الرستمى ، فإن احتاج إلى إمداد أمدّوه ، أو لقيه جيش كانوا ظهراً له .
 فوجه تلك الجيوش ، فلم يلقهم أحدٌ حتى شارفوا الأهواز .

٨٥٢/٣

وبلغ محمد بن يزيد خبرهم ، فعرض أصحابه ، وقوى ضعفاءهم ، وحمل
 الرجال على البغال ، وأقبل حتى نزل سوق عسكر مكرم ، وصير العمران والماء
 وراء ظهره ، وتخوف طاهر أن يعجل إلى أصحابه ، فأمدّهم بقريش بن
 شبل ، وتوجه هو بنفسه حتى كان قريباً منهم ، ووجه الحسن بن عليّ المأمونى ،

(١) أن يكسوا السيّر ، أى أن يسرعوا .

وأمره بمضامة قريش بن شبل والحسين بن عمر الرستمي ، وسارت تلك العساكر حتى قاربوا محمد بن يزيد بعسكر مُكرّم ؛ فجمع أصحابه فقال : ما ترون ؟ ٨٥٣/٣
أطاول القوم القتال وأماطلهم اللقاء ، أم أناجزهم كانتلى أم على ؟ فوالله ما أرى أن أرجع إلى أمير المؤمنين أبداً ، ولا أنصرف عن الأهواز ، فقالوا له : الرأي أن ترجع إلى الأهواز ؛ ففتحصن بها وتغادى طاهراً القتال وتبعث إلى البصرة فتفرض بها الفروض ، وتستجيش من قدرت عليه وتابعك من قومك . فقبل ما أشاروا عليه ، وتابعه قومه ، فرجع حتى صار بسوق الأهواز . وأمر طاهر قريش بن شبل أن يتبعه ، وأن يعاجله قبل أن يتحصن بسوق الأهواز ، وأمر الحسن بن عليّ المأمونيّ والحسين بن عمر الرستمي أن يسيرا بعقبه^(١) ؛ فإن احتاج إلى معونتهما أعاناه . ومضى قريش بن شبل يقفو محمد بن يزيد ، كلما ارتحل محمد بن يزيد من قرية نزلها قريش ؛ حتى صاروا إلى سوق الأهواز .

وسبق محمد بن يزيد إلى المدينة فدخلها ، واستند إلى العمران ، فصبره وراء ظهره ، وعبى أصحابه ، وعزم على مواقعتهم ؛ ودعا بالأموال فصبّت بين يديه ، وقال لأصحابه : مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ الجائزة والمنزلة فليعرفني أثره . وأقبل قريش بن شبل حتى صار قريباً منه ، وقال لأصحابه : الزموا مواضعكم ومصافكم ، وليكن أكثر ما قاتلتهم وأنتم مريحون ، فقاتلوهم بنشاط وقوة ؛ فلم يبق أحدٌ من أصحابه إلا جمع بين يديه ما قدر عليه من الحجارة ، فلم يعبر إليهم محمد بن يزيد ، حتى أوهنهم بالحجارة ، وجرحهم جراحات كثيرة بالنشاب ، وعبرت طائفة من أصحاب محمد بن يزيد ، فأمر قريش أصحابه أن ينزلوا إليهم فنزلوا إليهم . فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى رجعوا ، وترادّ الناس بعضهم إلى بعض . والتفت محمد بن يزيد إلى نفر كانوا معه من مواليه ؛ فقال : ما رأيكم ؟ قالوا : فيماذا ؟ قال : إني أرى من معي قد انهزم ، ولست آمنُ من خذلانهم ، ولا آمُل رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي ، حتى يقضى الله ما أحبّ ، فمن أراد منكم الانصراف فليصرف ؛ فوالله لأن تبقوا أحبّ إلىّ من أن تعطبوا وتهلكوا . فقالوا : والله ما أنصفناك ، إذاً تكون أعتقتنا من الرّق

٨٥٤/٣

ورفعتنا من الضعة، ثم أغنيتنا بعد القلة، ثم نخذلك على هذه الحال؛ بل نتقدم أمامك ونموت تحت ركابك؛ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك. ثم نزلوا فغرقوا دوابهم، وحملوا على أصحاب قريش حملة منكسة، فأكثروا فيهم القتل، وشدخوهم بالحجارة وغير ذلك؛ وانتهى بعض أصحاب طاهر إلى محمد بن يزيد، فطعنه بالرمح فصرعه؛ وتبادروا إليه بالضرب والطعن حتى قتلوه؛ فقال بعض أهل البصرة يرثيه، ويذكر مقتله:

مَنْ ذاقَ طعمَ الرقادِ مِنْ فَرَحٍ فَإِنِّي قَدْ أَصْرَ بِي سَهْرِي
وَلِي فَتَى الرُّشْدِ فَافْتَقَدْتُ بِهِ قَلْبِي وَسَمْعِي وَغَرَّتْ بَصْرِي^(١)
كَانَ غِيَاثًا لَدَى الْمُحُولِ فَقَدْ وَلِيْ غَمَامُ الرَّبِيعِ وَالْمَطَرِ
وَفِي الْعَيْيُنِي لِلْإِمَامِ وَلَمْ^(٢) يُرْهِبُهُ وَقَعُ الْمُشْطَبِ الذِّكْرِ
سَاوَرَ رَبِّبُ الْمَنُونِ ذَاهِيَةً لَوْلَا خُضُوعُ الْعِبَادِ لِلْقَدَرِ
فَامِضٌ حَمِيدًا فَكَلُّ ذِي أَجَلٍ يَسْعَى إِلَى مَا سَعَيْتَ بِالْأَثَرِ

وقال بعض المهالبة؛ وجرح في تلك الواقعة جراحات كثيرة وقطعت يده:

فَمَا لْتُ نَفْسِي غَيْرَ أَنِّي لَمْ أُطِقْ^(٣) حَرًّا كَأَنِّي كُنْتُ بِالضَّرْبِ مِثْخَنًا
وَلَوْ سَلِمْتُ كَفَّائَ قَاتِلْتُ دُونَهُ وَضَارَبْتُ عَنْهُ الطَّاهِرِيَّ الْمُلْعَنًا
فَتَى لَا يَرَى أَنْ يَخْذِلَ السِّيفُ فِي الْوُغَى إِذَا أَدْرَعَ الْهَيْجَاءُ فِي النِّقْعِ وَكُنْتَنِي
وَذَكَرَ عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: لَمَّا دَخَلَ ابْنُ أَبِي عَيْيْنَةَ عَلَى طَاهِرٍ
فَأَنشَدَهُ قَوْلَهُ:

مَنْ آنَسَتْهُ الْبِلَادُ لَمْ يَرِمَ مِنْهَا وَمَنْ أَوْحَشَتْهُ لَمْ يُقِمِ
حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

مَا سَاءَ ظَنِّي إِلَّا لَوَاحِدَةٍ فِي الصَّدْرِ مَحْصُورَةٍ عَنِ الْكَلِمِ
فَتَبَسَّمَ طَاهِرٌ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَاعَنِي مِنْ ذَلِكَ مَا سَاعَكَ، وَأَلْمَنِي
مَا أَلَمَكَ؛ وَلَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا لَمَّا كَانَ، غَيْرَ أَنْ الْحَتْفَ وَقَعَ، وَالْمَنَايَا نَازَلَتْ،

(١) ط: «وعز». (٢) ١: «العتيكي». (٣) ط: «أنى»، وصوابه من ١.

ولا بدّ من قسّط الأواصر والتّكسر^(١) للأقارب في تأكيد الخلافة، والقيام بحقّ الطّاعة ؛ فظننّا أنّه يريد محمد بن يزيد بن حاتم .

وذكر عمر بن أسد ، قال : أقام طاهر بالأهواز بعد قتله محمد بن يزيد ابن حاتم ، وأنفذ عمّاله في كدورها ، وولّى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلي الأهواز ، ومما يلي عمل البصرة ، ثم أخذ على طريق البرّ متوجّهًا إلى واسط ، وبها يومئذ السندى بن يحيى بن الحرّشيّ والهيثم خليفة خزّمة بن خازم ؛ فجعلت المسالّح والعمال تنقّض ، مسلّحة مسلّحة ، وعاملا عاملا ، كلّما قرب طاهر منهم تركوا أعمالهم وهربوا عنها ؛ حتى قرب من واسط ، فنادى السندى بن يحيى والهيثم بن شعبة في أصحابهما ، فجمعاهم إليهما ؛ وهما بالقتال ، وأمر الهيثم بن شعبة صاحب مراكبه أن يسرّج له دوابه ، فقرب إليه فرسًا ، فأقبل يقسم طرفه بينها ، واستقبلته عدّة ، فرأى المراكبيّ التغيّر والفرع في وجهه فقال : إنّ أردت الحرب فعليك بها ؛ فإنّها أبسط في الرّكض ، وأقوى على السفر . فضحك ثم قال : قرب فرس الحرب ؛ فإنّه طاهر ، ولا عار علينا في الحرب منه ، فتركا واسطًا ، وهربا عنها . ودخل طاهر واسطًا ، وتخوف إن سبق الهيثم والسندى إلى فم الصّلح فيتحصّنا بها . فوجه محمد بن طالوت ، وأمره أن يبادرهما إلى فم الصّلح ، ويمنعهما من دخولها إن أرادا ذلك ، ووجه قائدًا من قوّاده يقال له أحمد بن المهلب نحو الكوفة ، وعليها يومئذ العباس بن موسى الهادي ؛ فلمّا بلغ العباس خبر أحمد بن المهلب خاع محمدًا ، وكتب بطاعته إلى طاهر وبيّعته للمأمون ؛ ونزلت خيل طاهر فم النيل ، وغلب على ما بين واسط والكوفة ، وكتب المنصور بن المهديّ - وكان عاملاً لمحمد على البصرة - إلى طاهر بطاعته ، ورحل طاهر حتى نزل طرنايا ؛ فأقام بها يومين فلم يرهما موضعًا للعسكر ، فأمر بجسر فعقد وخذق له ، وأنفذ كتبه بالتولية إلى العمال .

وكانت بيعة المنصور بن المهديّ بالبصرة وبيعة العباس بن موسى الهادي

بالكوفة ، وبيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل للمأمون ، وخلعهم محمداً
في رجب من سنة ست وتسعين ومائة .

وقيل : إن الذي كان على الكوفة حين نزل طاهر من قبل محمد الفضل بن
العباس بن موسى بن عيسى .

ولما كتب من ذكرت إلى طاهر ببيعته للمأمون وخلعهم محمداً ، أقرهم
طاهر على أعمالهم ، وولّى داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي
مكة والمدينة ، ويزيد بن جرير البجليّ اليمن ، ووجه الحارث بن هشام وداود
ابن موسى إلى قصر ابن هبيرة .

* * *

[ذكر خبر استيلاء طاهر على المدائن ونزوله بصرى]

وفي هذه السنة أخذ طاهر بن الحسين من أصحاب محمد المدائن ؛ ثم
صار منها إلى صرصر ، فعقد جسراً ، ومضى إلى صرصر .

* ذكر الخبر عن سبب دخوله المدائن ومصيره إلى صرصر :

ذكر أن طاهراً لما وجه إلى قصر ابن هبيرة الحارث بن هشام وداود بن
موسى ، وبلغ محمداً خبر عامله بالكوفة وخلعه إياه وبيعه للمأمون ، وجهه محمد
ابن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربري ، وأمرهما أن يبيتا الحارث وداود
بالقصر ، فقبل لهما : إن سلكتما الطريق الأعظم لم يخف ذلك عليهما ؛
ولكن اختصر الطريق إلى فم الجامع ، فإنه موضع سوق ومعسكر ، فانزلاه وبيتاهما
إن أردتما ذلك ، وقد قربتا منهما ، فوجهتا الرجال من الياسرية إلى فم الجامع .
وبلغ الحارث وداود الخبر ، فركبا في خيل مجرد ، وتهياً للرجال ، فغبرا من
مخاضة في سورا إلىهم ؛ وقد نزلوا إلى جنبها ، فأوقعا بهم وقعة شديدة .
وجهه طاهر محمد بن زياد ونصير بن الخطاب مدداً للحارث وداود ، فاجتمعت
العساكر بالجامع ، وساروا حتى لقوا محمد بن سليمان ومحمد بن حماد فيما بين
نهر درقيط والجامع ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وانهزم أهل بغداد ، وهرب

محمد بن سليمان حتى صار إلى قرية شاهی ، وعبر الفرات ، وأخذ على طريق البرية إلى الأنبار ، ورجع محمد بن حماد إلى بغداد ، وقال أبو يعقوب الحریمی في ذلك :

هُمَا عَدَاوًا بِالنَّكَثِ كَيْ يَصْدَعَا بِهِ صَفَاً الْحَقُّ فَانْفَضَّا بِجَمْعٍ مُبَدَّدٍ
وَأَفْلَتَنَا ابْنُ الْبَرْبَرِيِّ مُضْمَرٌ مِنَ الْخَيْلِ يَسْمُو لِلْجِيَادِ وَيَهْتَدِي^(١)

وذكر يزيد بن الحارث ، أن محمد بن حماد البربري لما دخل بغداد ، وجهه محمد المخلوع الفضل بن موسى بن عيسى الهاشمي إلى الكوفة ، وولاه عليها ، وضم إليه أبا السلاسل وإيَّاس الحرابي وجمهورا النجاري ، وأمره بسرعة السير ؛ فتوجه الفضل ؛ فلما عبر نهر عيسى عثر به فرسه ، فتحوّل منه إلى غيره وتطيّر ، وقال : اللهم إني أسألك بركة هذا الوجه . وبلغ طاهراً الخبر ، فوجهه محمد بن العلاء ، وكتب إلى الحارث بن هشام وداود بن موسى بالطاعة له ، فلقى محمد بن العلاء الفضل بقرية الأعراب ، فبعث إليه الفضل : إني سامع مطيع لطاهر ؛ وإنما كان مخرجي بالكيد مني لمحمد ؛ فخلّ لي الطريق حتى أصير إليه ، فقال له محمد : لست أعرف ما تقول ولا أقبله ولا أنكره ؛ فإن أردت الأمير طاهراً فارجع وراءك ؛ فخذ أسهل الطريق وأقصدها ، فرجع وقال محمد لأصحابه : كونوا على حذر ؛ فإنني لست آمن مكر هذا ؛ فلم يلبث أن كبر وهو يرى أن محمد بن العلاء قد أمّنته ، فوجده على عدة وأهبة ؛ واقتتلوا كأشد ما يكون من القتال ، وكبأ بالفضل فرسه ؛ فقاتل عنه أبو السلاسل حتى ركب ، وقال : أذكر هذا الموقف لأمر المؤمنين . وحمل أصحاب محمد ابن العلاء على أصحاب الفضل فهزموه ، ولم يزالوا يقتلونهم إلى كوثي ، وأسير في تلك الوقعة إسماعيل بن محمد القرشي وجمهور النجاري ، وتوجه طاهر إلى المدائن ، وفيها جند كثير من خيول محمد ؛ عليهم البرمكي قد تحصن بها ، والمدد يأتيه في كل يوم ، والصلّات والخلع من قبّل محمد . فلما قرب طاهر من المدائن — وكان منها على رأس فرسخين — نزل فصلى ركعتين ، وسبح فأكثر التسبيح ، فقال : اللهم إنا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن . ووجه

الحسن بن عليّ المأمونيّ وقريش بن شبل ، ووجه الهادي بن حفص عليّ مقدّمته وسار . فلما سمع أصحابُ البرمكيّ صوتَ طبوله ، أسرجوا الدوابّ ، وأخذوا في تعبيتهم ، وجعل مَن في أوائل الناس ينضمّ إلى أواخرهم ، وأخذ البرمكيّ في تسوية الصفوف ؛ فكلّما سوى صفّاً انتقض واضطرب عليه أمرهم ، فقال : اللهمّ إنا نعوذ بك من الخذلان ؛ ثم التفت إلى صاحب ساقته ، فقال : خلّ سبيل الناس ؛ فإنّي أرى جنداً لا خير عندهم ؛ فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد ، فترل طاهر المدائن ، وقدّم منها قريش بن شبل والعباس بن بخار اخذاه إلى الدرّزيّجان ، وأحمد بن سعيد الحرّشيّ ونصر بن منصور بن نصر بن مالك معسكران بنهر دياثي ، فنعا أصحاب البرمكيّ من الجواز إلى بغداد ، وتقدم طاهر حتّى صار إلى الدرّزيّجان حيال أحمد ونصر بن منصور ، فسيسّر إليهما الرجال ، فلم يجر بينهما كثير قتال حتّى انهزموا ، وأخذ طاهر ذات اليسار إلى نهر صرصر ، فعقد بها جسراً ونزلها .

٨٦٠/٣

* * *

[ذكر خبر خلع داود بن عيسى الأمين]

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى عاملُ مكة والمدينة محمداً — وهو عامله يومئذ عليهما — وبائع للمأمون ، وأخذ البيعة بهما على الناس له ؛ وكتب بذلك إلى طاهر والمأمون ؛ ثم خرج بنفسه إلى المأمون .

* ذكر الخبر عن ذلك وكيف جرى الأمر فيه :

ذكر أن الأمين لما أفضت الخلافة إليه ، بعث إلى مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، وعزل عامل الرشيد على مكة ؛ وكان عامله عليها محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزوميّ ، وكان إليه الصلاة بها وأحداثها والقضاء بين أهلها ؛ فعزل محمد عن ذلك كلّهُ بداود ابن عيسى ؛ سوى القضاء فإنه أقرّه على القضاء . فأقام داود والياً على مكة والمدينة لمحمد ، وأقام للناس أيضاً الحجّ سنة ثلاث وأربع وخمسة وتسعين ومائة ، فلمّا دخلت سنة ست وتسعين ومائة ، بلغه خلع عبد الله المأمون أخاه ،

٨٦١/٣

وما كان فعل طاهر بقوَاد محمد ، وقد كان محمد كتب إلى داود بن عيسى يأمره بخلع عبد الله المأمون والبيعة لابنه موسى ، وبعث محمد إلى الكتّابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في الكعبة فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حَسْبَةَ الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتّابين من اليهود - وكان داود أحدَهم - فقال داود : قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام حين بايعنا لابنائه ؛ لتكوننَّ مع المظلوم منهما على الظالم ، ومع المبغي عليه على الباغي ، ومع المغدور به على الغادر ؛ فقد رأينا ورأيتُ أن محمدًا قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن ، وخلّعهما وبايع لابنه الطفل ؛ رضيع صغير لم يفظم ، واستخرج الشرطين من الكعبة عاصيًا ظالمًا ، فحرقهما بالنار . وقد رأيت خلعه ، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة ؛ إذ كان مظالمًا مبغيًا عليه . فقال له أهل مكة : رأينا تبعًا لرأيك ، ونحن خالعه معك ؛ فوعدهم صلاة الظهر ؛ وأرسل في فجاج ^(١) مكة صائحًا يصيح : الصلاة جامعة ! فلما جاء وقت صلاة الظهر - وذلك يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة خلت من رجب سنة ست وتسعين ومائة - خرج داود بن عيسى ، فصلّى بالناس صلاة الظهر ، وقد وضع له المنبر بين الركن والمقام ، فصعد فجلس عليه ، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر ؛ وكان داود خطيبًا فصيحًا جهير الصوت ؛ فلما اجتمع الناس قام خطيبًا ، فقال :

٨٦٢/٣

الحمد لله مالك الملك ؛ يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمة للعالمين ، صلّى الله عليه في الأولين والآخرين . أما بعد يا أهل مكة ؛ فأنتم الأصل والفرع ، والعشيرة والأسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم نفذ وفدُ الله ، وإلى قبلكم يأتيتم المسلمون ، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع لا بنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق

لتنصّر المظلوم منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغي ، والمغدور به على الغادر ؛ ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاه من نفسه في بطن البيت الحرام ؛ وقد حلّ لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به . ألا وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي — وخلع قلنسوته عن رأسه فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من برود حبرة مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها — ثم قال : قد بايعت لعبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفكم .

فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر، رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة ، وخلع محمدًا ، ثم نزل عن المنبر ، وحانت صلاة العصر ، فصلّى بالناس ، ثم جلس في ناحية المسجد ، وجعل الناس يبايعونه جماعة بعد جماعة ؛ يقرأ عليهم كتاب البيعة ، ويصافحونه على كفه ، ففعل ذلك أيامًا .

٨٦٣/٣

وكتب إلى ابنه^(١) سليمان بن داود بن عيسى وهو خليفته على المدينة ، يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثل ما فعل هو بأهل مكة ؛ من خلّع محمد والبيعة لعبد الله المأمون . فلما رجع جواب البيعة من المدينة إلى داود وهو بمكة ، رحل من فوره بنفسه وجماعة من ولده يريد المأمون بمرو على طريق البصرة ، ثم على فارس ، ثم على كرمان ؛ حتى صار إلى المأمون بمرو ، فأعلمه ببيعته وخلعه محمدًا ومسارة أهل مكة وأهل المدينة إلى ذلك ؛ فسرّ بذلك المأمون ، وتيمّن ببركة مكة والمدينة ؛ إذ كانوا أوّل من بايعه ، وكتب إليهم كتابًا لينًا لطيفًا يعيدهم فيه الخير ، ويبسط أمالهم . وأمر أن يكتب لداود عهد على مكة والمدينة وأعمالها من الصلاة والمعاون والحبابة ، وزيد له ولاية عكّ ، وعقد له على ذلك ثلاثة ألوية ، وكتب له إلى الرى بمعونة خمسمائة ألف درهم ، وخرج داود بن عيسى مسرعًا مغذًا مبادرًا لإدراك الحجّ ، ومعه ابن أخيه العباس بن موسى ابن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وقد عقد

على طاهر ، ففرّق محمد فيمن صار إليه من أصحاب طاهر مالا عظيماً ، وقود رجالا ، وغلّف لحامهم بالغالية ، فسمّوا بذلك قوّاد الغالية .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل إليه الأمر فيه :

ذكر عن يزيد بن الحارث ، قال : أقام طاهر على نهر صرّصر لما صار إليها ، وشمّر في محاربة محمد وأهل بغداد ، فكان لا يأتيه جيش إلا هزمه ، فاشتدّ على أصحابه ما كان محمد يعطى من الأموال والكُسا ، فخرج من عسكره نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خُراسان ومنّ التفت إليهم ، فسُرّ بهم محمد ، ووعدهم ومنّاهم ، وأثبت أسماءهم في الثمانين . قال : فكثروا بذلك أشهراً ، وقود جماعة من الحربية وغيرهم ممن تعرض لذلك وطلبه ، وعقد لهم ، ووجههم إلى دسكرة الملك والنهران ، ووجه إليهم حبيب بن جهم النمريّ الأعرابي في أصحابه ؛ فلم يكن بينهم كثير قتال ، وندب محمد قوّاداً من قوّاد بغداد ، فوجههم إلى الياسريّة والكوثريّة والسفينةيّين^(١) ، وحمل إليهم الأطعمة ، وقوّاهم بالأرزاق ، وصيّرهم رداءً لمن خلفهم ، وفرّق الجواسيس في أصحاب طاهر ، ودسّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع والترغيب ، فشغبوا على طاهر ، واستأمن كثير منهم إلى محمد ، ومع كل عشرة أنفس منهم طبل ، فأرعدوا وأبرقوا وأجلبوا ، ودنّوا حتى أشرفوا على نهر صرّصر ، فعبى طاهر أصحابه كراديس ، ثم جعل يمرّ على كل كيردوس منهم ، فيقول : لا يغرتكم كثرة منّ ترون ، ولا يمنعكم استئمان من استأمن منهم ، فإنّ النصر مع الصديق والثبات ، والفتح مع الصبر ، وربّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ثم أمرهم بالتقدّم ، فتقدّموا واضطربوا بالسيوف ملياً . ثم إن الله ضرب أكتاف أهل بغداد فولّوا منهزمين ، وأخلوا موضع عسكرهم ، فانتهب أصحاب طاهر كل ما كان فيه من سلاح ومال . وبلغ الخبرُ محمداً ، فأمر بالعطاء فوُضع ، وأخرج خزائنه وذخائره ، وفرّق الصلّات وجمع أهل الأرباض ، واعترض الناس على عينه ، فكان لا يرى أحداً وسماً حسن الرّواء إلا خلع عليه وقوده ؛ وكان لا يقود أحداً إلا غلّفت لحيته بالغالية ؛ وهم الذين

٨٦٦/٣

يسمّون قوَاد الغالية . قال : وفرّق في قوَادِه المحدثين لكل رجل منهم خمسماية درهم وقارورة غالية ، ولم يعط جند القواد وأصحابهم شيئاً . وأنت عيون طاهر وجواسيسه طاهراً بذلك ؛ فراسلهم وكاتبهم ، ووعدهم واستمالهم ، وأغرى أصاغرهم بأكابريهم ، فشغبوا على محمد يوم الأربعاء لست خلون من ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائة ، فقال رجل من أبناء أهل بغداد في ذلك :

قُلْ لِلْأَمِينِ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ	مَا شَتَّتَ الْجَنْدَ سِوَى الْغَالِيَةِ
وطاهرٌ نفسى تقى طاهراً	برسله والعدّة الكافية
أضحى زمامُ الملِكِ في كفه	مقاتلا للفِئَةِ الباغية
يا ناكثاً أسلمه نكثهُ	عيوبُهُ مِنْ خُبَيْثِهِ فاشية
قد جاءك الليثُ بشدّاته	مُستكلباً في أسدٍ ضاريه
فاهرب ولا مهرب من مثله	إلا إلى النارِ أو الهاويه

٨٦٧/٣

قال : ولما شغب الجند ، وصعب الأمر على محمد شاور قوَادِه ، فقيل له : تدارك القوم ، فتسلاف أمرك ؛ فإنّ بهم قوام ملكك ؛ وهم بعد الله أزالوه عنك أيام الحسين ، وهم ردّوه عليك ، وهم من قد عرفتَ نجدتهم وبأسهم . فاج في أمرهم وأمر بقتالهم ، فوجّه إليهم التنوخي وغيره من المستأمنة والأجناد الذين كانوا معه ، فعاجل القوم القتال وراسلهم طاهر وراسلوه ؛ فأخذ رهائينهم على بذل الطاعة له ، وكتب إليهم ، فأعطاهم الأمان ، وبذل لهم الأموال ، ثم قدم فصار إلى البستان الذى على باب الأنبار يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، فنزل البستان بقوَادِه وأجناده وأصحابه ، ونزل منّ لحق بطاهر من المستأمنة من قوَاد محمد وجنده في البستان وفي الأرباض ، وألحقهم جميعاً بالثمانين في الأرزاق ، وأضعف للقواد وأبناء القواد الخواص ، وأجرى عليهم وعلى كثير من رجالهم الأموال ، ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها ، وفُتِنَ الناس ، ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار ، فعزّ الفاجر ، وذلّ المؤمن ، واختلّ الصالح ، وساءت حالُ الناس إلا من كان في

عسكر طاهر لتفقدته أمرهم ، وأخذته على أيدي سفهائهم وفساقهم ؛ واشتد في ذلك عليهم ، وغادى القتال وراوَحَه ، حتى تواكل الفريقان ، وخربت الدار .

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ من قبَل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة ، وهو أوّل موسم دُعيَ له فيه بالخلافة بمكة والمدينة .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة لحق القاسم بن هارون الرشيد ومنصور بن المهدي بالمأمون من العراق ، فوجه المأمون القاسم إلى جرجان .

* * *

[ذكر خبر حصار الأمين ببغداد]

وفيهما حاصر طاهر وهـرثمة وزهير بن المسيب محمد بن هارون ببغداد .
* ذكر الخبر عما آل إليه أمر حصارهم في هذه السنة ، وكيف كان الحصار فيها :

ذكر محمد بن يزيد التميمي وغيره أن زهير بن المسيب الضبي نزل قصر رقة كلاً واذى ، ونصب المجانيق والعرادات^(١) واحتفر الخنادق ، وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر ، فيرمي بالعرادات من أقبل وأدبر ، ويعشير أموال التجار^(٢) ويحبي السفن ، وبلغ من الناس كل مبلغ ؛ وبلغ أمره طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه ما نزل بهم من زهير بن المسيب ، وبلغ ذلك هرثمة ، فأمدّه بالجند ، وقد كاد يؤخذ ، فأمسك عنه الناس ، فقال الشاعر من أهل الجانب الشرقي — لم يعرف اسمه — في زهير وقتله الناس بالمجانيق :

لا تَقْرَبِ المَنْجَنِيْقَ والحِجْرَا فقد رَأَيْتَ القَتِيلَ إِذْ قُبِرَا
بَاكَرَ كَيْ لَا يَفُوتَهُ خَبْرٌ راحَ قَتِيلًا وخَلَفَ الخَبْرَا
ماذا به كان من نشاطٍ ومن صحّةِ جسمٍ به إِذا ابتكرَا
أَرَادَ أَلَّا يُقَالَ كانَ له أَمْرٌ فلم يَدْرٍ مَنْ به أَمْرَا

(١) المنجنيق ، بفتح الميم وتكرس : آلة ترى بها الحجارة (معربة) ، والعرادة : أصغر منه .

(٢) عشر القوم : أخذ العشر من أموالهم .

يا صاحبَ المنجنيقِ ما فعلتَ كَفَّاكَ ، لَمْ تُبْقِيَا وَلَمْ تَذَرَا
كَانَ هَوَاهُ سَوَى الَّذِي قُدِرَا هَيْهَاتَ لَنْ يَغْلِبَ الْهَوَى الْقَدَرَا

ونزل هرثمة نهر بين ، وجعل عليه حائطاً وخندقاً ، وأعدّ المجانيق
والعرادات ، وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ، ونزل طاهر البُستان بباب
الأنبار ، فذكر عن الحسين الخليل أنه قال : لما تولّى طاهر البُستان بباب
الأنبار ، دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد ، وتفرّق ما كان في يده
من الأموال ، وضاق ذرعاً ، وتحرّق صدره ، فأمر ببيع كل ما في الخزائن
من الأمّعة ، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم ، وحملها إليه لأصحابه
وفي نفقاته ، وأمر حينئذ برمي الحربية بالنفط واليران والمجانيق والعرادات ، يقتل
بها المقبل والمدير ، ففي ذلك يقول عمرو بن عبد الملك العنبري^(١) الوراق :

٨٧٠/٣

يا رماةَ المنجنيقِ كُلُّكُمْ غَيْرُ شَفِيقِ
ما تبالونَ صَدِيقاً كَانَ أَوْ غَيْرَ صَدِيقِ
وَيَلَكُمْ تَدْرُونَ ما تَرُونَ مُرَّارَ الطَّرِيقِ
رُبَّ خَوْدٍ ذَاتِ دَلٍّ وَهَى كَالْغَصَنِ الْوَرِيقِ
أُخْرِجَتْ مِنْ جَوْفِ دُنْيَا هَا وَمِنْ عَيْشٍ أَنْيَقِ
لَمْ تَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدّاً أُبْرِزَتْ يَوْمَ الْحَرِيقِ

وذكر عن محمد بن منصور الباوردي ، قال : لما اشتدت شوكة طاهر
على محمد ، وهزمت عساكره ، وتفرّق قواده كان فيمن استأمن إلى طاهر
سعيد بن مالك بن قادم ، فلحق به ، فولّاه ناحية البغيّين والأسواق هنالك وشاطئي
دجلة ؛ وما اتصل به أمامه إلى جسور دجلة ، وأمره بحفر الخنادق وبناء
الحيطان في كلّ ما غلب عليه من الدّور والدّروب ، وأمدّه بالنفقات والفسّعة
والسلاح ، وأمر الحربية بلزومه على النواثب ، ووكل بطريق دار الرقيق وباب
الشّام واحداً بعد واحد ؛ وأمر بمثل الذي أمر به سعيد بن مالك ؛ وكثّر الخراب

والهدم حتى درست محاسن بغداد ؛ ففي ذلك يقول العتري :

مَنْ ذَا أَصَابِكَ يَا بَغْدَادُ بِالْعَيْنِ أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قُرَّةَ الْعَيْنِ !
أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ قَوْمٌ كَانُوا مَسْكَنَهُمْ وَكَانَ قَرِبَهُمْ زِينًا مِنَ الزَّيْنِ !
صَاحَ الْغَرَابُ بِهِمْ بِالْبَيْنِ فَافْتَرَقُوا مَاذَا لَقِيتُ بِهِمْ مِنْ لَوَعَةِ الْبَيْنِ !
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتَهُمْ إِلَّا تَحَدَّرَ مَاءُ الْعَيْنِ مِنْ عَيْنِي
كَانُوا فَفَرَّقَهُمْ دَهْرٌ وَصَدَّعَهُمْ وَالْدَّهْرُ يَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ

قال : ووكل محمد علياً فراهمرد ؛ فيمن ضمّ إليه من المقاتلة ، بقصر صالح وقصر سليمان بن أبي جعفر إلى قصور دجلة وما والاها ، فألح في إحراق الدُّور والدُّروب وهدمها بالمجانيق والعرادات على يد رجل كان يعرف بالسَّمَرَقَنْدِي ؛ فكان يرمي بالمسجنين ، وفعل طاهر مثل ذلك ؛ وأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها ؛ وكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم ، ووضع مساحله وأعلامه ، ومنّ أبي إجابته والدخول في طاعته ناصبه وقاتله ، وأحرق منزله ؛ فكان كذلك يغدو ويروح بقواده وفرسانه ورجالاته ؛ حتى أوحشت بغداد ، وخاف الناس أن تبتغي خراباً ؛ وفي ذلك يقول الحسين الخليل :

أَتُسْرِعُ الرَّجُلَةَ إِغْدَاذَا^(١) عَنْ جَانِبِي بَغْدَادُ أَمْ مَاذَا !
أَلَمْ تَرَ الْفِتْنَةَ قَدْ أُلْفَتْ إِلَى أُولَى الْفِتْنَةِ شُدَّادَا
وَانْتَقَضَتْ بَغْدَادُ عُمْرَانَهَا عَنْ رَأْيٍ لَا ذَاكَ وَلَا هَذَا
هَدَمًا وَحَرْقًا قَدْ أُبِيدَ أَهْلُهَا عَقُوبَةَ لَاذَتْ بِمَنْ لَاذَا
مَا أَحْسَنَ الْحَالَاتِ إِنْ لَمْ تَعُدْ بَغْدَادُ فِي الْقَلَّةِ بَغْدَادَا

قال : وسمي طاهر الأرباض التي خالفه أهلها ومدينة أبي جعفر الشرقية ، وأسواق الكرخ والخلد وما والاها دار النكث ، وقبض ضياع من

(١) ١ وابن الأثير : « الرحلة » . والرجلة هنا : جمع رجل .

لم ينحز^(١) إليه من بني هاشم والقوَاد والموالى وغلاتهم ، حيث كانت من عمله ،
فذلُّوا وانكسروا وانقادوا ، وذلت الأجناد وتواكلت عن القتال ؛ إلا باعة الطريق
والعُرَّة وأهل السجون والأوباش والرَّعاع والطرَّارين^(٢) وأهل السوق . وكان
حاتم بن الصقر قد أباحهم النَّهب ، وخرج الهرش والأفارقة ، فكان طاهر
يقاتلهم لا يفتُر عن ذلك ولا يملكه ، ولا يني فيه فقال الحرابي يذكر بغداد ،
ويصف ما كان فيها :

٨٧٣/٣

قالوا : ولم يلعب الزمانُ بيعة	دادَ وتعرَّشَ بها عواثرها ^(٣)
إذ هي مثلُ العروس باطنها	مشوقٌ للفتى وظاهرُها ^(٤)
جَنَّةٌ خُلِدَ ودارُ مَغْبَطَةٍ	قلٌّ من النائبات وآثرها
دَرَّتْ خُلوْفُ الدُّنيا لساكنها	وقلٌّ مَعسُورُها وعاسِرُها
وانفَرَجَتْ بالنعيمِ وانتَجَعَتْ	فيها بلذاتها حواضِرُها
فالقومُ منها في روضةٍ أنفٍ	أشَرَقَ غِبُّ القِطارِ زاهرُها
مَنْ غَرَّهُ العيشُ في بُلْهِنِيَّةٍ	لو أَنَّ دُنيا يدومُ عامرُها
دارُ ملوكٍ رَسَتْ قواعدها	فيها وقَرَّتْ بها منابرُها
أهلُ العلا والندى وأنديَّةُ الـ	فخِرِ إذا عُدَدَتْ مَفاخرُها
أفراخُ نَعَمي في إرثٍ مَمْلُوكَةٍ	شَدَّ عُرَاها لها أكابرُها
فلم يَزَلْ والزَّمانُ ذو غيرِ	يَقْدَحُ في مُلكِها أصاغرُها
حتى تَساقَتْ كَأَساً مُثْمَلَةٌ	من فتنَةٍ لا يقال عاثرُها
وافترقتْ بعدَ ألفَةٍ شِيعاً	مقطوعةً بينها أواصرُها
يا هل رأيتَ الأملاكَ ما صنعت	إذ لم يَرُعْها بالنصح زاجرُها
أورَدَ أملاكنا نفوسَهُمُ	هُوَ غَيَّ أَعْيَتْ مَصادِرُها

(١) ط : « ينجز » ، تحريف . (٢) في القاموس : « الطر : الخلس » .

(٣) انظر الشعر والشعراء ٨٣١٠ ، ٨٣٢ ، الحيوان ١ : ٢٢٥ ، ٥ : ٢٠٤ .

(٤) كذا في أ ، وفي ط : « بادبها مهول للفتى وحاضرها » .

ما ضرها لو وفّت بمَوْنِقِهَا
ولم تسافِكِ دماءَ شيعتها
وأقنعتها الدنيا التي جُمعت
ما زال حوض الأملاك يحفره
تبغى فضول الدنيا مكاثرةً
تبسُّعُ ما جَمَعَ الأبوةُ لِدْ
يا هل رأيت الجنانَ زاهرةً
وهل رأيت القصورَ شارعةً
وهل رأيت القرى التي غرس الـ
محفوفةً بالكروم والنخل والرَّ
فإنها أصبحت خلايا من الـ
قفراً خلّاءَ تعوى الكلابُ بها
وأصبح البؤسُ ما يفارقها
بِزَنَدَوْرِدٍ واليَاسِرِيَّةِ والشَّط
ويا ترحلى والخيزرانية الـ
وقصرِ عبدويه عبرةً وهُدًى
فأين حُرَّاسُها وحارسُها
وأين خَصِيانُها وحِشْمُوتُها
أين الجَرَادِيَّةُ الصقالبُ والـ
ينصدعُ الجندُ عن مواكبها

واستحكمت في التقي بصائرها
وتبتعث^(١) فتيةً تكابرها
لها ورُعْبُ النفوسِ ضائرها
مسجورها بالهوى وساجرُها^(٢)
حتى أُبيحت كُرُها ذخائرها
أبناءً لا أربحت متاجرُها
يروقُ عينَ البصيرِ زاهرها!
تُكِنُّ مثلَ الدُّمى مقاصرُها
أَملاكُ مخضرةً دساكرُها
يحانٍ ما يستغلُّ طائرُها
إنسانٍ قد أَدْمِيَتْ محاجرُها
يُنكِرُ منها الرسومَ زائرُها^(٣)
إلفاً لها والشُّرورُ هاجرُها
بين حيث انتهت معابرها
عليها التي أشرفت قناطرُها^(٤)
لكلِّ نفسٍ زَكَتَ سرائرها
وأين مجبورُها وجابرُها!
وأين سكاُنُها وعامرُها
أَحْبُشُ تعدو هُدلاً مشافرها
تعدو بها سُرباً ضوامرها

٨٧٤/٣

٨٧٥/٣

(٢) كذا في ١.

(٤) ١: «أشرفت مناظرها».

(١) كذا في ١ وفي ط: «تبتعل».

(٣) ط: «داثرها»، وما أثبت من ١.

نُوبَةً شَيَّبَتْ بِهَا بَرَابِرُهَا
 يَقْدُمُ سُودَانَهَا أَحَامِرُهَا
 مَلِكٌ تَهَادَى بِهَا غَرَائِرُهَا !
 وَأَيْنَ مَحْبُورُهَا وَحَابِرُهَا !
 يَلْنَجُوجُ مَشْبُوبَةٌ مَجَامِرُهَا
 مَوْشَى مَحْطُومَةٌ مَزَامِرُهَا
 يُجْبِنُ حَيْثُ انْتَهَتْ حَنَاجِرُهَا
 عَارِضٌ عِيدَانَهَا مَزَاهِرُهَا^(١)
 يَسْعَرُهَا بِالْجَحِيمِ سَاعِرُهَا
 عَادٌ وَمُسْتَهْمٌ صِرَاصِرُهَا
 مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَوْ يُبَاكِرُهَا
 حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ بِهَا شِرَاشِرُهَا
 مُحْنِطُهَا مَرَّةً وَبَاقِرُهَا
 دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا
 لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرُهَا
 حَرْبٍ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَسَاوِرُهَا^(٢)
 دَفْهَلُ ذُو الْجَلَالِ غَافِرُهَا !
 دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تَحَازِرُهَا
 وَأَدْرَكَتْ أَهْلَهَا جَرَائِرُهَا
 فَضْلٌ وَعَزَّ النَّسَاكَ فَاجِرُهَا
 بِالرَّغْمِ وَاسْتُعِيدَتْ حَرَائِرُهَا

بِالسَّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصَّقَالِبِ وَالْأَلِ
 طَيْرًا أَبَابِيلَ أَرْسَلَتْ عَبَثًا
 أَيْنَ الطَّبَّاءُ الْأَبْكَارُ فِي رَوْضِهِ
 أَيْنَ غَضَارَاتُهَا وَلَدَّتْهَا
 بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبِرِ الْيَمَانِ وَالْأَلِ
 يَرْفُلُنْ فِي الْخَزِّ وَالْمَجَاسِدِ وَالْأَلِ
 فَأَيْنَ رِقَاصُهَا وَزَامِرُهَا
 تَكَادُ أَسْمَاعُهُمْ تُسَكُّ إِذَا
 أَمَسَتْ كَجَوْفِ الْجِمَارِ خَالِيَةً
 كَأَنَّمَا أَصْبَحَتْ بِسَاحَتِهِمْ
 لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يُبَايِتُهَا
 تُضْحِي وَتُمْسِي دَرِيَّةً غَرَضًا
 لَأَسْهَمُ الدَّهْرِ وَهُوَ يَرْشُقُهَا
 يَابُوسُ بَغْدَادَ دَارِ مَمْلَكَةٍ
 أَمَلُهَا اللَّهُ ثُمَّ عَاقَبَهَا
 بِالْخُسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَبِالْأَلِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي بِبَغْدَا
 حَلَّتْ بِبَغْدَادَ وَهِيَ آمِنَةٌ
 طَالَعَهَا السُّوءُ مِنْ مَطَالِيعِهِ
 رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَاسْتُخْفَ بِذِيهِ
 وَخَطَّمَ الْعَبْدُ أَنْفَ سَيِّدِهِ

٨٧٦/٣

وصار رَبَّ الجيران فاستَقَهُم
 من يَرَ بغدادَ والجنودُ بها
 كلُّ طَحوِنٍ شهباءَ بِاسِلَةٍ
 تُلقِي بغِيّ الرَدَى أوَانِسَها
 والشَّيخُ يَعْدُو حَزماً كَتائِبِه
 وَلِزُهَيْرٍ بِالْفِرْكَ مَأْسَدَةٌ
 كَتائِبُ الموتِ تَحْتَ أَلْوِيَةٍ
 يَعْلَمُ أَنَّ الْأَقْدَارَ واقِعَةٌ
 فَتلكَ بغدادُ ما يُبْنَى من الذِّ
 محفوفةٌ بِالرَدَى مُنْطَقَةٌ
 ما بين شَطِّ الفِراتِ مِنْهُ إلى
 بَارِكِ هادِي الشَّمْعَاءِ نَافِرَةٌ^(١)
 يُحْرِقُها ذَا وَذاكَ يَهْدِمُها
 وَالكَرْخُ أَسواقُها مُعْطَلَةٌ
 أَخْرَجَتِ الحَرْبُ مِنْ سِوَاقِطِها
 مِنَ البِوَارِي تِرَاسُها وَمِنْ الـ
 تَغْدُو إلى الحَرْبِ فِي جِوَاشِنِها الـ
 كَتائِبُ الهَرَشِ تَحْتَ رايَتِه
 لَا الرِّزْقَ تَبْغِي وَلَا العِطَاءَ وَلَا
 فِي كُلِّ دَرْبٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ
 بِمِثْلِ هَامِ الرِّجَالِ مِنْ فَلَاقِ الصَّ

وَابْتَزَّ أَمْرَ الدُّرُوبِ ذَاعَرُها
 قَدْ رَبَّقَتْ حَوْلَها عَساكِرُها
 تَسْقِطُ أَحْبالَها زَماجِرُها
 يُرْهِقُها لِلْقَافِ طَاهِرُها
 يُقَدِّمُ أَعْجازَها يَعاوِرُها
 مَرْقُومُهُ صَلْبَةُ مَكاسِرُها
 أَبْرَحَ مَنْصُورُها وَناصِرُها
 وَقَعاً عَلَى ما أَحَبَّ قَادِرُها
 لَقَّةٌ فِي دُورِها عَصافِرُها
 بِالصُّغَرِ مَحْصُورَةٌ جَبابِرُها
 دِجْلَةٌ حَيْثُ انْتَهَتْ مَعايِرُها
 تَرَكُضُ مِنْ حَوْلِها أَشاقِرُها
 وَيَشْتَنِي بِالنَّهَابِ شاطِرُها
 يَسْتَنِّ عِيَّارُها وَعائِرُها
 آسَادُ غَيْلٍ غُلْبًا تُساوِرُها
 خُوصٌ إِذا اسْتَلَّامَتْ مَغارِها
 صُوفٌ إِذا ما عُدَّتْ أَساوِرُها
 سَاعَدَ طَرارُها مُقامِرُها
 يَحْشُرُها لِلْقَافِ حاشِرُها
 خَطَّارَةٌ يَسْتَهْلُ خَاطِرُها
 خَرَّ يَزُودُ المِقْلَاعِ بائِرُها

من القطا الكدرِ هاج نافرُها
 وهى ترى بها خواطِرُها
 أشهرَها فى الأسواقِ شاهرُها
 بالتركِ مسنونةٌ خناجرُها
 وهابِيبًا للدخانِ عامِرُها
 أبدتْ خلاخيلُها حرائرُها
 أبرزها للعيونِ ساترُها
 لم تبدُ فى أهلها محاجرُها
 للناسِ منشورةٌ غدائرُها
 كبةٌ خيلِ رِيعةٍ حوافِرُها
 والنارُ من خلفها تُبادِرُها
 حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
 فى الطُرُقِ تسعى والجهدُ بآثرُها!
 فى صدره طعنةٌ يُساورُها
 يهزُّها بالسنانِ شاجرُها
 كلِّ وجارى الدموعِ حادِرُها
 مطلولةٌ لا يُخافُ ثائرُها
 معركِ معفورةٍ مناخرُها
 تشقى به فى الوغى مساعِرُها
 مخضوبةٌ من دمِ أظافرُها
 بالقومِ منكوبةٌ دوائرُها^(١)

كأنما فوقَ هامِها فِرَقُ
 والقومُ من تحتها لهم زَجَلُ
 بل هل رأيتَ السيوفَ مُصلتةً
 والخيَلِ تستنُّ فى أَرَقَّتِها
 والنَّفَطِ. والنَّارِ فى طرائِقِها
 والنَّهْبُ تعدُّو به الرُّجالُ وقدُ
 معصوصباتِ وسطِ الأَرَقَّةِ قدُ
 كلُّ رَقودِ الضُّحَى مخبأةً
 بيضةٌ خِدرِ مكنونةٌ برزتْ
 تعثرُ فى ثوبها وتُعجلُها
 تسألُ أين الطريقُ والهةُ
 لم تجتَلِ الشَّمْسُ حُسْنَ بَهَجَتِها
 يا هلْ رأيتَ الثُّكلى مُولولةً
 فى إثرِ نَعشٍ عليهِ واحدُها
 فرغاءُ ينقى الشنارِ مربدُها
 تنظرُ فى وجهه وتَهتِفُ بالذِّ
 غرغَرِ بالنَّفْسِ ثم أسلمها
 وقد رأيتَ الفتیانِ فى عَرَصَةِ الـ
 كلُّ فتى مانعٌ حَقِيقَتُهُ
 باتتْ عليه الكِلابُ تنهَشُهُ
 أما رأيتَ الخيولَ جائلةً

تَعَثَّرُ بِالْأَوْجُهِ الْحَسَنِ مِنْ أَلِ
 يَطَانٍ أَكْبَادَ فَتِيَةٍ نُجْدٍ
 أَمَا رَأَيْتِ النِّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا
 عِقَاتِلِ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِزِ وَالِ
 يَحْمِلْنَ قَوَاتٍ مِنَ الطَّحِينِ عَلَى أَلِ
 وَذَاتُ عَيْشٍ ضَنْكَ وَمُقْعِيسَةٌ
 تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُلبَتْ
 يَابِلَتَ شِغْرِى وَالْدَّهْرُ ذُو دُولِ
 هَلْ تَرْجِعْنَ أَرْضَنَا كَمَا غَنَيْتِ
 مَنْ مُبْلَغُ ذَا الرِّيَاسَتَيْنِ رَسَا
 بَانَ خَيْرَ الْوَلَاةِ قَدْ عَلِمَ الذِّ
 خْلِفَةُ اللَّهِ فِي بَرِيَّتِهِ أَلِ
 سَمَتْ إِلَيْهِ آمَالُ أُمَّتِهِ
 شَامُوا حَيَا الْعَدْلِ مِنْ مَخَايِلِهِ
 وَأَحْمَدُوا مِنْكَ سِيرَةَ جَلَّتِ أَلِ
 وَاسْتَجْمَعَتْ طَاعَةٌ بِرَفَقِكَ لِلْمَأْمُورِ
 وَأَنْتَ سَمِعُ فِي الْعَالَمِينَ لَهُ
 فَاشْكُرْ لَذَى الْعَرْشِ فَضْلَ نِعْمَتِهِ
 وَاحْذَرْ فِدَاءَ لِكَ الرِّعْيَةِ وَالِ
 لَا تَرْدَنَّ غَمْرَةً بِنَفْسِكَ لَا
 عَلَيْكَ ضَحْضُوحَاهَا فَلَا تَلْجِ الْغَمَّ
 وَالْقَصْدَ إِنَّ الطَّرِيقَ ذُو شُعْبٍ

مَتَلَى وَغَلَّتْ دَمَا أَشَاعِرُهَا
 يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرُهَا
 نَبَقَ تَعَادَى شُغْنًا ضَفَائِرُهَا
 مَعْنَسَ لَمْ تَحْتَبِرْ مَعَاصِرُهَا
 أَكْتَفَى مَغْصُوبَةً مَهَاجِرُهَا
 تَشْدُخُهَا صَخْرَةٌ تَعَاوِرُهَا
 وَابْتَزَّ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرُهَا
 يُرْجَى وَأُخْرَى تُخْشَى بِوَادِرُهَا
 وَقَدْ تَنَاهَتْ بِنَا مَصَابِرُهَا
 لَا تَأْتَى لِلنُّصْحِ شَاعِرُهَا
 أَسْ إِذَا عُدَدَتْ مَآثِرُهَا
 مَأْمُونٌ مُنْتَأَشَهَا وَجَابِرُهَا
 مَنَقَادَةٌ بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا
 وَأَضْحَرَتْ بِالتَّقَى بَصَائِرُهَا
 شَكَّ وَأُخْرَى صَحَّتْ مَعَاذِرُهَا
 مَوْنٍ نَجْدِيَّهَا وَغَائِرُهَا
 وَمُقَلَّةٌ مَا يَكْلُ نَاطِرُهَا
 أَوْجَبَ فَضْلَ الْمَزِيدِ شَاكِرُهَا
 أَجْنَادُ مَأْمُورِهَا وَأَمْرُهَا
 يَصْدُرُّ عَنْهَا بِالرَّأْيِ صَادِرُهَا
 رَءً مَلْتَجَّةٌ زَوَاخِرُهَا
 أَشَامَهَا وَعَنْهَا وَجَائِرُهَا

أَصْبَحْتَ فِي أَمَةٍ أَوَائِلُهَا قَدْ فَارَقْتَ هَدْيَهَا أَوَاخِرُهَا
وَأَنْتَ سُرُورُهَا وَسَائِسُهَا فَهَلْ عَلَى الْحَقِّ أَنْتَ قَاسِرُهَا !
أَدَّبَ رَجَالًا رَأَيْتَ سِيرَتَهُمْ خَالَفَ حُكْمَ الْكِتَابِ سَائِرُهَا
وَامْدُدْ إِلَى النَّاسِ كَفَّ مَرْحَمَةٍ تُسَدُّ مِنْهُمْ بِهَا مَقَاقِرُهَا
أَمْكَنْكَ الْعَدْلُ إِذْ هَمَمْتَ بِهِ وَوَافَقَتْ مَدَّةَ مَقَادِرُهَا
وَأَبْصَرَ النَّاسُ قَصْدَ وَجْهِهِمْ وَمُلِّكَتْ أُمَّةً أَخَايِرُهَا
تُشْرِعُ أَعْنَاقُهَا إِلَيْكَ إِذِ السَّادَاتُ يَوْمًا جَمَّتْ عَشَائِرُهَا
كَمْ عِنْدَنَا مِنْ نَصِيحَةٍ لَكَ فِي الدِّينِ وَقُرْبَى عَزَّتْ زَوَاغِرُهَا
وَحَرَمَةٍ قَرَّبَتْ أَوَاصِرُهَا مِنْكَ، وَأُخْرَى هَلْ أَنْتَ ذَاكِرُهَا !
سَعَى رَجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلِبُهُمْ رَائِحُهَا بَاكِرُهَا وَبَاكِرُهَا
دُونَكَ غَرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا تُفْقَدُ فِي بِلَدَةٍ سَوَائِرُهَا
لَا طَمَعًا قُلْتُهَا وَلَا بَطْرًا لِكُلِّ نَفْسٍ هَوَى يَوْمِهَا
سَيَّرَهَا اللَّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْإِيمَانِ خَشِيَّةً فَاسْتَدْمَجَتْ مَرَاثِرُهَا
جَاءَتْكَ تَحْكِي لَكَ الْأُمُورَ كَمَا يَنْشُرُ بَزَّ التَّجَارِ نَاشِرُهَا
حَمَلَتْهَا صَاحِبًا أَخَا ثِقَةٍ يَظَلُّ عُجْبًا بِهَا يَحَاضِرُهَا

وفي هذه السنة استأمن الموكِّلون بقصر صالح من قبل محمد .

* * *

[ذكر خبر وقعة قصر صالح]

وفيها كانت الوقعة التي كانت على أصحاب طاهر بقصر صالح .

* ذكر الخبر عن هذه الوقعة :

ذكر عن محمد بن الحسين بن مصعب ، أن طاهرًا لم يزل مصابرًا محمدًا
وجندة على ما وصفت من أمره ؛ حتى ملَّ أهل بغداد من قتاله ، وأن عليَّ

فراهمرد الموكّل بقصرى صالح وسليمان بن أبى جعفر من قبّل محمد ، كتب إلى طاهر يسأله الامان ، ويضمن له أن يدفع ما فى يده من تلك الأموال ومن الناحية إلى مجلسور وما فيها من المجانيق والعرّادات إليه ؛ وأنه قبّل ذلك منه ، وأجابه إلى ما سأل ، ووجه إليه أبا العباس يوسف بن يعقوب الباذغيسى صاحب شُرطه فيمن ضمّ إليه من قواده وذوى البأس من فُرسانه ليلاً ، فسلم إليه كلّ ما كان محمد وكله به من ذلك ليلة السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ومائة . واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب شُرطه محمد ؛ وكان يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش ؛ وكان محمد بن عيسى غير مدهين فى أمر محمد ؛ وكان مهيباً فى الحرب ، فلما استأمن هذان إلى طاهر ، أشفى محمد على الهلاك ، ودخله من ذلك ما أقامه وأقعدته حتى استسلم ؛ وصار على باب أم جعفر يتوقع ما يكون ؛ وأقبلت الغواة من العيّارين وباعة الطرق والأجناد ؛ فاقتتلوا داخل قصر صالح وخارجه إلى ارتفاع النهار .

قال : فقتل فى داخل القصر أبو العباس يوسف بن يعقوب الباذغيسى ومن كان معه من القواد والرؤساء المعدادين ، وقاتل فراهمرد وأصحابه خارجاً من القصر حتى قُتل وانحاز إلى طاهر ؛ ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشدّ على طاهر وأصحابه منها ، ولا أكثر قتيلًا وجريحًا معقوراً من أصحاب طاهر من تلك الوقعة ؛ فأكثر الشعراء فيها القول من الشعر ، وذكر ما كان فيها من شدة الحرب^(١) . وقال فيها الغوغاء والرّاع ، وكان مما قيل فى ذلك قول الخليل^(٢) :

أَمِينَ اللَّهِ ثِقٌ بِاللَّهِ تَعْطَى الصَّبْرَ وَالنُّصْرَةَ^(٣)
 كِلِ الْأَمَرَ إِلَى اللَّهِ كَلَاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
 لَنَا النَّصْرُ بَعُونَ اللَّذِّ وَالْكِرَّةُ لَا الْفِرَّةُ
 وَلِلْمُرَاقِ أَعْدَاءُ كَ يَوْمُ السَّوْءِ وَالْذَّبِيرَةِ
 وَكَأْسٌ تَلْفِظُ الْمَوْتَ^(٤) كَرِيهَ طَعْمُهَا مُرَّةٌ

(١) كذا فى ١ ، وفى ط : « الحرب » .

(٢) هو الحسين بن الضحاك ، المعروف بالخليل .

(٣) الأغاني ٧ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ المسعودى ٣ : ٤١٣ . (٤) الأغاني : « تورد الموت » .

سُقِينَا وسُقِينَاهُمْ^(١) ولكن بِهِمُ الْحِرَّةُ
كذلك الحربُ أحياناً علينا ولنا مرة

فذكر عن بعض الأبناء أن طاهراً بث رسالة، وكتب إلى القواد والهاشميين وغيرهم بعد أن حاز ضياعهم وغلاتهم يدعوهم إلى الأمان والدخول في خلع محمد والبيعة للمأمون؛ فلحق به جماعة، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي وإخوته، وولد الحسن بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان ومحمد بن أبي العاص^(٢)، وكتبه قوم من القواد والهاشميين في السر، وصارت قلوبهم وأهواؤهم معه.

قال: ولما كانت وقعة قصر صالح أقبل محمد على اللهو والشرب، ووكّل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهيرش؛ فوضعا مما يليهما من الدروب والأبواب وكلاءهما بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكرخ. وفرض دجلة وباب المحول والكناسة؛ فكان لصوصها وفساقها يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من أهل الملة والذمة؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب.

٨٨٣/٣

قال: ولما طال ذلك بالناس، وضاعت بغداد بأهلها، خرج عنها من كانت به قوة بعد الغرم القادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم؛ فأخذ طاهر أصحابه بخلاف ذلك، واشتد فيه، وغلظ على أهل الرّيب. وأمر محمد ابن أبي خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتجويزهم وتسهيل أمرهم؛ فكان الرجل والمرأة إذا تخلص من أيدي أصحاب الهيرش، وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الرّوع وأمن، وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو يز؛ حتى قيل: إن مثل أصحاب طاهر ومثل أصحاب الهيرش وذويه ومثل الناس إذا تخلصوا، مثل السور الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ يَسُورَهُ﴾ ^(٣) باب بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. فلما طال على الناس ما بُلُوا به ساءت حالهم، وضاقوا به ذرعاً؛ وفي ذلك يقول بعض فتيان بغداد:

(٢) الأغاني: «محمد بن العباس الطائي».

(١) الأغاني: «سُقِينَا».

(٣) سورة الحديد ١٣.

بكيتُ دماً على بغدادَ لما
تبدَّلنا هُموماً من سُرور
أصابتها مِنَ الحُسَادِ عَيْنُ
فَقَوْمٌ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَسراً
وصائحةٌ تُنادي وَاصْبَاحاً^(١)
وَحوراءُ المَدَامِ ذاتُ دَلْ
تَفِرُّ مِنَ الحَرِيقِ إِلَى انتِهَابِ
وَسَالِيَةِ الغَزَالَةِ مُقْلَتَيْهَا
حَيَارَى كَالْهَدَايَا مُفَكِّرَاتُ
يُنَادِينَ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقُ
وَقَوْمٌ أَخْرَجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا
وَمُغْتَرِبُ قَرِيبُ الدَّارِ مُلْقَى
تَوَسَّطَ مِنْ قَتَالِهِمْ جَمِيعاً
فَلَا وَلَدٌ يَقِيمُ عَلَى أَبِيهِ
وَمَهْمَا أَنْسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى

فَقَدْتُ غَضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَنِيقِ^(٢)
وَمِنْ سَعَةٍ تَبَدَّلْنَا بِضِيقِ
فَأَفْنَتُ أَهْلَهَا بِالْمَنْجِيقِ^(٣)
وَنَائِحَةُ تَنُوحُ عَلَى غَرِيقِ
وَبَاكِئَةٌ لِفَقْدَانِ الشَّفِيقِ
مُضْمَخَةٌ الْمَجَاسِدِ بِالْخُلُوقِ
وَوَالِدَاهَا يَفِرُّ إِلَى الْحَرِيقِ
مَضَاحُكُهَا كَلَأْلَاءَةِ الْبُرُوقِ
عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ فِي الْحُلُوقِ
وَقَدْ فُقِدَ الشَّقِيقُ مِنَ الشَّقِيقِ
مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سَوِيقِ
بَلَا رَأْسٍ بِقَارَعَةِ الطَّرِيقِ
فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْفَرِيقِ
وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ بِالصَّدِيقِ
فَإِنِّى ذَاكِرٌ دَارَ الرَّقِيقِ

٨٨٤/٣

٨٨٥/٣

وذكر أن قائداً من قواد أهل خراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس ، خرج يوماً إلى القتال ، فنظر إلى قوم عذراء ، لا سلاح معهم ، فقال لأصحابه : ما يقاتلنا إلا مَنْ أرى ؛ استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم ؛ فقبل له : نعم هؤلاء الذين ترى هم الآفة ؛ فقال : أف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم ، وأنتم في السلاح الظاهر ، والعدة والقوة ؛ ولكم مالكم من

(١) المسعودى ٣ : ٤١٤ ، وفيه : « يكت عيني دماً » .

(٢) المسعودى وابن الأثير : « أصابتنا » .

(٣) المسعودى : « يا صحابي » .

الشجاعة والنجدة ! وما عسى أن يبلغ كيد مَنْ أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عُدّة لهم ولا جُنّة تقيهم ! فأوتر قوسه وتقدّم ، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده باريّة مُقْبِرة ، وتحت إبطه مخلّاة فيها حجّارة ، فجعل الخُراسانيّ كلّما رمى بسهم استتر منه العيّار ، فوقع في باريّته أو قريباً منه ؛ فيأخذه فيجعله في موضع من باريّته ، قد هياّه لذلك ، وجعله شبيهاً بالجُعبة . وجعل كلما وقع سهم أخذه ، وصاح : دانق ، أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه ؛ ولم يزل تلك حالة الخُراسانيّ وحال العيّار حتى أنفذ الخُراسانيّ سهامه ، ثم حمل على العيّار ليضربه بسيفه ؛ فأخرج من مخلاته حجراً ؛ فجعله في مقلّاع ورماه فما أخطأ به عينه ، ثم ثناه بآخر ؛ فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ؛ وكرّ راجعاً وهو يقول : ليس هؤلاء بإنس ؛ قال : فحدثت أن طاهراً حدثت بحديثه فاستضحك وأعني الخُراسانيّ من الخروج إلى الحرب ؛ فقال بعض شعراء بغداد في ذلك :

٨٨٦/٣

خَرَجَتْ هذه الحروبُ رجالاً لا لقحطانها ولا لنزار
معشراً في جواشِنِ الصوفِ يغدو ن إلى الحرب كالأسودِ الضوّاري
وعليهم مغافرُ الخوصِ تُجزى هم عن البيضِ ، والترأس البواري
ليس يدرون ما الفرارُ إذا الأبّ طالُ عاذوا من القنا بالفرارِ
واحدٌ منهم يُشدُّ على ال فَمَيْنِ عُرْيَانُ ماله من إزارِ
ويقول الفتى إذا طعن الطع نة : خذها من الفتى العيّارِ
كم شريف قد أحمَلتهُ وكم قد رفعت من مُقامر طرارِ

٨٨٧/٣

* * *

[ذكر خبر منع طاهر الملاحين من إدخال شيء إلى بغداد]

[قال محمد بن جرير : وفي هذه السنة منع طاهر الملاحين وغيرهم من إدخال شيء إلى بغداد إلا إلى من كان من عسكره منهم ، ووضع الرصيد عليهم بسبب ذلك] (١) .

• ذكر الخبر عما كان منه ومن أصحاب محمد المخلوع في ذلك

وعن السبب الذى من أجله فعل ذلك طاهر :

أما السبب في ذلك فإنه — فيما ذكر — كان أن طاهراً لما قُتِلَ مَن قُتِلَ في قصر صالح من أصحابه ، ونالهم فيه من الجراح ما نالهم ، مَضَّه ذلك وشقَّ عليه ؛ لأنه لم يكن له وقعة إلا كانت له لا عليه ؛ فلما شقَّ عليه أمر بالهدم والإحراق عند ذلك ، فهدم دور مَن خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة ، إلى الصَّراة وأرجاء أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة ؛ وجعل يبايت أصحاب محمد ويُدالِّجهم ، ويحوى في كل يوم ناحية ، ويخندق عليها المراسد من المقاتلة ؛ وجعل أصحاب محمد ينقصون ، ويزيدون ؛ حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ؛ فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون أضرباً على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً ؛ فقال شاعر منهم — وذكر أنه عمرو بن عبد الملك الوراق العتري — في ذلك :

لنا كلَّ يومٍ ثُلْمَةٌ لا نَسُدُّها يَزِيدُونَ فيما يَطْلُبُونَ وَنَنْقُصُ
إِذَا هَدَمُوا داراً أَخَذْنَا سُقُوفَهَا وَنَحْنُ لِأُخْرَى غَيْرِها نَتَرَبِّصُ
وَإِنْ حَرَّصُوا يوماً عَلَى الشَّرِّ جُهِدْهُمْ فغَوَاؤُنَا مِنْهُمْ عَلَى الشَّرِّ أَحْرَضُ
فَقَدْ ضَيَّقُوا مِنْ أَرْضِنَا كُلِّ واسعٍ وَصَارَ لَهُمْ أَهْلُها ، وَتَعَرَّصُوا
يُثْبِرُونَ بِالطَّبِيلِ الْقَنِيصِ فَإِنْ بَدَا لَهُمْ وَجْهُ صَيْدٍ مِنْ قَرِيبٍ تَقْنَصُوا
لَقَدْ أَفْسَدُوا شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا عَلَيْنَا فَمَا نَدْرِي إِلَى أَيْنَ نَشْخُصُ !
إِذَا حَضَرُوا قَالُوا بِمَا يَعْرِفُونَهُ (١) وَإِنْ يَرَوْا شَيْئاً قَبِيحاً تَحَرَّصُوا
وَمَا قَتَلَ الْأَبْطالَ مِثْلُ مَجْرَبٍ رَسُولِ الْمَنائِيَا لَيْلَهُ يَتَلَصَّصُ (٢)
تَرَى الْبَطْلَ الْمَشْهُورَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا مَا رَأَى الْعَرِيانَ يوماً يُبْصِبُصُ

(١) المسعودى : يبصرونه .

(٢) ط : ليلة ، والوجه ما أثبتته من ا .

إذا مارآه الشَّمرى مُقزلاً^(١)

يبیعك رأساً للصبي بدرهم

فكم قاتل منا لآخر منهم

تراه إذا نادى الأمان مبارزاً

وقد رخصت قراونا في قتالهم

وقال أيضا في ذلك :

النَّاسُ في الهدمِ وفي الانتقالِ

يأئُّها السائل عن شأنهم

قد كان للرحمن تكبيرهم

اطرخ بعينيك إلى جمعهم

لم يبق في بغدادَ إلا امرؤ

لا أم تحمي عن حماها ولا

ليس له مال سوى مطرد

هان على الله فأجرى على

إن صارَ ذا الأمرِ إلى واحدٍ

ما بالنَّا نُقتلُ من أجلهم

وقال أيضا :

ولستُ بتاركِ بغدادَ يوماً

إذا ما العيشُ ساعدنا فليسنا

قال عمرو بن عبد الملك العتريّ :

والهدمُ والحرقُ أمر عند ذلك بمنع التجار أن يجوزوا بشيء من الدقيق وغيره من

على عقبَيْهِ للمخافةِ يَنكصُ

فإن قال إني مُرخصٌ فهو مرخصٌ

بمقتله عنه الذُّنوبُ تُمحَّصُ

ويغمرنا طوراً وطوراً يخصَّصُ

وما قتل المقتولَ إلا المرخصُ

قد عَرَّضَ النَّاسُ بَقِيلٍ وقال

عينك تكفيكَ مكانَ السُّؤالِ

فاليوم تكبيرهم للقتالِ

وانتظر الرُّوحَ وعُدَّ الليالِ

حالفهُ الفقرُ كثيرُ العيالِ

خالٌ له يحمي ولا غيرُ خالٍ

مِطرْدُهُ في كَفِّه رَأْسُ مالٍ

كفَّيه للشَّقوةِ قتلَ الرجالِ

صارَ إلى القتلِ على كلِّ حالٍ

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ يا ذا الحلالِ !

تَرَحَّلَ مَنْ تَرَحَّلَ أَوْ أَقَامَا

نُبالي بعدُ مَنْ كان الإماما

قال عمرو بن عبد الملك العتريّ :

لما رأى طاهر أنهم لا يحفلون بالقتل

المنافع من ناحيته إلى مدينة أبي جعفر والشرقية والكربخ ، وأمر بصرف سُفُن البصرة وواسط بطرنايا إلى الفرات ؛ ومنه إلى الحوّل الكبير وإلى الصّراة ، ومنها إلى خندق باب الأنبار ؛ بما كان زهير بن المسيب يُبذّره إلى بغداد ، وأخذ من كلّ سفينة فيها حمولة ما بين الألف درهم إلى الألفين والثلاثة ، وأكثر وأقلّ ، وفعل عمّال طاهر وأصحابه ببغداد في جميع طرقها مثل ذلك وأشدّ ، فغلت الأسعار ، وصار الناس في أشدّ الحصار ، فيشسوا أو كثير منهم من الفرج والروح ، واغتبط من كان خرج منها ، وأسف على مقامه من أقام .

* * *

وفي هذه السنة استأمن ابن عائشة إلى طاهر ، وكان قد قاتل مع محمد حيناً بالياسرية .

* * *

[ذكر خبر وقعة الكناسة]

وفيها جعل طاهر قوّاداً من قوّاده بنواحي بغداد ، فجعل العلاء بن الوضّاح الأزدي في أصحابه ومن ضمّ إليه بالوضّاحية^(١) على الحوّل الكبير ، وجعل نعيم بن الوضّاح أخاه فيمن كان معه من الأتراك وغيرهم مما يلي ربض أبي أيوب على شاطئ الصّراة ، ثم غادى القتال وراوح أشهراً ، وصبر الفريقان جميعاً ؛ فكانت لهم فيها وقعة بالكناسة ؛ باشرها طاهر بنفسه ، قُتل فيها بشرٌ كثير من أصحاب محمد ، فقال عمرو بن عبد الملك :

وَقَعَهُ	يَوْمَ	الْأَحَدِ	صَارَتْ	حَلِيْثَ	الْأَبْدِ
كَمْ	جَسَدٍ	أَبْصَرْتَهُ	مُلْقَى	وَكَمْ	مِنْ جَسَدٍ
وَنَاطِرٍ	كَانَتْ	لَهُ	مَنْيَّةٌ	بِالرَّصْدِ	
أَتَاهُ	سَهْمٌ	عَائِرٌ	فَشَكَ	جَوْفَ	الْكَبْدِ
وَصَائِحٍ	يَا	وَالدَى	وَصَائِحٍ	يَا	وَالدَى !

(١) موضعها في ط كلمة غير واضحة وما أثبتته من أ .

وكم غريقٍ سابحٍ كان متينَ الجَلَدِ !
 لم يَفْتَقِدْهُ أَحَدٌ غَيْرُ بناتِ البلدِ
 وكم فقيدٍ بئسَ عزٌّ على المفتقِدِ
 كَانَ مِنَ النَّظَارَةِ الـ أولى شديداً الحَرَدِ (١)
 لو أَنَّهُ عَايَنَ مَا عَايَنَهُ لَمْ يَعُدِ
 لَمْ يَبْقَ مِنْ كَهْلٍ لَهُمْ فَاتٌ وَلَا مِنْ أَمْرٍ
 وَطَاهِرٌ مِلَّتِهِمْ مِثْلَ التَّهَامِ الْأَسَدِ
 خَيْمٌ لَا يَبْرَحُ فِي الـ عَرَصَةٍ مِثْلَ اللَّبَدِ
 تَقْذِفُ عَيْنَاهُ لَدَى الـ حَرْبٍ بِنَارِ الْوَقْدِ
 فَقَائِلٌ قَدْ قَتَلُوا أَلْفًا وَلَمَّا يَزِدِ
 وَقَائِلٌ أَكْثَرَ بَلْ مَا لَهُمْ مِنْ عَدَدِ
 وَهَارِبٌ نَحْوَهُمْ يَرْهَبُ مِنْ خَوْفِ غَدِ
 هِيَهَاتَ لَا تَبْصُرُ مِمَّنْ قَدْ مَضَى مِنْ أَحَدِ
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى الـ بَاقِي طَوَالَ الْأَبَدِ
 قُلْتُ لِمَطْعُونٍ وَفِيهِ رُوحُهُ لَمْ تَبْدِ
 مَنْ أَنْتَ يَا وَيْلَكَ يَا مَسْكِينُ مِنْ مُحَمَّدِ
 فَقَالَ لَا مِنْ نَسَبِ دَانٍ وَلَا مِنْ بَلَدِ
 لَمْ أَرَهُ قَطُّ وَلَمْ أَجِدْ لَهُ مِنْ صَفَدِ
 وَقَالَ لَا لِلْغَى قَا تَلْتُ وَلَا لِلرَّشْدِ
 إِلَّا لَشَيْءٍ عَاجِلٍ يَصِيرُ مِنْهُ فِي يَدِي

٨٩٣/٣

وذكر عن عمرو بن عبد الملك أن محمداً أمر زُرَيْحاً غلامه بمتبّع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم ، وأمر الهِرْش بطاعته ، فكان يهجم على الناس في منازلهم ، ويبستهم ليلاً ، ويأخذ بالظنّة ، فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة ، وأهلك خلقاً ، فهرب الناس بعلّة الحجّ ، وفرّ الأغنياء ، فقال القراطيسي في ذلك :

أظهروا الحجّ وما ينوونه بل من الهِرْش يُريدون الهرب
كم أناس أصبحوا في غبطة وكلّ الهِرْش عليهم بالعطب^(١)
كلّ من راد^(٢) زُرَيْح بيته لقي الدّلّ ووافاه الحرب

* * *

[ذكر خبر وقعة درب الحجارة]

وفيها كانت وقعة درب الحجارة .

* ذكر الخبر عنها :

ذكر أن هذه الوقعة كانت بحضرة درب الحجارة ؛ وكانت لأصحاب محمد على أصحاب طاهر ، قُتل فيها خلق كثير ، فقال في ذلك عمرو بن عبد الملك العتريّ :

وَقَعَةُ السَّبْتِ يَوْمَ دَرَبِ الْحِجَارَةِ قَطَعْتَ قِطْعَةً مِنَ النَّظَارَةِ
ذاك من بعد ما تَفَانَا وَلَكِنْ أَهْلَكْتَهُمْ غَوْغَاؤُنَا بِالْحِجَارَةِ
قَدِمَ الشُّورَجِينَ لِلْقَتْلِ عَمْدًا قَالَ إِنِّي لَكُمْ أُرِيدُ الْإِمَارَةَ^(٣)
فَتَلَقَّاهُ كُلُّ لِيْصٍ مُّرِيْبٍ عَمَرَ السَّجْنَ دَهْرَهُ بِالشَّطَارَةِ
ما عليه شيءٌ يُوَارِيهِ مِنْهُ أَيْرُهُ قَائِمٌ كَمَثَلِ الْمَنَارَةِ
فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ وَكَانُوا قَدِيمًا يُحْسِنُونَ الضَّرَابَ فِي كُلِّ غَارَةِ

٨٩٤/٣

(١) المسعودي : « ركض الليل عليهم بالعطب » .

(٢) المسعودي : « كل من زار » . (٣) ورد البيت في ط ناقصاً وأكمله من ا .

هوْلا مثلُ هوْلاكَ لدينا
كُلُّ مَنْ كَانَ خَامِلاً صَارَ رَأْساً
حَامِلاً فِي يَمِينِهِ كُلُّ يَوْمٍ
أَخْرَجْتُهُ مِنْ بَيْتِهَا أُمُّ سَوْءٍ
يَشْتُمُ النَّاسَ مَا يَبَالِي بِإِفْصَا
لَيْسَ هَذَا زَمَانُ حَرْ كَرِيمٍ
كَانَ فِيهَا مَضَى الْقِتَالُ قِتَالاً

وقال أيضاً :

٨٩٥/٣

بَارِيَّةٌ قَيَّرَتْ ظَاهِرَهَا
الْعِزُّ وَالْأَمْنُ أَحَادِيثُهُمْ
وَأَيُّ نَفْعٍ لَكَ فِي سُورِهِمْ
قَدْ قُتِلَتْ فُرْسَانُكُمْ عَنَوَةً
هَاتُوا لَكُمْ مِنْ قَائِدٍ وَاحِدٍ
يَأْيُهَا السَّائِلُ عَنْ شَأْنِنَا

مُحَمَّدٌ فِيهَا وَمَنْصُورٌ
وَقَوْلُهُمْ قَدْ أُخِذَ السُّورُ
وَأَنْتَ مَقْتُولٌ وَمَأْسُورٌ ؟
وَهَلِمْتَ مِنْ دُورِكُمْ دُورُ
مَهْذَبٍ فِي وَجْهِهِ نُورُ
مُحَمَّدٌ فِي الْقَصْرِ مَحْضُورُ

* * *

[ذكر خبر وقعة باب الشماسية]

وفيهما أيضاً كانت وقعة بباب الشماسية ، أُسِرَ فيها هَرَثْمَةُ .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان وإلى ما آل الأمر فيه :

ذكر عن علي بن يزيد^(٢) أنه قال : كان ينزل هَرَثْمَةُ نهر بين ، وعليه
حائط وخندق ، وقد أعد المجانيق والعرادات ، وأنزل عبيد الله بن الوضاح
الشماسية ، وكان يخرج أحياناً ، فيقف بباب خراسان مشفقاً من أهل

(١) ورد البيت في ط محرفاً والصواب ما أثبتته من أ . (٢) ط : « زيد » ، وانظر التفهرس

٨٩٦/٣

العسكر ، كارهها للحرب ، فيدعو الناس إلى ما هو عليه فيشتمه ، ويستخف به ؛ فيقف ساعة ثم ينصرف . وكان حاتم بن الصقر من قواد محمد ؛ وكان قد واعد أصحابه الغزاة^(١) والعيثارين أن يوافوا عبيد الله بن الوضاح ليلا ، ففضوا إلى عبيد الله مفاجأة وهو لا يعلم ؛ فأوقعوا به وقعة أزالوه عن موضعه ، وولّو منهنزما ، فأصابوا له خيلا وسلاحا ومتاعا كثيرا ، وغلب على الشامية حاتم ابن الصقر . وبلغ الخبر هرثمة ، فأقبل في أصحابه لنصرتة ، وليرد العسكر عنه إلى موضعه ؛ فوافاه أصحاب محمد ، ونشب الحرب بينهم ، وأسّر رجل من الغزاة هرثمة ولم يعرفه ، فحمل بعض أصحاب هرثمة على الرجل ، فقطع يده وخلّصه ، فرّ منهنزما ، وبلغ خبره أهل عسكره ، فتقوّض بما فيه ، وخرج أهله هاربين على وجوههم نحو حلوان ، وحجز أصحاب محمد الليل عن الطلب ؛ وما كانوا فيه من النهب والأسر . فحدّثت أن عسكر هرثمة لم يراجع أهله يومين ، وقويت الغزاة بما سار في أيديهم .

وقيل في تلك الوقعة أشعار كثيرة ، فن ذلك قول عمرو^(٢) الوراق :

عُرْيَانُ لَيْسَ بِذِي قَمِيصٍ	يَغْدُو عَلَى طَلَبِ الْقَمِيصِ
يَعْدُو عَلَى ذِي جَوْشَنِ	يُعْمِي الْعَيُونَ مِنَ الْبَصِيصِ
فِي كَفِّهِ طَرَادَةٌ	حَمْرَاءُ تَلْمَعُ كَالْفُصُوصِ
حَرِصًا عَلَى طَلَبِ الْقِتَا	لِأَشَدِّ مِنْ حِرْصِ الْحَرِيصِ
سَلِسَ الْقِيَادِ كَأَنَّمَا	يَغْدُو عَلَى أَكْلِ الْخَبِيصِ
لَيْثًا مُغِيرًا لَمْ يَزَلْ	رَأْسًا يَعْدُ مِنَ اللَّصُوصِ
أَجْرَى وَأَثْبَتَ مَقْدَمًا	فِي الْحَرْبِ مِنْ أَسَدِ رَهِيصِ
يَذْنُو عَلَى سَنَنِ الْهَوَا	نِ وَعِيصُهُ مِنْ شَرِّ عَيْصِ
يَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَا	عُ عَلَى أَخَفِّ مِنَ الْقَلُوصِ
مَا لِلْكَمِيِّ إِذَا لِمَقَّ	تَلَهُ تَعَرَّضَ مِنْ مَحِيصِ

(١) كذا في ١ ، وفي ط : « العراة » . وكذلك فيما يأتي .

(٢) هو عمرو بن عبد الملك العتري .

٨٩٧/٣

كَمْ مِنْ شُجَاعٍ فَارِسٍ قَدْ بَاعَ بِالشَّمَنِ الرَّخِيسِ
يَدْعُو : أَلَا مَنْ يَشْتَرِي رَأْسَ الْكَمِيِّ بِكَفِّ شَيْصٍ !

وقال بعض أصحاب هَرَثْمَةَ :

يَفْنَى الزَّمَانُ وَمَا يَفْنَى قَتَالَهُمْ والدُّورُ تُهْدَمُ والأَمْوَالُ تَنْتَقِصُ
وَالنَّاسُ لَا يَسْتَطِيعُونَ الذِّي طَلَبُوا لَا يَدْفَعُونَ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ حَرَّصُوا
يَأْتُونَنَا بِحَدِيثٍ لَا ضِيَاءَ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِأَوْلَادِ الزَّنَا قِصَصُ

قال : ولما بلغ طاهراً ما صنع الغزاة وحاتم بن الصقر بعبيد الله بن الوضاح
وهَرَثْمَةَ اشتدَّ ذلك عليه ، وبلغ منه ؛ وأمر بعقد جسر على دجاة فوق الشَّامِسيَّة ،
ووجه أصحابه وعبأهم ، وخرج معهم إلى الجسر ، فعبروا إليهم وقتلواهم
أشدَّ القتال ، وأمدَّهم بأصحابه ساعة بعد ساعة حتى ردُّوا أصحاب محمد ،
وأزالوهم عن الشَّامِسيَّة ، وردَّ المهاجر عبيد الله بن الوضاح وهَرَثْمَةَ .

قال : وكان محمد أعطى بنقض قصوره ومجالسه الخيزرانية بعد ظفر الغزاة
ألْفَ درهم ، فحرقها أصحاب طاهر كلها ، وكانت السقوف مذهَّبة ،
وقتلوا من الغزاة والمنتهبين بشراً كثيراً ، وفي ذلك يقول عمرو الوراق :

ثَقْلَانِ وَطَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ صَبَحْنَا صَبِيحَةَ الْإِثْنَيْنِ
جَمَعُوا جَمْعَهُمْ بَلِيلٌ وَنَادَا اطْلُبُوا الْيَوْمَ ثَارَكُمْ بِالْحُسَيْنِ
ضَرَبُوا طَبْلَهُمْ فثَارَ إِلَيْهِمْ كُلَّ صُلْبِ الْقَنَاةِ وَالسَّاعِدَيْنِ
يَا قَتِيلًا بِالْقَاعِ مُلْقَى عَلَى الشُّطِّ هَوَاهُ بِطَيْبِ الْجَبَلَيْنِ^(١)
مَا الَّذِي فِي يَدَيْكَ أَنْتَ إِذَا مَا اضْ طَلَحَ النَّاسُ أَنْتَ بِالْخَلَّتَيْنِ
أَوْزِيرُ أُمِّ قَائِدٍ ، بَلْ بَعِيدُ أَنْتَ مِنْ ذَيْنِ مَوْضِعِ الْفَرْقَدَيْنِ
كَمْ بِصِيرٍ غَدَاً بَعِينَيْنِ كَيْ يُبْ صِرَ مَا حَالَهُمْ فَعَادَ بَعِينِ
لَيْسَ يُخْطُونَ مَا يَرِيدُونَ مَا يَعْ جِدَ رَامِيَهُمْ سِوَى النَّاطِرَيْنِ

٨٩٨/٣

(١) السعدي : « تطأ الخيول في الجانين » .

سائلي عنهم هم شر من أب صرت في الناس ليس غير كذنين
 شر باقي وشر ماض من الناس ماضى أو رأيت في الثقلين
 قال : وبلغ ذلك من فعل طاهر محمداً ، فاشتد عليه وغمه وأحزنه ؛
 فذكر كاتب لكوثر أن محمداً قال - أو قيل على لسانه هذه الأبيات :

٨٩٩/٣

مُنِيتُ بِأَشْجَعِ الثَّقَلَيْنِ قَلْباً إِذَا مَا طَالَ لَيْسَ كَمَا يَطُولُ
 لَهُ مَعَ كُلِّ ذِي بَدَنٍ رَقِيبٌ يَشَاهِدُهُ وَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ
 فَلَيْسَ بِمُعْغَلٍ أَمْراً عِنَاداً إِذَا مَا الْأَمْرُ ضَيَّعَهُ الْغَفُولُ

* * *

وفي هذه السنة ضَعُفَ أمر محمد ، وأيقن بالهلاك ، وهرب عبد الله بن
 خازم بن خزيمه من بغداد إلى المدائن ؛ فذكر عن الحسين بن الضحاك أن
 عبد الله بن خازم بن خزيمه ظهرت له التهمة من محمد والتحامل عليه من
 السفلة والغوغاء ، فهم على نفسه وماله ، فالحق بالمدائن ليلاً في السفن بعياله
 وولده ، فأقام بها ولم يحضر شيئاً من القتال .

وذكر غيره أن طاهراً كاتبه وحذره قبض ضياعه واستئصاله ، فعذره
 ونجا من تلك الفتنة وسلم ؛ فقال بعض قرائبه في ذلك :

وَمَا جَبَنَ ابْنُ خَازِمٍ مِنْ رَعَاعٍ وَأَوْبَاشِ الطَّغَامِ مِنَ الْأَنَامِ
 وَلَكِنْ خَافَ صَوْلَةَ ضَيْغَمِيٍّ هَضُورِ الشَّدِّ مَشْهُورِ الْعُرَامِ

فداع أمره في الناس ، ومشى تجار الكرخ بعضهم إلى بعض ، فقالوا :
 ينبغي لنا أن نكشف أمرنا لطاهر ونظهر له براءتنا من المعونة عليه ، فاجتمعوا
 وكتبوا كتاباً أعلموه فيه أنهم أهل السمع والطاعة والحب له ؛ لما يبلغهم من
 إثارة طاعة الله والعمل بالحق ، والأخذ على يد المريب ، وأنهم غير مستحلّي
 النظر إلى الحرب ؛ فضلاً عن القتال ، وأن الذي يكون حظه من جانبهم ليس

٩٠٠/٣

منهم ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ؛ حتى إن الرجال^(١) [الذين بلوا من
 حربه من جانبهم ليس منهم] ، ولا^(٢) لهم بالكرخ دور ولا عقار ؛ وإنما هم

بين طرّار وسوّاط ونطاف^(١) ، وأهل السجون . وإنما وأهم الحمامات والمساجد ، والتّجار منهم إنما هم باعة الطريق يتّجرون في محقرات [اليّوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ، حتى إن الرجل ليستقبل^(٢) المرأة في زحمة^(٣) الناس فيلثان^(٤) قبل التّخلص ؛ وحتى إن الشيخ ليسقط لوجهه ضعفاً ؛ وحتى إن الحامل الكيس في حُجْزته وكفه ليُطَرُّ منه ، وما لنا بهم يدان ولا طاقة ؛ ولا نملك لأنفسنا معهم شيئاً ؛ وإن بعضنا يرفع الحجّير عن الطريق لما جاء فيه من الحديث عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف لو اقتدرنا على مَنْ في إقامته عن الطريق ، وتخليده السجن ، وتنفيته عن البلاد وحسم الشرّ والشّغب ونفي الزّعارة والطّر والسرق ، وصلاح الدين والدنيا ، وحاش لله أن يحاربك منا أحداً !

فذكر أنهم كتبوا بهذا قصّةً ، واتّعد قوم على الانسلاخ إليه بها ، فقال لهم أهل الرأى منهم والحزم : لا تظنّوا أن طاهراً غيبيّ عن هذا أو قصر عن إذكاء العيون فيكم وعليكم ؛ حتى كأنه شاهدكم ؛ والرأى ألا تشهروا أنفسكم بهذا ؛ فإننا لا نأمن إن رآكم أحد من السّفلة أن يكون به هلاككم وذهاب أموالكم ؛ والخوف من تعرّضكم لهؤلاء السّفلة أعظم من طلبكم براءة السّاحة عند طاهر خوفاً ، بل لو كنتم من أهل الآثام والذنوب لكنتم إلى صفحه وتغمّده وعفوه أقرب ، فتوكّلوا على الله تبارك وتعالى وأمسكوا . فأجابوهم وأمسكوا . وقال ابن أبي طالب المكفوف :

دَعُوا أَهْلَ الطَّرِيقِ فَعَنَ قَلِيلٍ^(٥) تَنَالَهُمْ مَخَالِبُ الْهَضُورِ
فَتَهْتِكُ حُجْبَ أَفْئِدَةٍ شِدَادٍ^(٦) وَشَيْكَاً مَا تُصِيرُ إِلَى الْقُبُورِ
فَإِنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهُمْ جَمِيعاً بِأَسْبَابِ التَّمَنَّى وَالْفُجُورِ^(٧)

وذكر أن الهيرش خرج ومعه الغوغاء والغزاة ولفيفهم حتى صار إلى جزيرة

(١) في اللسان : « الطر : القطع » وربما كان الطرار هنا هو قاطع الطريق . السواط :

(٢) من ا

« الضارب بالسوط ؛ والنطاف »

(٣) ط : « رحمة » ، وما أثبت من ا

(٤) كذا في ا ، وفي ط لمة غامضة

(٥) المسعودي : « عن قريب »

(٦) المسعودي : « أكباده » .

(٧) المسعودي : « التمر والفجور »

العبّاس ، وخرجت عصابة من أصحاب طاهر ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وكانت ناحية لم يقاتل فيها ، فصار ذلك على الوجه بعد ذلك اليوم موضعاً للقتال ؛ حتى كان الفتح منه ؛ وكان أول يوم قاتلوا فيه استعلّى أصحاب محمد على أصحاب طاهر حتى بلغوا بهم دار أبي يزيد الشروى . وخاف أهل الأرباض في تلك النواحي مما يلى طريق باب الأنبار ؛ فذكروا أن طاهراً لما رأى ذلك وجهه إليهم قائداً من أصحابه ، وكان مشتغلاً بوجوه كثيرة يقاتل منها أصحاب محمد ، فأوقع بهم فيها وقعة صعبة ، وغرق في الصّراة بشرٌ كثير ، وقتل آخرون ، فقال في هزيمة طاهر في أول [يوم] ^(١) عمرو الوراق :

نَادَى مُنَادَى طَاهِرٍ عِنْدَنَا يَا قَوْمُ كُفُّوا وَاجْلِسُوا فِي الْبُيُوتِ
فَسَوْفَ يَأْتِيكُمْ غَدٌ فَاحْذَرُوا [لِشَاهِرِيتِ الشَّدَقِ فِيهِ عِيُوتُ] ^(١)
فَنَارَتِ الْغَوَاةُ فِي وَجْهِهِ بَعْدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ قَبْلَ الْقُنُوتِ
فِي يَوْمٍ سَبَتْ تَرَكَوْا جَمْعَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سُمُودًا خُفُوتِ

وقال في الوقعة التي كانت على أصحاب محمد :

كَمْ قَتِيلٌ قَدْ رَأَيْنَا مَا سَأَلْنَاهُ لِأَيْشِ
دَارِعَا يَلْقَاهُ عُرْبَا نٌ بَجْهَلٍ وَبَطِيشِ
إِنْ تَلْقَاهُ بِرُمُحٍ يَتَلَقَّاهُ بِفَيْشِ
حَبَشِيًّا يَقْتُلُ النَّا سَ عَلَى قِطْعَةٍ خَيْشِ
مُرْتَدٍ بِالشَّمْسِ رَاضٍ بِالْمُنَى مِنْ كُلِّ عَيْشِ
يَحْمِلُ الْحَمْلَةَ لَا يَقْ تُلْ إِلَّا رَأْسَ جَيْشِ
كَعْلِي أَفْرَاهِمَرْدٍ أَوْ عِلَافٍ أَوْ قُرَيْشِ
أَحْذَرِ الرَّمِيَةَ يَاطَا هَرُّ مِنْ كَفِّ الْحَبَشِيِّ

وقال أيضاً عمرو الوراق في ذلك :

ذَهَبَتْ بِهِجَةً بَغْدَا دَ وَكَانَتْ ذَاتَ بِهِجَةٍ
فَلَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ رَجَّةٌ مِنْ بَعْدِ رَجَّةِ
ضَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُنْكَرِ ضَجَّةِ
أَيُّهَا الْمَقْتُولُ مَا أَذِ تَ عَلَى دِينِ الْمُحِبَّةِ
لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي نَذِ تَ وَوَقَدْ أَذْلَجْتَ دَلِجَةَ
أَلَى الْفَرْدَوْسِ وَجْهَهُ تَ أَمِ النَّارِ تَوَجَّهُ
حَجَرٌ أَرْدَاكَ أَمْ أَرُ دَيْتَ قَسْرًا بِالْأَرْجَةِ
إِنْ تَكُنْ قَاتِلْتَ بَرًّا فَعَلَيْنَا أَلْفُ حَجَّةِ

وذكر عن علي بن يزيد أن بعض الخدم حدثه أن محمداً أمر ببيع ما بقي في الخزائن التي كانت أنهبت، فكنتم ولائها^(١) ما فيها لتسرق، فتضايق على محمد أمره، وفقد ما كان عنده، وطلب الناس الأرزاق، فقال يوماً وقد ضجر مما يرد عليه: ودِدْتُ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَتَلَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً^(٢)، وَأَرَاكِ النَّاسَ مِنْهُمْ؛ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا عَدُوٌّ مِنْ مَعْنَا وَمِنْ عَلَيْنَا؛ أَمَا هَؤُلَاءِ فَيَرِيدُونَ مَالِي؛ وَأَمَا أَوْلَئِكَ فَيَرِيدُونَ نَفْسِي. وذكرت أبياتاً قبل إنه قالها :

٩٠٣/٣

تَفَسَّرَقُوا وَدَعُّوْنِي يَا مَعْشَرَ الْأَعْوَانِ^(٣)
فَكُلُّكُمْ ذُو وَجْهِ كَخَلْقَةِ الْإِنْسَانِ^(٤)
وَمَا أَرَى غَيْرَ إِفْكِ وَتُرْهَاتِ الْأَمَانِي
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئاً فَسَائِلُوا خُزَّانِي^(٥)
فَالْوَيْلُ لِي مَا دَهَانِي^(٦) مِنْ سَاكِنِ الْبُسْتَانِ

(١) كذا في ١، وفي ط: « فكم ».

(٢) إلى هنا آخر الموجود من نسخة في هذا الجزء.

(٣) المسعودي: ٣: ٤١٩.

(٤) المسعودي: « كثيرة الأعوان ».

(٥) المسعودي: « الإخوان ».

(٦) المسعودي: « فيها دهاني ».

قال : وضعف أمر محمد ، وانتشر جنده وارتاع في عسكره ، وأحسّ من طاهر بالعلوّ عليه وبالظفر به .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بتوجيه طاهر إياه على الموسم بأمر المأمون بذلك .
وكان على مكة في هذه السنة داود بن عيسى .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر استيلاء طاهر على بغداد]

فمن ذلك ما كان من خلاف خزيمة بن خازم محمد بن هارون ومفارقة إياه واستمائه إلى طاهر بن الحسين ودخول هرثمة الجانب الشرقي .

• ذكر الخبر عن سبب فراقه إياه وكيف كان الأمر في مصيره والدخول في طاعة طاهر :

ذكر أن السبب في ذلك كان أن طاهرًا كتب إلى خزيمة يذكر له أن الأمران يقطع بينه وبين محمد ولم يكن له أثر في نصرته ، لم يقصر^(١) في أمره . فلما وصل كتابه إليه شاور ثقات أصحابه وأهل بيته ، فقالوا له : نرى والله أن هذا الرجل أخذ بقفا صاحبنا ، فاحتل لنفسك ولنا ؛ فكتب إلى طاهر بطاعته ، وأخبره أنه لو كان هو النازل في الجانب الشرقي مكان هرثمة لكان يحمل نفسه له على كل هول ، وأعلمه قلة ثقته بهرثمة ، ويناشده ألا يحمله على مكروه من أمره إلا أن يضمن له القيام دونه ، وإدخال هرثمة إليه ليقطع الجسور ، ويتبع هو أمراً يؤثر رأيه ورضاه ؛ وأنه إن لم يضمن له ذلك ؛ فليس يسعه تعريضه للسفلة والغوغاء والرّاع والتلف . فكتب طاهر إلى هرثمة يلومه ويعجزه ، ويقول : جمعت الأجناد ، وأتلفت الأموال ، وأقطعتها دون أمير المؤمنين ودوني ، وفي مثل حاجتي إلى الكلف والنفقات ؛ وقد وقفت على قوم هيئة شوكتهم ، يسير أمرهم ، وقوف المحجم الهائب ؛ إن في ذلك جرماً ؛ فاستعد للدخول ؛ فقد أحكمت الأمر على دفع العسكر وقطع الجسور ؛

٩٠٤/٣

(١) ط : « ولم » ، والعبارة في ابن الأثير : « ولم يكن لك في نصرى ألا أقصر في أمرك » .

وأرجو ألا يختلف عليك في ذلك اثنان إن شاء الله .

قال : وكتب إليه هرثة : أنا عارف ببركة رأيك ، ويؤمن مشورتك ، فمر بما أحببت ؛ فلن أخالفك ؛ قال : فكتب طاهر بذلك إلى خزيمة .

وقد ذكر أن طاهراً لما كاتب خزيمة كتب أيضاً إلى محمد بن علي بن عيسى بن ماهان بمثل ذلك . قيل : فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر دجلة فقطعاه ، وركزا أعلامهما عليه ، وخلعا محمداً ، ودعوا لعبد الله المأمون ؛ وسكن أهل عسكر المهدي ولزموا منازلهم وأسواقهم في يومهم ذلك ؛ ولم يدخل هرثة حتى مضى إليه نفر يسير غيرهما من القواد ، فحلفوا له أنه لا يرى منهم مكروهاً ، فقبل ذلك منهم ، فقال حسين الخليل في قطع خزيمة الجسر :

٩٠٠/٣

عَلَيْنَا جَمِيعاً مِنْ خُزَيْمَةِ مِنَّةٌ بِهَا أَحْمَدُ الرَّحْمَنِ نَائِرَةُ الْحَرْبِ
تَوَلَّى أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِهِ فَذَبَّ وَحَامَى عَنْهُمْ أَشْرَفَ الذَّبِّ
وَلَوْلَا أَبُو الْعَبَّاسِ مَا انْفَكَّ ذَهْرُنَا يَبِيتُ عَلَى عَتَبٍ وَيَغْدُو عَلَى عَقَبٍ (١)
خُزَيْمَةُ لَمْ يُنْكَرْ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ (٢) إِذَا اضْطَرَبَتْ شَرْقُ الْبِلَادِ مَعَ الْغَرْبِ
أَنَاخَ بِجِسْرِي دَجْلَةَ الْقَطْعِ وَالْقَنَا سُورُغُ وَالْأُرُوحُ فِي رَاحَةِ الْعُضْبِ (٣)
وَأَمَّ الْمَنَائَا بِالْمَنَائَا مُخِيلَةً تَفْجَعُ عَنْ خَطْبٍ ، وَتَضْحَكُ عَنْ خَطْبٍ
فَكَانَتْ كَنَارٍ مَا كَرَّتْهَا سَحَابَةٌ فَأَطْفَأَتْ اللَّهَبَ الْمُؤَلَّفَ بِاللَّهَبِ
وَمَا قَتَلَ نَفْسٍ فِي نَفْسٍ كَثِيرَةٍ إِذَا صَارَتِ الدُّنْيَا إِلَى الْأَمْنِ وَالْخَصْبِ
بَلَاءُ أَبِي الْعَبَّاسِ غَيْرُ مُكْفَرٍ إِذَا فَرَعَ الْكَرْبُ الْمَقِيمُ إِلَى الْكَرْبِ

٩٠٦/٣

فذكر عن يحيى بن سلمة الكاتب أن طاهراً غدا يوم الخميس على المدينة الشرقية وأرباضها ، والكربخ وأسواقها ، وهدم قنطرتي الصرة العتيقة والحديثة

(١) ابن الأثير : « يبيت على عتب ويعدو على عتب » .

(٢) ابن الأثير : « لم يذكر » .

(٣) ابن الأثير : « الغضب » .

واشتدّ عندهما القتال ، واشتدّ طاهر على أصحابه ، وباشر القتال بنفسه ،
وقاتل مَنْ كان معه بدار الرقيق فهزمهم حتى ألحقهم بالكرّخ ، وقاتل طاهر
بباب الكرّخ وقصر الوضاح ، فهزمهم أصحاب محمد وردّوا على وجوههم ،
ومرّ طاهر لايأوى على أحد حتى دخل قسراً بالسيف . وأمر مناديه فنادى
بالأمان لمن لزم منزله ، ووضع بقصر الوضاح وسوق الكرّخ والأطراف قوّاداً
وجنداً في كل موضع على قدر حاجته منهم ؛ وقصد إلى مدينة أبي جعفر ، فأحاط
بها وبقصر زُبَيْدة وقصر الخُلْد من لدن باب الجسر إلى باب خُرّاسان وباب
الشأم وباب الكوفة وباب البصرة وشاطئ الصّرة إلى مصبّها في دجلة بالخيول
والعدة والسلاح ، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والميرش والأفارقة ،
فنصب المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قصر زُبَيْدة وقصر الخُلْد
ووى ، وخرج محمد بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر ، وتفرّق عنه عاتمة جنده
وخصيانه وجواريه في السّكك والطّرق ، لا يلوى منهم أحد على أحد ، وتفرّق
الغوغاء والسّفلة ، وفي ذلك يقول عمرو الوراق :

يا طاهر الظّهر الذّي مثاله لم يُوجدِ
يا سيّد بن السيّد بُ ن السيّد بن السيّد
رجعتُ إلى أعمالها الأ ولي غزاة محمد
من بين نطافٍ وسو اطي وبين مُقرّد
ومُجرّدٍ يأوى إلى عيّارة ومُجرّد
ومُقيّدٍ نقب السّجو ن فعاد غير مقيّد
ومسوّدٍ بالنّهب سا د وكان غير مسوّد
دلّوا لعزّك واستكا نوا بعد طول تمرّد

٩٠٧/٣

وذكر عن عليّ بن يزيد ، أنه قال : كنت يوماً عند عمرو الوراق أنا
وجماعة ، فجاء رجل ، فحدثنا بوقعة طاهر بباب الكرّخ وانهزام الناس عنه ،

فقال عمرو : ناولني قَدَحًا ، وقال في ذلك :

خُذْهَا فَلِلْخَمْرَةِ أَسَاءُ^(١) لَهَا دَوَاءٌ وَلَهَا دَاءٌ
يُصْلِحُهَا الْمَاءُ إِذَا صُفِّقَتْ يَوْمًا وَقَدْ يُفْسِدُهَا الْمَاءُ
وَقَاتِلِ كَانَتْ لَهُمْ وَقَعَةٌ فِي يَوْمِنَا هَذَا وَأَشْيَاءُ
قُلْتُ لَهُ : أَنْتَ امْرُؤُ جَاهِلٌ فَيْكَ عَنِ الْخَيْرَاتِ إِبْطَاءُ
اشْرَبْ وَدَعْنَا مِنْ أَحَادِيثِهِمْ يَصْطَلِحُ النَّاسُ إِذَا شَاءُوا

قال : ودخل علينا آخر ، فقال : قاتل فلان الغزاة ، وأقدم فلان ،
وانتهب فلان . قال : فقال أيضًا :

أَيُّ دَهْرٍ نَحْنُ فِيهِ مَاتَ فِيهِ الْكِبَرَاءُ
هَذِهِ السَّفَلَةُ وَالْغَوُ غَاءُ فِينَا أُمْنَاءُ
مَا لَنَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْه يَاءُ إِلَّا مَا يَشَاءُ
ضَجَّتِ الْأَرْضُ وَقَدْ ضَجَّ تَ إِلَى اللَّهِ السَّمَاءُ
رُفِعَ الدِّينُ وَقَدْ هَا نَتَ عَلَى اللَّهِ الدَّمَاءُ
يَا أَبَا مُوسَى لَكَ الْخِي رَاتُ قَدْ حَانَ اللَّقَاءُ
هَا كَهَا صِرْفًا عُقَارًا قَدْ أَتَاكَ النَّدْمَاءُ

٩٠٨/٣

وقال أيضًا عمرو والوراق في ذلك :

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تُغْضِ بَ جُنْدِيًّا وَتَسْتَامِرْ
فَقُلْ : يَا مَعْشَرَ الْأَجْنَا دِ قَدْ جَاءَكُمْ طَاهِرٌ

* * *

قال وتحصن محمد بالمدينة هو ومن يقاتل معه ، وحصره طاهر وأخذ عليه
الأبواب ، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما .

(١) ابن الأثير : « فخلها » .

فذكر عن الحسين بن أبي سعيد أن طارقاً الخادم - وكان من خاصة محمد ، وكان المأمون بعد مقدمه أخبره أن محمداً سأله يوماً من الأيام وهو محصور ، أو قال في آخر يوم من أيامه ، أن يطعمه شيئاً - قال : فدخلت المطبخ فلم أجد شيئاً ، فجنّت إلى جمرة العطارة - وكانت جارية الجوهر - فقلت لها : إن أمير المؤمنين جائع ، فهل عندك شيء ، فإني لم أجد في المطبخ شيئاً ؟ فقالت لجارية لها يقال لها بنان : أي شيء عندك ؟ فجاءت بدجاجة ورغيف ، فأتيته بهما فأكل ، وطلب ماء يشربه فلم يوجد في خزانة الشراب ، فأمسي وقد كان عزم على لقاء هرثمة ، فما شرب ماء حتى أتى عليه .

وذكر عن محمد بن راشد أن إبراهيم بن المهدي أخبره أنه كان نازلاً مع محمد المخلوع في مدينة المنصور في قصره بباب الذهب ، لما حصره طاهر . قال : فخرج ذات ليلة من القصر يريد أن يتفرّج من الضيق الذي هو فيه ، فصار إلى قصر القرار - في قرن الصراة ، أسفل من قصر الخلد - في جوف الليل ، ثم أرسل إلى فصرت إليه ، فقال : يا إبراهيم ، أما ترى طبيب هذه الليلة ، وحسن القمر في السماء ، وضوءه في الماء ! ونحن حينئذ في شاطئ دجلة ، فهل لك في الشرب ! فقلت : شأنك ، جعلني الله فداك ! فدعا برطل نبيذ فشربه ، ثم أمر فسُقيت مثله . قال : فابتدأت أغنيته من غير أن يسألني ؛ لعلمي بسوء خلقه ، فغنّيت ما كنت أعلم أنه يحبّه ، فقال لي : ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ فقلت : ما أحوجني إلى ذلك ؛ فدعا بجارية متقدمة عنده يقال لها ضَعْف ، فتطيّرت من اسمها ؛ ونحن في تلك الحال التي هو عليها ، فلما صارت بين يديه ، قال : تغنّي ، فغنّت بشعر النابغة الجعدي :

كُليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصراً وأيسرَ ذنباً منك ضُرَجَ بالدم^(١)

قال : فاشتد ما غنّت به عليه ، وتطايّر منه ، وقال لها : غنّي غير هذا ، فتغنّت :

أَبْكَى فِرَاقَهُمْ عَيْنِي وَأَرْقَاهَا^(١) إِنَّ التَّفَرُّقَ لِلْأَحْبَابِ بَكَاءٌ
مَا زَالَ يَعْدُو عَلَيْهِمْ رَيْبُ دَهْرِهِمْ حَتَّى تَفَانُوا وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَدَاءٌ

فَقَالَ لَهَا : لَعْنُكَ اللَّهُ ! أَمَا تَعْرِفِينَ مِنَ الْغَنَاءِ شَيْئًا غَيْرَ هَذَا ! قَالَتْ :
يَا سَيِّدِي ، مَا تَغْنَيْتِ إِلَّا بِمَا ظَنَنْتِ أَنَّكَ تَحِبُّهُ ؛ وَمَا أَرَدْتُ مَا تَكْرَهُهُ ؛ وَمَا هُوَ
إِلَّا شَيْءٌ جَاءَنِي . ثُمَّ أَخَذَتْ فِي غَنَاءٍ آخَرَ :

٩١٠/٣

أَمَّا وَرَبُّ السُّكُونِ وَالْحَرَكِ إِنَّ الْمَنَايَا كَثِيرَةُ الشَّرَكِ
مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا^(٢) دَارَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ فِي الْفَلَكَ
إِلَّا لِنَقْلِ النَّعِيمِ مِنْ مَلِكٍ عَانٍ بِحُبِّ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ
وَمُلْكُ ذِي الْعَرْشِ دَائِمٌ أَبَدًا لَيْسَ بِفَانٍ وَلَا بِمَشْتَرَكٍ

فَقَالَ لَهَا : قَوِي غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْكَ ! قَالَ : فَقَامَتْ . وَكَانَ لَهُ قَدْحٌ بَلُورٍ
حَسَنُ الصَّنْعَةِ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَسْمِيهِ زُبَّ رُبَاحٍ ، وَكَانَ مَوْضُوعًا بَيْنَ يَدَيْهِ ،
فَقَامَتْ الْجَارِيَةُ مَنْصَرِفَةً فَتَعَثَّرَتْ بِالْقَدْحِ فَكَسَرَتْهُ — قَالَ إِبْرَاهِيمُ : وَالْعَجَبُ
أَنَا لَمْ نَجْلِسْ مَعَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ قَطُّ إِلَّا رَأَيْنَا مَا نَكْرَهُ فِي مَجْلِسِنَا ذَلِكَ — فَقَالَ لِي :
وَيْحَاكَ يَا إِبْرَاهِيمُ ! مَا تَرَى مَا جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الْجَارِيَةُ ؛ ثُمَّ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ
الْقَدْحِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ أَمْرِي إِلَّا وَقَدْ قَرُبُ ، فَقُلْتُ : يَطِيلُ اللَّهُ عَمْرَكَ ، وَيَعِزُّ
مُلْكُكَ ، وَيَدِيمُ لَكَ ، وَيَكْبِتُ عَدُوَّكَ . فَمَا اسْتَمَّ الْكَلَامَ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتًا مِنْ
دِجْلَةٍ : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾^(٣) ، فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، مَا سَمِعْتَ
مَا سَمِعْتُ ! قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ ، مَا سَمِعْتُ شَيْئًا — وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ — قَالَ :
تَسْمَعُ حَسًّا ! قَالَ : فَذَنُوتُ مِنَ الشَّطِّ فَلَمْ أَرِ شَيْئًا ، ثُمَّ عَاوَدْنَا الْحَدِيثَ ،
فَعَادَ الصَّوْتُ : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ، فَوَثَبَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ
مَغْتَمًّا ، ثُمَّ رَكِبَ فَرَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ بِالْمَدِينَةِ ، فَمَا كَانَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا لَيْلَةٌ أَوَّلُ لَيْلَتَانِ
حَتَّى حَدَثَ مَا حَدَثَ مِنْ قَتْلِهِ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْأَحَدِ لَسْتُ — أَوَّلَ أَرْبَعٍ — خُلُونِ
مِنْ صَفَرٍ ، سَنَةِ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ .

٩١١/٣

(١) ابْنُ الْأَثِيرِ : « أَبْكَى فِرَاقَهُمْ عَيْنِي فَأَرْقَاهَا » .

(٢) ابْنُ الْأَثِيرِ : « وَمَا » .

(٣) سُورَةُ يُوسُفَ : ٤١ .

وذكر عن أبي الحسن المدائني ؛ قال : لما كان ليلة الجمعة لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، دخل محمد بن هارون مدينة السلام هارباً من القصر الذي كان يقال له الخُلُسد ، ممّا كان يصل إليه من حجارة المنجنيق ، وأمر بمجالسه وبُسطه أن تحرق فأحرقت ، ثم صار إلى المدينة ؛ وذلك لأربع عشرة شهراً ، منذ ثارت الحرب مع طاهر إلا اثني عشر يوماً .

* * *

[ذكر الخبر عن قتل الأمين]

وفي هذه السنة قتل محمد بن هارون .

* ذكر الخبر عن مقتله :

ذكر عن محمد بن عيسى الجُلُوديّ أنه قال : لما صار محمد إلى المدينة ، وقرّ فيها ، وعلم قوّاده أنه ليس لهم ولا له فيها عُدّة للحصار ، وخافوا أن يُظفّر بهم ؛ دخل على محمد حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقيّ وقّواده ، فقالوا : قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى ؛ وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ؛ فانظر فيه واعتزم عليه ؛ فإنّا نرجو أن يكون صواباً ، ويجعل الله فيه الخير إن شاء الله . قال : ما هو ؟ قالوا : قد تفرّق عنك الناس ، وأحاط بك عدوك من كلّ جانب ، وقد بقي من خيلك معك ألف فرس من خيارها وجيادها ؛ فرى أن نختار من^(١) قد عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعمائة رجل ، فنحملهم على هذه الخيل ونخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب فإن الليل لأهله ؛ ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله ؛ فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشأم فتقرض الفروص ، وتعجبى الخراج ، وتصير في مملكة واسعة ، ومُلكك جديد ، فيسارع إليك الناس ، وينقطع عن طلبك الجند ، وإلى ذلك ما قد أحدث الله عزّ وجلّ في مَكْرَ الليل والنهار أموراً . فقال لهم : نعم ما رأيتم ؛ واعتزم على ذلك .

٩١٢/٣

وخرج الخبر إلى طاهر ؛ فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر ، وإلى محمد بن

(١) ابن الأثير : « من » .

عيسى بن نهيك وإلى السندی بن شاهك : والله لئن لم تُقرّوه وتردّوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعةً إلا قبضتُها ، ولا تكون لي همّة إلا أنفُسكم . فدخلوا على محمد ، فقالوا : قد بلغنا الذي عزمَ عليه ؛ فنحن نذكرك الله في نفسك ! إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجدّ فيها ؛ ولسنا نأمن إذا برزوا بك ، وحصلت في أيديهم أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك فيقتربوا بك ، ويجعلوك سببَ أمانهم ؛ وضربوا له فيه الأمثال .

قال محمد بن عيسى الجلوديّ : وكان أبي وأصحابه قُعوداً في رواق البيت الذي محمد وسليمان وأصحابه فيه . قال : فلما سمعوا كلامهم ، ورأوا أنه قد قبله مخافة أن يكون الأمر على ما قالوا له ؛ همّوا أن يدخلوا عليهم فيقتلوا سليمان وأصحابه ؛ ثم بدا لهم وقالوا : حَرَبٌ من داخل ، وحَرَبٌ من خارج . فكفّروا وأمسكوا .

قال محمد بن عيسى : فلما نكت ذلك في قلب محمد ، ووقع في نفسه ما وقع منه ، أضرب عما كان عزم عليه ، ورجع إلى قبول ما كانوا بذلّوا له من الأمان والخروج ؛ فأجاب سليمان والسندی ومحمد بن عيسى إلى ما سألوهم من ذلك ، فقالوا : إنما غايتك اليوم السلامة واللّهو ، وأخوك يتركك حيث أحببت ، ويفردك في موضع ، ويجعل لك كلّ ما يصلحك وكلّ ما تحبّ وتهوى ؛ وليس عليك منه بأس ولا مكروه . فركن إلى ذلك ، وأجابهم إلى الخروج إلى هرثمة .

قال محمد بن عيسى : وكان أبي وأصحابه يكرهون الخروج إلى هرثمة ؛ لأنهم كانوا من أصحابه ، وقد عرفوا مذاهبه ، وخافوا أن يحفّوهم ولا يخصّهم ، ولا يجعل لهم مراتب ، فدخلوا على محمد فقالوا له : إذ أبيت أن تقبل منا ما أشرنا عليك — وهو الصواب — وقبلت من هؤلاء المداهنين ، فالخروج إلى

ظاهر خير لك من الخروج إلى هرثة . قال محمد بن عيسى : فقال لهم : وبحكم ! أنا أكره طاهراً ؛ وذلك أنى رأيت فى منامى كأنى قائم على حائط من أجر شاهق فى السماء ، عريض الأساس وثيق ، لم أر حائطاً يشبهه فى الطول والعرض والوثاقة ، وعلى سوادى ومنطقتى وسينى وقلنسوتى وخفى ، وكان طاهر فى أصل ذلك الحائط ، فما زال يضرب أصله حتى سقط الحائط وسقطت ، ونذرت قلنسوتى من رأسى ، وأنا أتطير من طاهر ، وأستوحش منه ، وأكره الخروج إليه لذلك ؛ وهرثة مولانا وبمنزلة الوالد ، وأنا به أشد أنساً وأشد ثقة .

وذكر عن محمد بن إسماعيل ، عن حفص بن أرميايل ، أن محمداً لما أراد أن يعبر من الدار بالقرار إلى منزل كان فى بستان موسى — وكان له جسر فى ذلك الموضع — أمر أن يفرش فى ذلك المجلس ويطيب . قال : فكثت ليلتى أنا وأعوانى نتخذ الروائح والطيب ونكثب^(١) التفاح والرمان والأترج ، ونضعه فى البيوت ؛ فسهرت ليلتى أنا وأعوانى ؛ ولما صلبت الصبح دفعت إلى عجوز قطعة بخور من عنبر ، فيها مائة مثقال كالبطيخة ، وقلت لها : إنى سهرت ونعست نعاساً شديداً ؛ ولا بد لى من نومة ، فإذا نظرت إلى أمير المؤمنين قد أقبل على الجسر ، فضعى هذا العنبر على الكانون . وأعطيتها كانوناً من فضة صغيراً عليه جمر ، وأمرتها أن تنفخ حتى تحرقها كلها ، ودخلت حراقة فتمت ، فما شعرت إلا وبالعجوز قد جاءت فزعة حتى أبقضتنى ، فقالت لى : قم يا حفص ؛ فقد وقعت فى بلاء ، قلت : وما هو ؟ قالت : نظرت إلى رجل مقبل على الجسر منفرد ، شبيه الجسم بجسم أمير المؤمنين ، وبين يديه جماعة وخلفه جماعة ؛ فلم أشك أنه هو ؛ فأحرقت العنبرة ، فلما جاء ، فإذا هو عبد الله بن موسى ، وهذا أمير المؤمنين قد أقبل . قال : فشتمتها وعنتقتها . قال : وأعطيتها أخرى مثل تلك لتحرقها بين يديه ، ففعلت ؛ وكان هذا من أوائل الإدبار .

وذكر على بن يزيد ، قال : لما طال الحصار على محمد ، فارقه سليمان بن أبى جعفر وإبراهيم بن المهدي ومحمد بن عيسى بن نهيك ، ولحقوا جميعاً

بعسكر المهديّ ، ومكث محمد محصوراً في المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت . وناظر محمدٌ أصحابه ومن بقي معه في طلب الأمان ؛ وسألهم عن الجهة في النجاة من طاهر ؛ فقال له السندیّ : والله يا سيدي ؛ لئن ظفر بنا المأمون لعسلّى رغنم منا وتغنس جدودنا ؛ وما أرى فرجاً إلا هرثمة . قال له : وكيف بهرثمة ؛ وقد أحاط الموت بي من كلّ جانب ! وأشار عليه آخرون بالخروج إلى طاهر وقالوا : لو حلفت له بما يتوثق به منك أنك مفوّض إليه ملكك ؛ فلعله كان سيرُ كننُ إليك . فقال لهم : أخطأتم وجهَ الرأى ، وأخطأتُ في مشاورتكم ؛ هل كان عبد الله أخى لو جهد نفسه وولىّ الأمور برأيه بالغاً عشر ما بلغه له طاهر ! وقد محصّته وبحث عن رأيه ، فما رأيته يميل إلى غدر به ؛ ولا طمع فيما سواه ؛ ولو أجاب إلى طاعتي ، وانصرف إلىّ ثم ناصبني أهلُ الأرض ما اهتممت بأمر ؛ ولوددت أنه أجاب إلى ذلك ، فنحتة خزائني وفوّضت إليه أمري ، ورضيت أن أعيش في كنفه ؛ ولكني لا أطمع في ذلك منه . فقال له السندیّ : صدقت يا أمير المؤمنين ؛ فبادر بنا إلى هرثمة ؛ فإنه يرى ألاّ سبيل عليك إذا خرجت إليه من الملك ؛ وقد ضمن إلىّ أنه مقاتل دونك إن همّ عبد الله بقتلك ؛ فاخرج ليلاً في ساعة قد نُوم الناس فيها ؛ فإنّي أرجو أن يغبى على الناس أمرنا .

وقال أبو الحسن المدائنيّ : لما همّ محمد بالخروج إلى هرثمة ، وأجابه إلى ما أراد ، اشتدّ ذلك على طاهر ، وأبى أن يرفّه عنه ويدّعه يخرج ، وقال : هو في حيزي والجانب الذي أنا فيه ، وأنا أخرجته بالحصار والحرب ؛ حتى صار إلى طلب الأمان ؛ ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دوني ؛ فيكون الفتح له .

ولما رأى هرثمة والقوّد ذلك ، اجتمعوا في منزل خزيمة بن خازم ؛ فصار إليهم طاهر وخاصة قواده ، وحضرهم سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندیّ بن شاهك ، وأداروا الرأى بينهم ، ودبّروا الأمر ، وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً ، وأنه إن لم يحسب إلى ما سأل لم يؤمن أن يكون الأمر في أمره مثله في أيام الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان ؛ فقالوا له : تاريخ الطبري - ثامن

يخرج ببذنه إلى هرثمة — إذ كان يأمن به ويثق بناحيته ، وكان مستوحشاً منك ، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة — وذلك الخلافة — ولا تفسد هذا الأمر واعتنمه إذ يسره الله . فأجاب إلى ذلك ورضى به . ثم قيل : إن الحيرش لما علم بالخبر ، أراد التقرب إلى طاهر ، فخبّره أن الذي جرى بينهم وبينه مكر ، وأن الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع محمد إلى هرثمة . فقبل طاهر ذلك منه ، وظن أنه كما كتب به إليه ، فاغتاز وكتمن حول قصر أم جعفر وقصور الخلد كناء بالسلاح ومعهم العتّل والفؤوس ، وذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، وفي الشهر السرياني خمسة وعشرون من أيلول .

فذكر الحسن بن أبي سعيد ، قال : أخبرني طارق الخادم ، قال : لما همّ محمد بالخروج إلى هرثمة عطش قبل خروجه ، فطلبت له في خزانة شرايه ماء فلم أجده . قال : وأمسى فبادر يريد هرثمة للوعد الذي كان بينه وبينه ؛ ولبس ثياب الخلافة ؛ ذراعة وطيلساناً والقلنسوة الطويلة ، وبين يديه شمعة . فلما انتهينا إلى دار الحرس من باب البصرة ، قال : اسقني من جباب الحرس ، فنأولته كوزاً من ماء ، فعافه لزهوكتة^(١) فلم يشرب منه ؛ وصار إلى هرثمة . فوثب به طاهر ، وأكن له نفسه في الخلد ؛ فلما صار إلى الحرّاقة^(٢) ؛ خرج طاهر وأصحابه فرموا الحرّاقة بالسهم والحجارة ، فالوا ناحية الماء ، وانكفأت الحرّاقة ؛ فغرق محمد وهرثمة ومن كان فيها ، فسبح محمد حتى عبر وصار إلى بستان موسى ، وظن أن غرقه إنما كان حيلة من هرثمة ، فعبّر دجلة حتى صار إلى قرب الصّراة ، وكان على المسلحة إبراهيم بن جعفر البلخي ومحمد بن حميد هو ابن أخي شكلة أم إبراهيم بن المهدي — وكان طاهر ولده وكان إذا ولّى رجلاً من أصحابه خراسانياً ضم إليه قوماً — فعرفه محمد بن حميد وهو المعروف بالطاهري ؛ وكان طاهر يقدمه في الولايات ، فصاح بأصحابه فزّلوا ، فأخذوه ، فبادر محمداً لماً ، فأخذ بساقيه فجذبه ، وحمل على

٩١٧/٣

(١) الزهوكية : الرائحة الكريهة .

(٢) الحرّاقة : نوع من السفن ؛ فيها مراى نيران يرمى بها .

بِرْذُون ، وألقى عليه إزار من أزر الجند غير مفتول ؛ وصار به إلى منزل إبراهيم بن جعفر البلخي ، وكان ينزل بباب الكوفة ، وأردف رجلا خلفه بمسكه لثلا يسقط ، كما يفعل بالأسير .

فذكر عن الحسن بن أبي سعيد ، أن خطاب بن زياد حدثه أن محمداً وهرثمة لما غرقا ، بادر طاهر إلى بستان مؤنسة ، بإزاء باب الأنبار ، موضع معسكره لثلا يشتهم بغرق هرثمة . قال : فلما انتهى طاهر - ونحن معه في الموكب والحسن ابن علي المأموني والحسن الكبير الخادم للرشد - إلى باب الشام ، لحقنا محمد بن حميد ، فترجل ودنا من طاهر ، فأخبره أنه قد أسر محمداً ، ووجه به إلى باب الكوفة إلى منزل إبراهيم البلخي . قال : فالتفت إلينا طاهر ، فأخبرنا الخبر ، وقال : ما تقولون ؟ فقال له المأموني : « مسكن » ، أي لا تفعل فعل حسين ابن علي . قال : فدعا طاهر بمولاه يقال له قریش الدتداني ، فأمره بقتل محمد . قال : واتبعه طاهر يريد باب الكوفة إلى الموضع .

٩١٨/٣

وأما المدائن فإنه ذكر عن محمد بن عيسى الجلودي ، قال : لما تهيأ للخروج - وكان بعد عشاء الآخرة من ليلة الأحد - خرج إلى صحن القصر ، فقعده على كرسي ، وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود ؛ فدخانا عليه ، فقمنا بين يديه بالأعمدة . قال : فجاء كتلة الخادم ، فقال : يا سيدي ، أبو حاتم يقرئك السلام ، ويقول : يا سيدي وافيت للميعاد لحملك ، ولكني أرى ألا تخرج الليلة ؛ فإني رأيت في دجلة على الشطّ أمراً قد رابني ، وأخاف أن أغلب فتؤخذ من يدي أو تذهب نفسك ؛ ولكن أقيم بمكانك حتى أرجع ثم أستعد ثم آتيك القابلة فأخرجك ؛ فإن حوربت حاربت دونك ومعى عدتي . قال : فقال له محمد : ارجع إليه ، فقل له : لا تبرح ؛ فإني خارج إليك الساعة لا محالة ، ولست أقيم إلى غد . قال : وقل وقال : قد تفرق عني الناس ومن علي بابي من الموالى والحرس ، ولا آمن إن أصبحت وانتهى الخبر بتفريقهم إلى طاهر أن يدخل عليّ فيأخذني . ودعا بفرس له أدهم محذوف أغر محجل ، كان يسميه الزهري^(١) ، ثم دعا بابنيه فضمتهما إليه ، وشمهما وقبلاههما ،

وقال : أستودعكما الله ؛ ودمعت عيناه ، وجعل يمسح دموعه بكمّته ، ثم قام فوثب على الفرس ، وخرجنا بين يديه إلى باب القصر ؛ حتى ركبنا دوابنا ؛ وبين يديه شمعة واحدة . فلما صرنا إلى انطاقيات ممّا يلي باب خراسان ، قال لي أبي : يا محمد ، ابسط يدك عليه ؛ فإنّي أخاف أن يضربه إنسان بالسيف ؛ فإن ضُرب كان الضرب بك دونه . قال : فألقيتُ عِنان فرسي بين معرفته ، وبسطت يدي عليه حتى انتهينا إلى باب خراسان ، فأمرنا به ففتح ، ثم خرجنا إلى المشرقة ، فإذا حرّاقة هرثمة ، فرقيّ إليها ، فجعل الفرس يتلكأ وينفر ، وضربه بالسوط وحمله عليها ، حتى ركبها في دجلة ، فنزل في الحرّاقة ، وأخذنا الفرس ، ورجعنا إلى المدينة ، فدخلناها وأمرنا بالباب فأغلق ؛ وسمعنا الواعية ، فصعدنا على القبة التي على الباب ؛ فوقفنا فيها نسمع الصوت .

فذكر عن أحمد بن سلام صاحب المظالم أنه قال : كنت فيمن ركب مع هرثمة من القواد في الحرّاقة ، فلما نزلها محمد قمنا على أرجلنا إعظاماً ، وجشّى هرثمة على ركبتيه ، وقال له : يا سيدي ، ما أقدر على القيام لمكان النفر الذي بي ، ثم احتضنه وصيّره في حجره ، ثم جعل يقبّل يديه ورجليه وعينيّه ، ويقول : يا سيدي ومولاي وابن سيدي ومولاي . قال : وجعل يتصفّح وجوهنا ، قال : ونظر إلى عبيد الله بن الوضّاح ، فقال له : أيّهم أنت ؟ قال : أنا عبيد الله بن الوضّاح ، قال : نعم ، فجزاك الله خيراً ، فما أشكرني لما كان منك من أمر الثاج ! ولو قد لقيت أخى أبقاه الله لم أدع أن أشكره عنده ، وسألته مكافأتك عنّي . قال : فبينما نحن كذلك — وقد أمر هرثمة بالحرّاقة أن تدفع — إذ شدّ علينا أصحاب طاهر في الزواريق والشذوات^(١) وعطّطوا^(٢) وتعلقوا بالسكان^(٣) ، فبعضٌ يقطع السكان ، وبعضٌ ينقب الحرّاقة ، وبعضٌ يرمي بالآجر والنشاب . قال : فنقب الحرّاقة ، فدخلها الماء فغرقت ، وسقط هرثمة إلى الماء ، فأخرجه ملاح ؛ وخرج كل واحد منا على حيّله ؛ ورأيت

(١) الشذوات : ضرب من السفن ؛ واحده شذاة .

(٢) العططة : تتابع الأصوات واختلافها .

(٣) السكان : ذنب السفينة الذي به تعدل .

محمدًا حين صار إلى تلك الحال قد شقّ عليه ثيابه ، ورمى بنفسه إلى الماء .
قال : فخرجت إلى الشطّ ، فعلقني رجل من أصحاب طاهر ؛ ففضى بي إلى
رجل قاعد على كرسيّ من حديد على شطّ دجلة في ظهر قصر أمّ جعفر ،
بين يديه نار توقد ، فقال بالفارسية : هذا رجل خرج من الماء ممن غرق من
أهل الحرّاقة ، فقال لي : مَنْ أَنْتَ ؟ قلت : من أصحاب هرّمة ؛ أنا أحمد
ابن سلام صاحب شُرطة مولى أمير المؤمنين ، قال : كذبتَ فاصدقني ،
قال : قلت . قد صدقتك ، قال : فما فعل المخاوع ؟ قلت : قد رأيته حين شقّ
عليه ثيابه ، وقذف بنفسه في الماء قال : قدّموا دابتي ؛ فقدموا دابته ،
فركب وأمر بي أن أجنّب . قال : فجعل في عنقي حبل وجنّبت ؛ وأخذ
في درب الرشديّة ، فلما انتهى إلى مسجد أسد بن المرزبان ، انبهرتُ من
العدوّ فلم أقدر أن أعدو ، فقال الذي يجنّبني : قد قام هذا الرجل ؛ وليس
يعدو ، قال : انزل ، فحُدّ رأسه ، فقلت له : جعلت فداك ! لِمَ تقتلني وأنا رجل
علىّ من الله نعمة ، ولم أقدر على العدو ، وأنا أفدى نفسي بعشرة آلاف
درهم . قال : فلما سمع ذكر العشرة آلاف درهم ، قلت : تحبّسني عندك
حتى تصبح وتدفع إليّ رسولا حتى أرسله إلى وكيلي في منزل في عسكر المهديّ ،
فإنّ لم يأتك بالعشرة آلاف فاضرب عنقي . قال : قد أنصفت ، فأمر بحملي ،
فحُملت ردْفًا لبعض أصحابه ، فضى بي إلى دار صاحبه ، دار أبي صالح
الكاتب ؛ فأدخلني الدار ، وأمر غلمانه أن يحتفظوا بي ، وتقدّم إليهم ، وأوعز
وتفهّم مني خبر محمد ووقوعه في الماء ، ومضى إلى طاهر ليخبره خبره ؛ فإذا هو
إبراهيم البلخيّ . قال : فصيرني غلمانه في بيت من بيوت الدار فيه بوارٍ
وسادتان أو ثلاث - وفي رواية حُصر مُدرّجة - قال : فقعدت في البيت ،
وصيروا فيه سراجًا ، وتوثّقوا من باب الدار ، وقعدوا يتحدثون . قال : فلما ذهب
من الليل ساعة ؛ إذا نحن بحركة الخيل فدقوا الباب ، ففتح لهم ، فدخلوا وهم
يقولون : «يسّر زبيدة» . قال : فأدخل عليّ رجل عُرِيان عليه سراويل وعمامة
متلثّم بها ، وعلى كتفيه خرقة خلقة ، فصيّروه معي ، وتقدّموا إلى مَنْ في
الدار في حفظه ، وخلفوا معهم قومًا آخرين أيضًا منهم .

قال: فلما استقرّ في البيت حسّر العمامة عن وجهه؛ فإذا هو محمد، فاستعبرت واسترجعت فيما بيني وبين نفسي. قال: وجعل ينظر إلىّ، ثم قال: أيهم أنت؟ قال: قلت: أنا مولك يا سيدي، قال: وأيّ الموالى؟ قلت: أحمد بن سلام صاحب المظالم، فقال: وأعرفك بغير هذا، كنت تأتيني بالرقّة؟ قال: قلت: نعم، قال: كنت تأتيني وتُلفظني كثيراً، لست مولاي بل أنت أخي ومنّي. ثم قال: يا أحمد، قلت: لبيك يا سيدي؛ قال: ادن مني وضمتني إليك، فإني أجدُ وحشة شديدة. قال: فضممته إلىّ، فإذا قلبه يخفق خفقاً شديداً كاد أن يفرج عن صدره فيخرج. قال: فلم أزل أضمه إلىّ وأسكته. قال: ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخي؟ قال: قلت: هو حيّ، قال: قبح الله صاحب بريدهم ما أكذبه! كان يقول: قد مات، شبه المعتذر من محاربتة؛ قال: قلت: بل قبح الله وزراءك! قال: لا تقلّ لوزرائي إلاّ خيراً، فالهم ذنب؛ ولست بأول من طلب أمراً فلم يقدر عليه. قال: ثم قال: يا أحمد، ما تراهم يصنعون بي؟ أتراهم يقتلونني أو يفون لي بأيمانهم^(١)؟ قال: قلت: بل يفون لك يا سيدي. قال: وجعل يضمّ على نفسه الخرقّة التي على كتفيه، ويضمها ويمسكها بعضده يسمّة ويسرة. قال: فترعتُ مبطنّة كانت علىّ ثم قلت: يا سيدي، ألقِ هذه عليك. قال: ويحك! دعني، هذا من الله عزّ وجلّ، لي في هذا الموضع خير.

٩٢٢/٣

قال: فبينما نحن كذلك، إذ دقّ باب الدار، ففتّح، فدخل علينا رجل عليه سلاحه، فتطلّع في وجهه مستتبّاً له، فلما أثبتته معرفة، انصرف وغلّق الباب؛ وإذا هو محمد بن حميد الطاهريّ، قال: فعلمت أن الرّجل مقتول. قال: وكان بقيّ علىّ من صلاتي الوتر، فخفت أن أقتل معه ولم أوتر، قال: فقمّت أوتر، فقال لي: يا أحمد، لا تتباعد مني، وصلّ إلىّ جانبي، أجد وحشة شديدة. قال: فاقتربت منه؛ فلما انتصف الليل أو قارب، سمعت حركة الخيل، ودقّ الباب، ففتّح، فدخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف مسلّة، فلما رأهم قام قائماً، وقال: إنّ الله وإنّا إليه راجعون! ذهب والله

نفسى فى سبيل الله ! أما من حيلة ! أما من مغيب ! أما من أحد من الأبناء ! ٩٢٣/٣
 قال : وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذى نحن فيه ، فأحجموا عن الدخول ،
 وجعل بعضهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً . قال : فقمْتُ
 فصرتُ خلف الحُصْر المدرّجة فى زاوية البيت ، وقام محمد ، فأخذ بيده وسادة ،
 وجعل يقول : ويحكمكم ! إني ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن
 هارون ؛ وأنا أخو المأمون ، الله الله فى دمي ! قال : فدخل عليه رجل منهم
 يقال له خمارويه - غلام لقريش الدندانيّ مولى طاهر - فضربه بالسيف
 ضربة وقعت على مقدّم رأسه ؛ وضرب محمد وجهه بالسادة التي كانت فى
 يده ، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده فصاح خمارويه : قتلنى قتلنى - بالفارسية
 قال : فدخل منهم جماعة ، فنخّسه واحد منهم بالسيف فى خاصرته ، وركبوه
 فذبجوه ذبحاً من قفاه ، وأخذوا رأسه ، ففصّوا به إلى طاهر ، وتركوا جثته .
 قال : ولما كان فى وقت السحر جاءوا إلى جثته فأدرجوها فى جُلّ ، وحملوها .
 قال : فأصبحت فقيل لى : هات العشرة آلاف درهم وإلا ضربنا عنقك .
 قال : فبعثت إلى وكيلى فأتانى ، فأمرته فأتانى بها ، فدفعتها إليه . قال : وكان
 دخول محمد المدينة يوم الخميس ، وخرج إلى دجلة يوم الأحد .

وذكر عن أحمد بن سلام فى هذه القصة أنه قال : قلت لمحمد لما دخل
 على البيت وسكن : لاجزى الله وزراءك خيراً ، فإنهم أوردوك هذا المورد !
 فقال لى : يا أخى ؛ ليس بموضع عتاب . ثم قال : أخبرنى عن المأمون أخى ،
 أحيّ هو ؟ قلت : نعم ؛ هذا القتال عمنّ إذّا ! هو إلا عنه ! قال : فقال لى :
 أخبرنى يحيى أخو عامر بن إسماعيل بن عامر - وكان يلى الخبر فى عسكر
 هرثمة - أن المأمون مات ، فقلت له : كذب . قال : ثم قلت له : هذا الإزار
 الذى عليك إزار غايظ فالبس إزارى وقميصى هذا فإنه لبتن ، فقال لى : من
 كانت حاله مثل حالى فهذا له كثير . قال : فلقيته ذكر الله والاستغفار ، فجعل
 يستغفر . قال : وبيننا نحن كذلك ، إذ هدّة تكاد الأرض ترجف منها ؛
 وإذا أصحاب طاهر قد دخلوا الدار وأرادوا البيت ، وكان فى الباب ضيق ،
 فدافعهم محمد بمجئة كانت معه فى البيت ؛ فما وصلوا إليه حتى عرقبوه ، ثم

هجموا عليه ، فحزّوا رأسه . واستقبلوا به طاهراً ، وحملوا جُثته إلى بستان مؤنسة إلى معسكره ؛ إذ أقبل عبد السلام بن العلاء صاحب حرس هَرّثمة فأذن له — وكان عبّر إليه على الجسر الذي كان بالشَّامِسيّة — فقال له : أخوك يقرئك السلام ، فما خبرك ؟ قال : يا غلام ؛ هات الطسّ ، فجاءوا به وفيه رأس محمد ، فقال : هذا خبري فاعلمه . فلما أصبح نصب رأس محمد على باب الأنبار ، وخرج من أهل بغداد للنظر إليه ما لا يحصى عددهم ، وأقبل طاهر يقول : رأس المخلوع محمد .

وذكر محمد بن عيسى أنه رأى المخلوع على ثوبه قَسَمَلَة ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : شيء يكون في ثياب الناس ، فقال : أعوذ بالله من زَوَالِ النعمة ! فقتل من يومه .

وذكر عن الحسن بن أبي سعيد أن الجنديين : جند طاهر وجند أهل بغداد ، ندموا على قتل محمد ، لما كانوا يأخذون من الأموال .

وذكر عنه أنه ذكر أن الخزّانة التي كان فيها رأس محمد ورأس عيسى ابن ماهان ورأس أبي السرايا كانت إليه . قال : فنظرت في رأس محمد ؛ فإذا فيه ضربة في وجهه ، وشعر رأسه ولحيته صحيح لم يَسْتَحَاتْ^(١) منه شيء ، ولونه على حاله . قال : وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البُرْدَة والقضيب والمصلّي — وهو من سعف مبطّن — مع محمد بن الحسن بن مصعب ابن عمه ، فأمر له بألف ألف درهم ، فرأيت ذا الرّياستين ، وقد أدخل رأس محمد على ترس بيده إلى المأمون ، فلما رآه سجد .

٩٢٥/٣

قال الحسن : فأخبرني ابن أبي حمزة ، قال : حدثني عليّ بن حمزة العلويّ ، قال : قدم جماعة من آل أبي طالب على طاهر وهو بالبستان حين قتل محمد بن زبيدة ونحن بالخضرة ، فوصلهم ووصلنا ، وكتب إلى المأمون بالإذن لنا أو لبعضنا ، فخرجنا إلى مَرّو ، وانصرفنا إلى المدينة ، فهنتونا بالنعمة ، ولقينا مَنْ بها من أهلها وسائر أهل المدينة ، فوصفنا لهم قَتْلَ محمد ، وأن طاهر بن الحسين دعا مولّي يقال له قريش الدندانيّ ، وأمره بقتله . قال : فقال لنا شيخ منهم :

كيف قلت ! فأخبرته ، فقال الشيخ : سبحان الله ! كنا نروى هذا أن قريشاً يقتله ؛ فذهبنا إلى القبيلة ، فوافق الاسم الاسم !

وذكر عن محمد بن أبي الوزير أن علي بن محمد بن خالد بن برمك أخبره أن إبراهيم بن المهدي لما بلغه قتل محمد ، استرجع وبكى طويلاً ، ثم قال :

عُوجَا بِمَعْنَى طَلَلٍ دَائِرٍ^(١) بِالْخُلْدِ ذَاتِ الصَّخْرِ وَالْآجِرِ
وَالْمَرَمَرِ الْمَسْنُونِ يُطَلَّى بِهِ^(٢) وَالْبَابِ بَابِ الذَّهَبِ النَّاصِرِ ٩٢٦/٣
عُوجَا بِهَا فَاسْتَيْقِنَا عِنْدَهَا عَلَى يَقِينٍ قُدْرَةَ الْقَادِرِ
وَأَبْلِغْنَا عَنِّي مَقَالاً إِلَى اللَّهِ مَوْلَى عَلَى الْمَأْمُورِ وَالْأَمْرِ
قُولاً لَهُ : يَا بَنَ وَلِيَّ الْهَدَى^(٣) طَهَّرْ بِلَادَ اللَّهِ مِنْ طَاهِرٍ
لَمْ يَكْفِهِ أَنْ حَزَّ أَوْدَاجَهُ^(٤) ذَبَحَ الْهَدَايَا بِمَدَى الْجَارِ
حَتَّى أَتَى يَسْحَبُ أَوْصَالَهُ فِي شَطْنٍ يُفْنِي مَدَى السَّائِرِ^(٥)
قَدْ بَرَدَ الْمَوْتُ عَلَى جَنَبِهِ وَطَرَفُهُ مِنْكَسِرُ النَّاظِرِ

قال : وبلغ ذلك المأمون فاشتد عليه .

وذكر عن المدائني أن طاهراً كتب إلى المأمون بالفتح :

أما بعد ، فالحمد لله المتعالى ذى العزة والجلال ، والملك والسلطان ، الذى إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

كان فيما قدر الله فأحكم ، ودبر فأبرم ، انتكاثُ المخلوع ببيعته ، وانتقاضه بعهده ، وارتكاسه فى فتنته ، وقضاؤه عليه القتل بما كسبت يده وما الله بظلام للعبيد . وقد كتبت إلى أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فى

(١) ابن الأثير : « الطلل الدائر » . (٢) ابن الأثير : « المرمر المنسوب » .

(٣) ابن الأثير : « يابن أبي الناصر » . (٤) ابن الأثير : « أوصاله » .

(٥) ط : « مدى الشابر » ، وما أثبتته من ابن الأثير .

إحاطة جند الله بالمدينة والحلند^(١)، وأخذهم بأفواهها وطرقها ومسالكها في دجلة نواحي أزقة مدينة السلام وانتظام المسالحي حواليتها وحند رى السفن والزواريق بالعرادات والمقاتلة ، إلى ما واجه الحلند وباب خراسان ، تحفظاً بالخلوع ، وتخوفاً من أن يروغ مراغماً ، ويسلك مسلماً يجذب السبيل إلى إثارة فتنة ، وإحياء نائرة^(٢) ، أو يهايج قتالا بعد أن حصره الله عز وجل وخذله ، ومتابعة الرسل بما يعرض عليه هرثمة بن أعين مولى أمير المؤمنين ، ويسألنى من تخلية الطريق له فى الخروج إليه واجتماعى وهرثمة بن أعين ؛ لتتناظر فى ذلك ، وكراهتى ما أحدث وراءه من أمره بعد إرهاب الله إياه ، وقطعه رجاءه من كل حيلة ومتعلق ، وانقطاع المنافع عنه ؛ وحيل بينه وبين الماء ؛ فضلا عن غيره ؛ حتى هم به خدمته وأشياعه من أهل المدينة ومن نجا معه إليها ، وتحزبوا على الوثوب به للدفع عن أنفسهم والنجاة بها ، وغير ذلك مما فسرت لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أرجو أن يكون قد أتاه .

٩٢٧/٣

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنى رويت فيما دبّر هرثمة بن أعين مولى أمير المؤمنين فى الخلوع ، وما عرّض عليه وأجابه إليه ، فوجدت الفتنة فى تخلفه من موضعه الذى قد أنزله الله فيه بالدلة والصغار وصيّر فيه إلى الضيق والحصار تزداد ، ولا يزيد أهل التربص فى الأطراف إلا طمعاً وانتشاراً ، وأعلمت ذلك هرثمة بن أعين ، وكراهتى ما أطمعه فيه وأجابه إليه ؛ فذكر أنه لا يرى الرجوع عما أعطاه ، فصادته - بعد يأس من انصرافه - عن رأيه ، على أن يقدم الخلوع رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفه وقضييته قبل خروجه ؛ ثم أخلّى له طريق الخروج إليه ؛ كراهة أن يكون بينى وبينه اختلاف نصير منه إلى أمر يطمع الأعداء فىنا ، أو فراق القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك ، وعلى أن نجتمع لمعادنا عشية السبت .

٩٢٨/٣

فتوجهت فى خاصة ثقاتى الذين اعتمدت عليهم ، وأثق بهم ، بربط الجأش ، وصدق البأس ، وصحة المناصحة ؛ حتى طالعت جميع أمر كل

(١) المدينة ، أى بغداد ؛ وهى مدينة السلام . والحلند : قصر بناء المنصور بها ؛ ثم بنيت حواليه منازل ، فصارت محلة كبيرة عرفت بالحلند .
(٢) النائرة : العداوة والشحناء .

من كنت وكلت بالمدينة والحلبد برّاً وبحراً، والتقدمة إليهم في التحفظ والتيقظ والحراسة والحذر، ثم انكفأت إلى باب خراسان، وكنت أعددت حَرَاقَات وسفناً؛ سوى العُدّة التي كانت لأركبها بنفسى لوقت ميعادى بينى وبين هرثمة، فزلتها في عدّة ممن كان ركب معى من خاصة ثقافى وشاكريّتى^(١)، وصيرت عدّة منهم فرساناً ورجالة بين باب خراسان والمشرعة^(٢) وعلى الشطّ.

وأقبل هرثمة بن أعين حتى صار بقُرب باب خراسان معيداً مستعداً؛ وقد خاتلنى بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرج إليه إذا وافى المشرعة، ليحمله قبل أن أعلم، أو يبعث إلى بالرداء والسيف والقضيب؛ على ما كان فارقتى عليه من ذلك. فلما وافى خروج المخلوع على مَنْ وكلت بباب خراسان، نهضوا عند طلوعه عليهم ليعرفوا الطابع لأمرى كان أناهم، وتقديّمى إليهم ألاّ يندعوا أحداً يجوزهم إلا بأمرى. فبادرهم نحو المشرعة، وقرب هرثمة إليه الحراقة، فسبق الناكث أصحابى إليها، وتأخر كوثر^(٣)، فظفر به قريش مولاي، ومعه الرداء والقضيب والسيف، فأخذه وما معه، فنفر أصحاب المخلوع عند ما رأوا من إرادة أصحابى منع مخلوعهم من الخروج، فبادر بعضهم حراقة هرثمة، فتكفّأت بهم حتى أغرقت في الماء ورسيّت، فانصرف بعضهم إلى المدينة، ورمى المخلوع عند ذلك بنفسه من الحراقة في دجلة متخلصاً إلى الشطّ، نادماً على ما كان من خروجه، ناقضاً للعهد، داعياً بشعاره، فابتدره عدّة من أوليائى الذين كنت وكلتهم بما بين مشرعة باب خراسان وركن الصراة، فأخذوه عتوة قهراً بلا عهد ولا عقد؛ فدعا بشعاره، وعاد في نكثه، فعرض عليهم مائة حبة، ذكر أن قيمة كل حبة مائة ألف درهم، فأبوا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله، وصيانة لدينهم، وإيثاراً للحق الواجب عليهم، فتعلقوا به، قد أسلمه^(٤) الله وأفرده؛ كلّ يرغبه، ويريد أن يفوز بالخطوة عندى دون صاحبه؛ حتى اضطربوا فيما بينهم، وتناولوه

(١) الشاكري: الأجير والمستخدم، معرب «جاكر».

(٢) المشرعة: مورد الشاربة.

(٣) كوثر خادم الأمين.

(٤) أسلمه، أى غذله.

بأسيافهم منازعةً فيه، وتشاحاً عليه^(١)، إلى أن أُتيح له مغِيطٌ^(٢) لله ودينه ورسوله وخليفته، فأَتَى عليه وأتاني الخبر بذلك، فأمرت بحمل رأسه إلى، فلما أُتييت به تقدّمت إلى من كنت وكلت بالمدينة والحُلْد وما حواليلها وسائر مَنْ في المسالِح، في لزوم مواضعهم، والاحتفاظ بما يليهم، إلى أن يأتيتهم أمرى. ثم انصرفت. فأعظم الله لأمر المؤمنين الصنع والفتح عليه وعلى الإسلام به وفيه. فلما أصبحتُ هاج الناس واختلفوا في الخلو، فصدّق بقتله، ومكذب وشاكٍّ وموقن، فرأيت أن أطرح عنهم الشبهة في أمره، فضيت برأسه، لينظروا إليه فيصح بعينهم، وينقطع بذلك بعَل^(٣) قلوبهم، ودخلُ التباث المستشرفين للفساد^(٤) والمستوفزين للفتنة، وغدوت نحو المدينة فاستسلم مَنْ فيها، وأعطى أهلها الطاعة، واستقام لأمر المؤمنين شرقاً مايلي مدينة السلام وغرباً وأرباعه^(٥) وأرباضه ونواحيه؛ وقد وضعت الحرب أوزارها وتلافى بالسلام والإسلام أهله؛ وبعد الله الدغل^(٦) عنهم، وأصارهم ببركة أمير المؤمنين إلى الأمن والسكون والدعة والاستقامة والاعتباط والصنع من الله جلّ وعزّ والخيرة، والحمد لله على ذلك.

٩٣٠/٣

فكتبت إلى أمير المؤمنين حفظه الله، وليس قبلي داعٍ إلى فتنة؛ ولا متحرّك ولا ساعٍ في فساد، ولا أحد إلا سامع مطيع باخع حاضر؛ قد أذاقه الله حلاوة أمير المؤمنين ودعة ولايته؛ فهو يتقلب في ظلها، يغدو في متجره ويروح في معاشه؛ والله وليّ ما صنع من ذلك، والمتمم له، والمأن بالزيادة فيه برحمته.

وأنا أسأل الله أن تُهنئ أمير المؤمنين نعمته، ويتابع له فيها مزيدَه ويؤزعه عليها شكره؛ وأن يجعل منته لديه متواليه دائماً متواصلة؛ حتى يجمع الله له خير الدنيا والآخرة، ولأوليائه وأنصار حقه ولجماعة المسلمين ببركته وبركة ولايته ويُمنّ بخلافته، إنه وليّ ذلك منهم وفيه، إنه سميع لطيف لما يشاء.

(١) تشاحا على الأمر؛ أي لا يريدان أن يفوتها. (٢) ط: «مغيطاً»، وهو خطأ.

(٣) البعل: الدهش والاضطراب. (٤) الدخل: ما داخل المرء من فساد في عقل

أو جسم. والالتياث: الاختلاط والالتفاف. واستشرى إلى الشيء: رفع بصره إليه.

(٥) كانت بغداد مقسمة أرباعاً. (٦) الدغل: الفساد.

وكتب يوم الأحد لأربع بقين من الحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر عن محمد المخلوع أنه قبل مقتله ، وبعد ما صار في المدينة ، ورأى الأمر قد تولّى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، قعد في الجناح الذي كان عمله على باب الذهب — وكان تقدم في بنائه قبل ذلك — وأمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند ، فجمعوا في الرحبة ، فأشرف عليهم ، وقال :

الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ؛ وإليه المصير . أحسنه على نواب الزمان ، ونخلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحلول النوائب ، وتوفد المصائب ؛ حمداً يندخر لي به أجزل الجزاء ، ويسرفني أحسن العزاء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين ، صلى الله عليه وسلم ، آمين رب العالمين .

أما بعد يا معشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفلتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزيراً على ومشير ، فمادت به الأيام ^(١) بما لزمني به من الندامة في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتوني فانتبهت ، واستعنتوني في جميع ما كرهتهم من نفسي وفيكم ، فبذلت لكم ما حواه ملكي ، ونالته مقدرتي ، مما جمعته وورثته عن آبائي ، فقودت ^(٢) من لم يسجز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت — علم الله — في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه ، واجتهدتم — علم الله — في مساءتي في كل ما قدرتم عليه ؛ من ذلك توجيهي إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم ؛ فكان منكم ما يطول ذكره ؛ فغفرت الذنب ، وأحسنتم واحتملت ، وعزيت نفسي عند معرفتي بشرود ^(٣) الظفر ، وحرصى على مقامكم مسلحة بحلول مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومن على يدي أبيه كان فخركم ، وبه تمت طاعتكم : عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التائب عليه إلى ما لا طاقة

(١) مدت به الأيام : طالوته .

(٢) قودت ، أى اتخذته قائداً .

(٣) ط : « بشور » .

له به ، ولا صبر عليه . يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً ؛ إلى عامدين ^(١) ، وعلى سيّدكم متوثبين مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين . ثم وثبتهم مع الحسين عليّ ، فخلعتموني وشتمتموني ، وانتهبتموني وحبستموني ، وقيدتموني ؛ وأشياء منعتموني من ذكرها ؛ حققت قلوبكم وتلكؤ طاعتكم أكبر وأكثر . فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضى بقدره ، والسلام .

وقيل : لما قُتل محمد ، وارتفعت النائرة ، وأعطى الأمان الأبيض والأسود ، وهذا الناس ، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة ، فصلّى بالناس ، وخطبهم خطبة بليغة ، نزع فيها من قوارع القرآن ؛ فكان مما حُفظ من ذلك أن قال : الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويرزق الملك ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير . في آي من القرآن أتبع بعضها بعضاً ، وحضّ على الطاعة وازوم الجماعة ، ورغّبهم في التمسك بحبل الطاعة . وانصرف إلى معسكره .

وذكر أنه لما صعد المنبر يوم الجمعة ، وحضره من بني هاشم والقوّاد وغيرهم جماعة كثيرة ، قال :

الحمد لله مالك الملك ، يؤتيه من يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير . لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنين ؛ إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ، بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عماداً لدينه ، وقواماً لعباده ، وضبط الأطراف وسدّ الثغور ، وإعداد العُدّة ، وجمع النعم ، وإنفاذ الحكم ، ونشر العدل ، وإحياء السنة ؛ بعد إذ بطل البطالات ، والتلذذ بموئبق الشهوات . والمُخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب ديرة نعمتها ، أليف لزهرة روضتها ، كليف برؤوق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء موعود الله عز وجل لمن بنى عليه ، وما أحلّ به من بأسه ونقمته ، لمّا نكب عن عهده ، وارتكب معصيته ، وخالف أمره ، وغيره ناهيه ، وعظته مردية ؛ فتمسكوا بوثائق ^(٣) عصم الطاعة ، واسلكوا مناحي سبيل الجماعة ، واحذروا مصارع أهل الخلاف

والمعصية ؛ الذين قدحوا زناد الفتنة ، وصدّعوا شَعْبَ الألفة ، فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة .

* * *

ولما فتح طاهر بغداد كتب إلى أبي إسحاق المعتصم - وقد ذكر بعضهم أنه إنما كتب بذلك إلى إبراهيم بن المهدي ، وقال الناس : كتبه إلى أبي إسحاق المعتصم : أما بعد ، فإنه عزيز علىّ أن أكتبَ إلى رجل من أهل بيت الخلافة بغير التأمير ؛ ولكنه بلغني أنك تميل بالرأي ، وتُصغى بالهوى ، إلى الناكث المخلوع ؛ وإن كان كذلك فكثير ما كتبتُ به إليك ، وإن كان غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته . وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات :

ركوبك الأمر ما لم تُبَلِّ فرصتهُ جهلٌ ورأيك بالتغريبِ تغريبٌ^(١)
أقبحُ بدُنْيَا ينالُ المخطئون بها^(٢) حظُّ المصيبين والمغرور مغرورٌ^(٣)

* * *

[وثوب الجند بطاهر بن الحسين بعد مقتل الأمين]

وفي هذه السنة وثب الجند بعد مقتل محمد بطاهر ، فهرب منهم وتغيّب أياماً حتى أصليح أمرهم .

٩٣٤/٣

* ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به وإلى ما آل أمره وأمرهم :
« ذكر عن سعيد بن حميد ؛ أنه ذكر أن أباه حدثه ؛ أن أصحاب طاهر

(١) المقد ٤ : ٢٤٢ ، ورواية البيت فيه :

رُكُوبُكَ الهولَ ما لمْ تُلَفِّ فُرْصَتُهُ جهلٌ رمى بك بالإقحامِ تغريبٌ
(٢) المقد : « يصيب المخطئون » .
(٣) بعدهما في المقد :

فازرغ صواباً وأخذ بالحزمِ حَيْطَتُهُ فلنْ يُدَمَّ لأهل الحزمِ تدبيرٌ
فإن ظفرت مصيباً أو هلكت به فأنّت عند ذوى الألبابِ معذورٌ
وإن ظفرت على جهلٍ ففُزْتُ بِهِ قالوا : جهولٌ أعانتُهُ المقاديرُ

بعد مقتل محمد بخمسة أيام ، وثبوا به ؛ ولم يكن في يديه مال ، فضايق به أمره ، وظنّ أن ذلك عن مواطاة من أهل الأرباض إياهم ، وأنهم معهم عليه ، ولم يكن تحرك في ذلك من أهل الأرباض أحد ، فاشتدت شوكة أصحابه ، وخشى على نفسه ، فهرب من البستان ، وانتهبوا بعض متاعه ، ومضى إلى عتقر قوف^(١) . وكان قد أمر بحفظ أبواب المدينة وباب القصر على أمّ جعفر ، وموسى وعبد الله ابني محمد ، ثم أمر بتحويل زبيدة وموسى وعبد الله ابني محمد معها من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد ، فحولوا ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول ، ثم مضى بهم من ليلتهم في حرّاقة إلى هَمَينِيا على الغربي من الزاب الأعلى ، ثم أمر بحمل موسى وعبد الله إلى عمّهما بخراسان على طريق الأهواز وفارس .

قال : ولما وثب الجند بطاهر ، وطلبوا الأرزاق ، أحرقوا باب الأنبار الذي على الخندق وباب البستان ، وشهروا السلاح ، وكانوا كذلك يومئذ ومن الغد ، ونادوا موسى : يا منصور . وصوب الناس إخراج طاهر موسى وعبد الله ؛ وقد كان طاهر انحاز ومنّ معه من القواد ، وتعباً لقتالهم ومحاربتهم ، فلما بلغ ذلك القواد والوجوه صاروا إليه واعتذروا ، وأحالوا على السفهاء والأحداث ، وسألوه الصّفْح عنهم وقبول عذرهم والرضا عنهم ، وضمنوا له ألاّ يعودوا لمكروه له ما أقام معهم . فقال لهم طاهر : والله ما خرجت عنكم إلاّ لوضع سبني فيكم ، وأقسم بالله لئن عدتم لثلثها لأعودنّ إلى رأيي فيكم ، ولأخرجنّ إلى مكروهمكم ؛ فكسرهم بذلك ، وأمر لهم برزق أربعة أشهر ؛ فقال في ذلك بعض الأبناء :

٩٣٥/٣

آلِي الْأَمِيرُ - وَقَوْلُهُ وَفِعَالُهُ حَقٌّ - بِجَمْعِ مَعَاشِرِ الزُّعَّارِ
إِنْ هَاجَ هَاجُجُهُمْ وَشَغَبَ شَاغِبٌ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْأَقْطَارِ
أَلَّا يَنْظُرَ مَعْشَرًا مِنْ جَمْعِهِمْ إِمَهَالَ ذِي عَدَلٍ وَذِي إِنْظَارِ
حَتَّى يُنِيغَ عَلَيْهِمْ بِعَظِيمَةٍ تَدَعُ الدِّيَارَ بِلَاقِعِ الْآثَارِ

فذكر عن المدائني أن الجند لما شَغَبُوا، وانحاز طاهر، ركب إليه سعيد ابن مالك بن قادم ومحمد بن أبي خالد وهبيرة بن خازم؛ في مشيخة من أهل الأرباض، فحلفوا بالمغلظة من الأيمان، أنه لم يتحرك في هذه الأيام أحد من أبناء الأرباض، ولا كان ذلك عن رأيهم، ولا أرادوه، وضمنوا له صلاح نواحيهم من الأرباض، وقيام كل إنسان منهم في ناحيته بكل ما يجب عليه؛ حتى لا يأتيه من ناحية أمر يكرهه. وأتاه عميرة — أبو شَيْخ بن عميرة الأسدي — وعلى ابن يزيد؛ في مشيخة من الأبناء، فلقوه بمثل ما لقيه به ابن أبي خالد وسعيد ابن مالك وهبيرة، وأعلموه حسن رأي من خلفهم من الأبناء ولين طاعتهم له، وأنهم لم يدخلوا في شيء مما صنع أصحابه في البستان. فطابت نفسه إلا أنه قال لهم: إن القوم يطلبون أرزاقهم، وليس عندى مال. فضمن لهم سعيد ابن مالك عشرين ألف دينار، وحملها إليه، فطابت بها نفسه، وانصرف إلى معسكره بالبستان. وقال طاهر لسعيد: إني أقبلها منك على أن تكون على ديننا، فقال له: بل هي إنما صلة وقليل لغلامك وفيما أوجب الله من حقل. فقبلها منه، وأمر للجند برزق أربعة أشهر، فرضوا وسكنوا.

٩٣٦/٣

قال المدائني: وكان مع محمد رجل يقال له السمرقندي، وكان يرى عن مجانيق كانت في سفن من باطن دجلة؛ وربما كان يشتد أمر أهل الأرباض على من بلزائهم من أصحاب محمد في الخنادق، فكان يبعث إليه، فيجىء به فيرميهم — وكان رامياً لم يكن حجره يخطئ — ولم يقتل الناس يومئذ بالحجارة كما قيل، فلما قتل محمد قطع الجسر، وأحرقت المجانيق التي كانت في دجلة يرى عنها، فأشفق على نفسه، وتخوف من بعض من وتره أن يطلبه، فاستخفى، وطلبه الناس، فتكارى بغلا، وخرج إلى ناحية خراسان هارباً، فضى حتى إذا كان في بعض الطريق استقبله رجل فعرفه؛ فاما جازه قال الرجل للمكارى: ويحك! أين تذهب مع هذا الرجل! والله لئن ظفرت بك معه لتقتلن، وأهون ما هو مصيبك أن تحبس. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قد والله عرفت اسمه، وسمعت به قتله الله! فانطلق المكارى إلى أصحابه — أو مسلحة انتهى إليها — فأخبرهم خبره، وكانوا من أصحاب كُندُ غُوش من أصحاب هرثة،

فأخذوه وبعثوا به إلى هرثمة ، وبعث به هرثمة إلى خزيمة بن خازم بمدينة السلام ، فدفعه خزيمة إلى بعض مَنْ وتره فأخرجه إلى شاطئ دجلة من الجانب الشرق فصُلِبَ حيًّا ، فذكروا أنه لما أرادوا شدة على خشبته ، اجتمع خلق كثير ، فجعل يقول قبل أن يشدّوه : أنتم بالأمس تقولون : لا قَطَعَ الله يا سمرقندي يدك ، واليوم قد هيأتم حجاركم ونُشَابكم لترموني ! فلما رفعت الخشبة أقبل الناس عليه رميًا بالحجارة والنشاب وطعنًا بالرماح حتى قتلوه ، وجعلوا يرمونه بعد موته ، ثم أحرقوه من غد ، وجاءوا بنار ليحرقوه بها ، وأشعلوها فلم تشتعل ، وألقوا عليه قصبًا وحطبًا ، فأشعلوها فيه ، فاحترق بعضه ، وتمزقت الكلاب بعضه ؛ وذلك يوم السبت لليلتين خلتا من صفر .

٩٣٧/٣

* * *

ذكر الخبر عن صفة محمد

ابن هارون وكنيته وقدر ما ولى ومبلغ عمره

قال هشام بن محمد وغيره : وليّ محمد بن هارون وهو أبو موسى يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقتل ليلة الأحد لستّ بقين من صفر سنة سبع وتسعين ومائة . وأمه زبيدة ابنة جعفر الأكبر بن أبي جعفر ؛ فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ؛ وقد قيل : كانت كنيته أبا عبد الله .

وأما محمد بن موسى الخوارزمي فإنه ذكر عنه أنه قال : أتت الخلافة محمد بن هارون للنصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وحجّ بالناس في هذه السنة التي ولى فيها داود بن عيسى بن موسى ، وهو على مكة وأبو البختري على ولايته ، وبعد ولايته بعشرة أشهر وخمسة أيام وجّه^(١) عصمة ابن أبي عصمة إلى ساوة ، وعقد ولايته لابنه موسى بولاية العهد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ؛ وكان على شرطه على بن عيسى بن ماهان .

وحجّ بالناس سنة أربع وتسعين ومائة على بن الرشيد ، وعلى المدينة إسماعيل بن العباس بن محمد ، وعلى مكة داود بن عيسى ، وكان بين أن

٩٣٨/٣

عقد لابنه إلى التقاء عليّ بن عيسى بن ماهان وطاهر بن الحسين وقتل عليّ بن عيسى بن ماهان سنة خمس وتسعين ومائة، سنة^١ وثلاثة أشهر وتسعة وعشرون يوماً. قال: وقتل الخوارج ليلة الأحد لحمس بقين من المحرم، قال: فكانت ولايته مع الفتنة أربع سنين وسبعة أشهر وثلاثة أيام.

ولما قتل محمد ووصل خبره إلى المأمون في خريطة من طاهر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة أظهر المأمون الخبر، وأذن للقواد فدخلوا عليه. وقام الفضل بن سهل فقرأ الكتاب بالخبر، فهنئ بالظفر، ودعوا الله له. وورد الكتاب من المأمون بعد قتل محمد على طاهر وهرثة بخلع القاسم بن هارون، فأظهرها ذلك، ووجهها كتبهما به، وقرئ الكتاب بخلعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائة، وكان عمر محمد كله - فيما بلغني - ثمانياً وعشرين سنة.

وكان سبباً أنزع أبيض صغير العينين أقي، جميلاً، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين. وكان مولده بالرصافة.

* * *

وذكر أن طاهراً قال حين قتله:

قَتَلْتُ الْخَلِيفَةَ فِي دَارِهِ وَأَنْهَبْتُ بِالسَّيْفِ أَمْوَالَهُ

وقال أيضاً:

مَلَكَتُ النَّاسَ قَسْرًا وَاقْتَدَارًا وَقَتَلْتُ الْجَبَابِرَةَ الْكِبَارًا^(١)
وَوَجَّهْتُ الْخِلَافَةَ نَحْوَ مَرَوْ إِلَى الْمَأْمُونِ تَبْتَدِيرُ ابْتِدَارًا

* * *

ذكر ما قيل في محمد بن هارون ومرثيته

فما قيل في هجائه :

لِمَ نُبَكِّيكِ لِمَاذَا ؟ لِلطَّرَبِ ! يا أبا موسى وَتَرْوِيجِ اللَّعِبِ
وَلِتَرْكِ الْخُمْسِ فِي أَوْقَاتِهَا حَرَصاً مِنْكَ عَلَى مَاءِ الْعِنَبِ
وَشَنِيفِ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ وَعَلَى كَوثَرِ لَا أَخْشَى الْعَطَبِ
لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَا حَدَّ الرِّضَا لَا وَلَا تَعْرِفُ مَا حَدَّ الْغَضَبِ
لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ وَلَمْ تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمُلْكِ الْعَرَبِ
أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيْهِ لَا بَكَتْ عَيْنٌ مَنْ أَبْكَاكَ إِلَّا لِلْعَجَبِ
لِمَ نُبَكِّيكِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لِلْمَجَانِقِ وَطَوْرًا لِلْسَّلَبِ
وَلِقَوْمٍ صَيَّرُونَا أَعْبُدًا لَهُمْ يَنْزِعُونَ عَلَى الرَّأْسِ الذَّنْبَ (١)
فِي عَذَابٍ وَحْصَارٍ مُجْهِدٍ سَدَّ الطَّرِيقَ فَلَا وَجْهَ طَلَبِ (٢)
زَعَمُوا أَنَّكَ حَيٌّ حَاشِرٌ كُلُّ مَنْ قَالَ بِهَذَا قَدْ كَذَبَ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ (٣) مِنْ جَمِيعٍ ذَاهِبٌ حَيْثُ ذَهَبَ
أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَتْلَهُ فَإِذَا مَا أَوْجَبَ الْأَمْرَ وَجَبَ
كَانَ وَاللَّهُ عَلَيْنَا فِتْنَةً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبَ

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد ، ويهجو طاهراً ويعرض به :

مَنْ ذَا أَصَابَكَ يَا بَغْدَادُ بِالْعَيْنِ أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قَرَّةَ الْعَيْنِ !
أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ أَقْوَامٌ لَهُمْ شَرَفٌ بِالصَّالِحَاتِ وَبِالْمَعْرُوفِ يَلْقَوْنِي
أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ قَوْمٌ كَانُوا مَسْكُنُهُمْ وَكَانَ قَرِيبُهُمْ زِينًا مِنَ الزَّيْنِ
صَاحَ الزَّمَانُ بِهِمْ بِالْبَيْنِ فَانْقَرَضُوا مَاذَا الَّذِي فَجَعَلْتَنِي لَوْعَةً الْبَيْنِ

(٢) ابن الأثير : « فلا وجه الطلب » .

(١) ط : « يبدو » .
(٣) ابن الأثير : « ليته قد قال في وجده » .

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتَهُمْ
كَانُوا فَفَرَّقَهُمْ دَهْرٌ وَصَدَّعَهُمْ
كَمْ كَانَ لِي مُسَعِدٌ مِنْهُمْ عَلَى زَمَنِي
لِلَّهِ دُرٌّ زَمَانٌ كَانَ يَجْمَعُنَا
يَا مَنْ يُخَرِّبُ بَغْدَادًا لِيُغَمِّرَهَا
كَانَتْ قُلُوبُ جَمِيعِ النَّاسِ وَاحِدَةً
لَمَّا أَشْتَهُمْ فَرَّقَتْهُمْ فِرْقًا

إِلَّا تَحَدَّرَ مَاءُ الْعَيْنِ مِنْ عَيْنِي
وَالدَّهْرُ يَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ
كَمْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ عَوْنٍ
أَيْنَ الزَّمَانُ الَّذِي وَلَّى وَمِنْ أَيْنِ!
أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ
عَيْنًا، وَلَيْسَ لَكُنِ الْعَيْنِ كَالَّذِينَ
وَالنَّاسُ طُرًّا جَمِيعًا بَيْنَ قَلْبَيْنِ

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه، أن لبانة ابنة عليّ ابن المهدي قالت :

أَبْكِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِ بَلِ لِلْمَعَالِي وَالرُّمَحِ وَالتُّرْسِ (١)
أَبْكِي عَلَى هَالِكٍ فَجَعْتُ بِهِ (٢) أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعُرْسِ (٣)

وقد قيل إن هذا الشعر لابنة عيسى بن جعفر، وكانت مُمْلَكَةً بِمُحَمَّدٍ .

وقال الحسين بن الضحّاك الأشقر، مولى باهلة، يرثي محمداً، وكان من نُدَمَائِهِ، وكان لَا يَصْدَقُ بِقَتْلِهِ، وَيَطْمَعُ فِي رَجُوعِهِ :

يَا خَيْرَ أَسْرَتِيهِ وَإِنْ زَعَمُوا إِنِّي عَلَيْكَ لَمْ تُبِتْ أَسْفُ (٤)
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كِبْدًا حَرَىٰ عَلَيْكَ وَمُقْلَةً تَكِفُ
وَلَوْ شِئْتُ شَجِيتُ بِمَا رَزَيْتُ بِهِ (٥) إِنِّي لِأُضْمِرُ فَوْقَ مَا أَصِفُ
هَلَّا بَقِيتَ لَسَدًا فَاقْتِنَا أَبَدًا، وَكَانَ لَغَيْرِكَ التَّلَفُ!

(٢) المسمودي : « أبكى على سيد » .

(١) المسمودي ٣ : ٤٢٤ .

(٣) بعده في المسمودي :

خانتته أشرطه مع الحرس

يَا مَالِكًا بِالْعَرَاءِ مَطْرَحًا

(٤) انظر الأغاني ٧ : ١٤٨ .

(٥) ابن الأثير : « لما رزيت » .

فلقد خلقتَ خلائفاً سلفوا
لاباتَ رهطكَ بعدَ هفوتهم
هتكوا بحرمتكَ التي هتكتَ
وثبتَ أقاربكَ التي خذلتَ^(١)
لم يفعلوا بالشطِّ إذ خَصَرُوا
تركوا حريمَ أبيهم نفلاً
أبدتَ مُخلخلها على دهش
سلبتَ معاجرهم واجتليتَ^(٢)
فكأنهم خلالَ مُنتهبٍ
ملككُ تخونَ ملكه قدرُ^(٣)
هيئاتَ بعدك أن يدومَ لنا
لا هيبوا صُحفاً مُشرقةً
أفبعدَ عهدِ الله تفتله
فستعرفون غداً بعاقبة
يا من يُخونُ نومهُ أرقُ
قد كنتَ لي أملاً غنيتُ به
مرجَ النظامِ وعادَ منكرونا
فالشملُ منتشرٌ لفقدك والد

ولسوفَ يُعوزُ بعدك الخلفُ
لأنى لِرَهطكَ بعدها شنفُ
حرمَ الرسولِ ودونها السُجفُ
وجميعها بالذلِّ معترفُ
ما تفعلُ الغيرانةُ الأنفُ
والمُحصناتُ صوارخُ هُتفُ
أبكارهم ورئتِ النصفُ^(٤)
ذاتُ النقابِ ونوزعُ الشنفُ
دُرٌّ تكشفُ دونه الصدْفُ
فوهِى وصرفُ الدهرِ مُختلِفُ
عزٌّ وأن يَبقى لنا شرفُ
للغايِينَ وتحتها الجدفُ
والقتلُ بعدَ أمانٍ سرفُ
عزُّ الإلهِ فأوردوا وقِفُوا
هدتِ الشجونُ وقلبهُ نِفُ
فمضى وحلَّ محلُّه الأسفُ
عُرفاً وأنكرَ بعدك العُرفُ^(٥)
نيا سُدَى والبالُ مُنكسفُ^(٦)

٩٤٢/٣

- (١) ابن الأثير : « وبنت أقاربك » .
(٢) النصف : « المتوسطة العمر » .
(٣) ابن الأثير : « واختلست » .
(٤) ابن الأثير : « سلك تخوف نظمه قدر » .
(٥) ابن الأثير : « أرقا » .
(٦) ابن الأثير : « بعده » .
(٧) ابن الأثير : « والباب » .

وقال أيضاً يرثيه :

إذا ذُكِرَ الْأَمِينُ نَعَى الْأَمِينَا
وما برحت منازلُ بين بُصْرَى
عراضِ الْمُلْكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى
تَخَوَّنَ عِزٌّ سَاكِنُهَا زَمَانُ
فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرَ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ
فَوَا أَسْفَا وَإِنْ شَمَتَ الْأَعَادِي
أَضَلَّ الْعُرْفَ بَعْدَكَ مُتَبِعُوهُ
وَكُنَّ إِلَى جَنَابِكَ كُلَّ يَوْمٍ
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالِي
سَتْنَدُبُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارًا
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ
تَعَقَّدَ عِزُّ مُتَصِلٍ بِكِسْرَى

وقال أيضاً يرثيه :

أَسْفَا عَلَيْكَ سَلَكَ أَقْرَبُ قَرَبَةٍ مَنِي وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهذاهد يرثي محمداً :

يَا غَرْبُ جُودِي قَدْ بُتَّ مِنْ وَدْمَةٍ
أَلَوْتَ بِدُنْيَاكَ كَفُّ نَائِبَةٍ
أَصْبَحَ لِلْمَوْتِ عِنْدَنَا عِلْمٌ
مَا اسْتَنْزَلَتْ دَرَّةُ الْمَنُونِ عَلَى
خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ
فَقَدْ فَقَدْنَا الْعَزِيزَ مِنْ دِيْمَةٍ
وَصِرْتَ مُغْضًى لَنَا عَلَى نِقْمَةٍ
يَضْمَحُكُ مِنَ الْمَنُونِ مِنْ عِلْمَةٍ
أَكْرَمَ مِنْ حُلٍّ فِي ثَرَى رَحِمَةٍ
تَقْصُرُ أَيْدَى الْمُلُوكِ عَنْ شِبْمَةٍ

٩٤٤/٣

يَفْتَرِ عَنْ وَجْهِ سَنَا قَمَرٍ
زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا
مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَضْرَعِهِ
رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ
كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزَ مَمْلَكَةٍ
يَا مَلِكًا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ
جَادَ وَحِيًّا الَّذِي أَقَمْتَ بِهِ
لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثِقَةً
أَوْ مَلِكٍ لَا تُرَامُ سَطَوْتُهُ
خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ
أَصْبَحَ مُلْكٌ إِذَا انْتَزَرْتَ بِهِ
أَثَرُ ذَوِ الْعَرْشِ فِي عِدَاكَ كَمَا
لَا يُبْعَدُ اللَّهُ سُورَةً تَلِيَتْ
مَا كُنْتَ إِلَّا كَحُلْمٍ ذِي حُلْمٍ
حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقَدَتْهُ

٩٤٥/٣

وقال أيضاً يرثيه :

يَنْشَقُّ عَنْ نُورِهِ دُجَى ظُلْمَةٍ
إِذْ أُولِغَ السَّيْفُ مِنْ نَجِيعِ دِمَةٍ
مَنْ عُمِمَ النَّاسُ أَوْ ذَوِي رَحِمَةٍ
حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمَةٍ
يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
لِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أُمَمَةٍ
سَحَّ غَزِيرُ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيَمَةٍ
أُسْوَى فِي الْعِزِّ مَسْتَوَى قَدَمَةٍ
إِلَّا مُرَامَ الشَّيْمِ فِي أَجَمَةٍ
أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمَةٍ
يَقْرَعُ سِنَّ الشُّقَاةِ مِنْ نَدَمَةٍ
أَثَرٌ فِي عَادِهِ وَفِي إِرْمَةٍ
لَخَيْرِ دَاعٍ دَعَاهُ فِي حَرَمَةٍ
أَوَّلَجَ بَابَ السُّرُورِ فِي حُلْمَةٍ
عَادَ إِلَى مَا اعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمَةٍ

سُقِيتَ الْغَيْثَ يَا قَصَرَ الْقَرَارِ
فَصِيرْتَ مَلُوحًا بِدِخَانِ نَارِ
وَأَيْنَ مَزَارُهُمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
أَرَى أَطْلَالَهُمْ سَوْدَ الدِّيَارِ!
يَصُونُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
لَنَا وَالْغَيْثَ يَمْنَحُ بِالْقِطَارِ

أَقُولُ وَقَدْ دَنُوتُ مِنَ الْفِرَارِ
رَمَتْكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنِ
أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حُلُوتُ
وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَابْنَاهُ مَا لِي
كَأَن لَمْ يُوْتَسُوا بِأَنْبِيسِ مُلْكٍ
إِمَامٌ كَانَ فِي الْحِدْثَانِ عَوْنًا

لَقَدْ تَرَكَ الزَّمَانُ بَنِي أَبِيهِ
 أَضَاعُوا شَمْسَهُمْ فَجَرَتْ بِنَحْسٍ
 وَأَجَلُوا عَنْهُمْ قَمَرًا مُنِيرًا
 وَلَوْ كَانُوا لَهُمْ كَفَوًا وَمِثْلًا
 أَلَا بَانَ الْإِمَامُ وَوَارِثَاهُ
 وَقَالُوا الْخُلْدُ بَيْعٌ فَقُلْتُ ذَلًّا
 كَذَاكَ الْمَلِكُ يُتَبِعُ أَوْلِيَهُ
 وَقَالَ مَقْدَسُ بْنُ صِفَى يَرْثِيهِ :
 خَلِيلِي مَا أَتَتْكَ بِهِ الْخُطُوبُ
 تَدَلَّتْ مِنْ شَمَارِيخِ الْمَنَآيَا
 خِلَالَ مَقَابِرِ الْبُسْتَانِ قَبْرُ
 لَقَدْ عَظَمْتَ مُصِيبَتَهُ عَلَى مَنْ
 عَلَى أَمْثَالِهِ الْعِبَرَاتُ تُذَرَى
 وَمَا أَذْخَرْتَ زُبَيْدَهُ عَنْهُ دَمْعًا
 دَعَا مُوسَى ابْنَهُ لِيُكَايِدَ دَهْرًا
 رَأَيْتُ مَشَاهِدَ الْخُلَفَاءِ مِنْهُ
 لِيَهْنِكَ أَنْنِي كَهْلٌ عَلَيْهِ
 أَصِيبَ بِهِ الْبَعِيدُ فَخَرَّ حُزْنًا
 أَنْادَى مِنْ بَطُونِ الْأَرْضِ شَخْصًا
 لَنْ نَعْتَ الْحُرُوبُ إِلَيْهِ نَفْسًا

وَقَدْ غَمَرَتْهُمْ سُودُ الْبِحَارِ
 فَصَارُوا فِي الظَّلَامِ بِلَا نَهَارِ
 وَدَاسَتْهُمْ خُيُولُ بَنِي الشَّرَارِ
 إِذَا مَا تُوجُّوا تَيْجَانِ عَارِ
 لَقَدْ ضَرَمَا الْحَشَا مَنَابِنَارِ
 يَصِيرُ بِبَانِعِيهِ إِلَى صَغَارِ
 إِذَا قُطِعَ الْقَرَارُ مِنَ الْقَرَارِ

٩٤٦/٣

فَقَدْ أَعْطَتْكَ طَاعَتَهُ التَّحِيْبُ
 مَنَايَا مَا تَقُومُ لَهَا الْقُلُوبُ
 يُجَاوِرُ قَبْرَهُ أَسَدٌ غَرِيبُ
 لَهُ فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ نَصِيبُ
 وَتُهْتَكُ فِي مَاتِمِهِ الْجُيُوبُ
 تُخَصُّ بِهِ النَّسِيْبَةُ وَالنَّسِيبُ
 عَلَى مُوسَى ابْنِهِ دَخَلَ الْحَزِيبُ
 خَلَاءَ مَا بِسَاحَتِهَا مُجِيبُ
 أَذُوبُ ، وَفِي الْحَشَا كَيْدٌ تَذُوبُ
 وَعَايِنَ يَوْمَهُ فِيهِ الْمُرِيبُ
 يَحَرِّكُهُ النَّدَاءُ فَمَا يُجِيبُ
 لَقَدْ فُجِعَتْ بِمُضَرِّعِهِ الْحُرُوبُ

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخَيْرِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ عُنُصِرِ
لِوَارِثِ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَفَهْمِهِمْ^(١)
كَتَبْتُ وَعَيْنِي مُسْتَهْلٌ دُمُوعُهَا^(٢)
وَقَدْ مَسَّنِي ضَرٌّْ وَذُلٌّ كَأَبَةِ
وَهْمْتُ لَمَّا لَاقَيْتُ بَعْدَ مُصَابِهِ
سَأَشْكُو الَّذِي لَاقَيْتُهُ بَعْدَ فَقْدِهِ
وَأَرْجُو لَمَّا قَدْ مَرَّ بِي مُذْ فَقَدْتُهُ
أَتَى طَاهِرٌ لَا طَهَرَ اللَّهُ طَاهِرًا
فَأَخْرَجَنِي مَكْشُوفَةَ الْوَجْهِ حَاسِرًا
يَعِزُّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقَيْتُهُ
فَإِنْ كَانَ مَا أَسْدَى بِأَمْرِ أَمْرَتِهِ^(٣)
تَذَكَّرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قُرَابَتِي

وَأَفْضَلَ سَامٍ فَوْقَ أَعْوَادٍ مِنْبَرٍ^(٤)
وَلِلْمَلِكِ الْمَأْمُونِ مِنْ أُمِّ جَعْفَرٍ
إِلَيْكَ ابْنِ عَمِّي مِنْ جُفُونِي وَمَحْجَرِي
وَأَرْقَ عَيْنِي يَا بَنَ عَمِّي تَفَكَّرِي
فَأَمْرِي عَظِيمٌ مَنَكْرٌ جِدٌّ مَنَكْرٌ
إِلَيْكَ شَكَاةُ الْمُسْتَهَامِ الْمُقَهَّرِ^(٥)
فَأَنْتَ لِبَنِي خَيْرٍ رَبٌّ مَغِيرٍ
فَمَا طَاهِرٌ فِيمَا أَتَى بِمَطْهَرٍ
وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأَحْرَقَ آذْرِي^(٦)
وَمَا مَرَّ بِي مِنْ نَاقِصِ الْخَلْقِ أَعُورٍ^(٧)
صَبَرْتُ لِأَمْرِ مِنْ قَدِيرٍ مَقْدَرٍ
فَدَيْتِكَ مِنْ ذِي حُرْمَةٍ مَتَذَكَّرٍ

٩٤٧/٣

وقال أيضاً يرثيه :

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ الصَّمَدِ
وَمَا أُصِيبَ بِهِ الْإِسْلَامُ قَاطِبَةً
مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ
فَقَدْ أُصِيبَتْ بِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ فِي
يَالَيْلَةٍ يَشْتَكِي الْإِسْلَامُ مُدَّتَهَا

مَاذَا أَصَبْنَا بِهِ فِي صُبْحَةِ الْأَحَدِ
مِنَ التَّضْغُضِ فِي رَكْنَيْهِ وَالْأَوْدِ
يُصْبِحُ بِمَهْلِكَةٍ وَالْهَمُّ فِي صُعْدِ
عَقْلِي وَدِينِي وَفِي دُنْيَايَ وَالْجَسَدِ
وَالْعَالَمُونَ جَمِيعًا آخِرَ الْأَبَدِ

٩٤٨/٣

(١) المسعودي ٣ : ٤٢٤ ، وفيه : « وأفضل راق » .

(٢) المسعودي : « تستهل » .

(٣) المسعودي : « ووارث » .

(٤) ابن الأثير : « أذرى » .

(٥) ابن الأثير : « المستقيم المقتر » .

(٦) ابن الأثير : « ما أبدى لأثر » .

(٧) المسعودي : « وما نالني » .

غدرت بالملك اليمون طائره
سارت إليه المنايا وهي ترهبه
بشورجين وأغنام يقودهم
فصادقوه وحيداً لا معين له
فجرعوه المنايا غير ممتنع
يلقى الوجوه بوجه غير مبتذل
واحسرتا وقريش قد أحاط به
فما تحرك بل ما زال منتصباً
حتى إذا السيف وافي وسط مفرقة
وقام فاعتلقت كفاه لبتته
فاحتزته ثم أهوى فاستقل به
فكاد يقتله لو لم يكائره
هذا حديث أمير المؤمنين وما
لا زلت أندبه حتى الممات وإن

وبالأمام وبالضرامة الأسد
فواجهته بأوغاد ذوي عدد
قريش بالبيض في قمص من الزرد
عليهم غائب الأنصار بالمدد
فرداً فيالك من مستسلم فرد
أنهى وأنقى من القويبة الجد
والسيف مرتعد في كف مرتعد
منكس الرأس لم يبدى ولم يعد
أذرت عنه يده فعل متند
كضينهم شرس مستبسل لبدي
للأرض من كف ليث مخرج حرد
وقام منفلتاً منه ولم يكدي
نقصت من أمره حرفاً ولم أزد
أخنى عليه الذي أخنى على لبدي

وذكر عن الموصلي أنه قال : لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون بكى
ذو الرياستين ، وقال : صل علينا سيوف الناس وألستهم ؛ أمرناه أن يبعث
به أسيراً فبعث به عقيراً ! وقال له المأمون : قد مضى ما مضى فاحتل في
الاعتذار منه ؛ فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من
قرطاس فيه :

أما بعد ؛ فإن المخلوع كان قسم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، وقد
فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمه ، لمفارقه عصم الدين ، وخروجه من الأمر
الجامع للمسلمين ؛ يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح : ﴿ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ^(١) ، فلا طاعة لأحد في معصية

الله ، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله . وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ، وردّاه رداء نكثه ، وأحصد^(١) لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، وما ينتظر من صادق وعده حين ردّ به الألفة بعد فرقتها ، وجمع الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها .

* * *

ذكر الخبر عن بعض سير المخلوع محمد بن هارون

ذكر عن حميد بن سعيد ، قال : لما ملك محمد ، وكتبه المأمون ، وأعطاه بيعته ، طلب الخِصيان وابتاعهم ، وغالَى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ؛ وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرّابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمى بهنّ ؛ ففى ذلك يقول بعضهم :

٩٥١/٣

ألا يَا مُزْمِنَ المَثْوَى بِطُوسٍ^(٢) عَزِيباً مَا يُفَادَى بِالنَّفُوسِ

لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِلْخَصِيَّانِ بَعْلًا^(٣) تَحْمَلُ مِنْهُمْ شَوْمَ البُسُوسِ

فَأَمَّا نَوْفُلٌ فَالْشَّانُ فِيهِ وَفَى بَدْرِ ، فَيَا لَكَ مِنْ جَلِيسِ !

وَمَا الْعُصْمَى بِشَّارٍ لَدَيْهِ^(٤) إِذَا ذُكِرُوا بِذَى سَهْمٍ خَسِيسِ

وَمَا حَسَنُ الصَّغِيرِ أَخْسَ حَالًا لَدَيْهِ عِنْدَ مَخْتَرَقِ الْكَثُوسِ

لَهُمْ مِنْ عُمَرُ شَطْرٌ وَشَطْرٌ يُعَاقِرُ فِيهِ شَرِبَ الْخَنْدَرِيسِ

وَمَا لِلْغَانِيَاتِ لَدَيْهِ حِظٌّ سِوَى التَّقْطِيبِ بِالْوَجْهِ الْعَبُوسِ

إِذَا كَانَ الرَّئِيسُ كَذَا سَقِيمًا فَكَيْفَ صَلاَحُنَا بَعْدَ الرَّئِيسِ !

فَلَوْ عَلِمَ الْمُقِيمُ بَدَارِ طُوسٍ لَعَزَّ عَلَى الْمُقِيمِ بَدَارِ طُوسِ

قال حميد : ولما ملك محمد وجهه إلى جميع البلدان في طلب الملهين

وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فرّه الدواب ، وأخذ

(١) أحصد أمره : أحكه وقواه . (٢) ابن الأثير : « ألا أيها المثنوى » .

(٣) ابن الأثير : « هقلا » والهقل في الأصل : الفتى من النعام .

(٤) ابن الأثير : « وما للعصمى شيء لديه » .

الوحوش والسباع والطيّر وغير ذلك ؛ واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده ، واستخفّ بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل إليه ما كان في الرقّة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولطوه ولعبه بقصر الحُلند والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلّى ورقة كلّ واذى وباب الأنبار وبنواري^(١) والحبوب ؛ وأمر بعمل خمس حرّاقات في دجلة على خِلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً ، فقال أبو نواس يمدحه :

٩٥٢/٣

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا	لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ ^(٢)
فَإِذَا مَا رَكَبُهُ سِرْنٌ بَرًّا	سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثٌ غَابِ
أَسَدًا بِأَسْطَا ذِرَاعِيهِ يَهْوَى ^(٣)	أَهْرَتِ الشُّدُقِ كَالْحِ الْآتِيَابِ
لَا يِعَانِيهِ بِاللُّجَامِ وَلَا السَّوْ	طِ وَلَا غَمَزِ رَجُلِهِ فِي الرِّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صُؤ	رَقٍ لَيْثٍ تَمَرَّ مَرَّ السَّحَابِ ^(٤)
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سِرْتٍ عَلَيْهِ	كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتِ زَوْرٍ وَمِنْسَرٍ وَجَنَاحِ	بَيْنَ تَشَقُّقِ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا	تَعَجَّلُوهَا بِجَيْئَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا	هُ وَأَبْقَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ ^(٥)
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ	هَاشِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

٩٥٣/٣

وذكر عن الحسين بن الضحّاك ، قال : ابنتي الأمير سفينة عظيمة ، أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، واتخذ أخرى على خلقة شيء يكون في البحر يقال له الدُّكْفَيْنِ^(٦) ، فقال في ذلك أبو نواس الحسن بن هاني :

(١) في ط من غير نقط ؛ وانظر الفهرس .

(٢) ديوانه ١١٦ .

(٣) الديوان : « يمدو » .

(٤) الديوان : « يمر » .

(٥) الديوان : « بارك الله للأمين » .

(٦) في القاموس : « الدلفين ، بالضم : دابة بحرية تنجى الفريق » .

قد ركب الدُّلَفينَ بَدْرُ الدجى مقتحماً في الماءَ قَدْ لَجَجَا^(١)
فَأَشْرَقَتْ دِجْلَةٌ فِي حُسْنِهِ وَأَشْرَقَ الشَّطَّانُ وَاسْتَبْهَجَا^(٢)
لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ مَرْكَباً أَحْسَنَ إِنْ سَارَ وَإِنْ أَحْنَجَا
إِذَا اسْتَحْشَنَتْهُ مَجَادِيْفُهُ أَعْنَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَجَا^(٣)
خَصَّ بِهِ اللَّهُ الْأَمِينَ الَّذِي أَضْحَى بِنَاجِ الْمَلِكِ قَدْ تَوَجَّجَا

وذكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما المغنّي الكُرُفِي أنه قال : كان العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر من رجالات بني هاشم جَانِدًا وعقلاً وصنيعاً ؛ وكان يتخذ الخَدَمَ ، وكان له خادم من آثار خَدَمِهِ عنده يقال له منصور ، فوجد الخادم عليه ، فهرب إلى محمد ، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار ، فقبله محمد أحسن قبول ، وحظي عنده حُظْوَةً عجيبة . قال : فركب الخادم يوماً في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السِّيَافَة ، فرَّ باباب العباس بن عبد الله ؛ يريد بذلك أن يُرَى خدَم العباس هيئته وحاله التي هو عليها . وبلغ ذلك الخبر العباس ، فخرج محضراً^(٤) في قميص حاسراً ، في يده عمود عليه كَيْمُصُخْت ، فلحقه في سويقة أبي الورد ، فعلق بلبجامة ، ونازعه أولئك الخدم ، فجعل لا يضرب أحداً منهم إلا أَوْهَنَهُ ، حتى تفرقوا عنه ، وجاء به يقوده حتى أدخله داره . وبلغ الخبرُ محمدًا ، فبعث إلى داره جماعةً ، فوقفوا حيالها^(٥) ، وصف العباس غلमानه ومواليه على سور داره ، ومعهم التُّرْسَة والسهم ، فقام أحمد بن إسحاق : فعفنا والله النار أن تحرق منازلنا ؛ وذلك أنهم أرادوا أن يحرقوا دار العباس . قال : وجاء رشيد الهاروني ، فاستأذن عليه فدخل إليه ، فقال : ما تصنع ! أتدري ما أنت فيه وما قد جاءك ! لو أذن لهم لا قتلوا دارك بالأسنة ، أَلَسْتَ في الطاعة ! قال : بلى ، قال : فقم فاركب . قال : فخرج في سَوَادِهِ ، فلما صار على باب داره ، قال : يا غلام ؛ هلم دابتي

٩٥٤/٢

(٢) ط : « السكان » ، والصواب ما أثبت من الديوان .

(١) ديوانه ١١٧ .

(٤) محضراً ، أى مسرعاً .

(٣) الديوان : « عرجا » .

(٥) ط : « أحيالها » .

فقال رشيد : لا ولا كرامة ! ولكن تمضي راجلاً . قال : ففضي ، فلما صار إلى الشارع نظر ؛ فإذا العالمون قد جاءوا ، وجاءه الجلودى والإفريقى وأبو البط وأصحاب الهرش . قال : فجعل ينظر إليهم ، وأنا أراه راجلاً ورشيد راكب . قال : وبلغ أم جعفر الخبر ، فدخلت على محمد ، وجعلت تطلب إلى محمد ، فقال لها : نُفِيتُ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم أقتله ! وجعلت تلح عليه ، فقال لها : والله إنى لأظننى سأسطو بك . قال : فكشفت شعرها ، وقالت : ومن يدخل على وأنا حاسر ! قال : فبينما محمد كذلك — ولم يأت العباس بعد — إذ قدم صاعد الخادم عليه بقتل على بن عيسى بن ماهان ، فاشتغل بذلك ، وأقام العباس في الدّاهليز عشرة أيام ، ونسيه ثم ذكره ، فقال : يُجَبَسُ في حُجْرَةٍ من حُجَرِ داره ، ويدخل عليه ثلاثة رجال من مواليه من مشايخهم يَخْذُمونه ، ويُجْعَلُ له وظيفة في كل يوم ثلاثة ألوان . قال : فلم يزل على هذه الحال حتى خرج حسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، ودعا إلى المأمون ، وحبس محمد . قال : فمرّ إسحاق بن عيسى بن علي ومحمد بن محمد المعبديّ بالعباس بن عبد الله وهو في منظره ، فقالا له : ما قعودك ؟ أخرج إلى هذا الرجل — يعنيان حسين بن علي — قال : فخرج فأقَى حسينا ، ثم وقف عند باب الجسر ؛ فما ترك لأُم جعفر شيئاً من الشّم إلا قاله ، وإسحاق بن موسى يأخذ البيعة للمأمون . قال : ثم لم يكن إلّا يسيراً حتى قتل الحسين ، وهرب العباس إلى نهر بين إلى هَرْتَمَة ، ومضى ابنه الفضل بن العباس إلى محمد ، فسعى إليه بما كان لأبيه ، ووجهه محمد إلى منزله ، فأخذ منه أربعة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف دينار ، وكانت في قماقم في بئر ، وأُتِسُوا قَمَقِمِينَ من تلك القماقم ، فقال : ما بقى من ميراث أبي سوى هذين القمقمين ، وفيهما سبعون ألف دينار . فلما انقضت الفتنة وقُتِلَ محمد رجع إلى منزله فأخذ القمقمين وجعلهما ... (١)

وحجّ في تلك السنة ، وهي سنة ثمان وتسعين ومائة .

٩٥٦/٣

قال أحمد بن إسحاق : وكان العباس بن عبد الله يحدث بعد ذلك ؛

فيقول: قال لي سليمان بن جعفر ونحن في دار المأمون: أمّا قتل ابنك بعد؟
فقلت: يا عمّ، جعلت فداك! ومن يقتل ابنه! فقال لي: اقتهله؛ فهو الذي
سعى بك وبمالك فأفقرك.

وذكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما، قال: لما حُصِرَ محمد وضغطة
الأمر، قال: ويحكم! ما أحد يستراح إليه! فقيل له: بلى، رجل من
العرب من أهل الكوفة، يقال له وضاح بن حبيب بن بديل التميمي؛ وهو
بقية من بقايا العرب، وذورأى أصيل، قال: فأرسلوا إليه، قال: فقدّم
علينا، فلمّا صار إليه قال له: إني قد خُبرت بمذهبك ورأيك، فأشّر علينا
في أمرنا، قال له: يا أمير المؤمنين، قد بطل الرأي اليوم وذهب؛ ولكن
استعمل الأراجيف؛ فإنها من آلة الحرب؛ فنصب رجلا كان ينزل دُجيلا يقال
له بكير بن المعتمر؛ فكان إذا نزلت بمحمد نازلة وحادثة هزيمة قال له:
هات؛ فقد جاءنا نازلة، فيضع له الأخبار، فإذا مشى الناس تبيّنوا بطلانها.
قال أحمد بن إسحاق: كأنني أنظر إلى بكير بن المعتمر شيخ عظيم الخلق.

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان الكاتب، قال: حدثنا إبراهيم بن
الجراح، قال: حدثني كوثر، قال: أمر محمد بن زُبَيْدَة يوماً أن يفرش له
على دكان في الخُلْد، فبسط له عليه بساط زَرَعَى، وطُرح عليه نمارق
وفُرَش مثله، وهبّي له من آنية الفضة والذهب والجواهر أمر عظيم، وأمر قيّمة
جواريه أن تهبّي له مائة جارية صانعة، فتصعد إليه عشراً، بأيديهنّ
العيدان يغنين بصوت واحد؛ فأصعدت إليه عشراً، فلما استوين على الدكان
اندفعن فغنين:

٩٥٧/٣

هُم قَتَلُوهُ كَي يَكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا غَدَرَتْ يَوْمًا بِكِسْرَى مَرَاذِبُهُ^(١)

قال: فتأفف من هذا، ولعنها ولعن الجوارى، فأمر بهنّ فأنزلن، ثم لبث
هنيهة وأمرها أن تصعد عشراً، فلما استوين على الدكان اندفعن فغنين:

(١) من أبيات الوليد بن عقبة، يخاطب بها بني هاشم حين قتل عثمان. الكامل ٣: ٢٨.

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَّاتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ^(١)
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَلْطُمْنَ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَشْحَارِ
قال : فضجِرَ وفعل مثل فعلته الأولى ، وأطرق طويلا ، ثم قال :
أصعدي عشرين ، فأصعدتهن ، فلما وقفن على الدكان ، اندفعن يغنيين بصوت
واحد :

كَلَيْبُ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ ذَنْبًا مِنْكَ ضُرَّجَ بِالْدَّمِ^(٢)
قال : فقام من مجلسه ، وأمر بهدم ذلك المكان تطهيراً مما كان .

وذُكر عن محمد بن عبد الرحمن الكندي ، قال : حدثني محمد بن دينار ،
قال : كان محمد المخلوع قاعداً يوماً ، وقد اشتد عليه الحصار ، فاشتد
اعتمامه ، وضاق صدره ؛ فدعا بندمائه والشراب ليتسلى به ، فأتى به ، وكانت
له جارية يتحفظها من جواربه ، فأمرها أن تغني ، وتناول كأساً ليشربه ؛
فحبس الله لسانها عن كل شيء ، فغنت :

كَلَيْبُ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ ذَنْبًا مِنْكَ ضُرَّجَ بِالْدَّمِ
فرماها بالكأس الذي في يده ، وأمر بها فطُرحت للأسد ، ثم تناول
كأساً أخرى ، ودعا بأخرى فغنت :
هُمْ قَتَلُوهُ كَيْ يَكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا غَدَرَتْ يَوْمًا بِكِسْرَى مَرَاذِيهِ
فرمى وجهها بالكأس ، ثم تناول كأساً أخرى ليشربها ، وقال لأخرى :
غَنِّي ، فغنت :

* قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمِّمِ أَخِي^(٣) *

(١) للربيع بن زياد ، ديوان الحماسة ٢ بشرح التبريزي ٣ : ٣٧ .

(٢) للناطقة الجعدي ، ديوانه ١٤٣ . (٣) بقيته :

* فَإِذَا رَمَيْتُ يُصَيِّنِي سَهْمِي *

س أبيات للحارث بن ولة الذهلي . ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١ : ١٩٩ .

قال : فرى وجهها بالكأس ، ورى الصنيّة برجله ، وعاد إلى ما كان فيه من همّة ، وقتل بعد ذلك بأيام يسيرة .

وذكر عن أبي سعيد أنه قال : ماتت فطيم - وهى أم موسى بن محمد بن هارون الخلع - فجزع عليها جزعاً شديداً ، وبلغ أم جعفر ، فقالت : احملوني إلى أمير المؤمنين ، قال : فحماتُ إليه ، فاستقبلها ، فقال : يا سيّدى ، ماتت فطيم ، فقالت :

نَفْسِي فداؤُكَ لا يذهبُ بك اللَّهْفُ فَنِي بِقائِكَ مِمَّنْ قَدْ مَضَى خَلْفُ^(١)
عَوَّضْتَ مُوسَى فَهانتُ كُلُّ مَرْزُوقَةٍ ما بَعْدَ مُوسَى عَلَى مَفْقُودَةٍ أَسْفُ

وقالت : أعظم الله أجرك ، ووفر صبرك ، وجعل العزاء عنها ذخرك !

وذكر عن إبراهيم بن إسماعيل بن هاني ، ابن أخي أبي نواس ، قال : حدثني أبي قال : هجا عمك أبو نواس مُضَرَّ في قصيدته التي يقول فيها : ٩٥٩/٣

أَمَّا قَرِيشٌ فَلَا افْتِخَارَ لَهَا إِلَّا التَّجَارَاتُ مِنْ مَكَّاسِيهَا^(٢)
وَأَنَّهَا إِنْ ذَكَرْتَ مَكْرُمَةً جَاءَتْ قَرِيشٌ تَسْعَى بِغَالِيهَا
إِنَّ قُرَيْشًا إِذَا هِيَ انْتَسَبَتْ كَانَ لَهَا الشُّطْرُ مِنْ مَنَاسِبِهَا

قال : يريد أن أكرمها يُغالب . قال : فبلغ ذلك الرّشيد في حياته ، فأمر بحبسه ؛ فلم يزل محبوساً حتى ولى محمد ، فقال يمدحه ، وكان انقطاعه إليه أيام إمارته ، فقال :

تَذَكَّرْ أَمِينَ اللَّهِ وَالْعَهْدُ يُدَكَّرُ مُقَامِي وَإِنْشَادِيكَ وَالنَّاسُ حُضَّرُ^(٣)
وَنَشْرِي عَلَيْكَ الدَّرَّ يَادِرْ هَاشِمٍ فَيَا مَنْ رَأَى دُرّاً عَلَى الدَّرِّ يُنْشَرُ!
أَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكِ الْأَرْضَ مِثْلُهُ وَعَمَّكَ مُوسَى عَدْلُهُ الْمُتَخَيَّرُ
وَجَدَّكَ مَهْدَى الْهَدَى وَشَقِيقَهُ أَبُو أَمَلِكِ الْأَذَى أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ

(١) المسعودي ٣ : ٤٠٢ ، وفيه : « بما قد مضى » .

(٢) ديوانه ١٠٦ .

(٣) ديوانه ١٥٧ .

وما مثل منصوريك: منصور هاشم ومنصور قحطان إذا عُدَّ مفخر
فمن ذا الذي يرمى بسهميك في العلا وعبد مناف والدك وحمير

قال : فتغنت بهذه الأبيات جارية بين يدي محمد ، فقال لها : لمن
الأبيات ؟ فقيل له : لأبي نواس ، فقال : وما فعل ؟ فقيل له : محبوس ،
فقال : ليس عليه بأس . قال : فبعث إليه إسحاق بن فِرَاشة وسعيد بن جابر
أخا محمد من الرضاة ، فقالا : إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال :
ليس عليه بأس ، فقال أبياتاً ، وبعث بها إليه ، وهي هذه الأبيات :

أرقتُ وطارَ عَنْ عَيْنِي النُّعَاسُ وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يَوَاسُوا^(١)
أَمِينَ اللَّهِ قَدْ مُلِّكَتْ مُلْكًا عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِبَاسُ^(٢)
ووجهك يستهلُّ نَدَى فَيَحْيَا به في كلِّ ناحية أناسُ
كَأَنَّ الخلقَ في تمثالِ رُوحٍ لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَأْسُ
أَمِينَ اللَّهِ إِنَّ السَّجْنَ بِأَسْ وَقَدْ أَرْسَلْتَ : ليس عليك بأسُ

فلما أشده قال : صدق ، على به ، فجىء به في الليل ، فكسرت
قيوده ؛ وأخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول :

مَرْحَباً مَرْحَباً بِخَيْرِ إِمَامٍ صِغَ مِنْ جَوْهَرِ الْخِلَافَةِ نَحْتًا^(٣)
يَا أَمِينَ الْإِلَهِ يَكْلُوكَ الِلا هُ مُقِيمًا وَظَاعِنًا حَيْثُ سِرْنَا
إِنَّمَا الْأَرْضُ كُلُّهَا لَكَ دَارُ فَلَكَ اللَّهُ صَاحِبُ حَيْثُ كُنْنَا^(٤)

(١) ديوانه ١٠٧ .

(٢) بعده في الديوان :

تُسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ صُنْعٍ وَأَنْتَ بِهِ تُسُوسُ كَمَا تُسَاسُ

(٣) ديوانه ١١٤ ، وفيه : « بحتا » .

(٤) الديوان : « صاحب » ، وذكر بعده :

يَا شَبِيهَ الْمَهْدِيِّ جُودًا وَبَذَلًا وَشَبِيهَ الْمَنْصُورِ هَدِيًّا وَسَمْتًا

قال : فخلع عليه ، وخلص سبيله ، وجعله في ندمائه .

وذكر عن عبد الله بن عمرو التميمي ، قال : حدثني أحمد بن إبراهيم الفارسي ، قال : شرب أبو نواس الخمر ، فرفع ذلك إلى محمد في أيامه ، فأمر بحبسه ، فحبسه الفضل بن الربيع ثلاثة أشهر ، ثم ذكره محمد ، فدعا به وعنده بنو هاشم وغيرهم ، ودعا له بالسيف والنطع يهدده بالقتل ، فأنشده أبو نواس هذه الأبيات :

تَذَكَّرْ أَمِينَ اللَّهِ وَالْعَهْدُ يُذَكَّرُ *

الشعر الذي ذكرناه قبل ، وزاد فيه :

تَحَسَّنَتِ الدُّنْيَا بِحُسْنِ خَلِيفَةٍ هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ مُقْمِرُ
إِمَامٌ يَسُوسُ النَّاسَ سَبْعِينَ حِجَّةً عَلَيْهِ لَهُ مِنْهَا لِبَاسٌ وَمِثْرُ
يُشِيرُ إِلَيْهِ الْجُودُ مِنْ وَجَنَاتِهِ وَيَنْظُرُ مِنْ أَعْطَافِهِ حِينَ يَنْظُرُ
أَيَا خَيْرِ مَأْمُولٍ يَرْجَى ، أَنَا امْرُؤُ رَهِينٌ أَسِيرٌ فِي سُجُونِكَ مُقْفِرُ
مَضَى أَشْهُرٌ لِي مُذْ حَبِسْتُ ثَلَاثَةً كَأَنِّي قَدْ أَذْنِبْتُ مَا لَيْسَ يُغْفَرُ
فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَذْنِبْ فَفِيمَ تَعَقُّبِي ! وَإِنْ كُنْتُ ذَا ذَنْبٍ فَعَفْوُكَ أَكْثَرُ

قال : فقال له محمد : فإن شربتها؟ قال : دمي لك حلال يا أمير المؤمنين ، فأطلقه . قال : فكان أبو نواس يشمها ولا يشربها وهو قوله :

* لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيَا *

وذكر عن مسعود بن عيسى العبدى ، قال : أخبرني يحيى بن المسافر القسري ، قال : أخبرني دحيثم غلام أبي نواس ؛ أن أبا نواس عتب عليه محمد في شرب الخمر ، فطبق به — وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ويتفقدهم — ودخل في حبس الزنادقة ، فرأى فيه أبا نواس — ولم يكن يعرفه — فقال له : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال : معاذ الله ، قال : فلعلك ممن يعبد الكباش ! قال : أنا آكل الكبش بصوفه ،

قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إني لأتجنب القعود فيها بغضاً لها ،
 قال : فبأي جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ، قال : ليس
 إلا هذا ؟ قال : والله لقد صدقتك . قال : فجاء إلى الفضل ، فقال له :
 يا هذا ، لاتحسنون جوار نعم الله عز وجل ! أيُحبسُ الناس بالتهمة !
 قال : وما ذاك ؟ فأخبره بما ادّعى من جُرمه ، فتبسّم الفضل ، ودخل على
 محمد ، فأخبره بذلك ، فدعا به ، وتقدّم إليه أن يحتبب الخمر والسكر ، قال :
 نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم ، قال : فأخرج ، فبعث إليه فتيان من قریش
 فقال لهم : إني لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فأنيسنا بحديثك ، فأجاب ،
 فلما دارت الكأس بينهم ، قالوا : ألم ترّح لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ،
 وأنشأ يقول :

٩٦٣/٣

أيُّها الرائيحان باللوم لوماً لا أذوق المدام إلا شميماً^(١)
 نالني بالملام فيها إمام لا أرى في خلافه مستقيماً^(٢)
 فاصْرِفَاها إلى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمَا
 إِنَّ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ^(٣) أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا
 فَكَأَنِّي وَمَا أَحْسَنُ مِنْهَا قَعْدِي يُزِينُ التَّحَكِيمَا
 كُلَّ عَنْ حَمَلَةِ السَّلَاحِ إِلَى الْحَرِّ^(٤) بِ فَاَوْصِي الْمَطِيقَ أَلَا يُقِيمَا

وذكر عن أبي الورد السبّعي أنه قال : كنت عند الفضل بن سهل
 بخراسان ، فذكر الأمين ، فقال : كيف لا يُستسحل قتال محمد وشاعره
 يقول في مجاسه :

أَلَا سَقِّنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سُرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ^(٥)
 قال : فبلغت القصّة محمدًا ، فأمر الفضل بن الربيع فأخذ أبا نواس
 فحبسه .

(٢) الديوان : « لا أرى لي » .

(٤) الديوان : « عن حمله » .

(١) ديوانه ٣٢٥ .

(٣) الديوان : « كبر حظي » .

(٥) ديوانه ٢٧٣ .

وذكر كامل بن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته ، قال :
كان أبو نواس قال أبياتاً بلغت الأمين في آخرها :

وقد زَادَنِي تَيْهًا عَلَى النَّاسِ أَنَّنِي أَرَانِي أَغْنَاهُمْ إِذَا كُنْتُ ذَا عُسْرِ^(١)
وَلَوْ لَمْ أَنْلُ فَخْرًا لَكَانَتْ صَيَانَتِي^(٢) فَمِنِّي عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي مِنَ الْفَخْرِ^(٣)
وَلَا يَطْمَعَنَّ فِي ذَاكَ مِنِّي طَامِعٌ وَلَا صَاحِبُ النَّجَاحِ الْمُحْجَبُ فِي الْقَصْرِ

قال : فبعث إليه الأمين - وعنده سليمان بن أبي جعفر - فلما دخل عليه ،
قال : يا عاضنَ بَطْظَرِ أُمِّهِ الْعَاهِرَةِ ! يابن اللخناء - وشتمه أقبح الشتم - أنت
تكسب بشعرك أوساخ أيدي اللثام ، ثم تقول :

• وَلَا صَاحِبُ النَّجَاحِ الْمُحْجَبُ فِي الْقَصْرِ •

أما والله لآنلتَ مِنِّي شيئًا أبدًا . فقال له سليمان بن أبي جعفر : والله
يا أمير المؤمنين ، وهو من كبار الثنوية ، فقال محمد : هل يشهد عليه بذلك شاهد ؟
فاستشهد سليمان جماعة ، فشهد بعضهم أنه شرب في يوم مطير ، ووضع
قَدَحَهُ تَحْتَ السَّمَاءِ ، فوقع فيه القطر ، وقال : يزعمون أنه يتزل مع كل
قطرة مَلَك ، فكم ترى أني أشرب الساعة من الملائكة ! ثم شرب ما في القَدَحِ ،
فأمر محمد بحبسه ، فقال أبو نواس في ذلك :

يَا رَبَّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَلَمُونِي وَبِلَا اقْتِرَافٍ تَعَطَّلَ حَبْسُونِي
وإِلَى الْجُحُودِ بِمَا عَرَفْتَ خِلَافَهُ مِنِّي إِلَيْهِ بِكَيْدِهِمْ نَسَبُونِي
مَا كَانَ إِلَّا الْجَرِيُّ فِي مَيْدَانِهِمْ فِي كُلِّ جَرِيٍّ وَالْمَخَافَةُ دِينِي
لَا الْعَذْرُ يُقْبَلُ لِي فَيَفْرِقَ شَاهِدِي مِنْهُمْ وَلَا يَرْضَوْنَ حَلْفَ يَمِينِي
وَلَكِنْ كَوَثُرُ كَانَ أَوْلَى مَحْبَسًا فِي دَارِ مَنْقَصَةٍ وَمَنْزِلَ هُونٍ
أَمَّا الْأَمِينُ فَلَسْتُ أَرْجُو دَفْعَهُ عَنِّي ، فَمَنْ لِي الْيَوْمَ بِالْمَأْمُونِ !

(١) ديوانه ١٤٧ وفيه : « وإن كنت ذا فقر » . (٢) الديوان : « ولم لم أرث » .

(٣) الديوان : سؤال الناس » .

قال : وبلغت المأمونَ أبياته ، فقال : والله لئن لحقته لأغنييه غنى لا يؤمّله ،
قال : فأت قبل دخول المأمون مدينة السلام .

قال : ولما طال حبسُ أبي نواس ، قال في حبسه - فيما ذكر - عن دِعامه :

إِحْمَدُوا اللَّهَ جَمِيعاً يَا جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ
ثُمَّ قُولُوا لَا تَمَلُّوا رَبَّنَا أَبْنَى الْأَمِينَا
صَيَّرَ الْخَصِيَّانَ حَتَّى صَيَّرَ التَّغْنِينَ دِينَا
فَاقْتَدَى النَّاسُ جَمِيعاً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

قال : وبلغت هذه الأبيات أيضاً المأمون وهو بخراسان ، فقال : إنني
لأتوكّفه أن يهرب إليّ .

وذكر يعقوب بن إسحاق ، عمّن حدّثه ، عن كوثر خادم المخلوع ، أن محمداً
أرق ذات ليلة ، وهو في حرّبه مع طاهر ، فطلب منّ يسامره فلم يقرب
إليه أحد من حاشيته ، فدعا حاجبه ، فقال : ويلك ! قد خطرت بقلبي خطرات
فأحضرنى شاعراً ظريفاً أقطع به بقيّة ليلتي ، فخرج الحاجب ، فاعتمد
أقرب منّ بحضرته ، فوجد أبا نواس ، فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال
له : لعلك أردت غيري ! قال : لم أرد أحداً سواك . فأتاه به ، فقال : منّ
أنت ؟ قال : خادمك الحسن بن هاني ، وطليقك بالأمس ، قال : لا تُسرّع ؛
إنه عرضت بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر ، فإن فعلت ذلك أجزت
حكّمك فيما تطلب ، فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولهم : عفا الله
عما سلف ، وبئس والله ما جرّى فرسي ، واكسرى عوداً على أنفك ،
وتمنّعي أشهى لك . قال : فقال أبو نواس . حكّمى أربع وصائف مقدودات ،
فأمر بإحضارهنّ ، فقال :

فَقَدْتُ طَوْلَ اعْتِلَالِكَ وَمَا أَرَى فِي مِطَالِكَ
لَقَدْ أَرَدْتُ جَفَائِي وَقَدْ أَرَدْتُ وَصَالِكَ

ما ذا أردت بهذا ! تمنّى أشهى لك

وأخذ بيد وصيفة فعزلها ، ثم قال :

قد صحت الإيمان من حلفك وصحت حتى مت من خلفك
بالله يا ستى احثى مرة ثم اكسرى عوداً على أنفك

ثم عزل الثانية ، ثم قال :

فديتُك ماذا الصلف وشتمك أهل الشرف !
صلي عاشقاً مدنفاً قد اعتب مما اقترف
ولا تذكرى ما مضى عفا الله عما سلف

٩٦٧/٣

ثم عزل الثالثة ، وقال :

وباعثات إلى فى الغلس أن ائتنا واحترس من العسس
حتى إذا نوم العداة ولم أخش رقيباً ولا سناً قبس
ركبت مهرى وقد طربت إلى حور حسان نواعم لئس
فجئت والصبح قد نهضت له فبئس والله ما جرى فرسى

فقال : خذهن لا بارك الله لك فيهن !

وذكر عن الموصلى ، عن حسين خادم الرشيد ، قال : لما صارت الخلافة إلى محمد هتّى له منزل من منازل على الشط ، بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : يا سيدى ؛ لم يكن لأبيك فرش يباهى به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا ؛ فأحببت أن أفرشه لك ، قال : فأحببت أن يفرش لى فى أول خلافتى المردراج ، وقال : مزقوه ، قال : فرأيت والله الخدم والفراشين قد صيروه ممزقاً وفرقوه .

وذكر عن محمد بن الحسن ، قال : حدثني أحمد بن محمد البرمكى أن إبراهيم بن المهدي غنى محمد بن زبيدة :

هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْقَبِيلَ وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرٌ^(١)
فطرب محمد ، وقال : أوقروا زورقه ذهبًا .

وذكر عن عليّ بن محمد بن إسماعيل ، عن مخارق ، قال : إني لعند
محمد بن زُبَيْدَة يومًا ماطرًا ، وهو مصطبج ، وأنا جالس بالقرب منه ، وأنا
أغنى وليس معه أحد ، وعليه جبّة وشئ ؛ لا والله مارأيت أحسن منها . فأقبلت
أنظر إليها ، فقال : كأنك استحسنتها يا مخارق ! قلت : نعم يا سيدي ؛ عليك
لأنّ وجهك حسن فيها ، فأنا أنظر إليه وأعوذك . قال : يا غلام ، فأجابه
الخادم ، قال : فدعا بجبّة غير تلك ، فلبسها وخلع التي عليه عليّ ، ومكثت
هنيهة ثم نظرت إليه ، فعاودني بمثل ذلك الكلام ، وعاودته ، فدعا بأخرى حتى
فعل ذلك بثلاث جِبابَ ظاهرتُ بينها . قال : فلما رآها عليّ ندم وتغيّر
وجهه ، وقال : يا غلام ، اذهب إلى الطباخين فقل لهم : يطبخوا لنا مصلية ،
ويجيدوا صنعتها ، وأتني بها الساعة ، فما هو إلا أن ذهب الغلام حتى جاء
الحِوان ، وهو لطيف صغير ، في وسطه غصّارة ضخمّة ورغيفان ، فوضعت بين
يديه ، فكسر لقمة فأهوى بها إلى الصحيفة ، ثم قال : كُلْ يا مخارق ،
قلت : يا سيدي ، أعفني من الأكل ، قال : لست أعفيك فكلْ ،
فكسرت لقمة ، ثم تناولت شيئًا ، فلما وضعته في فمي ، قال : لعنك الله !
ما أشرهك ! نغصصتها عليّ وأفسدتها ، وأدخلت يدك فيها ؛ ثم رفع الغصّارة
بيده ، فإذا هي في حجرى ، وقال : قم لعنك الله ! فقممت ، وذاك الودك
والمرق يسيل من الجباب ، فخلعتها وأرسلت بها إلى منزلى ، ودعوت القصّارين
والوشّائين ، فجهدت جهدى أن تعود كما كانت فما عادت .

وذكر عن البحرى أبى عبادة ، عن عبيد الله بن أبى غسان ، قال : كنت
عند محمد في يوم شاتٍ شديد البرد ؛ وهو في مجلس له مفرد مفروش بفرش ؛
قلما رأيت أرفع قيمةً مثله ولا أحسن ، وأنا في ذلك اليوم طاوٍ ثلاثة أيام
ولياليهنّ إلاّ من النبذ ؛ والله لا أستطيع أن أتكلّم ولا أعقل ، فنهض نهضة

(١) لأبى صخر الهذلى ، آمال القالى ١ : ١٥٠ .

البول، فقلت لخادم من خدم الخاصة : ويلك ! قد والله مت ، فهل من حيلة إلى شيء تلقيه في جوفي يبرد عني ما أنا فيه ! فقال : دعني حتى أحتال لك وأنظر ما أقول ، وصدق مقالتي ، فلما رجع محمد وجلس نظر الخادم إلى نظرة ، فتبسم ، فرآه محمد ، فقال : مم تبسمت ؟ قال : لا شيء يا سيدي ، فغضب . قال البحرى : فقال : شيء في عبيد الله بن أبي غسان ؛ لا يستطيع أن يشم رائحة البطيخ ولا يأكله ، ويجزع منه جزعاً شديداً . فقال : يا عبيد الله هذا فيك ؟ قال : قلت : إى والله يا سيدي ، ابتليت به ، قال : ويحك ! مع طيب البطيخ وطيب ريحه ! قال : فقلت : أنا كذا ، قال : فتعجب ثم قال : على ببطيخ ؛ فأتيت منه بعدة ، فلما رأيته أظهرت القشعريرة منه ، وتنخيت . قال : خذوه ، وضعوا البطيخ بين يديه ، قال : فأقبلت أريه الجزع والاضطراب من ذلك ، وهو يضحك ، ثم قال : كُئِلْ واحدة ، قال : فقلت : يا سيدي ، تقتلني وترى بكل شيء في جوفي وتهتج على العلل ، الله الله في ! قال : كل بطيخة ولك فرش هذا البيت ؛ على عهد الله بذلك وميثاقه ، قلت : ما أصنع بفرش بيت ، وأنا أموت إن أكلت ! قال : فتأبيت ، وألح علي ، وجاء الخادم بالسكاكين فقطعوا بطيخة ، فجعلوا يحشونها في فمي ، وأنا أصرخ وأضطرب ؛ وأنا مع ذلك أبلغ ، وأنا أريه أني بكره أفعّل ذلك وألطم رأسي ، وأصبح وهو يضحك ، فلما فرغت تحول إلى بيت آخر ، ودعا الفرّاشين ، فحملوا فرش ذلك البيت إلى منزلي ، ثم عاودني في فرش ذلك البيت في بطيخة أخرى ، ثم فعل كفعله الأول ، وأعطاني فرش البيت ؛ حتى أعطاني فرش ثلاثة أبيات ؛ وأطعمني ثلاث بطيخات ، قال : وحسنت والله حالي ، واشتد ظهري .

٩٧٠/٣

قال : وكان منصور بن المهدي يريه أنه ينصح له ، فجاء وقد قام محمد يتوضأ ، وعلمت أن محمداً سيعقبني بشرّ ندامة على ما خرج من يديه ؛ فأقبل على منصور ومحمد غائب عن المجلس ، وقد بلغه الخبر ، فقال : يا ابن الفاعلة ، تخدع أمير المؤمنين ، فتأخذ متاعه ! والله لقد هممتُ أفعل وأفعل ، فقلت : يا سيدي ، قد كان ذاك ؛ وكان السبب فيه كذا وكذا ، فإن أحببت أن

تقتلني فتأتّم فشأنك ، وإن تفضّلت فأهلٌ لذلك أنت ، ولستُ أعود . قال :
 فإني أتفضّل عليك . قال : وجاء محمد ، فقال : افرشوا لنا على تلك البركة ،
 وفرشوا له عليها ، فجلس وجلسنا وهي مملوءة ماء ، فقال : يا عمّ ، اشتبهتُ
 أن أصنع شيئاً ؛ أرمي بعبيد الله إلى البركة وتضحك منه . قال : يا سيدي
 إن فعلتَ هذا قتلتَه لشدة برد الماء وبرد يومنا هذا ؛ ولكني أدلك على شيء
 خيرتُ به ، طيب ، قال : ما هو ؟ قال : تأمر به يُشدّ في تخت ، ويُطرح
 على باب المتوضأ ، ولا يأتي باب المتوضأ أحد إلا بال على رأسه . فقال : طيب
 والله ؛ ثم أتى بتخت فأمر فشُدّت فيه ، ثم أمر فحمّلت وألقيت على باب
 المتوضأ ، وجاء الخدم فأرخوا الرباط ^(١) عني ، وأقبلوا يرونه أنهم يبولون على
 وأنا أصرخ ، فكث بذلك ما شاء الله وهو يضحك . ثم أمر بي فحمّلت وأريته
 أني تنظّفت وأبدلت ثيابي وجاوزت عليه .

٩٧١/٣

وذكر عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع عن أبيه - وكان
 حاجب الخلع - قال : كنت قائماً على رأسه ، فأتى بغداء فتغذّى وحده ،
 وأكل أكلاً عجيباً ، وكان يوماً يعدّ للخلفاء قبله على هيئة ما كان يُهيأ لكل
 واحد منهم يأكل من كل طعام ، ثم يؤتّى بطعامه . قال : فأكل حتى فرغ
 ثم رفع رأسه إلى أبي العنبر - خادم كان لأمه - فقال : اذهب إلى المطبخ ،
 فقل لهم يهيئون لي بزماً ورد ، ويتركونه طوالاً لا يقطّعون ، ويكون حشوه
 شحوم الدجاج والسمن والبقل والبيض والجبن والزيتون والجوز ، ويكثر
 منه ويعجلونه ؛ فما مكث إلا يسيراً حتى جاءوا به في خوان مربع ، وقد جعل
 عليه البزماورد الطوال ، على هيئة القبة العبدصمديّة ، حتى صير أعلاها
 بزماوردة واحدة ، فوضع بين يديه ، فتناول واحدة فأكلها ، ثم لم يزل كذلك
 حتى لم يُبق على الخوان شيئاً .

وذكر عن عليّ بن محمد أن جابر بن مصعب حدثه ، قال : حدثني
 مخارق ، قال : مرّت بي ليلة ما مرّت بي مثلها قطّ ، إني لفي منزلي بعد ليل ؛

إذ أتاني رسول محمد - وهو خليفة - فركض بي ركضاً ، فانتهي بي إلى داره ، فأدخلت فإذا إبراهيم بن المهدي قد أرسل إليه كما أرسل إليّ ، فوافينا جميعاً ، فانتهي إلى باب مُفضٍ إلى صحن ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من شمع محمد العظام ، وكأنّ ذلك الصحن في نهار ، وإذا محمد في كُرّج ، وإذا الدار مملوءة وصائف وخدماء ، وإذا اللعابون يلعبون ، ومحمد وسطهم في الكُرّج يرقص فيه ، فجاءنا رسول يقول : قال لكما : قُوما في هذا الموضع على هذا الباب مما يلي الصحن ، ثم ارفعا أصواتكما معبّراً ومقصّراً عن السورنای ، واتبعاه في لحنه قال : وإذا السورنای والجواری واللعابون في شيء واحد :

* هذى دنانير تنساني وأذكرها *

تتبع الزّمار . قال : فوالله ما زلتُ وإبراهيم قائمين نقولها ، نشقّ بها حلوقنا حتى انفلق الصبح ، ومحمد في الكُرّج ما يسأله ولا يملّه حتى أصبح يدنو منا ، أحياناً نراه ، وأحياناً يحول بيننا وبينه الجواری والخدم .

وذكر الحسين بن فراس مولی بنی هاشم ، قال : غزا الناس في زمان محمد على أن يردّ عليهم الخمس ، فردّ عليهم ، فأصاب الرجل ستة دنانير ، وكان ذلك مالا عظيماً .

* * *

وذكر عن ابن الأعرابي ، قال : كنت حاضر الفضل بن الربيع ، وأتيت بالحسن بن هاني ، فقال : رُفع إلى أمير المؤمنين أنك زنديق ، فجعل يبرأ من ذلك ويحلف ، وجعل الفضل يكرّر عليه ، وسأله أن يكلم الخليفة فيه ، ففعل وأطلقه ، فخرج وهو يقول :

أهلي أتيتكم من القبر	والناس مختبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت	عيني إلى ولد ولا وفر
فالله ألبسني به نعماً	شغلت حسابتها يدى شكرى
لقيتها من مفهم فهم	فمدتها بأنامل عشر

٩٧٣/٣

وذكر عن الرياشي أن أبا حبيب الموشى حدثه ، قال : كنت مع مؤنس ابن عمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ، فقال لي مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس ! فدخلنا عليه السجن ، فقال لمؤنس : يا أبا عمران ، أين تريد ؟ قال : أردت أبا العباس الفضل بن الربيع ، قال : فتبلغه رقعة أعطيكمها ؟ قال : نعم ، قال : فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ في الناسِ واحدةٍ إلا أبو العباسِ مولاها
نامَ الثقاتُ على مضاجعهمُ وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنتُ خفتُك ثم أمني من أن أخافك خوفك الله
فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ وَجَبْتَ لَهُ نَقْمٌ فَأَلْغَاها

قال : فكانت هذه الأبيات سببَ خروجه من الحبس .

وذكر عن محمد بن خلاد الشروي ، قال : حدثني أبي قال : سمع محمد شعر أبي نواس وقوله :

* أَلَسَقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ *

وقوله :

اسقنيها يا ذُفَافَهْ مُزَّةُ الطَّعْمِ سُلَافَهْ
ذَلَّ عِنْدِي مَنْ قَلَاها لِرَجَاءٍ أَوْ مَخَافَهْ
مَثَلْ ما ذَلَّتْ وَضَاعَتْ بَعْدَ هَارُونَ الْخِلَافَهْ

قال : ثم أنشد له :

٩٧٤/٣ فجاء بها زَيْتِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ فلم نستطع دُونَ السُّجُودِ لَهَا صَبْرًا

قال : فحبسه محمد على هذا ، وقال : إيه ! أنت كافر ، وأنت زنديق .

فكتب في ذلك إلى الفضل بن الربيع :

أَنْتَ يَا بَنَ الرَّبِّيعِ عَلَّمْتَنِي الْخَيْرَ
 فَارْعَوِي بَاطِلِي وَأَقْصِرْ جَهَنَّمَ
 لَوْ تَرَانِي شَبَّهْتَ بَنِي الْحَسَنِ الْبَصَّةَ
 بِرُكُوعٍ أَزِينُهُ بِسُجُودٍ
 فَادْعُ بَنِي لَا عِدَمَتَ تَقْوِيمٍ مِثْلِي
 لَوْ رَأَاهَا بَعْضُ الْمُرَاتِينِ يَوْمًا
 رَ وَعُودَتْنِيهِ وَالْخَيْرُ عَادَةٌ
 لِي وَأَظْهَرْتُ رَهْبَةً وَزَهَادَةً
 رَى فِي حَالِ نُسْكِهِ وَقِتَادَةً
 وَاصْفِرَارٍ مِثْلِ اصْفِرَارِ الْجِرَادَةِ
 فَتَأَمَّلْ بَعَيْنَكَ السَّجَادَةَ
 لَاشْتَرَاهَا يُعِدُّهَا لِلشَّهَادَةِ

٩٧٥/٣

خلافة المأمون عبد الله بن هارون

وفي هذه السنة وضعت الحرب — بين محمد وعبد الله ابني هارون الرشيد — أوزارها ، واستوسق الناس بالمشرق والعراق والحجاز لعبد الله المأمون بالطاعة .

وفيها خرج الحسن الهيرش في ذى الحجة منها يدعو إلى الرضى من آل محمد — بزعمه — في سفلة الناس ، وجماعة كثيرة من الأعراب ؛ حتى أتى النيل ، فغبي الأموال ، وأغار على التجار ، وانتهب القرى ، واستاق المواشي .

وفيها ولّى المأمون كلّ ما كان طاهر بن الحسين افتتحه من كُور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن الحسن بن سهل أخا الفضل ابن سهل ؛ وذلك بعد مقتل محمد المخلوع ودخول الناس في طاعة المأمون .

وفيها كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين ، وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلّها إلى خلفاء الحسن بن سهل ، وأن يشخص عن ذلك كلّهُ^(١) إلى الرقة ، وجعل إليه حرب نصر بن شبث ، وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب .

وفيها قدم عليّ بن أبي سعيد العراق خليفةً للحسن بن سهل على خراجها ، فدافع طاهر عليّاً بتسليم الخراج إليه ؛ حتى وفّى الجند أرزاقهم ، فلما وقّاهم سلّم إليه العمل .

وفيها كتب المأمون إلى هرثمة يأمره بالشُّخص إلى خراسان .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث المشهورة

فمن ذلك قدومُ الحسن بن سهل فيها ببغدادَ من عند المأمون، وإليه الحرب والخراج ، فلما قدمها فرّق عماله في الكُور والبلدان .
وفيهما شخص طاهر إلى الرقة في جُمادى الأولى ، ومعه عيسى بن محمد بن أبي خالد . وفيها شخص أيضاً هرّثمة إلى خراسان .
وفيهما خرج أزهر بن زهير بن المسيّب إلى الهرش ، فقتله في المحرم .
وفيهما خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن عليّ بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جُمادى الآخرة يدعو إلى الرضى من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذى يقال له ابن طباطبا ، وكان القيمَ بأمره في الحرب وتديرها وقيادة جيوشه أبو السرايا ، واسمه السرى بن منصور ، وكان يذكر أنه من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيان .

* * *

ذكر الخبر عن سبب

خروج محمد بن إبراهيم بن طباطبا

اختلف في ذلك، فقال بعضهم : كان سببُ خروجه صرف المأمون طاهر ابن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي فتحها وتوجيهاه إلى ذلك الحسن بن سهل ؛ فلما فعل ذلك تحدّث الناس بالعراق بينهم أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يُبرم الأمور على هواه ، ويستبدّ بالرأى دونه . فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا

غلبت الفضل بن سهل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ؛ فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا الذي ذكرت .

وقيل كان سبب خروجه أن أبا السرايا كان من رجال هرة ، فطلبه بأرزاقه وأختره بها ، فغضب أبو السرايا من ذلك ، ومضى إلى الكوفة فبايع محمد بن إبراهيم وأخذ الكوفة ، واستوسق له أهلها بالطاعة ، وأقام محمد بن إبراهيم بالكوفة ، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم .

[ذكر الوقعة بين أهل الكوفة وزهير بن المسيب]

وفيها وجه الحسن بن سهل زهير بن المسيب في أصحابه إلى الكوفة — وكان عامل الكوفة يومئذ حين دخلها ابن طباطبا سليمان بن أبي جعفر المنصور من قبل الحسن بن سهل ، وكان خليفة سليمان بن أبي جعفر بها خالد بن مجمل الضبتي — فلما بلغ الخبر الحسن بن سهل عتف سليمان وضعفه ، ووجه زهير بن المسيب في عشرة آلاف فارس وراجل ؛ فلما توجه إليهم وبلغهم خبر شخوصه إليهم تهيئوا للخروج إليه ؛ فلم تكن لهم قوة على الخروج ، فأقاموا حتى إذا بلغ زهير قرية شاهی خرجوا فأقاموا حتى إذا بلغوا القنطرة أتاهم زهير ، فنزل عشية الثلاثاء صعبنا ، ثم واقعهم من الغد فهزموه واستباحوا عسكره ، وأخذوا ما كان معه من مال وسلاح ودواب وغير ذلك يوم الأربعاء .

فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة بين أهل الكوفة وزهير ابن المسيب — وذلك يوم الخميس ليلة خلت من رجب سنة تسع وتسعين ومائة — مات محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة ؛ فذكر أن أبا السرايا سمه ، وكان السبب في ذلك — فيما ذكر — أن ابن طباطبا لما أحرز ما في عسكر زهير من المال والسلاح والدواب وغير ذلك منعه أبا السرايا ، وحظره عليه ؛ وكان الناس له مطيعين ، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه ؛ فلما مات ابن طباطبا أقام أبو السرايا مكانه غلاما أمردا حدثا يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ

الأمور ، ويولتي مَنْ رَأَى ، ويعزل من أحب ؛ وإليه الأمور كلها ، ورجع زهير من يومه الذي هُزِمَ فيه إلى قصر ابن هبيرة ، فأقام به . وكان الحسن بن سهل قد وجّه عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروزي إلى النيل حين وجّه زهير إلى الكوفة ، فخرج بعد ما هُزِمَ زهير عبدوس يريد الكوفة بأمر الحسن بن سهل ؛ حتى بلغ الجامع هو وأصحابه ، وزهير مقيم بالقصر ، فتوجّه أبو السرايا إلى عبدوس ، فواقعه بالجامع ، يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من رجب فقتله ، وأسر هارون بن محمد بن أبي خالد ، واستباح عسكره . وكان عبدوس - فيما ذكر - في أربعة آلاف فارس ، فلم يفلت منهم أحد ، كانوا بين قتيل وأسير ، وانتشر الطالبيون في البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ، ونقش عليها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانُ مَرْصُوصٌ ﴾ (١) ، ولما بلغ زهيراً قتل أبي السرايا عبدوساً وهو بالقصر ، انحاز بمن معه إلى نهر الملك .

٩٧٩/٣

ثم إن أبا السرايا أقبل حتى نزل قصر ابن هبيرة بأصحابه ، وكانت طلائعه تأتي كوثى ونهر الملك ، فوجّه أبو السرايا جيوشاً إلى البصرة وواسط فدخلوها ، وكان بواسط ونواحيها عبد الله بن سعيد الحرشي والياً عليها من قبل الحسن ابن سهل ، فواقعه جيش أبي السرايا قريباً من واسط فهزموه ، فانصرف راجعاً إلى بغداد ، وقد قتل من أصحابه جماعة وأسر جماعة . فلما رأى الحسن ابن سهل أن أبا السرايا ومن معه لا يلقون له عسكراً إلا هزموه ، ولا يتوجهون إلى بلدة إلا دخلوها ؛ ولم يجد فيمن معه من القواد من يكفيه حربه ، اضطر إلى هزيمة - وكان هزيمة حين قدم عليه الحسن بن سهل العراق والياً عليها من قبل المأمون ، سلم ما كان بيده من الأعمال ، وتوجه نحو خراسان مغاضباً للحسن ، فسار حتى بلغ حلوان - فبعث إليه السندی وصالحاً صاحب المصلتي يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا ، فامتنع وأبى . وانصرف الرسول إلى الحسن ببائنه ؛ فأعاد إليه السندی بكتب لطيفة ، فأجاب ، وانصرف إلى

٩٨٠/٣

بغداد ، فقدمها في شعبان ؛ فتهيأ للخروج إلى الكوفة : وأمر الحسن بن سهل على بن أبي سعيد أن يخرج إلى ناحية المدائن وواسط والبصرة ، فتهيأوا لذلك . وبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة ، فوجه إلى المدائن ، فدخلها أصحابه في رمضان ، وتقدم هو بنفسه وبمن معه حتى نزل نهر صرصر مما يلي طريق الكوفة في شهر رمضان . وكان هرثمة لما احتبس قدومه على الحسن ببغداد أمر المنصور بن المهدي أن يخرج فيعسكر بالياسريّة إلى قدوم هرثمة ، فخرج فعسكر ، فلما قدم هرثمة خرج فعسكر بالسفيتين بين يدي منصور ، ثم مضى حتى عسكر بنهر صرصر بإزاء أبي السرايا ، والنهر بينهما ؛ وكان على ابن أبي سعيد معسكراً بكلواذى ، فشخص يوم الثلاثاء بعد الفطر بيوم ، ووجه مقدّمته إلى المدائن ، فقاتل بها أصحاب أبي السرايا غداة الخميس إلى الليل قتالا شديداً . فلما كان الغد غدا وأصحابه على القتال فأنكشف أصحاب أبي السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن . وبلغ الخبر أبا السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن ؛ فلما كان ليلة السبت لحس خلوّون من شوال رجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة ؛ فنزل به ، وأصبح هرثمة فجدّ في طلبه ، فوجد جماعة كثيرة من أصحابه فقتلهم ، وبعث برءوسهم إلى الحسن ابن سهل ، ثم صار هرثمة إلى قصر ابن هبيرة ؛ فكانت بينه وبين أبي السرايا وقعة قتل فيها من أصحاب أبي السرايا خلق كثير ، فأنحاز أبو السرايا إلى الكوفة ، فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبين على دور بني العباس ودور مواليتهم وأتباعهم بالكوفة ، فأنتهبوا وخرّبوها وأخرجوهم من الكوفة ، وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً ، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس فأخذوها . وكان هرثمة - فيما ذكر - يخبر الناس أنه يريد الحج ، فكان قد حبس من يريد الحج من خراسان والحبال والحزيرة وحاجّ بغداد وغيرهم ؛ فلم يدع أحداً يخرج ، رجاء أن يأخذ الكوفة ، ووجه أبو السرايا إلى مكة والمدينة من يأخذهما ، ويقم الحجّ للناس .

وكان الولى على مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وكان الذى وجهه أبو السرايا إلى مكة

حسين بن حسن الأفطس بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والذي وجهه إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فدخلها ولم يقاتله بها أحد ، ومضى حسين بن حسن يريد مكة فلما قرب منها وقف هنيهة لمن فيها . وكان داود بن عيسى لما بلغه توجيه أبي السرايا حسين بن حسن إلى مكة لإقامة الحج للناس جمع موالى بني العباس وعبيد حوائطهم ، وكان مسرور الكبير الخادم قد حج في تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه ، فتعبت الحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، فقال لداود بن عيسى : أقم لي شخصك أو شخص بعض ولدك ، وأنا أكفيك قتالهم ، فقال له داود : لا أستحل القتال في الحرم ؛ والله لئن دخلوا من هذا الفج لأخرجن من هذا الفج الآخر ، فقال له مسرور : تسلم ملكك وسلطانك إلى عدوك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مالك ! قال له داود : أي ملك لي ! والله لقد أقمت معهم حتى شيتخت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني ، وفني عمري ، فولتوني من الحجاز ما فيه القوت ؛ إنما هذا الملك لك وأشباهك ؛ فقاتل إن شئت أو دغ . فانهاز داود من مكة إلى ناحية المشاش ، وقد شد أثقاله على الإبل ، فوجه بها في طريق العراق ، وافتعل كتاباً من المأمون بتولية ابنه محمد بن داود على صلاة الموسم ، فقال له : اخرج فصل بالناس الظهر والعصر بمنى ، والمغرب والعشاء ، وبت بمنى ، وصل بالناس الصبح ، ثم اركب دوابك فانزل طريق عرفة ، وخذ على يسارك في شعب عمرو ؛ حتى تأخذ طريق المشاش ، حتى تلحقني ببستان ابن عامر . ففعل ذلك ، وافترق الجمع الذي كان داود بن عيسى معهم بمكة من موالى بني العباس وعبيد الحوائط ، وقت ذلك في عضد مسرور الخادم ، وخشى أن قاتلهم أن يميل أكثر الناس معهم ؛ فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق ، وبقي الناس بعرفة ؛ فلما زالت الشمس وحضرت الصلاة ، تدافعها قوم من أهل مكة ، فقال أحمد بن محمد بن الوليد الردي - وهو المؤذن وقاضى الجماعة والإمام بأهل المسجد الحرام : إذ ^(١) لم تحضر الولاية - لقاضى مكة محمد بن عبد الرحمن

٩٨٢/٣

٩٨٣/٣

الخنزوي: تقدم فاخطب بالناس ، وصل بهم الصلاتين ؛ فإنك قاضي البلد .
قال : فلمن أخطبُ وقد هرب الإمام ؛ وأطلّ هؤلاء القوم على الدخول !
قال : لا تدعُ لأحد ، قال له محمد : بل أنت فتقدّم واخطب ، وصل بالناس ،
فأبى ؛ حتى قدّموا رجلاً من عُرُض أهل مكة ، فصلى بالناس الظهر والعصر
بلا خطبة ، ثم مضوا فوقفوا جميعاً بالموقف من عَرَفة حتى غربت الشمس ،
فدفع الناس لأنفسهم من عرفة بغير إمام ، حتى أتوا مزدلفة ، فصلّى بهم المغرب
والعشاء رجلٌ أيضاً من عُرُض الناس وحسين بن حسن يتوقف بسرف يرهب
أن يدخل مكة ، فيُدفع عنها ويقاتل دونها ، حتى خرج إليه قوم من أهل مكة
ممن يميل إلى الطالبيين ، ويتخوف من العباسيين ، فأخبروه أن مكة ومنى
وعَرَفة قد خلت ممن فيها من السلطان ، وأنهم قد خرجوا متوجهين إلى العراق .
فدخل حسين بن حسن مكة قبل المغرب من يوم عرفة ، وجميع من معه
لا يبلغون عشرة ، فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، ومضوا إلى عرفة في
الليل ، فوقفوا بها ساعة من الليل ، ثم رجع إلى مُزدلفة فصلّى بالناس الفجر ،
ووقف على قُزَح ، ودفع بالناس منه .

٩٨٤/٣

وأقام بمنى أيامَ الحجّ ، فلم يزل مقيماً حتى انقضت سنة تسع وتسعين
ومائة ، وأقام محمد بن سليمان بن داود الطالبيّ بالمدينة السنة أيضاً ، فانصرف
الحاج ومن كان شهد مكة والموسم ، على أن أهل الموسم قد أفاضوا من عَرَفة
بغير إمام .

وقد كان هرثمة لما تخوّف أن يفوته الحجّ - وقد نزل قرية
شاهي - واقع أبا السرايا وأصحابه في المكان الذي واقعه فيه زهير ، فكانت
الهزيمة على هرثمة في أول النهار ، فلما كان آخر النهار كانت الهزيمة على
أصحاب أبي السرايا ، فلما رأى هرثمة أنه لم يصر إلى ما أراد ، أقام بقرية
شاهي ، وردّ الحاج وغيرهم ، وبعث إلى المنصور بن المهديّ فأثابه بقرية
شاهي ، وصار يكتب رؤساء أهل الكوفة ، وقد كان عليّ بن أبي سعيد لما أخذ
المدائن توجه إلى واسط فأخذها ، ثم إنه توجه إلى البصرة فلم يقدر على أخذها حتى
انقضت سنة تسع وتسعين ومائة .

ثم دخلت سنة مائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن هرب أبي السرايا وما آل إليه أمره]

فما كان فيها من ذلك هرب أبي السرايا من الكوفة ودخول هرة إلىها .
 ذكر أن أبا السرايا هرب هو ومن معه من الطالبين من الكوفة ليلة الأحد
 لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم من سنة مائتين ، حتى أتى القادسية . ودخل منصور
 ابن المهدي وهرة الكوفة صبيحة تلك الليلة ، وآمنوا أهلها ، ولم يعرضوا لأحد
 منهم ، فأقاموا بها يومهم إلى العصر ، ثم رجعوا إلى معسكرهم ، وخلّفوا بها
 رجلاً منهم يقال له غسان بن أبي الفرج أبو إبراهيم بن غسان صاحب حرس
 صاحب خراسان ، فنزل في الدار التي كان فيها محمد بن محمد وأبو السرايا .

٩٨٥/٣

ثم إن أبا السرايا خرج من القادسية هو ومن معه حتى أتوا ناحية واسط ،
 وكان بواسط علي بن أبي سعيد ، وكانت البصرة بيد العلويين بعد ، فجاء
 أبو السرايا حتى عبر دجلة أسفل من واسط ، فأتى عبداً سيّ ، فوجد بها
 مالاً كان حُمِلَ من الأهواز ، فأخذه ثم مضى حتى أتى السوس ، فنزلها ومن
 معه ، وأقام بها أربعة أيام ، وجعل يعطى الفارس ألفاً والراجل خمسمائة ، فلما
 كان اليوم الرابع أتاهم الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني . فأرسل
 إليهم : اذهبوا حيث شئتم ، فإنه لا حاجة لي في قتالكم ، وإذا خرجتم من عملي
 فلست أتبعكم . فأبى أبو السرايا إلا القتال ، فقاتلهم ، فهزمهم الحسن ، واستباح
 معسكرهم ، وجرح أبو السرايا جراحة شديدة ، فهرب ، واجتمع هو ومحمد بن
 محمد وأبو الشوك ، وقد تفرق أصحابهم ، فأخذوا ناحية طريق الجزيرة يريدون
 منزل أبي السرايا برأس العين ؛ فلما انتهوا إلى جلولاء عثر بهم ، فأتاهم حماد
 الكندي غشوش فأخذهم ، فجاء بهم إلى الحسن بن سهل ، وكان مقيماً بالنهر وان

حين طردته الحربية ، فقدم بأبي السرايا ، فضرب عنقه يوم الخميس لعشر
خلون من ربيع الأول . وذكروا أن الذي تولّى ضرب عنقه هارون بن محمد بن
أبي خالد ، وكان أسيراً في أيدي أبي السرايا . وذكروا أنه لم يروا أحداً عند
القتل أشدّ جزعاً من أبي السرايا ، كان يضطرب بيديه ورجليه ، ويصيح
أشدّ ما يكون من الصياح ؛ حتى جعل في رأسه حبل ، وهو في ذلك يضطرب
ويلتوى ويصيح ؛ حتى ضربت عنقه . ثم بعث برأسه فطيف به في عسكر
الحسن بن سهل ، وبعث بحمسه إلى بغداد ، فصُلِبَ نصفين على الجسر ،
في كلّ جانب نصف ، وكان بين خروجه بالكوفة وقتله عشرة أشهر .

وكان عليّ بن أبي سعيد حين عبر أبو السرايا توجه إليه ، فلما فاته توجه
إلى البصرة فافتتحها . والذي كان بالبصرة من الطالبين زيد بن موسى بن جعفر بن
محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ومعه جماعة من أهل بيته ،
وهو الذي يقال له زيد النار - وإنما سمي زيد النار لكثرة ما حرق من الدور
بالبصرة من دور بني العباس وأتباعهم ؛ وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت
عقوبته عنده أن يحرقه بالنار - وانتهبوا بالبصرة أموالاً ، فأخذ عليّ بن أبي سعيد
أسيراً . وقيل إنه طلب الأمان فأمته . وبعث عليّ بن أبي سعيد ممن كان
معه من القواد عيسى بن يزيد الجلوديّ وورقاء بن جميل وحمدويه بن عليّ بن
عيسى بن ماهان وهارون بن المسيّب إلى مكة والمدينة واليمن ، وأمرهم بمحاربة
مَن بها من الطالبين . وقال التميميّ في قتل الحسن بن سهل أبا السرايا :

أَلَمْ تَرَ ضَرْبَةَ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ بِسَيْفِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَدَارَتْ مَرَوْ رَأْسَ أَبِي السَّرَايَا وَأَبْقَتْ عِبْرَةً لِلْعَابِرِينَ

وبعث الحسن بن سهل محمد بن محمد حين قتل أبو السرايا إلى المأمون بخراسان .

* * *

[ذكر الخبر عن خروج إبراهيم بن موسى باليمن]

وفي هذه السنة خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن
حسين بن عليّ بن أبي طالب باليمن .

* ذكر الخبر عنه وعن أمره :

وكان إبراهيم بن موسى - فيما ذكر - وجماعة من أهل بيته بمكة حين خرج أبو السرايا وأمره وأمر الطالبين بالعراق ما ذكر . وبلغ إبراهيم بن موسى خبرهم ، فخرج من مكة مع مَن كان معه من أهل بيته يريد اليمن ، وإلى اليمن يومئذ المقيم بها من قبل المأمون إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . فلما سمع بإقبال إبراهيم بن موسى العلووي وقربه من صنعاء ، خرج منصرفاً عن اليمن ، في الطريق النجدية بجميع مَن في عسكره من الخيل والرجل ، وختلى لإبراهيم بن موسى بن جعفر اليمن وكره قتاله ، وبلغه ما كان من فعل عمه داود بن عيسى بمكة والمدينة ؛ ففعل مثل فعله ، وأقبل يريد مكة ؛ حتى نزل المشاش ، فعسكر هناك ، وأراد دخول مكة ، فمنعه مَن كان بها من العلويين ، وكانت أم إسحاق بن موسى بن عيسى متوارية بمكة من العلويين ، وكانوا يطلبونها فتوالت منهم ، ولم يزل إسحاق بن موسى معسكراً بالمشاش ، وجعل مَن كان بمكة مستخفياً يتسللون من رموس الجبال ، فأتوا بها ابنها في عسكره . وكان يقال لإبراهيم بن موسى : الجزار ؛ لكثرة مَن قتل باليمن من الناس وسبى وأخذ من الأموال .

٩٨٨/٣

* * *

[ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة]

وفي هذه السنة في أول يوم من الحرم منها بعد ما تفرق الحاج من مكة جلس حسين بن حسن الأفطس خلف المقام على نمرقة مثنية ، فأمر بشباب الكعبة التي عليها فجردت منها حتى لم يُبق عليها من كسوتها شيئاً ، وبقيت حجارة مجردة ، ثم كساها ثوبين من قز رقيق ، كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما : أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد ، لكسوة بيت الله الحرام ، وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ، لتطهر من كسوتهم . وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة .

ثم أمر حسين بن حسن بالكسوة التي كانت على الكعبة فقسمت بين أصحابه من العلويين وأتباعهم على قدر منازلهم عنده ، وعمد إلى ما في خزانة

الكعبة من مالٍ فأخذه ، ولم يسمع بأحد عنده ودبعة لأحد من ولد العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره ؛ فإن وجد من ذلك شيئاً أخذته وعاقب الرجل ؛ وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ، ويقرّ عند الشهود أن ذلك للمسودة من بنى العباس وأتباعهم ، حتى عمّ هذا خلقاً كثيراً .

وكان الذى يتولى العذاب لهم رجلاً من أهل الكوفة يقال له محمد بن مسلمة ، كان ينزل في دار خالصة عند الختاطين ؛ فكان يقال لهادار العذاب ، وأخافوا الناس ؛ حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم ، فتعقبوهم بهدم دورهم حتى صاروا من أمر الحرم ، وأخذ أبناء الناس في أمر عظيم ، وجعلوا يحكّون الذهب الرقيق الذى في رءوس أساطين المسجد ، فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه ، حتى عمّ ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام ، وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم ، ومن خشب الساج ، فبيع بالثمن الخسيس . فلما رأى حسين بن حسن ومن معه من أهل بيته تغيير الناس لهم بسيرتهم ، وبلغهم أن أبا السرايا قد قُتل ، وأنه قد طرد من الكوفة والبصرة وكور العراق من كان بها من الطالبين ، ورجعت الولاية بها لولد العباس ، اجتمعوا إلى محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب — وكان شيخاً وداعاً محبباً في الناس ، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة ، وكان يروى العلم عن أبيه جعفر بن محمد ، وكان الناس يكتبون عنه ، وكان يظهر سمتاً وزهداً — فقالوا له : قد تعلم حالك في الناس ، فأبرز شخصك نبايع لك بالخلافة ؛ فإنك إن فعلت ذلك لم يختلف عليك رجلان ؛ فأبى ذلك عليهم ، فلم يزل به ابنه عليّ بن محمد بن جعفر وحسين بن حسن الأفطس حتى غلبا الشيخ على رأيه ؛ فأجابهم . فأقاموه يوم صلاة الجمعة بعد الصلاة لست خلون من ربيع الآخر ، فبايعوه بالخلافة ، وحشروا إليه الناس من أهل مكة والمجاورين ، فبايعوه طوعاً وكرهاً ، وسمّوه بإمرة المؤمنين ، فأقام بذلك أشهراً ، وليس له من الأمر إلا اسمه ، وابنه عليّ وحسين بن حسن وجماعة منهم أسوأ ما كانوا سيرة ، وأقبح ما كانوا فعلاً ، فوثب حسين بن حسن على امرأة من قریش من بنى فهر — وزوجها رجل من بنى مخزوم ، وكان لها

٩٨٩/٣

٩٩٠/٣

جمال بارع - فأرسل إليها لتأتيه ، فامتنعت عليه ، فأخاف زوجها وأمر بطلبها فتوات منه ، فأرسل ليلاً جماعة من أصحابه فكسروا باب الدار ، واغتصبوها نفسها ، وذهبوا بها إلى حسين ، فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة ، فهربت منه ، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة . ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام من قريش ، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد ، وكان جميلاً بارعاً في الجمال - فاقتحم عليه بنفسه نهاراً جهاراً في داره على الصفا مشرفاً على المسعى ؛ حتى حملة على فرسه في السرج . وركب علي بن محمد على عجز الفرس ، وخرج به يشق السوق حتى أتى بئر ميمون - وكان ينزل في دار داود بن عيسى في طريق منى - فلما رأى ذلك أهل مكة ومن بها من المجاورين ، خرجوا فاجتمعوا في المسجد الحرام ، وغلقت الدكاكين ، ومال معهم أهل الطواف بالكعبة ؛ حتى أتوا محمد بن جعفر بن محمد ، وهو نازل دار داود ، فقالوا : والله لنخلعنك ولنقتلنك ، أو تردن إلينا هذا الغلام الذي ابنك أخذه جهرة . فأغلق باب الدار ، وكلمهم من الشباك الشارع في المسجد ، فقال : والله ما علمت ، وأرسل إلى حسين بن حسن يسأله أن يركب إلى ابنه علي فيستنقذ الغلام منه . فأبى ذلك حسين ، وقال : والله إنك لتعلم أني لا أقوى على ابنك ، ولو جئتُه لقاتلني وحاربن في أصحابه . فلما رأى ذلك محمد قال لأهل مكة : آمنوني حتى أركب إليه وأخذ الغلام منه . فآمنوه وأذنوا له في الركوب ، فركب بنفسه حتى صار إلى ابنه ، فأخذ الغلام منه وسلمه إلى أهله . قال : فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أقبل إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي مقبلاً من اليمن حتى نزل المشاش ، فاجتمع العلويون إلى محمد بن جعفر بن محمد ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، هذا إسحاق بن موسى مقبلاً إلينا في أخيل والرجال ، وقد رأينا أن نخندق خندقاً بأعلى مكة ، وتبرز شخصك ليراك الناس ويحاربوا معك . وبعثوا إلى من حولهم من الأعراب ، ففرضوا لهم ، وخندقوا على مكة ليقاتلوا إسحاق بن موسى من ورائه ، فقاتلهم إسحاق أياماً . ثم إن إسحاق كره القتال والحرب ، وخرج يريد العراق ، فلقبه ورقاء بن جميل في أصحابه ومن كان معه من أصحاب الجلودى ، فقالوا : ارجع معنا إلى مكة ونحن نكفيك القتال . فرجع معهم حتى أتوا مكة

٩٩١/٣

٩٩٢/٣

فنزّلوا المشاش . واجتمع إلى محمد بن جعفر من كان معه من غوغائها ، ومن سودان أهل المياه ، ومن فرض له من الأعراب ، فعبّأهم ببئر ميمون ، وأقبل إليهم إسحاق بن موسى وورقاء بن جميل بمَن معه من القوّاد والخذ ، فقاتلهم ببئر ميمون ، فوقع بينهم قتلى وجراحات . ثم رجع إسحاق وورقاء إلى معسكرهم ، ثم عاودهم بعد ذلك بيوم فقاتلهم ، فكانت الهزيمة على محمد بن جعفر وأصحابه ؛ فلما رأى ذلك محمد ، بعث رجالاً من قريش فيهم قاضي مكة يسألون لهم الأمان ؛ حتى يخرجوا من مكة ، ويذهبوا حيث شاءوا ، فأجابهم إسحاق وورقاء بن جميل إلى ذلك ، وأجلّوهم ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الثالث ، دخل إسحاق وورقاء إلى مكة في جمادى الآخرة وورقاء الوالى على مكة للجلودى ، وتفرّق الطالبيون من مكة ، فذهب كل قوم ناحية ؛ فأما محمد بن جعفر فأخذ ناحية جدّة ، ثم خرج يريد الجحفة ، فعرض له رجل من موالى بنى العباس يقال له محمد بن حكيم بن مروان ، قد كان الطالبيون انتهبوا داره بمكة ، وعذّبوه عذاباً شديداً ؛ وكان يتوكّل لبعض العباسيين بمكة لآل جعفر بن سليمان ، فجمع عبيد الخوائط من عبيد العباسيين حتى لحق محمد بن جعفر بين جدّة وعُسفان ، فانتهب جميع ما معه مما خرج به من مكة ، وجردّه حتى تركه في سراويل ، وهمّ بقتله ، ثم طرح عليه بعد ذلك قميصاً وعمامة ورداء ودرهيمات يتسبّب بها ، فخرج محمد بن جعفر ٩٩٣/٣ حتى أتى بلاد جهينة على الساحل ، فلم يزل مقيماً هنالك حتى انقضى الموسم ، وهو في ذلك يجمع الجموع . وقد وقع بينه وبين هارون بن المسيّب والى المدينة وقعات عند الشجرة وغيرها ، وذلك أن هارون بعث ليأخذه ، فلما رأى ذلك أتاه بمن اجتمع حتى بلغ الشجرة ، فخرج إليه هارون فقاتله ، فهزم محمد بن جعفر ، وفقيت عينه بنشابة ، وقتل من أصحابه بشر كثير ، فرجع حتى أقام بموضع الذى كان فيه ينتظر ما يكون من أمر الموسم ، فلم يأت منه كان وعده . فلما رأى ذلك وانقضى الموسم ، طلب الأمان من الجلودى ومن رجاء ابن عم الفضل بن سهل ، وضمن له رجاء على المأمون وعلى الفضل بن سهل ألاّ يُسْهَج ، وأن يُوقَى له بالأمان ، فقبل ذلك ورضيّه ، ودخل به إلى مكة ، يوم الأحد بعد النفر الأخير بثمانية أيام لعشر بقين من ذى الحجة ، فأمر عيسى بن يزيد

الجلودي ورجاء بن أبي الضحاك ابن عم الفضل بن سهل بالمنبر ؛ فوضع بين الركن والمقام حيث كان محمد بن جعفر ببيع له فيه ، وقد جمع الناس من القريشيين وغيرهم ، فصعد الجلودي رأس المنبر ، وقام محمد بن جعفر تحته بدرجة ، وعليه قباء أسود وقتلنسوة سوداء ؛ وليس عليه سيف ليخلع نفسه . ثم قام محمد ، فقال :

أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ؛ فإنه كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة ، طائعا غير مكسرة ، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين هارون الرشيد علي ابنه : محمد الخلوع وعبد الله المأمون أمير المؤمنين . ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا . وكان نُميَ إلى خبر ؛ أن عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين كان توفى ؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين ، واستحللت قبول ذلك لما كان علي من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون ، فبايعتموني - أو من فعل منكم - ألا وقد بلغني وصح عندى أنه حتى سوى . ألا وإني أستغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة ، وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها ؛ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي ، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم ، وقد أخرجت نفسي من ذلك ، وقد رد الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون .

ثم نزل . فخرج به عيسى بن يزيد الجلودي إلى العراق ، واستخلف على مكة ابنه محمد بن عيسى في سنة إحدى ومائتين ، وخرج عيسى ومحمد بن جعفر حتى سلمه إلى الحسن بن سهل ، فبعث به الحسن بن سهل إلى المأمون بمرو مع رجاء بن أبي الضحاك .

* * *

وفي هذه السنة وجه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الطالبي بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف إلى مكة ليحج بالناس ، فحورب العقيلي فهزم ، ولم يقدر على دخول مكة .

ذكر الخبر عن أمر إبراهيم والعقيلي الذي ذكرنا أمره

ذكر أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد حج بالناس في سنة مائتين ، فسار حتى دخل مكة ، ومعه قواد كثير ، فيهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان ، وقد استعمله الحسن بن سهل على اليمن ، ودخلوا مكة ، وبها الجلودى في جنده وقواده ، ووجه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العاوى من اليمن راجلاً من ولد عقيل بن أبي طالب ، وأمره أن يحج بالناس ، فلما صار العقيلي إلى بستان ابن عامر ، بلغه أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد قد ولى الموسم ، وأن معه من القواد والجنود مالا قبيل لأحد به ، فأقام ببستان ابن عامر ، فمرت به قافلة من الحاج والتجار ، فيها كسوة الكعبة وطبيها ، فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطبيها ، وقدم الحاج والتجار مكة عراة مسلمين ، فبلغ ذلك أبا إسحاق بن الرشيد وهو نازل بمكة في دار القوارير ، فجمع إليه القواد فشاورهم ، فقال له الجلودى - وذلك قبل التروية بيومين أو ثلاثة : أصلح الله الأمير ! أنا أكفيكمهم ، أخرج إليهم في خمسين من نخبة أصحابي ، وخمسين أنتخبهم من سائر القواد . فأجابوه إلى ذلك ، فخرج الجلودى في مائة حتى صبح العقيلي وأصحابه ببستان ابن عامر ، فأحرق بهم ، فأسر أكثرهم وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ، فأخذ كسوة الكعبة إلا شيئاً كان هرب به من هرب قبل ذلك بيوم واحد ، وأخذ الطيب وأموال التجار والحاج ، فوجه به إلى مكة ، ودعا بمن أمير من أصحاب العقيلي ، فأمر بهم فقتل كل رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال : اعزبوا يا كلاب النار ؛ فوالله ما قتلكم وعير ، ولا فى أسركم جمال . وختلى سبيلهم ، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً وعرياً .

وخالف ابن أبي سعيد على الحسن بن سهل ، فبعث المأمون بسراج الخادم ، وقال له : إن وضع على يده فى يد الحسن أو شخص إلى بمرؤ وإلا فاضرب عنقه . فشخص إلى المأمون مع هرثمة بن أعين .

وفى هذه السنة شخص هرثمة فى شهر ربيع الأول منها من معسكره إلى المأمون بمرؤ .

ذكر الخبر عن شخوص هرثة إلى المأمون وما آل

إليه أمره في مسيره ذلك

«ذكر أن هرثة لما فرغ من أمر أبي السرايا ومحمد بن محمد العلوي ، ودخل الكوفة ، أقام في معسكره إلى شهر ربيع الأول ؛ فلما أهل الشهر خرج حتى أتى نهر صرصر ، والناس يرون أنه يأتي الحسن بن سهل بالمدائن ؛ فلما بلغ نهر صرصر خرج على عقرقوف ، ثم خرج حتى أتى البردان ، ثم أتى النهران ، ثم خرج حتى أتى إلى خراسان ؛ وقد أتته كتب المأمون في غير منزل ، أن يرجع فيلبي الشام أو الحجاز ، فأبى وقال : لا أرجع حتى ألقى أمير المؤمنين ؛ لإدلاله منه عليه ؛ لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه ، وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل ، وما يكتم عنه من الأخبار ، وألا يدعه حتى يردّه إلى بغداد ، دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ، ويشرف على أطرافه . فعلم الفضل ما يريد ، فقال للمأمون : إن هرثة قد أنغل عليك البلاد والعباد^(١) ، وظاهر عليك عدوك ، وعادى وليك ، ودس أبا السرايا ، وهو جندي من جنده حتى عمل ما عمل ، ولو شاء هرثة ألا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعله . وقد كتب إليه أمير المؤمنين عدة كتب ؛ أن يرجع فيلبي الشام أو الحجاز فأبى ، وقد رجع إلى باب أمير المؤمنين عاصياً مشاقاً ، يظهر القول الغليظ ، ويتواعد بالأمر الجليل ، وإن أطلق هذا^(٢) كان مفسدة لغيره . فأشرب^(٣) قلب أمير المؤمنين عليه .

٩٩٧/٣

وأبطأ هرثة في المسير فلم يصل إلى خراسان حتى كان ذو القعدة ؛ فلما بلغ مرو خشى أن يكتم المأمون قدومه ، فضرب بالطبول^(٤) لكي يسمعها المأمون ، فسمعها فقال : ما هذا ؟ قالوا : هرثة قد أقبل يرعد ويرق ، وظن هرثة أن قوله المقبول . فأمر بإدخاله ، فلما أدخل — وقد أشرب قلبه ما

٩٩٨/٣

(١) أنغل عليك البلاد : أفسدها . وفي ابن الأثير : « أثقل » .

(٢) كذا في ابن الأثير ، وفي ط : « وهذا »

(٣) ابن الأثير : « فتغير » .

(٤) ابن الأثير : « فأمر بضرب الطبول » .

أشرب - قال له المأمون : مالأت أهل الكوفة والعلويين وداهنت ودست إلى أبي السرايا حتى خرج وعمل ما عمل ؛ وكان رجلاً من أصحابك ؛ ولو أردت أن تأخذهم جميعاً لفعلت ؛ ولكنك أرخيت خناقهم ، وأجرت لهم رستهم . فذهب هرثة ليتكلم ويعتذر ، ويدفع عن نفسه ما قُرف به فلم يُقبَل ذلك منه ، وأمر به فوجئ على أنفه ^(١) ، وديس بطنه ، وسُحب من بين يديه . وقد تقدّم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظ عليه والتشديد حتى حبس ، فكث في الحبس أياماً ، ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا له : إنه مات .

* * *

[ذكر الخبر عن وثوب الحربية ببغداد]

وفي هذه السنة هاج الشَّغْب ببغداد بين الحربية والحسن بن سهل .

* ذكر الخبر عن ذلك وكيف كان :

ذكر أن الحسن بن سهل كان بالمدائن حين شخص هرثة إلى خراسان ، ولم يزل مقيماً بها إلى أن اتصل بأهل بغداد والحربية ما صُنِعَ به ، فبعث الحسن ابن سهل إلى علي بن هشام - وهو والي بغداد ، من قبله : أن أمطل الجند من الحربية والبغداديين أرزاقهم ، ومنهم ولا تُعطهم . وقد كان الحسن قبل ذلك اتَّعَدَهم أن يعطيهم أرزاقهم ، وكانت الحربية حين خرج هرثة إلى خراسان وثبوا وقالوا : لا نرضى حتى نطرد الحسن بن سهل عن بغداد ؛ وكان من عماله بها محمد بن أبي خالد وأسد بن أبي الأسد ، فوثبت الحربية عليهم فطردوهم ، وصيروا إسحاق بن موسى بن المهدي خليفة للمأمون ببغداد ؛ فاجتمع أهل الجانيين على ذلك ، ورضوا به ، فدس الحسن إليهم ، وكاتب قوادهم حتى وثبوا من جانب عسكر المهدي ، وجعل يعطي الجند أرزاقهم لستة أشهر عطاء نزرأ ؛ فحوّل الحربية لإسحاق إليهم ، وأنزلوه على دُجِيل .

٩٩٩/٣

وجاء زهير بن المسيب فنزل في عسكر المهدي ، وبعث الحسن بن سهل على بن هشام ، فجاء من الجانب الآخر؛ حتى نزل نهر صرصر ، ثم جاء هو

(١) ابن الأثير : « وضرب أنفه » .

ومحمد بن أبي خالد وقوادهم ليلاً ؛ حتى دخلوا بغداد ، فنزل على بن هشام دارَ العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي على باب المحول لثمان خلون من شعبان ؛ وقبل ذلك ما كان الحربية حين بلغهم أن أهل الكرخ يريدون أن يمدخلوا زهيراً وعلى بن هشام ، شدوا على باب الكرخ فأحرقوه ، وأنهبوا من حد قصر الوضاح إلى داخل باب الكرخ إلى أصحاب القراطيس ليلة الثلاثاء ، ودخل على بن هشام صبيحة تلك الليلة ، فقاتل الحربية ثلاثة أيام على قنطرة الصراة العتيقة والحديدة والأرحاء .

ثم إنه وعد الحربية أن يعطيهم رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلة ، فسألوه أن يعجل لهم خمسين درهماً لكل رجل لينفقوها في شهر رمضان ، فأجابهم إلى ذلك ، وجعل يعطي ، فلم يُسم لهم إعطاءهم ؛ حتى خرج زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ، الخارج بالبصرة المعروف بزيد النار ؛ كان أفلت من الحبس عند علي بن أبي سعيد ، فخرج في ناحية الأنبار ومعه أخو أبي السرايا في ذى القعدة سنة مائتين ، فبعثوا إليه ، فأخذه ، فأتى به علي بن هشام ، فلم يلبث إلا جمعة حتى هرب من الحربية ، فنزل نهر صرصر ، وذلك أنه كان يكذبهم ، ولم يف لهم بإعطاء الخمسين ؛ إلى أن جاء الأضحى ؛ وبلغهم خبر هزيمة وما صنع به ، فشدوا على علي فطرده .

١٠٠٠/٣

وكان المتولى ذلك والقائم بأمر الحرب محمد بن أبي خالد ؛ وذلك أن علي ابن هشام لما دخل بغداد كان يستخف به ، فوقع بين محمد بن أبي خالد وبين زهير بن المسيب إلى أن قتله زهير بالسوط . فغضب محمد من ذلك ، وتحول إلى الحربية في ذى القعدة ، ونصب لهم الحرب ، واجتمع إليه الناس فلم يقو بهم علي بن هشام حتى أخرجه من بغداد ؛ ثم اتبعه حتى هزمهم من نهر صرصر .

* * *

وفي هذه السنة وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك وفر ناس الخادم لإشخاص علي بن موسى بن جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر .

وأُحصِيَ في هذه السنة ولدالعباس ؛ فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكرٍ وأنثى .

* * *

وفي هذه السنة قتلت الروم ملكها ليون^(١) ، فكان قد ملك عليهم سبع سنين وستة أشهر ، وملكوا عليهم ميخائيل بن جورجس^(٢) ثانية .
وفيهما قَتَلَ المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ؛ وذلك أن يحيى أغلظ له ، ١٠٠١/٣ فقال له : يا أميرَ الكافرين ؛ فقتل بين يديه .
وأقام للناس الحجَّ في هذه السنة أبو إسحاق بن الرشيد .

(١) ابن الأثير : « اليون » .

(٢) ابن الأثير : « جورجيس » .

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ولاية منصور بن المهدي ببغداد]

فما كان فيها من ذلك مراودة أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة وامتناعه عليهم ؛ فلما امتنع من ذلك راوده على الإمرة عليهم ، على أن يدعو للمأمون بالخلافة ؛ فأجابهم إلى ذلك .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه :

قد ذكرنا قبل ذلك سبب إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد . ويذكر عن الحسن بن سهل أن الخبر عن إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد لما اتصل به وهو بالمدائن ، انهزم حتى صار إلى واسط ؛ وذلك في أول سنة إحدى ومائتين .

وقد قيل إن سبب إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد ، كان أن الحسن بن سهل وجّه محمد بن خالد المروزي بعد ما قُتل أبو السرايا ، أفسده (١) وولّى علي بن هشام الجانب الغربي من بغداد وزهير بن المسيّب يلي الجانب الشرقي ، وأقام هو بالخيزرانية ، وضرب الحسن عبد الله بن علي بن عيسى ابن ماهان حدةً بالسياط ، فغضب الأبناء ، فشغب الناس ، فهرب إلى برّسخا ثم إلى باسلاّمّا ، وأمر بالأرزاق لأهل عسكر المهدي ، ومنع أهل الغربي ، واقتل أهل الجانيين ، ففرّق محمد بن أبي خالد على الحربية مالا ، فهزم علي بن هشام ، فانهزم الحسن بن سهل بانهزام علي بن هشام ، فلحق بواسط ، فتبعه محمد بن أبي خالد بن الهندوان مخالفاً له ؛ وقد تولّى القيام بأمر الناس ، وولّى سعيد بن الحسن بن قحطبة الجانب الغربي ونصر بن حمزة بن مالك الشرقي ، وكنفه ببغداد منصور بن المهدي وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع .

١٠٠٢/٣

(١) كذا وردت العبارة في أصول ط ، وفيها غموض .

وقد قيل إن عيسى بن محمد بن أبي خالد قدم في هذه السنة من الرقة ، وكان عند طاهر بن الحسين ، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن ، فضمّا حتى انتهيا ومَنّ معهما من الحربيّة وأهل بغداد إلى قرية أبي قريش قرب واسط ، وكان كلما أتيا موضعاً فيه عسكر من عساكر الحسن فيكون بينهما فيه وقعة ، تكون الهزيمة فيه على أصحاب الحسن .

ولما انتهى محمد بن خالد إلى دير العاقول ، أقام به ثلاثاً ، وزهير بن المسيّب حينئذ مقيم بإسكاف بني الجُنَيد ، وهو عامل الحسن على جوختى مقيم في عمله ؛ فكان يكاتب قوَاد أهل بغداد . فبعث ابنه الأزهر ، فضى حتى انتهى إلى نهر النهروان ، فلقى محمد بن أبي خالد ، فركب إليه ، فأثاه بإسكاف ، فأحاط به فأعطاه الأمان ، وأخذه أسيراً ، فجاء به إلى عسكره بدير العاقول ، وأخذ أمواله ومتاعه وكلّ قليل وكثير وجد له . ثم تقدّم محمد بن أبي خالد ، فلما صار إلى واسط بعث به إلى بغداد ، فحبسه عند ابن له مكفوف ، يقال له جعفر ؛ فكان الحسن مقيماً بجرّجرايا ، فلما بلغه خبر زهير ، وأنه قد صار في يد محمد بن أبي خالد ارتحل حتى دخل واسط ، فنزل بقم الصّالح ، ووجه محمد من دير العاقول ابنه هارون إلى النيل وبها سعيد بن الساجور الكوفيّ ، فهزمه هارون ، ثم تبعه حتى دخل الكوفة ، فأخذها هارون ، وولّى عليها . وقدم عيسى ابن يزيد الجلسوديّ من مكّة ؛ ومعه محمد بن جعفر ، فخرجوا جميعاً حتى أتوا واسط في طريق البرّ ، ثم رجع هارون إلى أبيه ، فاجتمعوا جميعاً في قرية أبي قريش ليدخلوا واسط ، وبها الحسن بن سهل ، فتقدّم الحسن بن سهل ، فنزل خلف واسط في أطرافها .

وكان الفضل بن الربيع مختفياً من حين قتل المخلوع ، فلما رأى أن محمد ابن أبي خالد قد بلغ واسط بعث إليه يطلب الأمان منه ، فأعطاه إياه وظهر . ثم تعباً محمد بن أبي خالد للقتال ، فتقدّم هو وابنه عيسى وأصحابهما ، حتى صاروا على ميلين من واسط ، فوجّه إليهم الحسن أصحابه وقواده ، فاقتتلوا قتالاً شديداً عند أبيات واسط . فلما كان بعد العصر هبّت ريح شديدة وغُبِرة حتى اختلط القوم بعضهم ببعض ؛ وكانت الهزيمة على أصحاب محمد بن

أبى خالد ، فثبت للقوم فأصابته جراحات شديدة فى جسده ، فانهزم هو وأصحابه هزيمة شديدة قبيحة ، فهزم أصحابه الحسن ؛ وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى ومائتين .

١٠٠٤/٣

فلما بلغ محمد فم الصلح خرج عليهم أصحاب الحسن^(١) فصاقهم للقتال ، فلما جنتهم الليل ، ارتحل هو وأصحابه حتى نزلوا المبارك ؛ فأقاموا به ؛ فلما أصبحوا غدأ عاينهم أصحاب الحسن فصافوهم ، واقتتلوا .

فلما جنتهم الليل ارتحلوا حتى أتوا جبيل ، فأقاموا بها ، ووجه ابنه هارون إلى النيل ، فأقام بها ، وأقام محمد بجرّجرايا ، فلما اشتدت به الجراحات خلف قواده فى عسكره ، وحمّله ابنه أبو زنبيل حتى أدخله بغداد ليلة الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر ، فدخل أبو زنبيل ليلة الاثنين ، ومات محمد بن أبى خالد من ليائه من تلك الجراحات ، ودفن من ليلته فى داره سرّاً .

وكان زهير بن المسيّب محبوساً عند جعفر بن محمد بن أبى خالد ، فلما قدم أبو زنبيل أتى خزيمه بن خازم يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ، فأعلمه أمر أبيه ، فبعث خزيمه إلى بنى هاشم والقواد وأعلمهم ذلك ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد بن أبى خالد ، وأنه يكفيهم الحرب . فرضوا بذلك ، فصار عيسى مكان أبيه على الحرب ، وانصرف أبو زنبيل من عند خزيمه حتى أتى زهير بن المسيّب ، فأخرجه من حبسه ، فضرب عنقه . ويقال : إنه ذبحه ذبحاً وأخذ رأسه ، فبعث به إلى عيسى فى عسكره ، فنصبه على رمح وأخذوا جسده ، فشدوا فى رجليه حبلاً ، ثم طافوا به فى بغداد ، ومروا به على دوره ودور أهل بيته عند باب الكوفة ، ثم طافوا به فى الكرخ ، ثم ردّوه إلى باب الشام بالعشى ؛ فلما جنتهم الليل طرحوه فى دجلة ، وذلك يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر .

١٠٠٥/٣

ثم رجع أبو زنبيل حتى انتهى إلى عيسى فوجهه عيسى إلى فم الصراة . وبلغ الحسن بن سهل موت محمد بن أبى خالد ، فخرج من واسط حتى

(١) ابن الأثير : « وأتاهم الحسن » .

انتهى إلى المبارك، فأقام بها. فلما كان جمادى الآخرة وجّه حميد بن عبد الحميد الطوسيّ ومعه عركو الأعرابيّ وسعيد بن الساجور وأبو البطّ ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ، وعدّة سواهم من القوّاد، فلقوا أبا زنبيل بقم الصّراة فهزموه، وانحاز إلى أخيه هارون بالنّيل، فالتقوا عند بيوت النّيل، فاقتتلوا ساعة، فوقعت الهزيمة على أصحاب هارون، وأبى زنبيل، فخرجوا هاربين حتى أتوا المدائن؛ وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة.

ودخل حميد وأصحابه النّيل فانتهبوها ثلاثة أيام؛ فانتهبوا أموالهم وأمتعتهم، وانتهبوا ما كان حولهم من القرى؛ وقد كان بنو هاشم والقوّاد حين مات محمد بن أبي خالد تكلّموا في ذلك؛ وقالوا: نصير بعضنا خليفة ونخاع المأمون، فكانوا يتراضون في ذلك؛ إذ بلغهم خبر هارون وأبى زنبيل وهزيمتهم، فجدوا فيما كانوا فيه، وأرادوا منصور بن المهديّ على الخلافة؛ فأبى ذلك عليهم، فلم يزالوا به حتى صيروه أميراً خليفة للمأمون ببغداد والعراق، وقالوا: لا نرضى بالمجوسيّ ابن المجوسيّ الحسن بن سهل، ونظرده حتى يرجع إلى خراسان.

وقد قيل: إن عيسى بن محمد بن أبي خالد لما اجتمع إليه أهل بغداد، وساعده على حرب الحسن بن سهل، رأى^(١) الحسن أنه لا طاقة له بعيسى، فبعث إليه وهب بن سعيد الكاتب، وبذل له المصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية أيّ النواحي أحبّ، فطلب كتاب المأمون بذلك بخطّه، فردّ الحسن بن سهل وهباً بإجابته، ففرق وهب بين المبارك وجبّل؛ فكتب عيسى إلى أهل بغداد: إني مشغول بالحرب عن جباية الخراج، فولّوا رجلاً من بني هاشم، فولّوا منصور بن المهديّ، وعسكر منصور بن المهديّ بكسكر واذى، وأرادوه على الخلافة فأبى، وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولّي من أحبّ، فرضى بذلك بنو هاشم والقوّاد والهند؛ وكان القيّم بهذا الأمر خزيمه بن خازم، فوجّه القوّاد في كل ناحية، وجاء حميد الطوسي من فوره في طلب بني محمد حتى انتهى إلى المدائن، فأقام بها يومه، ثم انصرف إلى النّيل.

(١) ابن الأثير: «علم».

فلما بلغ منصوراً خبره خرج حتى عسكر بكنكواذى ، وتقدم يحيى بن على بن عيسى بن ماهان إلى المدائن .

ثم إن منصوراً وجهه إسحاق بن العباس بن محمد الهاشمي من الجانب الآخر ، فعسكر بنهر صرصر ، وجهه غسان بن عباد بن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان صاحب حرس صاحب خراسان ناحية الكوفة ، فتقدم حتى أتى قصر ابن هبيرة ، فأقام به . فلما بلغ حميداً الخبر لم يعلم غسان إلا وحميد قد أحاط بالقصر ، فأخذ غسان أسيراً ، وسلب أصحابه ، وقتل منهم ؛ وذلك يوم الاثنين لأربع خلون من رجب .

١٠٠٧/٣

ثم لم يزل كل قوم مقيمين في عساكرهم ؛ إلا أن محمد بن يقطين بن موسى كان مع الحسن بن سهل ، فهرب منه إلى عيسى ، فوجهه عيسى إلى منصور ، فوجهه منصور إلى ناحية حميد ؛ وكان حميد مقيماً بالنيل إلا أن له خيلاً بالقصر .

وخرج ابن يقطين من بغداد يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان حتى أتى كوثى . وبلغ حميداً الخبر ، فلم يعلم ابن يقطين حتى أتاه حميد وأصحابه إلى كوثى ، فقاتلوه فهزموه ، وقتلوا من أصحابه ، وأسروا ، وغرق منهم بشر كثير ، وانتهب حميد وأصحابه ما كان حول كوثى من القدرى وأخذوا البقر والغنم والحمير وما قدروا عليه من حكتي ومتاع وغير ذلك ؛ ثم انصرف حتى النيل ، وراجع ابن يقطين ، فأقام بنهر صرصر .

وفي محمد بن أبي خالد قال أبو الشداخ :

هوى خيل الأبناء بعد محمد
وأصبح منها كاهل العز أخضعاً
فلا تسمتوا يا آل سهل بموته
فإن لكم يوماً من الدهر مضرعاً

وأحصى عيسى بن محمد بن أبي خالد ما كان في عسكره ، فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً بين فارس وراجل ؛ فأعطى الفارس أربعين درهماً ، والراجل عشرين درهماً .

١٠٠٨/٣

[ذكر خبر خروج المطوعة للنكير على الفساق]

وفي هذه السنة تجرّدت المطوعة^(١) للنكير على الفساق ببغداد، ورئيسهم خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاريّ أبو حاتم من أهل خراسان .

* ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله فعلت المطوعة ما ذكرت :

كان السبب في ذلك أن فساق الحربيّة والشطار الذين كانوا ببغداد والكسرخ آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانيةً من الطرق ؛ فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل ، فيأخذون ابنه ، فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ؛ وكانوا يسألون الرّجل أن يُقرضهم أو يصلّهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ؛ وكانوا يجتمعون فيأتون القرى ، فيكاثرون أهلها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ؛ لا سلطان يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ؛ لأن السلطان كان يعتزّ بهم^(٢) ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يحبّون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ، ويقطعون الطرق علانيةً ، ولا أحد يعدو عليهم ، وكان الناس منهم في بلاء عظيم ؛ ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل ، فانتهبوها علانيةً ، وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها ببغداد ، وجعلوا يبيعونها علانيةً ، وجاء أهلها فاستعدّوا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم^(٣) عليهم ، ولم يردّ عليهم شيئاً مما كان أخذ منهم ، وذلك آخر شعبان .

فلما رأى الناس ذلك وما قد أخذ منهم ؛ وما بيع من^(٤) متاع الناس في أسواقهم ، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغى وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغيّر عليهم ، قام صلحاء كل ربّض وكل درّب ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنّما في الدّرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة ، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ؛ فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً^(٥) ، لقمعتم هؤلاء

(١) ابن الأثير: « المتطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . (٢) ابن الأثير : « يفرهم » .

(٣) إعداؤهم ؛ أي نصّهم ، وفي ط : « تعلّمهم » .

(٤) ط : « من بيع متاع الناس » ، وأثبت ما في الحواشي . (٥) ط : « واحد » .

الفُساق ، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم .

فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد الدريوش ، فدعا جبرآنه وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك ، وشدّ على مَنْ يليه من الفساق والشطار ، فمنعهم مما كانوا يصنعون ، فامتنعوا عليه ، وأرادوا قتاله ، فقاتلهم فهزمهم وأخذ بعضهم ، فضر بهم وجبهم ورفعهم إلى السلطان ؛ إلا أنه كان لا يرى أن يُغيّر على السلطان شيئاً ، ثم قام من بعده رجلٌ من أهل الحربيّة ، يقال له سهل بن سلامة الأنصاريّ من أهل خُرّاسان ؛ يكنى أبا حاتم ؛ فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل بكتاب الله جلّ وعزّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلّق مصحفاً في عنقه ، ثم بدأ بجيرانه وأهل محلته ، فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ، ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك ؛ الشريف منهم والوضيع ؛ بنى هاشم ومَنْ دونهم ، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاها منهم ، فبايعه على ذلك ، وقتل مَنْ خالفه وخالف ما دعا إليه كائنًا من كان ؛ فأتاه خلق كثير ، فبايعوا .

١٠١٠/٣

ثمّ إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ، ومنع كلّ من يخفرو ويحبي المارّة والمختلفة ، وقال : لا خفارة في الإسلام — والخفارة أنه كان يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول : بستانك في خفّرى ، أدفع عنه من أراد به سوء ، ولى في عنقك كلّ شهر كذا وكذا درهماً ، فيعطيه ذلك شائياً وآبياً — فقوى على ذلك إلا أن الدريوش خالفه ، وقال : أنا لا أعيبُ على السلطان شيئاً ولا أغيّره ، ولا أقاتله ، ولا أمره بشيء ولا أنهاه . وقال سهل بن سلامة : لكنّي أقاتل كلّ من خالف الكتاب والسنة كائنًا من كان ؛ سلطاناً أو غيره ؛ والحق قائم في الناس أجمعين ، فمن بايعني على هذا قبلته ، ومن خالفني قاتلته . فقام في ذلك سهل يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين في مسجد طاهر بن الحسين ؛ الذي كان بناه في الحربيّة .

وكان خالد الدريوش قام قبله بيومين أو ثلاثة ، وكان منصور بن المهديّ مقيماً بعسكره بجبّيل ، فلما كان من ظهور سهل بن سلامة وأصحابه ما كان ، وبلغ ذلك منصوراً وعيسى - وإنما كان عظم أصحابهما الشطار ، ومن لاخير فيه - كسرهما ذلك ، ودخل منصور بغداد .

١٠١١/٣ وقد كان عيسى يكتب الحسن بن سهل ، فلما بلغه خبر بغداد ، سأل الحسن بن سهل أن يعطيه الأمان له ولأهل بيته ولأصحابه ؛ على أن يعطى الحسن أصحابه وجنده وسائر أهل بغداد رزق ستة أشهر إذا أدركت له الغلّة ، فأجابه الحسن ، وارتحل عيسى من معسكره ، فدخل بغداد يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شوال ، وتقوّضت جميع عساكرهم ، فدخلوا بغداد ، فأعلمهم عيسى ما دخل لهم فيه من الصلح ، فرضوا بذلك .

ثم رجع عيسى إلى المدائن ، وجاء يحيى بن عبد الله ، ابن عمّ الحسن بن سهل ، حتى نزل دبير العاقول ، فوكلّوه السواد ، وأشركوا بينه وبين عيسى في الولاية ، وجعلوا لكلّ عدة من الطسّاسيج^(١) وأعمال بغداد . فلما دخل عيسى فيها دخل فيه - وكان أهل عسكر المهديّ مغالين له - وثب المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعيّ يدعو إلى المأمون وإلى الفضل والحسن ابني سهل ؛ فامتنع عليه سهل بن سلامة ، وقال : ليس على هذا بايعتني .

وتحوّل منصور بن المهديّ وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع - وكانوا يوم تحوّلوا بايعوا سهل بن سلامة على ما يدعّو إليه من العمل بالكتاب والسنة - فنزلوا بالحربية فراراً من الطلب ، وجاء سهل بن سلامة إلى الحسن ، وبعث إلى المطلب أن يأتيه ، وقال : ليس على هذا بايعتني ، فأبى المطلب أن يجيئه ، فقاتله سهل يومين أو ثلاثة قتالا شديداً ؛ حتى اصطالح عيسى والمطلب ، ١٠١٢/٣ فدرس عيسى إلى سهل من اغتاله فضربه ضربة بالسيف ؛ إلا أنها لم تعمل فيه ؛ فلما اغتيل سهل رجع إلى منزله ، وقام عيسى بأمر الناس ، فكفّوا عن القتال .

وقد كان حميد بن عبد الحميد مقيماً بالنيل ، فلما بلغه هذا الخبر

(١) الطسوج : الناحية ، معرب .

دخل الكوفة ، فأقام بها أياماً . ثم إنه خرج منها حتى أتى قصر ابن هبيرة ، فأقام به ، واتخذ منزلاً وعمل عليه سوراً وخندقاً ؛ وذلك في آخر ذى القعدة ، وأقام عيسى ببغداد يعرض الجند ويصحّحهم ، إلى أن تدرك الغلة ، وبعث إلى سهل بن سلامة فاعتذر إليه مما كان صنع به ، وبايعه وأمره أن يعود إلى ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وأنه عونه على ذلك ، فقام سهل بما كان قام به أولاً من الدعاء إلى العمل بالكتاب والسنة .

* * *

[ذكر خبر البيعة لعليّ بن موسى بولاية العهد]

وفي هذه السنة جعل المأمون عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسماه الرضيّ من آل محمد صلى الله عليه وآله وسام ، وأمر جنده بطرح السّواد ولبس ثياب الحضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

* ذكر الخبر عن ذلك وعما كان سبب ذلك وما آل الأمر فيه إليه :

ذكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد ، بينما هو فيما هو فيه من عرض أصحابه بعد منصرفه من عسكره إلى بغداد ، إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل يُعلمه أن أمير المؤمنين المأمون قد جعل عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده ؛ وذلك أنه نظر في بني العباس وبني عليّ ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه ؛ وأنه سمّا الرضيّ من آل محمد ، وأمره بطرح لبّس الثياب السود ولبس ثياب الحضرة ؛ وذلك يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، ويأمره أن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقوّاد وبني هاشم بالبيعة له ، وأن يأخذهم بلبس الحضرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم ، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك .

١٠١٣/٣

فلما أتى عيسى الخبر دعا أهل بغداد إلى ذلك على أن يعيّل لهم رزق شهر ، والباقي إذا أدركت الغلة ، فقال بعضهم : نبايع ونلبس الحضرة ، وقال

بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخُضرة ، ولا نُخرج هذا الأمر من ولد العباس ؛ وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل ، فكشوا بذلك أياماً . وغضب ولد العباس من ذلك ، واجتمع بعضهم إلى بعض ، وتكلموا فيه ، وقالوا : نولّي بعضنا ، ونخلع المأمون ؛ وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلّد له إبراهيم ومنصور ابنا المهديّ .

* * *

[ذكر الدعوة لمبايعة إبراهيم بن المهديّ وخلع المأمون]

وفي هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهديّ بالخلافة وخلعوا المأمون .
* ذكر السبب في ذلك :

قد ذكرنا سبب إنكار العباسيين ببغداد على المأمون ما أنكروا عليه ، واجتماع من اجتمع على محاربة الحسن بن سهل منهم ؛ حتى خرج عن بغداد . ولما كان من بيعة المأمون لعلّ بن موسى بن جعفر — وأمره الناس بلبس الخُضرة ما كان ، وورود كتاب الحسن على عيسى بن محمد بن أبي خالد يأمره بذلك ، وأخذ الناس به ببغداد ، وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة — أظهر العباسيون ببغداد أنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهديّ بالخلافة ، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهديّ ؛ وأنهم قد خلعوا المأمون ، وأنهم يعطون عشرة دنانير كل إنسان ، أوّل يوم من المحرمّ أول يوم من السنة المستقبل . فقبل بعض ولم يقبل بعض حتى يعطى ؛ فلما كان يوم الجمعة وأرادوا الصلاة أرادوا أن يجعلوا إبراهيم خليفة للمأمون مكان منصور ، فأمرؤ رجلا يقول حين أذن المؤذن : إنا نريد أن ندعو للمأمون ومن بعده لإبراهيم يكون خليفة ؛ وكانوا قد دسّوا قوماً ، فقالوا لهم : إذا قام يقول : ندعو للمأمون ، فقوموا أنتم فقولوا : لا نرضى إلا أن نبايعوا لإبراهيم ومن بعده لإسحاق ، وتخلعوا المأمون أصلاً ، ليس نريد أن تأخذوا أموالنا كما صنع منصور ، ثم تجاسوا في بيوتكم . فلما قام من يتكلم أجابه هؤلاء ، فلم يُصلّ بهم تلك الجمعة صلاة الجمعة ، ولا خطب أحد ، إنما صلى الناس أربع ركعات ثم انصرفوا ؛ وذلك يوم الجمعة لليتين بقيتا من ذى الحجة سنة إحدى ومائتين .

وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن خُرْدَاذْبَه وهو والى طَبَرِستان اللارز والشيرز^(١)؛ من بلاد الديلم، وزادهما في بلاد الإسلام، وافتتح جبال طبرستان، وأنزل شهریار بن شَروین عنها ، فقال سلام الخاسر :

إِنَّا لَنَأْمُلُ فَتَحَ الرُّومِ وَالصِّينِ بِنِ أَدَالِ لَنَا مِنْ مُلْكِ شَرَوِينِ^(٢)
فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَبْدِ اللَّهِ إِنَّ لَهُ^(٣) مَعَ الْأَمَانَةِ رَأْيٌ غَيْرُ مَوْهُونِ

وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون ، وأسر أبا ليلى ملك الديلم بغير عهد في هذه السنة .

وفيها مات محمد بن محمد صاحب أبي السرايا .

وفيها تحرّك بابك الخرمي في الجاويذانية أصحاب جاويذان بن سهل ، صاحب البذّة ، وادّعى أن رُوح جاويذان دخلت فيه ، وأخذ في العيث والفساد .

وفيها أصاب أهل خراسان والري وإصبهان مجاعة ، وعزّ الطعام ، ووقع الموت .

• • •

وحجّ بالناس فيها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ .

(٢) ط : « أذل » .

(١) ابن الأثير : « البلاذر والشيرز » .

(٣) ط : « لعبد الله » .

ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبربيعة إبراهيم بن المهدي]

فمما كان فيها من ذلكبيعة لأهل بغداد لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ،
وتسميتهم إيساه المبارك . وقيل لأنهم بايعوه في أول يوم من المحرم بالخلافة ،
1016/3 وخلعوا المأمون ؛ فلما كان يوم الجمعة صعد إبراهيم المنبر ؛ فكان أول من
بايعه عبید الله بن العباس بن محمد الهاشمي ، ثم منصور بن المهدي ، ثم سائر
بنی هاشم ، ثم القواد . وكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبدالله بن مالك ؛
وكان الذي سعى في ذلك وقام به السندي وصالح صاحب المصلی ومنجاب
ونصير الوصيف وسائر الموالي ؛ إلا أن هؤلاء كانوا الرؤساء والقادة غضباً منهم
على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد علي ، ولتركه
لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة .

ولما فرغ من البيعة وعد الجند أن يعطيهم أرزاق ستة الأشهر ، فدافعهم
بها ، فلما رأوا ذلك شغبوا عليه ، فأعطاهم مائتي درهم لكل رجل ، وكتب
لبعضهم إلى السواد بقيمة بقيّة ما لهم حنطة وشعير . فخرجوا في قبضها فلم
يمروا بشيء إلا انتهبوه ، فأخذوا النصيبين جميعاً ؛ نصيب أهل البلاد ونصيب
السلطان . وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله ، وعسكر
بالمدائن . وولي الجانب الشرقي من بغداد العباس بن موسى الهادي والجانب
الغربي إسحاق بن موسى الهادي . وقال إبراهيم بن المهدي :

ألم تعلموا يا آل فهير بأنني شرّيتُ بنفسی دُونكم في المهالكِ

* * *

[خبر تحكيم مهديّ بن علوان الحروريّ]

وفي هذه السنة حَكَّم مهديّ بن علوان الحروريّ ، وكان خروجه ببِزْر جسابور ، وغلب على طساسيج هنالك . وعلى نهر بوق والراذانيّين . وقد قيل : إن خروج مهديّ كان في سنة ثلاث ومائتين في شَوّال منها ، فوجّه إليه إبراهيم بن المهديّ أبا إسحاق بن الرشيد في جماعة من القوَّاد ، منهم أبو البطّ وسعيد بن الساجور ، ومع أبي إسحاق غلمان له أتراك ؛ فذُكر عن شُبَّيل صاحب السلبة ، أنه كان معه وهو غلام ، فلقوا الشُّرّة ، فطعن رجل من الأعراب أبا إسحاق ، فحامي عنه غلام له تركيّ ، وقال له : أشناس مرّاً ، أى اعرفنى ، فسماه يومئذ أشناس ؛ وهو أبو جعفر أشناس ، وهُزم مهديّ إلى حَوَلَايا .

١٠١٧/٣

وقال بعضهم : إنّما وجّه إبراهيم إلى مهديّ بن علوان الدهقانيّ الحروريّ المُطَلَّب ، فسار إليه ، فلمّا قرب منه أخذ رجلاً من قَعَدِ الحروريةّ يقال له أقدى ، فقتله ، واجتمعت الأعراب فقاتلوه فهزموه حتى أدخلوه بغداد .

وفي هذه السنة وثب أخو أبي السرايا بالكوفة ، فبيّض ، واجتمعت إليه جماعة ، فلقية غَسَّان بن أبي الفرج في رَجَب فقتله ، وبعث برأسه إلى إبراهيم ابن المهديّ .

* * *

ذكر الخبر عن تببيض أخى أبي السرايا وظهوره بالكوفة

ذكر أن الحسن بن سهل أتاه وهو مقيم بالمبارك في معسكره كتاب المأمون يأمره بلبس الخُضرة ، وأن يبايع لعلّ بن موسى بن جعفر بن محمد بولاية العهد من بعده ، ويأمره أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها ، فارتحل حتى نزل سمّـر ، وكتب إلى حميد بن عبد الحميد أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها من ناحية أخرى ، ويأمره بلباس الخُضرة ، ففعل ذلك حميد . وكان سعيد بن

١٠١٨/٣

الساجور وأبو البطّ وغسان بن أبي الفرج ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ وعِدّة من قوَاد حُميد كاتبوا إبراهيم بن المهديّ ، على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة . وكان قد تباعد ما بينهم وبين حميد ، فكانوا يكتبون إلى الحسن بن سهل يخبرونه أن حُميدًا يكتب إبراهيم ، وكان يكتب فيهم بمثل ذلك ، وكان الحسن يكتب إلى حُميد يسأله أن يأتيه فلم يفعل ، وخاف إن هو خرج إلى الحسن أن ينش الآخرون بعسكره ؛ فكانوا يكتبون إلى الحسن أنه ليس يمنعه من إتيانك إلاّ أنه مخالف لك ، وأنه قد اشترى الضياع بين الصّرة وسُورا والسواد . فلما ألحّ عليه الحسن بالكتب ، خرج إليه يوم الخميس لحمس خلون من ربيع الآخر ، فكتب سعيد وأصحابه إلى إبراهيم يعلمونه ، ويسألون أن يبعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد ، حتى يدفَعوا إليه القصر وعسكر حميد ؛ وكان إبراهيم قد خرج من بغداد يوم الثلاثاء حتى عسكر بكنلواذي يريد المدائن ، فلما أتاه الكتاب وجهه عيسى إليهم .

فلما بلغ أهلَ عسكر حميد خروجُ عيسى ونزوله قرية الأعراب على فرسخ من القصر تهيّئوا للهرب ؛ وذلك ليلة الثلاثاء ، وشدّ أصحاب سعيد وأبي البطّ والفضل بن محمد بن الصباح الكنديّ الكوفيّ على عسكر حميد ؛ فأنهبوا ما فيه ، وأخذوا حُميد - فيما ذكر - مائة بدرة أهوالا ومتاعاً ، وهرب ابنُ الحُميد ومعاذ بن عبد الله ، فأخذ بعضهم نحو الكوفة وبعض نحو النيل ؛ فأما ابنُ حميد ، فإنه انحدر بجواري أبيه إلى الكوفة ، فلما أتى الكوفة اكترى بغالا ثم أخذ الطريق ، ثم لحق بأبيه بعسكر الحسن ، ودخل عيسى القصر وسلمه له سعيد وأصحابه ، وصار عيسى وأخذه منهم ، وذلك يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الآخر . وبلغ الحسن بن سهل وحميد عنده ، فقال له حميد : ألم أعلمك بذلك ! ولكن خدعت ، وخرج من عنده حتى أتى الكوفة ، فأخذ أموالا له كانت هنالك ومتاعاً . وولّى على الكوفة العباس بن موسى بن جعفر العلويّ ، وأمره بلباس الحضرة ، وأن يدعوا للمأمون ومن بعده لأخيه عليّ بن موسى ؛ وأعانه بمائة ألف درهم ، وقال له : قاتل عن أخيك ، فإن أهل الكوفة يُجيبونك إلى ذلك ؛ وأنا معك .

فلما كان الليل خرج حميد من الكوفة وتسرّكه ، وقد كان الحسن وجهه حكيمًا الحارثي حين بلغه الخبر إلى النيل ، فلما بلغ ذلك عيسى وهو بالقصر تهيأ هو وأصحابه ، حتى خرجوا إلى النيل ؛ فلما كان ليلة السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر طلعت حمرة في السماء ، ثم ذهب الحمر ، وبقى عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل ؛ وخرج غداة السبت عيسى وأصحابه من القصر إلى النيل ، فواقعهم حكيم ، وأتاهم عيسى وسعيد وهم في الوقعة ، فانهزم حكيم ، ودخلوا النيل .

١٠٢٠/٣

فلما صاروا بالنيل ، بلغهم خبر العباس بن موسى بن جعفر العلوي ، وما يدعو إليه أهل الكوفة ، وأنه قد أجابه قوم كثير منهم ، وقال له قوم آخرون : إن كنت تدعو للمأمون ثم من بعده لأخيك فلا حاجة لنا في دعوتك ، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك . فقال : أنا أدعو إلى المأمون ثم من بعده لأخى ؛ فقعده عنه الغالية من الرافضة وأكثر الشيعة . وكان يظهر أن حميداً يأتيه فيعينه ويقويه ، وأن الحسن يوجه إليه قوماً من قبله مدداً ، فلم يأتهم أحد ، وتوجه إليه سعيد وأبو البط من النيل إلى الكوفة ؛ فلما صاروا بدير الأعور ، أخذوا طريقاً يخرج بهم إلى عسكر هرثة عند قرية شاهی .

فلما التأم إليه أصحابه ، خرجوا يوم الاثنين للبايتين خلسة من جمادى الأولى . فلما صاروا قرب القنطرة خرج عليهم علي بن محمد بن جعفر العلوي ، ابن المبايع له بمكة ، وأبو عبد الله أخو أبي السرايا ومعهم جماعة كثيرة ، وجهتهم مع علي بن محمد ابن عمه صاحب الكوفة العباس بن موسى بن جعفر ، فقاتلهم ساعة ، فانهزم علي وأصحابه حتى دخاوا الكوفة ، وجاء سعيد وأصحابه حتى نزلوا الحيرة ؛ فلما كان يوم الثلاثاء غدوا فقاتلهم مما يلي دار عيسى بن موسى ، وأجابهم العباسيون ومواليهم ، فخرجوا إليهم من الكوفة ، فاقتتلوا يومهم إلى الليل ، وشعارهم : «يا إبراهيم يا منصور ، لاطاعة للمأمون» ، وعليهم السواد ، وعلى العباس وأصحابه من أهل الكوفة الخضرة .

١٠٢١/٣

فلما كان يوم الأربعاء اقتتلوا في ذلك الموضع ، فكان كل فريق منهم إذا

ظهروا على شيء أحرقوه. فلما رأى ذلك رؤساء أهل الكوفة، أتوا سعيداً وأصحابه، فسألوه الأمان للعباس بن موسى بن جعفر وأصحابه؛ على أن يخرج من الكوفة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم أتوا العباس فأعلموه، وقالوا: إن عامة من معك غوغاء، وقد ترى ما يلقي الناس من الحرق والنهب والقتل؛ فاخرج من بين أظهرنا، فلا حاجة لنا فيك. فقبل منهم، وخاف أن يسلموه، وتحول من منزله الذي كان فيه بالكُتَّاسة، ولم يعلم أصحابه بذلك، وانصرف سعيد وأصحابه إلى الحيرة، وشد أصحاب العباس بن موسى على من بقي من أصحاب سعيد وموالي عيسى بن موسى العباسي، فهزموهم حتى بلغوا بهم الخندق، ونهبوا ربض عيسى بن موسى، فأحرقوا الدور، وقتلوا من ظهروا به. فبعث العباسيون ومواليهم إلى سعيد يعلمونه بذلك، وأن العباس قد رجع عما كان طلب من الأمان. فركب سعيد وأبو البط وأصحابهما حتى أتوا الكوفة عتمة، فلم يظفروا بأحد منهم ينتهب إلا قتلوه، ولم يظهروا على شيء مما كان في أيدي أصحاب العباس إلا أحرقوه؛ حتى بلغوا الكُتَّاسة، فكثوا بذلك عامة الليل حتى خرج إليهم رؤساء أهل الكوفة، فأعلموهم أن هذا من عمل الغوغاء، وأن العباس لم يرجع عن شيء. فانصرفوا عنهم.

فلما كان غداة الخميس لحمس خلون من جمادى الأولى، جاء سعيد وأبو البط حتى دخلوا الكوفة، ونادى مناديهم: أمن الأبيض والأسود؛ ولم يعرضوا لأحد من الخلق إلا بسبيل خير، ولتوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، من أهلها. فكتب إليهم إبراهيم بن المهدي يأمرهم بالخروج إلى ناحية واسط، وكتب إلى سعيد أن يستعمل على الكوفة غير الكندي، لميله إلى أهل بلده؛ فولأها غسان بن أبي الفرج، ثم عزله بعد ما قتل أبا عبد الله أخا أبي السرايا، فولأها سعيد ابن أخيه الهول؛ فلم يزل والياً عليها حتى قدمها حميد ابن عبد الحميد، وهرب الهول منها، وأمر إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد ابن أبي خالد أن يسير إلى ناحية واسط على طريق النيل، وأمر ابن عائشة الهاشمي ونعيم بن خازم أن يسيرا جميعاً، فخرجا مما يلي جُوخى، وبذلك تاريخ الطبري - ثامن

أمرهما ، وذلك في جمادى الأولى . ولحق بهما سعيد وأبو البط والإفريقي حتى عسكروا بالصيَّادة قرب واسط ؛ فاجتمعوا جميعاً في مكان واحد ، وعليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد ، فكانوا يركبون حتى يأتوا عسكر الحسن وأصحابه بواسط في كل يوم ، فلا يخرج إليهم من أصحاب الحسن أحد ، وهم متحصّنون بمدينة واسط .

ثم إن الحسن أمر أصحابه بالتهيؤ للخروج للقتال ، فخرجوا إليهم يوم السبت لأربع بقين من رجب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى قريب الظهر . ثم وقعت الهزيمة على عيسى وأصحابه ، فانهزموا حتى بلغوا طرنايا والنيل ، وأخذ أصحاب الحسن جميع ما كان في عسكرهم من سلاح ودواب وغير ذلك .

١٠٢٣/٣

* * *

[ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوعى]

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوعى فحبسه وعاقبه .

* ذكر الخبر عن سبب ظفره به وحبسه إياه :

ذكر أن سهل بن سلامة كان مقيماً ببغداد ، يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يزل كذلك حتى اجتمع إليه عامة أهل بغداد ونزلوا عنده ؛ سوى من هو مقيم في منزله ، وهواه ورأيه معه ؛ وكان إبراهيم قد همّ بقتاله قبل الواقعة ، ثم أمسك عن ذلك ، فلمّا كانت هذه الواقعة وصارت الهزيمة على أصحاب عيسى ومن معه أقبل على سهل بن سلامة ، فدخل إليه وإلى أصحابه الذين بايعوه على العمل بالكتاب والسنة ، وألّا طاعة لخلق في معصية الخلق ؛ فكان كل من أجابه إلى ذلك قد عمل على باب داره برجاً يحرص وأجر ، ونصب عليه السلاح والمصاحف ؛ حتى بلغوا قرب باب الشام ؛ سوى من أجابه من أهل الكرخ وسائر الناس ؛ فلما رجع عيسى من الهزيمة إلى بغداد ، أقبل هو وإخوته وجماعة أصحابه نحو سهل

ابن سلامة ؛ لأنه كان يذكّرهم بأسواء أعمالهم وفعّالهم ، ويقول : الفسّاق ^(١) ؛ لم يكن لهم عنده اسم غيره ، فقاتلوه أياماً ؛ وكان الذى تولى قتاله عيسى ابن محمد بن أبى خالد ؛ فلماً صار إلى الدّروب التى قرب سهل أعطى أهل الدّروب الألف درهم والألفين درهماً ؛ على أن يتنحوا له عن الدّروب ، فأجابوه إلى ذلك ؛ فكان نصيب الرجل الدرهم والدرهمين ونحو ذلك ؛ فلما كان يوم السبت لحمس بقين من شعبان تهيّئوا له من كلّ وجه ، وخذّله أهل الدّروب حتى وصلوا إلى مسجد طاهر بن الحسين وإلى منزله ؛ وهو بالقرب من المسجد ؛ فلما وصلوا إليه اختفى منهم ، وألقى سلاحه ، واختلط بالنظارة ، ودخل بين النساء فدخلا منزله .

فلماً لم يظفروا به جعلوا عليه العيون ؛ فلماً كان الليل أخذوه فى بعض الدّروب التى قرب منزله ، فأثروا به إسحاق بن موسى الهادى — وهو ولى العهد بعد عمّه إبراهيم بن المهديّ وهو بمدينة السلام — فكلمه وحاجّه ، وجمع بينه وبين أصحابه ، وقال له : حرّضت علينا الناس ، وعبت أمرنا ! فقال له : إنما كانت دعوتى عباسيّة ؛ وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة ؛ وأنا على ما كنت عليه أدعوكم إليه الساعة . فلم يقبلوا ذلك منه . ثم قالوا له : اخرج إلى الناس ، فقل لهم : إنّ ما كنت أدعوكم إليه باطل . فأخرج ^(٢) إلى الناس وقال : قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة ، وأنا أدعوكم إليه الساعة . فلما قال لهم هذا وجئوا عنقه ، وضربوا وجهه ؛ فلما صنعوا ذلك به قال : المغرور من غرّتموه يا أصحاب الحريّة ؛ فأخذ فأدخل إلى إسحاق ، فقيّده ، وذلك يوم الأحد . فلما كان ليلة الاثنين خرجوا به إلى إبراهيم بالمدائن ؛ فلما دخل عليه كلمه بما كلم به إسحاق ، فردّ عليه مثل ما ردّ على إسحاق . وقد كانوا أخذوا رجلاً من أصحابه يقال له محمد الراعى ، فضربه إبراهيم ، وتنفّح لحيته ، وقيّده وجبسه ؛ فلما أخذ سهل ابن سلامة حبسه أيضاً ، وادّعوا أنه كان دفع إلى عيسى ، وأنّ عيسى قتله ؛

(١) ابن الأثير : « ويسمى الفسّاق » ،

(٢) ابن الأثير : « فخرج » .

ولمّا أشاعوا ذلك تخوّفًا من الناس أن يعلموا بمكانه فيخرجوه ؛ فكان بين خروجه وبين أخذه وحبسه اثنا عشر شهرًا .

* * *

[ذكر خبر شخوص المأمون إلى العراق]

وفي هذه السنة شخّص المأمون من مَرَّو يريد العراق .

* ذكر الخبر عن شخوصه منها :

ذكر أن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخبّر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار ، وأنّ أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ؛ وأنهم يقولون إنه مسحور مجنون ، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمته إبراهيم بن المهديّ بالخلافة . فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة ؛ ولمّا صيروه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبره به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذّب به وغشّه ، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل ، وأنّ الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك ، فقال : ومنّ يعلم هذا من أهل عسكرى ؟ فقال له : يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدّة من وجوه أهل العسكر ، فقال له : أدخلهم علىّ حتى أسألتهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه ؛ وهم يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وموسى وعليّ بن أبي سعيد — وهو ابن أخت الفضل — وخلف المصرى ، فسألهم عما أخبره ، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل ؛ ألا يعرض لهم ، فضمن ذلك لهم ، وكتب لكلّ رجل منهم كتاباً بخطه ، ودفعه إليهم ، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن ، وبيّنوا ذلك له ، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه فى أشياء كثيرة ، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأنّ هرثمة إنّما جاءه لينصحه وليبين له ما يعمل عليه ، وأنّه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وأنّ الفضل دسّ إلى هرثمة منّ قتله ، وأنه أُرلاد

نصحه ؛ وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى ، وافتتح ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة ، حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله ، وصير في زاوية من الأرض بالرقّة ، قد حُظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده ، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ، ولم يجترأ عليه بمثل ما اجتريء به على الحسن بن سهل ، وأن الدنيا قد تفتتت من أقطارها ، وأن طاهر بن الحسين قد تنوَسى في هذه السنين منذ قتل محمد في الرقة ، لا يُستعان به في شيء من هذه الحروب ؛ وقد استعين بمن هو دونه أضعافاً ، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد في بني هاشم والموالى والقواد ، والجنْدُ لو رأوا عزتك سكتوا إلى ذلك ، وبخَعُوا بالطاعة^(١) .

١٠٢٧/٣

فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ؛ فلمّا أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم ، فتعنّتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً ، وتنفّ لحي بعض ؛ فعاوده على بن موسى في أمرهم ، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم ؛ فأعلمه أنه يدارى ما هو فيه . ثم ارتحل من مَرَوْ فلما أتى سرخس شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام ، فضربوه بالسيوف حتى مات ؛ وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة اثنتين ومائتين . فأخذوا . وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون وهم أربعة نفر : أحدهم غالب المسعودي الأسود ، وقسطنطين الرومي ، وفرج الديلمي ، وموفق الصّقلي ، وقتلوه وله ستون سنة ؛ وهربوا . فبعث المأمون في طلبهم ، وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن بُزُرْجمهر الدينوري ، فقالوا للمأمون : أنت أمرتنا بقتله ، فأمر بهم فضربت أعناقهم . وقد قيل : إن الذين قتلوا الفضل لما أخذوا ساعلم المأمون ؛ فمنهم من قال : إن علي بن أبي سعيد ، ابن أخت الفضل دستهم ، ومنهم من أنكّر ذلك . وأمر بهم فقتلوا . ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعلي وموسى وخلف فساءلم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك ؛ فلم يقبل ذلك منهم وأمر بهم فقتلوا ، وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل إلى واسط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل ، وأنه قد صيره مكانه . ووصل الكتاب بذلك إلى الحسن

١٠٢٨/٣

(١) بجَمُوا بالطاعة ؛ أى خضعوا وأقروا بالحق له .

في شهر رمضان ، فلم يزل الحسن وأصحابه حتى أدركت الغلّة وجبى بعض الخراج ، ورحل المأمون من سرّخس نحو العراق يوم الفطر ، وكان إبراهيم ابن المهديّ بالمدائن وعيسى وأبو البطّ وسعيد بالنيل وطرنايا يراوون القتال ويغادونه ؛ وقد كان المطلب بن عبد الله بن مالك بن عبد الله قدِم من المدائن ، فاعتلّ بأنه مريض ، وجعل يدعو في السرّ إلى المأمون ؛ على أن المنصور بن المهديّ خليفة المأمون ، ويخلعون إبراهيم ، فأجابه إلى ذلك منصور وخزيمة بن خازم وقوّاد كثير من أهل الجانب الشرقيّ ، وكتب المطلب إلى حميد وعلى ابن هشام أن يتقدّما فينزل حميد نهر صرصرو على النهروان ؛ فلما تحقق عند إبراهيم الخبر خرج من المدائن إلى بغداد ، فنزل زند ورّد يوم السبت لأربع عشرة خلت من صفر ، وبعث إلى المطلب ومنصور وخزيمة ، فلما أتاهم رسوله اعتلّوا عليه ؛ فلما رأى ذلك بعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد وإخوته ؛ فأما منصور وخزيمة فأعطوا بأيديهما ، وأما المطلب فإن مواليه وأصحابه قاتلوا عن منزله حتى كثر الناس عليهم ، وأمر إبراهيم منادياً فنادى : من أراد النهب فليأت دار المطلب ، فلما كان وقت الظهر وصلوا إلى داره ، فانتهبوا ما وجدوا فيها ، وانتهبوا دور أهل بيته ، وطلبوه فلم يظفروا به ، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر .

١٠٢٩/٣

فلما بلغ حميداً وعلى بن هشام الخبر بعث حميد قائداً فأخذ المدائن ، وقطّع الجسر ، ونزل بها ، وبعث على بن هشام قائداً فنزل المدائن ، وأتى نهرد يالى فقطّعه ، وأقاموا بالمدائن ، وندم إبراهيم حيث صنع بالمطلب ما صنع ، ثم لم يظفر به .

* * *

وفي هذه السنة تزوّج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل .

وفيها زوّج المأمون على بن موسى الرضيّ ابنته أم حبيب ، وزوّج محمد ابن على بن موسى ابنته أم الفضل .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد، فدعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد .

وكان الحسن بن سهل كتب إلى عيسى بن يزيد الجُلُوديّ ، وكان بالبصرة فوافى مكة في أصحابه ، فشهد الموسم ، ثم انصرف ومضى إبراهيم بن موسى إلى اليمن ؛ وكان قد غلب عليها حمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان .

تم دخلت سنة ثلاث ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[موت عليّ بن موسى الرضى]

ذكر أن مما كان فيها موت عليّ بن موسى بن جعفر

ذكر الخبر عن سبب وفاته :

« ذكر أن المأمون شخص من سَرَخُس حتى صار إلى طُوس ، فلما صار بها أقام بها عند قبر أبيه أياماً . ثم إن عليّ بن موسى أكل عنباً فأكثر منه ، فمات فجأة ؛ وذلك في آخر صفر ، فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرشيد ، وكتب في شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه أن عليّ بن موسى بن جعفر مات ، ويعلمه ما دخل عليه من الغم والمصيبة بموته ؛ وكتب إلى بني العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت عليّ بن موسى ، وأنهم إنما تقسموا بيعته له من بعده ؛ ويسألهم الدخول في طاعته . فكتبوا إليه وإلى الحسن جواب الكتاب بأغلظ ما يُكتب به إلى أحد . وكان الذي صلى على عليّ بن موسى المأمون (١) . »

١٠٣٠/٣

* * *

ورحل المأمون في هذه السنة من طوس يريد بغداد ، فلما صار إلى الرى أسقط من وظيفتها ألقى ألف درهم .

وفي هذه السنة غلبت السوداء على الحسن بن سهل ، فذكر سبب ذلك أنه كان مرضاً شديداً ، فهاج به من مرضه تغير عقله ، حتى شدّ في الحديد وحبس في بيت . وكتب بذلك قواد الحسن إلى المأمون ، فأناهم

(١) ابن الأثير : « وكان مولد علي بن موسى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة » .

جواب الكتاب أن يكون على عسكريه دينار بن عبدالله، ويعلمهم أنه قادم على أثر كتابه .

* * *

[خبر حبس إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد]

وفي هذه السنة ضرب إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد وحبسه .

* ذكر الخبر عن سبب ذلك :

١٠٣١/٣ ذكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد كان يكتب حميداً والحسن ؛ وكان الرسول بينهم محمد بن محمد المعبدي الهاشمي ، وكان يظهر لإبراهيم الطاعة والنصيحة ، ولم يكن يقاتل حميداً ولا يعرض له في شيء من عمله ؛ وكان كلما قال إبراهيم : تهيأ للخروج لقتال حميد ، يعتل عليه بأن الجند يريدون أرزاقهم ، ومرة يقول : حتى تُدرك الغلة ؛ فما زال بذلك حتى إذا توثق مما يريد مما بينه وبين الحسن وحميد فارقهم ، على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدي يوم الجمعة لانسلاخ شوال . وبلغ الخبر إبراهيم ؛ فلما كان يوم الخميس ، جاء عيسى إلى باب الجسر ، فقال للناس : إني قد سألت حميداً ، وضمنت له ألا أدخل عمله ، وضمن لي ألا يدخل عملي . ثم أمر أن يُحفر خندق بباب الجسر وباب الشام ، وبلغ إبراهيم ما قال وما صنع ، وقد كان عيسى سأل إبراهيم أن يصلّي الجمعة بالمدينة ، فأجابه إلى ذلك ، فلما تكلم عيسى بما تكلم به ، وبلغ إبراهيم الخبر وأنه يريد أخذه حذر .

وذكر أن هارون أخا عيسى أخبر إبراهيم بما يريد أن يصنع به عيسى ؛ فلما أخبره ، بعث إليه أن يأتيه حتى يناظره في بعض ما يريد ، فاعتل عليه عيسى ، فلم يزل إبراهيم يعيد إليه الرسل حتى أتاه إلى قصره بالرصافة ، فلما دخل عليه حجب الناس ، وخلا إبراهيم وعيسى ، وجعل يعاتبه ، وأخذ عيسى يعتذر إليه مما يعتبه به ، وينكر بعض ما يقول ؛ فلما قرره بأشياء أمر به فضرب . ثم إنه حبسه وأخذ عدة من قواده فحبسهم ، وبعث إلى منزله ، فأخذ أم ولده

وصبياناً له صغاراً ؛ فحبسهم ؛ وذلك ليلة الخميس لليلة بقيت من شوال .
 ١٠٣٢/٣ وطلب خليفة له يقال له العباس فاخفى . فلما بلغ حبس عيسى أهل بيته
 وأصحابه ، مشى بعضهم إلى بعض ، وحرّض أهل بيته وإخوته الناس على إبراهيم
 واجتمعوا ؛ وكان رأسهم عباس خليفة عيسى ، فشدوا على عامل إبراهيم على
 الجسر فطردوه ، وعبر إلى إبراهيم فأخبره الخبر ، وأمر بقطع الجسر فطردوا كل
 عامل كان لإبراهيم في الكرخ وغيره ، وظهر الفساق والشرار ، فقعدها في
 المسالح . وكتب عباس إلى حميد يسأله أن يقدم إليهم حتى يسلموا إليه بغداد ؛
 فلما كان يوم الجمعة صلّوا في مسجد المدينة أربع ركعات ، صلّى بهم المؤذن
 بغير خطبة .

* * *

[ذكر خبر خلع أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي]

وفي هذه السنة خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ، ودعوا للمأمون بالخلافة .
 * ذكر الخبر عن سبب ذلك :

قد ذكرنا قبل ما كان من إبراهيم وعيسى بن محمد بن أبي خالد وحبس
 إبراهيم إياه ، واجتماع عباس خليفة عيسى وإخوة عيسى على إبراهيم ، وكتابهم
 إلى حميد يسألونه المصير إليهم ليسلموا بغداد إليه ؛ فذكر أن حميداً لما
 أتاه كتابهم ، وفيه شرط منهم عليه أن يعطى جند أهل بغداد ؛ كل رجل منهم
 خمسين درهماً ، فأجابهم إلى ذلك ، وجاء حتى نزل صرصر بطريق الكوفة
 يوم الأحد ، وخرج إليه عباس وقواد أهل بغداد ، فلقوه غداة الاثنين ،
 فعدّهم ومنّاهم ، وقبلوا ذلك منه ، فوعدهم أن يضع لهم العطاء يوم السبت في
 الياسرية ، على أن يصلّوا الجمعة فيدعوا للمأمون ، ويخلعوا إبراهيم ؛ فأجابه
 ١٠٣٢/٣ إلى ذلك . فلما بلغ إبراهيم الخبر أخرج عيسى وإخوته من الحبس ، وسأله
 أن يرجع إلى منزله ، ويكفيه أمر هذا الجانب ، فأبى ذلك عليه .

فلما كان يوم الجمعة بعث عباس إلى محمد بن أبي رجاء الفقيه ، فصلّى
 بالناس الجمعة ، ودعا للمأمون ، فلما كان يوم السبت جاء حميد إلى الياسرية

فعرض حميد جند أهل بغداد ، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم ، فسألوه أن ينقصهم عشرة عشرة ، فيعطيتهم أربعين أربعين درهماً لكل رجل منهم ؛ لما كانوا تشاء موا به من عليّ بن هشام حين أعطاهم الخمسين . فغدر بهم ، وقطع العطاء عنهم ، فقال لهم حميد : لا بل أزيدكم وأعطيتكم ستين درهماً لكل رجل . فلما بلغ ذلك إبراهيم دعا عيسى فسأله أن يقاتل حميداً ، فأجابه إلى ذلك ، فخلّى سبيله ، وأخذ منه كفلاء ، فكلم عيسى الجند أن يعطيهم مثل ما أعطى حميد ؛ فأبوا ذلك عليه ؛ فلما كان يوم الاثنين عبر إليهم عيسى وإخوته وقواد أهل الجانب الشرقي ، فعرضوا على أهل الجانب الغربي أن يزيدهم على ما أعطى حميد ، فستموا عيسى وأصحابه ، وقالوا : لا نريد إبراهيم . فخرج عيسى وأصحابه حتى دخلوا المدينة ، وأغلقوا الأبواب ، وصعدوا السور ، وقاتلوا الناس ساعة . فلما كثر عليهم الناس انصرفوا راجعين ؛ حتى أتوا باب خراسان ، فركبوا في السفن ، ورجع عيسى كأنه يريد أن يقاتلهم ، ثم احتال حتى صار في أيديهم شبه الأسير ، فأخذه بعض قواده فأتى به منزله ، ورجع الباقيون إلى إبراهيم فأخبروه الخبر ، فاغتم لذلك غمّاً شديداً ؛ وقد كان المطلب ابن عبد الله بن مالك اختفى من إبراهيم ، فلما قدم حميد أراد العبور إليه فأخذه المعبر ، فذهب إلى إبراهيم فحبسه عنده ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم إنه خلّى عنه ليلة الاثنين ليلة خلت من ذي الحجة .

* * *

[ذكر خبر اختفاء إبراهيم بن المهدي]

وفي هذه السنة اختفى إبراهيم بن المهدي ، وتغيّب بعد حربٍ بينه وبين حميد بن عبد الحميد ، وبعد أن أطلق سعد بن سلامة من حبسه .

* ذكر الخبر عن اختفائه والسبب في ذلك :

ذكر أن سهل بن سلامة كان الناس يذكرون أنه مقتول ، وهو عند إبراهيم محبوس ؛ فلما صار حميد إلى بغداد ودخلها أخرجه إبراهيم . وكان

يدعو في مسجد الرصافة كما كان يدعو ، فإذا كان الليل ردة إلى حيسه ؛ فكث بذلك أياماً ، فأتاه أصحابه ليكونوا معه ، فقال لهم : الزموا بيوتكم ، فلما أرزأ هذا - يعني إبراهيم - فلما كان ليلة الاثنين ليلة خلت من ذي الحجة خلى سبيله ، فذهب فاخفى ، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقواده أن حميداً قد نزل في أرحاء عبد الله بن مالك ، تحول عامتهم إليه ، وأخذوا له المدائن ؛ فلما رأى ذلك إبراهيم ، أخرج جميع من عنده حتى يقاتلوا ، فالتقوا على جسر نهر ديكالى ، فاقتتلوا ، فهزمهم حميد ، ففقطعوا الجسر ، فتبعهم أصحابه حتى أدخلوهم بيوت بغداد ، وذلك يوم الخميس لانسلاخ ذي القعدة .

فلما كان يوم الأضحى أمر إبراهيم القاضي أن يصلى بالناس في عيساباذ ، فصلّى بهم فانصرف الناس ، واخفى الفضل بن الربيع ، ثم تحول إلى حميد ، ثم تحول على بن ريطة إلى عسكر حميد ، وجعل الهاشميون والقواد يلحقون بحميد واحداً بعد واحد ؛ فلما رأى ذلك إبراهيم أسقط في يديه ، فشق عليه . وكان المطلب يكاتب حميداً على أن يأخذ له الجانب الشرقى ، وكان سعيد ابن الساجور وأبو البطّ وعبدويه وعدة معهم من القواد يكاتبون على بن هشام ، على أن يأخذوا له إبراهيم ؛ فلما علم إبراهيم بأمرهم وما اجتمع عليه كل قوم من أصحابه ، وأنهم قد أحدقوا به ، جعل يُبدّرهم ، فلما جنته الليل اخفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين ، وبعث المطلب إلى حميد يعلمه أنه قد أحدق بدار إبراهيم هو وأصحابه ؛ فإن كان يريد فليأته .

١٠٣٥/٣

وكتب ابن الساجور وأصحابه إلى على بن هشام ، فركب حميد من ساعته ؛ وكان نازلاً في أرحاء عبد الله ، فأقى باب الجسر ، وجاء على بن هشام حتى نزل نهر بيسن ، وتقدم إلى مسجد كوثر ، وخرج إليه ابن الساجور وأصحابه ، وجاء المطلب إلى حميد ، فلقوه بباب الجسر ، فغربهم ووعدهم ونبأهم أن يعلم المأمون ما صنعوا ، فأقبلوا إلى دار إبراهيم ، وطلبوه فيها فلم يجدوه ، فلم يزل إبراهيم متوارباً حتى قدم المأمون وبعد ما قدم حتى كان من أمره ما كان .

وقد كان سهل بن سلامة حيث اختفى وتحوّل إلى منزله وظهر ، وبعث إليه حميد ، فقرّبه وأدناه ، وحمله على بغل ، وردّه إلى أهله ؛ فلم يزل مقيماً حتى قدم المأمون ، فأثاءه فأجازه ووصله ، وأمره أن يجلس في منزله .

* * *

وفي هذه السنة انكسفت الشمس يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذى الحجة حتى ذهب ضوءها ، وكان غاب أكثر من ثلثيها ، وكان انكسافها ارتفاع النهار ، فلم يزل كذلك حتى قرب الظهر ثم انجلت .

فكانت أيام إبراهيم بن المهدي كلها سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً .

وغلب على بن هشام على شرق بغداد وحميد بن عبد الحميد على غربيها ، وصار المأمون إلى همدان في آخر ذى الحجة

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي .

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

* * *

[خبر قدوم المأمون إلى بغداد]

فمما كان فيها من ذلك قدوم المأمون العراق، وانقطاع مادة الفتن ببغداد .

* ذكر الخبر عن مقدمه العراق وما كان فيه بها عند مقدمه :

ذكر عن المأمون أنه لما قدم جرجان أقام بها شهراً ، ثم خرج منها ، فصار إلى الري في ذي الحجة ، فأقام بها أياماً ، ثم خرج منها ، فجعل يسير المنازل ، وقيم اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان ؛ وذلك يوم السبت ، فأقام فيه ثمانية أيام ، وخرج إليه أهل بيته والقواد وجوه الناس ، فسلموا عليه ؛ وقد كان كتب إلى طاهر بن الحسين من الطريق وهو بالرقعة ، أن يوافيه إلى النهروان ، فوافاه بها ، فلما كان السبت الآخر دخل بغداد ارتفاع النهار ، لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين ، ولباسه ولباس أصحابه ؛ أقيبتهم وقلانسهم وطراداتهم وأعلامهم كلها الحضرة . فلما قدم نزل الرصافة ، وقدم معه طاهر ، فأمره بنزول الخيزرانية مع أصحابه ، ثم تحول فنزل قصره على شط دجلة ، وأمر حميد بن عبد الحميد وعلى بن هشام وكل قائد كان في عسكره أن يقيم في عسكره ؛ فكانوا يختلفون إلى دار المأمون في كل يوم ؛ ولم يكن يدخل عليه أحد إلا في الثياب الخضر ، ولبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون ، فكانوا يخرقون كل شيء يروونه من السواد على إنسان إلا القلنسوة ؛ فإنه كان يلبسها الواحد بعد الواحد على خوف ووجل ؛ فأما قباء أو علم فلم يكن أحد يجترئ أن يلبس شيئاً من ذلك ولا يحمله . فكشوا بذلك ثمانية أيام ؛ فتكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة ، وقالوا له :

١٠٣٧/٣

يا أمير المؤمنين ، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتهم ، ولبست الخضره .
وكتب إليه في ذلك قوَاد أهل خراسان .

وقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه ، فكان أوّل حاجة سأله
أن يطرح لباس الخضره ، ويرجع إلى لبس السواد وزىّ دولة الآباء ؛ فلمّا رأى
١٠٣٨/٣ طاعة الناس له في لبس الخضره وكراهتهم لها ، وجاء السبّ قعد لهم وعليه
ثياب خضَر ، فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سواد
فألبسها طاهراً ، ثم دعا بعدة من قوَادِه ، فألبسهم أقبية وقلانس سوداً^(١) ؛ فلما
خرجوا من عنده وعليهم السواد ، طرح سائر القواد والجند لبس الخضره ، ولبسوا
السواد ، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر .

وقد قيل : إن المأمون لبس الثياب الخضراء بعد دخوله بغداد سبعة وعشرين ،
ثم مزقت .

وقيل : إنه لم يزل مقيماً ببغداد في الرصافة حتى بنى منازل على شطّ دجلة
عند قصره الأول ؛ وفي بستان موسى .

و ذكر عن إبراهيم بن العباس الكاتب ، عن عمرو بن مسعدة ، أن أحمد
ابن أبي خالد الأحول قال : لما قدمنا من خراسان مع المأمون وصرنا في عقبه
حلوان — وكنت زميله — قال لي : يا أحمد ، إني أجدر رائحة العراق ، فأجبتُ
بغير جوابه ، وقلت : ما أخلقه ! قال : ليس هذا جوابي ، ولكني أحسبك
سهوت أو كنت مفكراً ، قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فيم فكرت ؟
قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، فكرت في هجومنا على أهل بغداد وليس
معنا إلا خمسون ألف درهم ، مع فتنة غلبت على قلوب الناس ، فاستعذبوها ،
فكيف يكون حالنا إن هاج هائج ، أو تحرك متحرك ! قال : فأطرق ملياً ،
ثم قال : صدقت يا أحمد ، ما أحسن ما فكرت ؛ ولكني أخبرك ؛ الناس
١٠٣٩/٣ على طبقات ثلاث في هذه المدينة : ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ؛ فأما
الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمساكتنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف
إلا بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه . فوالله ما كان إلا كما قال .

(١) ط : « سواد » ، وما أثبتته من ا .

وأمر المأمون في هذه السنة بمقاسمة أهل السواد على الخمسين ؛ وكانوا يقاسمون على النصف ، واتخذ القفيز الملجم ^(١) - وهو عشرة مكايك بالمكوك الهاروني - كيلا مرسلًا .

* * *

وفي هذه السنة واقع يحيى بن معاذ بابل ، فلم يظفر واحد منهما بصاحبه .
 وولّى المأمون صالح بن الرشيد البصرة ، وولّى عبيد الله بن الحسن ^(٢) بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب الحرّمي .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن .

(١) ابن الأثير : « الملجم » .
 (٢) ابن الأثير : « الحسن » .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث *

* * *

[ولاية طاهر بن الحسين خراسان]

فمن ذلك تولية المأمون فيها طاهر بن الحسين من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق ؛ وقد كان قبل ذلك ولّاه الجزيرة والشَّـرَطَ وجانبي بغداد ومعاون السواد ، وقعد للناس .

* ذكر الخبر عن سبب توليته :

وكان سبب توليته إياه خراسان والمشرق ، ما ذكر عن حماد بن الحسن ، عن بشر بن غياث المريسي ، قال : حضرتُ عبد الله المأمون أنا وثمالة ومحمد ابن أبي العباس وعليّ بن الهيثم ، فتناظرنا في التشيع ، فنصر محمد بن أبي العباس الإمامة ، ونصر عليّ بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما ؛ إلى أن قال محمد لعلّي : يا نَبَطِيّ ، ما أنت والكلام ! قال : فقال المأمون — وكان متكئاً فجلس : الشتم عي ، والبذاء لؤم ؛ إنا قد أجبنا الكلام ، وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب ؛ فاجعلا بينكما أصلاً ، فإنّ الكلام فروع ؛ فإذا افرغتم شيئاً رجعتم إلى الأصول . قال : فإننا نقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وذكرنا الفرائض والشرائع في الإسلام ، وتناظرنا بعد ذلك فأعاد محمد لعلّي بمثل المقالة الأولى ، فقال له عليّ : والله لولا جلالة مجلسه وما وهب الله من رأفته ، ولولا ما نهى عنه لأعرتُ جبينك ؛ وبحسبك من جهلك غُسلُك المنبر بالمدينة :

قال : فجلس المأمون — وكان متكئاً — فقال : وما غُسلُك المنبر ؟
التقصير مني في أمرك أو لتقصير المنصور كان في أمر أبيك ؟ لولا أن الخليفة

* من هنا تبدأ المقابلة على نسخة د .

إذا وهب شيئاً استحبنا أن يرجع فيه لكان أقرب شئء بيني وبينك إلى الأرض رأسك ، قم وإياك ما عدت .

١٠٤١/٣

قال : فخرج محمد بن أبي العباس ، ومضى إلى طاهر بن الحسين - وهو زوج أخته - فقال له : كان من قصتي كيت وكيت ؛ وكان يحجب المأمون على النبيذ فتفتح الخادم ، ويأسر يتولى الخلع ، وحسين يسقى ، وأبو مريم غلام سعيد الجوهري يختلج في الحوائج . فركب طاهر إلى الدار ؛ فدخل فتح ، فقال : طاهر بالباب ؛ فقال : إنه ليس من أوقاته ، ائذن له : فدخل طاهر فسلم عليه ، فردّ عليه السلام ، وقال : اسقوه رطلا ، فأخذه في يده اليمنى ، وقال له : اجلس ، فخرج فشربه ثم عاد ، وقد شرب المأمون رطلا آخر ، فقال : اسقوه ثانياً ، ففعل كفعله الأول ، ثم دخل ، فقال له المأمون : اجلس ، فقال يا أمير المؤمنين ؛ ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيده ، فقال له المأمون : ذلك في مجلس العامة ، فأما مجلس الخاصة فطلق ، قال : وبكى المأمون ، وتغرغرت عيناه ، فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين ؛ لم تبكى لا أبكى الله عينيك ! فوالله لقد دانت لك البلاد ، وأذن لك العباد ، وصرت إلى المحبة في كل أمرك . فقال : أبكى لأمر ذكّره ذلّ ، وسره حزن ، ولن يخلو أحد من شجّج ؛ فتكلّم بحاجة إن كانت لك ، قال : يا أمير المؤمنين ، محمد بن أبي العباس أخطأ فأقلبه عثرته ، وارض عنه . قال : قد رضيت عنه ، وأمرت بصلته ، ورددت عليه مرتبته ؛ ولو لا أنه ليس من أهل الأنس لأحضرتُه .

١٠٤٢/٣

قال : وانصرف طاهر ، فأعلم ابن أبي العباس ذلك ، ودعا بهارون بن جيفويه^(١) ؛ فقال له : إن للكتاب عشيرة ، وإن أهل خراسان يتعصب بعضهم لبعض ؛ فخذ معك ثلثمائة ألف درهم ، فأعط الحسين الخادم مائتي ألف ، وأعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف ، وسلّمه أن يسأل المأمون : لم بكى ؟ قال : ففعل ذلك ، قال : فلما تغدّى قال : يا حسين اسقني ، قال : لا والله

لأَسْقِينِكَ أو تقول لى : لَمْ بِكَيْتَ حِينَ دَخَلَ عَلَيْكَ طَاهِر ؟ قَالَ : يَا حُسَيْن ، وَكَيْفَ عُنَيْتَ بِهِذَا حَتَّى سَأَلْتَنِي عَنْهُ ! قَالَ : لَغَمَّتْ بِذَلِكَ ، قَالَ : يَا حُسَيْن هُوَ أَمْرٌ إِنْ خَرَجَ مِنْ رَأْسِكَ قَتَلْتُكَ ، قَالَ : يَا سَيِّدِي ، وَمَتَى أَخْرَجْتُ لَكَ سِرًّا ! قَالَ : إِنِّي ذَكَرْتُ مُحَمَّدًا أَخِي ، وَمَا نَالَهُ مِنَ الذَّلَّةِ ، فَخَنَقْنِي الْعَبْرَةُ فَاسْتَرَحْتُ إِلَى الْإِفَاضَةِ ، وَلَنْ يَفُوتَ طَاهِرًا مِنِّي مَا يَكْرَهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْ حُسَيْن طَاهِرًا بِذَلِكَ ؛ فَرَكِبَ طَاهِرٌ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ الشَّاءَ مِنِّي لَيْسَ بِرَخِيصٍ ، وَإِنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدِي لَيْسَ بِضَائِعٍ ، فغِيَّبَنِي عَنْ عَيْنِهِ ، فَقَالَ لَهُ : سَأَفْعَلُ ، فَبَكَرْتُ إِلَى غَدَا . قَالَ : فَرَكِبَ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : مَا نَمْتُ الْبَارِحَةَ ، فَقَالَ : لَمْ وَيَحْك ! فَقَالَ : لِأَنَّكَ وَلَيْتَ غَسَّانَ خُرَاسَانَ ، وَهُوَ وَمَنْ مَعَهُ أَكَلَةُ رَأْسٍ ، فَأَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ خَارِجَةٌ مِنَ التُّرْكِ فَتَصْطَلِمَهُ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ ، قَالَ : فَمَنْ تَرَى ؟ قَالَ : طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ ، قَالَ : وَيَلِكُ يَا أَحْمَدُ ! هُوَ وَاللَّهِ خَالِعٌ ، قَالَ : أَنَا الضَّامِنُ لَهُ ، قَالَ : فَأَنْقِذْهُ ، قَالَ : فَدَعَا بِطَاهِرٍ مِنْ سَاعَتِهِ ، فَعَقَدَ لَهُ ؛ فَشَخَّصَ مِنْ سَاعَتِهِ ، فَتَزَلَّ فِي بَسْتَانِ خَالِيلِ بْنِ هَاشِمٍ ، فَحَمَلَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ١٠٤٣/٣ مَا أَقَامَ فِيهِ مِائَةَ أَلْفٍ . فَأَقَامَ شَهْرًا ، فَحَمَلَ إِلَيْهِ عَشْرَةُ آلَافٍ أَلْفٍ ، الَّتِي تَحْمَلُ إِلَى صَاحِبِ خُرَاسَانَ .

قَالَ أَبُو حَسَانَ الزِّيَادِيُّ : وَكَانَ قَدْ عَقَدَ لَهُ عَلَى خُرَاسَانَ وَالْجِبَالِ مِنْ حُلْوَانَ إِلَى خُرَاسَانَ ، وَكَانَ شَخْوَصُهُ مِنْ بَغْدَادَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِلَّيْلَةِ بَقِيَتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةً خَمْسٍ وَمِائَتَيْنِ ، وَقَدْ كَانَ عَسْكَرٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِشَهْرَيْنِ ، فَلَمْ يَزَلْ مُقِيمًا فِي عَسْكَرِهِ . قَالَ أَبُو حَسَانَ : وَكَانَ سَبَبُ وِلَايَتِهِ - فِيمَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ - أَنْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمُطَوَّعِيَّ جَمَعَ جُمُوعًا بَنِي سَابُورَ لِيُقَاتِلَ بِهِمُ الْحُرُورِيَّةَ بِغَيْرِ أَمْرٍ وَإِلَى خُرَاسَانَ ، فَتَخَوَّفُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِأَصْلِ عَمَلِهِ عَلَيْهِ . وَكَانَ غَسَّانُ بْنُ عِبَادٍ يَتَوَلَّى خُرَاسَانَ مِنْ قِبَلِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلٍ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ .

وَذَكَرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ أَنَّ طَاهِرَ بْنَ الْحُسَيْنِ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى خُرَاسَانَ وَوِلَايَتِهِ لَهَا ، نَذَبَهُ الْحُسَيْنُ بْنُ سَهْلٍ لِلْخُرُوجِ إِلَى مُحَارَبَةِ نَصْرِ بْنِ شَبِثٍ ، فَقَالَ :

حاربتُ خليفة ، وسقتُ الخلافة إلى خليفة ، وأمر بمثل هذا ! وإنما كان ينبغي أن توجه لهذا قائداً من قوادي ؛ فكان سبب المصارمة بين الحسن وظاهر .

قال : وخرج ظاهر إلى خراسان لما تولّاها ، وهو لا يكلم الحسن بن سهل ، ف قيل له في ذلك ، فقال : ما كنت لأحلّ عقدة عقدها لي في مصارمته .

١٠٤٤/٣

* * *

وفي هذه السنة ورد عبد الله بن ظاهر بغداد منصرفاً من الرقة ، وكان أبوه ظاهر استخلفه عليها ، وأمره بقتال نصر بن شبث ، وقدم يحيى بن معاذ فولّاه المأمون الجزيرة .

وفيها ولّى المأمون عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابل .

وفيها مات السريّ بن الحكم بمصر ، وكان واليها .

وفيها مات داود بن يزيد عامل السند ، فولّاها المأمون بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم .

وفيها ولّى المأمون عيسى بن يزيد الجلوديّ محاربة الزطّ .

وفيها شخص ظاهر بن الحسين إلى خراسان في ذى القعدة ، وأقام شهرين حتى بلغه خروج عبد الرحمن النيسابوريّ المطوعيّ بنيسابور ، فشخص ووافي التغرغزيّة أشروسنة .

وفيها أخذ فرج الرثخجيّ عبد الرحمن بن عمار النيسابوريّ .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن ، وهو والي الحرمين .

ثم دخلت سنة ست ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك تولية المأمون داود بن ماسجور محاربة الزطّ وأعمال ١٠٤٥/٣ البصرة وكُور دجلة واليامة والبحرين .

وفيهما كان المدّ الذي غرق منه السواد وكَسْكَر وقطيعه أم جعفر وقطيعه العباس وذهب بأكثرها .

وفيهما نَسَكَبَ بابلك بعيسى بن محمد بن أبي خالد .

* * *

[ولاية عبد الله بن طاهر على الرقة]

وفيهما ولّى المأمون عبد الله بن طاهر الرقة لحرب نصر بن شَبَثْ ومُضَر .

* ذكر الخبر عن سبب توليته إياه :

وكان السبب في ذلك — فيما ذكر — أن يحيى بن معاذ كان المأمون ولأه الجزيرة؛ فمات في هذه السنة، واستخلف ابنه أحمد على عمله ، فذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، أن المأمون دعا عبد الله بن طاهر في شهر رمضان ، فقال بعض : كان ذلك في سنة خمس ومائتين ، وقال بعض : في سنة ست . وقال بعض : في سنة سبع . فلما دخل عليه ، قال : يا عبد الله أستخير الله منذ شهر ، وأرجو أن يخير الله لي ، ورأيت الرجل يصف ابنه لي طريه لرأيه فيه ، ويرفعه ، ورأيتك فوق ما قال أبوك فيك ، وقد مات يحيى ابن معاذ ، واستخلف ابنه أحمد بن يحيى ، وليس بشيء ، وقد رأيت توليتك مُضَر ومحاربة نصر بن شَبَثْ ، فقال : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن يجعل الله الخيرة لأمر المؤمنين والمسلمين .

١٠٤٦/٣ قال : فعقد له ، ثم أمر أن تقطع حبال القصارين عن طريقه ، وتُسَحَّى عن الطرقات المظال ، كيلا يكون في طريقه ما يردّ لواءه ، ثم عقد له لواء

مكتوباً عليه بصُفْرة ما يكتب على الأولوية؛ وزاد فيه المأمون: « يا منصور » ،
 وخرج ومعه الناس فصار إلى منزله ؛ ولما كان من غدٍ ركب إليه الناس ،
 وركب إليه الفضل بن الربيع ؛ فأقام عنده إلى الليل ؛ فقام الفضل ، فقال
 عبد الله : يا أبا العباس ، قد تفضلت وأحسن ، وقد تقدّم أبى وأخوك إلى
 ألا أقطع أمراً دونك ، وأحتاج أن أستطلع رأيك ، وأستضيء بمشورتك ؛ فإن
 رأيت أن تقيم عندي إلى أن نُفطر فافعل .

فقال له : إن لي حالات ليس يمكنني معها الإفطار ها هنا . قال : إن
 كنت تكره طعام أهل خراسان فابعث إلى مطبخك يأتون بطعامك ، فقال له :
 إن لي ركعات بين العشاء والعَتَمَة ، قال : فني حفظ الله ؛ وخرج معه إلى
 صحن داره يشاوره في خاصّ أموره .

وقيل : كان خروج عبد الله الصحيح إلى مَضر ؛ لقتال نصر بن شبث
 بعد خروج أبيه إلى خراسان ، بستّة أشهر .

* * *

[وصية طاهر إلى ابنه عبد الله]

وكان طاهر حينَ ولى ابنه عبد الله ديار ربيعة ، كتب إليه كتاباً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه
 وحفظ رعيّتك ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر
 إليه ؛ وموقوف عليه ، ومستول عنه ؛ والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ،
 وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ؛ فإن الله قد أحسن إليك وأوجب
 عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمتك العدل عليهم ، والقيام
 بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبسيّئتهم ، والحقق
 لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك
 بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومُسائلتك عنه ، ومُشيكك عليه بما قد متَّ

وأخترت ؛ ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يذْهَلْ (١) عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلْ عنه شاغل ؛ فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأوّل ما يوفقك الله به لرشدك .

وليكن أوّل ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ؛ المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها ؛ في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها . وترتل في قراءتك ، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهّدك ، ولتصدّق فيها لربك نيّةك (٢) . واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها تتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ؛ وإذا ورد عليك أمر فاستعنّ عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه ؛ من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قم فيه بما يحقّ لله عليك ، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد . وآثر الفقه وأهله ، والدّين وحسنته ، وكتاب الله والعاملين به ؛ فإن أفضل ما تزيّن به المرء الفقه في دين الله ، والطلب له ، والحثّ عليه ، والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله ؛ فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها . وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ ، وإجلالا له ، ودركاً للدرجات العلا في المعاد ؛ مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسة بك والثقة بعدلك .

وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ؛ فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أحضر (٣) أمناً ، ولا أجمع فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق منقاد إلى السعادة . وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتقاد ،

(١) ذهلت على الشيء : غفلت ، وقد يتعدى بنفسه .

(٢) ابن الأثير : « وليصدق فيه رأيك ونيّتك » .

(٣) ابن الأثير : « أخص » .

فأثره في دنياك كلها ، ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ؛ إذا كان يُطلب به وجه الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه في دار كرامته .

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ ، ويحصّن من الذنوب ، وإنك لن تحوط نفسك ومنّ يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به ، تمّ أمورك ، وتزوّد مقدرتك ، وتصلح خاصّتك وعامتك .

وأحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ تستقيم لك رعيّتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلّها تستدم به النعمة عليك ؛ ولا تسنّض^(١) أحداً من الناس فيما تولّيه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ؛ فإنّ إيقاع التّهم بالبرّاء^(٢) والظنون السيئة بهم مأثم . واجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك ، واطرد عنهم سوء الظنّ بهم ، وارفضه عنهم يُغنك^(٣) ذلك على اصطناعهم ورياضتهم . ولا يجدنّ عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمزاً ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما ينغصك لذادة عيشك .

١٠٥٠/٣

واعلم أنّك تجد بحسن الظنّ قوةً وراحة ، وتكفي به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبّتك والاستقامة في الأمور كلّها لك . ولا يمنّعك حسن الظنّ بأصحابك والرّافة برعيّتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمر الأولياء ، والحياطة للرعيّة والنظر فيما يقيمها ويصلحها ؛ بل لتكن المباشرة لأمر الأولياء والحياطة للرعيّة والنظر في حوائجهم وحمل مؤنّاتهم آثر عندك مما سوى ذلك ؛ فإنه أقوم للدين ، وأحيا للسنة .

وأخلص نيّتك في جميع هذا ، وتفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع ، ومجزئٌ بما أحسن ، ومأخوذٌ بما أساء ؛ فإن الله جعل الدين حرزاً وعزّاً ، ورفع من اتّبعه وعزّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى . وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ، وما استحقّوه . ولا تُعطلّ ذلك ولا تهاون به . ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة ؛ فإنّ في تفريطك

(٢) ابن الأثير : « بالبداء » .

(١) ابن الأثير : « ولا تسنّض » .

(٣) ابن الأثير : « يغنك » .

فى ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك .

واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشبهة والبدعات ،
يسامك لك دينك ، وتقم لك مروءتك . وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا
وعدت الخير فأنجزه ؛ وأقبل الحسنة ، وادفع بها ، واغمض عن عيب كل
ذى عيب من رعيته ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهله ،
وأقص أهل النميمة ؛ فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وأجلها تقريب
الكذوب والجرأة على الكذب ؛ لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة
خاتمتهما ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا
يستقيم لمطيعها أمر .

وأحب أهل الصدق والصلاح ، وأعن الأشراف بالحق ، وواصل
الضعفاء ، وصل الرّحم ، وابغ بذلك وجه الله وعزة أمره ، واتمس فيه ثوابه
والدار الآخرة .

واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك
من ذلك لرعيته ؛ وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى
تنتهى بك إلى سبيل الهدى . واملئ نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ،
وإيّاك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول إننى مسلط أفعل ما أشاء ؛ فإن ذلك سريع فيك إلى نقص
الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لاشريك له . وأخلص لله النية فيه واليقين به ؛
واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة
وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط
لهم فى الدولة إذا كفر أو بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله .
ودع عنك شره نفسك . ولتكن ذخائك وكنوزك التى تدخر وتكثر البر والتقوى
والمعدلة واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموالهم ، والحفظ
لدهماتهم ، والإغاثة للمهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ؛ وإذا كانت
فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت ، وصلحت

به العامة ، وتزيّنت الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العزّ والمنّعة ؛ فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيّتك من ذلك حصصهم ، وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قرّرت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب أنفساً لكل ما أردت .

١٠٥٣/٣

فاجهد^(١) نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك^(٢) فيه ؛ فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه . وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحقّ عليك ؛ فإنّ التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار . وليكن عمالك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارحُ الثواب ؛ فإنّ الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضلته ؛ فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإنّ الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين ؛ وقضِ الحقّ فيما حمل من النعم ، والبس من العافية والكرامة . ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمايلن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كنفوراً ، ولا تدهنن عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمنن غداراً ؛ ولا توالين فاسقاً ، ولا تتبعن غاويّاً^(٣) ، ولا تحمدن مرأئياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تعجين^(٤) باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهبن فجراً^(٥) ، ولا تعملن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين مَرَحاً^(٦) ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عياناً^(٧) ، ولا تغمضن عن الظالم رهبةً أو مخافةً ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا . وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة .

١٠٥٤/٣

-
- (١) ابن الأثير : « واجهد » .
 (٢) ابن الأثير : « ولا تبغين عادياً » .
 (٣) ابن الأثير : « ولا تبغين عادياً » .
 (٤) ابن الأثير : « ولا تبغين عادياً » .
 (٥) ابن الأثير : « فاجراً » .
 (٦) ابن الأثير : « لا تأسن مدحاً » .
 (٧) ابن الأثير : « ولا تدفع الأنام عتاباً » .

ولا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدِّقَّةِ ^(١) ، والبخل ، ولا تسمعنَّ لهم قولاً ؛ فإنَّ ضرَّهم أكثر من منفعتهم . وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشَّحِّ . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ؛ وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ؛ فإنَّ رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكفِّ عن أموالهم وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشَّحَّ ، واعلم أنه أول ما عَصَى به الإنسان ربه ، وأن العاصي بمنزلة خزي ؛ وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) ؛ فسهِّل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فاعدده لنفسك خلقاً ، وارض به عملاً ومذهباً .

١٠٥٥/٣

وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبتهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ؛ ليذهبَ بذلك الله فاقتهم ، ويقومَ لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقتة وبره وتوسعته ؛ فزابل مكروه إحدى البائتين باستشعار تكملة الباب الآخر ، ولزوم العمل به تلقى إن شاء الله نجاحاً وصلاًحاً وفلاحاً .

واعلم أنَّ القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعادل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل ، تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ، ويؤدَّى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل فى القضاء .

واشتدَّ في أمر الله ، وتورَّع عن النَّطَفِ ^(٣) وامض لإقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وأبعد من الضَّجَرِ والقلق ، واقنع بالقَسَمِ ، ولتسكن ريحك ، وبقر جدك ، وانفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، واسدد فى منطقتك ، وأنصف الخصم ،

(١) ابن الأثير : « أهل الدقة » .

(٢) سورة التغابن ١٦ .

(٣) النطف : العيب والفساد ، وفى ابن الأثير « القصف » .

وقف عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحدٍ من رعبتك محابة ولا محاماة ، ولا لومٍ لأنهم ، وثبتت وأن ، وراقب وانظر ، وتدبر وتفكر ، واعتبر ، وتواضع لربك ، وأراف بجميع الرعية ، وسأط الحق على نفسك^(١) ، ولا تسرعن إلى سفك دم — فإن الدماء من الله بمكان عظيم — انتهاكاً لها بغير حقها .

وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة^(٢) ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كسباً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهدتهم^(٣) ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل ، والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، وعن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحدٍ من خاصتك . ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط . وأحمل الناس كلهم على مر الحق ؛ فإن ذلك أجمع لألفتهم^(٤) وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جعلت بولايتك خزاناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمي أهل عملك رعبتك ؛ لأنك راعيتهم وقيمتهم ؛ تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم ، وتقويم أودهم ؛ فاستعمل عليهم في كُور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق ؛ فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ؛ فإنك متى آثرته وقُمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحداث في أعمالك ، واحترزت النصيحة^(٥) من رعبتك ، وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحياتك ، وظهر الخصب في كُورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرّت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإقامة^(٦) العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها

١٠٥٧/٣

(١) ابن الأثير : « فتسلط الحق على نفسك » .
 (٢) ابن الأثير : « توسعة » .
 (٣) ابن الأثير : « من معانديهم » .
 (٤) ابن الأثير : « لآفهم » .
 (٥) ابن الأثير : « الحجة » .
 (٦) ابن الأثير : « يا فاضة » .

ذا عدل وقوة ، وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدّم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله .

واجعل في كلّ كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ؛ حتى كأنك مع كلّ عامل في عمله ، معينٌ لأمره كانه . وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ؛ فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه ؛ وإلا فتوقّف عنه . وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ؛ فإنه ربما نظر الرجل في أمرٍ من أمره قد واتاه^(١) على ما يهوى ، فقواه^(٢) ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره .

١٠٥٨/٣

فاستعمل الحزم في كلّ ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرج من عمل يومك ولا تؤخّره لغدك ؛ وأكثر مباشرته بنفسك ؛ فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ؛ فإذا أمضيت لكلّ يوم عمله أرحمت نفسك وبدلك ، وأحكمت أمور سلطانتك .

وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طوبيتهم وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ؛ فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤنتهم ، وأصلح حالهم ؛ حتى لا يجدوا خللتهم^(٣) مساً . وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك . والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ؛ فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيّتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم . وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمر المؤمنين أعزه الله ، في العطف عليهم ، والصلة لهم ، ليصلح

١٠٥٩/٣

(٢) ابن الأثير : « فأغواه » .

(١) ابن الأثير : « آتاه » .

(٣) الخلّة : الحاجة .

الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة . وأجبر للأضراء من بيت المال ، وقدّم حَمَلَة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية^(١) على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقوَّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف في بيت المال . واعلم أنّ الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك ، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما برم^(٢) المتصفح لأُمور الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ؛ وليس من يرغب في العدل ، ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل ؛ كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله ، ويلتمس رحمته به . وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وسكّن لهم أحراسك^(٣) ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرتك ، ولين لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بمجودك وفضلك ؛ وإذا أعطيت فأعطي بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدّر ولا منان ؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله .

١٠٦٠/٣

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضي من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الحالية والأمم البائدة ؛ ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ؛ واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ، ودعا إلى سخط الله . واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وينفقون منها . ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليتها ؛ وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سرّ ، وإعلامك ما فيه من النقص ؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك .

وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ؛ فوقت لكل رجل منهم في كل

(٢) ابن الأثير : « تبرم » .

(١) ابن الأثير : « الجراية » .

(٣) ابن الأثير : « حراسك » .

يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرتة ، وما عنده من حوائج عمالك ، وأمر
كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك
وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ؛ فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه
واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه ،
والمسألة عنه .

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من
أحد منهم إلاّ الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تنصن
المعروف إلاّ على ذلك .

وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع
أمورك واستخره ، فإن الله مع الصلاح وأهله ؛ وليكن أعظم سيرتك وأفضل
رغبتك ما كان لله رضا ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ؛ وللذمة والملة عدلاً
وصلاحاً .

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك^(١) ، وأن
يُنزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ؛ حتى يجعلك أفضل
مثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأسناهم ذكراً ، وأمرأً ، وأن يهلك عدوك ومن
ناؤك وبغى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك
وساوسه ، حتى يستعلي أمرُك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

* * *

وذكر أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه ،
وتدارسوه وشاع أمره ؛ حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقى
أبو الطيّب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك
والرعيّة وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلاّ وقد أحكمه ، وأوصى
به وتقدم ؛ وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .
وتوجه عبد الله إلى عمله فسار بسيرته ، واتبع أمره وعمل بما عهد إليه .

(١) ابن الأثير : « وكلاءك » .

وفي هذه السنة ولّى عبد الله بن طاهر إسحاق بن إبراهيم الجسرين ، وجعله خليفته على ما كان طاهر أبوه استخلفه فيه من الشرط وأعمال بغداد ؛ وذلك حين شخص إلى الرقة لحرب نصر بن شيبث .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن ؛ وهو والى الحرمين .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خروج عبد الرحمن بن أحمد العلوي باليمن]

فمن ذلك خروج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاذ عك من اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد صلى الله عليه وسلم .

* ذكر الخبر عن سبب خروجه :

وكان السبب في خروجه أن العمال باليمن أساءوا السيرة ، فبايعوا عبد الرحمن هذا ، فلما باغ ذلك المأمون وجهه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيف ، وكتب معه بأمانه ، فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ، فلما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن ، فبعث إليه بأمانه من المأمون ؛ فقبل ذلك ، ودخل ووضع يده في يد دينار ، فخرج به إلى المأمون ، فنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه ، وأمر بأخذهم بلبس السواد ؛ وذلك يوم الخميس لليلة^(١) بقيث من ذى القعدة .

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة طاهر بن الحسين]

وفي هذه السنة كانت وفاة طاهر بن الحسين .

* ذكر الخبر عن وفاته :

ذكر عن مطهر بن طاهر ، أن وفاة ذى اليمينين كانت من حمى وحرارة أصابته ، وأنه وجد في فراشه ميتاً .

(١) ابن الأثير : « اللتين » .

وذكر أن عمّيه عليّ بن مصعب وأخاه أحمد بن مصعب ، صارا إليه يعودانه ، فسألا الخادم عن خبره - وكان يغلس^(١) بصلاة الصّبح - فقال الخادم : هونأثم لم ينتبه ، فانتظراه ساعة ، فلما انبسط الفجر ، وتأخّر عن الحركة في الوقت الذي كان يقوم فيه للصلاة ، أنكرا ذلك ، وقالا للخادم : أيقظنه ، فقال الخادم : لست أجسرُ على ذلك ، فقالا له : اطرق لنا لتدخل إليه ، فدخلا فوجداه ملتقياً في دُواج^(٢) ، قد أدخله تحته ، وشده عليه من عند رأسه ورجليه ، فحركاه فلم يتحرك ، فكشفا عن وجهه فوجداه قد مات . ولم يعلما الوقت الذي توفّي فيه ، ولا وقف أحد من خدمه على وقت وفاته ؛ وسألا الخادم عن خبره وعن آخر ما وقف عليه منه ؛ فذكر أنه صلى المغرب والعشاء الآخرة ، ثم التفّ في دُواجه . قال الخادم : فسمعتُه يقول بالفارسية كلاماً وهو «دِرْمَرَكْ ينزْمَرْدِي وَيَبَدُ» ؛ تفسيره أنه يحتاج في الموت أيضاً إلى الرّجلة .

١٠٦٤/٣

وذكر عن كلثوم بن ثابت بن أبي سعد - وكان يكنى أبا سعدة - قال : كنت على بَرِيد خُرَاسان ، ومجلسي يوم الجمعة في أصل المنبر ، فلما كان في سنة سبع ومائتين ، بعد ولاية طاهر بن الحسين بسنتين ، حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر ، فخطب ، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدّعاء له ، فقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك ، واكفها مؤونة منّ بغى فيها ، وحشد عليها ، بلمّ الشعث ، وحقن الدّماء ، وإصلاح ذات البين . قال : فقلت في نفسي : أنا أوّل مقتول ؛ لأنّي لا أكتم الخبر ؛ فانصرفت واغتسلت بغسل الموتى ، واثتررت بإزار الموتى ، ولبست قميصاً ، وارنديت رداء ، وطرحت السواد ، وكتبت إلى المأمون . قال : فلمّا صلى العصر دعاني ، وحدّث به حادث في جفن عينه وفي مآقه ، فخرّ ميتاً . قال : فخرج طلحة ابن طاهر ، فقال : ردّوه ردّوه - وقد خرجت - فردّوني ، فقال : هل كتبت

(١) يغلس بالصّبح : يصلّيه في الغلس : وهو آخر ظلمة الليل .

(٢) الدواج ، كرمان وغراب : اللّحاف .

بما كان ؟ قلت : نعم ، قال : فاكتب بوفاته ، وأعطاني خمسمائة ألف ومائتي ثوب ، فكتبت بوفاته وبقيام طلحة بالجيش .

قال : فوردت الخريطة على المأمون بخلعه غدوة ، فدعا ابن أبي خالد فقال له : اشخص : فأت به — كما زعمت ، وضمنت — قال : أبيت ليلتي ، ١٠٦٥/٣ قال : لا لعمري لا تبيت إلا على ظَهْر . فلم يزل يناشده حتى أذن له في المبيت . قال : ووافت الخريطة بموته ليلاً ، فدعاه فقال : قد مات ، فمن ترى ؟ قال : ابنه طلحة ، قال : الصواب ما قلت ، فاكتب بتوليته . فكتب بذلك ، وأقام طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون سبع سنين بعد موت طاهر ، ثم توفى ، وولى عبد الله خراسان — وكان يتولى حرب بابك — فأقام بالدينور ، ووجه الجيوش ، ووردت وفاة طلحة على المأمون ؛ فبعث إلى عبد الله يحيى بن أكرم يعزيه عن أخيه ويهنته بولاية خراسان ، وولّى على بن هشام حرب بابك . وذكر عن العباس أنه قال : شهدت مجلساً للمأمون ، وقد أتاه نعي الطاهر ، فقال : لليدين وللهم ! الحمد لله الذي قدّمه وأخّرنا .

وقد ذكر في أمر ولاية طلحة خراسان بعد أبيه طاهر غير هذا القول ؛ والذي قيل من ذلك ، أن طاهراً لما مات — وكان موته في جمادى الأولى — وثب الجند ، فانتهبوا بعض خزائنه ، فقام بأمرهم سلام الأبرش الخصى ، فأمر فأعطوا رزق ستة أشهر . فصير المأمون عمله إلى طلحة خليفة لعبد الله بن طاهر ؛ وذلك أن المأمون ولّى عبد الله في قول هؤلاء بعد موت طاهر عمل طاهر كله — وكان مقيماً بالرقّة على حرب نصر بن شبث — وجمع له مع ذلك الشام ، وبعث إليه بعهد على خراسان وعمل أبيه ؛ فوجه عبد الله أخاه طلحة بخراسان ، واستخلف بمدينة السلام إسحاق بن إبراهيم ، وكتب المأمون طلحة باسمه ، فوجه المأمون أحمد بن أبي خالد إلى خراسان للقيام بأمر طلحة ، فشخص أحمد إلى ما وراء النهر ، فافتتح أشروسنة ، وأسر كاوس بن خاراخره وابنه الفضل ، وبعث بهما إلى المأمون ، ووهب طلحة لابن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف ، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد بن أبي خالد خمسمائة ألف درهم .

وفي هذه السنة غلا السعر ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ سعر القفيز
من الخنطة بالهاروقى أربعين درهماً إلى الخمسين بالقفيز الملقم .

وفي هذه السنة ولّى موسى بن حفص طبرستان والرويان ودُنْباوند .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو عيسى بن الرشيد .

تَم دَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانٍ وَمِائَتَيْنِ

ذَكَرَ الْخَبَرُ عَمَّا كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ

فَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ مُصِيرِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُصْعَبٍ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى كِرْمَانَ مَمْتَنِعًا بِهَا ، وَمُصِيرِ أَحْمَدَ بْنِ خَالِدٍ إِلَيْهِ حَتَّى أَخَذَهُ ، فَقَدِمَ بِهِ عَلَى الْمَأْمُونِ ، فَعَفَا عَنْهُ .

وَفِيهَا وَلَّى الْمَأْمُونُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَوِيَّ قَضَاءَ عَسْكَرِ الْمَهْدِيِّ فِي الْحَرَمِ .

وَفِيهَا اسْتَعْفَى مُحَمَّدُ بْنُ سَمَاعَةَ الْقَاضِي مِنَ الْقَضَاءِ فَأَعْفَى ، وَلَّى مَكَانَهُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ حَمَّادٍ بْنِ أَبِي حَنِيفَةَ .

وَفِيهَا عَزَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ الْقَضَاءِ بَعْدَ أَنْ وَلَّيْتَهُ فِيهَا فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، وَلَّيْتَهُ بَشَرَ بْنَ الْوَلِيدِ الْكِنْدِيَّ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ :

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَوْحِدُ رَبُّهُ	قَاضِيكَ بَشَرُ بْنُ الْوَلِيدِ حِمَارُ
يَنْفِي شَهَادَةً مَنْ يَدِينُ بِمَا بِهِ	نَطَقَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْأَخْبَارُ
وَيَعُدُّ عَدْلًا مَنْ يَقُولُ بَأْنَهُ	شَيْخٌ يُحِيطُ بِجِسْمِهِ الْأَقْطَارُ

وَمَاتَ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَخْلُوعُ فِي شَعْبَانَ ، وَمَاتَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ .

* * *

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ صَالِحُ بْنُ الرَّشِيدِ .

ثم دخلت سنة تسع ومائتين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[خبر الظفر بنصر بن شبت]

فمن ذلك ما كان من حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبت وتضييقه عليه ؛ حتى طلب الأمان ، فذكر عن جعفر بن محمد العامري أنه قال : قال المأمون لثمامة : ألا تدلّني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة ، يؤدّي عني ما أوجّهه به إلى نصر بن شبت ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد ، قال له : أحضرني ، قال جعفر : فأحضرتي ثمامة ، فأدخلني عليه ، فكلّمني بكلام كثير ، ثم أمرني أن أبلغه نصر بن شبت . قال : فأتيته نصراً وهو يكفر عزّون بسروج ، فأبلغته رسالته ، فأذعن وشرط شروطاً ، منها ألا يبطأ له بساطاً . قال : فأتيته المأمون فأخبرته ، فقال : لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ، ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يبطأ بساطي ؛ وما باله ينفر مني ! قال : قلت : لجرمه وما تقدّم منه ، فقال : أترأه أعظم جرماً ؟ عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد ! أتدري ما صنع بي الفضل ! أخذ قوادي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوصى به لي أبي ، فذهب به إلى محمد وتركني بمرو وحيداً فريداً وأسلمني ، وأفسد عليّ أخي ؛ حتى كان من أمره ما كان ؛ وكان أشدّ عليّ من كل شيء . أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد ! طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي ، وذهب بخراجي وفيّتي ، وأخرب عليّ ديارى ، وأقعد إبراهيم خليفة دوني ، ودعاه باسمي . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في الكلام فأتكلم ؟ قال : تكلم ، قلت : الفضل بن الربيع رضيكم ومولاكم ، وحال سلفه حالكم ، وحال سلفكم حاله ، ترجع عليه بضروب كلّها تردّك إليه ، وأما عيسى بن أبي خالد فرجل

١٠٦٨/٣

من أهل دولتك ، وسابقتُهُ وسابقة مَنْ مَضَى من سلفه سابقتهم ^(١) ترجع عليه بذلك ؛ وهذا رجل ^(٢) لم تكن له يد قطّ فيُحْمَلُ عليها ، ولا لمن مَضَى من سلفه ؛ إنما كانوا من جند بني أمية . قال : إن كان ذلك كما تقول ، فكيف بالحنق والغيط ؛ ولكني لست ألقع عنه حتى يطأ بساطي ، قال : فأنت نصرأ فأخبرته بذلك كله ، قال : فصاح بالخیل صيحة فجالت ، ثم قال : وبلى عليه ! هو لم يقوَ على أربعمئة ضفدع تحت جناحه - يعنى الزط - يقوى على حلبة العرب !

فذكر أن عبد الله بن طاهر لما جاده القتال وحصره وبلغ منه ، طلب الأمان فأعطاه ، وتحول من معسكره إلى الرقة سنة تسع ومائتين ، وصار إلى عبد الله بن طاهر ، وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك بعد أن هزم عبد الله ابن طاهر جيوشه كتاباً يدعوه إلى طاعته ومفارقة معصيته ، فلم يقبل ، فكتب عبد الله إليه - وكان كتاب المأمون إليه من المأمون كتبه عمرو بن مسعدة :

أما بعد ؛ فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلمها وطيب مروتها وما في خلافتها من الندم والخسار ، وإن طالت مدة الله بك ، فإنه إنما يُعْمَلُ لمن يلمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عبره بأهلها على قدر إصرارهم ^(٣) واستحقاقهم . وقد رأيتُ إذكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك ؛ فإن الصدق صدق والباطل باطل ؛ وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعْنَوْنَ به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطائك مني ؛ فبأي أول أو آخر أو سطة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين ! تأخذ أمواله ، وتتولى دونه ما ولّاه الله ، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً ، أو وادعاً أو ساكناً أو هادئاً ! فوعالم السر والجره ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً وبها خانعاً ، لتستوبلن وخيم العاقبة ؛ ثم لأبد أن بك قبل كل عمل ، فإن قرون الشيطان ^(٤) إذا لم تُقَطَّع كانت في الأرض فتنة وفساداً

(٢) ابن الأثير : « وأما نصر فرجل » .

(٤) ف : « الشياطين » .

(١) ابن الأثير : « معروفة » .

(٣) ف : « احترازم » .

كبيراً ، ولأطأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل رعاي أصحابك ، ومن تأشَب^(١) إليك من أداني البلدان وأقاصيها وطغامها وأوباشها ، ومن انضوى إلى حوزتك من خُرباب الناس ، ومن لفظه بلدُه ، ونفته عشيرته ؛ لسوء موضعه فيهم . وقد أعذرَ من أُنذر . والسلام .

١٠٧١/٣

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شبث محارباً له — فيما ذكر — خمس سنين حتى طلب الأمان ؛ فكتب عبد الله إلى المأمون يعلمه أنه حصره وضيقَ عليه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب إليه ، أماناً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ؛ فإن الإعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز ؛ ولا يزال المَعذر بالحق ، المحتج بالعدل في استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ؛ حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكن وهو خير الممكنين ؛ ولست تعدو أن تكون فيما لهجت به أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملتمس دنيا ، أو متهوراً يطلب الغلبة ظلماً ؛ فإن كنت للدين تسعى بما تصنع ، فأوضح ذلك لأمر المؤمنين يغتم قبوله إن كان حقاً ، فلعمري ما همته الكبرى ، ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال ؛ وإن كنت للدنيا تقصد ، فأعلم أمير المؤمنين غايتك فيها ؛ والأمر الذي تستحقها به ؛ فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك . فلعمري ما يستجير من منع خلق ما يستحقه وإن عظم ، وإن كنت متهوراً فسيكفي الله أمير المؤمنين مؤنتك ، ويعجل ذلك^(٢) كما عجل كفايته مؤن قوم سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يداً ، واكتشف جنداً ، وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما أصرهم إليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من جوائح الظالمين . وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوائف جرائمك ، ومتقدّمات جرائمك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة إن أتيت وراجعت ؛ إن شاء الله . والسلام .

١٠٧٢/٣

(٢) ف : « ويعجل في ذلك » .

(١) ف : « ومن إليك » .

ولما خرج نصر بن شيبث إلى عبد الله بن طاهر بالأمان هدم كيسوم
وخرّبها .

* * *

وفي هذه السنة ولّى المأمون صدقة بن عليّ المعروف بـزريق أرمينية وأذربيجان
ومحاربة بابك ، وانتدب للقيام بأمره أحمد بن الجعيد بن فرزندى الإسكافى ،
ثم رجع أحمد بن الجعيد بن فرزندى إلى بغداد ، ثم رجع إلى الحرّمية ، فأسره
بابك ، فولّى إبراهيم بن الليث بن الفضل التجيبيّ أذربيجان .

* * *

وحجّ بالناس فى هذه السنة صالح بن العباس بن محمد بن عليّ ، وهو ١٠٧٣/٣
والى مكة .

وفيه مات ميخائيل بن جورجس صاحب الروم ، وكان ملكه تسع
سنين ، وملك الروم عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وصول نصر بن شبيب فيها إلى بغداد ، وجهه به عبدالله بن طاهر إلى المأمون ، فكان دخوله إليها يوم الاثنين لسبع خلون من صفر ، فأنزله مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه .

* * *

[ذكر الخبر عن ظفر المأمون بابن عائشة ورفقائه]

وفيهما ظهر المأمون على إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، الذى يقال له ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الأفریقی ومالك بن شاهى وفرج البغوارى ومن كان معهم ممن كان يسعى فى البيعة لإبراهيم بن المهدي ، وكان الذى أطلعه عليهم وعلى ما كانوا يسعون فيه من ذلك عمران القَطْرَبَشلى ؛ فأرسل إليهم المأمون يوم السبت — فيما ذكر — لخمس خلون من صفر سنة عشر ومائتين ؛ فأمر المأمون بإبراهيم بن عائشة أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ، ثم ضربه يوم الثلاثاء بالسيّاط ، ثم حبسه فى المطبق ، ثم ضرب (١) مالك بن شاهى وأصحابه ، وكتبوا للمأمون أسماء ممن دخل معهم فى هذا الأمر من القواد والجنود (٢) وسائر الناس ، فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا له ؛ ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا (٣) أقواماً برأء ، وكانوا اتعدوا أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجنود يلقون نصر بن شبيب ، فغضبهم فأخذوا ، ودخل نصر بن شبيب بعد ذلك وحده ؛ ولم يوجه إليه أحد من الجنود ، فأنزله عند إسحاق بن إبراهيم ، ثم حوّل إلى مدينة أبي جعفر .

١٠٧٤/٣

* * *

(٢) ف : « ومن الجنود » .

(١) من : « وضرب » .

(٣) من : « قرفوا قيوماً » .

[ذكر خبر الظفر بإبراهيم بن المهدي]

وفيهما أخذ إبراهيم بن المهدي ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر ، وهو منتقّب مع امرأتين في زى امرأة ؛ أخذه حارس أسود ليلاً ، فقال : من أنتن ؟ وأين تردن في هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم - فيما ذكر - خاتم ياقوت كان في يده ، له قدر عظيم ؛ ليخلسيهن^(١) ، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن^٢ ، وقال : هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعهن إلى صاحب المسلحة ، فأمرهن أن يسفرن ، فتمتنع إبراهيم ، فجبذه صاحب المسلحة ، فبذت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه ؛ فذهب به إلى باب المأمون ، فأعلم به ؛ فأمر بالاحتفاظ به في الدار ؛ فلما كان غداة الأحد أقعد في دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند ، وصيروا المقنعة التي كان منتقّباً بها في عنقه ، والملحفة التي كان ملتحفاً بها في صدره ، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوّل المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده ، ثم أخرجه المأمون معه حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط ، فقال الناس : إن الحسن كلمه فيه ، فرضى عنه وخلص سبيله ، وصيره عند أحمد بن أبي خالد ، وصيّر معه أحمد بن^(٢) يحيى بن معاذ وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه ؛ إلا أنه موسّع عليه ، عنده أمّه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون ، وهؤلاء معه يحفظونه .

* * *

[ذكر خبر قتل ابن عائشة]

وفي هذه السنة قتل المأمون إبراهيم بن عائشة وصلبه .

* ذكر الخبر عن سبب قتله إياه :

كان السبب في ذلك أن المأمون حبس ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الأفرقيّ ورجلين من الشُّطّار ، يقال لأحدهما أبو مسمار وللاخر عمّار ، وفرج البغواريّ ومالك بن شاهي وجماعة معهم ممن كان سعى في البيعة لإبراهيم ؛ بعد أن

(١) ف : « ليخليه » . (٢) كذا في ١ ، وفي ط : « ابن يحيى » .

ضُربوا بالسياط ما خلا عَمَّاراً ، فإنه أومن لما كان من إقراره على القوم في المطبق ، فرفع بعض أهل المطبق أنهم يريدون أن يشغبوا وينقبوا السجن - وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدوا باب السجن من داخل فلم يدعوا أحداً يدخل عليهم - فلما كان الليل وسمعوا شغبهم ، بلغ المأمون خبرهم ، فركب إليهم من ساعته بنفسه ، فدعا بهؤلاء الأربعة فضرب أعناقهم صبراً ، وأسمعه ابن عائشة شتماً قبيحاً ؛ فلما كانت الغداة صُلبوا على الجسر الأسفل ؛ فلما كان من الغداة يوم الأربعاء أنزل إبراهيم بن عائشة ، فكفّن وصلى عليه ، ودفن في مقابر قریش ، وأنزل ابن الأفریقی فدفن في مقابر الخيزران وترك الباقيون .

١٠٧٦/٣

* * *

[العفو عن إبراهيم بن المهدي]

وذكر أن إبراهيم بن المهدي لما أخذ صير به إلى دار أبي إسحاق بن الرشيد - وأبو إسحاق عند المأمون - فحُمل رديفًا لفرج التركي ؛ فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ! فقال : يا أمير المؤمنين ، وليّ الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه ؛ وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ؛ كما جعل كلّ ذى ذنب دونك ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، قال : بل أعفو يا إبراهيم ، فكبر ثم خرّ ساجداً .

وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختفٍ ، فوقع المأمون في حاشية رقعته : «القدر تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكبر ما نسأله » ، فقال إبراهيم يمدح المأمون (١) :

يا خير من ذمّت يمانية به (٢) بعد الرسول لايس ولطامع (٣)
وأبر من عبّد الإله على التقى عينا وأقوله بحق صادع
عسل الفوارع ما أطعت فإن تهج فالصّاب يُمزج بالسّام الناقع

١٠٧٧/٣

(٢) ابن الأثير : « رقت » .

(١) الأغاني : ١٠ : ١١٧

(٣) الأغاني « أو طامع » ابن الأثير : « أو طامع » .

مَتَيْقِظًا حَلِيزًا وَمَا يَخْشَى الْعِدَى
 مُلِثْتُ قُلُوبَ النَّاسِ مِنْكَ مَخَافَةً
 بَأْبَى وَأُمِّي فِدِيَّةٌ وَبَيْنَهُمَا ^(١)
 مَا أَلَيْنَ الْكَنَفَ الَّذِي بَوَّأَنِي
 لِلصَّالِحَاتِ أَخًا جُعِلَتْ وَلِلتَّقَى
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ إِذْ تَضَلُّ مُعَاذِرِي
 أَمَلًا لِفَضْلِكَ وَالْفَوَاضِلُ شِيْمَةٌ
 فَبَذَلْتَ أَفْضَلَ مَا يَضِيقُ بِيْذِلِهِ
 وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ
 إِلَّا الْعُلُوَّ عَنِ الْعُقُوبَةِ بَعْدَمَا
 فَرَحِمْتَ أَطْفَالَكَ كَأَفْرَاحِ الْقَطَا
 وَعَظَمْتَ أَصِرَّةً عَلَى كَمَا وَعَى
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَلِإِنَّهَا
 مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُورَاةُ تَقُودُنِي ^(٢)
 حَتَّى إِذَا عَلِقْتَ حَبَائِلُ شَقُوقِي
 لَمْ أَذِرْ أَنْ لِمَثَلِ جُرْمِي غَافِرًا
 رَدَّ الْحَيَاةَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَهَابِهَا
 أَحْيَاكَ مَنْ وَلَّاكَ أَطْوَلَ مُدَّةٍ
 كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ لَمْ تُحَدِّثْنِي بِهَا

نَبَّهَانُ مِنْ وَسَنَاتِ لَيْلِ الْهَاجِعِ ^(١)
 وَتَبَيَّتُ تَكْلُوهُمْ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ
 مِنْ كُلِّ مُعْضِلَةٍ وَرَيْبٍ وَاقِعٍ ^(٢)
 وَطَنًا وَأَمْرًا رَتَعَهُ لِلرَّائِعِ
 وَأَبَا رِءُوفًا لِلْفَقِيرِ الْقَانِعِ
 وَالْوَدَّ مِنْكَ بِفَضْلِ حِلْمٍ وَاسِعٍ ^(٣)
 رَفَعْتَ بِنَاءَكَ بِالْمَحَلِّ الْيَافِعِ ^(٤)
 وَسِعَ النُّفُوسُ مِنَ الْفَعَالِ الْبَارِعِ
 عَفْوٌ، وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
 ظَفَرَتْ يَدَاكَ بِمُسْتَكِينٍ خَاضِعِ
 وَعَوِيلَ عَانِسَةٍ كَقَوْسِ النَّازِعِ
 بَعْدَ انْهِيَاضِ الْوَشْيِ عَظُمَ الظَّالِعِ ^(٥)
 جَهْدُ الْأَلْيَةِ مِنْ حَنِيفٍ رَاكِعِ
 أَسْبَابُهَا إِلَّا بَيْنِيَّةٍ طَائِعِ
 بَرَدَى إِلَى حُفْرِ الْمَهَالِكِ هَائِعِ ^(٦)
 فَوَقَفْتُ أَنْظُرَ أَيْ حَتَفٍ صَارِعِي
 وَرَعُ الْإِمَامِ الْقَادِرِ الْمُتَوَاضِعِ
 وَرَى عَدُوَّكَ فِي الْوَتَيْنِ بَقَا طِعِ
 نَفْسِي إِذَا آلَتْ إِلَى مَطَامِعِي

١٠٧٨/٣

١٠٧٩/٣

١٠٨٠/٣

(١) ابن الأثير : « وسنان » .

(٢) ابن الأثير : « وذنّب واقع » .

(٣) ابن الأثير : « للسحل » .

(٤) الأغاني : « تمدني » .

(٥) ابن الأثير : « وأبيهما » .

(٦) ف : « حكم » ، س : « خاشع » .

(٧) لم يرد في رواية الأغاني .

(٨) الأغاني : « على حفر » .

أَسَدَيْتَهَا عَفْوًا إِلَى هَنِيئَةٍ فَشَكَرْتُ مُصْطَنَعًا لِأَكْرَمِ صَانِعٍ
إِلَّا يَسِيرًا عِنْدَ مَا أَوْلَيْتَنِي وَهُوَ الْكَثِيرُ لَدَى غَيْرِ الضَّائِعِ
إِنْ أَنْتَ جَدْتَ بِهَا عَلَى تَكُنْ لَهَا أَهْلًا ، وَإِنْ تَمَنَعَ فَأَعْدَلُ مَانِعٍ
إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْخِلَافَةَ حَازَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ (١)
جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ جَامِعُ أَمْرِهَا وَحَوَى رَدَاؤَكَ كُلَّ خَيْرٍ جَامِعِ

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة، قال: أقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢)

* * *

[ذكر الخبر عن بناء المأمون ببوران]

وفي هذه السنة بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل في رمضان منها .

* ذكر الخبر عن أمر المأمون في ذلك وما كان في أيام بنائه :

« ذكر أن المأمون لما مضى إلى قم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل ، حمل معه إبراهيم بن المهدي ، وشخص المأمون من بغداد حين شخص إلى ما هنالك للبناء ببوران ، راكبًا زورقًا ، حتى أرسى (٣) على باب الحسن ؛ وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه على الظَّهْر ، فتلقاه الحسن خارجًا عسكره في موضع قد اتخذ له على شاطئ دجلة ، بُنِيَ له فيه جوسق ؛ فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل ، فحسكف عليه الحسن ألا يفعل ، فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل ، فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لا تنزل ؛ فاعتقه الحسن وهو راكب . ثم أمر أن يقدم إليه دابته ، ودخلا جميعًا منزل الحسن ، ووافى المأمون في وقت العشاء ، وذلك في شهر رمضان من سنة عشرين وثمانين ، فأفطر هو والحسن والعباس - ودينار بن عبد الله قائم على رجله - حتى فرغوا من الإفطار ،

١٠٨٢/٣

(٢) سورة يوسف ٩٢ .

(١) الأغاني : « قسم الفضائل » .

(٣) أرسى د : « أرفأ » .

وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشارب ، فأتى بجام ذهب فصُبَّ فيه وشرب ، ومدَّ يده بجام فيه شراب إلى الحسن ؛ فتباطأ عنه الحسن ؛ لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ؛ فغمز دينار بن عبد الله الحسن ، فقال له الحسن : يا أمير المؤمنين ، أشربه بإذنك وأمرك ؟ فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدي إليك ، فأخذ الجام فشربه . فلما كان في الليلة الثانية ، جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذي الرئاستين ، فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران ، وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها ؛ فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تُجمع ، وسألها عن عدد ذلك الدرِّ كم هو ؟ فقالت : ألف حبة ، فأمر بعدتها فنقصت عشراً ، فقال : من أخذها منكم فليردّها ، فقالوا : حسين زجلة ، فأمره بردّها ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما نُشِرَ لناخذها ، قال : ردّها فإني أخلفها عليك ، فردّها . وجمع المأمون ذلك الدرِّ في الآنية كما كان ، فوضع في حجرها ، وقال : هذه نحللتك ^(١) ، وسكّى حوائجك ؛ فأمسكت . فقالت لها جدتها : كلّمتي سيدك ، وسليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته ^(٢) الرضا عن إبراهيم بن المهدي ، فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج ، فأذن لها . وألبستها أم جعفر البدنة الأموية ؛ وابتنى بها في ليلته ، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر ؛ فيها أربعون مناً في تور ^(٣) ذهب . فأنكر المأمون ذلك عليهم ، وقال : هذا سرّ ف ؛ فلما كان من الغد دعا بإبراهيم بن المهدي فجاء يمشي من شاطئ دجلة ، عليه مبطنة ملحمة ، وهو معتم بعمامة ، حتى دخل ؛ فلما رفع الست ^(٤) عن المأمون رمى ^(٥) بنفسه ، فصاح المأمون : يا عم ، لا بأس عليك ، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة ، وقبل يده ، وأنشد شعره ، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ، ودعا له بمركب وقلده سيفاً ، وخرج فسلم الناس ، وردّ إلى موضعه .

١٠٨٣/٣

(٢) ف : « فقالت » .

(١) د ، ف : « خليك » .

(٤) ف : « فلما دخل ورفع الست » .

(٣) التور في الأصل : إناء يشرب فيه .

(٥) س : « أرمى بنفسه » .

وذُكر أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعدّ له في كل يوم لجميع من معه جميع ما يحتاج إليه ، وأن الحسن خلع على القوّاد على مراتبهم ، وحملهم ووصلهم ؛ وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . قال : وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس ، وأقطع الصلح^(١) فحملت إليه على المكان ؛ وكانت معدّة عند غسان بن عباد ، فجلس الحسن ففرّقها في قوّاده وأصحابه وحشمه وخدمه ؛ فلمّا انصرف المأمون شيّعه الحسن ، ثم رجع إلى قم الصلح .

فذكر عن أحمد بن الحسن بن سهل ، قال : كان أهلنا يتحدّثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه ، ونثرها على القوّاد وعلى بني هاشم ؛ فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها .

١٠٨٤/٣

وذكر عن أبي الحسن عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الكاتب ، قال : حدّثنى الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت في أم جعفر ، ووصف رجاحة عقلها وفهمها ، ثمّ قال : سألتها يوماً المأمون بقم الصلح حيث خرج إلينا عن النفقة على بُوران ، وسأل حمدونة بنت غَضِيض عن مقدار ما أنفقت في ذلك الأمر . قال : فقالت حمدونة : أنفقت خمسة وعشرين ألف ألف ، قال : فقالت أم جعفر : ما صنعت شيئاً ، قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم . قال : وأعددنا له شمعتين من عنبر ، قال : فدخل بها ليلاً ، فأوقدنا بين يديه ؛ فكثّر دخانها ، فقال : ارفعوهما قد أذانا الدخان ، وهاتوا الشمع . قال : ونحلتها أمّ جعفر في ذلك اليوم الصلح قال : فكان سبب عود الصلح إلى ملكي ، وكانت قبل ذلك لي ، فدخل عليّ يوماً حميد الطوسي فأقرأني أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين ، فقلت له : ننفذها لك ذي الرياستين ، وأقطعك الصلح في العاجل إلى أن تأتي مكافأتك

(١) الصلح ، بالكسر والحاء المهملة : كورة فوق واسط ، لها نهر يستمد من دجلة على الجانب الشرقي يسمى قم الصلح . بها كانت منازل الحسن بن سهل ، وكانت للحسن هناك منازل وقصور أخفى عليها الزمان فلا يعرف لها مكان . ياقوت .

١٠٨٥/٣

من قبله . فأقطعت إياها ، ثم ردّها المأمون على أمّ جعفر فنحلتها بؤران .
وروى عليّ بن الحسين أنّ الحسن بن سهل كان لا ترفع الستور عنه ،
ولا يرفع الشّمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها . وكان
متطيّراً يحبّ أن يقال له إذا دخل عليه : انصرفنا من فرح وسرور ، ويكره
أن يذكر له جنازة أو موت أحد . قال : ودخلتُ عليه يوماً فقال له قائل : إن
عليّ بن الحسين أدخل ابنه الحسن اليوم الكتاب ، قال : فدعنا لي وانصرفت ،
فوجدت في منزلي عشرين ألف درهم هبةً للحسن وكتاباً بعشرين ألف درهم .
قال : وكان قد وهب لي من أرضه بالبصرة ما قومٌ بخمسين ألف دينار ،
فقبضه عنيّ بغاً الكبير ، وأضافه إلى أرضه .

وذكر عن أبي حسان الزيّاديّ أنّه قال : لما صار المأمون إلى الحسن بن
سهل ، أقام عنده أياماً بعد البناء ببؤران ، وكان مقامه في مسيره وذهابه
ورجوعه أربعين يوماً . ودخل إلى بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت^(١)
من شوال .

وذكر عن محمد بن موسى الخوارزميّ أنّه قال : خرج المأمون نحو الحسن
ابن سهل إلى فم الصّليح لثمانٍ خلون من شهر رمضان ، ورحل من فم الصّليح
لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين .
وهلك حميد بن عبد الحميد يوم الفطر من هذه السنة ؛ وقالت جاريته
عَدَل :

مَنْ كَانَ أَصْبَحَ يَوْمَ الْفَطْرِ مُتَغَبِّطاً فَمَا غَبِطْنَا بِهِ وَاللّهِ مُحَمَّدٌ
أَوْ كَانَ مُنْتَظِراً فِي الْفَطْرِ سَيِّدَهُ فَإِنْ سَيِّدَنَا فِي التَّرْبِ مُلْحُودٌ

* * *

وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن طاهر مصر ؛ واستأمن إليه عبيد الله بن
السريّ بن الحكم .

(١) س : « مضت » .

ذكر الخبر عن سبب شخوص عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر

وسبب خروج ابن السرى إليه في الأمان

ذكر أن عبد الله بن طاهر لما فرغ من نصر بن شبث العُقَيْلِيّ ، وجهه إلى المأمون فوصل إليه ببغداد كتب المأمون يأمره بالمصير إلى مصر ؛ فحدثني أحمد بن محمد بن مخلّد ، أنه كان يومئذ بمصر ، وأن عبد الله بن طاهر لما قَرُبَ منها ، وصار منها على مرحلة ، قدّم قائداً من قواده إليها ليرتاد لمعسكره موضعاً يعسكر فيه ، وقد خندق ابن السرى عليها خندقاً ، فاتصل الخبر بابن السرى عن مصير القائد إلى ما قرب منها ، فخرج بمن استجاب له من أصحابه إلى القائد الذي كان عبد الله بن طاهر وجهه لطلب موضع معسكره ؛ فالتقى ^(١) جيش ابن السرى وقائد عبد الله وأصحابه وهم في قلعة ، فجال القائد وأصحابه جولةً ، وأورد القائد إلى عبد الله يريد أن يخبره بخبره وخبر ابن السرى ، فحمل رجاله على البغال ؛ على كل بغل رجلين بآلتهما وأدواتهما ، وجَسَبُوا ^(٢) الخيل ، وأسرعوا السير حتى لحقوا القائد وابن السرى ؛ فلم تكن من عند الله وأصحابه إلا حملة واحدة حتى انهزم ^(٣) ابن السرى وأصحابه ، وتساقطت عامة أصحابه - يعنى ابن السرى - في الخندق ، فمن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض في الخندق كان أكثر ممن قتله الجند بالسيف ، وانهزم ابن السرى ، فدخل الفسطاط ، وأغلق على نفسه وأصحابه ومن فيها ^(٤) الباب ، وحاصره عبد الله بن طاهر ؛ فلم يعاوده ابن السرى الحرب بعد ذلك حتى خرج إليه في الأمان .

١٠٨٧/٣

وذكر عن ابن ذى القلمين ، قال : بعث ابن السرى إلى عبد الله بن طاهر لما ورد مصر وما نعه من دخولها بألف وصيفة ؛ مع كل وصيف ألف دينار في كيس حرير ، وبعث بهم ليلاً . قال : فرد ذلك عليه عبد الله وكتب إليه : لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً ؛ بل أنتم بهديتكم تنفرون .

(٢) يقال : جنب الفرس ، أى قادها إلى جنبه .

(٤) ف : « فيه » .

(١) س : « والتقى » .

(٣) س : « فانهزم » .

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١١﴾ قال : فحينئذ طلب الأمان منه ، وخرج إليه .

وذكر أحمد بن حفص بن عمر ، عن أبي السمراء ، قال : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر ؛ حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق ؛ إذا نحن بأعرابي قد اعترض ؛ فإذا شيخ فيه بقية على بعير له أورق ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام . قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقي وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحن نساير الأمير ، وكنا يومئذ أفره من الأمير دواب ، وأجود منه كساً . قال : فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا ، قال : فقلت : يا شيخ ؛ قد ألححت في النظر ، أعرفت شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم ؛ ولكنى رجل حسن الفراسة في الناس ، جيد المعرفة بهم ، قال : فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أَرَى كَاتِباً ذَاهِيَ الْكِتَابَةِ بَيْنَ عَلَيْهِ وَتَأْدِيبُ الْعِرَاقِ مُنِيرُ
لَهُ حَرَكَاتٌ قَدْ يَشَاهِدُنْ أَنَّهُ عِلْمٌ بِتَقْسِيطِ الْخَرَجِ بِصِيرُ

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي ، فقال :

وَمُظْهِرٌ نُسْكَ مَا عَلَيْهِ ضَمِيرُهُ يُحِبُّ الْهَدَايَا ، بِالرِّجَالِ مَكُورُ
إِخَالُ بِهِ جُبْنًا وَبُخْلًا وَشِيمَةً تُخْبِرُ عَنْهُ أَنَّهُ لَوْزِيرُ

١٠٨٩/٣

ثم نظر إلى وأنشأ يقول :

وَهَذَا نَدِيمٌ لِلْأَمِيرِ وَمُوْتِسٌ يَكُونُ لَهُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ سُرُورُ
إِخَالُهُ لِلْأَشْعَارِ وَالْعِلْمِ رَاوِيًا ^(٢) فَبَغْضُ نَدِيمٍ مَرَّةً وَسَمِيرُ

(١) سورة النمل ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) ابن الأثير : « وأحبه للشعر والعلم راوياً » .

ثم نظر إلى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سبب كفه
عليه رداء من جمال وهيبة
لقد عصم الإسلام منه بدأبد^(٢)
ألا إنما عبد الإله بن طاهر
فما إن له فيمن رأيت نظير^(١)
ووجهه بإدراك النجاح بشير
به عاش معروف ومات نكير
لنا والد بر بنا ، وأمير

قال : فوقع ذلك من عبدالله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار ، وأمره أن يصحبه .

١٠٩٠/٣

وذكر عن الحسن بن يحيى الفهرى ، قال : لقينا البطين الشاعر الحمصي ، ونحن مع عبدالله بن طاهر فيما بين سلمية وحمص ، فوقف على الطريق ، فقال لعبد الله بن طاهر :

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً
مرحباً مرحباً بمن كفه البخ
ما يُبالي الملمون أيده الله
أنت غربٌ وذاك شرقٌ مقياً
وحيقٌ إذ كنتم في قديم
أن تنالا ما نلتماه من المج
بابن ذي الجود طاهر بن الحسين
بابن ذي الغرتين في الدعوتين
ر إذا فاض مُزبد الرجوين
ه إذا كنتم له باقين
أي فتق آني من الجانبين
لزريق ومُصعب وحسين
د وأن تغلوا على الثقليين

قال : من أنت ثكلتك أمك ! قال : أنا البطين الشاعر الحمصي ، قال : اركب يا غلام وانظر كم بيتاً ؟ قال : سبعة ، فأمر له بسبعة آلاف درهم أو بسبعمائة دينار ، ثم لم يزل معه حتى دخلوا مصر والإسكندرية ، حتى انخسف به وبدابته مخرج ، فأت فيه بالإسكندرية .

١٠٩١/٣

* * *

(٢) ابن الأثير : « بني يد » .

(١) ابن الأثير : « في العالمين نظير » .

[ذكر الخبر عن فتح عبد الله بن طاهر الإسكندرية]

وفي هذه السنة فتح عبد الله بن طاهر الإسكندرية - وقيل كان فتحه لهاها في سنة إحدى عشرة ومائتين - وأجلى من كان تغلب عليها من أهل الأندلس عنها .

* ذكر الخبر عن أمره وأمرهم :

حدثني غير واحد من أهل مصر ، أنّ مراكب أقبلت من بحر الروم من قبيل الأندلس ، فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قبيلهم بفتنة الجـزـريّ وابن السريّ ، حتى أرسوا مراكبهم بالإسكندرية ، ورئيسهم يومئذ رجل يدعى أبا حفص ؛ فلم يزالوا بها مقيمين حتى قدم عبد الله بن طاهر مصر . قال لي يونس بن عبد الأعلى : قدم علينا من قبيل المشرق ^(١) فتى حدث - يعني عبد الله بن طاهر - والدنيا عندنا مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس منهم في بلاء ؛ فأصلح الدنيا ، وأمن البرىء ، وأخاف السقيم ؛ واستوسقت له الرعيّة بالطاعة . ثم قال : أخبرنا عبد الله بن وهب ، قال : أخبرني عبد الله بن لهيعة ، قال : لا أدري رفعه إلى قبيل أم لا ! فلم نجد فيما قرأنا من الكتب أن الله بالمشرق جنداً لم يطفغ عليه أحد من خلقه إلا بعثهم عليه ، وانتقم بهم ^(٢) منه - أو كلاماً هذا معناه - فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين ، وإلى من كان انصوى إليهم ، يؤذّنهم بالحرب إن ^(٣) هم لم يدخلوا في الطاعة ، فأخبروني أنهم أجابوه إلى الطاعة ، وسألوه الأمان ، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر ؛ يقال لها إقريطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، وفيها بقايا أولادهم إلى اليوم .

* * *

(٢) ف : « فانتقم » .

(١) ف : « الشرق » .

(٣) ف : « إذهم » .

[ذكر الخبر عن خروج أهل قمّ على السلطان]

وفي هذه السنة خلع أهل قمّ السلطان ومنعوا الخراج .

* ذكر الخبر عن سبب خلعهم السلطان ومآل أمرهم في ذلك :

ذكر أن سبب خلعهم إياه كان أنهم كانوا استكثروا ما عليهم من الخراج ، وكان خراجهم ألفي ألف درهم ، وكان المأمون قد حطّ عن أهل الرّى حين دخلها منصرفاً من خراسان^(١) إلى العراق ، ما قد ذكرت قبل ، فطمع أهل قمّ من المأمون في الفعل بهم في الخطّ عنهم والتخفيف مثل الذي فعل من ذلك بأهل الرّى ، فرفعوا إليه يسألونه الخطّ ، ويشكون إليه ثقله عليهم ؛ فلم يجبهم المأمون إلى ما سأله ، فامتنعوا^(٢) من أدائه ، فوجّه المأمون إليهم على بن هشام ، ثم أمدّه بعجّيف بن عنبّسة ، وقدم قائد حميد يقال له محمد بن يوسف الكح بعرض^(٣) من خراسان ، فكتب إليه بالمصير إلى قمّ لحرب أهلها مع عليّ بن هشام ، فحاربهم عليّ فظفر بهم ، وقتل يحيى بن عمران وهدم سور قمّ ، وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعد ما كانوا يتطلّعون من ألفي ألف درهم .

١٠٩٣/٣

* * *

ومات في هذه السنة شهر يار ، وهو ابن شروين ، وصار في موضعه ابنه سابور ، فنازعه مازيار بن قارن فأسره وقتله ، وصارت الجبال في يدي مازيار ابن قارن .

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد وهو يومئذ والي مكة .

(٢) س : « وامتنعوا » .

(١) س : « عن خراسان » .

(٣) كذا في أ : وفي ط : « بقوص » .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[أمر عبيد الله بن السري]

فمن ذلك خروج عبيد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر بالأمان ، ودخول عبد الله بن طاهر مصر - وقيل إن ذلك في سنة عشر ومائتين - وذكر بعضهم أن ابن السري خرج إلى عبد الله بن طاهر يوم السبت لحمس بقين من صفر سنة إحدى عشرة ومائتين ، وأدخل بغداد لسبع بقين من رجب سنة إحدى عشرة ومائتين ، وأنزل مدينة أبي جعفر ، وأقام عبد الله بن طاهر بمصر والياً عليها وعلى سائر الشام والجزيرة ؛ فذكر عن طاهر بن خالد ابن نزار الغساني ، قال : كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها في أسفل كتاب له :

أخى أنت ومولاي ومن أشكر نعماء
فما أحببت من أمر فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

وذكر عن عطاء صاحب مظالم عبد الله بن طاهر ، قال : قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب ، وكذا كان أبوه قبله . قال : فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول ، فدرس إليه رجلاً ثم قال له : امض في هيئة القراء والنساءك إلى مصر ، فادع جماعة من كبارها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبه وعلمه وفصائله ، ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اتته فادعاه ورغبه في استجابته له ، وابتحث عن دفين نيته بحثاً شافياً ، واثني بما تسمع^(١) منه . قال : ففعل الرجل ما قال^(٢) له ، وأمره به ؛ حتى إذا

(١) ف : « تسمعه » .

(٢) ف : « قاله » .

دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر ، وقد ركب إلى عبيد الله بن السريّ بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام إليه الرجل ، فأخرج من كمّته رقعةً فدفعها إليه ^(١) ، فأخذها بيده ؛ فهاهو إلا أن دخل فخرج الحاجب إليه ، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ؛ ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله ، وخُفّاه فيهما ، فقال له : قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك ، فهات ما عندك ، قال : ولي أمانك وذمة الله معك ^(٢) ؟ قال : لك ذلك ، قال : فأظهر له ما أراد ، ودعاه إلى القاسم ، وأخبره بفضائله وعلمه وزهده ، فقال له عبد الله : أتُصنّفني ؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم ، قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضل ؟ قال : نعم ، قال : فتجئ إلىّ وأنا في هذه الحالة التي ترى ، لي خاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك ؛ وفيما بينهما أمرى مطاع ، وقولي مقبول ، ثم ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقد آمى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها عليّ ، ومنّة ختم بها رقبتي ، ويداً لائحة بيضاء ابتدأتني بها تفضلاً وكرماً ، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان ، وتقول : اغدر بمن كان أولاً لهذا وآخر ، واسع في إزالة خيطن عنقه وسفك دمه ! تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم ؛ أكان الله يحب أن أغدر به ، وأكفر لإحسانه ومنّته ، وأنكث بيعته ! فسكت الرجل ، فقال له عبد الله : أما إنه قد بلغني أمرُك ، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك ؛ فارحل عن هذا البلد ؛ فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرُك — وما آمنُ ذلك عليك — كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك . فلما أيسر الرجل مما عنده جاء إلى المأمون ، فأخبره الخبر ، فاستبشر وقال : ذلك غرس يدي ، وإلّثف أدبي ، وترّب تلقّحي ، ولم يُظهر من ذلك لأحد شيئاً ، ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون .

وذُكر عن عبد الله بن طاهر أنه قال وهو محاصر بمصر عبيد الله بن السريّ :

(١) ف : « عبد الله بن طاهر » .

(٢) س : « لك » .

بَكَرْتَ تُسَبِّلُ دَمْعًا أَنْ رَأَتْ وَشَكَ بَرَّاحِي
وَتَبَدَّلْتُ صَقِيلًا يَمْنِيًا بِوِشَاحِي
وَتَمَادَيْتُ بِسَيْرٍ لِيُغْدُو وَرَوَّاحِ
زَعَمْتَ جَهْلًا بَأَنِّي تَعِبْتُ غَيْرُ مُرَاحِ
أَقْصِرِي عَنِّي فَإِنِّي سَالِكُ قَصْدِ فَلَاحِي
أَنَا لِلْمَأْمُونِ عَبْدٌ مِنْهُ فِي ظِلِّ جَنَاحِ
إِنْ يُعَافِ اللَّهُ يَوْمًا فَقَرِيبَ مُسْتَرَا حِي
أَوْ يَكُنْ هُلُكُ فَقُولِي بِعَوِيلِ وَصِيَا حِ
حَلًّا فِي مَصْرَ قَتِيلٌ وَدَعِي عَنْكَ التَّلَاحِي

وذُكِرَ عن عبد الله بن أحمد بن يوسف أن أباه كتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السري إليه يهنئه بذلك الفتح :

بلغني أعزَّ الله الأمير ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السري إليك ؛
فالحمد لله الناصر لدينه ، المعزَّ لدولة خليفته على عبادته ، الذلَّ لمن عَشَدَّ عنه
وعن حقه ، ورغب عن طاعته . ونسأل الله أن يظاھرَ له النعم ، ويفتح له بلدان
الشَّرْكَ ، والحمد لله على ما وليك به مذ ظعنْتَ لوجهك ؛ فَإِنَّا وَمَنْ قَبْلَنَا
نتذاکر سیرتک فی حربک وسلمک ، ونکثر التعجّب لما وُفِّقَتْ له من الشدّة
والليان في مواضعهما ، ولا نعلّم سائس جند ورعيّة عدل بينهم عدلک ، ولا
عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك ؛ وَلَقَدْ لَ ما رأينا ابن شَرَف لم يُلْقِ
بيده متکلا على ما قدّمَتْ له أبوتّه ، وَمَنْ أوتى حظًّا وكفاية وسلطانًا
وولاية لم يخلد إلى ما عفا حتى يخل بمساماة ما أمامه . ثم لا نعلّم سائسًا
استحقَّ الشّجْح لحسن السيرة وكفّ معرّة الأتباع استحقاقك . وما يستعجز
أحد من قبلنا أن يقدّم عليك أحدًا يهوى عند الحاجة ^(١) والنّازلة المعضلة ^(٢)

(١) س : « المحافة » ، ف : « الحاجة » .

(٢) ف : « والمعضلة » .

فليهنك منّة الله ومزيده ، ويسوّغك^(١) الله هذه النعمة التي حوّاها لك بالخافضة على ما به تمت لك ؛ من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاك وإيانا العيش ببقائه .

وأنت^(٢) تعلم أنك لم تنزل عندنا وعند من قبلنا مكرّمًا مقدّمًا معظّمًا ؛ وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلاله وبجّاله ؛ فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويُعدّونك لأحداثهم ونوائبهم ؛ وأرجو أن يوفّقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه ؛ فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغى ، ولم تزد إلا تذللًا وتواضعًا ؛ فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك ، وأودع فيك . والسلام .

١٠٩٨/٣

* * *

وفي هذه السنّة قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين مدينة السلام من المغرب ، فتلقاه العباس بن المأمون وأبو إسحاق المعتصم وسائر الناس ، وقدم معه بالمتغلبين على الشام كابن السرج وابن أبي الجهمل وابن أبي الصفر .

ومات موسى بن حفص ، فولى محمد بن موسى طبرستان مكان أبيه . وولى حاجب بن صالح الهند فهزمه بشر بن داود ، فأنجاز إلى كرمّان . وفيها أمر المأمون منادياً فنادى^(٣) : برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير ، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنّة صالح بن العباس وهو والى مكة . وفيها مات أبو العتاهية الشاعر .

(٢) س : « وإنك » .

(١) س : « وسوّغك » .

(٣) ف : « ينادى » .

١٠٩٩/٣

ثم دخلت سنة اثنى عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه المأمون محمد بن حميد الطوسي إلى بابك لمحاربته^(١) على طريق الموصل وتقويته إياه، فأخذ محمد بن حميد يعلى بن مرة ونظراءه من المتغلبة بأذربيجان، فبعث بهم إلى المأمون.

وفيها خلع أحمد بن محمد العمرى المعروف بالأحمر العين باليمن.

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازي اليمن.

وفيها أظهر المأمون القول بخلق القرآن وتفضيل على بن أبي طالب عليه السلام، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك في شهر ربيع الأول منها.

* * *

وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خلّع عبد السلام وابن جليس بمصر في القيسية واليمانية ووثوبهما بها .

وفيهما مات طلحة بن طاهر بخراسان .

وفيهما ولّى المأمون أخاه أبا إسحاق الشام ومصر ، وولّى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم ، وأمر لكل واحد منهما ومن عبد الله^(١) بن طاهر بخمسمائة ألف دينار .

١١٠٠/٣

وقيل : إنه لم يفرّق في يوم من المال مثل ذلك .

* * *

[ذكر الخبر عن ولاية غسان بن عباد السند]

وفيهما ولّى غسان بن عباد السند .

* ذكر الخبر عن سبب توليته إياه السند :

وكان السبب في ذلك - فيما بلغني - أن بشر بن داود بن يزيد خالف المأمون ، وجبّ الحراج فلم يحمل إلى المأمون شيئاً منه ؛ فدُكر أن المأمون قال يوماً لأصحابه : أخبروني^(٢) عن غسان بن عباد ؛ فإنّي أريده لأمر جسيم - وكان قد عزم على أن يوليّه السند لما كان من أمر بشر بن داود - فتكلم من حضر ، وأطنبوا^(٣) في مدحه ، فنظر المأمون إلى أحمد بن يوسف وهو ساكت ، فقال له : ما تقول يا أحمد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ذاك^(٤) رجل محاسنه أكثر من مساويه ؛ لا تصرف به إلى طبقة إلا انتصف منهم ؛ فهما تخوّفت

(٢) ف : « خبروني » .

(١) س وابن الأثير : « ولعبد الله » .

(٤) س وابن الأثير : « ذلك » .

(٣) ف : « فأطنبوا » .

عليه ؛ فإنه لن يأتي أمراً يُعتذر منه ؛ لأنه قسم أيامه بين أيام الفضل ، فجعل لكل خلق نوبة ، إذا نظرت في أمره لم تدرأي حالته أعجب ! إما هداه إليه عقله ؛ أم إما اكتسبه بالأدب ، قال : لقد مدحتك على سوء رأيك فيه ! قال : ١١٠١/٣ لأنه فيما قلت ^(١) كما قال الشاعر :

كفى شكراً بما أسديت أننى مدحتك في الصديق وفي عداي ^(٢)

قال : فأعجب المأمون كلامه ، واسترجع أدبه .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد .

(١) بعدها في ابن الأثير : « فيه » .

(٢) ابن الأثير : « صلتك » .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمّا كان فيها من ذلك مقتل محمد بن حُميد الطوسي ، قتله بابك بهشتنَادُ سَر ، (١) يوم السبت لخمس ليال^١ بقين من شهر ربيع الأول ، ورفض عسكره ، وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه .
وفيهما قُتل أبو الرازي باليمن .

وفيهما قُتل عُمر بن الوليد الباذغيسيّ عامل أبي إسحاق بن الرشيد بمصر بالحوّف في شهر ربيع الأول ، فخرج أبو إسحاق إليها فافتتحها ، وظفر بعبد السلام وابن جليس ، فقتلها فاضرب المأمونُ بن الحروريّ وردّه إلى مصر .
وفيهما خرج بلال الضبّانيّ الشاري ، فشخص المأمون إلى العكث ، ثم رجع إلى بغداد ، فوجّه عباساً ابنه في جماعة من القوّاد ، فيهم عليّ بن هشام وعُجيف وهارون بن محمد بن أبي خالد ، فقتل هارون بلالا .

١١٠٢/٣

وفيهما خرج عبد الله بن طاهر إلى الدّينور ، فبعث المأمون إليه إسحاق ابن إبراهيم ويحيى بن أكرم يخيّرانه بين خراسان والجلال وأرمينية وأذربيجان ، ومحاربة بابك ، فاختر خراسان ، وشخص إليها .
وفيهما تحرّك جعفر بن داود القُصيّ ، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر ، وكان هرب من مصر فرُدّ إليها .

وفيهما ولّى عليّ بن هشام الجبل وقمّ وإصبهان وأذربيجان .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد .

تم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر شخص المأمون لحرب الروم]

وفي هذه السنة شخص المأمون من مدينة السلام لغزو الروم ، وذلك يوم السبت - فيما قيل - لثلاث بقين من المحرم - وقيل كان ارتحاله من الشامية إلى البَرَدان يوم الخميس بعد صلاة الظهر ، لست بقين من المحرم سنة خمس عشرة ومائتين - واستخلف حين رَحَلَ عن مدينة السلام عليها إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، وَوَلَّى مع ذلك السواد وحُدُودان وكُور دِجْلَة . فلما صار المأمون بتَكْرِيت قدم عليه محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رحمه الله ، من المدينة في صفر ليلة الجمعة من هذه السنة ، ولقيّه بها فأجازه ، وأمره أن يدخل بابنته أم الفضل ١١٠٣/٣ وكان زوجها منه ؛ فأدخلت عليه في دار أحمد بن يوسف التي على شاطئ دِجْلَة ، فأقام بها ؛ فلما كان أيام الحجّ خرج بأهله وعياله حتى أتى مكة ، ثم أتى منزله بالمدينة ؛ فأقام بها ، ثم سلك المأمون طريق الموصل ؛ حتى صار إلى مَنبِج ، ثم إلى دابق ، ثم إلى أنطاكية ، ثم إلى المَصْبِية ، ثم خرج منها إلى طَرَسُوس ، ثم دخل من طَرَسُوس إلى بلاد الرّوم للنصف من جمادى الأولى . ورحل العباس بن المأمون من مِلَطِيَّة ؛ فأقام المأمون على حصن يقال له قُرّة ؛ حتى فتحه عَنَوَة ؛ وأمر بهدمه ؛ وذلك يوم الأحد لأربع بقين من جُمادى الأولى ؛ وكان قد افتتح قبل ذلك حصناً يقال له ماجدة ؛ فنّ عليّ أهلها .

وقيل إن المأمون لما أناخ على قُرّة ، فحارب أهلها طلبوا الأمان ، فأمنهم المأمون ، فوجه أشناس إلى حصن سندس ، فأناه برئيسه ، ووجه عَجِيفاً وجعفرًا

الحياط إلى صاحب حصن سنان ، فسمع وأطاع .

* * *

وفي هذه السنة انصرف أبو إسحاق بن الرشيد من مصر ، فلقى المأمون قبل دخوله الموصل ، ولقيه مَسْتَوِيل وعباس ابنه برأس العين .
وفيها شخص المأمون بعد خروجه من أرض الروم إلى دمشق .

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[عود إلى ذكر غزو المأمون أرض الروم]

فمن ذلك كرم المأمون إلى أرض الروم .

* ذكر السبب في كرمه إليها :

اختلف في ذلك ، فقيل : كان السبب فيه ورودُ الخبر على المأمون يقتل ملك الروم قوماً من أهل طرسوس والمصيصة ؛ وذلك - فيما ذكر - ألف وسمائة . فلما بلغه ذلك شخص حتى دخل أرض الروم يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلم يزل مقيماً فيها إلى النصف من شعبان .

وقيل : إن سبب ذلك أن توفيل بن ميخائيل كتب إليه ، فبدأ بنفسه ، فلما ورد الكتاب عليه لم يقرأه ، وخرج إلى أرض الروم ، فوافاه رسل توفيل بن ميخائيل بأذنة ، ووجهه بخمسمائة رجل من أسارى المسلمين إليه ؛ فلما دخل المأمون أرض الروم ، ونزل على أنطيغوا ، فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلية ، فخرج أهلها إليه على صلح ، ووجهه أخاه أبا إسحاق ، فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة . ووجهه يحيى بن أكرم من طروانة ، فأغار وقتل وحرّق ، وأصاب سبيّاً ورجع إلى العسكر . ثم خرج المأمون إلى كيسوم ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ، ثم ارتحل إلى دمشق .

* * *

وفي هذه السنة ظهر عبّيدوس الفهرى ، فوثب بمن معه على عمّال أبي إسحاق ، فقتل بعضهم ؛ وذلك في شعبان ، فشخص المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة بقيت من ذى الحجة إلى مصر .

وفيهما قدم الأفشين من برقة منصرفاً عنها ، فأقام بمصر .

وفيهما كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتكبير إذا صلّوا ، فبدعوا بذلك في مسجد المدينة والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من هذه السنة ، حين قضوا الصلاة ، فقاموا قياماً ، فكبروا ثلاث تكبيرات ، ثم فعلوا ذلك في كل صلاة مكتوبة .

وفيهما غضب المأمون على عليّ بن هشام ، فوجّه إليه عُجيف بن عنبسة وأحمد بن هشام ، وأمر بقبض أمواله وسلاحه .

وفيهما ماتت أمّ جعفر ببغداد في جمادى الأولى .

وفيهما قدم غسان بن عباد من السّند ، وقد استأمن إليه بشر بن داود المهلبى ، وأصلح السند ، واستعمل عليها عمران بن موسى البرمكى^(١) ، فقال الشاعر :

سيفُ غسانَ رَوْنَقُ الحربِ فيه وسامُ الحُتُوفِ في ظُبَيْتِهِ

فإذا جرّه إلى بلدِ السند إذ فالَقَى المَقَادَ بِشَرٍّ إليه

مُقَسِّمًا لا يعودُ ما حجَّ لا مُصَلِّ وما رمى جَمَرَتَيْهِ

غادِرًا يَخْلَعُ الملوكَ ويغتنا لُ جُنُودًا تَأْوِي إلى ذِرْوَتَيْهِ

فرجع غسان إلى المأمون ، وهرب جعفر بن داود القمى إلى قم ، وخلع بها . وفي هذه السنة كان البرد الشديد .

* * *

وحجّ بالناس — في قول بعضهم — في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس . وفي قول بعضهم : حجّ بهم في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ؛ وكان المأمون ولّاه اليمن ، وجعل إليه ولاية كل بلدة يدخلها حتى يدخل إلى اليمن ، فخرج من دمشق حتى قدم بغداد ، فصلّى بالناس بها يوم الفطر ، فشخص من بغداد يوم الاثنين لليلة خلست من ذى القعدة ، وأقام الحجّ للناس .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ظَفَرُ الأَفْشِينِ فيها بالبَيْسَمَا ^(١) ، وهي من أرض مصر ، ونزل أهلها بأمان على حُكْمِ المأمون ، قُرِئَ كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ١١٠٧/٣ ربيع الآخر .

وورد المأمون فيها مصر في المحرم ، فَأُتِيَ بَعْدُوسُ الفَهْرِيّ فضرب عنقه ، وانصرف إلى الشام .

* * *

[ذكر الخبر عن قتل عليّ وحسين ابني هشام]

وفيها قتل المأمون ابني هشام عليّاً وحُسَيْنًا بأَذَنَةِ في جمادى الأولى .

* ذكر الخبر عن سبب قتله عليّاً :

وكان سبب ذلك ، أن المأمون لَلَّذِي بلغه من سوء سيرته في أهل عمله الذي كان المأمون ولّاه - وكان ولّاه كُورَ الجبال - وقتله الرجال ، وأخذ به الأموال ؛ فوجّه إليه عَجِيفٌ ، فأراد أن يفتك به ويلحق ببابك ، فظفر به عَجِيفٌ ، فقدم به على المأمون ، فأمر بضرب عنقه ، فتولى قتله ابن الجليل . وتولى ضربَ عُنُقِ الحسين محمد بن يوسف ابن أخيه بأَذَنَةِ ، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، ثم بعث رأس عليّ بن هشام إلى بغداد وخراسان ، فطيف به ، ثم رُدَّ إلى الشام والجزيرة فطيف به كورةً كورةً ، فقدم به دمشق في ذى الحجة ، ثم ذهب به إلى مصر ، ثم أُلْقِيَ بعد ذلك في البحر . وذكر أن المأمون لما قتل عليّ بن هشام ، أمر أن يكتب رقعة وتعلّق على رأسه ليقرأها الناس ؛ فكتب :

(١) ابن الأثير : « بالفرا » .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان دعا عليّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام الخلع ، إلى معاونته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة . فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه (١) ، وهو يظنّ به تقوى الله وطاعته والانتهاه إلى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسند إليه في حسن السيرة وعفاف الطعمة (٢) ، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه ، فولاه الأعمال السنية ، ووصله بالصلوات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها ، فوجدناها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمدّ يده إلى الحياة والتضييع لما استراحه من الأمانة ، فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته فأقاله إياها ، وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ، ومحاربة أعداء الله الحرّمية ، على ألا يعود لما كان منه ؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدّهرم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرّمة ، فوجه أمير المؤمنين عجبيف بن عنبسة مباشراً لأمره ، وداعياً إلى تلافى ما كان منه ؛ فوثب بعجبيف يريد قتله ، فقوى الله عجبيفاً بنيتة الصادقة في طاعة أمير المؤمنين ؛ حتى دفعه عن نفسه ، ولو تمّ ما أراد بعجبيف لكان في ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال ؛ ولكنّ الله إذا أراد أمراً كان مفعولاً . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في عليّ بن هشام ، رأى ألا يؤاخذ من خلفه بذنبه ، فأمر أن يجري لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجري عليهم مثل الذي كان جاريّاً لهم في حياته ؛ ولولا أن عليّ بن هشام أراد العظمى بعجبيف ، لكان في عداد من كان في عسكره ممن خالف وخان ، كعيسى بن منصور ونظرائه . والسلام :

وفي هذه السنة دخل المأمون أرض الروم ، فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها وخلّف عليها عجبيفاً ، فاخذعه أهلها وأسرّوه ؛ فكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ، ثم أخرجه ، وصار توفيل إلى لؤلؤة ، فأحاط بعجبيف ، فصرف المأمون الجنود إليه ، فارتحل توفيل قبل موافاتهم ، وخرج أهل لؤلؤة إلى عجبيف بأمان .

(١) اصطنعه : اختاره لخاصة أمره . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه الكسب .

[كتاب توفيل إلى المأمون ورَد المأمون عليه]

وفيها كتب توفيل صاحب الروم إلى المأمون يسأله الصلح، وبدأ بنفسه في كتابه، وقدم بالكتاب الفضل وزير توفيل يطلب الصلح، وعرض الفدية. وكانت نسخة كتاب توفيل إلى المأمون :

أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظَّهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ؛ ولستَ حريّاً أن تدع لحظَّ يصل إلى غيرك حظّاً تحوزهُ إلى نفسك، وفي علمك كافٍ عن إخبارك؛ وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسألة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليّاً وحزباً ؛ مع اتصال المرافق والفسح^(١) في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبسطة ؛ فإن أبيت فلا أدب لك في الحمر^(٢)، ولا أزحرف لك في القول ؛ فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسداها^(٣)؛ شأنٌ خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدّمت المَعذرة، وأقمت بيني وبينك عاتمَ الحجّة. والسلام.

فكتب إليه المأمون :

أما بعد ؛ فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوتٍ إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة؛ مما استعطفت به؛ من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الأسارى، ورفع القتلى والقتال، فلولاً ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظّ في قلب الفكر، وألاًّ أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه، بلعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً

(١) الفسح : جمع فسحة أو هي السعة .

(٢) الحمر، بالتحريك : كل ما وارك من شجر أو بناء أو غيره . وخمر كفرج : توارى ومن أمثال العرب : « يدب له الضراء ويمشي الحمر » . والضراء كسحاب : الشجر الملتف في الوادي ؛ يقال : توارى الصيد في ضراء، وفلان يمشي الضراء ؛ إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر، مثل يضرب للرجل يختل صاحبه .

(٣) الأسداد : جمع سد وهو الحاجز .

من أهل البأس والتجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثُكلكم^(١) ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العُدّة والعناد، هم أظماً إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم؛ موعدهم إحدى الحسينين : عاجل غلبة ، أو كريم منقلب ؛ غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يشبث الله بها عليك الحجة ؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدة والشرعية الخفيفة؛ فإن أبيت ففدية توجب ذمة ، وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يُغنى عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة . والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

وفيهما صار المأمون إلى سَلَخُوس .

وفيهما بعث عليّ بن عيسى القميّ جعفر بن داود القميّ فضرب أبو إسحاق ابن الرّشيد عنقه .

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من شخوص المأمون من سَلَغُوس إلى الرِّقَّة ، وقتله بها ابن أخت الداري .

وفيهما أمر بتفريغ الرافقة لينزلها حشمه ، فضجَّ من ذلك أهلها فأعفاهم .
وفيهما وجه المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم ، وأمره بنزول الطُّوانة
وبنائها ، وكان قد وجه الفسَّلة والفروض ، فابتدأ البناء ، وبناها ميلاً في ١١١٢/٣
ميل ، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ ، وجعل لها أربعة أبواب ، وبني على
كل باب حصناً ؛ وكان توجيهه ابنه العباس في ذلك في أوّل يوم من
جمادى .

وكتب إلى أخيه أبي إسحاق بن الرّشيد ؛ أنه قد فرض على جُنْد دمشق
وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، وأنه يجرى على الفارس مائة
درهم ، وعلى الرّاجل أربعين درهماً ، وفرض على مصر فَرَضاً ، وكتب إلى
العباس بمن فَرَضَ على قنيسرين والجزيرة ، وإلى إسحاق بن إبراهيم بمن فرض
على أهل بغداد وهم ألفا رجل ، وخرج بعضهم حتى وافى طُوانة ونزلها مع العباس .

* * *

[ذكر خبر المحنة بالقرآن]

وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة
والمحدثين ، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرِّقَّة ؛ وكان ذلك أوّل كتاب
كتب في ذلك ، ونسخة كتابه إليه :

أما بعد ؛ فإن حقّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة
دين الله الذي استحفظهم ، ومواريث النبوة التي أوثرهم ، وأثر العلم الذي
استودعهم ، والعمل بالحق في رعيّتهم والتشهير لطاعة الله فيهم ، والله

يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ^(١) والإقساط فيما ولّاه الله من رعيته برحمته ومنته . وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشش الرعية وسفلة العامة ممن لا نظره ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به. ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكر ؛ وذلك أنهم ساواوا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويُحدِثه ويختبره ، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاءً ، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ^(٢) ، فكلُّ ما جعله الله فقد خلقه ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ^(٣) ، وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ^(٤) ، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها وتلا به متقدمها ، وقال : ﴿ الرَّحْمَٰنُ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ^(٥) ، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ؛ فهو خالقه ومبتدعه .

١١١٣/٣

١١١٤/٣

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونسبتهم . ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرّوا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتعشيف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطنتهم على سيئ آرائهم ، تزيّناً

(١) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، وفي ف : « وصريمة » .

(٢) سورة الزخرف ٣ .

(٣) سورة الأنعام ١

(٤) سورة طه ٩٩ .

(٥) سورة هود ١ ، ٢ .

بذلك عندهم وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبِلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دَعْل دينهم ، ونغل أديهم ، وفساد نياتهم وبقينهم . وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا ، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) .

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شرُّ الأمة ورعوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهاثل على أعدائه ؛ من أهل دين الله ، وأحق من يستهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، لا يوثق بقوله ولا عمله ؛ فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رُشدِه وحظّه من الإيمان بالله وبتوحيده ؛ كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً . ولعمرُ أمير المؤمنين إن أحجى (٢) الناس بالكذب في قوله ، وتخرّص الباطل في شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم بردّ شهادته في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله .

فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينه ؛ فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة . فرهم بنص (٣) من يحضّروهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها

(٢) أحجى : أحق وأجدر .

(١) سورة محمد ٢٤ .

(٣) نصه : استقصى مسأله عن الشيء .

عنده . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم ؛ والأمر لهم بمثل ذلك ؛ ثم أشرف عليهم وتفقّد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد ^(١) ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك . إن شاء الله .

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين .

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر ، منهم محمد ابن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن الدورقي ؛ فأشخصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً إن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره ، فشهّر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقرؤا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلّى سبيلهم . وكان ما فعل من ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون .

١١١٧/٣

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعدُ ، فإنّ من حق الله على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على عبادِهِ ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية ^(٢) خلقه وإمضاء حكمه وسنّته ^(٣) والائتمام بعدله في بريته ، أن يُجهدوا لله أنفسهم ، وينصحووا له فيما استحقّظهم وقلدهم ، و يدلّوا عليه — تبارك اسمه وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردّوا من أدبر عن أمره ، ويهجوا لرعاياهم سمّت نجاتهم ^(٤) ، ويقفّوهم ^(٥) على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الرّيب ^(٦) عنهم ، ويعود بالضياء والبيّنة على كافّتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم ، ومنظماً لحظوظ عاجلتهم

(٢) ف : « وجملهم رعاة » .

(٤) ف : « سبيل نجاته » .

(٦) ف : « ما يدفعون به الغيب » .

(١) ف : « للتوحيد » .

(٣) سن : « سنّه » .

(٥) س : « ويقفّوهم » .

وآجلتهم ، ويتذكروا ما الله مُرصدٌ من مساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتهم بما^(١) أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . وما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه^(٢) وضرره ، ما ينال المسلمون^(٣) بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفيته محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهاه على كثير منهم ؛ حتى حسن عندهم ، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان^(٤) به عن خلقه ، وتفرّد بجلالته ؛ من ابتداع^(٥) الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته ، والتقدّم عليها بأوليّته^(٦) التي لا يبلّغ أولاهها ، ولا يدرك مداها ؛ وكان كل شيء دونه خُلِقَ من خلقه ، وحدثاً هو المحدث له ؛ وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى في دعائهم في عيسى بن مريم : إنه ليس بمخلوق ؛ إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾^(٧) ، وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾^(٨) وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾^(٩) ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾^(١٠) فسوّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾^(١١) ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَعَلَ بِهِ ﴾^(١٢) وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾^(١٣) ،

١١١٩/٣

(١) س : « عما أسلفوه » .	(٢) أى من إيذائه .
(٣) س : « المسلمين » .	(٤) ف : « امتاز » .
(٥) ف : « بابتداع » .	(٦) ف : « بازيته » .
(٧) سورة الزخرف ٣ .	(٨) سورة الأعراف ١٨٩ .
(٩) سورة النبأ ١١ .	(١٠) سورة الأنبياء ٣٠ .
(١١) سورة البروج ٢١١-٢٢٢ .	(١٢) سورة القيامة ١٦ .
(١٣) سورة الأنبياء ٢ .	

وقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾^(١) ،
وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢) ،
ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي
جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾^(٣) ، فسمي الله تعالى القرآن قرآنًا وذكرًا وإيمانًا ونورًا وهدي
ومباركًا وعربيًا وقصصًا ، فقال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٤) ، وقال : ﴿قُلْ لِّسْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَلَى
أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٥) ، وقال : ﴿قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ
سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾^(٦) ، وقال : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٧) فجعل له أولًا وآخرًا ، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق
وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن التلسم في دينهم ، والخرج في
أمانتهم^(٨) ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على
قلوبهم^(٩) حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعاله بالصفة التي هي لله وحده ،
وشبهوه^(١٠) به ، والاشتباه أولى بخلقه . وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه
المقالة حظًا في الدين ، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلّ أحدًا
منهم محلّ الثقة في أمانة ، ولا عدالة ولا شهادة^(١١) ولا صدق في قول ولا
حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعيّة ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف
بالسداد مسدّد فيهم ؛ فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمد
والذمّ عليها ؛ ومن كان جاهلًا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته
فـو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضلّ سبيلا .

فأقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب

١١٢٠/٣

(١) سورة الأنعام ٢١ .	(٢) سورة الأنعام ٩١ .
(٣) سورة الأنعام ٩١ .	(٤) سورة يوسف ٣ .
(٥) سورة الإسراء ٨٨ .	(٦) سورة هود ١٣ .
(٧) سورة فصلت ٤٢ .	(٨) س : « أماناتهم » .
(٩) ف : « أنقسم » .	(١٠) س : « وشهدوا » .
(١١) ف : « ولا أمانته ولا عدالته ولا شهادته » .	

أمير المؤمنين بما كتب به إليك، وانصصها عن^(١) علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد^(٢) لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق^(٣) فإن قالاً بقول أمير المؤمنين في ذلك، فقد تم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن؛ فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته ، ولم يقطعا حكماً بقوله ؛ وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره . وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. إن شاء الله .

قال : فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر أبا حسان الزياتي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن أبي مقاتل والفضل ابن غانم والذيات بن الهيثم وسجادة والقواريري وأحمد بن حنبل وقتيبة وسعدويه الواسطي وعلي بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهرث وابن علسية الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمري وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب - كان قاضي الرقة - وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعي ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرس خان، وجماعة منهم النضر بن شميل وابن علي بن عاصم وأبو العوام البرزاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعاً على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة ؛ قال : فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فخلق ؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم

(٢) ف : « ولا توحيد » .

(١) ف : « على » .

(٣) س : « ليس بمخلوق » .

فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك . فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعةً كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ؛ وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبى مقاتل : ما تقول يا على ؟ قال : قد سمعتُ كلامى لأمر المؤمنين فى هذا غير مرة وما عندى غير ما سمع ، فامتحنته بالرقعة فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله ؛ وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للذيال نجواً من مقالته لعل بن أبى مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبى حسان الزيادى : ما عندك ؟ قال : سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمر المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامةً ، إن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها ؛ وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلتُ ما أمرتني به ؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني عنه من شيء ؛ فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً . قال على ابن أبى مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الفرائض والموارث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عندى إلا السمع والطاعة ، فرنى آمر ، قال : ما أمرنى أن آمرك ^(١) ؛ وإنما أمرنى أن أمتحنك ^(٢) .

١١٢٣/٣

(٢) : ١ « امتحنكم » .

(١) : ١ « آمركم » .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام (١) الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنته بما في الرقعة (٢) ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » ، قال : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٣) وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله ! إنه يقول : سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله (٤) : « سَمِيعٌ بَصِيرٌ » ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

ثم دعا بهم رجلا رجلا ، كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلا هؤلاء النفر : قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابن عليّة الأكبر وابن البكاء وعبد المنعم ابن إدريس ابن بنت وهب بن منبه والمظفر بن مَرْجَأ ، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه ، ولا يعرف بشيء منه ، إلا أنه دُسّ في ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقعة ، وابن الأحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » (٥) والقرآن محدث لقوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ » (٦) قال له إسحاق : فالجعول مخلوق ؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول ؛ فكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم (٧) اعترض ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله ! إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما ممّن يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمعا مقالتهما ، لنحكى ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدت

(١) س : « قال : « القرآن » . (٢) ف : « بالرقعة وما فيها » .

(٣) سورة الشورى ١١ . (٤) ف : « قولك » .

(٥) سورة الزخرف ٣ . (٦) سورة الأنبياء ٢ .

(٧) ف : « مقالهم » .

عندهما بشهادة ، فستعلم مقالتهما إن شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً^(١) ، ووجهت إلى المأمون ، فكث القوم تسعة أيام ؛ ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون^(٢) جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم ، ونسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ؛ فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه كان إليك ، فيأذهب إليه متصنعة أهل القبلة وملتمسوا الرئاسة ، فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم وإحلالهم محالهم . تذكر إحصاءك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن ابن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفي التشبيه واختلافهم في القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى^(٣) في السر والعلانية ، وتقدّمك إلى السندی وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدّمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت .

١١٢٦/٣

وأمير المؤمنين يحمّد الله كثيراً كما هو أهله ، ويسأله أن يصلّي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيّته برحمته . وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، ومارجع إليك فيه كل امرئ منهم ، وما شرحت^(٤) من مقالاتهم .

فأمّا ما قال المغرور بشرين الوليد في نفي التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن

(٢) ف : « أمير المؤمنين » .

(٤) س : « وشرحت » .

(١) ب : « رجل رجل » .

(٣) ف : « الفتوى » .

مخلوق، وادّعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين؛ فقد كذب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظراً أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق، فادّعى به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصحه عن قوله في القرآن، واستتبّه منه؛ فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتب من قال بمقالته؛ إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح، والشرك المحض عند أمير المؤمنين؛ فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه؛ وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهديّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً؛ فإنه كان يقول بقوله. وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ؛ فإن قال: إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه؛ وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وأما عليّ بن أبي مقاتل، فقل له: أأست القائل لأمير المؤمنين: إنك تُحلّل وتحرم، والمكلم له بمثل ما كلمته به؛ مما لم يذهب عنه ذكره! وأما الذّيال بن الهيثم؛ فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار^(١) وفيما يستولى^(٢) عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله؛ وأنه لو كان مقتضياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم، ومحتدّاً سبيلهم^(٣) لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه^(٤) أنه صبيّ في عقله لا في سنّه، جاهل، وأنه إن كان^(٥) لا يحسن الجواب في القرآن فسيُحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك؛ إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه؛ فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف

(٢) س: «استولى».

(٤) س: «فأعلم».

(١) س: «بالأنبار».

(٣) س: «سبيلهم».

(٥) ف: «أنكر».

فحوى تلك المقالة وسبيلَه فيها ، واستدلَّ على جهله وآفته بها .

وأما الفضلُ بن غانم ؛ فأعلمه أنه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال في أقلَّ من سنة ، وما شجَّرَ بينه وبين المطلب ابن عبد الله في ذلك ؛ فإنه منَّ كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمستكثر^(١) أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك القائل لعلَّ بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه ؛ فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره !

١١٢٨/٣

وأما الزياتي ، فأعلمه أنه كان منتحلاً ، ولا كأول دَعَى كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزيد أو يكون مولى لأحد من الناس ؛ وذكر أنه إنما نسب إلى زيد لأمر من الأمور .

وأما المعروف بأبي نصر التمار ؛ فإن أمير المؤمنين شبهه خَساسة عقله بخساسة متجره .

وأما الفضل بن الفرَّخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصاً بمن استودعه ، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيلَ عليه عن تقادم عهده ، وتناول الأيام به ، فقلَّ لعبد الرحمن بن إسحاق : لا جزاك الله خيراً عن تقويتك^(٢) ، مثل هذا واتِّمَّانك^(٣) إياه ، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر ؛ فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لاستحلَّ ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شرَّ كُما ، وصار للنصارى مثلاً !

١١٢٩/٣

وأما أحمد بن شعاع ؛ فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه

(٢) ف : « تقويتكم » .

(١) ف : « مستكثر » .

(٣) س : « وإيمانك » .

ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام ؛ وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .

وأما سعدويه الواسطى ، فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التَصَنُّع للحديث ، والترين به ، والحِرْص على طلب الرئاسة فيه ؛ أن يتمنى وقت المحنة ، فيقول بالتقرب بها متى يمتحن ، فيجلس للحديث !

وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن^(١) القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى وحكته لإصلاح سجاته وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما^(٢) أذهلته عن التوحيد وألهاه ، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد ابن الحسن يقولانه ؛ إن كان شاهداً هما وجالسهما .

وأما القواريرى ؛ ففياً تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات ، ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه ؛ وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله ، فتقدم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه ، وترك الثقة به والاستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى ؛ فإن^(٣) كان من ولد عمر بن الخطاب ، فجوابه معروف .

وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم ، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه ، لم ينتحل النحلة التى حُكيت عنه ، وإنه بعدُ صبي يحتاج إلى تعلم . وقد كان أمير المؤمنين وجهه إليك المعروف بأبى مسهر بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن ، فجمعهم عنها ولحلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقرّ ذمماً ، فأنصّبّه عن إقراره ؛ فإن كان مقياً عليه فأشهر ذلك وأظهره ؛ إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين فى كتابك ، وذكره

(١) ف : « من أن » . (٢) ف : « فا » . (٣) ف : « نانه » .

أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ؛ ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فاحملهم أجمعين (١) موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم ؛ حتى يؤدّيهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه ، لينصّبهم أمير المؤمنين ؛ فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف ، إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُنداريّة ؛ ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطيّة ، معجلاً به ، تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه ؛ فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين ، وعجّل لإجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُنداريّة مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله .

١١٣١/٣

وكتب سنة ثمان عشرة ومائتين .

فأجاب القوم كلّهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق ، إلا أربعة نفر ؛ منهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريريّ ومحمد بن نوح المضروب . فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشُدّوا في الحديد ؛ فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد ، فأعاد عليهم الحنة ، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيئده وخلّى سبيلته ، وأصرّ الآخرون على قولهم ؛ فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضاً ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريريّ إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده ، وخلّى سبيله ، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، ولم يرجعا ، فشُدّا جميعاً في الحديد ، ووُجّها إلى طرّسوس ، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما ، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه . فكشوا أياماً ، ثمّ دعا بهم فإذا كتابٌ قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم ، أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه ، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأوّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (٢)

١١٣٢/٣

وقد أخطأ التأويل ؛ إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية مَنْ كان^(١) معتقداً للإيمان ، مظهر الشك^(٢) ، فأما مَنْ كان معتقداً الشرك مظهر الإيمان ؛ فليس هذه^(٣) له . فأشخصهم جميعاً إلى طرسسوس ؛ ليقموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم .

فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكُفلاء ليوافوا العسكر بطرسسوس ، فأشخص أبا حسان وبشر بن الوليد والفضل بن غانم وعلي بن أبي مقاتل والذّيال بن الهيثم ويحيى بن عبد الرحمن العمري وعلي بن الجعد وأبا العوام وسجادة والقواريري وابن الحسن بن علي بن عاصم وإسحاق بن أبي إسرائيل والنضر بن شميل وأبا نصر التمار وسعدويه الواسطي ومحمد بن حاتم بن ميمون وأبا معمر وابن الهرش وابن الفرخان وأحمد بن شعجاع وأبا هارون بن البكاء . فلما صاروا إلى الرقة بلغتهم وفاة المأمون ؛ فأمر بهم عنبة بن إسحاق — وهو والى الرقة — أن يصيروا إلى الرقة ، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة السلام مع الرسول المتوجه بهم إلى أمير المؤمنين ، فسلمهم إليه ، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم ، ثم رخص لهم بعد ذلك في الخروج ، فأما بشر بن الوليد والذّيال وأبو العوام وعلي بن أبي مقاتل ؛ فإنهم شخصوا من غير أن يؤذن لهم حتى قدموا بغداد ، فلقوا من إسحاق بن إبراهيم في ذلك أذى ، وقدم الآخرون مع رسول إسحاق بن إبراهيم ؛ فخلى سبيلهم .

* * *

[كتب المأمون إلى عماله ووصيته في كتبه]

وفي هذه السنة نُفِدت كتبُ المأمون إلى عماله في البلدان : من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد . وقيل إن ذلك لم يكتبه المأمون كذلك ؛ وإنما كتب في حال إفاقة من غَشِيَتْه أصابته في مرضه بالبدن^(٣) ، عن أمر المأمون إلى

(١ - ١) س : « معتقداً الإيمان مظهراً للشك » . (٢) ف : « هذا » .
(٣) في ياقوت : « بدندون » ، يفتحون وسكون النون ودال مهمله وواو ساكنة ونون : قرية بينها وبين طرسسوس يوم من بلاد الثغر ، مات بها المأمون ، فنقل إلى طرسسوس ، ودفن بها .

العباس بن المأمون ، وإلى إسحاق وعبد الله بن طاهر ؛ أنه إن حدث به حدث الموت في مرضه هذا ، فالخليفة من بعده أبو إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد . فكتب بذلك محمد بن داود ، وختم الكتب وأنفذها .

فكتب أبو إسحاق إلى عمّاله : من أبي إسحاق أخيه أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين .

فورد كتاب من أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب ، عنوانه : من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد : أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين أمر بالكتاب إليك في التقدم إلى عمالك في حسن السيرة وتخفيف المثونة وكف الأذى عن أهل عملك ، فتقدم إلى عمالك في ذلك أشدّ التقدم ، واكتب إلى عمّال الخراج بمثل ذلك . وكتب إلى جميع عمّاله في أجناد الشام ؛ جند حمص والأردن وفلسطين بمثل ذلك ؛ فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة بقية من رجب صلى الجمعة إسحاق بن يحيى بن معاذ في مسجد دمشق ، فقال في خطبته بعد دعائه لأمر المؤمنين : اللهم وأصلح الأمير أخا المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد .

١١٣٤/٣

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة المأمون]

وفي هذه السنة توفى المأمون .

• ذكر الخبر عن سبب المرض الذي كانت فيه وفاته :

ذكر عن سعيد العلاّف القارئ ، قال : أرسل إلى المأمون وهو ببلاد الروم - وكان دخلها من طرسوس يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقية من جمادى الآخرة - فحملت إليه وهو في البستان ؛ فكان يستقرئني ، فدعاني يوماً ، فجئت فوجدته جالساً على شاطئ البستان ، وأبو إسحاق المعتصم جالس عن يمينه ، فأمرني فجلست نحوه منه ؛ فإذا هو وأبو إسحاق مدليّان

أرجلهم في ماء البَدَنَدُون ، فقال : يا سعيد ، دكّ رجلينك في هذا الماء ١١٣٥/٣ وذقه ؛ فهل رأيت ماء قطّ أشدّ برداً ، ولا أعذب ولا أصنى صفاء منه ! ففعلت وقلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثل هذا قطّ ، قال : أى شيء يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء عليه ؟ فقلت : أمير المؤمنين أعلم ، فقال : رُطَب الآزاد (١) ؛ فبينا هو يقول هذا إذا سمع وقع لجُهم البريد فالتفت ، فنظر فإذا بغالٌ من بغال البريد ، على أعجازها حقائق فيها الألفاف ، فقال لخدام له (٢) : اذهب فانظر: هل في هذه الألفاف رُطَب ؟ فانظره ، فإن كان آزاد فأت به ؛ فجاء يسعى بسلتين فيهما رطب آزاد ، كأنما جُنِي من النخل تلك الساعة ؛ فأظهر شكراً لله تعالى ؛ وكثر تعجبنا منه ، فقال : ادن فكل ، فأكل هو وأبو إسحاق ، وأكلت معهما ، وشربنا جميعاً من ذلك الماء ؛ فما قام منا أحد إلا وهو محمومٌ ؛ فكانت منية المأمون من تلك العلة ؛ ولم يزل المعتصم عليلاً حتى دخل العراق ، ولم أزل عليلاً حتى كان قريباً .

ولما اشتدت بالمأمون علته بعث إلى ابنه العباس ، وهو يظن أن لن يأتيه ، فاتاه وهو شديد المرض متغير العقل ، قد نُفِذت الكتب بما نُفِذت له (٣) في أمر أبي إسحاق بن الرشيد ، فأقام العباس عند أبيه أياماً ، وقد أوصى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق .

١١٣٦/٣

وقيل : لم يوص إلاّ والعباس حاضر ، والقضاة والفقهاء والقواد والكتاب ، وكانت وصيته : هذا ما أشهد عليه عبدالله بن هارون أمير المؤمنين بحضرة مَنْ حضره ؛ أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد ومن حضره أن الله عز وجلّ وحده لا شريك له في ملكه ، ولا مدبّر لأمره غيره ، وأنه خالقٌ وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل ؛ ولا شيء مثله تبارك وتعالى ، وأن الموت حقّ ، والبعث حقّ ، والحساب حقّ ، وثواب المحسن الجنة وعقاب المسيء النار ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد بلغ عن ربه شرائع دينه ، وأدّى نصيحته إلى أمته ؛ حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه أفضل صلاة

(١) ذكره الجواليقي في المغرب ٣٤

(٢) ف : « لفلان من غلمانة » .

(٣) ف : « فيه من » .

صلاًها على أحد من ملائكته المقربين وأنبيائه والمرسلين ، وأنى مقرّ مذنب ، أرجو وأخاف ؛ إلا أنى إذا ذكرت عفو الله رجوت ؛ فإذا أنا مت فوجهوني وعظموني ، وأسبغوا وضوئي وطهورى ، وأجيدوا كفننى ؛ ثم أكثروا حمداً لله على الإسلام ومعرفة حقه عليكم فى محمد ؛ إذ جعلنا من أمته المرحومة ، ثم أضجعوني على سريري ، ثم عجلوا بى ؛ فإذا أنتم وضعتونى للصلاة ؛ فليتقدّم بها من هو أقربكم بى نسباً ، وأكبركم سنّاً ، فليكبّر خمساً ، يبدأ فى الأولى فى أولها بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على سيدى وسيد المرسلين جميعاً ، ثم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات ؛ الأحياء منهم والأموات ، ثم الدعاء للذين سبقونا بالإيمان ، ثم ليكبّر الرابعة ، فيحمد الله ويهلّله ويكبّره ويسلم فى الخامسة ، ثم أقتلوني فأبلغوا بى حفرتى ، ثم لينزل أقربكم إلى قرابة ، وأودّكم محبة ، وأكثروا من حمد الله وذكره ، ثم ضمّوني على شقى الأيمن واستقبلوا بى القبلة ، وحلّوا كفننى عن رأسى ورجلى ، ثم سدّوا اللحد باللّين ، واحشّوا تراباً على^(١) ، واخرجوا عنى وخلّوني وعملى ؛ فكلّكم لا يغنى عنى شيئاً ، ولا يدفع عنى مكروهاً ، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا^(٢) خيراً إن علمتم ، وأمسكوا عن ذكر شرّ إن كنتم عرّقم ، فإنى مأخوذ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به ، ولا تدعّوا باكيةً عندى ؛ فإن المعول عليه يعذب . رحم الله أماً اتعظ وفكر فيما حتم الله على جميع خلقه من الفناء ، وقضى عليهم من الموت الذى لا بدّ منه ، فالحمد لله الذى توحد بالبقاء ، وقضى على جميع خلقه الفناء . ثم ليستظر ما كنت فيه من عزّ الخلافة ؛ هل أغنى ذلك عنى شيئاً إذ جاء أمر الله ! لا والله ، ولكن أضعف على به الحساب ، فيا ليت عبد الله بن هارون لم يكن بشراً ، بل ليته لم يكن خلقاً ! يا أبا إسحاق ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن ، واعمل فى الخلافة إذا طوّقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ؛ ولا تغترّ بالله ومهلته^(٣) ؛ فكان قد نزل بك الموت . ولا تغفل أمر الرعية . الرعية الرعية ! العوام العوام ! فإن الملك بهم وبتعهدك^(٤) المسلمين والمنفعة لهم . الله الله فى غيرهم من المسلمين !

١١٣٧/٣

١١٣٨/٣

(٢) س : « قولوا » .

(١) ف : « التراب » .

(٤) ف : « وتمهلك » .

(٣) س وابن الأثير : « وتمهله » .

ولا يُنهيَنَّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين^(١) ومنفعة لهم إلا قدَّمته وآثرته على غيره من هোক ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأتهم ، وعجل الرحلة عنِّي ، والقدوم إلى دار مُلكِكَ بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت . والخُرْمية فأغزهم ذا حزامه وصرامة وجلده ، وأكسفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرَّجالة ؛ فإن طالت مدتهم فتجرَّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك عمل مقدَّم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه . واعلم أنَّ العِظَّة إذا طالت أوجبت على السامع لها والموصى بها الحجة ؛ فاتق الله في أمرك كله ، ولا تُفْتِن .

ثم دعا أبا إسحاق بعد ساعة حين اشتدَّ به الوجع ، وأحسَّ بمجيء أمر الله فقال له : يا أبا إسحاق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومنَّ بحق الله في عباده ، ولتؤثرنَّ طاعته على معصيته ؛ إذ أنا^(٢) نقلتها من غيرك إليك ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فانظر ممن كنت تسمعي أقدمه على لساني فأضعف له التقدمة ؛ عبد الله بن طاهر أقره على عمله ولا نهجه ، فقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي ، استعطفه بقلبك ، وخصه ببرك ، فقد عرفت بلاءه وغشاه عن أخيك . وإسحاق بن إبراهيم فأشركه في ذلك ؛ فإنه أهلُّ له . وأهل بيتك ، فقد علمت أنه لا بقية فيهم وإن كان بعضهم يظهر الصيانة لنفسه . عبد الوهاب عليك به من بين أهلك ، فقدَّمه عليهم ، وصير أمرهم إليه . وأبو عبد الله بن أبي داود فلا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كل أمرك ؛ فإنه موضع لذلك منك ، ولا تتخذنَّ بعدى وزيراً تلقى إليه شيئاً ؛ فقد علمت ما نكبتني به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبث سيرته^(٣) حتى أبان الله ذلك منه في صحبة مني ، فصرت إلى مفارقتة ! قالياً له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته ، لا جزاء الله عن الإسلام خيراً ! وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

١١٣٩/٣

(٢) س وابن الأثير : « إذا » .

(١) ف : « المسلمين » .

(٣) ف : « سيرته » .

فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى . اتقوا الله ربكم حق تقائه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . اتقوا الله واعملوا له ، اتقوا الله في أموركم كلها . أستودعكم ^(١) الله ونفسي وأستغفر الله مما سلف ، وأستغفر الله مما كان مني ، إنه كان غفاراً ، فإنه ليَعْلَمُ كيف ندبني على ذنوبي ، فعليه توكلت من عظيمها ^(٢) ، وإليه أنيب ولا قوة إلا بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة !

١١٤٠/٣

* * *

ذكر الخبر عن وقت وفاته والموضع الذي دفن فيه ومن صلى عليه ومبلغ سنه وقدر مدة خلافته

قال أبو جعفر ^(٣) : وأما وقت وفاته ، فإنه اختلف فيه ، فقال بعضهم : توفى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب بعد العصر سنة ثمان عشرة ومائتين .

وقال آخرون : بل توفى في هذا اليوم مع الظهر ، ولما توفى حمله ابنه العباس وأخوه أبو إسحاق محمد بن الرشيد إلى طرسوس ، فدفناه ^(٤) في دار كانت لخاقان خادم الرشيد ، وصلى عليه أخوه أبو إسحاق المعتصم ، ثم واكلوا ^(٥) به حرساً من أبناء أهل طرسوس وغيرهم مائة رجل ، وأُجرى على كل رجل منهم تسعون درهماً .

وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ؛ وذلك سوى سنتين كان دُعي له فيهما بمكة وأخوه الأمين محمد بن الرشيد محصور ببغداد .

وكان ولد للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

(١) ابن الأثير ، ف : « استودعكم » . (٢) س : « عظمها » .

(٣) من ف (٤) س : « ودفناه » .

(٥) ف : « واكلوا » .

وكان يكنى - فيما ذكر ابن الكلبي - أبا العباس .

وكان رُبْعَة ^(١) أبيض جميلاً ، طويل اللحية ، قد وخطه الشيب ^(٢) . وقيل كان أسمر تعلوه صفرة ، أحنى أعين ^(٣) طويل اللحية رقيقها ، أشيب ، ضيق الجبهة ، بخده خال أسود .

واستُخْلِفَ يوم الخميس لخمس ليال بقين من المحرم .

* * *

ذكر بعض أخبار المأمون وسيرة

ذكر عن محمد بن المهيثم بن عدتي ، أن إبراهيم بن عيسى بن بُرَيْهَةَ بن المنصور ، قال : لما أراد المأمون الشخوصَ إلى دمشق هيأتُ له كلاماً ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلتُ بين يديه قلتُ : أطل الله بقاء أمير المؤمنين ، في أدوم العزِّ وأسبغ الكرامة ، وجعلني من كلِّ سوء فداه ! إنَّ من أمسى وأصبح يتعرَّف من نعمة الله ، له الحمد كثيراً عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحُسِّنْ تأنيسه له ، تحقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها بشكر الله وشكر أمير المؤمنين ، مدَّ الله في عمره عليها . وقد أحبَّ أن يعلم أميرُ المؤمنين أيده الله أني لا أرغب بنفسى عن خدمته أيده الله بشيء من الخَفَضِ والدَّعَاة ؛ إذ كان هو أيده الله يَتَجَشَّمْ خُشُونَةَ السَّفَرِ ونَصَبَ الظَّعْنِ ، وأولى الناس بمواساته في ذلك وبذل نفسه فيه أنا ، لما عرفني الله من رأيه ، وجعل عندى من طاعته ومعرفة ما أوجب الله من حقه ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أكرمه الله أن يكرمنى بلزوم خدمته ، والكيونة معه فعل . فقال لى مبتدئاً من غير تروية : لم يعزم أميرُ المؤمنين في ذلك على شيء ، وإن استصحب أحداً من أهل بيتك بدأ بك ؛ وكنت المقدَّم عنده في ذلك ؛ ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه ؛ وإن ترك ذلك فمن غير قِلَّةٍ لمكانك ؛ ولكن بالحاجة إليك . قال : فكان والله ابتداءه أكثرَ من ترويتى .

١١٤٢/٣

(١) يقال : فلان رُبْعَة ومربوع ، أى ما بين الطويل والقصير .

(٢) وخطه الشيب ، أى خالطه وفشا فيه ، أو استوى سواده وبياضه .

(٣) رجل أحنى ، أى فى ظهره احديداب . وأعين : واسع العين .

وذكر عن محمد بن علي بن صالح السرخسي، قال: تعرّض رجلٌ للمأمون بالشأم مراراً، فقال له: يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم أهل خراسان! فقال: أكثرت عليّ يا أخا أهل الشأم؛ والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبقَ في بيتٍ مالى درهم واحد؛ وأما اليمن فوالله ما أحببْتُها ولا أحببْتُني قطّ؛ وأما قُضاعة فسادتُها تنتظر السفيناتيّ وخروجَه فتكونُ من أشياعه، وأما ربيعة فساخطةٌ على الله منذ بعث نبيّه من مُضَرّ؛ ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاربياً، اعزُبْ فعل الله بك!

وذكر عن سعيد بن زياد أنه لما دخل على المأمون بدمشق قال له: أرني الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم، قال: فأريته، قال: فقال: إني لأشتهي أن أدري أىّ شيء هذا الغشاء على هذا الخاتم؟ قال: فقال له أبو إسحاق: حلّ العقد حتى تدري ما هو، قال: فقال: ما أشكّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عقد هذا العقد، وما كنت لأحلّ عقداً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال للوائق: خذه فضعه على عينك؛ لعلّ الله أن يشفيك. قال: وجعل المأمون يضعه على عينه ويبكي.

١١٤٣/٣

وذكر عن العيصيّ صاحب إسحاق بن إبراهيم، أنه قال: كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المالُ عنده حتى ضاق، وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة. قال: وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولاه له، قال: فلما وردَ عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال: فخرجنا حتى أصبحنا، ووقفنا ينظرانه؛ وكان قد هبسيّ بأحسن هيئة، وحلّيت أبا عيرَه، وألبست الأحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقلّدت العهن، وجعلت البدر بالحرير الصينيّ الأحمر والأخضر والأصفر، وأبدت رءوسها. قال: فنظر المأمون إلى شيء حسن، واستكثر ذلك، فعظم في عينه، واستشرّفه الناس ينظرون إليه، ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى: يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم،

ونصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم ! إنا إذاً للثام . ثم دعا محمد بن يزداد ، فقال له : وقع لآل فلان بألف ألف ، ولآل فلان بمثلها ، ولآل فلان بمثلها . قال : فوالله إن^(١) زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ، ثم قال : ادفَع الباقي إلى المعلّى يعطى جندنا . قال العيشي : فجئت حتى قمت نصب عينه ، فلم أردّ طرفي عنها ، لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال . فقال : يا أبا محمد ، وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف ؛ لا يختلس ناظري . قال : فلم يأت على ليلتان حتى أخذت المال .

وذكر عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان ؛ أنه كان بالبصرة رجل^{١١٤٤/٣} من بني تميم ، وكان شاعراً ظريفاً خبيثاً منكراً ؛ وكنت أنا والى البصرة ، آنسُ به وأستحليه ؛ فأردتُ أن أخدعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر وأنت ظريف ، والمأمون أجودُ من السحاب الحافل والريح العاصف ؛ فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندي ما يُقلّني ، قلت : فأنا أعطيك نجيباً فارهاً ، ونفقةً سابعة ، وتخرج إليه وقد امتدحتّه ؛ فإنك إن حظيت ببقائه ، صرت إلى أمنيّتك . قال : والله أيها الأمير ما إخالك أبعدت ؛ فأعدت لي ما ذكرت . قال : فدعوت له بنجيب فاره ، فقلت : شأنك به فامسّطه ؛ قال : هذه إحدى الحسنيتين ، فما بال الأخرى ! فدعوت له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ؛ قال : أحسبك أيها الأمير قصّرت في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية ، وإن قصّرت عن السّرف . قال : ومتى رأيت في أكابر سعد سرفاً حتى تراه في أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزه ليست بالطويلة ، فأنشد فيها وحذف منها ذكرى والثناء على - وكان مardاً - فقلت له : ما صنعت شيئاً . قال : وكيف ؟ قلت : تأتي الخليفة ولا تُسّني على أميرك ! قال : أيها الأمير أردت أن تخدعني فوجدتني خداعاً ، ولمثلها ضرب هذا المثل : « من ينك العير ينك نبياً كاً » ؛ أما والله ما لكرامتي حملتني على نجيبك ، ولا جدّتي لي بمالك الذي ما رامه أحد قطّ إلا جعل الله خدّه الأسفل ؛ ولكن لأذكرك

(١) ف : « لم يزل » .

في شعري وأمدحك عند الخليفة ، أفهم هذا . قلت : قد صدقت ، فقال :
 أمّا إذْ أبديتَ ما في ضميرك ، فقد ذكرتك ، وأثنت عليك ، فأنشدني
 ما قلت ، فأنشدني ، فقلت : أحسنت ؛ ثم ودّعني وخرج فأتى الشام ؛
 وإذا المأمون بسلغوس . قال : فأخبرني . قال : بينا أنا في غزاة قسرة^(١) ،
 قد ركبْتُ نجيبِي ذاك ، وليستُ مقطّعاتي ، وأنا أروم العسكر ؛ فإذا أنا
 بكهل على بَخْلٍ فارِه ما يُقَسِّرُ قراره ، ولا يدرك خطاه . قال : فلتقاني مكافحة
 ومواجهة ، وأنا أردّد نشيد أرجوزي ، فقال : سلام عليكم — بكلام جهّوري
 ولسان بسيط — فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، قال : قف إن
 شئت ، فوقفت فتصوّعتُ منه رائحة العنبر والمسك الأذفر ، فقال : ما أولك ؟
 قلت : رجل من مُضَسَّر ، قال : ونحن من مُضَسَّر ، ثم قال : ثمّ ماذا ؟
 قلت : رجلٌ من بني تميم ، قال : وما بعد تميم ؟ قلت : من بني سعد ، قال :
 هيه ، فما أقدمك هذا البلد ؟ قال : قلت : قصّدتُ هذا الملك الذي ما سمعت
 بمثله أُنْدَى رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطولَ باعاً ، ولا أمدّ يفاعاً^(٢) منه .
 قال : فما الذي قصّدتَه به ؟ قلت : شعر طيب يلذّ على الأفواه ، وتقفيه
 الرواة ، ويحلّو في آذان المستمعين ، قال : فأنشدني ، فغضبتُ وقلت :
 يا ركيك ، أخبرتك أنّي قصّدتُ الخليفة بشعر قلنته ، ومديح حبّرتُه ، تقول :
 أنشدنيّه ! قال : فتغافل والله عنها ، وتطأ من لها ، وألغى عن جوابها ،
 قال : وما الذي تأمل منه ؟ قلت : إن كان على ما ذُكر لي عنه فألف
 ديناره قال : فأنا أعطيك ألفَ دينار إن رأيتُ الشعرَ جيّداً والكلامَ عذباً
 وأضع عنك العناء ، وطول التردّد ؛ ومنى تصلُّ إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة
 آلاف راميحٍ ونابل ! قلت : فلي الله عليك أن تفعل ! قال : نعم لك
 الله على أن أفعل ، قلت : ومعك الساعة مال ؟ قال : هذا بغلي وهو خير
 من ألف دينار ، أنزلُ لك عن ظهره ، قال : فغضبتُ أيضاً وعارضني
 نَزَقٌ سعد وخفة أحلامها ، فقلت : ما يساوي هذا البغل هذا النجيب ! قال :

١١٤٦/٣

١١٤٧/٣

فدعْ عنك البغل ، ولك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار ، قال :
فأنشدته :

مأمونٌ يا ذا المنِّ الشريفه^(١) وصاحبَ المرتبةِ المنيّفةِ
وقائدَ الكتيبةِ الكشيّفةِ هل لك في أرجوزةِ ظريفه
أظرفَ من فقهِ أبي حنيفةِ لا والذي أنت له خليفة
ما ظلمتَ في أرضنا ضعيفه^(٢) أميرنا مؤنثه خفيفة
وما اجتبي شيئاً سوى الوظيفةِ فالذئبُ والنعجةُ في سقيفةِ
* واللصّ والتاجرُ في قטיפه *^(٣)

قال : فوالله ما عدا أن أنشدته ، فإذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا
الأفق ، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال :
فأخفني أفكل^(٤) ، ونظر إلى بتلك الحال ، فقال : لا بأس عليك أي
أخي ، قلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ! أتعرف لغات العرب ؟
قال : إى لعمر الله ، قلت : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال :
هذه حمير ، قلت : لعننا الله ، ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم !
فضحك المأمون ، وعلم ما أردت ، والتفت إلى خادماً إلى جانبه ، فقال : أعطه
ما معك ، فأخرج إلى كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك ، ثم
قال : السلام عليك ؛ ومضى فكان آخر العهد به .
وقال أبو سعيد الخزوي :

هل رأيت النجومَ أغنت عن المأْمُونِ شيئاً أو ملكه المأسوس^(٥)
خلفوه بعرضتي طرسوس مثل ما خلفوا أباه بطوس
وقال علي بن عبيدة الرِّيحاني :
ما أقلّ الدموغَ للمأمونِ لست أرضى إلا دماً من جفوني

(٢) الأفكل : الرعدة .

(١) ابن الأثير : « المنزلة الشريفة » .

(٣) المسعودي ، ٤ : ٤٥ ، وفيه : « المأمون » .

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي أن عليّ ابن صالح حدثه ، قال : قال لي المأمون يوماً : أبغني رجلاً من أهل الشام ، له أدب ، يجالسني ويحدثني ، فالتفتُ ذلك فوجدته ، فدعوته فقلت له : إني مدخلك على أمير المؤمنين ، فلا تسأله عن شيء حتى يبتدئك ، فإني أعرفُ الناس بمسألتكم يا أهل الشام ، فقال : ما كنت متجاوزاً ما أمرتني به . فدخلت على المأمون ، فقلت له : قد أصبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فقال : أدخله ، فدخل فسلم ، ثم استدناه — وكان المأمون على شغله من الشراب — فقال له : إني أردتك لمجالستي ومحادثتي ، فقال الشامي : يا أمير المؤمنين ؛ إن المجلس إذا كانت ثيابه دون ثياب جلسه دخله لذلك غضاضة ، قال : فأمر المأمون أن يخلع عليه ؛ قال : فدخلني من ذلك ما الله به أعلم ، قال : فلما خلع عليه ، ورجع إلى مجلسه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن قلبي إذا كان متعلقاً بعيالي لم تنتفع بمحادثتي ، قال : خمسون ألفاً تحمّل إلى منزله ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، وثالثة ، قال : وما هي ؟ قال : قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله ؛ فإن كانت مني هنةٌ فاغتفرها ، قال : وذاك ! قال عليّ : فكان الثالثة جلت عني ما كان بي .

وذكر أبو حشيشة محمد بن عليّ بن أمية بن عمرو ، قال : كنا قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغني علّويه :

بَرِئْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي أَتَاكَ بِهِ الْوَاشَوَانُ عَنِّي كَمَا قَالُوا ^(١)
وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْكَ سَرِيعَةً إِلَى ، تَوَاصَوْا بِالنَّمِيمَةِ وَاحْتَالُوا

فقال : يا علّويه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي ، قال : أيّ قاض ويحك ! قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا إسحاق ، اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فيحضر الساعة . قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير ؛ فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان ابن فلان القلاني ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال : يا علّويه ، أنشده الشعر ، فأنشده ، فقال :

هذا الشعرُ لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساءه طوالق وكل ما يملك في سبيل الله إن كان قال الشعر منذ ثلاثون سنة إلا في زُهد أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا إسحاق اعزله ؛ فما كنت أولي رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام . ثم قال : اسقوه ؛ فأتى بقدر فيه شراب ، فأخذه وهو يرتعد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما ذقته قط ، قال : فلعلك تريد غيره ! قال : لم أذق منه شيئاً قط ، قال : فحرام هو ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أولى لك ! بها نجوت ، اخرج . ثم قال : يا علّويه ، لاتقل : « برئت من الإسلام » ، ولكن قل :

حُرمتُ منائى منك إن كان ذا اللدى أتاك به الواشون عني كما قالوا

قال : وكنا مع المأمون بدمشق ، فركب يريد جبل الثلج ، فمر ببركة ١١٥١/٣ عظيمة من برك بني أمية ، وعلى جوانبها أربع سرّوات ، وكان الماء يدخلها سيحاً ، ويخرج منها ؛ فاستحسن المأمون الموضع ، فدعا بيزماً ورد ورطل ، وذكر بني أمية ، فوضع منهم وتنقصهم ؛ فأقبل علّويه على العود ، واندفع يغنى :

أولئك قومي بعد عز وثروة تفانوا فيلاً أذرف العين أكمدًا

فضرب المأمون الطعام برجله ، ووثب وقال لعلّويه : يابن الفاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر فيه مواليك إلا في هذا الوقت ! فقال : مولاكم زرياب عند موالى يركب في مائة غلام ؛ وأنا عندكم أموت من الجوع ! فغضب عليه عشرين يوماً ، ثم رضى عنه .

قال : وزرياب مولى المهدي ، صار إلى الشام ثم صار إلى المغرب ، إلى بني أمية هناك .

وذكر السليطي أبو علي ، عن نحارة بن عقيل ، قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له ، هي مائة بيت ؛ فأبتدئ بصدر البيت فيبادرنى إلى قافيته .

كما قَفَيْتُهُ ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ؛ ما سمعها مني أحد قط ، قال : هكذا ينبغي أن يكون ؛ ثم أقبل عليّ ، فقال لي : أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التي يقول فيها .

• تشطُّ غداً دارُ جيراننا •

فقال ابنُ العباس

١١٥٢/٣

• وللدارُ بعد غد أبعد ^(١) •

حتى أنشده القصيدة ، يقفّيها ابن عباس ! ثم قال : أنا ابنُ ذاك .
وذكر عن أبي مروان كازر بن هارون ، أنه قال : قال المأمون :

بعثتك مُرتاداً ففزتَ بِنَظْرَةٍ وَأَغْفَلْتَنِي حَتَّى أَسَأْتُ بِكَ الظَّنَّ
فَنَاجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وَكُنْتُ مَبَاعِداً فَيَالَيْتَ شَعْرِي عَنْ دُنُوكَ مَا أَغْنَى !
أَرَى أَثْراً مِنْهُ بِعَيْنِكَ بَيِّنًا لَقَدْ أَخَذْتَ عَيْنَاكَ مِنْ عَيْنِهِ حُسْنًا

قال أبو مروان : وإنما عوّل المأمون في قوله في هذا المعنى على قول العباس ابن الأحنف ، فإنه اخترع :

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولٍ ، وَفُزْتُ بِالْخَبْرِ ^(٢)
وَكَلَّمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا رَدَدْتُ عَمداً فِي طَرَفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ مُحَاسِنُهَا قَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثْرِ
خُذْ مَقْلَتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةٍ فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَى بَصْرِي

قال أبو العتاهية : وجهه إلى المأمون يوماً ، فصرتُ إليه ، فألفيته مطرقاً مفكراً ، فأحجمتُ عن الدنو منه في تلك الحال ؛ فرفع رأسه ؛ فنظر إلى وأشار بيده ؛ أن ادنُ ، فدنوتُ ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ شأنُ النفس الملل وحسبُ الاستطراف ؛ تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة ، قلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت ، قال : وما هو ؟ قلت :

١١٥٣/٣

لا يُصْلِحَ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُقَسَّمَةً إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ (١)

وذكر عن أبي نزار الضَّرِير الشاعر أنه قال : قال لي عليّ بن جبلة :
قلتُ لحُمَيْد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحتُ أميرَ المؤمنين بمدح
لا يحسن مثله أحدٌ من أهل الأرض ؛ فاذكرني له ، فقال : أنشدني ،
فأنشدته ، فقال : أشهد أنك صادق ؛ فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال :
يا أبا غانم ، الجواب في هذا واضح ، إن شاء غنونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً
بمديحه ؛ وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دُلْف القاسم بن عيسى ؛ فإن
كان الذي قال فيك وفيه أجودُ من الذي مدحتنا به ضربنا ظهره ، وأطلقنا حبسه ،
وإن كان الذي قال فينا أجودُ أعطيتُه بكلّ بيت من مديحه ألف درهم ، وإن
شاء ألقناه . فقلت : يا سيدي ، ومن أبو دُلْف ! ومن أنا حتى يمدحنا بأجود
من مديحك ! فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء ،
فاعرضْ ذلك على الرجل . قال عليّ بن جبلة : فقال لي حميد : ما ترى ؟
قلت : الإقالة أحبُّ إليّ ، فأخبر المأمون ، فقال : هو أعلم ، قال حميد :
فقلت لعلّي بن جبلة : إلى أيّ شيء ذهب في مدحك أبا دُلْف (٢) وفي مدحك
لي ؟ قال : إلى قولي في أبي دلف :

لِنَمَّا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمُحْتَضَرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وإلى قولي فيك :

لَوْلَا حَمِيدٌ لَمْ يَكُنْ حَسْبُ يُعَدُّ وَلَا نَسَبُ
يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي عَزَّتْ بِعِزَّتِهِ الْعَرَبُ

قال : فأطرق حميد ساعة ، ثم قال : يا أبا الحسن ، لقد انتقد عليك
أمير المؤمنين . وأمر لي بعشرة آلاف درهم وحملان وخلعة وخدام ، وبلغ ذلك

(١) البيت والخبر في المسعودي ٤ : ١٧ .

(٢) الأغاني : « أي شيء يعني من مدائحك » .

أبا دُأَف فأضعف لي العطية ، وكان ذلك منهما في ستر لم يعلم به أحد إلى أن حدّثتك يا أبا نزار بهذا ^(١) .

قال أبو نزار : وظننتُ أن المأمون تعتقد عليه هذا البيت في أبي دُأَف :
تحدّر ماء الجود من صلب آدم فأنبتته الرحمن في صلب قاسم ^(٢)

١١٥٥/٣

وذكر عن سليمان بن رزين الخزاعي ، ابن أخي دُعبل ، قال : هجا دُعبل المأمون ، فقال :

ويُسومني المأمون خطّة عارفٍ أو مارأى بالأمس رأس محمد ^(٣)
يوفي على هام الخلائف مثل ما يوفي الجبال على رؤوس القرد ^(٤)
ويحل في أكتاف كل ممنع حتى يذلّ شاهقاً لم يصعد ^(٥)
إن الترات مسهد طلابها فاكفف لعابك عن لعاب الأسود

ف قيل للمأمون : إن دُعبل هجاك ، فقال : هو يهجو أبا عباد لا يهجوني .
يريد حدة أبي عباد ، وكان أبو عباد إذا دخل على المأمون كثيراً ما يضحك المأمون ، ويقول له : ما أراد دُعبل منك حين يقول :

وكانه من دير هزقل مفليّ حرّد يجرّ سلاسل الأقياد ^(٦)

١١٥٦/٣

(١) الخبر والشعر في الأغاني ١٨ : ١٠٥ (ساسي) والشعر والشعراء ٨٤٠ .

(٢) س : « من ظهر آدم » .

(٣) ديوانه ٦٩ والشعر والشعراء ٨٢٦ ، وفيه « خطّة عاجز » .

(٤) الديوان : « يوفي على رؤوس الخلائق » . والقرد : المكان الغليظ المرتفع .

(٥) بعده في الشعر والشعراء .

لني من القوم الذين مسيؤهم فقدت أخاك وشرّفوك بمقعدي

(٦) دير هزقل : دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم ؛ وذكره الثعالبي في المضاف المنسوب ٥٢٨ ، وقال : « يضرب به المثل لمجتمع المجانين . ويقال للمجنون : كأنه من دير هزقل ، وذلك أنه مأوى المجانين بإحدى الديارات ، يشدون هناك ويداونون . والخبر كما في معجم البلدان ٤ : ١٨١ ، ١٨٢ : « غضب أبو عباد ثابت بن يحيى كاتب المأمون يوماً على بعض كتابه ، فرماه بدواة كانت بين يديه ، فلما رأى الدم يسيل ، ندم وقال : صدق الله عز وجل : « والذين إذا ما غضبوا هم يتجاوزون » ؛ فبلغ ذلك المأمون ، فأنتبه وعتب عليه ، وقال : ويحك ! أنت أحد أعضاء المملكة وكتاب الخليفة ، ماتحن أن تقرأ آية من كتاب الله ! فقال : بلى يأمر المؤمنين ، إنّي لأقرأ من سورة =

وكان المأمون يقول لإبراهيم بن شكيلة إذا دخل عليه : لقد أوجعك دِ عبل حين يقول :

إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلَعًا بِهَا فَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ
وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَزُلْزُلِ وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ
أَنْنَى يَكُونُ وَلَا يَكُونُ وَلَمْ يَكُنْ لِيَنَالَ ذَلِكَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ!

وذكر محمد بن الهيثم الطائي أن القاسم بن محمد الطيفوري حدثه ، قال : شكى اليزيدي إلى المأمون خلة أصابته ، ودنسًا لحقه ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الأمر قد ضاق عليّ ، وإن غرّ مائي قد أرهقوني . قال : فرم لنفسك أمراً تنال به نفعاً فقال : لك منادمون فيهم من إن حرّكته نلت منه ما أحبّ ، فأطلق لي الحيلة فيهم ، قال : قل ما بدالك ، قال : فإذا حضروا وحضرت فمرّ فلاناً الخادم أن يوصل إليك رقعتي ؛ فإذا قرأتها ، فأرسل إلى : دخولك في هذا الوقت متعذّر ؛ ولكن اختر لنفسك من أحببت . قال : فلما علم أبو محمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه إليه ، وتيقن أنهم قد ثملوا من شرّ بهم ، أتى الباب ، فدفع إلى ذلك الخادم رقعة قد كتبها ، فأوصلها له إلى المأمون ، فقرأها فإذا فيها :

يَا خَيْرَ إِخْوَانِي وَأَصْحَابِي هَذَا الطَّقِيلُ لَدَى الْبَابِ
خَبَّرَ أَنَّ الْقَوْمَ فِي لَذَّةٍ يَصُبُّو إِلَيْهَا كُلُّ أَوَابِ
فَصَيِّرُونِي وَاحِدًا مِنْكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا لِي بَعْضَ أَتْرَابِي

== واحدة ألف آية وأكثر؛ فضحك المأمون وقال : من أي سورة ؟ قال : من أيها شئت ؛ فازداد ضحكهم وقال : قد شئت من سورة الكوثر ؛ وأمر بإخراجه من ديوان الكتابة ، فبلغ ذلك دعبلا الشاعر : فقال :

أَوَّلَى الْأُمُورِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادِ أَمْرٌ يَدْبُرُهُ أَبُو عَبَّادِ
خَرَقَ عَلَى جُلُوسَاتِهِ بَدَوَاتِهِ وَمُضْمَخٌ وَمُرْمَلٌ بِمَدَادِ
فَكَانَهُ مِنْ دِيرٍ هَزَقْلٍ مُفْلِتٍ حَرْدٌ يَجْرُ سُلَاسِلَ الْأَقْيَادِ

قال : فقرأها المأمون على مَنْ حضره ، فقالوا : ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثل هذه الحال . فأرسل إليه المأمون : دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك مَنْ أحببت تناديه ، فقال : ما أرى لنفسى اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون : قد وقع اختياره عليك ، فصر إليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، فأكون شريك الطفيلي ! قال : ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين ؛ فإن أحببت أن تخرج ، وإلا فافتد نفسك ، قال : فقال : يا أمير المؤمنين ، له على عشرة آلاف درهم ، قال : لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك ، قال : فلم يزل يزيدُه عشرة عشرة ، والمأمون يقول له : لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ المائة ألف . قال : فقال له المأمون : فجعّلنها له ، قال : فكتب له بها إلى وكيله ، ووجّه معه رسولا ، فأرسل إليه المأمون : قبض هذه في هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة .

١١٥٨/٣

وذُكر عن محمد بن عبد الله صاحب المراكب قال : أخبرني أبي عن صالح بن الرشيد ، قال : دخلتُ على المأمون ، ومعى بيتان للحسين بن الضحّاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحب أن تسمع مني بيتين ، قال : أنشدتهما ، قال : فأنشده صالح :

حَمِدْنَا اللَّهَ شُكْرًا إِذْ حَبَانَا بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١)
فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَا

فاستحسنهما المأمون ، وقال : لمن هذان البيتان يا صالح ؟ قلت : لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحّاك ، قال : قد أحسن ، قلت : وله يا أمير المؤمنين ما هو أجود من هذا ، قال : وما هو ؟ فأنشدته :

أَيْبَسْخُلُ فَرْدُ الْحُسَيْنِ فَرْدُ صِفَاتِهِ عَلِيٌّ ، وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهِوًى فَرْدٍ !^(٢)
رَأَى اللَّهَ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ فَمَلَكُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ

١١٥٩/٣

وذُكر عن ثُمّارة بن عَقِيل ، أنه قال : قال لي عبد الله بن أبي السَّمَط :

علمت أن المأمون لا يبصر الشعر ، قال : قلت : ومن ذا يكون أعلم منه !
فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال : أنشدته بيتا
أجدت فيه ، فلم أره تحرك له ، قال : قلت : وما الذي أنشدته ؟ قال :
أنشدته :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً^(١) بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً

قال : فقلت له : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته
عجوزاً في محرابها ، في يدها سبحتها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل
عنها ، وهو المطوق بها ! هلاً قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز
ابن الوليد :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبُهُ^(٢) وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ

فقال : الآن علمت أني قد أخطأت .

وذكّر عن محمد بن إبراهيم السّيّارى^(٣) قال : لما قدّم العتّابي على المأمون
مدينة السلام أذن له ، فدخل عليه ، وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي - وكان
شيخاً جليلاً - فسلم عليه ، فردّ عليه السلام ، وأدناه وقربه حتى قرب منه ،
فقبل يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله ، فجعل
يجيبه بلسان طلق ؛ فاستظرف^(٤) المأمون ذلك . فأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ،
فظنّ الشيخ أنه استخفّ به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الإبسّاس قبل الإيناس^(٥)
قال : فاشتبه على المأمون الإبسّاس ، فنظر إلى إسحاق بن إبراهيم ، ثم قال :
نعم ، يا غلام ألف دينار^(٦) ؛ فأتي بها ، ثم صبت بين يدي العتّابي ، ثم

(١) ابن الأثير : أمير الهدى .

(٢) ديوانه ٤٣٥ ، وفي ابن الأثير : « بضيع » .

(٣) في الأغاني : « اليسارى » . (٤) الأغاني : « فاستظرف » .

(٥) كذا في أصول الطبري ؛ وفي الميداني : « الإيناس قبل الإبسّاس » ، قال في شرحه :
« يقال : آنسه ، أي أوقعه في الأنس ، وهو نقيض أوحشه . والإبسّاس : الرفق بالناقة عند الحلب ؛
وهو أن يقال : بس بس ؛ يضرب في المداواة عند الطلب » .

(٦ - ٦) الأغاني : « فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر إلى إسحاق مستفهماً ، فأوبأ إليه ،
وعمره على معناه حتى فهم ، فقال : يا غلام ، ألف دينار » .

أخذوا في المفاوضة والحديث، وغمز^(١) عليه إسحاق بن إبراهيم، فأقبل لا يأخذ العتابي في شيء إلا عارضه إسحاق بأكثر منه، فبقى متعجباً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إيدن لي في مسألة هذا الشيخ عن اسمه، قال: نعم، سله، قال: يا شيخ، مَنْ أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس، واسمى كل بصل، قال: أما النسبة^(٢)، فعروفة، وأما الاسم فنكر، وما كل بصل من الأسماء؟ فقال له إسحاق: ما أقل^(٣) إنصافك! وما كل ثوم من الأسماء! البصل أطيب من الثوم^(٤)، فقال العتابي: لله درك! ما أحجك^(٥)! يا أمير المؤمنين، ما رأيت كالشيخ قط، أتأذن لي في صلته بما وصلني به أمير المؤمنين؟ فقد والله غلبنى! فقال المأمون: بل هذا موفر عليك؛ ونأمر له بمثله، فقال له إسحاق: أما إذا أقررت بهذه فتوهمتنى تجدتنى، فقال: والله ما أظنك إلا الشيخ الذي يتناهى^(٦) إلينا خبره من العراق؛ ويعرف بابن الموصلي! قال: أنا حيث ظننت، فأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما: أما إذ اتفقتما على الصلح والمودة، فقوموا فانصرفا متنادمين؛ فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده^(٧).

١١٦١/٣

وذُكِرَ عن محمد بن عبد الله بن جشم الربيعي أن^(٨) عُمارة بن عقيل قال: قال لي المأمون يوماً وأنا أشرب عنده: ما أحببك يا أعرابي! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ وهمتني نفسي، قال: كيف قلت: قالت مُفْدَاةٌ لَمَّا أَنْ رَأَتْ أَرَقِي وَالْهَمُّ يَعْتَادُنِي مِنْ طَيْفِهِ لَمَمٌ نَهَبَتْ مَالِكَ فِي الْأَذْنَيْنِ آصِرَةً وَفِي الْأَبَاعِدِ حَتَّى حَفَكَ الْعَلَمُ

(١) غمز عليه، أى أشار.
(٢-٣) الأغاني: «ما أقل إنصافك، أتتكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كل ثوم، وكل ثوم من الأسماء، أوليس البصل أطيب من الثوم؟»

(٤) ما أحجك، أى ما أقوى حججك. (٥) الأغاني: «تناهى».

(٦) الخبر في الأغاني ١٣: ١١١، ١١٢.

(٧) الخبر في الأغاني ٢٠: ١٨٤، ١٨٥ (سأسى)، عن محمد بن عبد الله، وصدره: «حدثني عمارة قال: رحلت إلى المأمون؛ فكان ربما قرب إلى الشيء من الشراب أشربه بين يديه، وكان يأمرني بكتيب كثير مما أقول، فقال لي يوماً: كيف قلت: قالت مفداة...؟ قال: هي امرأتى نظرت إلى وقد افتقرت، وسامت حالى، قال: فكيف قلته، فأندشته».

فاطلب إليهم ترى ما كنت من حسن تسلي إليهم فقد باتت لهم صرم^(١)
فقلت عذلك قد أكثرت لائمتي^(٢) ولم يمت حاتم هزلاً ولا هرم^{١١٦٢/٣}

فقال لي المأمون : أين رميت بنفسك إلى هرم بن سنان سيد العرب وحاتم الطائي ! فعلا كذا وفعلا كذا^(٣) ، وأقبل ينثال على بفضلهما ، قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا خير منهما ، أنا مسلم وكانا كافرين ، وأنا رجل من العرب .

وذكر عن محمد بن زكرياء بن ميمون الفرغاني ، قال : قال المأمون لمحمد بن الجهم : أنشدني ثلاثة أبيات في المديح والهجاء والمرائي ؛ ولك بكل بيت كورة ، فأنشده في المديح :

يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود^(٤)

وأنشده في الهجاء :

قُبِحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لِقبح المخبر^(٥)

وأنشده في المرائي :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر^(٦)

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان بن القاسم الكاتب ، قال : أخبرني الحسين بن الضحاك ، قال : قال لي علويته : أخبرك أنه مرّ بي مرة ما أيسر من نفسي معه لولا كرم المأمون ؛ فإنه دعا بنا ؛ فلما أخذ فيه التبيذ ؛ قال : غنوني ، فسبقني مخارق ، فاندفع فغنّي صوتاً لابن سريج في شعر جرير :

(١) الأغاني : « حرم » . (٢) الأغاني : « فقلت عاذل » .

(٣-٣) الأغاني : « قال : فظفر إلى المأمون مغضباً ، وقال : لقد علت هتك أن ترق بنفسك

إلى هرم ، وقد خرج من ماله في إصلاح قومه » .

(٤) لمسلم بن الوليد من ديوانه ١٦٤ ، من قصيدة يمدح فيها داود بن يزيد بن حاتم بن خالد

ابن المهلب ؛ وروايته فيه : « إذ أنت الضنين بها » . (٥) لمسلم ، ملحق ديوانه ٣٢١ .

(٦) لمسلم ، ملحق ديوانه ٣٢٠ .

لَمَّا تَذَكَّرْتُ بِالْدَّيْرَيْنِ أَرْقَنِي صَوْتُ الدَّجَاجِ وَضَرْبُ النَّوَاقِيسِ^(١)
فَقُلْتُ لِلرَّكْبِ إِذْ جَدَّ الْمَسِيرُ بَنَا يَا بُعْدَ يَبْرِينَ مِنْ بَابِ الْفَرَادِيسِ!

قال : فحِينَ لِي أَنْ تَغْنَيْتُ ، وَكَانَ قَدِهِمْ بِالْخُرُوجِ إِلَى دِمَشْقَ يَرِيدُ الثَّغْرَ :
الْحَيْنُ سَاقٍ إِلَى دِمَشْقَ وَمَا كَانَتْ دِمَشْقُ لِأَهْلِهَا بِلْدًا^(٢)

فَضْرَبَ بِالْقَدَحِ الْأَرْضَ ، وَقَالَ : مَا لَكَ ! عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ : يَا غَلَامُ ،
أَعْطِ مَخَارِقًا ثَلَاثَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ ؛ وَأَخِذْ بِيَدِي فَأَقِمْتُ وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ ، وَهُوَ
يَقُولُ لِلْمَعْتَصِمِ : هُوَ وَاللَّهِ آخِرُ خُرُوجِ ، وَلَا أَحْسَبُنِي أَنْ أَرَى الْعِرَاقَ أَبَدًا ،
فَكَانَ وَاللَّهِ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْعِرَاقِ عِنْدَ خُرُوجِهِ كَمَا قَالَ .

(١) ديوانه ٣٢٠ ، وفيه : « وقرع بالنواقيس » .

(٢) من أصوات الأغاني ١١ : ٣٥٨ ، وفيه : « لأهلنا بلدا » وبعده :

قَادَتْكَ نَفْسُكَ فَاسْتَعْدَتْ لَهَا وَأُرَيْتَ أَمَرَ غَوَايَةِ رَشْدًا

١١٦٤/٣

خلافة أبي إسحاق

المعتصم محمد بن هارون الرشيد

وفي هذه السنة بُويع لأبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن عبد الله المنصور بالخلافة ؛ وذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين . وذُكر أن الناس كانوا قد أشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له ^(١) في الخلافة ^(٢) ، فسلموا من ذلك .

ذُكر أن الجند شغبوا لمّا بُويع لأبي إسحاق بالخلافة ، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره ، فبايعه ثم خرج إلى الجند ، فقال : ما هذا الحبّ البارد ! قد بايعتُ عمّي ؛ وسلمت الخلافة إليه ؛ فسكن الجند .

وفيها أمر المعتصم بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه ببطّانة ، وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدّر على حمله ، وأحرق ما لم يقدر على حمله ؛ وأمر بصرف من كان المأمون أسكن ذلك ^(٣) من الناس إلى بلادهم .

وفيها انصرف المعتصم إلى بغداد ، ومعه العباس بن المأمون ، فقدمها - فيما ذكر - يوم السبت مستهل شهر رمضان .

* * *

١١٦٥/٣

وفيها دخل - فيما ذكر - جماعة كثيرة من أهل الجبال من هَمَسْدَان وأصْبَهان وماسْبِذَان ومِهْرْجَانْ قَدْزُق في دين الحرّمية ؛ وتجمّعوا ، فعسكروا في عمل هَمَسْدَان ؛ فوجّه المعتصم إليهم عساكر ؛ فكان ^(٣) آخر عسكروجه إليهم

(١-١) س : « إياه » .

(٢) ف « أسكنه من الناس ذلك » .

(٣) ف : « كان » .

عسكر وجهه مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، وعقد له على الجبال في شوال
في هذه السنة ، فشخص إليهم في ذى القعدة ، وقرئ كتابه بالفتح يوم
التروية ، وقتل ^(١) في عمل هَمْدَان ستين ألفاً ، وهرب باقيهم إلى بلاد الروم .

* * *

وحج بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد ، وضحي أهل
مكة يوم الجمعة ، وأهل بغداد يوم السبت .

* * *

تم بحمد الله الجزء الثامن من تاريخ الطبري

ويليه الجزء التاسع ، وأوله :

ذكر حوادث سنة تسع عشرة ومائتين